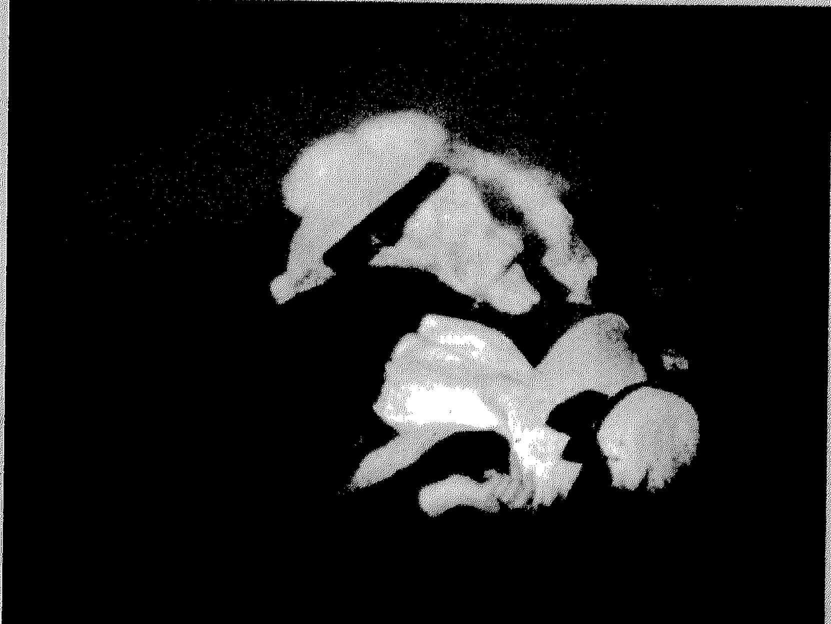
أعمال خالدة
٥



توماس مان

آل بودنبروك ١

ترجمة
محمود ابراهيم الدسوقي

مراجعة
عبد الرحمن بدوي

المدى

آل بودنبروك

٥
أعمال خالدة

Author : Thomas Mann	اسم المؤلف . توماس مان
Title : Buddenbrekers /1	عنوان الكتاب : آل بودنبروك / ١
Translator: M. Ibrhim al-Dusuki	ترجمة · محمود ابراهيم الدسوقي
Edited by: Dr. Abdel-Rahman Badawi	مراجعة : د . عبد الرحمن بدوي
Al- Mada : P. C.	الناشر . المدى
Special Edition 2000	طبعة خاصة : ٢٠٠٠
First Edition 1998	الطبعة الأولى : ١٩٦١
Copyright © Al- Mada	الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٣٣٧٦ - فاكس ٢٣٢٢٢٨٩
بيروت - لبنان صندوق بريد ٣١٨١ - ١١
فاكس . ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Al Mada . Publishing Company F K A
Damascus - Syria , P O Box : 8272 or 7366
Tel 2322275-2322276 , Fax 2322289
E- mail al- madahouse @ net sy البريد الإلكتروني

أعمال خالدة

٥

آل بودنبروك

توماس مان

(الجزء الأول)

ترجمة

محمود ابراهيم الدسوقي

مراجعة

د. عبد الرحمن بدوي

تقديم

في العقد الذي يضم ما بين سنتي ١٨٧٥و١٨٨٥ أنجب القرن التاسع عشر نخبة من الموهوبين الألمان لم يكد يسلمهم إلى القرن العشرين حتى ظهرت آثارهم ، فأحرز أحدهم جائزة نوبل في الأدب في سنة ١٩٢٩على ما ابتدعه في سنة١٩٠١ . وحاز ثان نفس الجائزة في سنة ١٩٤٦ . فأما الأول فتوماس مان . وكان وكده في القصة وكد بقية هؤلاء الموهوبين . أن ينشىء وسائل الواقعية والانطباعية أمام عالم كان الإحساس باهتزازه في الظاهر و الباطن يزداد على مرّ الأيام ، ويشتد إلحافه في مطالبة الإنسان بالتنبه لكيانه ومآله على الدوام .

والقصة منذ كتب بلزاك كوميدياه الإنسانية تعكس مشاكل المجتمع الحضري وتطوره ، وترسم كيف يتحرر الإنسان من كل الأوهام ، وكيف يتبين الخطر السياسي والاجتماعي مهدداً أساس حياته ، وكيف يساوره التشكك في وجود الخالق ، ثم كيف هو مع ذلك يعني أكبر عناية بالقيم الإنسانية والدينية على السواء .

وقصة آل بودنبروك معرض للفن . وتمر فى معرض الفن بمختلف الصور فتعبر بعضها عبوراً ، وتقف ببعضها طويلاً مبدوها . وقد تستبتع فبما تنهد جميلاً أو تستحلي بتعاً لما في الجميل والبشع من معانٍ تمت إلى الخير والشر . وهذه الانطباعات ينفعل بها الخبير الملم . وهي ترجع في الغالب إلى مبلغ ما في الصورة من صدق الأداء وأمانة الرسام ودقته وصرامته وانفعاله الأصيل بما صور أو ماتصور . وقد يكون ثمة قبيح لكنه حقيقي ، أو جميل لكنه كاذب . وقد تعكس الصورة منظر جريمة فيكون في صدق الأداء جمال لايشوهه قبح الجريمة . ومن هنا التفريق بين الواقع ورسم الواقع ، بين بشاعة الواقع وجمال الأداء تمثيلا ورسما . فالفن جميل حقا مهما أوحت صوره ، والمستحدث من

الرسم الهزلي والمحاكاة الهزلية . فعلى قدر ما يصحبه من عناصر الصدق يكون جماله . والتسميع والتشهير والتشنيع إذا دخل الفن كف عن أن يكون فناً ، لأنه يكف عن أن يكون حقيقة ، ومن ثم عن أن يكون فنا جميلا ؛ وليكن الرسام في هذا موهوبا ، وليكن الكاتب عبقرياً ، وليكن الأسلوب أخاذا ، فإن ماتعرضه الصورة يكون قبيحاً ، ولايستسيغ القبيح الا مريض .

وقصة آل بودنبروك تعالج موضوعات خالطت حياة توماس مان وتصف تداعي الطبقة الوسطى ، ورهافة حس فنانها الذي أقعده هذا الحس المرهف عن مجابهة الحياة لما تبينه من تنافر الحياة والفكر ومااتسما به من انقسام . وتوماس مان حين يحكي يصدق ، وحين يكتب يلطف ويسهب في يسر ، ويتهكم تهكما لذيذا ينساب في كتابته ويمتع قارئه ، فهو مجتمع في «آل بودنبروك» بأكمله ، متفتح لفن اللغة يغمرها بألمعيته في التحليل النفسي ويشيع فيها رصانته ويميزها بأمانته ودقته في نقل الايقاع وعرض السلوك .

وأسلوب توماس مان وتأليفه في رأي الأدب العالمي والأدب الألماني ، في رأي إروين لاتس Erwin Latths مؤلف «تاريخ الأدب العالمي»لناشره كناور Knauer وفي رأي ف . جرابرت W.Grabert وا . مولو A.Mulot ، مؤلفي «تاريخ الأدب الألماني» قد بلغا ذروة الكمال الفني في قصة «آل بودنبروك» ، إذ جاوزت القصة محيطها الألماني إلى المحيط الأوربي ، وعادت في وقت مبكر وزهرة عمر لايتجاوز السادسة والعشرين بجائزة نوبل . وهو في هذه القصة يكاد يلتزم في تشكيل شخصياته وبيئاتهم نماذج بعينها كل الالتزام ، وهو تشكيل لم يتكرر في غير هذه القصة بهذه اللقانة وهذه الزخرة في الحياة . ومعظم الكتاب يلتزمون مادة واحدة يقصرون عليها رسالتهم بوصفهم القديرين وحدهم على أدائها ، لكن توماس مان قد تعددت مواده وتعددت جوانبه ، ولابست أعماله انطباعات ذهنية مقررة ترجع إلى جوته وفاجنر وشوبنهاور ونيتشه .

* * *

ولد توماس مان في سنة ١٨٧٥ في أسرة من أسر الخاصة بمدينة لوبيك ، وعاش كاتباً حراً في ميونيخ . فلما تولى النازيون حكم ألمانيا في سنة ١٩٣٣ هجر بلاده إلى سويسره ، ثم عَنّ له أن يهاجرإلى الولايات المتحدة الأمريكية في سنة ١٩٣٩ فأقام فيها إلى سنة ١٩٥٢ بولاية كاليفورنيا ، ثم عاد إلى سويسره وبقي فيها إلى أن وافاه الأجل في سنة ١٩٥٥ . وقد حصل فوق جائزة نوبل على جائزة جوته في سنة ١٩٤٩ .

ولتوماس مان قصص كبرى وصغرى ، ومن قصصه الكبرى القصة التي نقدم لها الآن . والسنة التي هاجر فيها من ألمانيا وهي سنة ١٩٣٣ تقسم أعماله إلى قسمين ، وتجعل منها مرحلتين . الأولى تضم «آل بودنبروك» و «صاحب السمو الملكي» و«طونيو كروجر» «والموت في البندقية» ثم «جبل السحر» . أما بعد سنة ١٩٣٣ فجاءت «قصص يوسف» «ولوته في ڤايمر» و «الدكتور فاوستوس» و «المختار» و «فيلكس كرول» . وفي «آل بودنبروك» التي نشرها توماس مان في سنة ١٩٠١يصف مان تداعي أسرة من أسر التجار في لوبيك ضمت أربعة أجيال ، أولها متأصل في القرن الثامن عشر ، يعيش في جو روكوكي[١] مستنير ، حر الفكر ، والثاني جيل من الأماجد يتحلى بالتقوى وباستعداد للتجارة ؛ والثالث جيل السناتور توماس بودنبروك المتأثر بشوبنهور وبرأيه القائل بأن الحياة ألم ، وإلى جانب السناتور أخوه كريستيان البوهيمي النزعة والسلوك . وفي النهاية جيل الفتى هانو بن توماس ، ذلك الغلام الرقيق الذي فارق الدنيا مبكراً ، وانقلبت عنده إرادة الحياة عجزاً مضنياً عن الدفاع عن النفس وفي وقت كان فيه ذهنه يلطف ويسمو بالموسيقى والفن .

ويلي «آل بودنبروك» في جلال الشأن قصة «جبل السحر» التي أحرز بها شهرة عالمية ، وأحس فيها عصره مريضاً ، والحضارة منحلة في حياة صورية طيفية ، والناس يفقدون ماننعته نحن بالقيمة الإنسانية ، فأراد أن يسجل بقصته وثيقة بحالة أوربا النفسية ومشاكلها الفكرية في الثلث الأول من القرن العشرين .

وفي قصتي «طونيو كروجر» و «الموت في البندقية» ـ وقد كتبهما قبيل الحرب العالمية ـ يبدو التوتر بين الفنان والحضري رجل الطبقة الوسطى ، بين الفكر والحياة . ومن أمارات العبقري أن تهفو نفسه إلى دفء الدم في الوجود البسيط في الوحدة والتخلي عن الاشتراك المباشر في الحياة . يواتي بهما موهبته الفنانة ، المُلاحِظة ، الحساسة ، فهو يقول في «طونيو كروجر» إن العادي والقويم والخفي هو ماتنشده النفس في الحياة و تهفو إليه ، فهذه هي الحياة في رخصها المغري ، وإنه ليس بفنان من لايعرف الشوق إلى ماهو مأمون الجانب ، عديم الأذى ، بسيط ، حي ، ومن لاينشد القليل من الصداقة ، والتفاني ، والعلاقة الحميمة ، والهناء الإنساني . لكن الأمر لايصل مع توماس مان إلى تسوية ، لأن هذا الشوق يصاحبه في نفس الوقت ازدراء خفي لهناءات الشيء العادي ،

---

(١) الروكوكو طراز معماري نشأ في القرن الثامن عشر وتميز بطغيان الزخرفة على الفكرة المعمارية والإسراف في المنحنيات والتعال الأطر من حول النوافذ والأبواب .

للمقدرة الرخيصة على الحياة ، وهكذا يشعر الفنان برسالته مزيجا من العظمة فيبقى حضرياً ضالا .

ويتابع توماس مان في شيخوخته ما بدأه في غيرها من مراحل عمره ويحوره ، لكن تحليله لتداعي الطبقة الحضرية ، الطبقة الوسطى ، ونقده للحضارة ، وسيكولجية الوجود الفني يصبح في ذلك الحين صورة سامقة في إطار كبير . وليس معنى ذلك فحسب أن تزخرأعمال توماس مان التالية بمعرفةعامة ، بل أن يتساءل أيضاً عن القوى الأساسية والأحوال الأصلية للأخلاق والدين . وقد جعلت أوهامه تتبدد ، وانقشع ارتيابه في أن أساس العالم من عمل الشيطان . وقدكان ما تكشف له في الصميم هو أن الحياة غامضة ، والحي متناقض . أمر أبدى فيه توماس مان فراهة لغوية عديمة المثال فيما كتب الألمان في الوقت الحاضر .

وساقته قصة «يوسف وإخوته» إلى حيث تتجلى أصول الأحداث في حياة الإنسان من حب وبغض ، وبركة ولعنة ، وشقاق بين الإخوة ، وعذاب الأب ، وغطرسة وكفارة ، وهبوط وصعود . فهو يفسر تاريخ العقيدة الحضاري بالتاريخ الطبيعي للإنسان ، ويفسر الأساطير بمقررات السيكولوجية الحديثة ، وهو يهبط بنا من سحاب الأسطورة إلى الحقيقي المعقول في الحياة .

وهكذا يعالج توماس مان في كل سفر من أسفاره مادة وموضوعاً ، وتتعدد بهذه المعالجات جوانبه حتى يصل إلى جوته العظيم فلا يبديه لنا في تجليه السني ، وكماله الإنساني ، بل يحوطه بريب يسلط عليها أضواء تهكمه لتبدو أكثر مواتاة للحقيقة منها لما بلغ جوته من سمو .

ولعله من المفيد أن نورد موقف توماس مان في علم الأخلاق وعلم الجمال . فهو يمثل الخلاف بين البورجوازي والفنان . وقد لبث دائما معلقا بين الاثنين ، توازنه إرادته لمزاولة الفن بوصفه الصورة المثلى لمزاولة الحياة . وقد وسّع شقة هذا الخلاف شغفه بتحري الصلات بين المرض والعبقرية فأسرف في هذا التقصي ثم لم يلبث أن اطرحه . وقد اتخذ هذا الخلاف بين الحضري والفنان صورة الخجل الذي تمليه الأخلاق ، وعدم الخجل الذي يجيزه الجمال . ولكي يسوي توماس مان هذا الخلاف لجأ إلى المحاكاة الهزلية التي تكون في الحالات الناجحة فكاهة لكنها تكون أحيانا تجديفا .

* * *

وبعد فهذه لمحة عن توماس مان قبسناها من مصادرها ، ورجعنا فيها إلى رأي مواطنيه ومؤرخيه أكثر مما رجعنا إلى رأينا الشخصي . ولانحب أن نزيد عليها الا كلمة واحدة ، فقد يعني القارئ أن يعلم أن أسلوب توماس مان على جماله ، عزيز على الترجمة عزة منيعة ، وأن هذه الترجمة التي نضعها بين يدي القارئ اقتضت الكثير مما نشير إليه ولانذكره . فتوماس مان وصّافة دقيق ، ورسام ورشيق . فلعل نقله إلى العربية في هذا الكتاب لايكون فحسب جهد المقل ، بل غاية الجهد ، فإذا قصر مع ذلك فللناقل مما ذكرنا العذر ، وما التوفيق إلا بالله .

القاهرة في العشرين من يونيه ١٩٦١

محمود ابراهيم الدسوقى

الجزء الأول

الفصل الأول

« ماهذا ـ ما ـ هذا ... »

« أجل هذه هي المعضلة ، هذا هو السؤال ، ياآنستي العزيزة جدا ! »

وألقت زوجة القنصل بودنبروك نظرة على زوجها ، وكان جالسا في حضرتها على كرسي ساند ، وكانت هي جالسة الى جانب حماتها على الأريكة المستقيمة ، المدهونة باللاكيه الأبيض ، المزدانة برأس أسد مذهب والمكسوة بقماش أصفر فاقع ، فبادرت الى نجدة ابنتها الصغيرة التي كان الجد يُجلسها على ركبته بجانب النافذة .

قالت : « توني ! أومن بأن اللّه ... »

وكانت الصغيرة أنتونيا وهي في الثامنة من عمرها ، رقيقة التكوين ، ترتدي ثوبا من الحرير الهفهاف المتلون ، قد حولت رأسها الأشقر المليح عن وجه جدها شيئا ما ،وحدقت بعينيها الزرقاوين الشهباوين في داخل الحجرة جاهدة تفكر دون أن ترى شيئا بعينه ، فأعادت مرة أخرى قولها : « ما هذا » ، ثم قالت على الأثر متمهلة :« أومن بأن اللّه ... » ثم أردفتها في عجلة وقد تهلل وجهها بقولها :« خلقني والمخلوقات جميعا » وكأنها انطلقت فجأة فوق أرض زلقة ، فكرت المقال كله مغتبطة لاتلوي على شيء ، أمينة على ماجاء في كتاب متن التعاليم المسيحية Katechismus[1] بطبيعته المنشورة من أمد وجيز في عام ٨٣٥ ، منقحة ومصدقا عليها من مجلس شيوخ سام حكيم وفكرت في أن المرء وهو منطلق يخيل اليه أنه في الشتاء منزلق فوق زحافة يدوية صغيرة مع اخوته من فوق « جبل أورشليم » تجري أفكاره من دون أن يملك لها كبحا ولو أراد .

(١) كتاب يتألف من أسئلة وأجوبة تتعلق بتعاليم الديانة المسيحية ويبدأ به عادة تعاليم الدين .

فقالت : « وحبانا بالثياب والأحذية ، وبالأكل والشرب ، وبالبيت والفناء ، وبالزوجة والولد ، وبالحقل والماشية ، فانفجر الشيخ م . يوهان بودنبروك عند هذه الكلمات مقهقها ، ضاحكا ضحكته المحتبسة الرائقة التي كان يستعد لها خفية . كان يضحك مسروراً بأنه استطاع السخرية من كتاب أصول الدين . وكان يجري هذا الامتحان الصغير لهذا الغرض وحده ، فاستفسر توني عن حقلها وماشيتها ، وسألها كم تأخذ في عدل القمح ، وعرض عليها أن يتجر معها . وكان وجهه المستدير الذي كأنّما نفخ الورد فيه والذي ينم عن حسن قصد ، ولم يقو أن يكسبه تعبيراً ما خبيثاً ولو شاء ـ كان هذا الوجه يحف به شعر مرشوش أبيض ناصع ، يتدلى منه شيء كالضفيرة ولا ضفيرة ، على بنيقة سترته الفيرانية العريضة ، وكان بسنيّه السبعين حفيظاً على الشهرة في عهد صباه ، لم ينزل إلا عن الزركشة التي كانت تزيّن مابين الأزرار وجيوبه الكبيرة ، لكنه لم يرتد قط في حياته سراويل طويلة ، وكان ذقنه مستقراً فوق حلية الدانتلا البيضاء التي تزيّن صدره ، عريضاً مزدوجاً يعبّر عن الرضى .

وقد صاحبه الجميع في ضحكة على سبيل التبجيل في الغالب لرب الأسرة الأكبر . وكانت مدام انطوانيت بودنبروك المولودة باسم دوشان ، تضحك تلك الضحكة الخفيّة على نحو ما كان يضحك زوجها . وكانت سيدة بدينة تغطي أذنيها خصل غزيرة بيضاء ، وعليها ثوب أسود مخطط برمادي فاتح ، عاطل من الزينة ، ينم عن البساطة والتواضع ، ماتزال يداها جميلتين بيضاوين تحتويان في حجرها كيساً شبكياً صغيراً من المخمل ، وقد باتت ملامح وجهها على مر الأيام شبيهة من عجب بملامح زوجها ، فليس سوى خرطة عينيها وسوادهما مايتحدّث قليلاً عن أصلها نصف الروماني ، فهي تنحدر من ناحية جدها من أسرة فرنسية سويسرية ، ومولدها في هامبورغ .

وكانت كنّتها زوجة القنصل ، اليصابات بودنبروك من أسرة كروجر ، تضحك الضحكة الكروجرية التي كانت تبدأ بصوت مرتفع من الشفتين ، تضغط فيه الذقن على الصدر . كانت كالكافة من آل كروجر ظاهرة جد أنيقة ، فإذا لم تكن الى ذلك من ربّات الجمال فقد كانت تزود الناس جميعاً بشعور من الصفاء والثقة ، بصوتها الرائق الرصين وحركاتها الهادئة الأكيدة الوادعة . وكان يوائم شعرها الضارب الى الحمرة الملوى على رأسها تاجاً صغيراً ، والمعقوص فوق أذنيها خصلاً عريضة مصطنعة ، بشرة بيضاء فيها رقة وعليها نمشات صغيرة . والمميّز في وجهها ذي الأنف الزائد بعض الشيء في الطول ، والفم الصغير ، إنه لم يكن بين شفتها السفلى وذقنها تجويفة إطلاقاً . وصدريتها القصيرة ، بكمّيها المنتفخين ،

التي تتّصل بها تنورة ضيقة من الحرير العبق الزاهي بأزهاره تكشف عن جيد كامل الحسن يزيّنه طوق من الأطلس تتلألأ فيه تصفيفة من الماس الكبير .

وانحنى القنصل في كرسيه الى الأمام بحركة عصبية بعض الشيء ، وكان يرتدي سترة بلون القرفة ذات قلابات عريضة وأكمام كالهراوة لاتصل الى ماتحت المرفق حتى تأخذ في الإنطباق حول اليد . وكانت سراويل الركبة المرفقة تتألف من قماش أبيض مما يغسل ، مزوّدة من الجانبين الخارجيّين بشرائط سوداء ، ومن حول بنيقة القميص العالية المنشاة التي تلتصق بها ذقنه كانت تلتف ربطة رقبته الحريرية وتملأ فتحة صدريّته الملوّنة كلها منتفخة عريضة .

وكانت له عينا أبيه الغائرتان الزرقاوان اليقظتان ، ولعل تعبيرهما كان أيضاً أكثر إمعاناً في الأحلام . بيد أن سيماءه كانت أكثر جداً وحدّة ، وكان أنفه مقوّساً بارزاً بروزاً قوياً ، وخدّاه اللذان يجري الى وسطهما خطّان شقراوان خصلان أقل امتلاء من خدي الشيخ .

والتفتت مدام بودنبروك الى كنّتها ، وضغطت ذراعها بإحدى يديها ، وخفضت بصرها وهي تضحك خفية وقالت :

«دائماً هو ، لايتغيّر هذا الشيخ يابتسي» .

فهددتها القنصلة بيدها الرقيقة في صمت حتى رنّ سوارها الذهبي رنيناً خافتاً ثمّ أتت بحركة من يدها هي من لازماتها ، تبدأ عند زاوية فمها وتمتد الى أعلى عند تسريحتها كأنّما ترد شعرة زلت وضلت الطريق الى هناك .

بيد أن القنصل قال وفي صوته وقع المتغاضي المبتسم ، ورنة اللائم : «لكن يا أبي ، إنّك تعود الى التندّر بأقدس شيء!...»

كانوا يجلسون في «حجرة المناظر الطبيعية» في الطبقة الأولى من منزل قديم فسيح واقع في شارع منج كان بيت يوهان بودنبروك التجاري قد اشتراه من زمن ما ولم تكن الأسرة قد سكنته طويلاً بعد . وكانت حيطانه مفروشة بفرش متينة لينة يفصلها عنها فراغ ، وتبدي مناظر طبيعية كثيرة رقيقة الألوان كالطنفسة الرفيعة التي تغطّي أرض الحجرة ، وكأنها تعبر عن أغان ممّا يتغنى به الرعاة ، تنم عن ذوق القرن الثامن عشر ويتبدى فوقها زراع الكرم الفرحون والفلاحون الجادون ، والراعيات اللواتي تحلي ثيابهن الشرائط البديعة ويحتوين الخراف النظيفة في جحورهن على حافة الماء العاكس ، أو يتبادلن القبل مع رعاة رقاق... وكان يغلب على هذه الصور غروب ذهبي

تنسجم معه الكسوة الصفراء التي يكتسي بها الأثاث المدهون بالأبيض وستائر الحرير الأصفر المسدلة على النافذتين .

ولم تكن قطع الأثاث عديدة بالنسبة لحجم الحجرة ، ولم تكن المائدة المستديرة ذات الأرجل الدقيقة المستقيمة المموّهة بالذهب تمويهاً خفيفاً قائمة أمام الأريكة بل الى الحائط المقابل تجاه معزفة الهارمونيوم الصغيرة الموضوع على غطائها صندوق ناي . وهناك عدا المقاعد السائدة الجامدة الموزعة بانتظام على الجدران كانت منضدة صغيرة للخياطة مسندة الى النافذة ، وقبالة الأريكة مكتب فاخر متداع مغطى بالتحف .

وكان الناظر يرى من خلال باب زجاجي مقابل للنافذتين بهو أعمدة يشتمله ضوء خاب . بينما كان عن شمال الداخل باب أبيض عال ذو مصراعين يؤدي الى قاعة الأكل . لكنه في الجدار الآخر كان الموقد يطقطق خلف سياج من الحديد المطروق اللامع ، مفرغاً حافلاً بالفن في حنية نصف دائرية . ذلك أن الجو كان قد برد قبل الأوان . فكان ورق شجر الزيزفون المحيط بفناء كنيسة مريم في الجانب الآخر من الشارع مصفراً من الآن من منتصف اكتوبر . ومن حول الأركان والزوايا القوطية القوية كانت الريح تصفر والمطر يتساقط رذاذاً فأوصدوا النوافذ المزدوجة مراعاة لمدام بودنبروك الكبرى .

وكان اليوم يوم خميس اعتادت الأسرة أن تجتمع فيه مرة كل اسبوعين . لكنهم اليوم كانوا قد دعوا الى تناول طعام الغداء بضعة من أصدقاء الأسرة الحميمين مع أعضائها المقيمين في المدينة ، فكانوا يجلسون حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر في الشفق الهابط ينتظرون الضيوف .

وكانت أنطونيا الصغيرة مسترسلة لاتدع الجد يعتاقها في انزلاقها ، وكل ما هنالك أنها مدّت شفتها العليا فوق السفلى الى أبعد من مألوفها وكانت دائماً تمدها بعض الشيء ، وأنها كانت تقطّب وجهها . فالآن قد وصلت إلى سفح « جبل اورشليم » لكنها وقد عجزت عن ضبط نفسها بغتة تجاوزت في انطلاقها الهدف هونا ما .

قالت : « آمين! إني ياجدّي أعرف شيئاً » .

فصاح الشيخ : « انظروا إنها تعرف شيئاً! » وتظاهر بأنه يتحرّق شوقاً وتطلعاً الى هذا الشيء . ثمّ استطرد : « أسمعت ياماما ؟ إنها تعرف شيئاً . أفيستطيع أحد اذن أن يقوله لي... »

فتكلّمت توني وهي تهزّ رأسها مع كل كلمة : « إذا أرعدت السماء ارعاداً دافئاً خطف البرق وإذا أرعدت إرعاداً بارداً قصف الرعد » .

وشبكت ذراعيها على الأثر ، ونظرت في الوجوه الضاحكة . شأن المطمئن الى نجاحه . ولكن السيد بودنبروك غضب من هذا القول وأصرّ على أن يعرف من ذا الذي علم الطفلة هذه الجهالة . ولما اتضح أن ايدا يونجمان ، الآنسة التي استخدمت حديثاً لحماية الصغار والقادمة من مارينفردر هي التي فعلت ذلك اضطر القنصل الى حماية ايدا .

قال : «انك أشد قسوة ممّا ينبغي ياأبي . لم لايجوز للمرء في هذه السن أن يكون له تصوّراته العجيبة لمثل هذه الأشياء »...

وجلية الأمر أن الشيخ لم يعتد أن يذكر ايدا يونجمان بخير . ولم يكن هذا منه ضيق ذهن ، فقد شاهدا جزءاً من العالم ، وسافر في سنة ١٨١٣ الى جنوب ألمانيا في مركبة تجرّها أربعة جياد ليتسوّق غلالاً لبروسيا بوصفه مورداً للجيش ، وزار أمستردام وباريس . ولم يعتد في الحق ، وهو الرجل المستنير ، أن ينتقد كل مايشاهده خارج مدينة آبائه ذات الأسطح الهرمية . لكنه إذا غضضنا الطرف عن المعاملات التجارية كان من الناحية الاجتماعية أميل من ابنه القنصل الى رسم الحدود الدقيقة والصدوف عن الأجانب . فلمّا أتى أولاده يوماً بهذه الفتاة الشابة ـ وهي الآن في العشرين من عمرها ـ لما أتوا بها الى البيت كما لو كان المسيح الطفل في عودتهم من رحلة الى غرب بروسيا ، يتيمة وابنة صاحب نزل مات قبيل وصول آل بودنبروك الى مارينفردر كان للقنصل من جراء هذا الصنع الدال على التقوى والصلاح مشهد مع أبيه كان الشيخ يتكلّم في أثنائه بالفرنسية والألمانية العامية وحدهما... وفي ما خلا ذلك أثبتت ايدا يونجمان حذقها فى إدارة البيت ومعاملتها للأطفال وصلاحيتها التامة لمركزها بما كانت تبديه من ولاء وفهم للتقاليد البروسية في مراعاة المقامات . فقد كانت مبادىء ارستقراطية تفرق بين طبقات الدرجة الأولى والثانية ، بين طبقة وسطى وأخرى أقل منها . وكانت فخوراً بوصفها خادماً بأن تنتمي الى الطبقة الأولى ، ولم ترض على سبيل المثال أن تصادق توني في المدرسة رفيقة تنتمي في رأي الآنسة يونجمان الى الطبقة الوسطى ولو كانت راقية...

في هذه اللحظة ظهرت نفس هذه البروسية في بهو الأعمدة ودخلت من الباب الزجاجي ، فإذا هي فتاة فارعة تقريباً ، متينة البنية في ثوب أسود وشعر مرجل ولها محيا ينم عن الاستقامة . وكانت تقود كلوتيلده من يدها ، وهي طفلة هزيلة شديدة الهزال ، ترتدي فستاناً قطنياً محلى بالأزهار ذات شعر رمادي لا لمعان فيه ، ووجه يشبه وجوه العوانس . وكانت الطفلة تنتمي الى فرع للأسرة رقيق الحال ، أبوها ابن أخ لبودنبروك

الكبير يعمل في رستوك مفتش ضيعة ، وكانت تربى في البيت لأنها من لدات أنتونيا ومخلوقة مطيعة .

قالت الآنسة يونجمان : « كل شيء معدّ » اختنق حرف بعينه في حلقها لأنها لم تكن من الأصل تستطيع نطقه . ثمّ استطردت تقول : «وقد عاونت كلوتيده في المطبخ بنشاط فلم تكن «ترينا » بحاجة تقريباً الى أن تعمل شيئاً » .

فتهلّل وجه السيد بودنبروك في يا بوطه ساخراً من نطق ايدا الغريب لكن القنصل ربت على خد ابنة عمه الصغيرة وقال «لقد أحسنت ياتيلده . يقولون صلي واعملي ، فيجب أن تقتدي طفلتنا بك فهي تسرف في الكسل والكبر... » .

فأطرقت توني برأسها ، ورفعت بصرها الى جدها ، ذلك أنها تعلم جيداً أنه سيدافع عنها كالعادة .

فقال : « كلا ، كلا . ارفعي رأسك ياتوني! تشجّعي! إن الشيء الواحد لايصلح لكل شيء . وكل لما خلق له . وتيلده صالحة ، لكنا أيضاً لانزدري ، فهل أتكلّم كلاماً معقولاً يابتسي ؟ » .

والتفت الى كنّته التي اعتادت أن تجاريه ، بينما كانت مدام أنطوانيت تناصر القنصل غالباً عن حكمة أكثر ماتفعل عن اقتناع ، وهكذا يمد الجيلان أيديهما أحدهما الى الآخر في رقصة المتابعة والتعامد .

فقالت زوجة القنصل : « إنّك طيب جداً ياأبي . إنتوني ستعنى بأن تصبح سيدة عاقلة حاذقة» . وسألت ايدا : «هل أتى الأطفال من المدرسة ؟ » .

بيد أن توني التي كانت تستطلع من مجلسها على ركبة جدها من خلال النافذة ، صاحت تقريباً في الوقت نفسه :

«توم وكويستيان قادمان من شارع يوهانيسشتراسة... والسيد هوفشتيده وعمي الدكتور»...

وكان ناقوس كنيسة السيدة مريم يدق : بانج! بنج... بنج... بونج! دقاً عديم المعنى تقريباً حتى لكأن يتعذّر إدراك ماهنالك . لكن دق الناقوس كان في الحقيقة رهيباً . وبينما كان الجرس الصغير والناقوس الكبير يقصان في بهجة ووقار أنها الرابعة رن أيضاً جرس باب الصفة صاراً نافذاً من الرحبة الكبرى يعلن حقاً مقدم توم وكريستيان مع أول ضيفين وهما جان جاك هوفشتيده الشاعر والدكتور جرابو طبيب الاسرة .

الفصل الثاني

لم يكن السيد جان جاك هوفشتيده شاعر المدينة الذي لابدّ أن كان في جيبه بضعة أبيات أيضاً ـ أصغر كثيراً من يوهان بودنبرك الأكبر . وإذا صرفنا النظر عن لون سترته الأخضر فقد كان لباسه يبدي نفس ذوق صديقه القديم ، لكنه كان أنحف منه وأكثر حركة ، ولم تكن له عيناه الصغيرتان الخضراوان اليقظتان ولا أنفه الحاد الطويل .

وهزّ أيدي الرجال وقدم للسيدات ـ وخاصة لزوجة القنصل التي كان يبجلها تبجيلاً ملحوظاً ـ بضعاً من خير تحيّاته التي لم تعد ممّا يؤدّيه الجيل الجديد بحال . وكانت مصحوبة بابتسام هادىء لطيف ناطق بالإمتنان ، ثمّ قال : «شكراً جزيلاً على تلطّفكم بدعوتي سيداتي وسادتي . إن هذين الفتيين ، ـ وأشار الى توم وكريستيان اللذين كانا واقفين بجانبه في سترتيهما الزرقاوين متمنطقين بحزام من الجلد ـ قد قابلناهما الدكتور وأنا في كونجر شتراسه ، إذ كانا آتيين من المدرسة . إنهما فتيان رائعان ياسيدتي! إن توماس رأس جاد رصين فلا بدّ أن يصبح تاجراً ، مافي ذلك من شك ، على حين يبدو كريستيان قطعة من الشيطان أليس كذلك ؟ يبدو مغرضاً مدهشاً بعض الشيء... غير أني لاأخفي محاباتي إياه ، فسيدرس فيما أرى ، إنه فكه وذكي »...

وقبس السيد بودنبروك من حُق سعوطه الذهبي قائلاً : « إنه لقرد! ألا ينتظر أن يصبح من توه شاعراً ياهوفشتيده ؟ » .

وضمت الآنسة يونجمان ستائر النوافذ فسرعان ما احتوى الحجرة ضوء الشموع من ثريا البلّور والشمعدانات القائمة على الكتب ، ذلك الضوء القلق شيئاً ما ، الكتوم المواتي مع ذلك .

وقالت زوجة القنصل التي كان شعرها يلمع ذهبه : «والآن ياكريستيان! ماذا تعلّمت بعد ظهر اليوم ؟» فظهر أنه تلقى كتابة وحساباً وغناء .

وكان غلاماً في السابعة من عمره يشبه من الآن أباه شبهاً يكاد يكون مضحكاً . فله نفس العينين الصغيرتين تقريباً ، المستديرتين ، الغائرتين ، ونفس الأنف الشديد البروز المقوّس بين فيه . وتحت عظمتي الخدين تدل بضعة خطوط على أن تكوين الوجه لن يحتفظ دائماً بذلك الإمتلاء الذي يلازم الأطفال في سنه .

وجعل يثرثر : «لقد ضحكنا كثيراً» بينما كانت عينه تجولان في الحجرة من الواحد الى الآخر «انتبهوا الى ماقاله السيد شتنجل لسيجموند موسترمان» وانكبّ الى الأمام وأخذ يهزّ رأسه ويقذف الهواء بألفاظه : «ظاهراً ياولدي الطيب ، ظاهراً أنت أملس ، نظيف ، أجل ، لكن باطناً ياولدي الطيب أنت أسود...» قال هذا وهو يغفل من «أسود» حرفاً ، وينطقها على هذا الإغفال . قالها وهو يبدي وجهاً يرتسم فيه السخط على هذه الملاسة والنظافة «الظاهرية» ، مصحوباً بهزل بلغ من إقناعه أن كل من هنالك أغرب في الضحك .

وكرّر الشيخ بودنبروك قوله : «إنه لقرد» ضاحكاً ضحكته الخفية . لكن السيد هوفشتيده استخفّته الغبطة فصاح : «بديع! لاييارى! يجب أن يكون المرء عارفاً بمرسيلوس شتنجل! فهو هذا بالضبط! بل إن هذا أمتع!» .

أمّا توماس الذي كانت تنقصه مثل هذه الموهبة فكان واقفاً بجانب أخيه الأصغر يضحك من القلب ولايداخله حسد . ولم تكن أسنانه جميلة بشكل ملحوظ ، بل كانت صغيرة مصفرّة . غير أنه كان بديع التكوّن يلفت النظر ، وكان يشبه بعينيه ومحياه جده شبهاً كبيراً .

لقد اتّخذ البعض مجالسهم على المقاعد والأريكة يتحدّثون الى الأطفال وعن البرد المبكّر وعن البيت . . . وأعجبت السيد هوفشتيده على المكتب محبرة فاخرة من بورسيلين سيفر على صورة كلب صيد منقّط بالأسود . بيد أن الدكتور جرابو ، وهو رجل في عمر القنصل كان يبتسم وبين لحيته العارضية وجه مستطيل ، طيب ، وادع ، ويتأمّل الفطائر وخبز كورينث وملاحات مليئة مختلفة قد وضعت للعرض على المائدة . وكان هذا وذاك هو «الملح والخبز» الذي أرسله إلى الأسرة الأقارب والأصدقاء بمناسبة تغيير المسكن . وإذ كان المراد أن ترى الأسرة أن الهدية لم تأت من بيوت رقيقة الحال كان الخبز مكوّناً من فطائر حلوة ، متوبلة ثقيلة ، وكان الملح في أوعية من الذهب الثقيل .

وقال الدكتور وهو يشير الى الحلوى وينهي عنها الأطفال : «سيكون عليّ ما أؤدّيه» . ثمّ رفع وعاءً متيناً فيه ملح وفلفل وخردل .

فقال السيد بودنبروك وهو يبتسم : «من ليبرشت كروجر ، دائماً جوّاد هذا السيد العزيز قريبي . إنّي لم أهد اليه مثيله لمّا ابتنى بيتاً له أمام «باب القصر» . لكنه هكذا دائماً... نبيل جيد! فارس حسن الهندام»...

وكان الجرس قد جلجل في البيت كله عدة مرات ، إذ وصل القسيس ثوندرليش . وكان سيداً مسنّاً قصير القامة ، بديناً ، يرتدي سترة طويلة سوداء ، مبدر الشعر ، أبيض الوجه ، فكهاً ، رصيناً ، تبرق عيناه الرماديّتان مبتهجتين . كان أرملَ من عدة سنين ، يعتد نفسه من أعازب الزمن البائد مثل السمسار الطويل القامة السيد جريتينز الذي جاء معه وكان يحتفظ على الدوام بإحدى يديه النحيلتين أمام عينيه كأنها تلسكوب وكأنه يفحص لوحة . وقد كان خبيراً بالفن معترفاً به من الجميع .

وجاء كذلك السناتور الدكتور لانجهالز وزوجه وكانا صديقين للبيت من قديم . ولاننس تاجر النبيذ كوبن بوجهه الضخم المحتقن يستقر بين كتفي كمين مرتفعين ، ولا زوجته البدينة جداً .

وكانت الساعة قد جاوزت منتصف الخامسة بالفعل لما قدمت أخيراً أسرة كروجر الكبار منهم والصغار : القنصل كروجر وزوجه وولداهما يعقوب ويورجن ، وكانا في سن توم وكريستيان . وجاء أيضاً في الوقت نفسه مع هؤلاء والدا زوجة القنصل كروجر وتاجر الخشب الكبير أوفردريك وزوجه وكانا زوجين مسنّين رقيقين ، اعتادا أن يتناديا على مسمع من كل الآذان كما يتنادى عروسان ويتلاطفان بأحب الأسماء .

وقال القنصل بودنبروك : «الوجهاء يأتون آخراً» وقبّل يد حماته .

وحرّك يوهان بودنبروك ذراعه حركة بعيدة فوق رؤوس أقاربه ليهز يد كروجر الكبير قائلاً : «وأيضاً بالهمة نفسها» .

وليبرشت كروجر الفارس الحسن الهندام ظاهرة فذة ممتازة لايزال يرش شعره بالقليل من المسحوق ، لكنه يلبس على الطراز الحديث . وكان في صدريّته المخملية صفّان من الأزرار مرصّعة بالحجارة الكريمة . وكان ابنه يوستوس بلحيته العارضية الخفيفة وشاربه المفتول يشبه في شكله ومسلكه أباه شبهاً قوياً ، كذلك كان يملك تحريك يديه تحريكاً رشيقاً .

ولم تجلس الجماعة في مبدأ الأمر ، بل كانت تقف انتظاراً للشيء المهم تتحادث

أحاديثهما العابرة من دون احتفال . وكان يوهان بودنبروك الأكبر قد قدم ذراعه لمدام كوبن قائلاً بصوت مسموع :

«والآن سيداتي وسادتي ، إذا كنّا جميعاً مفتوحي الشهية» ...

وكانت الآنسة يونجمان والفتاة التابعة قد فتحتا الباب الأبيض المؤدي الى قاعة الأكل على مصراعيه ، فتحرّكت الجماعة الى هناك متمهلة مستأنية مطمئنة ، ففي مكنة المرء أن ينتظر عند آل بودنبروك أكلة مريئة .

الفصل الثالث

لما أخذ الضيوف يتجهون نحو قاعة الأكل كان سيد البيت الأصغر يضع يده على الجانب الأيسر من صدره حيث خشخشت ورقة ، وكانت ابتسامة التحية قد اختفت بغتة من وجهه ليحل محلها تعبير المكروب المهموم ، وتقلّصت على سالفيه بضع عضلات كأنّما يقرض أسنانه . وتظاهر بأنه يخطو إلى قاعة الأكل خطوات لكنه ارتد بعدئذٍ يفتش بعينيه عن أمه التي كانت كالبقية تريد اجتياز العتبة الى جانب القسّيس فوندرلش .

« معذرة ياسيدي القسيس العزيز... كلمة ياأماه! » .

وبينما كان راعي الكنيسة يومىء اليه بالموافقة مسروراً أعاد القنصل بودنبروك السيدة العجوز الى حجرة « المناظر الطبيعية » بقرب النافذة .

قال لها في عجلة وبصوت خافت : « إن رسالة ، ولأوجز ، وصلت من جوتهولد » ، ونظر في عينيها السوداوين المتسائلتين وأخرج الورقة المطوية المختومة من جيبه . ثمّ استطرد يقول : « إنها بخط يده... وإنها للثالثة ، وليس سوى الأولى ما رد عليه أبي... فما العمل ؟ لقد وصلت في الساعة الثانية ، وكان يجب أن أسلّمها الى أبي من أمد . ولكن أكان ينبغي أن أفسد عليه اليوم نفسيته! فماذا تقولين ؟ لايزال ثمة دائماً وقت لاستدعائه » .

قالت مدام بودنبروك : « كلا ، إنّك على حق ياجان . انتظر!! » وقبضت على ذراع ابنها بحركة سريعة جرياً على عادتها ، وأضافت قلقة قولها : « ماذا يمكن أن يكون فيها ؟ إن هذا الصغير لايتزحزح . إنه يصر على مبلغ التعويض عن نصيبه في البيت... لا ، ياجان ، ليس بعد... ربّما في مساء اليوم قبل التوجه الى النوم » .

وأعاد القنصل قوله وهو يهزّ رأسه : « ماالعمل ؟ لقد أردت أنا نفسي مراراً وتكراراً أن أرجو أبي التساهل . فليس يصح أن يبدو كما لو كنت أنا الأخ غير الشقيق قد تسلّطت على

والدي ودسست لجوتهولد... كذلك يجب عليّ حيال أبي أن أتحاشى الظهور بهذا المظهر . لكنني إذا توخّيت الإنصاف فإني في آخر الأمر شريك . ثمّ إني وبتسي ندفع في الوقت الراهن إيجاراً عادياً جداً للطبقة الثانية . أمّا ما يتعلّق بأختي في فرانكفورت ، فإن الأمر قد سُوّيَ . فزوجها يتلقى الآن بالفعل في حياة أبي مبلغاً على سبيل التعويض هو الربع فقط من مبلغ شراء البيت . وهي صفقة مجزية أجراها أبي مجرى طيباً ميسراً . وهذا من وجهة نظر بيتنا التجاري سارٌ جداً . فإذا سلك أبي مع جوتهولد مسلك الرفض هذا ـ وهو مسلك شديد ـ فإن...» .

فقاطعته الأم قائلة : «كلا ياجان ، هذا سخيف . فإن موقفك من المسألة واضح جداً . لكن جوتهولد يعتقد أنّي وأنا امرأة أبيه ، لاأهتم إلا بأولادي منه ، وأنّي أغيّر قلب والده من نحوه عمداً . وهذا هو المحزن...» .

فصاح القنصل بصوت مرتفع بعض الشيء : «لكن الذنب ذنبه» ، ثمّ خفض صوته وهو ينظر الى قاعة الأكل وقال : «إن هذه الحالة المحزنة من صنعه . احكموا بأنفسكم! لماذا لم يسلك مسلك العقل ؟ لماذا اضطر الى الزواج من هذه الآنسة شتيونج و... الدكان... » وضحك القنصل مغيظاً مرتبكاً عند نطقة بهذه الكلمة «إنها نقطة ضعف من أبي أن يناهض فكرة الدكان ، لكنه كان خليقاً بجوتهلد أن يحترم في أبيه هذا الغرور البسيط...»

فقالت الأم : «آه ياجان ، إن أحسن شيء هو أن يتساهل أبوك!»

فهمس القنصل في حركة عصبية من يده الى جبينه : «هل أستطيع أن أشير عليه بذلك ؟ إن لي شخصياً مصلحة خليقة أن تجعلني أقول له : ادفع ياأبي ، لكنني أيضاً شريك . وعليَ أن أمثّل مصلحة الشركة... وإذا كان أبي لايعتقد أنه مكلّف حيال ابن عاق ، يشق عصا الطاعة عليه ، أن يسحب المبلغ من رأس مال العمل... فإن الأمر يتعلق بأكثر من أحد عشر ألف ريال . وهذا مال كثير... لا ، لا إني لاأستطيع أن أنصح له بذلك... ولاأيضاً أن أنهاه عنه ، إني لاأريد أن يكون لي بهذا دخل . فمجرّد الشجار مع أبي يؤلمني...»

قالت الأم : «في وقت متأخر من المساء ياجان . تعال الآن! فهم ينتظرون» .

وأخفى القنصل الورقة في جيب الصدرية ، وقدم ذراعه لوالدته واجتاز بها العتبة الى قاعة الأكل التي كان يغمرها الضوء ، حيث كانت الجماعة قد فرغت ولما تكد من اتّخاذ مجالسها حول المائدة الطويلة .

وكانت صور بيضاء لآلهة بين عمودين دقيقين تبرز كأنها نحت نحات من كسوة الحيطان في مؤخرة تبدو في مثل زرقة السماء . وكانت ستائر النوافذ الثقيلة الحمراء

مسدلة ، وفي كل ركن من أركان الغرفة تشتعل ثماني شمعات في شمعدان عال مذهب بخلاف تلك التي كانت قائمة في شمعدانات فضية موضوعة على المائدة . وكان فوق البوفية الضخم المقابل «لحجرة المناظر الطبيعية» صورة كبيرة معلقة تمثّل خليجاً إيطالياً كان لونه الأزرق الداكن ذا تأثير ملحوظ مع هذه الإضاءة . وكانت الأرائك الضخمة الجامدة المساند تستند الى الحيطان في كسوة من الحرير الأحمر .

وكان كل أثر للهم والقلق قد اختفى من وجه مدام بودنبروك لما أن اتّخذت مجلسها بين كروجر الكبير الذي كان يرأس المائدة في الجانب المحاذي للنافذة وبين القس فوندرليش .

وقالت وهي تومىء برأسها ايماءتها السريعة القلبية الوجيزة : «شهية طيبة طيبة» ملقية نظرة عجلى على المائدة بأسرها حتى حيث يجلس الأطفال...

الفصل الرابع

وطغى صوت السيد كوبن الممتلىء على الحديث العام وهو يقول : «ما أعظم وما أفخم كما قلت يا بودنبروك!» حينما قدم حساء الخضر الساخن والخبز الملدن ، تحمله الفتاة التابعة ذات الذراعين العاريتين الحمراوين والثوب السميك المخطط ، وعلى مؤخرة رأسها طاقية بيضاء صغيرة ، تعاونها الآنسة يونجمان وفتاة زوجة القنصل في الطبقة العليا ، ثم جعل الحضور يحتسون متمهلين .

وعاد السيد كوبن يقول : «ما أعظم هذه السعة وهذا النبل... لابدّ أن أقول إن هنا يعيش الانسان . أجل يجب أن أقول...» ولم يكن السيد كوبن اختلط بالملاك السابقين ، فهو حديث الثراء ، لاينتمي الى الطبقة الراقية ، ولم يستطع بعد التخلّص من نقط ضعف في نطقهِ باللغة الدارجة للأسف كتكراره عبارة «يجب أن أقول» هذا الى أنه كان يقول «أظم» بدلاً من «أعظم» .

ولاحظ السيد جريتينز في جفاء وهو يرى من جوف يده منظر الخليج مستأنياً : «إن هذه الصورة لم تتكلّف شيئاً» ذلك أنه لابدّ أن كان عليماً .

وكانوا يؤلفون على قدر الإمكان صفاً منوّعاً . يتخلل أصدقاء البيت سلسلة الأقرباء . ولم يكن في تنفيذ ذلك تشدّد ، فالزوجان أوفرديك المسنان كانا كالعادة يجلس أحدهما على حجر الآخر تقريباً ، ويومىء اليه في تفان . أما كروجير الكبير فكان يتربع عالياً وبالذات بين زوجة السناتور لانجهالز ومدام انطوانيت ، يوزع حركات يديه ، وفكاهاته المتحفظة على كلتا السيّدتين .

وسأل السيد هوفشتيده الشيخ بودنبروك : «متى بنى البيت ؟» سأله ذلك عبر المائدة مائلاً اليه وكان يحادث مدام كوبن في لهجة مرحة يتخللها شيء من السخرية .

فأجابه : «سنة... انتظر... حوالي سنة ١٦٨٠ إذا لم تخني الذاكرة . إن ابني فوق ذلك يعرف هذه التواريخ خيراً مني...»

فأكّد القنصل منحنياً :«اثنتين وثمانين» وكان جالساً بجانب السناتور لانجهالز بعيداً لاتجالسه سيدة . قال : «لقد انتهى من بنائه في شتاء سنة ١٦٨٢ . وقد بدأت إذ ذاك رفعة راتنكامب وكومب على أبهر صورة...

مؤسف هذا التدهور الذي عانته الشركة في العشرين سنة الأخيرة...»

وسكن الحديث بصورة عامة ، ودامت هذه الحالة نصف دقيقة ، فكان كل ينظر في طبقه ، ويتذكّر تلك الأسرة وعزّها الزائل وقد بنت البيت وسكنته ثمّ غادرته فقيرة رقيقة الحال .

وقال السمسار جريتينز : «مؤسف حقاً . لوفكّر المرء أي جنون جلب الدمار... لو أن ديتريش راتنكامب لم يتّخذ هذا الرجل جيلماك شريكاً! لقد أطبقت يدي على رأسي ، علم الله ، لمّا بدا هذا يدير الشركة . إني أعلم هذا من خير المصادر أيتها السيدات وأيها السادة . أعلم كيف ضارب هذا الرجل من وراء ظهر راتنكامب بشكل مخيف ، وكيف قدم هنا سفتجة وصكاً هناك باسم الشركة... وأخيراً أفلست... هنا استرابت البنوك ، هنا نقصت التغطية... ليست عندكم فكرة... ثمّ مَنْ الذي لاحظ المتجر ؟ لعله جيلماك ؟ لقد سكنوه كالفئران ، من سنة لسنة ، وراتنكامب لايحفل بشيء...»

قال القنصل : «لقد كان كمن أصابه فالج» . واتّخذ وجهه تعبيراً جهماً مغلقاً . كان يحرّك ملعقته في حسائه منكباً ، ويرسل من عينيه الصغيرتين المستديرتين الغائرتين بين الحين والحين نظرة عابرة الى رأس المائدة . ثمّ استطرد يقول : «كان يسير كما لو كان واقعاً تحت ضغط . وأظن أن في مكنتنا فهم هذا الضغط ، فما الذي كان يضطرّه الى الارتباط بجيلماك الذي جلب معه رأس مال ضئيلاً ولم يكن أحد يذكّره بخير ؟ لابد أنه كان يشعر بالحاجة الى القاء جانب من التبعة المخيفة على أحد ما ، لأنه كان يحسّ الأمر يشارف النهاية بلا توقّف . كانت هذه الشركة قد تدهورت ، وهذه الأسرة قد انتهت . ووليم جيلماك لم يفعل بالتأكيد سوى أن دفعها الدفعة الأخيرة الى الخراب...»

فقال القسيس فوندرليش في ابتسامة تنطوي على التحرّز بينما يصب للسيدة التي الى جواره النبيذ الأحمر في قدحها : «اذن من رأيك ياسيدي القنصل العزيز أنه من دون انضمام جيلماك وسلوكه الأخرق كان كل شيء سيقع كما وقع ؟» .

قال القنصل تستغرقه الأفكار ومن دون أن يلتفت الى أحد : «هذا ما لاأعنيه ، لكني

أعتقد أنه لم يكن مناص من أن يرتبط راتنكامب ديتريش بجيلماك لكي يقع المقدور . فلا بدّ أنه تصرّف تحت حكم ضرورة لاترحم... بل إنّي مقتنع بأنه كان يدري مايفعل شريكه بقدر ما ، وأنه لم يكن أيضاً يجهل مايجري في متجره كل الجهل . لكنه كان كالمفلوج... »

فقال بودنبروك الكبير : « كفى ياجان! » ووضع الملعقة في يده « هذه فكرة من بنات أفكارك... »

فرفع القنصل قدحه نحو والده وعلى وجهه ابتسامة تائهة . لكن ليبرشت كروجر تكلّم : « لنبق بالله في حاضرنا المرح! » .

وأمسك في ذلك برقبة زجاجة نبيذه الأبيض محاذراً رشيقاً ، وكان على سدادتها تمثال وعل صغير من الفضة ، وأمالها قليلاً على جانبها ، وفحص بطاقتها باهتمام ، فقرأ : « ا .ف . كوبن » وأومأ الى تاجر النبيذ وهو يقول : « قل لي ، ماذا كنّا خليقين من دونك أن نكون ؟ » .

وبُدّلت أطباق مايسن[١] ذات الحافة المذهبة ، وكانت مدام انطوانيت تلاحظ حركات الفتيات خلال تبديلها بانتباه والآنسة يونجمان تصدر تعليماتها في قمع النفير الذي كان يربط قاعة الأكل بالمطبخ . وأدير السمك . وبينما كان القس فوندرليش يتناول منه محاذراً قال : « إن هذا الحاضر المرح ليس على كل حال أمراً بديهياً كل البداهة ، فالشبان الذين يطربون الآن هنا معنا نحن المسنّين لايخطر ببالهم أن الأمور كان يمكن أن تكون يوماً غير ما هي الآن . . ويصح أن أقول إنه لم يندر أن كان لي نصيب من الاهتمام التشخصي بمقدرات أصحابنا آل بودنبروك... وكلّما ألمت هذه الأشياء بخاطري والتفت الى مدام انطوانيت وهو يتناول من المائدة ملعقة من تلك الملاعق الفضية الثقيلة ـ لاأتمالك نفسي من التفكير : أليست هذه من القطع التي كان صديقنا الفيلسوف لينوار ، جاويش حضرة صاحب الجلالة الامبراطور نابليون ، يمسك بها في بداية سنة ١٨٠٦ فأتذكّر لقاءنا في شارع الفشتراسه ياسيدتي... »

فخفضت مدام بودنبروك من بصرها في ابتسامة تجمع الارتباك ووقع الذكرى . وكان توم وتوني جالسين في ذيل المائدة لايحبّان تناول السمك ويتابعان حديث الكبار بانتباه ، فصاحا بصوت واحد تقريباً : « أجل ياجدتنا ، احكي! » . لكن القسيس الذي كان يعلم أنها لاتحب أن تتناول بالحديث هذا الحادث الأليم لها بعض الشيء ، بدأ بدلاً منها يقص الحكاية

(١) مدينة مشهورة بخزفها في دائرة درسدن من مدن سكسونيا .

القديمة الصغيرة التي كان الصغار خليقين أن يصغوا اليها للمرة المتممة للمائة والتي لعلها لايعرفها هذا أو ذاك بعد...

قال : تمثلوا بإيجاز : في عصر يوم من أيام نوفمبر وكان بارداً مطيراً ، يرحمنا الله ، وأنا آت من أحد أعمالي صاعداً شارع ألف أفكّر في الأيام السوداء وكان الأمير بلوشر[1] قد رحل ، والفرنسيون في المدينة ، لكن أحداً لم يكن يلحظ الهياج السائد ، فالشوارع هادئة ، والناس في بيوتهم معتصمون . وكان القصاب برال واقفاً أمام بابه ، واضعاً يديه في جيبي سرواله يقول بصوته المرعد : «إن هذا لشر مستطير . أليس هو ـ» وهنا صرعته رصاصة أصابته في رأسه ببساطة ، ففكّرت : فلتذهب الى آل بودنبروك فلعل كلمة معهم تلقى ترحيباً . فالزوج في فراشه مريض بالحمرة ، والزوجة ستكون مشغولة بالإيواء .

«في هذه اللحظة ، من أراه قادماً عليّ ؟ سيدتنا المحترمة مدام بودنبروك ، وفي أية حال ؟ مسرعة بلا قبعة ، في المطر ، يكاد لايستركتفها شال ، تنطلق أكثر ممّا تسير ، وقد انتفشت تسريحتها تماماً... لا ، هذا صحيح . هي المدام . وليس الأمر هنا أمر تسريحة» .

قلت : «أية مفاجأة سارة! وسمحت لنفسي بأن أجذبها من كمها ولم تكن رأتني . ذلك أنّي توجّست شراً... قلت : الى أين ياعزيزتي بهذه السرعة ؟ فلحظتني ونظرت اليّ وصاحت : أهذا أنت ؟ وداعاً لقد انتهى كل شيء . إني سأغرق نفسي في نهر ترافه» .

قلت : معاذ الله ، وشعرت كيف غاض الدم من وجهي . «إن هذا المكان ليس لك ياعزيزتي . لكن ما الذي حدث ؟ وأمسكت بها بقوة لم يكن الإحترام يجيزها . فصاحت : ماذا حدث ؟ وارتعدت . لقد انقضّوا على الفضيات يا فوندرليش . هذا ماحدث . وجان راقد بالحمرة لايستطيع أن ينجدني . وما كان ليستطيع نجدتي لو أنه كان على قدميه . إنهم يسرقون ملاعقي ، ملاعقي الفضية ، هذا ماحدث يافوندرليش . وأنا سأغرق نفسي في نهر ترافه» .

«وتشبثت بصديقتي وقلت مايقوله الناس في مثل هذه الأحوال : «تشجّعي» و«ياأحب الناس» و«سنصلح كل شيء» و«سنتكلم مع الناس» «فهدئي روعك ، إني أستحلفك ولنذهب! » وصعدت بها الشارع الى منزلها . وفي قاعة الطعام فوق وجدنا الجند كما تركتهم المدام . يبلغون العشرين رجلاً ، مشتغلين بالصندوق الكبير الذي يحتوي الفضيات» .

وسألتهم بأدب : «مع من منكم أستطيع الكلام ياسادتي ؟ وهنا بدأوا يضحكون

---

(١) قائد قوات بروسيا ضد نابليون (١٧٤٢ ـ ١٨١٩) .

ويصيحون : معنا كلنا ياأبانا . ثمّ تقدم أحدهم ، وكان رجلاً فارع الطول كالشجرة ذا شارب أسود مرجل ، ويدين حمراوين كبيرتين تطلان من القلابات المكرنشة ، وقدّم نفسه قائلاً : لينوار . وحيا بيده اليسرى لأن اليمنى كانت تمسك بحزمة مؤلفة من خمس أو ست ملاعق فضية . الجاويش لينوار فماذا يريد السيد ؟

قلت : « ياسيدي الضابط ـ وأنا أهدف الى تكريمه ـ هل يتّفق الاشتغال بهذه الأشياء ومهمّتكم السامية ؟ إن المدينة لم توصد بابها في وجه الامبراطور » . فأجاب بقوله : « وماذا تريد ؟ الحرب هي الحرب! والقوم محتاجون الى مثل هذه الفضيات... » .

فقاطعته قائلاً وقد خطر ببالي خاطر : « كان ينبغي أن تراعوا . إن هذه السيدة ـ وما الذي لايقال في مثل هذا الموقف ـ وهي سيدة البيت ، ليست وكما تظنّون ألمانية بل مواطنة لكم تقريباً ، فهي فرنسية ، فردد قولي : كيف فرنسية ؟ وماذا تظنّون هذا السيف الطويل البتار أضاف إلى ذلك –مهاجرة إذن ؟ وإذن تكون عدواً للفلسفة! » .

إني قسيس ولكني تمالكت نفسي من الضحك وقلت : « إنّك رجل مستنير كما أرى . وإني أعيد عليك أنه لايليق في نظري بكم أن تُشغلوا بمثل هذه الأشياء! » . ... فصمت لحظة ، ثمّ احمرّ وجهه بغتة ، ورمى بالملاعق الست في الصندوق وصاح : « ولكن من قال لكم إنني أنتوي بهذه الأشياء غير تأملها ؟ إنها لأشياء جميلة ، فإذا كان هذا أو ذاك من الرجال يريد لنفسه قطعة على سبيل التذكار... » .

وأخذوا معهم كفاءهم من التذكارات على كل حال ، إذ لم ينفع معهم تذكيرهم بالعدالة البشرية أو الآلهية... فلم يكونوا يعرفون إلهاً غير ذلك الانسان القصير القامة المخيف... » .

الفصل الخامس

« هل رأيته ياحضرة القسيس ؟ » .

وبدّلت الأطباق من جديد . وظهر فخذ خنزير هائل أحمر كالآجر ، محمر في الدقيق ، ومدخن ، ومغلي ، ومعه صلصة بنية مزة وكمّيات ضخمة من الخضر حتى أصبح الجميع خليقين بأن يشبعوا من صفحة واحدة . فتولى ليبرشت كروجر التقطيع ، ورفع مرفقيه بخفة ، ومدّ سبّابتيه الطويلتين الى ظهر السكين والشوكة وكشط القطع المدهنة في تأن الى أسفل . كذلك قدمت تحفة القنصلة بودنبروك وهي «القدر الروسي» وكان مزيجاً نملاً كحولي المذاق من الثمار المحفوظة .

لا ، لقد أعرب القسيس فوندرليش عن أسفه لأنه لم يرَ وجه بونابرت قط . لكن بودنبروك الكبير وجان هوفنشتيده رأياه وجهاً لوجه ، الأول في باريس قبل الحملة الروسية مباشرة في عرض جرى في فناء قصر التويلري والآخر في دانتسيج...

قال هذا : «ياإلهي ، كلا إنه لم يكن يبدو عليه الإرتياح» ودفع الى فمه وهو يرفع حاجبيه لقمة جمع فيها في شوكته بين قطعة من لحم الخنزير وأخرى من الكرمب والبطاطس . واستطرد : «ويقال عدا ذلك أنه سلك في دانتسيج مسلكاً كان فيه مبتهجاً . فقد حكيت عنه إذ ذاك فكاهة... فقد كان يجازف في الدقيق ، ومدخن ، ومغلي ، ومعه صلصة بنية مزة وكميات ضخمة من الخضر الورق مع قواده ، قال : «أليس كذلك ياراب ؟» وحفن من المائدة حفنة من الذهب وهو يقول : «إن الألمان يحبون كثيراً هذه النابليونات الصغيرة ؟» فأجاب راب : «أجل يامولاي أكثر من الكبير...»

وفي ضجة الضحك الذي ارتفع من الجميع ـ ذلك أن هوفشتيده كان يروي القصة بصورة

شائقة ويقلد فيها وجه الامبراطور ـ قال بودنبروك الكبير : «لامزاح ، بل كل الاحترام لعظمته الشخصية ...فيالها من طبيعة طبيعته!» .

فهزّ القنصل رأسه في جد .

قال : «لا ، لا . إننا نحن الصغار لم نعد نفهم جدارة رجل بالتبجيل قتل الدوق دانجان غيلة وذبح في مصر ثمانمائة أسير...»

فقال القس فوندرليش : «قد يكون هذا كله مغالى فيه مزوّراً . ولعلّ الدوق كان سيداً طائشاً متمرداً ـ أمّا الأسرى فقد كان إعدامهم في الراجح بقرار مدروس اقتضته الضرورة وأصدرته محكمة عسكرية قانونية... وحكى عن كتاب ظهر من بضع سنوات مضت وقرأه وكان من تأليف سكرتير للامبراطور ، وفي رأيه أنه يستحق الالتفات التام...» .

فأصرّ القنصل قائلاً : «على حد سواء» . وأصلح الشمعة التي كانت مندلعة أمامه في الشمعدان ، واستأنف الكلام : «إنني لاأفهم ذلك . إني لاأفهم الاعجاب بهذا الوحش . فأنا بوصفي مسيحياً وإنساناً ذا شعور ديني لاأجد في قلبي مكاناً لمثل هذا الإحساس» .

واتّخذ وجهه تعبيراً هادئاً حالماً ، بل إنه كان يميل برأسه الى جانب ، بينما كان يبدو حقاً كما لو أن أباه والقسيس فوندرليش يبتسم أحدهما للآخر ابتساماً واهناً جداً .

وتهلّل وجه يوهان بودنبروك وهو يقول : «أجل ، أجل ، لكن النابليونات الصغيرة لم تكن رديئة ، أليس كذلك؟» ثمّ أضاف الى ذلك قوله : «إن ابني معجب أكثر بلويس فيليب» .

فردّ جان جاك هوفشتيده في شيء من السخرية : «معجب؟ هذا جمع غريب بين فيليب ايجاليتيه والإعجاب...» .

وتكلّم القنصل في جد وحمية : «ليخيل اليّ والله أن لدينا من مَلَكية يوليه كثيراً نتعلّمه . إن موقف النظام الدستوري الفرنسي الودود المسعف حيال المُثل العليا العملية الجديدة ومصالح العصر... شيء يستحق كل الشكر...» .

فقال بودنبروك الكبير : «مُثل عليا عملية... حسناً» . وجعل خلال فترة من الصمت أتاحها فكّاه يقلّب علبته الذهبية «مُثل عليا عملية... لا . لست من هذا الرأي» . ولجأ في تضايقه الى العامية : «هنا تنبت المعاهد الصناعية والمعاهد الفنية ومدارس التجارة

من الأرض ويصبح الجيمنازيوم والتعليم الكلاسيكي بغتة تفاهات . ولاتفكّر الدنيا كلها ، لاتفكّر في شيء سوى المناجم... والصناعة... وكسب المال... عظيم هذا كله ، عظيم جداً! لكنه من الجهة الأخرى ينطوي على شيء من الغباء . هكذا على الدوام ، كيف ؟ إني لاأعرف لماذا هذا في نظري سبّة... لم أقل شيئاً ياجان... إن مَلَكية يوليه شيء طيب... » .

ووقف السناتور لانجهالز وجريتينز وكوبن بالمثل الى جانب القنصل... بل إن المرء ليجب أن يكنّ في الحق أعظم احترام للحكومة الفرنسية والجهود المماثلة في ألمانيا .

وقال الهر كوبن ثانية : « أظم » . وكان قد أمسى في أثناء الأكل أشد احمراراً ، وكان مبهور الأنفاس بصوت مسموع ، أمّا فوندرليش فبقي وجهه أبيض ، ظريفاً ، مفيقاً وإن لم يكف عن الشراب ، وكان يتناول القدح تلو الآخر في غاية الإطمئنان .

وكانت الشموع تحترق على مهل ، يهبّ منها بين الحين والحين رائحة الشمع اللطيفة على المائدة كلّما مال لهيبها واندلع في تيّار الهواء .

وكانوا يجلسون على مقاعد ثقيلة عالية السناد ، يطعمون في صحاف ثقيلة من الفضة أشياء طيبة ويشربون اليها خمراً طيبة وثقيلة ويعربون عن آرائهم . وسرعان ماتناولوا الكلام عن الأعمال ، ولجئوا عفواً في أدائه الى العامية ، الى هذا التعبير المستأني المريح الذي كان يلوح أنه يتوخّى إيجاز التجار واسترخاء الأثرياء والذي كان يغلو هنا وهناك في التهكّم الرضي على النفس . فكانوا لايقولون كذا على صحته بل كذا على إيجازه ، ويتحيّفون على هذا الحرف أو ذاك بنطقه مدغماً ، ويظهر الرضا على وجوههم وهم ينطقون .

وكانت النساء قد كففن من أمد عن متابعة النقاش ، وكانت مدام كروجر تدير لهنّ الحديث فتشرح لهنّ على نحوٍ شهيّ أحسن طريقة لطهو سمك النهر بالنبيذ... فتقول : « إذا قطع قطعاً أصولية ياعزيزتي فضعيه بعدئذ في الكسرولة مع البصل والفلفل والقراقيش واحمليه الى النار مع قليل من السكر وملعقة من الزبد... لكن لاتغسليه ياعزيزتي بل دعيه بربك بدمه كله... »

وقال كروجر الكبير أطيب الفكاهات . أما ابنة القنصل يوستوس الذي كان جالساً بعيداً بجانب الدكتور جرابو في ذيل المائدة على مقربة من الأطفال فكان يصل مع الآنسة يونجمان حديث دعابة ، وهي تزر عينيها العسليّتين وتمسك على عادتها بالسكّين والشوكة

قائمتين تحرّكهما طرداً وعكساً حركة خفيفة . بل إن أسرة أوفرديك قد ارتفعت أصواتها ونشطت حيويّتها في صورة كاملة فابتكرت العجوز زوجة القنصل كلمة تحبب كانت تناديه بها وتهزّ قلنسيتها من الغبطة .

وتركّز الحديث لما أن أداره جان جاك هوفشتيده على موضوعه الحبيب ، على رحلته الإيطالية التي قام بها من خمس عشرة سنة مضت مع قريب له ثري من هامبورج . فحكى عن البندقية وروما وفيزوف ، وقصّ عن ڤيلا بورجيزة حيث قال إنّ الراحل جوته كتب فيها جزءاً من فاوست ، وتغزّل بنافورات عصر النهضة التي تبرد الأوار ، وعن الطرق الحسنة التخطيط التي يروق فيها التجوال على هوى المرء . وذكر أحد الحاضرين الحديقة الكبيرة الشعثاء التي كان آل بودنبروك يملكونها خلف «باب القصر» مباشرة .

فقال الشيخ : «أجل بشرفي! إنّي مايزال يغبطني أني لم أستطع إذ ذاك أن أقر الرأي على تنظيمها بما يكسبها بعض المظهر الإنساني . لقد جلت فيها أخيراً ، فهي سبة ، هذه الغابة العتيقة! ما كان ألطفها من ملك لو كان عُنِيَ بكلئها ، وشذّب شجرها تشذيباً جميلاً مخروطياً ومربعاً...»

فاحتج القنصل في حرارة .

قال : «بربّك ياأبي - إني لأحب صيفاً أن أتوجه الى هناك بين الأدغال . لكن كل شيء خليق أن يتلف إذا شذّبت فيه الطبيعة الجميلة الطلقة هذا التشذيب الأسيف»...

«لكنه إذا كانت الطبيعة المطلقة هذه ملكي ألا يكون من حقّي ، بحق الشيطان أن أنظّمها على هواي ؟» .

«آه ياأبي . إني حين أستلقي هناك بين الكلأ النامي تحت الدخل الرابي يخيل إليّ العكس أنّي مُلك الطبيعة وأنه ليس لي أدنى حق عليها...»

هنا صاح بودنبروك الكبير فجأة : «كريستان ، لاتسرف في سؤال تيلده! إن هذا لايضيرها شيئاً... فاهجما كما يفعل سبعة دارسين ، إلا أنها لفتاة!» .

وحقاً لقد كان يبعث على الدهشة كيف كانت لهذه الطفلة النحيلة الهادئة ذات الوجه المستطيل المسن هذه المقدرة على الأكل ، فإنها لمّا سُئلت للمرّة الثانية هل تريد حساء ، أجابت تتمطى في تواضع : «نعم ، من فضلك!» .

وقد تناولت من السمك كما تناولت من لحم الخنزير مرّتين ، في كل مرة قطعتين من أكبر القطع ، واليها كومة كبيرة من الملحقات . تناولته باهتمام وهي منكبّة لضعف بصرها

على الطبق ، وازدردت كل شيء هادئة مستأنية في لقم كبيرة . فلما وجه اليها رب البيت الشيخ كلامه مطّت وجهها متلطفة ، متعجّبة وأجابت في بلاهة : « ربّاه ـ عمي ؟ » ولم تتأثّر من كلامه ، كانت تأكل سواء دعيت أم لم تدع ، وسواء سخر منها أحد أم لم يسخر ، في شهية المستقل بغريزته من الأقرباء الفقراء على مائدة حافلة حرة ، وتبتسم في غير حساسية وتملأ طبقها بالأشياء الشهية متمهلة ، مثابرة ، جائعة ، عجفاء .

الفصل السادس

وجاء البودنج في صحيفتين كبيرتين من البلّور مزيجاً ، طبقات بعضها فوق بعض من المعكرونة والتوت والبسكويت والقشطة . لكنه في ذيل المائدة كان الأطفال يضجّون لأنهم تلقّوا تحليتهم المحبوبة ، بودنج البرقوق الملتهب .

وتكلّم يوهان بودنبروك : «توماس يابنيّ تكرم! » وأخرج من جيب سرواله حزمة مفاتيح كبيرة «أحضر من القبو الثاني عن اليمين من الدرج الثاني خلف نبيذ بوردو الأحمر ، زجاجتين! » فجرى توماس الذي كان يحذق تأدية مثل هذه المهام ، ثمّ عاد بالزجاجتين المغبرّتين اللتين تحيط بهما شبكتان . وماكاد نبيذ المالفازييه الذهبي المعتّق الذي يحكي عن حلاوته العنب يجري من هذا الدثار الخفي الى أقداح النبيذ التي يحتسيها الضيف بعد الأكل . حتى حلّت اللحظة التي نهض فيها القس فوندرليش حاملاً القدح في يده ، في هجعة الحديث ، وجعل يشرب الأنخاب بعبارات شائقة . كان يتكلّم ورأسه مائل جانباً بعض الميل ، وعلى وجهه الأبيض ابتسامة رقيقة تشعّ منها الفكاهة محرّكاً يده اللطيفة حركات صغيرة منمّقة ، ومتّخذاً لهجة السمر المريحة التي كان يحب أن يستعملها من على المنبر : «تكرّموا إذن ياأصدقائي الشجعان باحتساء كأس من هذه الخمر اللطيفة في صحة مضيفينا المحترمين في بيتهم الجديد الفخم ، ـ في رفاهية أسرة بودنبروك الحاضرين من أعضائها والغائبين ـ في صحّتهم! » .

وفكّر القنصل : «والغائبين» بينما انحنى أمام الكؤوس التي ارتفعت بها الأيدي . واستطرد في تفكيره : أيقصد بهؤلاء من يوجد منهم بفرانكفورت ، وربّما أسرة دوشان في هامبورج . أم أن للشيخ فوندرليش مايقصده... ؟ ونهض ليقارع أباه كأسه ، ناظراً في عينيه نظرة حنان .

لكن السمسار جريتنز نهض عندئذ عن كرسيه نهضة اقتضته فترة من الوقت . بيد أنه لمّا أتمّ نهضته خصّ شركة يوهان بودنبروك بكأس وتمنّى لها بصوته الصرار النمو والإزدهار والرفعة إكراماً للمدينة .

ورد يوهان بودنبروك شاكراً للجميع كلماتهم الرقيقة ، بوصفه أولاً ربّ الأسرة وثانياً باعتباره أقدم رئيس للبيت التجاري ـ وأرسل توماس يحضر زجاجة ثالثة من المالفازيية لأن حسابه طاش حين ظنّ أن زجاجتين تكفيان .

كذلك تكلم ليبرشت كروجر . وقد سمح لنفسه بأن يبقى جالساً إذ كان هذا أوقع في النفس ، وإذ كان يشير برأسه ويديه في ألطف مشهد وهو يشرب نخب سيدتيَ البيت مدام انطوانيت وزوجة القنصل .

لكنه لما انتهى ، ولما أوشك البودنج أن ينفد والمالفازييه أن يهبط إلى القاع نهض السيد جان جاك هوفشتيده متنداً يتنحنح ويتنفّس آهة عامة... فصفق الأطفال الجالسون في ذيل المائدة توأ من الغبطة .

قال وهو يمسّ أنفه الحاد : «معذرة ، فإني لا أملك أن أتخلّف» . وأخرج من جيب سترته ورقة... فساد السكون في القاعة .

وكانت الورقة التي يمسك بها في يديه زاهية الألوان ، بيضوية الشكل ، مزخرفة ، مزدانة الظاهر بالأزهار الحمراء ، والنقوش الذهبية ، فتلا :

«بمناسبة الاشتراك مع أسرة بودنبروك في إحياء حفلة افتتاح البيت المُقتنى حديثاً ، تلك الحفلة التي حفت بها أكرم مظاهر الضيافة ـ أكتوبر ١٨٣٥» .

ثم قلب الورقة ، وابتدأ بصوت كان يتهدّج قليلاً :

أيها الأماثل ـ لايفوتنّ أغنيتي المتواضعة
أن تدنو منكم ، في مكان حبتكم به السماوات .
هي لك ياصديقي ذا الشعر الفضي .
ولزوجك الجليلة مهداة .
ولزوجين هما طفلاكما .
من الغبطة مزجاة .
فالبراعة والحسن المهذب هنا
مجتمعان أمام نواظرنا في زهرة أناديومين

ويد فولكاني الصناع .
وقى الله حياتكم مايكدّر
وأدام لها البهجة مستقبلاً
وحباكم كل يوم بجديد
بالهناءة المتجددة على الدوام .
فليس للغبطة التي استشعرها
لهناءتكم في المستقبل حد .
ونظرتي الآن خليقة أن تنبئكم
بأني لن تنقطع لي تمنّيات .
فهنيئاً حياتكم في الدار الفخمة
وليكن نصيب من دبج هذه السطور
وأهداها اليوم في إيجاز
أن يحظى منكم بالمحبة .
ويلقى منكم الإعزاز .

وانحنى ، فانطلقت أكف الجميع بالتصفيق وتملكتهم الحماسة .

وصاح بودنبروك الشيخ : «رائع! هوفشتيده في صحتك! حقاً إن هذا لبديع!» .

لكنه لمّا شاربت زوجة القنصل الشاعر اكتسى لونها الرقيق بحمرة بديعة ذلك أنها باركت ماأبداه نحوها من تبجيل حين شبّهها بزهرة أناديومين...

الفصل السابع

وابتهج الجميع وأحسّ السيد كوبن بالحاجة الملحة الى فك بضعة أزرار من صدريّته ، لكن هذا لم يكن بالعمل اللائق للأسف ، لأنه حتى السادة المسنّون ماكانوا ليسمحوا لأنفسهم بمثله ، وكان ليبرشت كروجو مايزال يجلس منتصباً في مكانه كما كان عند بدء الوليمة ، وظلّ القس فوندرليش على براءته ومراعاته للأصول . وحقاً لقد كان بودنبروك الكبير مستلقياً بعض الشيء لكنه كان يراعي الأدب اللائق ، وكان يوستوس كروجر هو الذي يبدو ثملاً قليلاً .

أين الدكتور جرابو ؟ لقد نهضت القنصلة من دون أن تلفت النظر بحال ، وخرجت من القاعة لأن أماكن الآنسة يونجمان والدكتور جرابو وكريستيان في ذيل المائدة كانت خالية ، وكان صوت ينم تقريباً عن الألم المكبوت يتناهى من بهو الأعمدة ، فأسرعت بمغادرة القاعة خلف الفتاة التابعة ، وكانت تقدّم الزبد والجبن والفاكهة ـ وحقّاً لقد كان كريستيان الصغير جالساً أو راقداً أو قابعاً على المقعد المستدير المنجد القائم في شبه ظلمة من حول العمود الأوسط يتأوه في خفوت ويقطع نياط القلب .

وقالت إيدا التي كانت بجانبه مع الطبيب : «آه ياسيّدتي . إن كريستيان الصغير قد غثت نفسه...»

وأعول كريستيان قائلاً : «لقد غثت نفسي ياأمّاه ، غثت بصورة لعينة» . بينما جعلت عيناه المستديرتان الغائرتان تروحان وتغدوان قلقتين فوق أنفه البالغ الكبر . وقد نطق بكلمة «لعينة» من فرط يأسه ، لكن القنصلة قالت : «إذا نحن استعملنا مثل هذه الكلمة زاد الله في مقسنا!» .

وجسّ الدكتور جرابو النبض . وبدا وجه الطبيب وقد أمسى أطول مما هو وأرأف ،

وقال مطمئناً : «هذه تخمة بسيطة... غير ذات بال ياسيّدتي القنصلة» . ثمّ استطرد بلهجة أهل المهنة المتأنية المتحذلقة يقول : «إن خير مايعمل هو أن يحمل الى فراشه... أعطوه شيئاً قليلاً من مسحوق الأطفال ، وربّما قدحاً صغيراً من شاي البابونج ليعرق... وليلتزم الحمية بشدة ياسيدتي القنصلة . حمية شديدة كما قلت... قطعة من الحمام... وقطعة من خبز فرانتس...»

وصاح كريستيان غاضباً : «لا أريد حماماً... لا أريد أن آكل ثانية شيئاً أبداً! إن نفسي تمقس ، تمقس بصورة لعينة!» وكأنّما بدا له أن هذه الكلمة الشديدة تخفف عنه فجعل يلفظها بحرقة زائدة .

وابتسم الدكتور ابتسامة تغاض تكاد تكون عليها مسحة من الكآبة . سيأكل ثانية هذا الفتى وسيعيش ككل الناس... سيزدرد كآبائه وأقربائه ومعارفه أشياء ثقيلة طيبة مختارة أربع مرات وهو جالس في كل يوم يقضيه . والآن في حفظ الله! إنه ، فريدريك جرابو ، ليس بالرجل الذي يجب أن يقلب عادات المعيشة لدى أسر التجار هذه ، الطيبة ، الثرية ، الناعمة . إنه سيأتي كلّما نودي ، وسينصح بالحمية الصارمة يوماً أو يومين . ـ قطعة من الحمام وشريحة من خبز فرانتس... أجل ـ ثمّ يؤكد مرتاح الضمير أن الأمر هذه المرة غير ذي بال ، إنه ، على صغر سنه ، طالما أمسك بيده يد مواطن شجاع أتى على آخر «موزة» من اللحم المدخن وآخر ديك رومي محشو ، فرقد فجأة على كرسي مكتبه ، أو ، عقب الألم ، على سريره القديم المتين مستسلماً الى الله... في حالته إذ ذاك وهي الفالج ، شلل يعقبه موت فجائي لم يتوقع...

أجل . وهو ، فريدريك جرابو ، كان يمكنه أن يتوقعه له في كل مرة لم يكن فيها الأمر ذا بال . في كل مرة لم يستدع فيها ، أو أصيب فيها صاحب الشأن بعد تناول الطعام ، وبعد أن عاد الى مكتبه ، وبدوار غريب ... والآن في حفظ الله! إنه ، فريدريك جرابو ، لم يكن بالشخص الذي يزدري الديكة الرومية المحشوة . وهذه الفخذ المميزة من لحم الخنزير ومعها صلصة شارلوت كانت لذيذة ، عليها اللعنة! ثمّ لمّا ضاقت الأنفاس جاء البودنج بطبقات المعكرونة والتوت الشوكي والقشطة ، أجل ، أجل... «حمية شديدة كما قلت ياسيّدتي القنصلة ؟ قطعة من الحمام وشريحة من خبز فرانتس...»

الفصل الثامن

وسادت قاعة الأكل حركة النهوض عن المائدة .

«هنيئاً مريئاً ، سيداتي سادتي ، ووجبة مباركة! هنا ينتظر الهواة سيجار ، وتنتظرنا جميعاً جرعة من القهوة ، فإذا جادت المدام ، شراب أيضاً... والبليار في الخلف تحت تصرّف الجميع كما هو مفهوم . حان تولي القيادة الى البيت الخلفي... مدام كوبن ـ أوليني الشرف» .

وتوجهوا عائدين الى حجرة المناظر الطبيعية من الباب الكبير ذي المصراعين يتحدّثون راضين ، ويتبادلون التمنّيات بمناسبة الوجبة المباركة وهم على أتمّ انشراح ، لكن القنصل لم يقصد أولاً الى هذه الحجرة بل جمع في الحال هواة البليار من حوله .

قال : «ألا تريد المغامرة بدور يا أبي ؟»

ـ «لا» .

وقد بقي ليبرشت كروجر مع السيدات . لكن يوستوس استطاع أن ينسحب... كذلك السناتور لانجالهز وكوبن وجريتينز والدكتور جرابو بقوا مع القنصل ، على حين أراد جان جاك هوفشتيده أن يلحق بهم لكنه قال : «فيما بعد! إن يوهان بودنبروك يريد أن يعزف على الناي فلا بدّ من الانتظار... فإلى اللقاء ياسادة...»

وسمع السادة الستة وهم يخترقون بهو الأعمدة أنغام الناي الأولى في حجرة المناظر الطبيعية يصاحبها عزف القنصلة البارع على الهارمونيوم للحن قصير رائق بديع كان يتناهى الى الحجرة البعيدة . وكان القنصل ينصت كلّما سمع شيئاً ، وودّ لو تخلف في حجرة المناظر الطبيعية ليسترسل على مقعد ساند في أحلامه وتستغرق مشاعره لكن واجب الضيافة...

وقال للفتاة التابعة : «أحضري بضعة فناجين من القهوة وسيجاراً الى قاعة البليار» فاجتازت الردهة .

وأعاد الهر كوبن بصوت كان يخرج من معدة ممتلئة : «أجل يالينا ، قهوة! أسمعت ؟ قهوة!» وحاول أن يخمش الفتاة في ذراعها الوردية . وكان ينطق القاف من سقف الحلق ، كأنه يبتلع ويستطعم فعلاً .

فلاحظ القنصل كروجر عليه : «إنّي متأكّد من أن مدام كوبن قد رأتك من خلال الزجاج» .

وسأل السناتور لانجالهز : «إذن أنت تسكن هناك فوق يا بودنبروك ؟»

وكان الدرج يؤدي عن اليمين الى الطبقة الثانية حيث تقع مخادع نوم القنصل وأسرته ، لكنه في الجهة اليسرى من الردهة كان يوجد أيضاً صف من الحجرات . وهبط السادة الدرج العريض ذا التفاريج المدهونة باللاكيه الأبيض وهم يدخّنون . ووقف القنصل في أسفل الدرج وجعل يشرح : «هذه طبقة مسروقة» يبلغ مداها ثلاث حجرات : حجرة الإفطار وحجرة نوم والدي ومكاناً يطل على الحديقة ينتفع به قليلاً . وهناك دهليز ضيق يمتد على اتّجاه الطبقة... لكن الى الأمام! انظروا! هذه الرحبة تعبرها مركبات الثقل فهي تحتوي قطعة الأرض كلها حتّى تصل الى حجر الخبازين» .

وكانت الرحبة الفسيحة الرنانة مبلطة ببلاطات كبيرة مربعة . وعلى مقربة من باب الصفة وفي الطرف الآخر كذلك أماكن تستعمل مكاتب . على حين كان المطبخ الذي كان مايزال تنبعث منه رائحة حمضية هي رائحة صلصة شارلوت يقع الى يسار الدرج من الطريق المفضية الى الأقبية ، بينما يقابل المطبخ في ارتفاع كبير غرف خشبية بارزة من الجدار ، غريبة الشكل ، لكنها مدهونة دهاناً نظيفاً باللاكيه ، هي غرف للخادمات يرقين اليها من الرحبة بنوع من السلالم المنتصبة المفتوحة والى جانبها زوج من الخزائن العتيقة وصندوق محفور .

وخرجوا من باب زجاجي عال عبر درجات منبسطة تماماً يمكن المرور فوقها الى الفناء الذي يقع في جهته اليسرى المغتسل الصغير . ومن هنا تأملوا الحديقة المنسّقة التي كان جو الخريف القاتم يطويها والرطوبة تنتشر فيها . وقد صينت أحواضها بحصر القش من الصقيع ، وقطعتها هناك من الخلف واجهة الخص المنشأة على طراز الروكوكو . بيد أن السادة سلكوا في الفناء الطريق التي تقع على الشمال مؤدية بين جدارين إلى البناء الخلفي عبر فناءٍ ثانٍ .

وهناك تؤدي درجات زلقة الى قبو أرضه من الطين يستعمل مخزناً ، يتدلى من أعلى علية فيه حبل لرفع أعدال الحبوب . لكن السادة صعدوا عن اليمين الدرج النظيف المؤدي الى قاعة البليار .

وارتمى الهر كوبن منهوك القوى على أحد الكراسي الجامدة القائمة الى حيطان المكان الفسيح العاطل الذي يدل منظره على الصرامة .

وصاح : «فلأكن أوّل من يتفرّج» . ونفض قطرات المطر الخفيفة عن سترته ثمّ استطرد : «ياللشيطان! أية رحلة هذه عبر بيتكم يا بودنبروك !»

وهنا كما في حجرة المناظر الطبيعية كان الموقد يضطرم خلف سياج من النحاس فجعلوا ينظرون خلال النوافذ العالية الضيقة عبر أسطح رطبة محمّرة ويرون أفنية غائمة وجمالونات .

وسأل القنصل السيد السناتور وهو يسحب المضارب من مواضعها :

« ألك في كرامبولاج ؟ » ثمّ دار وسدّ ثقوب البلياردين وقال : «من يريد أن ينضم إلينا ؟ جريتينز ؟ الدكتور ؟ حسناً . جريتينز ويوستوس . إذن خذا البليار الآخر... كوبن يجب أن تلعب معنا» .

ووقف تاجر النبيذ وأصغى ، ودخان السيجار يملأ فمه ، الى هبوب قوي لريح تصفر بين البيوت وتدفع المطر الى النوافذ فتنمل به ، ثمّ تعوي في مدخنة الموقد .

فقال : « عليها اللعنة! » ونفخ الدخان من فمه ، واستطرد : «أتظن السفينة موليفيفر تستطيع الدخول في الميناء يا بودنبروك ؟ ألا أنه لجو لعين...»

نعم ، إن الأنباء الواردة من ترافيمنده ليست على مايرام . وقد أكّد هذا أيضاً القنصل كروجر الذي ملس جلدة عصاه بالطباشير ، فالعواصف تهبّ على الشواطىء كلها ولم تكن الحالة ، علم الله في سنة ١٨٢٤ أردأ كثيراً ممّا هي الآن ، لما كان في سان بطرسبورغ ذلك السبيل العظيم... هاهي ذي القهوة أتت...»

وتناولوا أقداحها وارتشف كل رشفة وبدأوا اللعب . لكنهم لم يلبثوا أن تناولوا بالكلام الاتّحاد الجمركي . وكان القنصل بودنبروك متحمّساً للإتّحاد الجمركي ، فقد صاح ، بعد أن دفع دفعته والتفت في حمية الى البليار الآخر حيث صدرت أول كلمة : «ياله من عمل بديع! إنه ينبغي أن ننضم اليه في أول فرصة...»

بيد أن السيد كوبن لم يكن من هذا الرأي ، كلا . فقد انبهرت أنفاسه من فرط المعارضة وتساءل ، وكأنه أهين ، متوكئاً على عصاه ، متخذاً سمت المحارب :

«واستقلالنا ؟ وعدم تبعيّتنا ؟ كيف يكونان ؟ هل يروق هامبورغ أن تعمل بهذا الإبتكار البروسي ؟ أليس معنى ذلك أن نندمج في بروسيا يا بودنبروك ؟ حاشا وكلاّ ، إني أريد أن أعرف ماذا نعمل بالإتّحاد الجمركي! أليس كل شيء يسير على مايرام ؟... .»

«بنبيذك الأحمر ، وربّما بعد ذلك بالمنتجات البروسية ، ولاأقول شيئاً . لكنه بعدئذ لن يستورد شيء! أمّا مايتعلّق بالصادر فسنرسل بطبيعة الحال قليلاً من الحبوب الى هولنده وانجلتره بالتأكيد! كلا ، كلا . ليس كل شيء للأسف على مايرام . لقد كانت حقاً تؤدى من قبل أعمال أخرى... لكنه بالإتّحاد الجمركي ستفتح لنا ميكلنبورج وشلزفيج ـ هولشتين... وليس من الميسور أن نحسب كيف يكون مجرى العمل الأصلي...»

وأخذ جريتينز يتكلم وقد انحنى على البليار بجسمه كله يحرّك العصا على يده المعروقة هنا وهناك مسدداً في تؤدة «أرجوك يا بودنبروك ... هذا الاتحاد الجمركي... يعنيني فهمه . إن نظامنا بسيط بالتأكيد وعملي أليس كذلك ؟ إن الاعتماد على يمين المواطن...»

فقال القنصل مسلماً بهذا : «هذه سنة قديمة جميلة» .

فقال السناتور لانجهالز غاضباً بعض الشيء : «كلا في الحق ياسيدي القنصل ـ إذا كنت تجد فيه شيئاً جميلاً! إنّي لست تاجراً... لكنني إذا شئت أن أكون شريفاً ـ كلا ، إن هذا الذي يتعلق بيمين المواطن شر ، هذا ما يجب أن أقوله تدريجياً! لقد أصبحت هذه اليمين رسماً من الرسميّات يمكن تخطّيه... ومجلس الشيوخ متغاض... إنهم يتحدّثون عن أشياء هي في الواقع سيئة . إني مقتنع بأن الدخول في الإتّحاد الجمركي من جانب مجلس الشيوخ...»

فدقّ السيد كوبن الأرض بعصاه غاضباً قائلاً : «إن النزاع لينشبنّ عندئذ» . ونطق كلمة «النزاع» على غير ماتنطق به ثمّ ركّز انتباهه لينطق النطق الصحيح وقال : «النزاع» إني ملم بهذه الأمور . ومع الاحترام الجدير بك ياحضرة السناتور ، لن تجد من يناصرك . حاشا» وتكلّم بحرارة عن لجان الفصل ومصلحة الدولة ويمين المواطن والدولة الحرة...

والحمد لله أن وصل جان جاك هوفشتيده متأبطاً ذراع القس فوندرليش . وكانا رجلين مسنّين جريئين مبتهجين من عصر كان أقل من هذا العصر همّاً .

وأنشأ يقول : «الآن يا أصدقائي الشجعان . عندي لكم نادرة ، شيء مضحك ، شعر بالفرنسية... فانتبهوا ؟ ؟»

وتبحبح على مقعد تجاه اللاعبين الذين كانوا يستندون الى مائدتي البليار متّكئين على

عصيّهم ، وأخرج ورقة صغيرة من جيبه ، ووضع سبّابته الطويلة وفيها الخاتم على أنفه الحاد ، وتلا في نبرة مرحة ساذجة كأنه يلقي ملحمة :

كان مارشال سكس ذات مرة
يسوق عربته المذهّبة
ومعه مدام بومبادور ذات الخيلاء
كانا يتنزّهان مبتهجين
فرأى فريلون هذا الزوج
فصاح في عجب : انظروا! انظروا!
ذا سيف الملك وذا غمده .

وارتبك السيد كوبن لحظة وترك النزاع ومصلحة الدولة يذهبان الى حيث...

وضحك مع بقية الضاحكين حتى تجاوبت القاعة بقهقهاتهم . وكان القس فوندرليش قد انتحى ناحية إحدى النوافذ يضحك هناك في هدوء ضحكاً مكتوماً يدل عليه اهتزاز بين كتفيه .

وبقي الجميع فترة طويلة معاً ، هنا في قاعة البليار ، ذلك أن هوفشتيده كان يتحفهم بنكات أخرى من هذا القبيل . وكان السيد كوبن قد فكّ أزرار صدرته كلها وقد انشرح صدره ، إذ ألفى نفسه أحسن حالاً ممّا كان على المائدة في قاعة الطعام . فكان ينطق بعبارات مضحكة باللغة العامية مع كل دفعة من عصاه ويلقي بين الحين والحين :

كان مارشال سكس...

وقد كان هذا الشعر يتبين تبيّناً عجيباً في صوته الجهير الخشن .

الفصل التاسع

كان الوقت متأخراً تقريباً والساعة تناهز الحادية عشرة لما أن أخذت الجماعة تستعد للانصراف في وقت يكاد يكون واحداً بعد أن اجتمعت مرة أخرى في حجرة المناظر الطبيعية ، فصعدت القنصلة الى غرفتها بعد أن قبّل الجميع يدها ، لتطمئن على كريستيان المريض ، وتركت للآنسة يونجمان الإشراف على الفتيات في نقل الفضيات ، وانسحبت مدام انطوانيت الى الطبقة «المسروقة» . لكن القنصل هبط بالضيوف الدرج وصحبهم عبر الرحبة الى باب البيت حتى الشارع .

وكانت ريح حادة تهب فتطير المطر منحرفاً فتسلل الزوجان كروجر المسنّان في فرائهما الوثير الى مركبتهما الفاخرة مسرعين ، وكانت تنتظر طويلاً . وكان الضوء الأصفر المنبعث من مصابيح الزيت المشتعلة أمام البيت على عمد أو متدلية من سلاسل سميكة تقطع الشارع ، مندلعاً يضطرب وهنا وهناك تبرز البيوت بمبانيها الأمامية الى الشارع المنحدر الى نهر تريفه . وكان بعض هذه البيوت مزوّداً بملحقات أو دكّات ، والكلأ الرطب نابتاً بين البلاط الرديء وكنيسة مريم قائمة هناك غائمة تكتنفها الظلمة ويبللها المطر .

وقال ليبرشت كروجر : «شكراً» وضغط على يد القنصل الذي كان واقفاً الى جانب المركبة : «شكراً ياجان فقد كان اجتماعاً أشهى مايكون!» واصطفق باب المركبة ودرجت مبتعدة . كذلك سلك فوندرليش والسمسار جريتينز سبيلهما شاكرين وقال كوبن في معطفه ولفاعته المخمّسة الثنايا وقبعته العالية الرمادية المترامية على رأسه ، والى ذراع زوجته البدينة ـ قال بصوته الجهير في أشد انخفاض :

«عم مساءً يا بودنبروك ! والآن ادخل حتى لاتبرد . شكراً جزيلاً ـ اسمع ؟ لقد أكلت كما لم آكل من أمد طويل وشربت أربعة من نبيذي الأحمر... طاب ليلك مرة أخرى...»

وانحدر الزوجان مع القنصل كروجر وآسرته نحو النهر بينما اتّخذ السناتور لانجهالز والدكتور جرابو وجان جاك هوفشتيده الطريق العكسي...

كان القنصل بودنبروك يقف ويداه مدسوستان في جيبي سرواله الرائق ، مرتدياً سترته الجوخية على بعد خطوات من باب البيت يرتعش قليلاً وينصت الى وقع الخطى في الشوارع المقفرة البليلة الضعيفة الإضاءة ، ثمّ استدار وتطلّع الى واجهة البيت الجمالونية فتريثت عيناه عند الكلمة المنقوشة فوق المدخل بأحرف قديمة[1] Bominus Providebit ودخل البيت مطأطىء الرأس قليلاً وأقفل الباب الثقيل الصرّار بعناية ثمّ خطا متئداً عبر الرحبة الرنانة . وكانت الطاهية تهبط الدرج تحمل صينية شاي مليئة بالأقداح المقعقعة فسألها : «أين السيد يا ترينا ؟»

قالت : «في قاعة الطعام ياسيدي القنصل» . واحمرّ وجهها احمرار ذراعيها ، ذلك أنها كانت من الريف ترتبك بسرعة .

وصعد الدرج وأتت يده وهو مايزال في بهو الأعمدة المظلم بحركة صوت جيب صدريّته حيث طقطقت الورقة . ثمّ دخل القاعة حيث كان مايزال في ركن من أركانها بقايا شموع تحترق فوق شمعدان وتضيء المائدة الخالية . وكانت رائحة صلصة شارلوت تثقل الهواء بحمضها .

وكان يوهان بودنبروك يغدو ويروح بقرب النوافذ متمهلاً ويداه وراء ظهره .

---

(١) الله يكفلنا .

الفصل العاشر

ووقف ومدّ يده البيضاء القصيرة بعض الشيء لكنها يد بديعة التكوين كأيدي آل بودنبروك ـ مدّ هذه اليد الى ابنه قائلاً : «والآن يا ابني يوهان أين تسير هناك ؟» وكان شخصه المتين الذي لايتبيّن فيه سوى بياض عارية شعره المرشوشة بالمسحوق وحلية الدنتيلا يتميز بمظهره الباهت القلق من حمرة ستائر النوافذ الداكنة . قال : «ألم تتعب بعد ؟ إني أسير هنا وأنصت للريح...إنه جو لعين! إن القبطان كلوت في طريق عودته من ريجا... »

«إن كل شيء سيصلح ياأبي بمعونة الله!»

«هل أعتمد على هذا ؟ فلنسلّم بأن مابينك وبين الله عامر...»

فازداد ارتياح القنصل لهذه النفسية الطيبة...

وأنشأ يقول : «لكي ندخل في الموضوع لاأجتزىء بأن أتمنّى لك يا أبي ليلة طيبة بل... ولكن لاتغضب ، أليس كذلك ؟ إنني لم أرد الى الآن ازعاجك في هذا المساء البهيج بهذه الرسالة التي وصلت بعد ظهر اليوم...»

«السيد جوتهولد ـ إنه هو!» واصطنع الشيخ الهدوء حيال الورقة المختومة المائلة الى الزرقة التي تناولها . «الى السيد يوهان بودنبروك الأكبر... شخصي...» إنه رجل يحافظ على اللياقة ، أخوك هذا غير الشقيق يا جان . هل رددت على رسالته الثانية أخيراً بحال من الأحوال ؟ ومع ذلك يكتب رسالة ثالثة...وبينما كان وجهه الوردي يتجهّم شيئاً فشيئاً فضّ ختم الرسالة بإحدى أصابعه ، وفتح الورقة في سرعة ، ومال نحو الشمعدان ليضيء الورقة ، وضربها بظاهر يده ضربة قوية . وكان الإنفعال والعصيان يبدوان حتى في هذا الخط ، ذلك

أنه بينما الأسطر التي يخطها آل بودنبروك تجري على الورق دقيقة مائلة كانت هذه الأحرف قائمة منتصبة تنم عن ضغط مباغت . وقد كانت هذه كلمات كثيرة مخطوطاً تحتها بحركة سريعة مقوّسة من القلم .

وكان القنصل قد انتحى جانباً شيئاً ما الى الحائط الذي تستند اليه المقاعد . لكنه لم يجلس إذ كان أبوه واقفاً . بل كان فحسب يقبض بحركة عصبية على أحد المساند العالية يراقب الشيخ الذي كان يقرأ مائلاً برأسه ، مقطّب الحاجبين ، تتحرّك شفتاه بسرعة .

«أبي!» . اني لآمل ، لما لحقني على التحقيق من إساءة ، أن يكون روح الحق يحدوكم بحيث يقدّر الغضب الذي أحسسته لما أن بقي خطابي الثاني ، العاجل كما كان الخاص بالمسألة المعروفة ، بلا رد... بعد أن تلقّيت على الأول رداً (لا أذكر بأي أسلوب كُتب!) . ويجب أن أقول لكم إن الاسلوب الذي توسّعون به بعنادكم الهوة بيننا ، والشكوى لله ، خطيئة ستسألون عنها يوماً أمام عرش الديان ، وتحاسبون عليها حساباً عسيراً . وإنه لمن المحزن أنكم من سنين وأيام لمّا أصغيت ضد إرادتكم أيضاً ، لداعي القلب ، وتزوجت من تلك التي باتت زوجتي من ذلك الحين ، وجرحت ، بتولي حانوت تجاري ، كبرياءك التي لاتعرف حداً ـ تحوّلتم عنّي بكل قسوة تحوّلاً تاماً . بيد أن الصور التي تقطعونني بها الآن تصرخ نحو السماء ، فإن كنتم تعنون أني سأقنع بصمتكم وألزم الهدوء ، فإنكم تخطئون خطأ جسيماً ، إن ثمن شراء البيت الذي اقتنيتموه في شارع منج بلغ ١٠٠٠٠٠ مارك ، وقد علمت الى ذلك أن ابنكم من زواج ثان وشريككم يوهان ، يقيم عندكم بالإجرة ، وإنه بعد موتكم سيؤول اليه البيت مع المتجر بوصفه المالك الوحيد . وقد عقدتم مع أختي غير الشقيقة المقيمة في فرانكفورت وزوجها اتّفاقات ليس لي أن أتدخّل فيها . لكنكم في ما يعنيني أنا ابنكم الأكبر يدفعكم غضبكم الذي لايقره الدين المسيحي الى حد أن ترفضوا رفضاً باتاً أن يكون لي أي مبلغ على سبيل التعويض عن نصيبي في البيت! وقد اجتزت المحنة في صمت لما أن دفعتم لي في زواجي ولإستقراري ١٠٠٠٠٠ مارك وأوصيتم لي بنصيب إجمالي في الميراث قدره ١٠٠٠٠٠ مارك وكنت إذ ذاك لاأدري على الإطلاق مقدار ماتملكون من ثروة دراية كافية . أمّا الآن فإني أرى أجلى مما كنت أرى من قبل . ولمّا كنت في غير حاجة الى أن أعد نفسي ، من حيث المبدأ محروماً من الميراث ، فإني أطالب في هذه الحالة الخاصة بتعويض قدره ٣٣٣٣٥ ماركاً أي

بثلث ثمن الشراء . ولست أريد الاسترسال في تخمينات عن المؤثرات اللعينة التي يرجع اليها سبب معاملة اضطررت الى تحمّلها حتى الآن ، لكنني أحتج عليها بكامل روح الحق الذي يحدو المسيحي ورجل الأعمال ، وأؤكّد لكم للمرّة الأخيرة أنني ، إذا لم يصح عزمكم على إجابة مطالبي العادلة ، سأكف عن احترامكم بوصفكم مسيحياً ووالداً ورجل أعمال .

جوتهولد بودنبروك

قال الشيخ : لاتؤاخذني إذا لم يسرّني أن أتلو عليك هذه الإبتهالات مرة أخرى . ـ فهاكها! ورمى يوهان بودنبروك بالخطاب الى ابنه .

فالتقطه القنصل حينما هبط الى علو ركبتيه ، وتابع خطى أبيه بعينين مضطربتين حزينتين . وتناول الشيخ مطفأة الشموع الطويلة ، وكانت مركونة بقرب النافذة ، وسار بها منتصباً ، غاضباً ، على امتداد المائدة نحو الركن المقابل الى الشمعدان الكبير .

قال : « كفى! لن نتكلّم بعد الآن . انتهينا! الى الفراش! والى الأمام! » . واختفت شعلة بعد أخرى تحت القمع المعدني الصغير المثبّت في أعلى المطفأة من دون أن تقوم له قائمة . وكانت شمعتان ماتزالان تحترقان لما التفت الشيخ ثانية الى ابنه الذي كاد ألا يتبيّنه هناك الى الخلف .

« حسناً ، لِمَ تقف ، ماذا تقول ؟ لابدّ أن تقول شيئاً! » .

« ماذا أقول يا أبي ؟ ـ إني لفي حيرة » .

فرماه يوهان بودنبروك في توكيد قوي : « ماأسهل ماتحار! » مع أنه كان يعلم أن هذه الملاحظة لاتنطوي على كثير من الصدق وأن ابنه وشريكه أحياناً مافاقه في حزم الرأي وانتهاز المنفعة .

ومضى القنصل يقول : « مؤثرات سيئة ولعينة... هذا أول سطر أفك رموزه ، إنّك يا أبي لاتتصوّر كم يعذّبني هذا ؟ ثمّ هو يرمينا بالمروق من المسيحية! » .

واقترب يوهان بودنبروك غاضباً يقول : « أتدع هذا الكتاب الأسيف يؤثر فيك ؟ » وكان يجر المطفأة . « مروق من المسيحية! ها! يجب أن أقول إن هذا كلام ينمّ عن الذوق . ـ هذا الجشع المشبع بالتقوى! أي نوع من الرفاق أنتم أيها الشبان ؟ ـ هيه . رأس محشو بترّهات عن المسيحية الخيالية...

والـ... مثالية! أمّا نحن الكبار فالساخرون القساة... والى جانب ذلك ملكية يوليه والمثل العليا العملية... وإيثار رمي الأب المسن بأقذع الشتائم تبعث اليه في بيته ، عن التنازل عن بضعة آلاف ريال! وتكرمه باحتقاري بوصفي رجل أعمال! والآن ، إني أعرف كرجل أعمال ماهي النفقات العرضية ـ النفقات العرضية » . مكرّراً الراء بغرغرة فرنسية مغيظة . «أبي لاأجعل هذا الابن العاق المتعالي أطوع لي إذا أنا أذللت نفسي وتساهلت... » .

«ياأبي العزيز بم ينبغي أن أجيب . إني لاأريد أن يكون على حق في كلامه عن المؤثرات . إن لي مصلحة كشريك ، ولهذا بالذات لايجوز أن أشير عليك بالإصرار على هذه النقطة . ومع ذلك فإني لاأقل مسيحية طيبة عن جوتهولد ، مع ذلك... » .

«مع ذلك! إنك محق بشرفي في قولك» مع ذلك ياجان ، فكيف تبدو الأمور في الحق ؟ إذذاك حين ألهبته آنسته شتيونج ، وحين أثار معي مشهداً إثر مشهد ، وخلافاً إثر خلاف ، ثمّ عقد في النهاية هذه الزيجة تحدياً لحظري الصارم . إذذاك كتبت اليه : يابني العزيز جداً . إنّك تتزوج حانوتك . انتهينا . إنّي لن أحرمك من الميراث . ولن أثير فضيحة ، لكن الصداقة بيننا قد انتهت . هاك مهراً مائة ألف . وسأوصي لك بمائة ألف أخرى ، وبهذا ننتهي . بهذا سُوّيَ حسابك ، فليس لك عندي شلن أكثر . –وقد سكت على ذلك . فهل من شأنه أننا عقدنا صفقات ؟ وإنّك وأختك أصبتما نصيباً طيباً فوق ما أصاب ؟ وإنه اشترى بيتاً من ميراث هو ميراثكم ؟... » .

«لو أدركت يا أبي في أي مأزق أنا! إنني ليجب عليّ حرصاً على سلام الأسرة أن أنصح... لكن » وتنهّد القنصل تنهداً خافتاً ، وهو مستند الى كرسيه . وتلمّس يوهان بودنبروك وهو متكىء على المطفأة مايمكن أن يكون على وجه ابنه من تعبير في هذا الضوء القلق الخابي . وانتهت الشمعة قبل الأخيرة من الاحتراق ، وانطفأت من نفسها ، فلم يبق سوى واحدة لايزال لهيبها مندلعاً هناك الى الخلف . فكانت بين الحين والحين تظهر من كوة الحيطان صورة عالية بيضاء تبتسم ابتسامة هادئة ثمّ تختفي ثانية .

وقال القنصل بصوت خافت : «أبي ـ إن هذه الحالة القائمة بيننا وبين جوتهولد تمضّني! » .

«سخف ياجان ، فلتطرح العاطفية! فما الذي يمضّك ؟ » .

«أبي... لقد كنّا اليوم مجتمعين هنا ترنق علينا البهجة . لقد احتفلنا بيوم جميل ، وكنّا فخورين سعداء في وعينا أننا أدّينا شيئاً يذكر... وأننا بلغنا شيئاً يذكر... وأننا رفعنا من شأن

شركتنا ومن شأن أسرتنا . حيث بات لها أكبر قسط من التقدير والاعتبار... لكن يا أبي ، هذه القطيعة السيئة لأخي ولإبنك الأكبر... إنه لاينبغي أن يسري في الصرح الذي شيّدناه بمعونة الله صدع خفي... إن الأسرة يجب أن تكون متّحدة ، يجب أن تكون متراصّة يا أبي وإلا طرق الشر الباب...» .

«ترّهات ياجان! مساخر! ولد عنيد...» .

وساد الصمت برهة . وهبط اللهيب الأخيرثمّ جعل يزداد هبوطاً .

وسأل يوهان بودنبروك : «ماذا تعمل ياجان ؟ إنّي لم أعد أراك» .

فقال القنصل في برود : «إني أحسب» . واندلعت الشمعة فرأى أبوه كيف كان يحدّق في اللهيب الراقص بقامة منتصبة وعينين باردتين يقظتين كما لم تكونا أثناء الأصيل بطوله .

«من جهة : يعطى جوتهولد ٣٣٣٣٥ والتي في فرانكفورت ١٥٠٠٠ ، ومن جهة أخرى : تعطى التي في فرانكفورت ٢٥٠٠٠ فيعني هذا للشركة ربحاً قدره ٢٣٣٣٥ ، غير أن هذا ليس كل شيء . فإذا فرضنا أنّك دفعت الى جوتهولد تعويضاً عن نصيبه في البيت خرق المبدأ وكأن لم تسوِ حالته عندئذ ، فيصبح في وسعه بعد موتك أن يطالب بنصيب متساوٍ من الميراث مثلي ومثل أختي ، ويضحي الأمر بالنسبة للشركة خسارة مئات ألوف لاتستطيع الشركة أن تتوقّعها ولاأستطيع أنا بوصفي صاحبها الوحيد في المستقبل أن أتوقعها... كلا ياأبي» . وكان تصميم صاحبته حركة نشطة ، وامتدّت قامته أطول ممّا كانت . ثمّ استطرد يقول : «إنّي يجب ألا أشير عليك بالتساهل!» .

«اذن انتهينا! فلا نتكلّم في هذا بعد الآن! الى الأمام . الى الفراش» .

وانطفأ آخر لهيب تحت القمع المعدني . ومشى الإثنان في ظلام دامس مخترقين بهو الأعمدة ، وفي الخارج ، عند الصعود الى الطبقة الثانية هزّ كل منهما يد الآخر .

«طاب ليلك ياجان... تشجع! فهذا نكد لابدّ منه... الى اللقاء في الصباح عند الإفطار!» .

وصعد القنصل الدرج الى مسكنه ، وتحسّس الشيخ طريقه الى الدرابزين الى الطبقة «المسروقة» ثمّ طوى الظلام البيت الفسيح القديم مغلقاً وشمله السكون وقرّت الكبرياء والآمال والمخاوف بينما كان المطر يتساقط رذاذاً في الشوارع الساكنة ، وريح الخريف تصفر من حول الجمالون والأركان .

الجزء الثاني

الفصل الأول

بعد سنتين ونصف سنة حوالي منتصف أبريل ، جاء الربيع مبكّراً عن المعتاد ، ووقع في الوقت نفسه حادث جعل يوهان بودنبروك الكبير يغني من الغبطة ، وفرح له ابنه أكبر الفرح .

كان القنصل جالساً في الساعة التاسعة من صباح يوم أحد في حجرة الإفطار أمام المكتب الكبير البنّي القائم الى النافذة والذي كان غطاؤه المقبو مفتوحاً بفعل تركيب آلي أريب . وكانت أمامه حافظة سميكة من الجلد مليئة بالورق ، لكنه استخرج كراسة مذهبة ذات غلاف مضغوط ، وجعل يكتب وهو منكب عليها بخطه الرفيع السريع الدقيق ، يكتب بنشاط ومن دون توقّف الا أن يغمس ريشة الأوزة في الدواة المعدنية الثقيلة...

وكانت كلتا النافذتين مفتوحة ، وفي الحديقة حيث الشمس الرفيقة تلقي أشعتها على البراعم الأولى ، وحيث تتجاوب بضعة من أصوات الطيور الصغيرة وتبادل الردود الجريئة ، كان هواء الربيع يهب مفعماً برائحة التابل الصابح اللطيف ، ويحرّك الفينة بعد الفينة الستائر هونا ما في خفة وبلا صوت . وكانت الشمس تستقر هناك زاغلة فوق مائدة الإفطار ساطعة على مفرش التيل المنتثر هنا وهناك بالفتات ، وتلعب في التفافات وقفزات صغيرة خاطفة بتذهيب الفناجين الشبيهة بالأجران...

وكان الباب المؤدي إلى حجرة النوم مفتوحاً على مصراعيه ومن هناك ينتهي صوت يوهان بودنبروك وهو ينغم في خفوت شديد نغمة قديمة مضحكة :

رجل طيب ، رجل ظريف
رجل هاش رقيق

يطهو الحساء ويهزّ الطفل
ومنه يفوح خمير البرتقال .

وكان جالساً بجانب المهد الصغير ذي الستائر الحريرية الخضراء القائم عند سرير القنصلة العالي يهزه بيده هزّات وتيرة . وقد رتّبت القنصلة وزوجها هنا تحت مقاماً لهما لبعض الوقت تسهيلاً للخدمة بينما أبوهما ومدام انطوانيت التي كانت جالسة الى الخلف على المائدة مشغولة بالفانيلا والكتّان ترتدي منزراً على ثوبها المخطط ، وعلى خصلها البيضاء الرابية قلنسية بالدنتيلا ـ يستعملان الحجرة الثالثة من الطبقة «المسروقة» للنوم .

وكان القنصل بودنبروك يكاد لايشمل الغرفة المجاورة بنظرة ، إذ كان مشغولاً الى هذا الحد بعمله . وكان على وجهه سيماء الجد يكاد يعاني من فرط تديّنه ، قد افترّ ثغره بعض الافترار ، وتدلّت ذقنه بعض الشيء وتغيم عيناه بين الحين والحين ، كان يكتب :

«اليوم في الرابع عشر من أبريل ١٨٣٨ في الساعة السادسة صباحاً وضعت زوجتي العزيزة اليصابات ابنة كروجر بعون الله ولطفه بنتاً في أسعد حال . وقد سُميت كلارا في التعميد المقدّس . وكانت ولادتها فضلاً من الله أعانها القدير عليها ، وإن جاءت على قول الدكتور جرابو قبل أوانها بقليل فلم يجرِ كلّ شيء على خير مايرام ، وعانت بتسي الشديد من الآلام . آه ، أين الإله الذي يعدلك أنت الذي تمدّ يد العون في كل المحن وكل الأخطار وتعلمنا أن نتبيّن إرادتك لنخشاك ونخضع لإرادتك ونتّبع وصاياك! آه ، ياالله ، قدنا وسدّد خطانا نحن جميعاً مادمنا على الأرض نبغي الحياة...» وجرى القلم سلساً ، سريعاً ، يرسم هنا وهنا خطاً للزينة كما يفعل التجار ، ويتحدّث سطراً سطراً الى الله . وقد جاء بعد صفحتين :

«لقد قررت لابنتي الصغرى مرتباً قدره ١٥٠ ريالاً فاللهم أهدها الصراط المستقيم وهبها من لدنك قلباً طاهراً تدخل به ذات يوم منازل السلام الأبدي ، ذلك أننا نعلم حق العلم كيف يصعب الإيمان كل الإيمان بأن المسيح الحبيب الوديع لي بأكمله ، لأن قلبنا الأرضي الصغير الضعيف...»

وبعد ثلاث صفحات ختم القنصل بآمين . بيد أن القلم واصل جريانه ، وتابع صريره فوق صفحات أخرى ، يكتب عن المورد العذب الذي ينقع غلة الجانب المجهد ، وعن جراح مسعد البشر المقدسة التي تقطر دماً ، وعن الطريق الضيق والطريق العريض ، وعن جلال الله . ولا ننكر أن القنصل كان بعد هذه الجملة أو تلك يجنح الى الإكتفاء ، وإقرار القلم ،

والتوجّه الى زوجته أو الى المكتب . ولكن كيف ؟ هل أسرع اليه التعب من مناجاة خالقه وحافظه ؟ وأي جحود لمولاه أن يكف الآن عن الكتابة... كلا ، كلا ، فهو لكي يكبح رغبته الجامحة جعل يستشهد بآيات طويلة من الكتاب المقدّس ويصلّي لوالديه وزوجه وأطفاله ونفسه . وقد صليّ لأخيه جوتهولد أيضاً ، ـ وأخيراً وبعد آية أخيرة من الانجيل و « آمين » أخيرة كررت ثلاث مرات ، رشّ رملاً أصفر على ماكتب ، واستند الى الوراء متنفّساً الصعداء ، ووضع ساقاً على ساق ، وجعل يكرّ ورق الكراسة متصفّحاً إياه في تؤدة ، ليقرأ هنا وههنا فقرة من التاريخ والتأملات التي جرى بها قلمه فيها ، وليستشعر مرة أخرى السرور حين يتبيّن كيف باركه الله دائماً وحماه من كل خطر ، وقد نزل به الجدري شديد الوطأة حتى يئس الجميع من حياته ، لكنه نجا . ومرة ـ وكان مايزال غلاماً ـ شهد الاستعدادات لعرس من الأعراس فخمرت البيرة بكثرة (إذ كانت العادة القديمة أن تخمّر البيرة في البيوت) وأقيم لهذه الغاية برميل أمام البيت ، فسقط البرميل ، وأصاب الغلام في طرقعة وعنف بلغ منهما أن بادر الجيران اليه وبذل ستة منهم جهداً كبيراً في رفع البرميل وإقامته من جديد . وقد رضّ رأس الغلام وسال دمه غزيراً على جسمه ، وحمل الى حانوت ، وإذ كان ذماء من حياة مايزال فيه حمل إلى طبيب وإلى الجراح . . . وصبّر الناس أباه وطلبوا إليه الاستسلام الى الله فيما يرجى للغلام حياة . ثمّ ، واسمع! لقد بارك الله القدير العلاج وردّ اليه العافية وأسبغ عليه الشفاء! ـ فلمّا استحضر القنصل هذا المصاب في ذهنه من جديد أمسك بالقلم ثانية وكتب بعد آمين الأخيرة : « أي ربّاه ، سأظل أسبّح بحمدك على الدوام! » .

وفي مرة أخرى لما جاء الى برجن وهو مايزال فتى أنجاه الله من خطر عظيم... وهذا ما كتب : « وإذ كان علينا في زمن المد حين تصل مراكب خط الملاحة الشمالي ، أن نعمل جادين لنمرّ من القوارب ونصل إلى حسرنا ، حدث لي خلال ذلك أن كنت واقفاً على حافة المركب أطأ بقدمي حلقات المجذاف أسند ظهري الى القارب الشراعي محاولاً الإقتراب بالمركب . ولسوء الحظ انكسرت حلقات البلوط التي كنت أضع قدمي عليها فانقلبت الى الماء . فلمّا طفوت على السطح أول مرة لم يكن أحد قريباً منّي الى حد أن يستطيع الإمساك بي . وطفوت لثاني مرة فإذا بالقارب يتجه الى ما فوق رأسي . وكان هناك الكفاء ممّن يريدون إنقاذي لكنه كان عليهم أن يدفعوا حتى لايستقر القارب الشراعي والمركب فوق رأسي . وما كان كل دفعهم ليجدي لو لم يفلت في هذه اللحظة حبل من قارب شراعي تابع لخط الملاحة الشمالي فاندفع عرضاً ، وبهذا انفرجت أمامي فسحة واسعة من الماء

الطليق فأخلت الأقدار لي بهذا مكاناً . ومع أني لم أطف مرة ثالثة إلا بقدر ماظهر شعر رأسي للعيان فقد حدث أن أحدا ممن كانوا هنا أو هناك في المركب منكبّين فوق الماء ، وكان رأسه مطلاً منها منكفئاً الى الأمام ، أمسك بي من ناصيتي فتعلقت بذراعه . لكنه لمّا لم يستطع هو نفسه تماسكاً صاح وزعق بحيث سمعه الآخرون فبادروا اليه يقبضون عليه من وسطه ويحتجزونه بقوة حتى استطاع الصمود . كذلك أنا لم أرخِ قبضتي وإن كان الرجل قد عضّني في ذراعي ، وكان بذلك أن استطاع معونتي...» وتلا هذا صلاة شكر مستفيضة ، تلاها القنصل بعينين ثرّتين .

وجاء في موضع آخر : «كنت خليقاً أن أروي الكثير لو أنّي عنيت باكتشاف نزواتي ، لكن...» وتجاوز القنصل هذا الكلام وجعل يقرأ هنا وههنا بضعة أسطر من عهد زواجه وشعوره بالأبوة لأول مرة . وهذه الرابطة ، إذا كان لابدّ أن يكون صادقاً ، لم تكن بالذات مايسمّيه الناس زواجاً عن حب . فقد ربت على كتفه يوماً ووجه التفاتة الى ابنة كروجر الثري الذي قدم الى الشركة بائنة طائلة ، فوافق من قلبه على الزواج منها وجعل من ذلك الحين يحترم زوجته كرفيقة جعلها الله في كنفه وعهد بها اليه...

على هذا المنوال سار أبوه في زواجه الثاني

رجل طيب ، رجل ظريف
رجل هاش رقيق .

بهذا كان يتغنّي بصوت خافت في حجرة النوم . ومن أسف أنه لم يكن يقدّر هذه المذكّرات والأوراق القديمة كثيراً . فقد كان واقفاً في الحاضر على كلتا ساقيه لايشتغل كثيراً بماضي الأسرة ، وإن كان فيما مضى قد زاد على الكراسة الذهبية السميكة بضع ملاحظات بخطه الذي لايخلو من التنميق وفيما يتّصل بزواجه الأول على الأخص .

وفتح القنصل الصفحات الأولى التي كانت أقوى وأخشن من الورق الذي ضمه بنفسه اليها والتي بدأت تصفرّ... أجل ، إن يوهان بودنبروك لابدّ أن كان يحب هذه الزوجة الأولى ، ابنة تاجر من بريمن ، حبّاً جماً . والسنة الواحدة القصيرة التي سمحت له الأقدار بأن يعيشها الى جانبها قد كانت أجمل سنيّه . وقد جاء في الكراسة عنها «السنة التي هي أسعد سنة في حياتي» . وقد خطّ تحت هذه العبارة خطاً متموجاً فكانت هناك معرضة لخطر اطّلاع مدام انطوانيت عليها...

ثمّ ولد جوتهولد فكان سبباً لهلاك جوزفين... ودوّنت ملاحظات على القرطاس الخشن

تتّصل بذلك . ويلوح أن يوهان بودنبروك أبغض هذا الكائن الجديد بغضاً حقيقياً مريراً من تلك اللحظة التي سبّبت فيها تحرّكاته الأولى الجريئة لأمه آلاماً شنيعة حتى جاء الى هذه الدنيا صحيحاً نشيطاً ، بينما قضت جوزفين وهي تتلوى على الوسائد برأسها الذي هرب الدم منه ، ولم يغفر هو قط لهذا الدخيل الذي لم يبال ، والذي نما قوياً خلي البال . إنه قتل أمه... وهذا شيء لم يفهمه القنصل . فقد ماتت في رأيه وهي تؤدي واجب المرأة السامي ، ولكان خليقاً أن يحول الى المولود حبه لأمه التي حبته بالحياة وخلفته له راحلة هي ، ويخصه بالحنان... لكنه ، أي الأب ، لم يرَ في ابنه الأكبر غير الشقي الذي هدم سعادته . ثمّ تأهّل بعد ذلك بأنطوانيت دوشان سليلة الأسرة الهامبورجية الغنية المبجلة فعاش الإثنان معاً في رعاية واحترام .

وقلّب القنصل في الكراسة هنا وههنا فقرأ في المؤخرة حكايات صغيرة عن أولاده هو ، متى شفي توم من الحصبة ، وتوني من اليرقان ، وكريستيان من الجدري ، وقرأ عن الرحلات المختلفة التي قام بها مع زوجه الى باريس وسويسره وماريينباد ، ثمّ رجع يقلّب حتى بلغ الصفحات التي شاعت فيها النقط الصفراء ، وألم بها التمزّق فحاكت الرقوق ، والتي خطّها الشيخ يوهان بودنبروك الجد بمداد رمادي باهت بحروف منمّقة واسعة . وقد بدأت هذه المذكرات بشجرة مديدة للنسب تتبع الخط الأصلي . وفيها كيف أن واحداً يدعى بودنبروك وهو الأكبر المعروف ، عاش في بارتشيم ، وأصبح وابنه في نهاية القرن السادس عشر عضوين في بلدية جراباو ، وكيف أن بودنبروك آخر وهو خياط أردية ماهر تزوج في رشتوك و«عاش عيشة راضية جداً » ـ وقد خطّ تحت هذا خطاً ـ وأنه أنجب عدداً ضخماً من الأولاد أمواتاً وأحياء ، كيفما اتّفق... وكيف أن واحداً آخر كان يسمّى يوهان أيضاً أقام تاجراً في روشتوك ، وكيف أن جد القنصل جاء في النهاية وبعد سنوات الى هنا وأسس شركة الحبوب . وكانت كل البيانات الخاصة بهذا الجد معروفة : متى أصيب بالحصبة ومتى بالجدري الحقيقي . كان هذا مدوناً بأمانة ، ومتى سقط من الطبقة الثالثة على الآتون ، وبقي حياً على الرغم من أن عدداً كبيراً من العوارض الخشبية كان في طريق سقوطه ، ومتى وقع فريسة حمى عاتية لازمها الهياج كل هذا كان مدوّناً تدويناً نظيفاً . وقد كان يضيف الى مدوّناته بعض الإرشادات الطيبة لذرّيته ، وفي جملتها تبرز الجملة الآتية مرسومة بعناية بخط قوطي عال محوطة بإطار : «كن ياولدي صريحاً في أعمالك لاتفعل إلا مايجعلنا ننام بالليل ملء جفوننا » . ثمّ جاء في هذه المدوّنات مايثبت تفصيلاً أن الإنجيل القديم المطبوع في فيتنبرج يخصه وأنه يؤول الى ابنه البكر ومن بعده الى أكبر أبنائه...

وجذب القنصل بودنبروك الحافظة الجلدية اليه ليستخرج هذه أو تلك من الأوراق الأخرى ويقرأها . وكانت تحتوي رسائل عتيقة مصفرة ممزّقة كانت كتبتها أمّهات مهمومات الى أبنائهنّ العاملين في الغربة وعلق عليها متلقّوها بهذه الملاحظة : «وصلت سالمة وكرم فحواها» وكان فيها رسائل من مواطنين تعلوها رنوك مدينة هانزا الحرة وخاتمها ، وبوالص وقصائد تهنئة وخطابات تعميد . وكان فيها رسائل مؤثرة تتناول الأعمال ، وكان الابن كتبها في استوكهولم أو أمستردام الى الأب الشريك تجمع بين تطمينه على القمح المضمون تقريباً وتحميله السلام الى الزوجة والأولاد... وكان فيها يوميات خاصة للقنصل عن رحلته في انجلتره وبرابنت . وهي كراسة على جلدتها نحاسة تمثل قصر ادنبره وسوق الدريس . وكان فيها كوثائق محزنة رسائل جوتهولد السيئة الى أبيه ، أخيراً كخاتمة سارة قصيدة الحفلة الأخيرة التي نظمها جان جاك هوفشتيده .

ودقّ الجرس دقاً سريعاً . وكان برج الكنيسة في تلك اللوحة الكامدة اللون المعلقة فوق المكتب ، والممثلة لميدان سوق من قديم الزمان ، يحتوي ساعة حقيقية دقّت عشراً على أسلوبها . فأطبق القنصل حافظة الأسرة وأودعها في عناية درجاً خلفياً من أدراج المكتب ثمّ توجّه الى حجرة النوم .

وهنا كانت الجدران مكسوّة بقماش داكن تحلّيه أزهار كبيرة من القماش نفسه المصنوعة منه الستائر العالية المركبة على سرير النفساء . وكان جو المخدع يشيع الاستجمام والسلام بعد المخاوف والآلام . وكان الموقد مايزال يدفىء الحجرة دفئاً خفيفاً ، ورائحة يمتزج فيها ماء الكولونيا وفوح الأدوية تشيع في المكان . وكانت الستائر المسدلة ينفذ منها الضوء خابياً .

كان كلا العجوزين ينحني فوق المهد جنباً إلى جنب يتأمل المولودة النائمة لكن القنصلة وكانت ترتدي سترة أنيقة من الدانتيلا ، وشعرها المائل الى الحمرة مسرّح أجمل تسريحة ، مدت إلى زوجها ، والشحوب بادٍ عليها لم يزايلها بعد ، وإن كانت مشرقة الوجه بابتسامة سعيدة ، يدها الجميلة التي كان يصل على معصمها سوار ذهبي ويرن رنيناً خفيفاً . وقد أدارت في ذلك باطن اليد على قدر الإمكان جرياً على عادتها ، فبدا هذا كأنّما يرفع في تأثير المحبة البادية في هذه الحركة...

«والآن كيف حالك يابتسي ؟» .

«بديع ، بديع يا جان ياحبيبي» .

وأدنى وجهه من الطفلة قبالة أبويه ويده في يد زوجه وكانت الطفلة تتنفّس بصوت

مسموع فاستنشق أبوها خلال دقيقة عبيراً دافئاً طيباً مؤثراً كان ينتشر منها وقال بصوت خافت : «فليباركك الله!» وقبّل جبين الكائن الصغير وكانت أصيبعاته الصفراء المجعّدة تشبه براثن الدجاج شبهاً غريباً! .

ولاحظت مدام انطوانيت : «لقد رضعت رضاعاً عظيماً . انظروا لقد زادت زيادة مدهشة...» .

وكان وجه يوهان بودنبروك متهللاً اليوم من الغبطة والفخر . قال :«أتصدّقون أنها تشبه انطوانيت . إن لها عينين سوداوين تبرقان ، ماشاء الله!» .

فعارضت السيدة العجوز في تواضع : «كيف يمكن الكلام من الآن عن الشبه... أتريد الذهاب الى الكنيسة ياجان ؟» .

قال : «أجل ، إنها العاشرة . لقد حان الوقت ، وإني أنتظر الأطفال...»

وسمعت أصوات الأطفال بالفعل . وكانوا يضجّون على الدرج على غير ماينبغي ، بينما كان صوت كلوتده يقع كالفحيح يدعوهم الى الهدوء . لكنهم دخلوا بعدئذ وهم في معاطف الفراء ، إذ كان الجو مايزال بارداً بطبيعة الحال في كنيسة مريم ، ومشوا مخافتين حذرين ، مراعاة أولاً للأخت الصغيرة ولأنه كان ثانياً من الضروري أن يجتمعوا قبل الصلاة . وكانت وجوههم متورّدة من الانفعال فيا له من عيد اليوم! فلا بدّ أن للقلق ، وهو لقلق ذو عضلات قوية ، قد جلب مع الأخت الصغيرة كل فاخر وغال : حافظة كتب جديدة ، وجلب كلب بحر لتوماس ، ودمية كبيرة بشعر حقيقي ، وهذا هو الشيء الفريد-لأنتونيا ، وكتاباً مصوّراً زاهياً بالألوان لكلوتيده المطيعة التي كانت تستأثر من دونهم بأقماع السكر في هدوء وامتنان ، وقد جاء بها اللقلق أيضاً ، كما جاء لكريستيان بمسرح كامل للعرائس وفيه السلطان والموت والشيطان .

وقبّلت الأولاد أمهم ، وسمح لهم بأن يلقوا مرة أخرى من خلف الستارة الحريرية الخضراء نظرة سريعة في احتياط وحذر ، ثمّ خرجوا في صمت وسكون الى الكنيسة في صحبة الوالد الذي ألقى على كتفيه معطفاً ذا قلابة عريضة ، وتناول بيده كتاب المزامير ، يتبعهم صياح عضو الأسرة الجديد يخرق الأسماع بعد أن استيقظ بغتة...

الفصل الثاني

كانت توني بودنبروك تخرج دائماً في الصيف وربّما في مايو أو يونيه ، الى جدّيها تجاه «باب القصر» مبتهجة مسرورة .

ذلك أن الحياة هناك في الخلاء كانت طيبة ، الحياة في الفيلا المجهّزة بالأثاث الفاخر ، المزوّدة بالأبنية الملحقة المترامية ، والمساكن المخصصة للخدم ومحطّات المركّبات ، والحديقة الهائلة المزروعة بالفواكه والخضر والأزهار المنحدرة في انحراف إلى نهر ترافيه . وكان آل كروجر يعيشون في بذخ . ومع أن هناك فارقاً بين هذا الثراء الباهر البرّاق ، والنعمة المكينة الرصينة بعض الشيء في بيت أبوي توني ، فإنه كان من البيّن أن كل شيء عند هذين الجدّين كان أفخم درجات ممّا هو في بيتها . وقد كان لهذا وقعه في نفس الآنسة بودنبروك الصغيرة .

فليس هنا تفكير قط في عمل يؤدى في البيت أو في المطبخ ، بينما في شارع منج كان الأب والجدة يحثّانها على إزالة الغبار والإقتداء بإبنة عمها تيلده المجدة التقية المخلصة ، على حين كان الجد والأم لايعلّقان أهمية على ذلك . وكانت نزعات الإقطاع في أسرة الأم تداخل الآنسة الصغيرة إذا ما أصدرت أمراً ما من كرسيها الهزّاز الى الوصيفة أو الخادم . . . وكانت هناك فتاتان وحوذي غير هذين يتابعون خدم الزوجين العجوزين .

ويمكن القول بأنه من الأشياء المؤاتية حين يستيقظ المرء في الصباح في مخدع النوم الكبير المكسوّة حيطانه بالورق الزاهي أن يكون اللحاف الأطلس الوثير هو ماتصادفه أول حركة من اليد . والجدير بالذكر أنه حين يتناول أول طعام للإفطار في الحجرة ذات الشرفة الواقعة الى الأمام ونسيم الصباح يداعب الباب الزجاجي من الحديقة ، يقدّم قدح من

الشوكولاته بدل القهوة أو الشاي ، أجل شكولاته مما يقدّم في أعياد الميلاد تقدّم كل يوم ومعها قطعة سميكة من الفطير الطازج .

ولاريب أن هذا الإفطار كانت توني تتناوله وحدها بغضّ الطرف عن أيام الآحاد ، إذ كان من عادة الجدّين ألا ينزلا تحت إلا بعد بدء موعد الدراسة بوقت طويل . فإذا ما أكلت فطيرتها بالشكولاته تناولت حافظة كتبها وهبطت من الشرفة تدبدب ، وسارت تخترق الحديقة الأمامية المنسقة .

لقد كانت الصغيرة توني مخلوقة ظريفة غاية الظرف . كان شعرها الغزير تبرز خصله من تحت قبعة القش ، وتدكن شقرته مع الأيام . وكانت شفتها العليا المفترّة الى أعلى بعض الشيء تكسب محياها الصغير النضر بعينيها الضاحكتين ، المشربة رقتهما بالغبرة تعبيراً يدل على الجرأة يعود فيظهر في قامتها الصغيرة الظريفة . وكانت تضع ساقيها الدقيقتين في جوربين ناصعي البياض في ثبات فيه رفق وفيه مرونة . وكان الكثيرون يعرفون ابنة القنصل بودنبروك الصغيرة ويحيّونها حين تخرج من باب الحديقة الى الطريق المغروس بشجر الكستناء ، ربّما مرّت بها بائعة خضر تضع على رأسها قبعة كبيرة من القش ، مزدانة بأشرطة خضراء زاهية الألوان ، وتسوق عربتها الصغيرة الى داخل الحديقة آتية من القرية فتلقي اليها ودودة بتحية الصباح . وحمّال الحبوب ماتهيزن الطويل القامة في ردائه الأسود وسراويله المنتفخة وجوربيه الأبيضين وحذائه ذي الإبزيم ـ ماتهيزن هذا يرفع لها حين يمر بها قبّعته العالية الخشنة احتراماً .

كانت توني تظل لحظة واقفة تنتظر جارتها جوليا هاجنشتروم التي اعتادت أن ترافقها في الطريق الى المدرسة وكانت طفلة مرتفعة الكتفين قليلاً ذات عينين واسعتين سوداوين برّاقتين ، تسكن الفيلا المجاورة التي تحوطها الكروم من كل ناحية . وقد تزوج أبوها هاجنشتروم وكان في الناحية منذ عهد قريب ، من شابة فرانكفورتية ذات شعر أسود غزير بصورة غير عادية ، تحلّي أذنيها بأضخم ماسات المدينة وتنتسب الى آل سيملنجر ، وكان شريكاً في شركة تصوير تسمى شترونك وهاجنشتروم ، يبدي في شؤون المدينة كثيراً من الهمة والطموح ، أثار مع ذلك بزواجه بعض النفور عند أناس ذوي تقاليد صارمة مثل آل مولندروف ولانجهالز وبودنبروك . ولم يكن ، بغضّ النظر عن هذا ، محبوباً كثيراً على الرغم من نشاطه بوصفه عضواً في لجان ومجالس إدارة وما شاكلها . كان يبدو أنه قد صمم على مخاصمة أبناء الأسر المستوطنة من قديم في كل مناسبة ، وتسفيه آرائهم في صلف ، وإنفاذ آرائه هو والتظاهر بأنه أمهر منهم وأحذق ، وأنهم يستغنى عنهم ولايستغنى عنه . وقد

قال القنصل بودنبروك عنه : «إن هنيريش هاجنشتروم يثقل عليّ بمضايقاته... ويظهر أنه يقصدني بها شخصياً ، فحيثما استطاع اعترض طريقي . . لقد وقعت اليوم مشادة في جلسة اللجنة المركزية للفقراء ، ومن بضعة أيام مضت في الإدارة المالية...» فأضاف يوهان بودنبروك : «هذا فضول مزعج!» وفي مرة أخرى جاء الأب والإبن غاضبين مهمومين... ماذا حدث ؟ لاشيء... لقد خسروا شحنة كبيرة من الحنطة السوداء كانت سترسل الى هولنده فاختطفها شترونك وهاجنشتروم منهم أمام أعينهم . إنه لثعلب هينريش هاجنشتروم هذا .

كانت توني تسمع مثل هذه العبارات كثيراً فلا تؤثر في عواطفها نحو جوليا هاجنشتروم فتيلا فكانتا تسيران معاً لأنهما كانتا جارتين . لكنهما كثيراً ماتغضب إحداهما الأخرى .

كانت جوليا تقول : «إن أبي يملك ألف ريال» وهي تعتقد أنها تكذب كذباً شنيعاً ثمّ تستطرد : «لعلّ أباك ؟...» .

فتصمت توني من الحسد والمذلّة ثمّ تقول عرضاً في هدوء تام :

«إن الشوكولاته التي تناولتها من هنيهة لذيذة الطعم . فماذا تشربين حقاً ياجوليا في أثناء الإفطار ؟» .

فتجيب جوليا : «قبل أن أنسى . أتريدين تفاحة من تفاحي ؟ ـ لكنني لن أعطيك شيئاً» . وتزمّ في هذا شفتيها ، وتثر عيناها السوداوان من الغبطة .

وكان هرمان أخو جوليا الذي يكبرها ببضع سنوات يذهب أحياناً في الوقت نفسه الى المدرسة . ولجوليا أخ ثانٍ اسمه موريس ، لكن هذا كان متوعّكاً وكان يعلّم في البيت . وكان هرمان أشقر الشعر لكن أنفه كان أفطس قليلاً يطغى على شفته العليا . كذلك كان يسأسىء دوماً بشفتيه لأنه كان يتنفّس من فمه فقط...

قال : «سخف! إن أبي يملك أكثر من ألف ريال بكثير» . بيد أن الذي كان يثير اهتمام الغير ، هو أنه لم يكن يحمل معه خبزاً الى المدرسة لإفطاره الثاني بل خبيز الليمون ، وهو نوع طري بيضاوي معجون باللبن محشو بالزبيب يوضع عليه للتزيد مقانق اللسان أو صدر الأوز... هكذا كان ذوقه...

كانت توني بودنبروك تجد في هذا شيئاً جديداً . خبيز الليمون مع صدر الأوز . لابدّ أن يكون طيب المذاق! وعندما يدعها تنظر في علبة الصفيح تنمّ نظرتها عن اشتهائها تجربة قطعة منه . وذات صباح قال هرمان : «لاأستطيع أن أستغني عن شيء منه ياتوني . لكني سأحضر غداً قطعة زيادة . وهذه ستكون لك إذا شئت أن تعطيني في مقابلها شيئاً» .

وخرجت توني في صباح اليوم التالي الى الطريق وانتظرت خمس دقائق من دون أن تأتي جوليا . وانتظرت دقيقة أخرى فجاء هرمان وحده يطوح بعلبة افطاره من سيرها ، ويسأسىء بصوت خافت .

قال : «هاهي ذي خبيزة الليمون بصدر الاوزة ، ليس فيها دهن إطلاقاً بل كلها لحم... فماذا تعطينني في مقابلها ؟» .

فسألته توني : «ربّما شلناً ؟» وكانا واقفين في الطريق .

فردد هرمان : «شلناً ؟... . »وابتلع ريقه وقال : «لا ، إني أريد شيئاً آخر» .

فسألت توني : «وماهو ؟» . وكانت مستعدة لتقديم كل شيء ممكن في مقابل هذه اللقمة الشهية...

فصاح هرمان هاجشتروم : «قبلة!» وطوّق توني بذراعيه وجعل يقبلها خبط عشواء دون أن يظفر بوجهها لأنها أطرحت رأسها الى الوراء في مرونة بالغة وثبّتت يدها اليسرى على صدره تدفعه بحافظة الكتب ، وكالت له باليمنى ثلاث ضربات أو أربعاً على وجهه بكل قواها... فترنّح متراجعاً . لكنه في اللحظة نفسها هبت أخته جوليا من خلف شجرة كالشيطان الأسود وارتمت على توني وهي تفحّ من الحنق ، وانتزعت قبعتها من رأسها ، وجعلت تخدش خدّيها بكل قسوة... وكان هذا الحادث ختام هذه المرافقة .

لم يكن إباء توني إعطاء القبلة للصغير هاجنشتروم حياء منها بالتأكيد ، فقد كانت مخلوقة جريئة تقريباً سبّبت بتهوّرها بعض الهموم لوالديها وعلى الأخص أبيها . ومع أنها كانت ذكية وحصلت في المدرسة في سرعة ما كان غيرها لايزال يشتهيه ، فإن مسلكها كان الى درجة بعيدة معيباً حتى أن ناظرة المدرسة ، وكان اسمها الآنسة آجاتا فرميرين ، توجّهت الى منزل الأسرة في شارع منج مبللة بالعرق قليلاً من فرط الارتباك وطلبت الى القنصلة تعنيف ابنتها الصغيرة ، ذلك أنها على الرغم من إنذارها إياها مراراً في لطف ارتكبت في الشارع من جديد خرقاً علنياً .

ولم يكن عيباً أن توني كانت تعرف الناس جميعاً في المدينة رائحة غادية ، ولا أنها كانت تتحدث مع كل الناس . فالقنصل خاصة كان راضياً عن ذلك ؟ إن هذا المسلك لاينمّ فيها عن تكبّر وغطرسة ، بل عن مشاطرة وحب للناس . وكانت تتسلّق هي وتوماس المخازن الواقعة على نهر تريفه بين أكوام القرطمان والقمح . وكانت تثرثر مع العمال والكتبة الذين كانوا يقتعدون الأرض في المكاتب الصغيرة المظلمة ، بل إنها كانت تساعد في الخارج في ربط الأعدال . كانت تعرف القصابين الذين كانوا يجوبون شارع برايتن

بمآزرهم البيضاء وقصاعهم . وكانت تعرف بائعات اللبن اللواتي كنّ يفدن من الريف بصفائحهنّ وقد ركبت معهنّ مرة قطعة من الطريق . كانت تعرف الأسطوات ذوي اللحى البيضاء في الدكاكين الخشبية الصغيرة ، دكاكين الصيّاغ المبنية في بوائك السوق وبائعات السمك والفاكهة والخضر ، كما تعرف الخدم الذين كانوا يقفون في زوايا الشوارع يمضغون التبغ... كل هذا حسن وجميل!

لكن إنساناً شاحب اللون حليقاً لاتعرف سنه اعتاد أن يذرع شارع برايتن متجوّلاً على هواه في الصباح وعلى فمه ابتسامة حزينة ، لايملك إلا أن يرتاع كلّما سمع صوتاً مفاجئاً يندّ عن إنسان مثل «ها» أو «هو» فيرقص عندئذ على ساق واحدة ، فكانت توني مع ذلك ترقص كلّما لقيته . كذلك ليس جميلاً أن تكدّر توني سيدة قصيرة القامة بالغة الضآلة تحمل رأساً كبيراً من عادتها إذا ساء الجو أن تنشر فوق رأسها مظلة مثقّبة ، أن تكدرها دائما بنداءات مثل : «مدام مظلة» و«عش الغراب» . وإنه ليستحق اللوم أن تظهر مع اثنتين أو ثلاث من صويحباتها اللاتي كنّ على شاكلتها أمام بيت بائعة الدمى العجوز التي تتجر بالعرائس الصوفية في عطفة ضيقة متفرعة من شارع يوهان ، قد ركب في وجهها عينان حمراوان غريبتا الحمرة على التحقيق ، فتدق جرس البيت بكل قواها ، فإذا ماخرجت العجوز سألتها وهي تصطنع اللطف هل يسكن هنا السيد والسيدة «مبزق» ثمّ تهرب مع صويحباتها في صخب شديد.. كل هذا يلوح أن توني بودنبروك كانت تفعله ، بضمير مرتاح كل الارتياح . فإذا هددها أحد ممّن تعذّبهم وجب أن يرى هذا الواحد كيف تتراجع خطوة وتطرح رأسها الجميل الى الوراء بشفته العليا المفترة وتطلق من فمها «يا» ينم نصفها عن الغضب والنصف الآخر عن السخر كأنّما تريد أن تقول : «أرني إذا كنت تستطيع أن تمستني بسوء! إنّي ابنة القنصل بودنبروك إذا كنت لم تعرف» .

لقد كانت تجوب المدينة كأنها ملكة صغيرة تحتفظ لنفسها بحق التودّد أو القسوة كيفما يشاء ذوقها وهواها .

الفصل الثالث

كان جان جاك هوفشتيده قد أصدر حكماً صائباً بالتأكيد في ما يتعلّق بابني القنصل بودنبروك كليهما . كان توماس الذي أعدّ منذ ولادته ليكون تاجراً ومالكاً للشركة في المستقبل والذي كان ينتمي الى القسم العلمي في المدرسة القديمة ذات الأقبية القوطية ، إنساناً عاقلاً نشيطاً فطناً . وكان الى ذلك يغتبط أشد اغتباط حين يعمد أخوه كريستيان الملتحق بالقسم الأدبي والذي لايقل عنه موهبة لكنه يقل عنه جداً الى تقليد مدرّسيه بمهارة فائقة ، وخاصة السيد الحاذق مارسيلاس شتنجل الذي كان يدرس الغناء والرسم وما شاكلهما من المواد الخفيفة . .

وكان الهر شتنجل الذي كانت تطل من جيوب صدريّته على الدوام نصف دستة من الأقلام الرصاص المبرية والمدبّبة تدبباً عجيباً يرتدي عارية شعر كفروة رأس الثعلب وسترة مفتوحة لونها بنّي فاتح تصل الى عقبه تقريباً وبنيقة عالية تصل الى سالفيه . كان رجل دعابة يحبّ التمييز الفلسفي بين كلمة وكلمة فيقول : «ينبغي أن ترسم خطاً يابني فماذا تفعل ؟ إنّك تخط شرطة!» أو يخاطب بليدا فيقول : «إنك لاتتخلّف في السنة الرابعة سنوات بل سنين!» وأحبّ مايدرّسه هو أن يمرّن التلاميذ في حصة الغناء على الأغنية الجميلة «الغابة الخضراء» وهو مايجب أثناءه أن يخرج بعض التلاميذ الى الطرقة ليردّدوا ، حين تغنّي المجموعة : «نحن نجوب الحقل والغاب مرحين» الكلمة الأخيرة كصدى مخافتين متئدين . فإذا كلّف بهذا كريستيان بودنبروك أو ابن خاله يورجن كروجر أو صديقه أندرياس جيزيكه ابن مدير المطافىء ، ألقوا بدلاً من ترديد الصدى الخفيف بصندوق الفحم يتدحرج على الدرج ، وعوقبوا بالتخلّف في الساعة الرابعة بمنزل الهر شتنجل ، وهنا كانت الأمور تجري مجرى حسناً تقريباً ، إذ يكون السيد شتنجل قد

نسي كل شيء ، وأمر مديرة البيت بتقديم فنجان من القهوة الى كل من التلاميذ بودنبروك وكروجر وجيزيكه ثمّ يصرف الفتيان .

وفي الواقع أن العلماء الأوائل الذين يؤدون وظائفهم في أقبية المدرسة القديمة ، وكانت من قبل تابعة لدير تحت إمرة مدير مسنّ إنسان يتنشّق الصعوط ، كانوا أناساً عديمي الأذى طيبيّ القلب متّفقين على الرأي القائل بأن العلم والمرح لايتعارضان ، حريصين على أن يؤدوا أعمالهم في عطف واغتباط . وكان في الفصول الوسطى واعظ سابق يدرّس اللاتينية اسمه الراعي هيرته* سيد طويل القامة ذو لحية عارضية كستنائية وعينين مبتهجتين يرى السعادة في حياته من مطابقة اسمه للقبه . وأحب عبارة اليه هي «ضيق الذهن ضيقاً لا حدّ له» . ولم يتبيّن قط هل هذه عبارة مقصودة ، لكنه إذا أراد أن يربك تلاميذه تماماً حدّث عن فن أطباق الشفتين على الفمّ ثمّ إطلاقهما بسرعة حيث يندّ عنهما صوت كفرقعة سدادة الشمبانيا الطائرة . وكان يحب أن يجول في حجرة الفصل بخطى واسعة ويحدّث هذا أو ذاك من التلاميذ في حرارة زائدة عن حياته المستقبلية بأكملها يبغي أن ينشط خياله قليلاً . ثمّ ينصرف الى العمل جاداً أي يستمع الى الأبيات التي نظّمها عن «قواعد الشعر» وعن تركيبات صعبة منوعة بمهارة حقة ، أبيات كان الراعي هيرته يتلوها في نبرة الظافر الذي يؤكّد الإيقاع والقافية بما لاسبيل الى تقليده...

وصبا توم وكريستيان... ليس فيه مايستحق الذكر . ففي تلك الأيام كانت الشمس تسطع في بيت بودنبروك حيث كانت الأعمال تؤدى في المكاتب على خير وجه . وأحياناً كانت تهبّ عاصفة ويقع مصاب صغير كهذا :

«السيد شتوت خياط في شارع جلوكنجيسر ، كانت له زوجة تشتري الملابس القديمة وتختلط في طلبها بالأوساط الراقية والسيد شتوت الذي كان يكسو بطنه قميص صوفي ويضغط هذا البطن على سراويله في استدارة مدهشة...السيد شتوت هذا فصّل للفتيين بودنبروك بذّتين تكلّفتا معاً سبعين ماركاً ، لكنه عملاً برغبة الاثنين أبدى استعداده لأن يضيف الى الحساب ثمانين ماركاً أخرى بكل بساطة يسلّمهما إيّاها نقداً يداً بيد .

وكانت هذه صفقة صغيرة... حقاً إنها لم تكن نظيفة كل النظافة ، لكنها ليست ممّا يخرج عن المألوف . بيد أن المصاب كان في أن الأمر قد انكشف بفعل القدر المتجهم حتى أن السيد شتوت اضطرّ الى الحضور الى مكتب القنصل الخاص وعلى قميصه الصوفي سترة

---

* Hirte بالألمانية معناها الراعي

سوداء ليجري في حضرته تحقيق صارم مع توم وكريستيان . وكان السيد شتوت يقف الى جانب الكرسي السائد الذي يجلس عليه القنصل منفرج الساقين لكنه يميل برأسه جانباً ويسلك مسلكاً يدل على الاحترام الشديد ، فألقى خطبة ملطفة فحواها أن هذه المسألة مسألة أي مسألة! وإنه ليكوننّ من بواعث اغتباطه أن يأخذ السبعين ماركاً ثانية مادام الأمر قد حبط . وكان القنصل قد استشاط غضباً من هذه الفعلة لكنه بعد انعام النظر من جانبه انتهى الى أن رفع مصروف جيب ولديه ، ذلك أن الآية تقول : «لاتقدنا الى التجربة!»

والظاهر أنه كان يعلّق على توماس بودنبروك آمالاً أكبر من التي كان يعلّقها على أخيه . فقد كان مسلكه يتّسم بالإتّزان والمرح المعقول ، على حين كان كريستيان يبدو هوائياً ، يميل الى هزل يزجيه الحمق من جانب ويشيع من جانب آخر ذعراً غريب الصورة في الأسرة بأكملها...

وتجلس الأسرة الى المائدة ، وتصل الى الفاكهة ، وتأكل في حديث سار وبغتة يرد كريستيان الى الطبق خوخة عضها وهو ممتقع اللون جاحظ العينين المستديرتين الغائرتين من فوق أنفه البالغ الضخامة .

ويقول : «لن آكل خوخاً مرة ثانية» .

«لِمَ لا يا كريستيان ... ماهذا الخرف... ماخطبك ؟» .

«فكّروا لو أنّي ابتلعت هذه النواة الكبيرة خطأ ووقفت في حلقي... فانقطع نفسي... وهببت مختنقاً في صورة شنيعة . وهببتم أنتم جميعاً» وبغتة يتبع كلامه هذا بأنة وجبزة مليئة بالرعب ، ويعتلي كرسيه ، ويتحوّل كمن يريد الهرب .

فتثب القنصلة والآنسة يونجمان فعلاً .

«بربِ السماء يا كريستيان ، إنّك لم تبتلع النواة فعلاً» ذلك أنه كان يبدو تماماً كما لو كان ابتلعها بالفعل .

فيقول كريستيان : «كلا ، كلا» ويهدأ شيئاً فشيئاً ثمّ يقول : «لكني لو كنت بلعتها!» .

ويأخذ القنصل الذي امتقع لونه أيضاً من الفزع في تأنيبه وكذلك الجد فإنه يدق المائدة غاضباً ، ويستهجن مساخر المجانين هذه... أمّا كريستيان فيظل يمتنع أمداً طويلاً عن أكل الخوخ .

الفصل الرابع

لم تكن الشيخوخة وحدها هي التي ألقت في يوم بارد من يناير نهائياً بمدام انطوانيت بودنبروك العجوز على سريرها العالي بمخدع نوم الطابق المتوسط بعد ست سنوات من انتقال الأسرة الى شارع منج . فقد كانت السيّدة المسنة قوية البنية الى آخر لحظة تحمل خصلها الجانبية البيضاء الغزيرة وقورة منتصبة القامة . كانت تغشى المآدب الرئيسية التي تقام في المدينة مع زوجها وأولادها . وفي المجتمعات التي يعقدها بودونبروك نفسه لم تكن دون كنّتها الأنيقة تضييفاً وترحيباً . لكنها في ذات يوم أحسّت على حين بغتة بألم لم تعرف كنهه تقريباً ؛ تقيّح خفيف في المصران ، في مبدأ الأمر أمر الدكتور جرابو لعلاجه بقطعة حمام وشريحة من خبز فرانتس ، مغص مصحوب بقيء أدّى بسرعة غير مفهومة الى خور في القوى وحالة من الوهن والضعف كانت تثير القلق .

فلما تحدث بعدئذ الدكتور جرابو مع القنصل على الدرج في الخارج حديثاً وجيزاً جدياً ، ولمّا استدعى طبيب آخر وكان رجلاً قصير القامة بديناً ، كث اللحية ، مظلم النظرة ، وجعل يدخل ويخرج مع جرابو تغير مظهر البيت أو كاد فكان أهل البيت يسيرون فيه على أطراف أصابعهم ويتهامسون في خطورة . ومنعت المركبات من الدروج عبر الرحبة ، وبدا كأن شيئاً جديداً غريباً غير عادي قد حلّ بالبيت ، سرّ كان الواحد يتبيّنه في عين الآخر ، وتسرّبت فكرة الموت الى الأذهان ، وسادت جو الحجرة الفسيحة في سكون .

لم يكن يجوز الاحتفال بأحد في مثل هذا الظرف ، ذلك أن زائراً حل ، وقد دام المرض أربعة عشر أو خمسة عشر يوماً ثمّ جاء بعد اسبوع السناتور دوشان الشيخ شقيق المحتضرة ومعه ابنته التي تسكن هامبورج ، بينما حضرت بعد ذلك ببضعة أيام شقيقة القنصل وزوجها المصرفي الذي يقيم في فرانكفورت . وقد نزل السادة بالبيت ، وانهمكت

ايدا يونجمان في العمل ، تدبر للضيف حجرات النوم وأطعمة الإفطار مع الكابوريا ونبيذ البورتر ، بينما كان المطبخ يعد الخمير والخبيز .

كان يوهان بودنبروك يجلس على سرير المريضة ويشرد بصره أمامه ويد انطوانيت العجوز الواهنة في يده ، وحاجباه مرتفعان ، وشفته السفلى متدلية قليلاً . وكانت ساعة الحائط تتك بصوت مكتوم وعلى فترات طويلة لكن المريضة كانت تتنفس على فترات أوجز تنفّساً مقتضباً سطحياً... وكانت ممرضة في ثياب سود تشتغل على المائدة بنوع من الشاي يجرب تقديمه الى المريضة ، وبين الحين والحين يدخل عضو من الأسرة ثمّ يختفي ثانية من دون صوت .

ولعل الشيخ بودنبروك تذكّر كيف كان يجلس في ست وأربعين سنة مضت لأول مرة الى سرير موت زوجة أخرى . ولعله كان يقارن بين اليأس الطاغي الذي كان مستولياً عليه إذذاك ، وبين الأسى الهادىء الذي كان ينظر في غمرته ، الآن وهو في مثل هذه الشيخوخة ، الى وجه المريضة الحائل الخالي من التعبير ، الذي كان ينم في صورة مرعبة عن عدم الإكتراث ، الى تلك السيدة العجوز التي لم تحبه قط الحب الذي يشعر بالسعادة العظيمة ، ولم تسبب له قط ألماً كبيراً ، لكنها صمدت الى جانبه سنين طويلة كثيرة في استقامة يزينها العقل ، فالآن ترحل بالمثل في اتّزان .

لم يكن يفكّر كثيراً بل كان وهو يهزّ رأسه هزّاً خفيفاً يستعرض هنا حياته هو ، والحياة بوجه عام بعد إذ تراءت له ، على حين بغتة ، بعيدة هذا البعد عجيبة هذا العجب ، هذه الضجة الصاخبة التي وقف وسطها ، ثمّ انحسرت عنه غير ملحوظة ، ثمّ عادت تتناهى إلى أذنه الصاغية المتعجّبة أصواتها من بعيد... وقد كان أحياناً يخاطب نفسه بصوت خافت قائلاً : «عجيب! عجيب!» .

فلمّا لفظت بعدئذ مدام بودنبروك نَفَسها الأخير البالغ القصر الموفور الهدوء ولمّا رفع الحمّالون النعش المغطى بالأزهار في قاعة الأكل التي تليت فيها الصلاة ليخرجوه في خطو وئيد – لم تتغير نفسيته ، ولم يبك ولا مرة واحدة ، بل بقي يهزّ رأسه تلك الهزة البادية الاستغراب ، وظل يلفظ كلمته الأخيرة الباسمة : «عجيب»... لاشك أن خاتمة يوهان بودنبروك قد دنت أيضاً .

فقد جعل يجلس في محيط الأسرة صامتاً ، شارد الفكر ، فإذا أخذ مرة كلارا الصغيرة على ركبته ، ربّما ليغنّي لها إحدى أغنياته القديمة المضحكة مثل : «الحافلة تسير تخترق المدينة...» .

أو «انظر أيها الساخط الجالس على الحائط...» .

فقد يلوذ بالصمت فجأة ليضع الحفيدة على الأرض ، ويخرج كذلك عن مجرى أفكاره الطويل الذي لايزجيه وعي كامل ، هازاً رأسه ، قائلاً : «عجيب» ، ثمّ يتحول... وفي ذات يوم قال :

«جان ، كفاية!» .

من ذلك الحين بدأت المنشورات الجيدة الطبع ، والمزودة بتوقيعين ، توزّع وفيها يعلن يوهان بودنبروك الكبير أن سنه المتقدمة تحمله على التخلي عمّا كان له الى تلك اللحظة من نشاط تجاري ، وأنه من جراء ذلك ينقل من اليوم فصاعداً إلى ولده وشريكه إلى هذه اللحظة يوهان بودنبروك مؤسسة يوهان بودنبروك التي أسسها سنة ١٧٦٨ المرحوم والده بكل مالها وماعليها تحت الاسم نفسه مالكاً وحيداً راجياً أن يظل لإبنه الإئتمان الذي كان من نصيبه هو في نواحٍ كثيرة ، مع فائق الاحترام ، ـ يوهان بودنبروك الكبير الذي سيكف عن التوقيع .

بيد أنه لمّا أعلن هذا المنشور وامتنع الشيخ من ذلك الحين عن غشيان مكاتب الشركة استفحل شروده الفكري ، فكفى بعد بضعة أشهر فقط من وفاة زوجته زكام بسيط مما يقع في الربيع ، حدث له في منتصف مارس ، أن يلزمه الفراش ، ـ وفي إحدى الليالي حلت الساعة التي أحاطت الأسرة فيها بسريره أيضاً والتي قال فيها للقنصل :

«أتمنى لك حظاً سعيداً ياجان! وكن شجاعاً على الدوام!» .

ولتوماس :

«أعن أباك!» .

ولكريستيان :

«كن شيئاً صالحاً!» .

ثمّ صمت ونظر الى الجميع واستدار الى الحائط وهو يقول : «عجيب!» .

لم يذكر جوتهولد بكلمة حتى قضى ، فلمّا كتب اليه القنصل يدعوه الى الشخوص الى أبيه المحتضر لم يجب الابن الأكبر بغير الصمت ، لكنه في الصباح التالي وفي ساعة مبكّرة ، والنعي لم يرسل بعد ، والقنصل يخرج الى الدرج لينهي في مكاتب الشركة أهم الضروريات ، في هذه اللحظة حدث الغريب ، إذ جاء جوتهولد بودنبروك صاحب متجر سيجموند شتيونج وشركائه لبيع الكتان الكائن بشارع برايتن يعبر الرحبة بخطى سريعة . وكان في السادسة والأربعين من عمره ، قصير القامة ، بديناً ، ذا رأس قوي رمادي الشقرة

تتخلّله شعرات بيضاء . وكان قصير الساقين يرتدي سراويل واسعة كالشوال من قماش خشن ذي تربيعات . وصعد الدرج الى القنصل رافعاً حاجبيه تحت حافة قبعته الرمادية ، ثمّ مقطباً إياهما ثانية .

قال من دون أن يمد يده الى أخيه بصوت مرتفع ودود : « يوهان كيف الحال ؟ » . فقال القنصل متأثراً ممسكاً بيد أخيه التي كانت تحمل مظلة : « لقد قضى هذه الليلة خير أب! »

وخفض جوتهولد حاجبيه حتى انطبقت جفونه ثمّ قال بعد صمت مفكّراً : « ألم يتغير شيء الى اللحظة الأخيرة يايوهان ؟ » .

فترك القنصل يده من فوره ، بل إنه تراجع خطوة الى الوراء . وبينما تصفو عيناه المستديرتان الغائرتان قال :

« لاشيء » .

فارتفع حاجبا جوتهولد تحت حافة القبعة من جديد وتركّزت عيناه على أخيه في جهد . وقال بصوت منخفض : « وماذا أنتظر من عدالتك ؟ » .

فغض القنصل بصره من جانبه ، لكنه ، من دون أن يرفعه ثانية حرك يده من فوق الى تحت تلك الحركة الفاصلة وأجاب جواباً ثابتاً :

« لقد مددت اليك يدي في هذه اللحظة العصيبة الخطرة كأخ . أما مايتّصل بشؤون العمل فإني لايسعني إلا أن أقف منك موقف رئيس الشركة المحترمة التي بت اليوم صاحبها الوحيد . فلن يسعك أن تنتظر شيئاً يتعارض مع التعهدات التي تفرضها عليَّ هذه الصفة . أما عواطفي الأخرى فيجب ألا يرتفع لها حس » .

وانصرف جوتهولد ، ومع ذلك فإنه ، لما ملأت الغرف والدرج والدهاليز جمهرة الأقارب والمعارف والأصدقاء والوفود وحمّالي الغلال والكتبة وعمال المخازن ، واصطفّت جميع مركبات الأجرة في المدينة على امتداد شارع منج ، جاء لتشييع الجنازة وهو ما اغتبط له القنصل مخلصاً من جديد ، بل إنه أحضر معه زوجه ابنة شتيونج وبناته الثلاث الكبار ، فريدريكه وهنرييت وكانت كلتاهما فارعتي الطول ، شديدتي النحول ، وفيفي الصغرى التي تبلغ الثامنة عشرة وكانت تبدو قصيرة جداً وبدينة .

ولما أثنى القس كولنج راعي كنيسة القديسة مريم عند القبر ، في مدفن أسرة بودنبروك ، هناك أمام بوابة القصر ، على حافة أدغال المقبرة ، لما أثنى القس ، وكان رجلاً قوي البنية عنيداً ، جاف القول ، على حياة الراحل المتسمة بالإعتدال ومخافة الله ، على نقيض حياة « المتلذّذ النهم المسرف في الشراب » ـ وكان هذا تعبيره ، وإن كان بعض

الناس ممن يذكرون زكانة الشيخ فوندرليش الذي مات حديثاً ، هزّوا رؤوسهم عند هذا القول ، لما أن فعل القس هذا ، وختمت الاحتفالات الرسمية ، وأخذت السبعون أو الثمانون مركبة من مركبات الأجرة ترتد الى المدينة... عرض جوتهولد بودنبروك على القنصل أن يصحبه ، لأنه يريد أن يكلمه من دون ثالث بينهما . وانظر! هنا الى جانب الأخ غير الشقيق ، على المقعد الخلفي في مركبة عالية واسعة ضخمة ، في هذا المكان بدا جوتهولد ، وهو يضع ساقاً من ساقيه القصيرتين على الأخرى ، مسالماً دمثاً .

قال إنه يتبيّن شيئاً فشيئاً أن القنصل يجب أن يسلك المسلك الذي يسلكه ، وأن ذكرى أبيه ينبغي ألا تكون في نظره سيئة . فهو يتخلى عن مطالبه ، ومن باب أولى لأنه يفكّر في الانسحاب من كل الأعمال والإخلاد إلى الراحة بميراثه وما يتبقى له غيره ، ذلك أن تجارة الكتان لاتسره كثيراً ، وإنها تجري مجرى بطيئاً لايشجعه على أن ينفق عليها أكثر مما أنفق...

وقال القنصل في نفسه : «إن تحديه لأبيه لم يجلب له بركة» وكان في هذا التفكير يحدوه التديّن . ولعل جوتهولد كان يفكّر تفكيره .

لكنه في شارع منج رافق أخاه الى حجرة الإفطار حيث تناول كلا السيدين كأساً من الكونياك المعتق بعد تلك الوقفة الطويلة في هواء الربيع يرتعشان في فراكهما من البرد . وبعد أن تبادل جوتهولد مع زوج أخيه بضع كلمات تنطوي على المجاملة والجد ومسّ رؤوس الأطفال خرج ليحضر بعد ذلك «يوم الأطفال» عند آل كروجر في الخص هناك... فلقد أخذ يصفي فعلاً .

الفصل الخامس

كان شيء يؤلم القنصل : إن أباه لم يدرك دخول حفيده الأكبر المتجر وهو ماتمّ حوالي عيد الفصح من السنة نفسها .

كان توماس في السادسة عشرة من عمره لما غادر المدرسة . كان منذ تثبيته[1] الذي أوصاه فيه القس كولنج بالإعتدال بعبارات قوية نامياً قوياً ، يلبس في العهد الآخر ملابس الرجال التي أبدته أكبر ممّا هو سناً ، وتتدلى من حول رقبته سلسلة الساعة الذهبية التي خصه الجد بها والتي كانت ميدالية تحمل رنك الأسرة معلقة بها . وكان رنكا بادي الكآبة يمثل مساحة مظللة تظليلاً غير منتظم وأرضاً غامرة منبسطة تحتوي مرعى وحيداً عارياً على الضفة . وأقدم من الرنك الخاتم ذو الحجر الأخضر الذي يرجح أنه كان يحمله خياط الأردية ساكن روستوك الميسور الحال . وقد انتقل هذا الخاتم الى القنصل ومعه الانجيل الكبير .

وكان شبه توماس بجده قوياً كشبه كريستيان بأبيه ، وخاصة ذقنه المستديرة المتينة وأنفه المستقيم البديع التكوين ، فقد كان كلاهما للشيخ . وكان شعره المفروق من الجانب مرسلاً الى الخلف في تجويفتين عند سالفيه الضيّقين المعروقين بشكل ملحوظ . وكان أشقر داكن الشقرة على خلاف أهدابه الطويلة وحاجبيه اللذين كان يجب أن يرفع أحدهما قليلاً ، فقد كانا على غير المألوف رائقين عديمي اللون . وكانت حركاته ولغته كضحكه الذي كان يكشف عن أسنان أقرب الى أن تكون معيبة ، هادئة معقولة . فهو يتطلع الى مهنته في جد وهمة .

كان يوماً يتّسم بالجد البالغ حين انحدر به القنصل الى مكاتب المتجر بعد الإفطار الأول

---

(١) أي تثبيته على الإيمان ، وهو مرسم مسيحي يكتب به إيمان الصبي

ليقدمه الى السيد ماركوس الوكيل والسيد هافرمان الصراف وكذلك الى بقية الموظفين الذين كان من أمد صديقاً لهم ، ويوم جلس لأول مرة الى مكتبه على كرسيه الدوار منهمكاً في الأختام والترتيب والنسخ ، ويوم قاده أبوه بعد الظهر أيضاً نحو نهر ترافه الى مخازن «الزيزفون» و«السنديانة» و«الأسد» و«الحوت» حيث كان توماس في الحقيقة في بيته من أمد طويل ، عليماً بها كل العلم ، لكنه الآن يقدم اليها كمعاون في العمل .

وقد كان فيه متفانياً يقتدي بأبيه في اجتهاده المتّسم بالهدوء والمثابرة . وكان أبوه يعمل في صمت ، ويدعو الله في يومياته أن يأخذ بيده ، ذلك أنه كان عليه أن يسترد المال الكثير الذي فقده «المتجر» ذلك المعنى المقدس ، بوفاة الشيخ... وفي ذات مساء وفي ساعة متأخرة جداً ، استرسل في حجرة المناظر الطبيعية في حديث مسهب تقريباً مع زوجته عن الأحوال .

كانت الساعة منتصف الثانية عشرة ، والأطفال والآنسة يونجمان كذلك نائمين خارجاً في الحجرة الواقعة على الطرقة ، ذلك أن الطبقة الثانية كانت شاغرة لاتستعمل إلا بين الحين والحين للغرباء . وكات القنصلة جالسة فوق الأريكة الصفراء بجانب زوجها الذي كان يمر ببصره والسيجار في فمه ، بأخبار البورصة في صحيفة إعلانات المدينة . وكانت القنصلة منكبّة على حريرها تطرّزه ، وتحرّك شفتيها حركة خفيفة وهي تحصي بالإبرة عدداً من الغرز ، وكان بجانبها على منضدة الخياطة المنمقة المحلاة بالذهب شمعدان فيه ست شمعات ، لأن الثريا المدلاة لم تكن مستعملة .

وقد بدا على يوهان بودنبروك الكبر في السنوات الأخيرة وكان يناهز الخامسة والأربعين رويداً رويداً . وكانت عيناه الصغيرتان المستديرتان تبدوان وكأنّما قد بعدتا غوراً ، وأنفه الكبير المقوس البارز كعظمتي خديه في وضوح أكبر ، وعلى سالفيه هدابتان بيضاوان تلامسان فيما يبدو بضعة مواضع من شعره الأشقر الرمادي المفرق بعناية . وكانت القنصلة تناهز الأربعين لكنها محتفظة على خير وجه بمظهرها الذي لايميّزه جمال لكنه مع ذلك رائع . وكان لون بشرتها أبيض غير لامع ، لكن ما انتثر فوق وجهها هنا وههنا من نمش لم يشب رقة بشرته ، وكان شعرها المائل الى الاحمرار والذي تطابق تسريحته الفن يتخلله ضوء الشموع . وقد حوّلت عينيها الصافيتي الزرقة نوعاً ما الى جانبها وقالت :

«لقد أردت ياعزيزي جان أن أشير عليك بشيء تنعم فيه النظر : أليس الخير أن نتّخذ خادماً لنا من الذكور... لقد انتهيت الى الاقتناع بهذا . وإذا أنا فكّرت في والدي...» .

فأسقط القنصل الصحيفة من يده على ركبته وبدا الاهتمام على عينيه بينما كان يخرج السيجار من فمه ، ذلك أن الأمر يتعلق بإنفاق مال .

وأنشأ يقول : « أجل ياعزيزتي بتسي المحترمة » . وجعل يمط في الكلام سعياً منه الى ترتيب حججه قال :

« خادماً ؟ لقد استبقينا بالبيت جميع الفتيات الثلاث منذ وفاة الوالدين المرحومين فضلاً عن الآنسة يونجمان ، ويخيل اليّ... » .

قالت : « إن البيت من الاتّساع ياجان بحيث يجعل الأمر جدياً . إني أقول : ليناليا ابنتي ، إن البيت الخلفي لم ينظف منذ أمد طويل جداً! لكني لاأحب أن أجهد هاته الفتيات لأنهن خليقات أن يلهثن إذا كان لابد أن يكون كل شيء نظيفاً لطيفاً... والخادم نافع في « المشاوير » وماشاكلها . ويمكننا أن نجلب من الريف رجلاً صالحاً قليل المطالب... ولكن قبل أن أنسى ياجان : إن لويزه مولندروف تريد الاستغناء عن خادمها أنطون .وقد شهدته يخدم في دراية... » .

فقال القنصل : « لابدّ أن أعترف » . وجعل يتحرك غادياً رائحاً يحدوه شيء من عدم الإرتياح « لابد أن أعترف أن هذه فكرة لا أستسيغها فنحن لانزور اليوم مجتمعات ولا ندعو اليها... » .

قالت : « لا ، لا . فالناس تزورنا كثيراً على الرغم من ذلك بما فيه الكفاية . وليس هذا ذنبي ياعزيزي جان ، وإن كنت تعرف أنّي أسرّ من قلبي بهذه الزيارات . فمرة يقدم صديق من الخارج من أصدقاء العمل فتدعوه الى تناول الطعام ولايكون احتجز لنفسه حجرة في فندق ، فيقضي ليلة عندنا . ثمّ يأتي أحد المبشرين فيمكث عندنا ثمانية أيام... وفي الاسبوع بعد التالي تنتظر مثل القس ماتياس من كانشتات... ولأوجز فأقول إن المرتبات من القلة » .

« لكنها تتراكم يابتسي! إننا ندفع مرتبات لأربعة في البيت وأنت تنسين الرجال الكثيرين الذين نستخدمهم في الشركة! » .

فسألته القنصلة وهي تبتسم وترعى زوجها برأس يميل جانباً : « أحقاً أننا لانستطيع أن نقتني خادماً ، إنني حين أفكّر في خدم والدي... » .

« والديك يابتسي العزيزة ، لا ، والآن لابدّ أن أسألك : هل أنت حقاً على بيّنة من أحوالنا ؟ » .

« كلا ، هذا حقيقي ياجان ، ليست عندي فكرة كافية... » .

قال القنصل : « إنه لمن السهل وصفها » . واعتدل في جلسته على الأريكة ووضع ساقاً على ساق ، وجذب نَفَساً من سيجاره ، وأخذ يعد أرقامه بطلاقة غير عادية وقد أغمض عينيه قليلاً... قال :

« فلأوجز : إن المرحوم أبي كان يملك قبل زواج أختي ٩٠٠,٠٠٠ مارك كاملة بغض النظر ، كما هو مفهوم ، عن الأطيان وعن قيمة المتجر . وقد أخذ منها ... ،٨٠ بائنة أرسلت الى فرانكفورت و١٠٠,٠٠٠ أعطيت الى جوتهولد تمكيناً له من الاستقرار! فيكون الباقي ٣٢٠,٠٠٠ ثمّ جاء هذا البيت فتكلّف على الرغم مما حصل ثمناً للبيت الصغير في شارع الف ومع ما أجري فيه من التحسينات والتجديدات ١٠٠,٠٠٠ فيكون الباقي ٥٩٥,٠٠٠ ، وكانت الأمور خليقة أن تبقى هكذا عند وفاة أبي لو لم تصحح الأوضاع على مر السنين بربح قدره ٢٠٠,٠٠٠ مارك ، وإذن فقد بلغت جملة الثروة ٧٩٥,٠٠٠ ثمّ أرسلت الى جوتهولد ١٠٠,٠٠٠ فوق ما أخذ ، كما أرسل ... ،٢٦٧ الى فرانكفورت فإذا خصم بضعة آلاف مارك هي جملة مبالغ صغيرة أوصى بها أبي لمستشفى روح القديس وصندوق أرامل التجار ألخ ، بقي مبلغ .. ،٤٢٠ يضاف اليها بائنتك وقدرها ... ،١٠٠ . هذه هي الحالة بالتقريب ممثلة في أرقام دائرة بغض الطرف عن تقلبات ضئيلة مختلفة في الثروة . فنحن لسنا أغنياء بصورة غير عادية ياعزيزتي بتسي ، وفي هذا كله يجب أن يفكّر المرء وفي أن المتجر قد بات أصغر ممّا كان ، وأن نفقات العمل لم تقل مع ذلك لأن تكوين المتجر لايسمح بخفض النفقات... فهل أمكنك متابعتي ؟ » .

فأومأت القنصلة برأسها مترددة بعض الشيء ، وفي حجرها أعمال تطريزها وقالت : « أجل ياعزيزي جان » ، وإن كانت لم تفقه كل ماقاله ولم تدرك على الإطلاق لماذا لايجوز أن تحول كل هذه المبالغ الكبيرة دون استخدام خادم .

وعاد القنصل الى سيجاره فوهجه ، ونفخ الدخان ورأسه منطرح الى الوراء ، ثمّ استطرد عندئذ يقول :

« إنك تفكرين في أننا ، متى دعا الله والديك الحبيبين الى جواره يوماً ما ، ننتظر شيئاً جسيماً . وهذا صحيح . لكن... يجمل بنا ألا نحسب من دون احتياط مطلق . فإني لأعلم أن أباك تكبّد خسائر أليمة تقريباً . وذلك كما هو معلوم ، على يد يوستوس ، ويوستوس إنسان لطيف جداً ، لكنه من ثمّ ليس برجل الأعمال القوي ، وقد ساء حظه من دون ذنب جناه ، وتكبّد من العملاء العديدين خسائر فادحة ، وكانت عاقبة قلة رأس المال أن استدان مالاً غالياً بالتعاقد مع المصرفيين ، وكثيراً ما اضطرّ أبوك الى نجدته بمبالغ كبيرة حتى لايقع

مصاباً . وهذا شيء يمكن أن يتكرّر ، وسيتكرّر في ما أخشى ، ذلك ـ وأرجو المعذرة يابتسي إذا تكلمت بصراحة ـ ذلك أن حياة الاستهانة والمرح التي لاتفيد أباك المتعطل عن العمل ، لاتناسب أخاك كرجل أعمال...إنك تفهمينني ، فهو لايبدي كثيراً من التبصر ، أليس كذلك ؟ متسرع بعض الشيء ، محلق . هذا الى أن والديك لايدعان شيئاً ينقصهما ، وهذا مايسرّني صراحة ، فهما يعيشان عيشة ناعمة تتّفق وأحوالهما...» .

فابتسمت القنصلة ابتسامة تنطوي على التسامح ، فقد كانت تعرف تحامل زوجها على نزعات الأناقة في أسرتها .

واستطرد الزوج قائلاً : «حسناً» واضعاً عقب سيجاره في المنفضة .

«إني من جانبي أعتمد غالباً على المولى في أن يحفظ عليّ قدرتي على العمل كيما أعيد الى ثروة المتجر مستواها السابق بعونه... وآمل أن تكون قد بت الآن أكثر إلماماً ياعزيزتي بتسي... .!» .

وبادرت القنصلة الى إجابته قائلة : «تماماً ياجان ، تماماً» . ذلك أنها تخلّت هذا المساء عن فكرة الخادم . ثمّ أبدت : «لكن لنتوجه الى النوم فما رأيك ؟ فقد تأخّرنا جداً...» .

على أنه بعد بضعة أيام ، وقد جاء القنصل من المكتب لتناول الطعام منشرح الصدر ، تقرّر مع ذلك استخدام انطون خادم أسرة مولندروف .

الفصل السادس

قال القنصل بودنبروك في تأكيد بالغ لم يتزحزح عنه : «سندخل توني مدرسة الآنسة فيشبروت الداخلية» .

فقد كان الإرتياح الى توني وكريستيان أقل ، كما أبدى ، منه الى توماس الذي اندمج في الأعمال مُظهراً موهبة ، والى كارا التي كانت تنمو مرحة ، والى كلوتيده المسكينة التي كانت تبهج كل إنسان بشهيّتها المفتوحة . فأما كريستيان فقد كان الإرتياح اليه أقل ، إذ كان مضطراً عصر كل يوم أن يتناول القهوة مع السيد شتنجل ـ وإن كانت القنصلة التي كانت ترى في هذا تجاوزاً للحد قد بعثت الى السيد المدرّس ذات يوم ببطاقة منمقة تدعوه الى مقابلتها بالبيت في شارع منج . فظهر السيد شتنجل يحمل عارية الشعر التي كان يلبسها أيام الآحاد ، لابساً أعلى بنيقة عنده ، تطل من صدريّته أقلام الرصاص مدببة كأنها الحراب ، وجلس مع القنصلة في حجرة المناظر الطبيعية بينما كان كريستيان يسترق السمع خفية في قاعة الأكل . وقد كان المربي الفاضل يبدي آراءه بفصاحة وفي شيء من الإرتباك أيضاً فتكلّم عن الفارق الهام بين «الخط» و«الشرطة» وتحدث عن الغابة الجميلة الخضراء وعن صندوق الفحم كذلك . واستعمل الى ذلك أثناء الزيارة كلمة «من أجل هذا» اعتقاداً منه بأنها خير مايلائمه في هذا المحيط الراقي . وبعد ربع ساعة جاء القنصل فطرد كريستيان من مخبئه ، وأبدى أسفه الشديد للسيد ، شتنجل إن كان ابنه سبباً لعدم ارتياحه...

فرد المدرّس «حاشا لله ياسيدي القنصل ، أرجوك! إنه دماغ يقظ ونموذج فيّاض هذا التلميذ بودنبروك . ومن أجل هذا . . . هو متعال فقط بعض الشيء إذا جاز لي أن أقول ذلك ، هم... من أجل هذا...» وطاف القنصل معه في البيت تأدباً منه ، فلمّا انتهى من

الطواف استأذنه السيد شتنجل في الانصراف... لكن هذا كله لم يكن أسوأ ما هنالك .

فقد كان السيء أن عرف مايلي :

لقد ذهب التلميذ كريستيان بودنبروك ذات مساء الى مسرح المدينة مع صديق حميم له حيث كانت تمثل رواية «فلهلم تل» للشاعر شيلر لكن دور فالترين تل كانت تمثله شابة صغيرة هي الآنسة ماير دي لاجرانج وكان يلازم الدور حالة خاصة ، إذ كان من عادة الممثلة ، سواء ألاءم هذا الدور أم لا يلائمه أن تحمل على المسرح رصيعة ماسية حقيقية . وكانت هذه الرصيعة كما يعلم الجميع ، هدية من القنصل الشاب بيتر دولمان بن دولمان ، أحد كبار تجار الخشب المقيم في شارع فال الأول أمام بوابة هولشتين .

وكان القنصل بيتر من أولئك السادة الذين كانوا يسمون في المدينة «الفجّار» مثل يوستوس كروجر أيضاً . أي أن حياته كانت مفكّكة بعض الشيء . وقد كان متزوجاً بل إنه كانت له ابنة صغيرة ، لكن الشقاق كان يدب من أمد طويل بينه وبين زوجه فكان يعيش عيشة الأعازب . وكانت الثروة التي خلفها له أبوه طائلة فلم تعد كذلك ، وكان يتابع تجارة أبيه لكنّ الناس كانوا يقولون إنه كان يأكل من رأس المال ، وكان يلازم «النادي» في الغالب أو يغشى قبو البلدية ليتناول فيه طعام الإفطار ، يرى كل صباح في الرابعة في مكان ما من الشارع ، ويقوم كثيراً بأسفار الى هامبورج تتّصل بالعمل . على أنه كان قبل كل شيء من المولعين بارتياد المسارح لاتفوته مسرحية ويبدي اهتماماً شخصياً بهيئة التمثيل . وكانت الآنسة ماير دي لاجرانج آخر الفنانات الفتيات اللواتي زيّنتهن الماسات .

ولندخل في الموضوع . كانت الشابة في دور فالترين -وكانت في هذا الدور تحمل أيضاً الرصيعة الماسية ـ أحب مايقرّ العين ، وكان تمثيلها ذا تأثير بالغ الى حد أن التلميذ بودنبروك أخضلت عيناه بالدموع من فرط التأثر بل إنه تورط في أثر ذلك في مسلك لايصدر إلا عن مشاعر شديدة الأسى ، إذ اشترى في فترة الاستراحة من دكان مقابل للمسرح يبيع الأزهار باقة كلّفته ماركاً وثمانية شلنات ونصف وذهب بها هذا القزم البالغ من العمر الرابعة عشرة ذو الأنف الضخم والعينين الصغيرتين الغائرتين الى خلف المسرح ، واقتحم بها أمام خزائن الثياب باب الآنسة ماير دي لاجرانج لمّا لم يعترضه أحد . وكانت الآنسة إذذاك في حديث مع القنصل بيتر دولمان . فلمّا رأى «القنصل» كريستيان يدخل بالباقة كاد يرتطم بالحائط من الضحك . لكن «الفاجر» الجديد قدّم بكل جد أحسن تحياته لفالترين مصحوبة بالأزهار ، ثمّ هزّ رأسه في تؤدة وقال بلهجة كانت من فرط الإخلاص ذات وقع حزين :

«آنستي ، ماأجمل ما مثّلت!» .

فصاح القنصل دولمان بمنطقه العريض : «أنظري هذا الكريستيان بودنبروك!» بيد أن الآنسة ماير دي لاجرانج رفعت حاجبيها وسألته : «ابن القنصل بودنبروك ؟» وربتت على خد هذا المعجب الجديد في خلوص طوية .

هكذا كانت الوقائع التي قصها بيتر دولمان في المساء نفسه في المنتدى متندراً بها فسرعان ماعرفتها المدينة وانتهت كذلك الى سمع مدير المدرسة الذي جعل منها موضوع حديث بينه وبين القنصل بودنبروك . فكيف فهم القنصل الأمر ؟ لم يكن غاضباً بقدر ماكان مأخوذاً مغلوباً على أمره...ولما أبلغ القنصل الخبر في غرفة المناظر الطبيعية كان مضعضعاً .

قال : «هذا هو ابننا ، وهكذا تنشأ...» .

فقالت القنصلة : «جان ، بربك ، إن أباك كان خليقاً أن يضحك لما وقع... قصه يوم الخميس على والدي لم تكن قصته أكبر تسلية لأبي . . .»

وهنا اغتاظ القنصل وقال : «ها! أجل! إني أعتقد أنه سيتسلى بهذا يا بتسي . سيسرّ بأن دمه الخفيف ، ونزعاته غير التقية لم تنتقل الى يوستوس الفاجر فحسب بل انتقلت أيضاً في صورة بينة الى أحد حفدته... ياللشيطان! إنك تجبرينني على هذا التعبير : إنه يذهب الى هذه المخلوقة! إنه يقدم مصروفه الى هذه الغانية ـ : إنه لايعرف ماذا فعل . كلا ، كلا . لكن النزعة تتبدى! النزعة تتبدّى!» .

أجل ، كان هذا حادثاً سيئاً . وقد زاد في فزع القنصل أن توني أيضاً كما أسلفنا ، لم يكن سلوكها على مايرام . حقاً لقد تخلت مع الأيام عن ترقيص الرجل الشاحب اللون ، وعن زيارة بائعة العرائس ، لكنها كانت تبدي أسلوباً يزداد جرأة على الدوام في اطراح رأسها الى الخلف وتظهر حين تقضي الصيف عند جديها خارجاً على الأخص ، تشبثاً سيئاً بالكبر والغرور .

وفي ذات يوم فاجأها القنصل وهي تقرأ «ميميلي» لكلوران مع الآنسة يونجمان فتقزّزت نفسه وقلّب في الكتاب صفحات ، وأقفل الكتاب إلى الأبد . ووضح أثر ذلك في أن توني ـ أنتونيا بودنبروك ـ ذهبت وحدها مع طالب ثانوي وصديق لأخويها تتنزه الى «بوابة القصر» فرأتهما مدام شتوت ، السيدة نفسها التي تعامل الإوساط الراقية ، فتحدّثت وهي عند أسرة مولندروف تشتري بعض الملابس القديمة بأن الآنسة بودنبروك أيضاً أدركت حقاً سن البلوغ حيث... فروته زوجة السناتور مولندروف للقنصل مبتهجة فحظر هذه النزهات . لكنه ثبت بعدئذ أن الآنسة توني كانت تتلقى من تلك الأشجار العتيقة الجوفاء القائمة خلف

بوابة القصر والتي كانت تسدّ بكتل الملاط فتخلف فيها ثغرات ـ تتلقى رسائل صغيرة من الطالب الثانوي نفسه أو تدعها له فيها . فلمّا افتضح هذا بات من الضروري أن يعهد بتوني البالغة خمسة عشر ربيعاً الى رقابة أصرم فأدخلت مدرسة الآنسة فيشبروت الداخلية الكائنة بشارع مولنبرنك رقم ٧ .

الفصل السابع

كانت تيريزه فيشبروت حدباء ، وكانت في حدبها لايصل ارتفاعها الى مستوى منضدة . وكانت في الحادية والأربعين من عمرها . لكنها لم تكن تعلّق أهمية على المظهر أو تقيم وزناً لإعجاب الناس ، كانت تسير في ثياب صاحبة الستين أو السبعين . وكانت تستقر على خصل أذنيها الغزيرة التيبياء قلنسية بشرائط خضراء تتدلى على كتفين ضيقتين كأكتاف الأطفال . ولم يرَ قط على ثوبها الأسود الرخيص أية حلية... اللهم إلا ذلك البروش البيضاوي الكبير الذي كانت تلمع منه صورة لأمها مرسومة على البورسلين .

وكانت للآنسة فيشبروت الضئيلة عينان عسليّتان عاقلتان جادّتان وأنف مقوّس بعض الشيء ، وشفتان رقيقتان كانت تستطيع إطباقهما في أشد تصميم ... وعلى الجملة كان في شخصها الضئيل وفي حركاتها كافة توكيد كان في الحق مضحكاً لكنه يبعث كل البعث على الاحترام ، ويساعد منطقها في ذلك الى حد كبير ، فقد كانت تتكلم بطلاقة وفي حركة مندفعة من فكها الأسفل وهزة رأس سريعة ملحة ، دقيقة لاتلجأ الى العامية ، واضحة ، جلية ، تؤكد بعناية كل حرف ساكن . أما أحرف العلة فكانت تغلو في نطقها فتغير وتبدل وتنادي كلبها المصرّ على أن يبقى فاغراً فاه : «ببي» بدلاً من «بوبي» فإذا قالت لتلميذة : «لاتكوني هكذا» وصاحبت هذا القول بدقتين متلاحقتين على المنضدة بسبّابتها المعوجة فثق أنه هذا لن يعوزه التأثير . وإذا تناولت الآنسة بوبنييه الفرنسية لقهوتها أكثر مما ينبغي من قطع السكر تكون للآنسة فيشبروت طريقتها في تأمل سقف الحجرة وعزف البيان على مفرش المائدة بيد واحدة والقول : «ألا تتناولين السكرية كلها ؟» فتخجل الآنسة بوبنييه ويحمر وجهها احمراراً شديداً...

كانت تيريزه فيشبروت تنادى وهي طفلة ـ ياللّه لابدّ أنها كانت وهي طفلة جد

« صغيرة » ـ تنادى بـ« زيزيمي » . وقد استبقت هذا التغيير في اسمها الأول فكانت تسمح لخير تلميذاتها وأمهرهنّ ، الداخليّات منهنّ والخارجيّات بأن ينادينها « زيزيمي » . وقد قالت هذا لتوني بودنبروك من أول يوم ، وهي تطبع على جبينها قبلة مقتضبة مطرطقة بعض الشيء... فهي تحب سماع هذا النداء . أما أختها الكبرى مدام كيتلزن فكانت تسمى نيللي .

ومدام كيتلزن التي كانت تبلغ من العمر قرابة ثمانية وأربعين عاماً ، خلفها زوجها المتوفى في الحياة معدمة ، فكانت تسكن مع أختها في الطبقة العليا حجرة صغيرة وتشاطرها طعامها على المائدة العامة . وكانت تلبس مثل « زيزيمي » لكنها كانت على نقيضها طويلة القامة بصورة غير عادية ، تحمل فوق معصميها المعروقين صوفتين لتدفأة النبض . لم تكن قد دخلت مدرسة ولم تعرف شيئاً عن الصرامة وكان كيانها مزاجاً من عدم الأذى والبهجة الهادئة .

فإذا أتت تلميذة للآنسة فيشبروت فعلة ندت عنها ضحكة رضية تكاد من رقتها تنقلب الى ندب ، حتى تدق زيزيمي على المائدة وتصيح في إلحاح « نيللي » تنطقها نللي فتخرس مرهبة .

كانت مدام كيتلزن تطيع أختها الصغرى ، تتحمّل تأنيبها كما يؤنب الطفل . والمسألة أن زيزيمي كانت تحتقرها من كل قلبها . فقد كانت تيريزه فيشبروت فتاة مطّلعة ، بل تكاد تكون عالمة ، وكان عليها أن تصون إيمان الأطفال فيها وورعها الإيجابي ، وثقتها بأن تعوض هناك مرة عن حياتها الشاقة الباهتة ، تصون ذلك وتحافظ عليه في معارك جدية صغيرة . أمّا مدام كيتلزن فكانت على النقيض من ذلك جاهلة بريئة ساذجة الروح . كانت زيزيمي تقول : «نيللي الطيبة هذه!! ياآلهي ، إنها طفلة ، إنها لاتصطدم قط بشك ولايصادفها كفاح تخرج منه منتصرة ، إنها سعيدة...» وفي مثل هذه الكلمات استهانة بقدر ما فيها من حسد . وهذه نقطة ضعف في خلق زيزيمي وإن كانت ممّا يُغتفر .

كانت أماكن الدراسة وقاعة الأكل تشغل الطبقة الأرضية من بيت صغير من بيوت الضواحي في حمرة القرميد ، محوط بحديقة منسقة ، بينما حُجر النوم تشغل الطبقتين العليا والسفلى . ولم تكن ربيبات الآنسة فيشبروت عديدات . ذلك أن المثوى لم يكن يقبل سوى الكبريات من البنات . ولم يكن للتلميذات الخارجيات أيضاً سوى فصول المدرسة الثلاثة ، كذلك كانت زيزيمي تراعي بشدة ألا يلتحق ببيتها سوى بنات الأسر

الكبيرة حقاً... وقد استقبلت توني بودنبروك كما أشرنا في حنان . لقد أعدت تيريزه شراب «الأسقف» لطعام العشاء وهو شراب أحمر حلو المذاق يحتسى بارداً كانت تجيد إعداده...وتسأل وهي تهزّ رأسها متوددة : «هل من مزيد من «الأسقف ؟» . فيقع هذا وقعاً مشهياً لايقاوم .

كانت الآنسة فيشبروت تجلس في رأس المائدة على وسادتين من وسائد الأريكة وتشرف على الأكل بهمة وانتباه ، تقيم جسيمها العاجز في استقامة وتدق يقظة على المائدة وتصيح «نللي» و«ببي» وتذل الآنسة بوبنييه بنظرة إذا أوشكت هذه أن تغير على كل الهلام من اللحم العجالي المحمر البارد . وقد كان مجلس توني بين الاثنتين من نزيلات المثوى الأخريات ، بين أرمجارد شيلنج ، وهي فتاة شقراء ذات بسطة في الجسم ، وكريمة أحد ملاك مكلينورج وجيردا أونولدسين التي يقطن أهلها في أمستردام . وهي ظاهرة أنيقة غريبة ذات شعر ثقيل أحمر داكن ، وعينين عسليّتين متقاربتين ، ووجه أبيض جميل متغطرس قليلاً . وكانت فرنسية ثرثارة تجلس قبالتها وتبدو كالزنجية وتحمل في أذنيها قرطين ذهبيين ضخمين . وفي ذيل المائدة مس براون الانجليزية النحيلة تبتسم ابتسامة مرة . وهي بالمثل من نزيلات البيت .

وقد توطّدت الصداقة بينهن بفضل أسقف زيزيمي ، وقصت عليهنّ الآنسة بوبنييه أن الكابوس عاودها في الليلة الفائتة فقالت : أي رعب استولى عليّ .

كانت حينئذ تصرخ : جان ، جان! اللصوص ، اللصوص! فهبّ جميعهنّ من الأسرّة مذعورات ، وظهر غير ذلك أن جيردا أرنولدسن لم تكن تعزف على البيان بل على الكمان ، وأن أباها ـ فأمها متوفاة ـ وعدها بكمان أصيلة من صنع ستراديفاري . ولم تكن توني على استعداد موسيقي شأن معظم آل بودنبروك وجميع آل كروجر . ولم تستطع مرة أن تتبيّن الأناشيد التي كانت تنشد في كنيسة مريم... وأرغن الكنيسة الجديدة في أمستردام! إن له صوتاً آدمياً ، صوتاً يرن في جزالة! . وجعلت أرمجارد فون شيلنج تحكي عن البقر في بلادها .

وكان لأرمجارد هذه من اللحظة الأولى وقع في نفس توني ، وذلك بوصفها أول فتاة من النبلاء اتّصلت بها توني . وإنها لسعادة أن تسمى فون شيلنج . حقاً إن لأبيها أجمل بيت قديم في المدينة ، وجداها من الوجهاء ، لكنهما يسمّيان ببساطة بودنبروك وكروجر . وكان هذا داعياً الى الأسف الشديد . إن حفيدة ليبرشت كروجر الكريم كانت تضطرم إعجاباً بنبالة أرمجارد ، وكانت تفكّر أحياناً في أن هذا اللفظ الفخم «فون» كان أليق كثيراً

بها ، ذلك أن أرمجارد ، ياإلهي ، لم تكن تعرف قيمة سعادتها ، فهي تسير هنا وهناك بضفيرتها السميكة وعينيها الزرقاوين الهانئتين ومنطقها الميكلنبورجي العريض دون أن تفكّر في هذا ، وهي لم تكن وجيهة بحال من الأحوال ، ولم يكن لها أدنى حق في أن تكون هكذا ، لأنها لم تكن تفهم معنى الوجاهة . وهذه الكلمة «وجيه» كانت مكينة في رأس توني ، وقد طبقتها على جيردا أرنولدسن فأكدتها وقدّرتها .

فقد كانت جيردا على شيء من غرابة الأطوار ، وكان فيها ممّا في الأجانب أشياء ، كانت تحب أن تجعل لشعرها الأحمر تسريحة تلفت الأنظار على الرغم من معارضة زيزمي ، وكانت الكثيرات منهن يرين عزفها على الكمان حماقة مع ملاحظة أن كلمة «حماقة» تعبير قاسٍ جداً في الحكم على الأشياء .

لكن الرقيقات مع ذلك كنّ متّفقات مع توني على أن جيردا أرنولدسن كانت فتاة وجيهة . فمظهرها الكامل الذي لم يكن يناسب سنها وعاداتها ، والأشياء التي كانت تملكها ، كل هذا كان وجيهاً : كأدوات الزينة المصنوعة من العاج والواردة من باريس على سبيل المثال . فقد كانت توني تقدّرها على الأخص حقّ قدرها ، إذ كانت الأشياء من نوع موجود عندها في بيتها ، جلبها والدها أو جداها معهم من باريس وكانوا يعتزّون بها .

وسرعان ماعقدت الفتيات الصغيرات أواصر الصداقة بينهن ، فقد كنّ في فصل دراسي واحد ، وكنّ يسكنّ أكبر مخدع من مخادع النوم في الطبقة العليا . وما أمتعها من ساعات هنيئة تلك التي كنّ يقضينها عندما يتوجهن في العاشرة الى النوم ، ويتجاذبن عند خلع ملابسهن أطراف الحديث . في صوت خافت بطبيعة الحال ، لأن الآنسة بوبنييه تكون قد بدأت تحلم عن اللصوص... . فقد كانت تنام مع الصغيرة ريفا ايفرز ، وهي هامبورجية انتقل أبوها الى ميونيخ وكان من محبي الفنون وجامعي التحف .

كانت الستائر المقلمة باللون البنّي مسدلة ، والمصباح المنخفض المغطى بالأحمر يضيء فوق المائدة ، والحجرة تعبق برائحة البنفسج الخفيفة والغسيل الأبيض وتسودها نفسية راضية مكتومة هي مزاج من التعب وخلو البال والأحلام .

وقالت أرمجارد وكانت قد خلعت ملابسها نصف خلع ، وجلست على حافة سريرها : «كم يتكلّم الدكتور نويمان بطلاقة! إنه يدخل الفصل ويجلس على المنضدة ويتكلّم عن راسين...» فلاحظت جيردا : إن له جبيناً جميلاً عالياً وكانت واقفة أمام المرآة بين النافذتين تمشط شعرها على ضوء شمعتين...

فقالت أرمجارد على عجل : «أجل»!

«وقد بدأت مجرد بداية بالكلام عنه لتتلقى مايقال فيه يا أرمجارد . إنك تديمين النظر اليه بعينيك الزرقاوين ، كما لو كنت...» .

فسألت توني : «أتحبّينه ؟ إن رباط حذائي معقود . أرجوك ياجيردا... هكذا! والآن! أتحبّينه يا أرمجارد ؟ تزوجي منه! إنه زوج موافق جداً . وسيصبح أستاذاً في الجيمنازيوم» .

«ياإلهي ، إنكن بغيضات . إني لاأحبه البتة . إني لن أتزوج قطعاً من مدرس بل من أهل الريف...» .

وأفلتت توني جوربها وكانت تمسك به في يدها ثمّ نظرت في وجه أرمجارد وهي غارقة في الفكر وقالت : «من نبيل!» .

«لاأعلم بعد ؟ لكنه يجب أن يكون من كبار الملاك... آه ، كم أترقب هذا مغتبطة يابنات! عندئذ أنهض من نومي في الخامسة وأدير البيت...» وسحبت غطاءها عليها وتطلعت حالمة الى السقف .

وتكلمت جيردا : «إنك تتمثلين الآن خمسمائة بقرة» . وتأملت صديقتها في المرآة .

ولم تكن توني انتهت بعد لكنها ألقت رأسها فوق الوسادة سلفاً وشبكت يديها تحت جيدها وجعلت تتأمل من جانبها أيضاً سقف الحجرة وتفكّر .

قالت : «سأتزوج من تاجر بطبيعة الحال ، ويجب أن يكون عنده مال كثير لنرتب أمورنا ترتيباً وجيهاً» ، ثمّ أضافت الى ذلك : «فإني مدينة بهذا لأسرتنا ومتجرنا . أجل وسوف ترين أني سأبلغ ذلك» .

وكانت جيردا قد فرغت من تسريحة النوم ، ونظفت أسنانها العريضة البيضاء ، مستخدمة في هذا مرآتها اليدوية العاجية .

وقالت جاهدة بعض الشيء لأن مسحوق النعناع كان يعوقها : «الراجح أني لن أتزوج أبداً . ولست أرى لماذا ؟ إني لاأميل الى الزواج . إني سأذهب الى أمستردام وأعزف مع أبي عزفاً ثنائياً ، ثمّ أتوجه بعد ذلك الى أختي المتزوجة وأعيش معها...» .

فصاحت توني في نشاط : «واأسفاه! كلا ياجيردا ، فهذا مايؤسف له! ينبغي أن تتزوجي هنا وتبقي هنا على الدوام... اسمعي! تتزوجين مثلاً أحد أخوي...» .

فسألتها جيردا : «هذا الكبير الأنف ؟» ، وتثاءبت في تنهيدة موجزة منمّقة متراخية أمسكت خلالها بالمرآة تجاه فمها .

«أو الآخر فهذا لايهمّ... يا الله ، كيف يكون عندئذ جهازكما . لابدّ أن يقوم به

جاكوب ، الورّاق المقيم في شارع السمك فإن له ذوقاً رفيعاً ، وسوف أزوركما في كل يوم... »

بيد أنه عندئذ سمع صوت الآنسة بوبنييه : «ماهذا أيتها السيدات! الى النوم من فضلكن! إنكن لم تتزوّجن الليلة! » .

على أن توني قضت العطلة في شارع منج أو خارجاً عند جدتها . وأي حظ عندما يكون الجو في أحد الفصح مؤاتياً فيمكن المرء أن يطلب البيض والأرنب المصنوع باللوز والسكر في حديقة كروجر الفسيحة .

وأية عطلة صيفية تقضى على البحر عندما يقيم المرء في مصحة فيأكل على مائدة المضيف ويستحم ويركب حماراً كذلك كانت توني تقوم برحلات واسعة النطاق عندما يكون القنصل قد عقد صفقات ، ثمّ قبل كل شيء أي عيد ميلاد ذلك المصحوب بهدايا ثلاث : من البيت والجدين وعند زيزيمي حيث يجري في ذلك المساء بالذات شراب «الأسقف» أنهاراً . لكن أبهج عيد ميلاد مع ذلك هو الذي يحتفل به في المنزل ، ذلك أن القنصل كان حريصاً على أن يتم هذا الإحتفال بهياً مقدساً يشرح القلب . فعندما يجتمعون في حجرة المناظر الطبيعية في خشوع بالغ وبينما الخدم وأنماط منوعة من المسنّين والفقراء يزحمون بهو الأعمدة ويضغط القنصل على أيديهم الحمراء المزرقة ، يتصاعد هناك في الخارج غناء من أربعة أصوات يؤديه الغلمان المنشدون في كنيسة مريم ، فتدق القلوب من الرهبة ثمّ أنه بينما كان عبق الصنوبر يتضوّع وينفذ من ثنايا الباب الأبيض العالي ذي المصراعين كانت القنصلة تتلو فصل الميلاد من انجيل الأسرة القديم بحروفه الهائلة مستأنية ، فإذا كان في الخارج نشيد مايزال يرن من بعيد بدأوا لحن «أيا شجرة الصنوبر» . وبينما يتوجهون الى القاعة مخترقين بهو الأعمدة في احتفال ـ الى القاعة الفسيحة التي يبدي توريقها التماثيل وتضيء فيها الشجرة المزدانة بالزنبق الأبيض ، متألقة ، متضوعة ، متطاولة الى السقف وحيث يصل خوان الهدايا من النوافذ الى الباب . أما في الخارج فكان العازفون الإيطاليون على الأرغن يديرونه فوق ثلج الشوارع المتجمد ، وضوضاء ليلة عيد الميلاد تتناهى من ميدان السوق . وقد ساهم ، فيما خلا كلارا الصغيرة الأطفال أيضاً في طعام العشاء المتأخر الذي قدّم في بهو الأعمدة وكان يحتوي سمك الشبوط والديكة الرومية المحشوة بكمّيات ضخمة...

ولانغفل هنا أن توني بودنبروك زارت في هذه السنين ضيعتين من ضياع مكلنبورج حيث أمضت بضعة أسابيع من الصيف مع صديقتها أرمجارد في أملاك السد فون شبلنج

القائمة على الساحل تجاه ترافيمنده في الجهة الأخرى من الجون . وفي مرة أخرى سافرت مع ابنة عمها تيلده الى حيث كان السيد برنار بودنبروك يعمل مفتّشاً . وكانت الأرض هناك تسمّى «أونجناديه»* ولاتدر دانقاً ، لكنها كبقعة تقضى فيها العطلة لم تكن على الرغم من ذلك مما يستهان به .

هكذا كانت السنون تمر . ولقد كان ماقضته توني في جملته عهداً من الصبا السعيد .

* Ungnade بالألمانية معناها نقمة

الجزء الثالث

الفصل الأول

في عصر يوم من أيام يونيه بعد الخامسة بقليل كان آل بودنبروك جالسين أمام البوابة في الحديقة حيث كانوا قد تناولوا القهوة . وفي الخص المبيض من الداخل باللاكيه والمجهّز بمرآة عالية مسندة الى الحائط يزدان مسطحها بطيور ترفرف ، وببابين ذوي مصراعين مدهونين باللاكيه ، قائمين في المؤخرة ، لكنهما إذا ماأمعن النظر فيهما لايجدهما في الواقع بابين بل يجد لهما أكرتين مرسومتين ، ففي هذا الخص كان الهواء دافئاً مكتوماً أكثر مما ينبغي ومن ثمّ أخرجوا الى خارجه أثاثه المصنوع في خفة من الخشب المعقد المدهون .

وكان القنصل وزوجته وتوني وكلوتيده جالسين من حول المائدة المستديرة المعدة تلمع فوقها الأواني المستعملة ، بينما كان كريستان منتحياً جانباً الى حد ما يحضّر خطبة شيشيرون الثانية ضد كاتيلينا وعلى وجهه إمارات الضيق . وكان القنصل مشغولاً بسيجاره وبمطالعة الإعلانات ، وزوجة القنصل قد تركت تطريزها الحريري والتفتت باسمة إلى الصغيرة كلارا ، وكانت تبحث مع ايدا يونجمان عن البنفسج فوق الساحة المخضرة ذلك أنه كان يوجد هناك بنفسج أحياناً . وكانت توني تمسك رأسها بكلتا يديها ، تستغرقها القراءة في «أخوة سيرابيون» لهوفمان بينما توم يعابث جيدها بعود من الكلأ محاذراً أشد المحاذرة ، لكنهما أخذا منها بسبيل الحكمة كانت تتظاهر بأنها لم تلحظ . وكانت كلوبيده البادية أكبر من سنها جالسة في ثوبها القطني المزهر تقرأ حكاية بعنوان «أعمى وأصم وأبكم لكنه سعيد» . و تجمع في أثناء ذلك فُتات البسكوت عن مفرش المائدة وتتناول ماتجمعه بأصابعها الخمسة كلها وتلتهمه في احتراس .

وبدأت السماء تغيم قليلاً قليلاً ، وكانت ملبّدة ببضع سحب بيضاء . وكانت الحديقة

الصغيرة الخاصة بالمدينة بطرقها وأحواضها المنسّقة زاهية نظيفة في شمس الأصيل ، وعبير البليحاء التي تحف بالأحواض يتخلل الهواء فيمر بهم بين الحين والحين .

وقال القنصل منبسطاً وقد أخرج سيجاره من فمه : «هيه ياتوم ، لقد سوّيت صفقة الشوفان مع فان هنكدوم وشركائه ، تلك التي حدّثتك عنها » .

فسأله توم في اهتمام وقد كف عن معاكسة توني : «ماذا يدفع ؟ » .

«ستين ريالاً في ألف الكيلو... سعر طيب أليس كذلك ؟ » .

«عظيم! » ذلك أن توم كان يعرف أن هذه صفقة طيبة جداً .

ولاحظت زوجة القنصل على توني! «إن مسلكك ليس على مايرام ياتوني » فرفعت توني مرفقاً من فوق المائدة من دون أن ترفع بصرها عن كتابها .

فقال توم : «لابأس . ففي وسعها أن تجلس كما تشاء ، فهي على الدوام توني بودنبروك . فهي وتيلده أجمل من في الأسرة بلا نزاع » .

فدهشت كلوتيده تمام الدهشة وقالت : «تـــوم بربك» وكان من غير المفهوم كيف استطاعت أن تمط هذه المقاطع الوجيزة . وأطاعت توني قول أخيها ولزمت الصمت . ذلك أن توم كان متفوّقاً عليها ، فلا فائدة ، وإنه لكفء لأن يجد الرد على مايمكن أن يقول ، وأن يكون الضاحكون في جانبه واستنشقت الهواء بقوة من منخريها المفتوحين ورفعت كتفيها . لكنه لمّا شرعت زوجة القنصل في الكلام عن المرقص المنتظر عند القنصل هونيوس وبدر منها شيء عن حذاء لمّاع جديد رفعت توني المرفق الآخر عن المائدة وأبدت التفاتاً الى الموضوع .

وصاح كريستيان شاكياً : «إنكم تتكلّمون وتتكلّمون ، وهذا الذي أزاوله صعب لايطاق! ليتني كنت تاجراً! » . قال توم : «أجل ، إنك تريد أن تكون كل يوم شيئاً جديداً » . ــ هنا جاء أنطون عبر الفناء ، جاء يحمل بطاقة فوق صينية الشاي فتلقّوه باهتمام .

وقرأ القنصل : «جرينليش » وكيل أعمال من هامبورج . رجل لطيف ، موصى عليه بحرارة ، وابن قسيس . إننا نتعامل ، وبيننا مسألة... قل للسيد يا أنطون ــ أظن أن لامانع عندك يابتسي ؟ قل له أن يتفضّل هنا... » .

وجاء يخترق الحديقة ، قبعته وعصاه في يد واحدة ، تكاد خطواته تكون متّزنة ، ورأسه ممدوداً الى الأمام قليلاً ، رجل ربعة في حوالي الثانية والثلاثين ، يرتدي بذلة صوفية صفراء خضراء طويلة الحجر ، ويلبس قفازاً رمادياً من الخيط المفتول . كان وجهه متورّداً يبتسم

تحت شعر رأسه الشحيح الأشقر الرائق ، لكن له بجانب أحد منخريه ثؤلولاً يلفت النظر ، حليق الذقن والشفة العليا تتدلى ، له لحية عارضية طويلة على الطريقة الانجليزية في لون الذهب الأصفر الصارخ ـ فما أن أشرف حتى أبدى بقبّعته الكبيرة الرمادية الفاتحة حركة تدل على الإخلاص...

وتقدّم بخطوة أخيرة طويلة جداً ، فرسم بجسمه الأعلى نصف دائرة وانحنى على هذا النحو للجميع .

وتكلّم بصوت ناعم وتحفّظ رقيق : « إني أزعجكم بتطفلي على دائرتكم العائلية ، فبعضكم يقرأ وبعضكم يتحدث فأرجو المعذرة! » .

قال القنصل الذي نهض من مكانه مع ولديه : « مرحباً بك ياسيد جرينليش العزيز! » وضغط على يد الضيف . « إنه ليسرني أن أحيّيك خارج المكتب وفي محيط أسرتي . السيد جرينليش يا بتسي ، صديق طيب من أصدقاء العمل... ابنتي انتونيا... ابنة أخي كلوتيده... أنت تعرف توماس من قبل... وهذا كريستيان ابني الثاني ، طالب في الجيمنازيوم » .

فأجاب السيد جرينليش بانحناءة عن كل اسم ، ثمّ استطرد يقول : « وكما قلت ليس في نيّتي أن أقوم بدور المتطفّل... فإني قادم لعمل ، فإذا سمحت لنفسي بأن أرجو السيد القنصل في جولة معي في الحديقة » .

فأجابت القنصلة : « إنك تولينا فضلاً ، إذا لم تطرق في الحال موضوع العمل مع زوجي بل تكرّمت وارتضيت البقاء برهة في صحبتنا . تفضّل اجلس » .

قال السيد جرينليش متأثراً : « ألف شكر » وجلس على الأثر على حافة الكرسي الذي قدّمه توم اليه ، واعتدل في جلسته والقبعة والعصا على ركبتيه ومرّ بيده على فرد من لحيته ، وتنحنح نحنحة خفيفة رنّت تقريباً : « هيئيهم » وكأنه كان بهذا كله يريد أن يقول : « هذه هي المقدمة فماذا بعد هذا ؟ » .

وافتتحت زوجة القنصل الجزء الأهم في الحديث .

فسألته وهي تميل برأسها جانباً وتضع شغلها في حجرها : « إنك من هامبورج ؟ » .

فرد السيد جرينليش بانحناءة جديدة : « بكل تأكيد ياسيدتي القنصلة ، إن مقامي في هامبورج ، لكني كثيراً ما أتغيّب عنها ، فأعمالي كثيرة ، وعملي جمّ النشاط هيـ ئيـ هم ، أجل هذا ماأسمح لنفسي بأن أقوله » .

فرفعت زوجة القنصل حاجبيها ، وحرّكت فمها حركة كما لو كانت قالت في توكيد ينم عن الاحترام : كذا!

فأضاف السيد جرينليش ملتفتاً الى القنصل نصف التفاته : «النشاط بلا هوادة هو عندي شرط الحياة» . وتنحنح من جديد ، لمّا أن لحظ النظرة التي حدجته بها الآنسة أنتونيا ، تلك النظرة الباردة الفاحصة التي تقيس بها الفتيات الصغيرات الشبان الغرباء ، والتي يبدو أن تعبيرها يمكن أن يبدي في كل لحظة مظهر الإزدراء . «إن لنا أقرباء في هامبورج» ـ هكذا قالت توني لتشارك في الحديث . فوضح القنصل : «آل دوشان . أسرة أمي المرحومة» .

فبادر السيد جرينليش الى الجواب قائلاً : «إني ملم بهذا تماماً . فإن لي الشرف أن يعرفني سادة الأسر وسيداتها بعض المعرفة ، فهم أناس ممتازون ، أناس ذوو قلوب وعقول ، هيـ ـ ئيـ ـ ـهم . وفي الواقع أنه لو كان يسود كل أسرة مايسود هذه الأسرة من روح لكانت الدنيا بخير . هنا يجد المرء إيماناً بالله ، ووداعة ، وورعاً شديداً ، وبالجملة روحاً مسيحية حقيقية هي مثلي الأعلى . ويجمع هؤلاء السادة والسيدات الى هذا دنيوية نبيلة ووجهة باهرة ياسيدتي القنصلة ، تفتنني شخصياً» .

ففكّرت توني : «من أين له هذه المعرفة بوالدي» . فهو يقول لهما مايشتهيان سماعه... لكن القنصل تكلّم عرضاً فقال :

«إن هذا الاتّجاه المزدوج في الذوق لأحسن مايتّصف به الإنسان» .

ولم تتمالك زوجة القنصل نفسها من أن تمد الى الضيف يدها فيرن سوارها رنيناً خافتاً وتدير في ذلك باطن اليد دورة واسعة في صورة بادية الود .

قالت : «إنك تتحدث من القلب ياسيد جرينليش!» .

وهنا انحنى السيد جرينليش ثمّ اعتدل في جلسته وأمرّ يده على لحيته وتنحنح وكأنه أراد أن يقول : «فلنستمر» .

وألقت زوجة القنصل بضع كلمات عن أيام مايو التي روعت مسقط رأس السيد جرينليش هذا الترويع في سنة ١٨٤٢... فلاحظ السيد جرينليش : «حقاً إنه كان مصاباً فادحاً ومصيبة محزنة هذا الحريق . خسارة ١٣٥ مليوناً ، أجل . محسوبة بالضبط . وإني مدين للعناية الإلهية بأجزل الشكر... ذلك أني لم أصب بشيء على الإطلاق . فقد كانت النار تتأجج في الغالب من مناطق سان بيتري ونيكولاي...» وقاطع نفسه يقول : «ماهذه الحديقة الرائعة» وشكر للقنصل سيجاراً قدمه اليه . «حقاً إن هذه الحديقة كبيرة جداً على مدينة ، أي أرض مكتسية بالأزهار المتعددة الألوان... أووه ، ياإلهي ، إني أعترف بضعفي أمام الزهور وأمام الطبيعة على العموم! وهذا الخشخاش الأحمر هناك . إنه يلمع بصورة غير عادية بالمرة...»

وأثنى السيد جرينليش على تصميم البيت ، ذلك التصميم الوجيه ، أثنى على المدينة كلها إطلاقاً ، وامتدح سيجار القنصل ونفح كلاً من الحاضرين بكلمة رقيقة .

وسأل مبتسماً : «هل أتجاسر فأستعلم عمّا تقرأين يا آنسة انتونيا ؟» .

فقطبت توني حاجبيها لسبب ما وأجابت من دون أن تنظر الى السيد جرينليش :

«أخوة سيرابيون» لهوفمان .

قال : «حقاً! إن هذا الكاتب أدى أشياء جليلة... لكن معذرة ، لقد نسيت اسم السيد ابنك الثاني ياسيدتي القنصلة» .

«كريستيان» .

«اسم جميل . إني أحب ، إذا سمح لي بأن أقول ذلك» . والتفت ثانية الى رب البيت «أحب الأسماء التي تدلّ بذاتها ولذاتها على أن حاملها مسيحي . اسم يوهان (يوحنا) في أسرتكم وراثي فيما أعلم... فمن ذا الذي لايفكّر عند ذلك في الحواري المحبوب للسيد المسيح . فأنا على سبيل المثال إذا جاز لي أن أبدي هذه الملاحظة» واستطرد في هذا ببلاغة «اسمي كمعظم أجدادي ، بندكس ، وهو اسم ينظر اليه كإختصار لبينيدكت جرت به الأفواه . وأنت يا سيد بودنبروك تقرأ ؟ شيشرون ؟ إنها لمطالعة صعبة ، مؤلفات هذا الخطيب الروماني العظيم Duousque Tandem, Catilina... هـ ـ ئيـ ـ ـهم أجل ، فإني بالمثل لم أنس ماتعلّمته من اللاتينية كل النسيان!

وقال القنصل :

«إني على خلاف المرحوم والدي ، طالما عارضت في شغل الأدمغة الصغيرة باليونانية واللاتينية . فهناك أشياء جدية وهامة كثيرة ضرورية للإعداد للحياة العملية...» .

فأسرع السيد جرينليش الى القول : «إنك تعبر عن رأيي ياسيدي القنصل قبل أن أستطيع الإعراب عنه بكلماتي! هذه مطالعات صعبة ، وكما نسيت أن أضيف ، لاتخلو من مطاعن . وإني . بغضّ الطرف عن كل شيء ، أتذكّر مواضع هذه الخطب ، غير لائقة تماماً...»

وساد الصمت برهة فجعلت توني تفكر : الآن سيأتي دوري . ذلك أن نظرات السيد جرينليش تركزت عليها ولقد آن دورها حقاً . فقد هبّ السيد جرينليش بغتة من على كرسيه قليلاً وأتى من يده بحركة اختلاجية وجيزة وإن كانت رشيقة موجهاً إياها ناحية زوجة القنصل ، وهمس بقوة : «أرجوك ياسيدتي القنصلة! هل تراعين ؟» ثم قاطع نفسه بصوت

عالٍ قائلاً : «إني أستحلفك يا آنستي!» كما لو كانت توني هي المعنية بفهم هذا . «ابقي لحظة في هذا الوضع...!» ثمّ استطرد ثانية همساً : « راعي كيف تداعب الشمس شعر الآنسة ابنتك ؟» ثم تحدث بغتة في الهواء جاداً مغتبطاً كأنّما يخاطب ربه أو قلبه : «لم أرَ في حياتي قط شعراً أجمل من هذا الشعر» .

وابتسمت زوجة القنصل راضية ، وقال القنصل : «لاتحش رأس الفتاة بما يثير الغرور!» وعادتت توني تقطب حاجبيها . وبعد دقائق نهض السيد جرينليش .

قال : «لكني لاأريد أن أزعجكم أكثر من ذلك . إنّما جئت لأعمال ... لكنه من ذا الذي يستطيع مقاومة الإغراء... الآن يناديني النشاط! فهل لي أن أرجو السيد القنصل...» .

فقالت زوجة القنصل : «لست بحاجة الى أن أؤكد لك أنه مما يسرني كثيراً أن ترتضي القدوم الينا مادمت مقيماً في هذا المكان» .

فلبث السيد جرينليش لحظة وقد عقد الامتنان لسانه ثمّ قال يعبّر عن تأثّره : «إني مدين من كل قلبي ياسيدتي القنصلة . لكن حاشا أن أستغل وقتك . إني أقيم في جناح في فندق مدينة هامبورج...» .

وفكّرت زوجة القنصل : «جناح!» وهذا أيضاً ماخطر ببالها من نحو السيد جرينليش .

وقرّرت وقد مدّت يدها اليه بحركة ودودة : «وعلى كل حال أرجو أن لاتكون هذه آخر مرة نراك فيها» .

فقبّل السيد جرينليش يدها ، وتريث لحظة حتى تقدّم اليه أنتوني يدها ، فلمّا لم تفعل رسم بجسمه الأعلى نصف دائرة ، وتراجع خطوة واسعة ثمّ انحنى مرة أخرى ووضع قبعته الرمادية على رأسه مطوحاً إياها ، طارحاً رأسه الى الوراء . وسار مع القنصل...

وعاد القنصل الى أسرته يقول : «رجل لطيف» وعاود الجلوس .

فسمحت توني لنفسها بأن تلاحظ وتؤكد : «إني أجده سخيفاً!» .

فصاحت زوجة القنصل غاضبة شيئاً ما : «توني ، يا إلهي ، ماهذا الحكم! شاب بهذا الإيمان المسيحي!» .

وأكمل القنصل : «رجل بهذا التهذيب وهذه الخبرة بالحياة! إنك لا تفقهين ماتقولين» . وقد كان يقع أحياناً أن يغيّر الأبوان الموضوع في مثل هذه الحالة مجاملة منهما . فيكون هذا أضمن لعود الوفاق .

وجعّد كريستيان أنفه الكبير وقال : «لقد كان يتكلف الحديث... فلا نتحدث نحن بتاتاً . الخشخاش يلمع بصورة غير عادية! ـ إني أزعجكم ـ يجب أن أرجوكم المعذرة! لم أرَ

في حياتي قط شعراً أجمل من هذا!... وجعل كريستيان يقلّد السيد جرينليش تقليداً بلغ من براعته أن اضطر القنصل نفسه الى الضحك .

وعادت توني تقول : «أجل إنه يغلو في التكلف ، كان يتكلم دوماً عن نفسه . عمله نشط . يحب الطبيعة ، يؤثر هذا الاسم وذاك . يسمى بندكس ... إني لأود أن أعرف ماشأننا بهذا» . وصاحت بغتة حانقة : «كان قوله كله تزكية لنفسه . كان يقول لك ماما ويقول لك بابا وهو ما كان يروقكما سماعه . وذلك ليتملقكما!» .

فقال القنصل في صرامة : «لا ملام في هذا ياتوني . فالمرء في مجلس الغرباء يظهر خير جوانبه ، ويزن أقواله ، وينشد أن يروق الغير . هذا واضح...» .

وقالت كلوتيده وادعة تتمطى : «إنني أجده إنساناً طيباً» وإن كانت الشخص الوحيد الذي لم يحفل به السيد جرينليش أقل احتفال . أما توماس فامتنع عن التعليق .

وقرّر القنصل : «كفى! إنه رجل تعمر المسيحية قلبه ، حاذق ، نشط ، على علم واسع . وأنت ياتوني فتاة كبيرة في الثامنة عشرة ، وقريباً تصبحين في التاسعة عشرة قد سلك معك سلوكاً طيباً ، وتودّد اليك ، فأخلق بك أن تكفّي عن انتقاده . نحن جميعاً أناس ضعفاء ، وأنت ، ولاتؤاخذينني ، أنت في الحقيقة آخر من يجوز له أن يقذف الناس بحجر... توم ، الى العمل!» .

لكن توني تمتمت قائلة : «لحية عارضية صفراء حمراء!» وقطبت حاجبيها كما فعلت من قبل مرات .

الفصل الثاني

وبعد أيام ، بينما كانت توني عائدة من الخارج ، لقيت السيد جرينليش عند زاوية شارعي برايتن ومنج فقال لها : «لقد كدّرني حقاً ياآنستي أن أفتقدك . لقد سمحت لنفسي أن أزور السيدة ماما فافتقدتك كثيراً . فما أعظم ابتهاجي بأن ألقاك مع ذلك! » .

وكانت الآنسة بودنبروك قد وقفت حين بدأ السيد جرينليش الكلام ، لكن عينيها اللتين كانتا نصف مغمضتين ، واللتين تجهّمتا بغتة لم ترتفعا الى أعلى من صدر السيد جرينليش . كانت تحف بفمها تلك الإبتسامة الساخرة التي لاترحم ، والتي تقيس بها الفتاة الصغيرة رجلاً ما وترفضه… وتحرّكت شفتاها ـ ولكن بماذا تجيب ؟ ها! لابدّ من كلمة ترد هذا البندكس جرينليش على أعقابه نهائياً ، وتقضي عليه… لكنها لابدّ أن تكون كلمة كيسة ، فكهة ، مصيبة ، تجرحه جرحاً نافذاً وتروّعه في وقت واحد…

قالت ونظرتها لاتتحول عن صدر السيد جرينليش : «إن هذا غير متبادل! » وتركته واقفاً بعد أن أطلقت هذا السهم المسموم ، وأطرحت رأسها الى الوراء ، وانصرفت محمرة الوجه مزهوة بهذه الكياسة في القول المنطوية على السخر ، عائدة الى البيت حيث علمت أن السيد جرينليش قد دُعي الى تناول اللحم العجالى المحمّر في يوم الأحد القادم…

وجاء يرتدي سترة خروج ليست حديثة الطراز لكنها بديعة جرسية الشكل ، مثناة ، تكسبه مسحة الجد وتخلع عليه الثبات ، وكان متورّد الخد ، مبتسماً ، معتنياً ، بفرق شعره القليل ، فواح العارضين المسرّحين .وقد تناول من خليط المحار وحساء جوليين ولسان البحر المخبوز والعجالى المحمر والبطاطس المسحوقة والقنبيط وبودنج المارسكينو والخبز الأسود مع جبن الروكفورد ، ولم يعيه أن يجد لكل لون من ألوان الطعام كلمة مديح جديدة ، كان يفهم كيف يلقيها في ظرف . وقد رفع على سبيل المثال ملعقة الحلو ، ونظر

الى تمثال مرسوم فوق كسوة الحيطان وخاطب نفسه بصوت مرتفع : «ليغفر الله لي ، فلست بمستطيع غير ذلك . لقد استمتعت بقسط وافر ، لكن هذا البودنج فاق كل شيء في الفخامة ، فلا مناص لي من أن أرجو سيدة البيت الطيبة قطعة أخرى! » ورمشت عيناه في خبث لزوجة القنصل . وتكلّم مع القنصل عن الأعمال وعن السياسة ، فجلا بعض المبادىء في جد وحذق ، وتحدث مع زوجة القنصل عن المسرح والمجتمع والزينة ، وحبا توم وكريستيان وكلوتيده المسكينة ، بل أيضاً كلارا الصغيرة والآنسة يونجمان بكلمات رقيقة... ولزمت توني الصمت . كذلك لم يحاول هو من جانبه أن يتقرّب اليها ، بل كان يتأملها الفينة بعد الفينة بنظرة من رأسه المائل جانباً فيها كدر وفيها تشجيع .

ولمّا استأذن السيد جرينليش هذا المساء في الإنصراف كان قد قوى من النفوس ماتركت زيارته الأولى من أثر . فقالت زوجة القنصل : «إنه رجل كامل الثقة» وقال القنصل : « إنه إنسان مسيحي جدير بالإلتفات» . أمّا كريستيان فقد أصبح أكثر إجادة في تقليد حركاته وكلامه ممّا كان . وقالت توني مقطبة الحاجبين : «طاب ليلكم» . ذلك أنه كان يقوم بنفسها في غموض أنها سوف ترى هذا الرجل الذي غزا قلبيَ والديها بهذه السرعة الخارقة مرة أخرى .

وحقاً لقد ألفت السيد جرينليش عقب عودتها بعد ظهر يوم من زيارة واجتماع مع فتيات من أترابها ، رابضاً في حجرة المناظر الطبيعية يقرأ لزوجة القنصل «ويفرلي» لوالتر سكوت في نطق نموذجي ، ذلك أن رحلاته التي قام بها لإنجاز أعماله النشيطة قادته أيضاً على حد قوله الى انجلترا . فانتحت توني جانباً بكتاب آخر فسألها السيد جرينليش بصوت ناعم : «لعلّ ما أقرأ يا آنستي لايوائم ذوقك ؟ » فردّت عليه وقد أطرقت رأسها الى الوراء بشيء ينطوي على السخرية الحارة كقولها على سبيل المثال : «ولا أقل مواءمة! » .

لكن هذا لم يزعجه ، إذ جعل يتحدث عن والديه اللذين توفيا مبكّرين ، ويروي عن والده الذي كان واعظاً وراعي كنيسة ورجلاً تفعم قلبه المسيحية ويحذق كذلك أساليب الحياة الى حد بعيد... وقد سافر السيد جرينليش بعدئذ الى هامبورج بالفعل من دون أن تتوقع توني أن تحضر زيارة وداعه . وقالت توني للآنسة يونجمان التي كانت موضع سرها : «ايدا ، لقد رحل هذا الإنسان »! لكن ايدا يونجمان أجابت : «أيتها الطفلة ، سترين...»

وبعد ثمانية أيام كان المنظر الثاني في حجرة الإفطار... لقد نزلت توني في التاسعة فأثار دهشتها أن تجد أباها الى جانب القنصلة حول مائدة القهوة . وبعد أن طبعا قبلتيهما

على جبينها اتّخذت مجلسها جائعة محمرة العينين من أثر النعاس . وتناولت السكر والزبد وأخذت من جبن الروكفورد .

قالت : «ما أجمل أن ألقاك مرة ياأبي» . وأمسكت بيضتها الساخنة بفوطتها وفتحتها بملعقة الشاي .

قال القنصل : «لقد انتظرت اليوم نوامتنا» وكان يدخن سيجاراً ويضرب المائدة بصحيفته المطوية ضرباً خفيفاً متواصلاً . وانتهت القنصلة من إفطارها في تؤدة وحركات ظريفة . واتّكأت بعد ذلك على الأريكة .

واستطرد القنصل بقول ذي معنى : «إن تيلده في المطبخ بالفعل . وأنا كنت خليقاً أن أكون في عملي لو لم يكن عند أمك وعندي أمر جدي نريد أن نتحدّث الى ابنتنا الصغيرة فيه» .

فنظرت توني في وجه أبيها وأمها وفمها مليء بالخبز والزبد نظرة يمتزج فيها الفضول والقلق .

فقالت القنصلة : «كلي يا ابنتي أولاً» . ولمّا وضعت توني سكّينها على الرغم من ذلك وصاحت : «عجلي! ماذا هناك يا أبي ؟» أعاد القنصل عليها : «كلي فقط» وهو مايزال يعبث بالصحيفة .

وبينما تحتسي توني قهوتها صامتة عديمة الشهية ، وتزدرد بيضتها وجبنها الروكفور بالخبز أخذت تفطن الى خبيئ الأمر ، فزايلت وجهها نضرة الصباح وامتقع لونها قليلاً . وشكرت على العسل ثمّ لم تلبث أن أعلنت بصوت خافت أنها فرغت من الطعام..

قال القنصل بعد لحظة صمت أخرى : «ياطفلتي العزيزة إن الأمر الذي نريد أن نخاطبك فيه يحتويه هذا الخطاب» . وبدلاً من أن يدق على المائدة بصحيفته دقّ عليها بغلاف كبير أزرق «ولأوجز فأقول أن السيد بندكس جرينليش الذي عرفناه كلنا رجلاً طيباً ودوداً كتب اليّ أنه في خلال إقامته هنا تملّكه ميل عميق الى ابنتنا ، فهو يطلب يدها بكل صورة فما رأي طفلتنا الطيبة في هذا ؟» .

وكانت جالسة متكئة ، مطأطئة الرأس ، ويدها اليمنى تدير حلقة الفوطة الفضية ، لكنها رفعت بصرها بغتة بعينين غامتا كل الغيم واغرورقتا بالدموع . ثمّ قالت بصوت مكروب وكأنها تدفع لقولها دفعاً : «ماذا يريد هذا الإنسان مني! ماذا فعلت له ؟» ثمّ أجهشت بالبكاء .

وألقى القنصل على زوجه نظرة ورعى قدحه الخالي برهة وهو مرتبك . وقالت القنصلة في

حنان : «لماذا أنت مكروبة الى هذا الحد ؟ ثقي أن أبويك يضعان خيرك نصب أعينهما ، فلا يمكن أن يشيرا عليك باتباع منهج بعينه في الحياة . انظري ، إني أفرض أنك لاتحدوك بعد حيال السيد جرينليش مشاعر حاسمة ، لكن هذا سوف يأتي ، أؤكّد لك أن هذا سيأتي مع الزمن... إن مخلوقاً صغيراً مثلك لايمكن أن يعرف بالضبط ماذا يريد في الحقيقة... ورأسك في هذا مضطرب كقلبك... فيجب أن يتيح المرء لقلبه الوقت الكامل ويفتح رأسه لما يقول أهل الخبرة من الناس الذين يعملون لسعادتنا... .»

فقالت توني مسلوبة العزاء : «إني لاأعرف شيئاً عنه» وضغطت عينيها بالفوطة الباتستا الصغيرة البيضاء المبقعة بالبيض : «إني لاأعلم إلا أن له لحية ذهبية صفراء وعملاً رائجاً...»وتركت شفتها العليا التي كانت ترتعش وهي تبكي ، وقعاً مؤثراً يجل عن التعبير .

فاقترب القنصل منها بكرسيه في حركة تنم عن حنوّ مفاجىء ومسح على شعرها وهو يبتسم :

قال : «صغيرتي توني ماذا كان ينبغي أن تعرفي عنه ؟ إنك طفلة ، أترين ؟ إنك ماكنت لتعرفي عنه جديداً لو أنه قضى هنا بدلاً من أربعة أسابيع اثنين وخمسين أسبوعاً... إنك فتاة صغيرة لم تتفتّح بعد عيناها للدنيا . فتاة تعتمد على ماتراه أعين الغير ممّن يريدون لها الخير...» .

قالت : «إني لا أفهم ذلك... لا أفهمه...» وانخرطت في البكاء دون وعي ، ودسّت رأسها كالهرة تحت اليد التي تملسه «إنه يأتي الينا... يقول لكل منّا كلمة تعجبه... يرحل... ويكتب ، إنه... إني لا أفهم ذلك... كيف يصل الى هذا ماذا صنعت له ؟!...»

فابتسم القنصل ثانية : «لقد قلت هذا مرة ياتوني . وهو يدل على حيرة الأطفال فيك . إن ابنتي يجب أن تعتقد أني لا أضغط عليها ولاأعذّبها... فكل هذا يمكن أن يتروى في هدوء ويجب أن يتروى في هدوء . ذلك أن الأمر جد وسأرد أيضاً على السيد جرينليش بهذا المعنى فلا أرفض طلبه ولا أوافق عليه فهنالك أشياء كثيرة مما ينعم فيه النظر وهذا إذن مانراه جيداً... اتّفقنا! والآن يذهب بابا الى عمله... فإلى اللقاء يابتسي...» .

«الى اللقاء ياعزيزي جان» .

وقالت زوجة القنصل لمّا بقيت وحدها مع ابنتها ، وبقيت الابنة في مكانها لاتتحرّك مطأطئة الرأس : «كان ينبغي أن تتناولي العسل فوق الذي تناولت فالمرء يجب أن يأكل مافيه الكفاية» .

وجفّ دمع توني شيئاً فشيئاً . وكان رأسها صاخباً مليئاً بالأفكار... يا الله! ماهذه

المسألة! لقد كانت تعرف أنها ستكون يوماً زوجة لتاجر ، إنها ستعقد زيجة طيبة مفيدة تتناسب مع هيبة الأسرة والمتجر... لكن الأمر يقع لها الآن للمرة الأولى مفاجئاً ، فيريد أحد الناس الزواج منها حقاً وجداً! فكيف كان ينبغي أن يكون مسلكها ؟ وبالنسبة لها هي ، توني بودنبروك ، يتعلق الأمر فجأة بكل التعبيرت ذات الوزن الثقيل التي كانت قبل الآن تقرأها : «برضاها» و«يدها» و«للحياة» ياربّاه! أي مركز جديد كل الجدّة دفعة واحدة!

قالت : «وأنت يا أمّاه تنصحين لي أيضاً بأن أعلن رضاي ؟»

وتردّدت الأم أمام كلمة «الرضا» لأنها بدت لها جمة الجزالة وبمثابة أسلوب ، فنطقتها عندئذ في وقار لأول مرة في حياتها ، وأخذ الخجل يتولاها شيئاً ما في ارتباكها الأول ، وبدا لها الزواج من السيد جرينليش لايقل خرقاً الآن عمّا كان يبدو قبل عشر دقائق . لكن خطورة مركزها جعلت تفعمها بالإرتياح .

وقالت زوجة القنصل : «أنصح لك يا ابنتي ؟ وهل نصح لك أبوك ؟ إنه لم ينهك . هذا كل شيء . ولو أردنا أن نفعل ذلك لكان هذا منه ومنّي دالاً على عدم المسؤولية . إن الزوج الذي يعرض عليك هو بالضبط مايسمّى زوجاً صالحاً . إن الزوج الذي يعرض عليك هو بالضبط مايسمّي زوجاً صالحاً ياعزيزتي توني...عندئذ تنتقلين الى هامبورج في أحوال ممتازة وتعيشين هناك في رغد...» .

كانت توني تجلس بلا حراك فانسدل أمامها بغتة شيء كأنه ستار حريري من قبيل ما كان في صالون جدّيها... فهل ستتناول وهي مدام جرينليش قدح الشوكولاتة كل صباح ؟ إنه ليس من اللائق أن تسأل عن هذا .

واستطردت زوجة القنصل : «إن لديك كما قال لك أبوك وقتاً كافياً للتفكير . لكن يجب أن نلفتك الى أن مثل هذه الفرصة لإتاحة السعادة لك لن تعرض كل يوم ، وأن هذا الزواج هو بالضبط مايفرضه الواجب والمصير . أجل يا ابنتي ، وهذا أيضاً يجب أن أنبّهك اليه . إن الطريق الذي انفتح لك اليوم هو الطريق الذي قدّر لك . وأنت بلا ريب تعرفين ذلك جيداً...» .

قالت توني مشغولة الفكر : «نعم بالتأكيد» لقد كانت تدرك على التحقيق واجباتها نحو الأسرة والمتجر ، وكانت فخورة بهذه الواجبات وهي ، أنتونيا بودنبروك ، التي يرفع لها الحمال ماتهيزن قبعته العالية الخشنة ويخفضها خفضاً عميقاً ، والتي تجوب المدينة بصفتها ابنة القنصل بودنبروك كأميرة صغيرة ، قد استظهرت تاريخ الأسرة ، فقد لقي خياط الأردية في روستوك نجاحاً كبيراً ، ومنذ عهده والأسرة تدرج في معارج الرقي ، وإنه لمن وكدها

أن تزيد على أسلوبها في بهاء الأسرة وبيت يوهان بودنبروك التجاري بأن تعقد زيجة غنية وجيهة... وتوم يعمل بهذا بالفعل في مكتبه... أجل أن هذا النوع من الزواج هو بالتأكيد النوع الصالح ، ولكن أن يكون الزوج هو السيد جرينليش بالذات... لقد كانت تتمثّله بلحيته العارضية الصفراء الذهبية ووجهه المتورّد الباسم والثؤلول البادي على أحد منخريه وخطواته القصيرة بل أنها كانت تتخيّل أنها تحس بذّته الصوفية وتسمع صوته الناعم...

قالت زوجة القنصل : «لقد كنت أعرف أننا خلقاء بالتفكير الهادىء... فلعلّنا قد صحّ عزمنا على شيء!» .

فصاحت توني : «أوه ، حاشا ، وأكّدت «أوه» بغضب مفاجىء . «أي خرق هذا أن أتزوج من جرينليش! لقد كنت أسخر منه بعبارات لاذعة... ولست أفهم مطلقاً أنه لايزال يطيق هذا منّي! إنه ليجب أن يكون على شيء من الكبرياء . وبدأت بهذا تقطر العسل على شريحة من خبز الريف...

الفصل الثالث

في هذه السنة لم تقم أسرة بودنبروك برحلة للاستجمام حتى في أثناء عطلة كريستيان المدرسية . وقد أعلن القنصل أن أعماله ترتهنه ارتهاناً شديداً وأن المسألة المتعلقة الخاصة بأنتونيا قد جعلت البقاء والانتظار في شارع منج أكثر ضرورة . وقد بعث الى السيد جرينليش بخطاب بالغ الديبلوماسية بخط يده . لكن مجرى الأمور قد عاقه عناد توني الذي اتّخذ أشكالاً صبيانية . كانت تقول : حاشا يا أمّاه! إني لاأطيقه! مؤكدة المقطع الثاني من الكلمة الأخيرة توكيداً بالغاً أو تعلن في صورة جدية «أبي» وقد ألفت أن تقول : «بابا إني لن أرضى به أبدا» .

كانت المسألة خليقة على التحقيق أن تقف عند هذه النقطة طويلاً لو لم يحدث الآتي بعد عشرة أيام من تلك المحادثة التي دارت في حجرة الإفطار ـ وقد كان ذلك في منتصف يوليه!

كان الوقت عصراً ـ عصراً حاراً صحواً ، وكانت زوجة القنصل قد خرجت من البيت ، وتوني جالسة وحدها في حجرة المناظر الطبيعية تقرأ في قصة عند النافذة لمّا أن حمل اليها أنطون بطاقة زيارة وقبل أن تجد الوقت الكافي لقراءة الاسم كان قد دخل الحجرة سيد يرتدي سترة جرسية الشكل وسراويل بلون البسلة . وقد كان ، كما هو مفهوم ، السيد جرينليش وعلى وجهه تعبير ينم عن الحنو والتوسّل .

فهبّت توني عن كرسيها مذعورة ، وأتت بحركة من يريد الهرب الى قاعة الطعام... فكيف يمكن أن تقابل سيداً طلب يدها ؟ ودقّ قلبها حتى كادت تختنق وامتقع لونها امتقاعاً شديداً . ووقت أن كانت تعرف أن السيد جرينليش بعيد منها ، وتلك الأهمية الفجائية التي

باتت لشخصها ولقرارها ، ممّا يسليها رأياً ، لكنه الآن هنا من جديد! واقف أمامها! فما عسى أن يقع ؟ لقد عادت تحس أنها بسبيل أن تبكي .

وأقبل عليها السيد جرينليش في خطو سريع ، وذراعين ممدودتين ، ورأس يميل جانباً ومسلك رجل بريد أن يقول : ها أنذا اقتليني إذا شئت! وصاح : « يا لها من مصادفة أن أجدك يا آنتونيا! » وقال : « أنتونيا! » .

ومطّت توني شفتيها وهي واقفة منتصبة عند مقعدها ، والقصة في يمناها . وقذفته وهي تحرّك رأسها مع كل كلمة من تحت الى فوق وتؤكد كل كلمة في غضب شديد ـ قذفته بقولها : « ماذا ـ يخطر ـ ببالك ؟ » .

ومع ذلك فقد كانت العبرات في طريقها آخذة بخناقها .

كانت حركة السيد جرينليش من النشاط بحيث لم يلق الى هذه القذيفة باله .

وسأل في لجاجة : « أكان ينبغي أن أنتظر أطول من ذلك... أما كان يجب أن أعود ؟ لقد تلقّيت من اسبوع مضى خطاب السيد والدك العزيز ـ ذلك الخطاب الذي يحيي فيّ الأمل . فهل كان يسعني أن أنتظر أطول ممّا انتظرت مبلبل الفكر يا آنسة أنتونيا ؟ لم أستطع أكثر من ذلك... فألقيت بنفسي في مركبة...وأسرعت الى هنا... وقد حجزت بضع حجرات في فندق مدينة هامبورج... وها أنذا يا أنتونيا لأستقبل من شفتيك آخر كلمة حاسمة تجعلني أسعد ممّا أستطيع أن أعبّر! » .

وأصاب توني جمود ، وتراجعت عبراتها من فرط ماأخذت . إذن فقد كان هذا تأثير خطاب والدها الذي حاذر فيه! وأرجأ كل فصل في الموضوع الى أجل غير مسمّى ـ وجعلت تتمتم ثلاث أو أربع مرات :

« إنك مخطىء ـ مخطىء... » .

وسحب السيد جرينليش مقعداً ساندا وقرّبه جداً من مقعدها عند النافذة وجلس وألزمها هي أيضاً أن تعاود الجلوس ، وبينما هو ، وقد انحنى الى الأمام ، يتناول يدها ، التي استرخت من فرط الإرتباك في يده ، استطرد بصوت متأثّر يقول :

« ياآنسة أنتونيا... منذ اللحظة الأولى ، منذ عصر ذلك اليوم... إنّك تذكرين ذلك العصر ؟ لمّا رأيتك للمرة الأولى في محيط ذويك ، ظاهرة بهذه الوجاهة وبهذا اللطف الحالم ، انطبع اسمك في قلبي بأحرف من نور... » وصحّح عبارته فقال! « نقش » « في ذلك اليوم يا آنستي أنتونيا باتت رغبتي الوحيدة ، رغبتي الحارة أن أظفر بيدك مدى الحياة . ومايجعلني خطاب السيد أبيك العزيز أؤمله ، سوف تجعلينه أنت حقيقة سعيدة... أليس كذلك ؟ إني

أنتظر موافقتك... وأقطع بها!» وهنا أمسك بيده الأخرى أيضاً بدهاء وحدّق في عينيها المفتوحتين الجازعتين . ولم يكن في هذا اليوم يلبس قفازه المجدول ، فبدت يداه طويلتين بيضاوين تتخللهما عروق نافرة زرقاء .

وحملقت توني في وجهه المتورد ، وفي الثؤلول على أنفه ، وفي عينيه اللتين كانتا في زرقه عيني الأوزة .

فاحت : «لا ، لا!» ، ثمّ أردفت ذلك بقولها : «إني لا أوافق ؟» .

وجهدت أن تتكلّم في حزم ، لكنها جعلت تبكي .

فسألها بصوت جدّ منخفض ، مفعَم تقريباً بالملام : «بمَ استحققت هذا الشك وهذا التردد من جانبك ؟ إنك فتاة رعوك بالإعزاز ودلّلوك... لكنني أقسم لك ، أجل ، إني لأجعل كلمتي ـ بوصفي رجلاً ـ وديعة عندك ورهينة لديك بأني سأحملك على أكف الراحة ، وأنّك كزوجة لي لن تحرمي شيئاً ، وأنّك ستحيين في هامبورج حياة تليق بك» .

فوثبت توني ، وانتزعت يدها من يديه ، وبينما كانت عبراتها تنفجر صاحت من فرط اليأس :

«كلا... كلا! لقد قلت كلا... إني أرفض طلبك . ألا تفهم إذن . ياللسماء!» .

لكنّ السيد جرينليش نهض أيضاً وتراجع خطوة ومد ذراعيه موجهاً اليها باطن اليدين وتكلّم في جد كرجل ذي كرامة عنده تصميم :

«أتعلمين يا آنسة بودنبروك أني لاأسمح بأن أهان على هذا النحو ؟»

فقالت توني : «ولكنني لاأهينك ياسيد جرينليش » ذلك أنها ندمت على أنها عنّفته هذا التعنيف . يالله . أكان لا بدّ أن يصادفها هذا ؟ إنها لم تتصوّر أن تُخطب على هذه الصورة . لقد كانت تعتقد أنه يكفي أن يقال : «إن طلبك يشرّفني لكني لاأستطيع قبوله ، فينتهي كل شيء» .

فقالت وهي أهدأ ماأمكن أن تكون : «إن طلبك يشرّفني ، لكني لاأستطيع قبوله... إذن فلأتركك . وعفواً إذا لم يسمح لي وقتي بأكثر من هذا» .

لكن السيد جرينليش اعترض طريقها .

ثمّ سألها بصوت غير مسموع : «إنّك تردّينني!»

فقالت توني : «نعم» ثمّ أضافت على سبيل الإحتياط «للأسف» .

فنفخ السيد جرينليش نفخة شديدة وتراجع خطوتين واسعتين الى الوراء وحنى جسمه الأعلى جانباً ، وأشار بسبّابته الى السجادة وصاح بصوت مرعب : «أنتونيا...!» .

هكذا وقفا لحظة وجهاً لوجه ، هو في موقف الغاضب الصريح ، الآمر الناهي ، وتوني

شاحبة ، باكية ، مرتعشة ، وعلى فمها منديها المبلل . وأخيراً استدار السيد جرينليش ، وذرع الغرفة مرّتين ويداه على ظهره كأنه في بيته . ثمّ وقف عند النافذة وتأمّل خلال زجاجها حلول الغسق .

وخطت توني خطواً ونيداً في شيء من الاحتراس نحو الباب الزجاجي ، لكنها لم تصل الى منتصف الحجرة حتى كان السيد جرينليش واقفاً من جديد عندها .

قال في خفوت تام : «توني» وأمسك بيدها في رفق... ثمّ جثا... جثا... ببطء على ركبته ، واستقرّت لحيته العارضية الصفراء الذهبية بفرد من فرديها على يدها .

وأعاد : «توني» انظري الى هنا... لقد أوصلتني الى هذا... فهل لك قلب ، قلب يشعر ؟ استمعي اليّ... إنّك ترين أمامك رجلاً محطّماً مقضياً عليه ، إذاً... وقاطع نفسه في سرعة بعينها قائلاً : «رجلاً سيموت حزناً إذا أنت ازدريت حبه! إنه ملقى هنا... فحاذري أن تقولي لي : «إني أمقتك» .

فقالت توني في لهجة معزّية : «لا ، لا!» .

وجف دمعها واستشعرت التأثّر له والعطف عليه ، يا لله لابدّ أنه يحبها كثيراً الى حد أن يدفعه هذا الأمر الذي لاتحسّه ولاتكترث له ، الى هذا المدى! أكان يمكن أن تشاهد ماشاهدت ؟ إن المرء ليقرأ في القصص وحدها مثل ذلك ، ومع هذا يركع أمامها في واقع الحياة سيد يرتدي سترة الفراك على ركبتيه ويتوسّل ويتوسل!... لقد بدت لها حقاً فكرة الزواج منه سخيفة بكل بساطة ، لأنها كانت تجد السيد جرينليش غبياً! لكنه والله لم يكن في هذه اللحظة بالغبي إطلاقاً! فقد كان في صوته وعلى وجههماينطق بخوف حقيقي ، ورجاء مخلص يغمره اليأس .

وعادت تقول : «لا ، لا» . وقد انحنت فوقه متأثّرة كل التأثّر : «إني لا أمقتك يا سيد جرينليش ، فكيف وسعك أن تقول ذلك ؟... ولكن انهض الآن...أرجوك» .

وقال هو من جديد : «اذن لاتريدين قتلي ؟» وقالت هي كرة أخرى بلهجة فيها عزاء قريب من عزاء الأم : «لا ، لا...» .

فصاح السيد جرينليش : «هذا وعد!» وهبّ واقفاً على قدميه . لكنه لمّا رأى حركة الذعر التي بدت من توني ، جثا في الحال على ركبتيه وقال وجلاً مهذّباً :

«حسناً ، حسناً... لاتقولي الآن شيئاً يا أنتونيا! حسبنا في هذا الأمر ما كان لهذه المرة... فسنتحدّث عنه فيما بعد... مرة أخرى... مرة أخرى... فإلى اللقاء... وأستودعك الله... سأعود... أستودعك الله!» .

ونهض سريعاً ، واختطف قبّعته الرمادية الكبيرة عن المائدة ، وقبّل يدها وخرج مسرعاً من الباب الزجاجي .

وقد رأت توني كيف تناول عصاه من بهو الأعمدة واختفى في الدهليز . وكانت واقفة في وسط الغرفة مرتبكة خائرة القوى ، منديلها المبلل في يد من يديها المرتخيتين .

الفصل الرابع

قال القنصل بودنبروك لزوجته :

«ليت شعري! أي باعث رقيق لدى توني يمنعها من الموافقة على هذا الزواج! لكنها طفلة يا بتسي . إنها محبة للهو ، ترقص في المراقص ، وتدع الشبان يغازلونها ، راضية عن ذلك كل الرضا ، ذلك أنها تدرك أنها جميلة ومن أسرة... ولعلها تبحث خفية وبلا وعي . لكني أعرفها ، فإنها لم تكتشف قلبها بعد كما اعتاد الناس أن يقولوا . فإذا سألها المرء فإنها تدير رأسها هنا وهناك وتفكّر ... لكنها لن تجد أحداً... إنها طفلة... عصفورة مستوحشة... فلو قالت نعم لاهتدت الى مكانها وأمكنها الاستقرار وقرّ عقلها ، وأحبت زوجها بعد أيام... إنه ليس بالوسيم ، كلا ، فليس حقاً بالرجل الجميل... لكنه مع ذلك حسن المظهر الى أقصى حد ، وليس بمستطاع في النهاية أن تطلب المستحيل أو تطلب خروفاً بخمسة أرجل إذا وجدت تعبيري التجاري تعبيراً سديداً! فإذا كانت تريد الإنتظار حتى يأتي الوسيم ويكون عدا ذلك زوجاً صالحاً ـ فليكن أمر الله! فستجد توني بودنبروك شيئاً على الدوام... وفي تلك الأثناء من جهة أخرى تكون ثمة مخاطرة ، ثمّ ، ولأعبّر ثانية تعبير التجار ، إنه في كل الأيام خروج لصيد السمك ، لكنه ليس في كل يوم صيداً!... لقد اطّلعت على دفاتر السيد جرينليش في مقابلة جرت لي معه قبل ظهر أمس... لقد قدمها اليّ... دفاتر يا بتسي توضع في إطار! وقد أعربت له عن أعظم غبطة بها! وأشياؤه مما تناسب مثل متجره الحديث كل المناسبة . وثروته تصل الى ١٢٠,٠٠٠ ريال ، وهو مايعد فيما يرى الأساس الراهن ، ذلك أنه يربح في كل عام مبلغاً طيباً ... وقد استشرت آل دوشمان فلم يكُ رأيهم سيئاً . قالوا إنهم حقاً لا يلمّون بأحواله لكنه يعيش كالسادة الأماجد ويغشى خير المجتمعات وإنه معروف عن تجارته الرواج والتشعب في شتى الميادين . . .

وماعلمته من آخرين في هامبورج من المصرفي كيسلماير على سبيل المثال قد أرضاني كل الرضا وبالإيجاز يا بتسي ، إنني كما تعرفين لايسعني إلا أن أتمنى من كل قلبي هذا الزواج الذي لن يجلب لمتجرنا سوى الخير! ـ وإنه ليؤسفني والله أن تضايق الفتاة ويشدّد عليها الخناق من جميع الجهات ، وأن تسير مكروبة تكاد لاتتكلّم . لكنّي لا أستطيع مطلقاً أن أقرّر ردّ جرينليش «بلا كلام أو سلام»... ذلك أن هناك أمراً آخر يا بتسي . وهذا الأمر لن آمل تكراره : إن إحوالنا في السنوات الأخيرة لم تكن كلها باعثة على الإرتياح وليس هذا لأن البركة جفتنا ، حاشا وكلا ، فالعمل بأمانة يلقى ثوابه . لكن الأعمال تجري مجرى هادئاً ـ أهدأ مما ينبغي ، وهذا فقط لأني أسير في أعمالي بمنتهى الحذر ، فلم نتقدّم تقدّماً محسوساً منذ توفي والدي والأوقات اليوم ليست على التحقيق في مصلحة التاجر... وبالإيجاز ليس في العمل مايسرّ كثيراً . وابنتنا صالحة للزواج ، وفي وسعها أن تتّخذ زوجاً يجمع الكل على أنه في مصلحتها ، وأنه يملأ العين ـ فيجب أن يتم لها هذا الزواج! والإنتظار ليس محموداً يا بتسي فكلّميها كرة أخرى ، وقد حاولت ظهر اليوم إقناعها بكل قواي...» .

لقد كانت توني في ضيق ، وكان القنصل محقاً في هذا : لم تعد تقول «لا» لكنها لاتستطيع أن تخرج من شفتيها كلمة «نعم» ـ فليكن الله في عونها! لم تكن تدرك لماذا عجزت عن أن تستخلص من نفسها كلمة «القبول» .

في تلك الأثناء انتحى بها أبوها جانباً ووجه اليها كلمة جدّية ، ودعتها أمها الى الجلوس بجانبها لتحثها على أن تقول في النهاية القول الفصل... ولم تطلع الأسرة العم جوتهولد وأسرته على الموضوع لأنها كانت تتحدّث عن أسرة شارع منج في شيء من السخرية ، لكنه حتى زيزيمي فيشبرونت قد اتّصل بها طرف من الموضوع وجاءت تسدي النصح بلهجة مهذبة صحيحة بل إن الآنسة يونجمان نفسها قالت : «توني يا طفلتي عداك الهم ، ابقي في الوسط الراقي» . ولم يكن يسع توني أن تزور الصالون الحريري المحترم هناك أمام «باب القصر» من دون أن تبدأها السيدة كروجر الكبيرة بقولها : «على فكرة ، إني أسمع عن مسألة هناك ، فآمل أن يتغلّب عليك العقل أيتها الصغيرة...» .

وفي يوم أحد وهي جالسة مع والديها وأخويها في كنيسة مريم تكلّم القس كولنج بلهجة قوية عن الآية التي تقول إنه ينبغي أن تترك المرأة أباها وأمها وتتبع زوجها -فاحتد هنا فجأة . فحملقت توني فيه حيث كان فوق المنصة فلعلّه كان ينظر اليها... كلا ، والحمد لله ، فقد كان متّجهاً برأسه الضخم ناحية أخرى يعظ الجمهور الورع عامة . ومع ذلك فقد

كان واضحاً كل الوضوح أن هذا هجوم جديد عليها ، وأن كل كلمة موجهة اليها . كان يعلن أن كل امرأة شابة ، وكل امرأة ماتزال طفلة لا إرادة لها ولا رأي خاصاً تعارض نصائح والديها المفعمة بالحب ، عرضة للعقاب ولأن يلفظها الرب... وعند هذه العبارة التي تدخل فيما يتغنى به القس كولنج وينطقه بحماسة ، أصابت توني مع ذلك نظرة ثاقبة من عينيه مصحوبة بحركة مخيفة من ذراعه...

وقد رأت توني كيف رفع أبوها وهو بجانبها إحدى يديه كأنّما أراد أن يقول : «ماهذا! لاتكن قاسياً...» لكنه لم يكن ثمة شك في أن الراعي كولنج كان متفاهماً معه أو مع الأم . وكانت في مقعدها محمرة اللون مطرقة ، تشعر كأن أنظار الناس جميعاً تتركز فوقها . وفي الأحد التالي رفضت توني بتاتاً أن تذهب الى الكنيسة .

كانت تسير صامتة وباتت قليلة الضحك ، كانت عديمة الشهية تتنهّد أحياناً ، كسيرة القلب ، كأنّما تصارع قراراً ثمّ ترفع بصرها الى ذويها شاكية... ولم يكن بد من الرثاء اليها . فقد كانت تنحل على التحقيق وتفقد من نضارتها .

وأخيراً قال القنصل :

«هذه حالة لاينبغي أن تطول أكثر من ذلك ولايجوز أن نسيئ معاملة الطفلة . إنها يجب أن تخرج قليلاً وتستريح وتفكّر . وسترين أنها ستثوب الى رشدها . إنني لا أستطيع التخلّص من أعمالي ، والعطلة توشك أن تنتهي... بيد أننا نستطيع جميعاً أن نبقى هنا على خير حال . وأمس كان هنا مصادفة شفارتسكوبف العجوز المقيم في ترافيمنده ، دريدش شفارتسكوبف رئيس المرشدين . وقد لمّحت له ببعض كلمات فأبدى استعداده لقبول الفتاة عنده بعض الوقت... وسأعوضه لقاء ذلك تعويضاً بسيطاً... وعندئذ سوف تستمتع بحياة منزلية مريحة ، وتستجم ، وتبدّل الهواء وتراجع نفسها . وسيسافر توم معها ، وكل شيء على مايرام . وأن يقع هذا غداً خير من أن يقع بعد ذلك»...

وأعلنت توني موافقتها على هذه الفكرة . حقاً إنها تكاد لاترى السيد جرينليش ، لكنها كانت تعلم أنه في المدينة وأنه فاوض والديها وأنه ينتظر... وإنه والله لفي الإمكان أن تراه كل يوم أمامها يصرخ أو يتوسل . لكنها في ترافيمنده . وفي بيت غريب ستكون آمنة منه... وهكذا أعدّت حقيبتها على عجل وهي مسرورة ، وصعدت في يوم من أيام يوليه الأخيرة مركبة آل كروجر الفاخرة يصحبها توم ، وودّعت ذويها منشرحة الصدر ، وخرجت الى «باب القصر» تتنفّس الصعداء .

الفصل الخامس

والطريق الى ترافيمنده مستقيم دائماً فيه الماء بالمعدية ثمّ تستأنفه في استقامة . كان كلاهما يعرفه جيداً . كان الطريق الأغبر يطوى سلساً تحت حوافر خيل ليبر كروجر البنية من مكلينبورج الى هناك ترن رتيبة جوفاء ، ولو أن الشمس كانت حـ والغبار يحجب المنظر الهزيل . وقد تناولت الأسرة طعام الغداء في الساعة الواحدة بـ استثنائية وقامت المركبة بالأخوين في الثانية تماماً . وهكذا سيظلان الى مابعد الو بقليل ، ذلك أنه إذا كانت مركبة ماتحتاج الى ثلاث ساعات فخيول آل كروجر تطمـ تقطع الطريق في ساعتين .

كانت توني تهتز في شبه نعاس حالم تحت قبعة من القش مفلطحة كبيرة و مكسوة بالدنتيلا المصفرة اللون التي كانت بلون «الدوبار» الرمادي كثوبها البـ الأنيق ، وكانت تسندها الى غطاء ظهر المركبة . وكانت تلبس حذاء بأشرطة متع وجوربين أبيضين ، تضع إحدى قدميها فوق الأخرى في صورة ظريفة . كانت تجلس مر أنيقة في اتكائها كمن خلق للركوب .

وكان توم وقد بلغ العشرين من عمره يرتدي بذة رمادية تميل الى الزرقة قد قبّعته القش الى الوراء وجعل يدخن سجائر روسية . لم يكن فارعاً لكن شاربه وكان اسوداداً من شعر رأسه وأهدابه ، قد أخذ ينمو بقوة . وإذ يرفع كعادته أحد حاجبيه جعل ينظر في النقع المثار ويتأمل الأشجار الخاطفة على جانبي الطريق .

وقالت توني : «لم أسر يوماً بسفري الى ترافيمنده كما أسر اليوم... أولاً لأسباب ياتوم ، ولاحاجة بك الى السخر مني ، فقد أردت أن أتخلص من زوج بعينه ، من اا الصفراء الذهبية بعض الوقت... بعد ذلك ستكون ترافيمنده جديدة علي كل الجدة عـ

شفارتسكويف هناك في الصف الأول . ولن أحفل بمجتمع المستشفين... فإني عليمة به كل العلم... وليس هو ممّا يؤلمني... هذا الى أنه لن يقصد ذلك... الإنسان هناك شيء فهو لايخجل وألق بالك فقد يظهر يوماً الى جانبي وعلى وجهه ابتسامة ظريفة »..

والقى توم سيجارته وتناول أخرى من العلبة التي كان غطاؤها مكفتاً برسم لذئاب تنقضّ على مركبة تجرّها ثلاثة جياد . وكانت هدية من عميل روسي الى القنصل . وكان هوى توم في هذه السجائر ، في هذه اللفافات الصفر ، ذلك الفم الأصفر وكان يدخنها بكميات كبيرة ، ومن عادته الرديئة أن « يهف » دخانها ، فإذا تكلّم تفجّر ثانية من فمه بطيئاً .

قال : « أجل ، ففيما يتعلق بهذا فإن حديقة المصحة تعج بالهامبورجيين والقنصل فريتشه الذي اشترى كل شيء أحدهم... ويقول أبي إن عنده صفقات رابحة في الآونة الراهنة... هذا الى أنّك تفوّتين على نفسك أشياء إذا أنت لم تشتركي قليلاً فيما هنالك... فبيتر دولمان هناك بطبيعة الحال . وفي هذا الوقت من السنة لايكون في المدينة وأعماله تسير من نفسها ركضاً... وهذا غريب! ماعلينا... والخال يوستوس يخرج يوم الأحد قليلاً مافي ذلك شك ، ويغشى الروليت... ثمّ هنا آل مولندروف وكستنماكر جميعاً فيما أعتقد ثمّ آل هاجنشروم .

« ها! ـ بطبيعة الحال! وهل يمكن الاستغناء عن سارة سميلنجر... » .

« إنها تسمى أيضاً لاورا ياطفلتي ، فيجب أن نكون منصفين » .

« وجوليا بطبيعة الحال... يقال إن جوليا ستعقد خطبتها هذا الصيف على أوجست مولندروف ، وجوليا لاتتورع! لأن مآلها في النهاية الى ذلك! أتعرف ياتوم . إن هذا ليبعث على السخط! هذه الأسرة المتهافتة » .

« أجل ، أجل... إن شترونك وهاجنشروم يفيدان من ذلك ، وهذا هو المهم... » .

« بديهي! والناس يعرفون أيضاً كيف يفعلان ذلك... بالمرافق ، أتعرف... من دون أية مراعاة أو ترفع... وقد قال جدي عن هينريش هاجنشتروم : « ومع هذا يصغر الثور يصير عجلاً » هذه كانت كلماته... » .

« أجل ، أجل ، كل هذا واحد . إن الكسب مكتوب بحروف كبيرة . أمّا مايتعلق بهذه الخطبة فعملية سليمة كل السلامة ، فجوليا تصبح في بيت مولندروف ، وأوجست ينال وظيفة طيبة... » .

« آه... إنّك تريد إغاظتي ياتوم ، هذا كل شيء... إني أحتقر هؤلاء الناس... » .

فبدأ توم يضحك وقال : « ياإلهي! لابدّ أن ندبّر أمورنا معهم ، أتعرفين ... وكما قال أبي أخيراً : « إنهم الصاعدون... بينما آل مولندروف على سبيل المثال... ثم أننا لايمكن أن ننكر

على آل هاجنشروم مهارتهم ، فهرمان نافع جداً في الأعمال ، ومورتس على الرغم من ضعف صدره قد تخرج من المدرسة بنجاح باهر . ويقال إنه حاذق ، وإنه يدرس القانون » .

« جميل... لكنه يسرّني على الأقل ياتوم ، أنه توجد أيضاً أسر أخرى لاتحتاج الى الإنحناء أمامهم ، وإننا آل بودنبروك على سبيل المثال... » .

قال توم : « كذا ؟ » واستطرد وهو يلقي نظرة على قفا يوخن العريض فقال مخافتاً : « دعينا الآن من المباهاة فلكل أسرة معائبها . فالله يعلم أحوال خالي يوستوس على سبيل المثال . إن أبي كثيراً مايهزّ رأسه حين يذكره . وجدي كروجر فيما أعتقد قد أمده عدة مرات بمبالغ كبيرة... وأولاد الخال أيضاً ليست حالهم على مايرام . فيورجن الذي يريد أن يدرس لايزال عاجزاً عن تأدية الإمتحان النهائي... ويعقوب الذي يعمل عند دالبك وشركائه في هامبورج يقال إن أحواله لا تبعث على الارتياح ، فنقوده لا تكفيه أبداً ، وإن كان المدد لاينقطع عنه ، فما يمنعه عنه خالي يوستوس تمده به خالتي روزاليا... لا ، إني أجد أنه لايخلق بالمرء أن يرفع حجراً ليقذف به ، فإذا أردت أن تضعي آل هاجنشروم الى ذلك في كفة الميزان ، كان خليقاً بك أن تتزوجي جرينليش حتماً! » .

« هل استقللنا هذه المركبة لنتكلم عن هذا ؟ أجل ، أجل! لعلي خليقة بذلك! لكنني لأريد أن أفكر فيه . إني أريد ببساطة أن أنساه . إننا نتوجه الآن الى آل شفارتسكوبف . إنني كما تعلم لم أرهم قط... لابدّ أن يكونوا أناساً طيبين ؟ » .

« أوه! ديدريش شفارتسكوبف ، رجل يتكلم بالعامية ، لكنه لايتكلمها دائماً بل فقط عندما يكون احتسى خمسة أقداح من الجروج ، ومرة ، وكان في المكتب ، توجهنا الى جمعية الملاحين... فجعل يشرب كأنه بالوعة وكان قد ولد أبوه على سفينة نورويجية وأصبح هو على بعد ذلك رباناً على هذا الخط . وقد مر ديدريش بدور طيب في التعليم . فقومندانية المرشدين مركز ذو مسؤولية ، ومرتبه كبير . وهو خبير بالبحر من قديم... لكنه دائماً كيّس مع السيدات ، فخذي حذرك فسوف يغازلك... » .

« ها! وامرأته ؟ » .

« إني نفسي لاأعرف امرأته وسوف تكون مريحة . هذا الى أن لهما ابناً كان في أيامي في الفرقة قبل الأخيرة ، ولابدّ أن يكون الآن في الجامعة... انظري ، هاهو ذا البحر! فليس أمامنا سوى ربع ساعة... » .

وفي طريق مغروس على الجانبين بأشجار الزان سارت المركبة شقة وهي تحاذي البحر ، وكان أزرق اللون يرنق عليه السلام في أشعة الشمس . وظهرت المنارة المستديرة

الصفراء ، فتبدّى لها الجون والحصن برهة ، واستعرضا الأسطح الحمر في المدينة الصغيرة وفي الميناء الصغير أشرعة القوارب والحبال ثمّ سارت بهما المركبة بين البيوت الأولى ، واستدبرا الكنيسة ، طوت المركبة النصف الأول الممتد على ضفة النهر الى بيت صغير جميل ينمو في شرفته الكرم .

وكان رئيس المرشدين واقفاً أمام الباب فخلع قبعته البحرية عند اقتراب المركبة . وكان رجلاً ربعة ، عريض المنكبين ، أحمر الوجه ، عيناه في زرقة الماء ، ولحيته شائكة بيضاء بلون الثلج تحيط بوجهه شبيهة بالمروحة من الاذن الى الاذن . وكان فمه المسحوب جانباً يحتجز غليونه الخشبي ، وشفته العليا الحليقة الجامدة الحماء المقوّسة تجعل له فى النفس هيبة ، وتنم عن التقوى . وكانت صدريته البيضاء تضيء تحت سترته المفتوحة المحلاة بكنار ذهبي . كان واقفاً هناك منفرج الساقين بارز البطن قليلاً .

قال : « إنه لشرف أي شرف لي ياآنسة أن ترضي الإقامة عندنا فترة من الوقت... » ورفع توني من المركبة في رفق . « تحياتي ياسيد بودنبروك لعل السيد الوالد بخير ؟ والسيدة الوالدة ؟... إن هذا لمن دواعي سروري الخالص! ليتفضل السيدان لقد أعدّت لكما زوجتي شيئاً يشبه اللقمة الصغيرة... » .

وقال للحوذي الذي كان قد حمل الحقيبة الى البيت « سر الى بيدرش صاحب الفندق... فهناك تلقى الخيل مبيتاً طيباً... وأنت ياسيد بودنبروك ستبيت عندنا طبعاً ؟... أجل ، لِمَ لا إن الخيل يجب أن تستريح ، ولن يمكنك الذهاب الى المدينة قبل حلول المساء... » .

وقالت توني بعد ذلك بربع ساعة لما أن جلسوا في الشرفة حول مائدة القهوة : أتعلمون! هنا يقيم المرء إقامة طيبة كما في المصحة في الأقل . فما أجمل الهواء! إن المرء ليستنشق هنا نبات البحر وإني لمسرورة كل السرور أن أكون ثانية في ترافيمنده! » .

وكان المنظر من الشرفة المغطاة بالخضرة يمتد الى النهر العريض المتلألىء في ضوء الشمس ، وفوق صفحته القوارب وجسور المراسي ، ثمّ الى بيت المعدية القائم على الضفة الأخرى في البريفال ذلك الجزء الثاني من شبه جزيرة مكلنبورج . وقد كانت أقداح القهوة الكبيرة الشبيهة بالأجران ، الزرقاء الجافة ، خشنة بصورة ملحوظة بالنسبة الى البورسلين القديم البديع الموجود في بيت بودنبروك ، بيد أن المائدة التي كان عليها عند مكان جلوس توني باقة من زهر المروج كانت تثير الشهية والسفر يثير الجوع .

وقالت ربة البيت : « سترى الآنسة حتماً أنها ستستريح هنا ، فإنها تبدو متعبة من

وعثاء السفر ، إذا جاز لي أن أقول ذلك ؟ فهواء المدينة سينفعها ، ثمّ هناك الاحتفالات الكثيرة... » .

وكان يبدو على مدام شفارتسكوبف وهي ابنة قسيس من شلوتوب أنها تناهز الخمسين وكانت أقصر من توني بمقدار الرأس وأقرب الى النحول ، وكان شعرها الذي مازال أسود مصقولاً ، مسرحاً تسريحة نظيفة تشتمله شبكة واسعة العيون . وكانت ترتدي ثوباً بنياً داكناً . ذا بنيقة صغيرة مشغولة بالكروشيه الأبيض وقلابات أكمام من الشغل نفسه . كانت نظيفة ، رقيقة ، ودودة تدعو بحرارة الى تناول خبز كورينث الذي خبزته بنفسها وكان موضوعاً في سلة الخبز المشبهة القارب تحف به القشدة والسكر والزبد وعسل خلايا النحل وكانت تزين هذه السلة حافة مطرزة بالخرز صنعتها ميتا الصغيرة وهي فتاة مطيعة في الثامنة من عمرها كانت تجلس الى جانب أمها في ثوب اسكتلندي وضفيرة شقراء ناتئة بلون الكتان .

وقد اعتذرت مدام شفارتسكوبف من حالة المخدع الذي خصص لتوني والذي أصلحت فيه هذه من شأنها قليلاً ، لأنه بسيط و...

فقالت توني : « إنه في منتهى الجمال! فهو يطل على البحر ، وهذا أهم شيء » . وغمست ، وهي تقول ذلك ، رابع شريحة من خبز كورينث في القهوة . وتحدثت توني مع الشيخ عن السفينة فولنفيفر التي كانت تصلح إذذاك في المدينة...

وبغتة جاء شاب يناهز العشرين من العمر الى الشرفة ومعه كتاب ، فرفع قبعة رمادية من اللباد واحمرّ وجهه خجلاً وانحنى في شيء من الارتباك .

فقال رئيس المرشدين : « ها أنت ذا يابني! إنك تأتي متأخراً... » ثمّ قدمه : « هذا ولدي ـ » وذكر له اسماً أول لم تفقهه توني ، ثمّ استطرد : « يدرس للدكتوراه... ويقضي عطلته معنا » .

فقالت توني : « تشرّفنا » كما تعلمت أن تقول . ونهض توم ومد له يده ، فانحنى شفارتسكوبف الصغير مرة أخرى ونحى كتابه واتّخذ مكاناً على المائدة وقد احمرّ وجهه من جديد .

وكان ربعة أدنى الى أن يكون مكتنزاً ، أشقر حقاً ، يكاد لايرى شاربه الذي ثبت ولما يكد ، والذي كان عديم اللون كشعره القصير الذي يغطي رأسه المديد ، كان يلائمه لون مشرق بصورة غير عادية وأهاب كالبورسلين ذي المسام ان يمكن أن تشيع الحمرة الزاهية فيه . وكانت عيناه داكنتي الزرقة قليلاً كعيني أبيه لهما التعبير الفاحص الخير نفسه الذي لا

إسراف في حيويته وكانت ملامح وجهه متعادلة لطيفة تقريباً ، فلمّا بدأ يأكل أبدى أسناناً متراصة حسنة التكوين بشكل بيّن تلمع كأنها عاج مصقول... هذا الى سترة مقفلة مغطاة الجيوب مطاطة من الظهر .

قال : «إني لأرجو المعذرة فقد حضرت متأخراً» وكان بطيئاً في كلامه بعض الشيء وفي نطقه قرقرة . واستطرد قائلاً : «لقد قرأت على البلاج قليلاً ولم أنظر الى ساعتي في الوقت المناسب» وجعل يمضغ صامتاً ويعاين توم وتوني بين الحين والحين فاحصاً إياهما من تحت الى فوق .

وقال بعدئذ وسيدة البيت تدعو توني الى تناول المزيد من الطعام :

«يمكنك أن تطمئني يا آنسة بودنبروك الى عسل خلايا النحل فهو نتاج طبيعي خالص... يعرف المرء معه مايبتلع... يجب أن تأكلي منه كفايتك... فالهواء هنا يهضم... ويمرىء ، فإذا لم تتناولي الكفاء نقص وزنك...» وكان له أثناء الكلام أسلوب ساذج جذاب في الإنحناء الى الأمام ، وتخيل شخص آخر غير الذي يتجه اليه .

وكانت أمه تصغي اليه في حنو وتتحرى في وجه توني تأثير كلامه... بيد أن شفارتسكوبف الكبير قال :

«لا تتشدق بالأمراء والتمثيل يا حضرة الدكتور . فما منّا من يريد أن يعرف عنه شيئاً» .

فضحك الشاب وعاد وقد احمر وجهه ينظر الى طبق توني .

وذكر كبير المرشدين الاسم الأول لابنه بضع مرات ، لكن توني لم تستطع إطلاقاً أن تستوعبه . فقد كان شيئاً «كمور» أو «مورد» يستحيل أن تتبينه في لهجة الشيخ العريضة العامية .

ولمّا انتهت الوجبة وجعل ديدريش شفارتسكوبف يطرف في الشمس مغتبطاً وقد انفرجت سترته عن صدريته البيضاء بعيداً ، ويأخذ هو وولده في تدخين غليونيهما الخشبيين القصيرين ، بينما عاد توم الى لفافات تبغه . كان الشباب قد اندمجوا في حديثٍ خام عن حكايات قديمة عن المدرسة اشترك فيه توم مسروراً... وقد استشهد فيه بالسيد شتنجل حيث يقول : «كان ينبغي أن ترسم خطاً ولكن ما الذي فعلت ؟ إنك خططت «شرطة»... واخسارتاه! إن كريستيان لم يكن معهم ، إذن لقصّ ذلك خيراً منه» .

وقال توم لشقيقته مرة وهو يشير الى الأزهار القائمة أمامها : «لكان السيد جرينليش خليقاً أن يقول : «إنها تلمع بصورة غير مألوفة» فدفعته توني في جنبه وقد صعد الدم الى وجهها غاضبة ثمّ حولت الى حيث يجلس الفتى شفارتسكوبف نظرة هيابة .

لقد لبثوا اليوم طويلاً في تناول القهوة على غير المألوف ، ومكثوا طويلاً معه... . وقد انتصفت السابعة بالفعل لما جعل الغسق ينتشر فوق البريفال فنهض الرئيس وقال :

«أرجو المعذرة ، فلا يزال لدي ماأودّيه هناك في بيت المرشدين... وسنأكل في الثامنة إذا راقكم ذلك... أو بعد ذلك قليلاً يامينا احتفاء بهذا اليوم ، أليس كذلك ؟ »... وأنت — ونادى ابنه باسمه الأول ثانية «لاتلزم مكانك هنا أو ههنا... بل اخرج وألن عظامك من جديد... فالآنسة بودنبروك سوف تفرغ حقائبها... أو إذا شاءت الآنسة والسيد أن يذهبا الى السيف (البلاج) فلا نزعجهما!» .

فقالت السيدة شفارتسكوبف بصوت رقيق فيه رنة الملام : «ديدريش ، ياإلهي ، لِمَ لايبقى جالساً ، فإذا شاءت الآنسة والسيد أن يذهبا الى السيف فلم لايصحبهما ، إنه في عطلة طبعاً ياديدريش ، فلا يصيب شيئاً من الزيارة ؟» .

الفصل السادس

واستيقظت توني في الصباح التالي في غرفتها الصغيرة النظيفة المكسوة الأثاث بقماش قطني زاهٍ زهري ، وقد داخلها الشعور المتنبه السار الذي يفتح المرء عينيه عليه في وضع جديد من أوضاع الحياة .

ونهضت ، وفيما تحيط ركبتيها بذراعيها وتطرح رأسها المنفوش الشعر الى الوراء ، رمشت عيناها في شعاع النور الرفيع الذي يغشي البصر في ضوء النهار ، المتسلل الى الغرفة بين الشبابيك المغلقة ، وجعلت تنبش في هينة بين ماوعت الذاكرة من مشاهدات الأمس .

وقد كاد ألا يخطر ببالها شخص السيد جرينليش . فالمدينة والمشهد الكريه الذي وقع في حجرة المناظر الطبيعية وحث الأسرة والقس كولنج إياها كانت قصية كلها عن ذهنها . فإنها ستستيقظ من الآن كل صباح خلية البال . وأسرة شفارتسكوبف أناس في غاية الرقة ، فقد قدموا مساء أمس سلطانية من شراب البرتقال ، مافي ذلك شك ، وشربوا الأنخاب بحياة سعيدة يقضونها معاً . كانوا مرحين ، وكان الشيخ شفارتسكوبف يقص عليهم من قصص البحر مايروق ، ويروي الفتى الحكايات عن جوتنجن حيث يدرس… على أنه من الغريب حقاً أن توني لم تعرف بعد اسمه الأول! لقد ركزت انتباهها علها تدركه ، لكنهم في العشاء كفوا عن ذكره ، ولم تك تطيق أن تستسفر عنه . وقد جعلت تكد ذاكرتها في استذكاره ، وتتساءل : يا إلهي! ترى ماذا يسمى الفتى! مور… ؟ هذا الى أن الاسم يروقها : هذا المور أو المورد ، لقد كان يضحك ضحكة رضية ماكرة حين يطلب الماء ، فيذكر عقب طلبه بدلاً من لفظه بضعة أحرف وبضعة أرقام فيضيق الشيخ به ويسخط ويقول هو : «أجل هذه هي الصيغة العلمية للماء… لكنها على كل حال ليست صيغة هذا السائل الذي يجري في ترافيمنده

فإنها أكثر تعقيداً... ففي كل لحظة يمكن المرء أن يجد نبعاً... وللسلطات العالية آراؤها الخاصة في الماء العذب» . فما أن يقول ذلك حتى يعود أبوه الى تعنيفه لأنه ذكر السلطات بلهجة الإزدراء ، وكانت مدام شفارتسكوبف تستشف الإعجاب من محيا توني ، وحقاً لقد كان كلامه مسلياً ، مضحكاً ، علمياً في الوقت نفسه .

لقد أحاطها الشاب بالتفات كبير تقريباً فقد شكت أثناء الأكل من أن رأسها ساخن وأنها تعتقد أن دمها أغزر مما ينبغي... فماذا كان جوابه ؟ لقد عاينها وقال لها أجل إن شرايين السالفين ملأى ، لكنه لايستبعد أن لايكون الدم أو الكريات الدموية الحمراء كافية في الرأس ، ولعل عندها فقر دم .

وقفز العصفور من ساعة الحائط المحفورة الخشب ، وغرّد مرات بصوت رائق أجوف ، وعدت توني : سبعة ، ثمانية ، تسعة ، وقالت : «نهوضاً» وقفزت من الفراش ورفعت شماسات النافذة ، وكانت السماء غائمة قليلاً ، لكن الشمس كانت طالعة . ومدت بصرها عبر الفنار وبرجه بعيداً فوق البحر المتموج الذي يحده من اليمين قوس من ساحل مكلنبورج ويمتد في أشرطة خضر وزرق حتى يلتقي بالأفق المشبع بالبخار . وقالت توني لنفسها : سأستحم فيما بعد ، لكني سأفطر كما ينبغي قبل ذلك حتى لايستنفدني الايض فأصير شيئاً آخر... وتوجهت بعد هذا التفكيرالى حيث تغتسل وترتدي ملابسها ، وكانت تبتسم وتتحرك حركات سريعة مرحة .

وكانت الساعة قد تجاوزت منتصف العاشرة قليلاً لما غادرت غرفتها ، وكان باب الغرفة التي نام فيها توم مفتوحاً ، إذ كان يركب في الصباح الباكر الى المدينة . وكانت رائحة القهوة تفوح هنا فوق في الطبقة العليا التي لاتحتوي سوى مخادع النوم . وبدأت هذه الرائحة مميزة للبيت الصغير وازداد انتشارها وتوني تهبط الدرج المزود بدرابزين خشبي بسيط غير مفرغ وتجتاز الدهليز التحتاني الذي تقع عليه حجرتا الاستقبال والأكل ومكتب كبير المرشدين ودخلت توني الشرفة نضرة مرحة في ثوبها البيكيه الأبيض .

وكانت مدام شفارتسكوبف جالسة مع ابنها وحدهما الى مائدة القهوة التي كان جانباً منها قد أخلي من بقايا الإفطار ، وكانت ترتدي ميدعة مما يستعمل للمطبخ ذات مربعات زرقاء فوق ثوبها البني وأمامها حزمة من المفاتيح .

قالت وهي تنهض : «معذرة ألف مرة يا آنسة بودنبروك من أننا لم ننتظر . إننا نحن بسطاء الناس ننهض مبكّرين فأمامنا مئات المهام... وشفارتسكوبف الآن في مكتبه... أرجو ألا تكون الآنسة مستاءة ، أليس كذلك!» .

فقدمت توني من جانبها اعتذارها وقالت : «يجب ألا تعتقدوا أني أتأخر في نومي دائماً الى هذا الحد . إن ضميري يؤنبني كثيراً . لكن خمير البرتقال الساخن الذي قدم مساء أمس...» .

هنا بدأ ابن البيت الفتى يضحك . وكان يقف خلف المائدة وفي يده غليونه الخشبي القصير والصحيفة أمامه .

قالت توني : «أجل إنك المسؤول ، عم صباحاً! فقد كنت تقارعني على الدوام... فالآن استحق أيضاً قهوة باردة . لقد كان ينبغي أن أكون أفطرت واستحممت...» .

قال : «لو فعلت لكان هذا أبكر مما ينبغي لسيدة صغيرة . ففي السابعة يكون الماء مايزال بارداً تقريباً ، ١١ درجة... وهذا قاس نوعاً ما بعد حرارة الفراش...» .

قالت توني : «ومن أين عرفت ياسيدي أني أريد الاستحمام في ماء فاتر ؟» واتّخذت توني مجلسها على المائدة ، ثم قالت : «لقد احتفظت لي بالقهوة ساخنة يامدام شفارتسكوبف ، لكني سأصب لنفسي... فشكراً» .

وتأملت ربة البيت ضيفتها وهي تتناول إفطارها وشرعت تجاذبها أطراف الحديث .

«هل نامت الآنسة نوماً هنيئاً في أول ليلة لها عندنا ؟ ياإلهي إن الفرشة محشوة بخضرة البحر... فنحن أناس بسطاء... غير أني أتمنى لك شهية طيبة ، وصباحاً مرحاً . من المؤكد أن الآنسة ستجد على البلاج بعض المعارف ... فإن راقك صحبك ابني اليه . معذرة إني لاأجالسك أكثر من ذلك فإني يجب أن أعد الأكل . إن عُندنا مقانق محمرة . نقدمها على خير وجه نستطيعه» .

وقالت توني للفتى بعد أن أصبحا وحدهما : «إني لاأدع عسل خلايا النحل . فانظر! ها أنذا أعرف ما أزدرد» .

ونهض الفتى شفارتسكوبف ووضع غليونه على درابزين الشرفة .

فقالت توني : «لمَ لاتدخن ؟ إن التدخين لايضايقني إطلاقاً . إنني عندما أدخل للإفطار في بيتنا يكون أبي قد ملأ الحجرة بدخان سيجاره» .

وسألته بغتة : «قل لي! هل صحيح أن البيضة تعادل ربع رطل من اللحم ؟» .

فطغت الحمرة على وجهه وسألها بين الضحك والاستياء : «هل تريدين أن تستغفليني يا آنسة بودنبروك ؟ لقد تلقيت مساء أمس علقة من والدي لحذلقتي المهنية وتعالمي كما يقول»...

فكفت توني لحظة عن الأكل لما تولاها من الإرتباك وقالت : «إنني سألت بكل

بساطة . تعالم! كيف يمكن أن يقال هذا... إنني أود أن أزداد معرفة... يا الهي! إني ساذجة كما ترى . لقد كنت عند زيزيمي فيشبروت من الكسولات دائماً . وأنت فيما أعتقد تعرف الكثير...» وقالت لنفسها : تعالم! إن المرء ليبدي في المجتمع الغريب خير ماعنده ويرتب كلامه وينشد الإرضاء... هذا واضح بالتأكيد...

وقال وهو يشعر أنه أطري : «لقد اتّفقنا بصورة ما . فأما مايتعلق ببعض المواد الغذائية...» .

وبينما كانت توني تفطر ، والفتى شفارتسكوبف يتابع حديثه ويدخن غليونه بدأت توني تثرثر عن زيزيمي فيشبروت وعن عهدها بالمثوى ، وعن صديقاتها جيردا أرنولدسن التي عادت الى أمستردام ، وأرمجارد فون شيلنج التي يمكن أن يرى شعرها الأبيض من البلاج والجو صحو على الأقل...

بعد ذلك لما انتهت توني من الأكل ومسحت فاها سألت وهي تشير الى الصحيفة :

« هل فيها جديد ؟ »

فضحك الفتى شفارتسكوبف وهزّ رأسه ساخراً راثياً : « كلا ، كلا . وماذا يمكن أن يكون فيها ؟ إن صحف المدينة هذه لاتساوي شيئاً! »

قالت : « أواه! لكن أبي وأمي حريصان عليها دائماً » .

فقال وقد احمرّ وجهه : « أجل ولكن! إني أيضاً أقرأها كما ترين ، لأني لاأجد غيرها تحت يدي . لكنه إن يذكر فيها أن التاجر الكبير القنصل فلان أو فلان ينوي الاحتفال بعيد زواجه الفضي ليس بالأمر الذي يهزّ المرء... نعم ، نعم ، إنك تضحكين... لكنك خليقة أن تقرأي صحفاً أخرى مثل صحيفة كونجز برجر هارتو نجشه أو رينيشيه ، عندئذ تجدين أشياء أخرى! أن فيها مايقول عنها ملك بروسيا... »

قالت : « ماذا يقول اذن ؟ »

قال : « نعم... لا ، هذا مالا أستطيع للأسف أن أذكره أمام سيدة » واحمرّ وجهه كرة أخرى ثمّ استطرد يقول : « لقد أبدى سخطه على هذه الصحافة » . قال ذلك وهو يبتسم ابتساماً ينطوي على تهكم شديد ، مس توني لحظة مساساً أليماً . ثمّ عاد يقول : « إنها لاتعتدل في لهجتها كثيراً مع الحكومة ، مع النبلاء والقسس وأبناء الشرفاء وتعرف كيف تمكر بالرقابة » .

قالت : « وأنت ، ألا تتسامح أيضاً مع النبلاء ؟ »

فسألها : « أنا! » وارتبك... فنهضت توني .

وقال : «سنعود مرة أخرى الى هذا الحديث . كيف لو أني توجهت الى البلاج ؟ انظري! إن الزرقة تكاد تغزو السماء . فاليوم لن تمطر ، ولي رغبة شديدة في أن أقفز الى البحر فهل ترافقينني الى هناك ؟...» .

الفصل السابع

ووضعت قبعة القش الكبيرة على رأسها وفتحت مظلتها ، ذلك أن الحر كان طاغياً وقد هبّت من البحر ريح هينة ، وكان الفتى شفارتسكوبف يمشي الى جانبها بقبّعته الرمادية المصنوعة من اللباد وكتابه في يده ، يتأملها من الجنب في بعض الأحيان . سارا على امتداد الصف الأول ، وتنزّها خلال حديقة المصحة التي كانت منبسطة ساكنة عديمة الظل تتخللها طرق الحصباء وأحواض الورد . وكان خص الموسيقى متوارياً بين أشجار التنوب ، قائماً صامتاً تجاه المصحة ودكان الحلواني وكلا البيتين السويسريين اللذين كان يتوسطهما مبنى طويل يربط بينهما . وكانت الساعة تقترب من منتصف الثانية عشرة والمستحمّون على البلاج .

وسار كلاهما فوق ساحة لعب الأطفال وقد صفت فوقها المقاعد وتدلّت الأرجوحة الكبيرة ، وتجاوزا في سيرهما حمام الماء الساخن ، وتجولا على مهل فوق الكلأ ، ورائحة البرسيم والعشب الحامية العطرة منتشرة ، قد حل فوقهما الذباب يطن أو انطلق يحوّم . وكان صوت رتيب مكتوم يتناهى من البحر وتمض على بعده بعد الحين والحين رؤوس صغيرة من الزبد .

وسألت توني : «ماذا تقرأ حقاً ؟» .

فتناول الشاب الكتاب في كلتا يديه ، وتصفحه على عجل من الدفة الى الدفة .

قال : «آه! هذا شيء ليس لك ياآنسة بودنبروك! محض دم وأمعاء وشقاء... انظري ، هنا بالذات كلام عن تنفس الرئة أو نوبة الاختناق وفيها تمتلىء حويصلة الرئة بسائل مائي... وهذه حالة شديدة الخطورة تقع أثناء الإلتهاب الرئوي ، فإذا ساءت لم يستطع المرء التنفّس ، ومات بكل بساطة . وهذا كله يعالج بهدوء من فوق الى تحت...» .

قالت : «يااللفظاعة»! لكن إذا أردت أن تكون طبيباً… فسأعنى بأن تكون طبيبنا الخاص إذا ماتقاعد يوماً جرابو فاجعل بالك الى هذا!» .

قال : «ها!…وماذا تقرأين اذن يا آنسة بودنبروك ؟» .

فسألته توني : «أتعرف هوفمان ؟» .

قال : «صاحب رئيس الفرقة والقدر الذهبي ؟ بل إنه لجميل جداً… لكن ، ولعلك تعلمين أنه للسيدات أكثر مما للرجال . فالرجال يجب أن يقرأوا اليوم شيئاً آخر» .

وقالت توني بعد أن خطت بضع خطوات وقررت أمراً : «الآن يجب أن أسألك شيئاً هو : ماإسمك الأول في الحق ؟ إنني لم أحفظه من أول مرة… وهذا يثير أعصابي! وقد طالما كددت ذهني لأتذكّره…» .

«كددت ذهنك في تذكّره ؟» .

«حقاً ـ لكن لاتصعّب عليّ الأمر! فليس من اللائق أن أسأل . لكني بطبيعة الحال أحب الاستطلاع على أني لست بحاجة طيلة العمر الى أن أعرف ذلك» .

قال وقد احمر وجهه كما لم يحمر من قبل : «اذن فاسمي مورتن» .

قالت : «مورتن هذا جميل»…

قال : «ربّما يكون جميلاً…»

قالت : «إنه على كل حال أجمل ممّا لو كان اسمك هنس أو كونتس . إن فيه شيئاً خاصاً! أجنبياً…»

قال : «إنك رومانتيكية ياآنسة بودنبروك . لقد قرأت هوفمان أكثر مما يجب . إن المسألة بسيطة كل البساطة : لقد كان جدّي نصف نروجي ، وكان يسمى مورتن . وقد عمّدوني باسمه . وهذا كل شيء…» .

وصعدت توني محاذرة بين الكلأ والبوص العالي الحاد الذي كان قائماً على حافة البلاج العاري فتراءى لهما صف الأكشاك الخشبية بأسطحها المخروطية يمتد البصر وراءها الى مخافر البلاج التي كانت أقرب الى البحر . ترابط من حول الأسر في الرمل الدافيء ، وسيدات يضعن على أعينهن نظارات زرقاء للوقاية وتحمل أجزاء مستعارة من المكتبات ، وسادة في بذات زاهية ، خالين ينكتون الرمل بعصيّهم ويرسمون الأشكال ، وأطفال لفحتهم التشمس يضعون على رؤوسهم قبعات عريضة من القش ويجرفون الرمل ويتدحرجون ويحتفرون الرمل طلباً للماء ويخبزون الفطائر في قوالب خشبية وينقبون الأنفاق ويخوضون بسيقانهم العارية في الموج الضحل وينزلون الى الماء زوارق تعوم… ثمّ عن اليمين الحمام الخشبي يمتد في البحر…

قالت توني : «فلنسر الآن رأساً الى كشك مولندروف ولنعرج قليلاً!» .

فقال : «بكل سرور...لكنك ستنضمين الآن الى السادة على التحقيق... فلأجلس أنا هنا الى الخلف على الصخر» .

قالت : «أنضم ؟... بلى ، لأحييهم طبعاً... لكنّي لاأحب هذا ، يجب أن تعرف . فقد جئت الى هنا لأنشد الهدوء...» .

قال : «الهدوء ؟ ممّن ؟» .

قالت : «نعم ، ممن...» .

قال : «اسمعي يا آنسة بودنبروك . يجب أن أسألك أيضاً سؤالاً آخر... ولكن عندما تعرض مناسبة فيما بعد ، وحين يكون لديك الوقت... والآن اسمحي لي أن أقول لك الى اللقاء فسأجلس خلفاً على الصخر . . . .» .

فسألته في شيء من الأهمية :« ألا ينبغي أن أقدمك ياسيد شفارتسكوبف!» .

قال في عجلة : «لا ، لا . أشكرك جداً . إني لا أكاد أنتمي الى هؤلاء... إني سأجلس هناك على الصخر...» .

وكانت جماعة كبيرة تلك التي خطت اليها توني ، بينما توجه مورتن شفارتسكوبف يميناً الى تلك الصخرة الكبيرة التي كان الماء يغسلها بجانب الحمام ، ـ جماعة كانت ترابط أمام كشك مولندروف ، وتؤلفها أسر مولندروف وهاجنشتروم وكستنماكر وفريتشه . وفيما عدا القنصل فريتشه وهو من هامبورج ، ويملك كل شيء ، وبيتر دولمان المستهتر ، لم يكن في الجماعة سوى السيدات والأطفال لأن اليوم كان ككل يوم ومعظم السادة يزاولون أعمالهم في المدينة . وكان القنصل فريتشه رجلاً مسناً ذا وجه حليق ناعم ، وجيهاً مشغولاً هنا في الكشك المكشوف بتلسكوب سلّطه على سفينة شراعية تتراءى من بعيد . أمّا بيتر دولمان وكان يضع على رأسه قبعة من القش عريضة الحافة ، وله لحية من لحى الملاحين مقصوصة في استدارة فكان واقفا يحادث السيدات اللواتي كنّ مستلقيات على الرمل فوق أردية أيقوسية منقوشة أو جالسات على كراسي صغيرة من قماش الشراع : السيدة زوجة السناتور مولندروف وهي من أسرة لانجهالز وكانت مشغولة بمنظار صغير طويل الذراع ويحيط برأسها شعر أبيض منفوش ، والسيدة هاجنشتروم والى جانبها جوليا التي كانت ماتزال صغيرة تقريباً ، لكنها كأمها تحمل في أذنيها قرطاً ماسياً ، والسيدة زوجة القنصل كستنماكر مع بناتها ، وزوجة القنصل فريتشه وكانت سيدة متغضنة قصيرة القامة تحمل على رأسها قلنسوة وتقوم في الحمامات

بواجبات إدارية ، حمراء مجهدة لم تفكر في غير الاجتماعات ومراقص الأطفال واليانصيب والنزهات البحرية... وكانت المكلفة بالقراءة لها بعيدة منها بعض الشيء . أما الأطفال فكانوا يلعبون في الماء .

وكستنماكر وولده هو اسم متجر الأنبذة الناجح الذي جعل في السنوات الأخيرة يبعد س .ف . كوبن عن السوق وكان كلا الابنين ادوارد وستيفان يعمل في متجر والدهما . ـ وكان القنصل ينقصه كل النقص ماتحلى به يوستوس كروجر من آداب مختارة . كان داعراً من النوع المتخصص في الإيناس الخشن يسمح لنفسه بالخروج في المجتمع عن الحد بصورة غير مألوفة لأنه كان يعرف أنه محبوب لفذاذته في سلوكه المترف الجريء الصاخب . فعندما تأخر ظهور لون من ألوان الطعام في مأدبة آل بودنبروك طويلاً ، وتولى ربة البيت الإرتباك ، وساءت نفسية الضيوف لانتفاء مايشغلهم أعاد هو روح المرح بأن زأر من فوق المائدة بصوته الجهير الصاخب : «لقد فاض بي ياحضرة القنصلة!» .

بهذا الصوت الخشن الرنّان كان يقص في تلك اللحظة نوادر مريبة يتوبلها بعباراته العامية... فكانت زوجة السناتور مولندروف تصيح المرة تلو الأخرى وقد أنهكها الضحك : « يا إلهي ، هلاّ كففت بربك يا حضرة القنصل! » .

وقد استقبلت توني بودنبروك من آل هاجنشتروم استقبالاً فاتراً ، ومن غيرهم من الجماعة استقبالاً قلبياً حاراً . حتى القنصل فريتشه هبط درجات الخص مسرعاً ، لأنه كان يأمل أن يعاون آل بودنبروك في العام القادم على رواج الحمام .

قال القنصل دولمان : « خادمك يا آنسة! » قالها بمنطق رقيق ما أمكن ذلك أنه كان يعلم أن الآنسة بودنبروك لاترتاح الى سلوكه ارتياحاً خاصاً .

« الآنسة بودنبروك! » .

« أنت هنا! » .

« منذ متى ؟ » .

« مأأبدع هندامك! » .

« أين تنزلين ؟ » .

« عند آل شفارتسكوبف ؟ » .

« عند كبير المرشدين » .

« فكرة بديعة! » .

« كم أجدها بديعة الى أبعد حد! » .

وعاد القنصل فريتشه صاحب المصحة يقول : «أتنزلين في المدينة ؟» دون أن يدخل في روع أحد أن هذا مسه وآلمه .

وسألت زوجته : «هل ستولييننا السرور في الاجتماع القادم ؟» .

وقالت سيدة أخرى : «أوه ، أفي ترافيمنده لفترة وجيزة فقط ؟»...

والتفتت مدام هاجنشتروم الى زوجة السناتور مولندروف وهمست اليها : «ألا تجدين ياحبيبتي أن آل بودنبروك معتزلون بعض الشيء ؟» .

وسألت إحداهن : «ولم تستحمي بعد ؟ مَنْ مِنَ الفتيات لم تستحم اليوم بعد ؟ ماري ، جوليا ، لويزه ؟ إن صديقاتك ليصاحبنك عن طيب خاطر يا آنسة أنتونيا...» .

وانفصلت بضع فتيات عن الجماعة ليستحممن مع توني ولم يدع بيتر دولمان أحداً يقوم عنه بمرافقة السيدات على امتداد البلاج .

وسألت توني جوليا هاجنشتروم : «ياالله! أتذكرين روحاتنا وعدواتنا أيام المدرسة!» .

فقالت جوليا وهي تبتسم ابتسامة إشفاق : «أجل! كنت تمثلين دائماً دور الشريرة!» .

واتّجهن على البلاج الى الحمام فوق المعبر المركب من أزواج من الألواح فلمّا مررن بالصخور حيث كان يجلس مورتن شفارتسكوبف ومعه كتابه هزّت له توني رأسها من بعيد بحركة سريعة عدة مرات . وسألت إحداهن : «من تحيّين ياتوني ؟» .

فقالت توني : «إنه الفتى شفارتسكوبف . لقد رافقني الى البلاج...» .

فسألت جوليا هاجنشتروم : «ابن رئيس المرشدين ؟» .

ونظرت الى مورتن حيث يجلس بعينين سوداوين تلمعان ، نظرة حديدة . وكان هو من جانبه يعاين الجماعة الرشيقة في شيء بعينه من الكآبة . بيد أن توني قالت بصوت مرتفع : «إني لآسفة لشيء : هو أن أوجست مولندروف مثلاً ليس هنا... لابدّ أن البلاج في الأيام العادية مضجر غاية الضجر» .

الفصل الثامن

وبدأت بذلك لتوني بودنبروك أسابيع جميلة في الصيف أحفل بالتسلية وأدعى الى الارتياح من التي عاشتها فيما مضى في ترافيمنده ، فأينعت ، إذ لم يعد ثم مايرهقها وعادت الجرأة وخلو البال الى كلامها وحركتها . وجعل القنصل يرعاها راضياً كلما جاء الى ترافيمنده في أيام الآحاد مع توم وكريستيان . عندئذ يتناولون طعامهم على المائدة بالقائمة ويحتسون القهوة على نغمات موسيقى المصحة تحت سقف خيمة الحلواني ، ويشاهدون في الداخل قاعة الروليت حيث يتزاحم من حوله أناس مرحون مثل يوستوس كروجر وبيتر دولمان . أمّا القنصل فلم يكن يلعب قط .

وكانت توني تتشمس وتستحم ، وتأكل المقانق المحمرة مع صلصة حب الزنجبيل وتقوم بنزهات بعيدة على الأقدام مع مورتن ، في طريق السد حتى الناحية المجاورة ، وعلى امتداد البلاج الى «هيكل البحر» المطل والمسيطر على منظرٍ مترامٍ فوق البحر والبر . أو يصعدان الى ماوراء الغابة الصغيرة الواقعة خلف المصحة والتي يتدلى من مرتفعها الجرس الكبير الذي يدعو الى المائدة . أو يجذفان فوق ترافيه الى بريفال حيث يوجد الكهرمان...

وكان مورتن مرافقاً مسلّياً ، وإن كانت آراؤه حامية قليلاً تنزع الى المعارضة . فهو يصدر على كل شيء يعرض حكماً صارماً عادلاً يبديه في تصميم وإن احمرّ وجهه وهو يبديه . وتتكدّر توني وتؤنبه إذا ماوصم كل النبلاء في صورة غاضبة غير حصيفة شيئاً ما ، بأنهم أغبياء أشقياء ، لكنها كانت فخورة جداً ، بأنه كان صريحاً معها ، وأنه كان يسر اليها الآراء التي كان يحبسها عن والديه... وقد قال لها مرة : «يجب أن أقصّ عليك هذا : إن في حجرتي في جوتنجن هيكلاً عظمياً كاملاً ؟ أتعرفين أن مثل هذا الهيكل العظمي يمكن عند

الحاجة أن يمسكه بعض الأسلاك . وقد ألبسته مرة بذلة قديمة لأحد رجال الشرطة... ها ، ها . ألا تجدين هذا بديعاً ؟ لكن إيّاك بربك أن تقولي هذا لأبي! » .

ولم يكن في النادر أن تختلط توني كثيراً بمعارفها في المدينة على البلاج أو في حديقة المصحة فيستهويها هذا أو تلك من الاجتماعات أو الجماعات البحرية عندئذ كان مورتن يجلس على الصخور . وقد باتت هذه الصخور منذ اليوم الأول اصطلاحاً بينهما . « فالجلوس على الصخور » معناه الوحدة والسأم فإذا حلّ يوم مطير طوى البحر المترامي في قناع أغبر فاندمج كل الإندماج في السماء البعيدة التي تبلّل البلاج وتغرق الطرق ، قالت توني عندئذ : « اليوم يجب أن يجلس كلانا فوق الصخور... يعني في الشرفة أو في حجرة الجلوس . فلا يبقى إلا أن تعزف لي أغاني الطلبة يامورتن وإن أضجرتني كل الضجر » .

فقال مورتن : « أجل لنجلس . ولكن اعلمي أنّك مادمت هنا فلن يعود هناك صخور! » ولم يكن يقول هذا الكلام إذا كان أبوه حاضراً . أما أمه فكان لها أن تسمعه .

وتساءل رئيس المرشدين لمّا أن نهضت توني ونهض مورتن بعد طعام الغداء في وقت واحد وتهيئا للخروج : « ما الحكاية ؟ الى أين يذهب السيدان ؟ » .

« أجل ، إني أسمح لنفسي بمرافقة الآنسة أنتونيا الى « هيكل البحر » بعض الطريق » .

« تسمح لنفسك بهذا ؟ قل يا ولدي فيليوس ، أما كان في النهاية من الأنسب أن تجلس في حجرتك وتعيد مايشد أوتار أعصابك ؟ إنك لن تصل الى جوتنجن حتى تكون قد نسيت كل شيء ... »

لكن مدام شفارتسكوبف تكلمت في لطف : « بربك ياديدريش : لِمَ لايجوز له أن يرافقها ؟ دعه يذهب معها! إنه في عطلة بلا ريب . أفلا ينبغي أن يجني شيئاً من وراء هذه الزيارة لنا ؟ »

ـ وذهبا .

ذهبا على امتداد البلاج تحت عند الماء ، هناك حيث الرمل ينقلب من فيض الماء الى مايشبه الشباك وينصقل ويجمد حتى ليستطيع المرء السير عليه من دون عناء ، حيث يتناثر المحار الأبيض العادي الصغير وآخر مستطيل كبير ويتحول الى حجارة ثمينة ، وبين هذا وذاك خضر البحر البليل الأخضر المصفر تتخلّله ثمار مستديرة جوفاء تفرقع حين تُضغط ، ورويات بسيطة بلون الماء وأخرى صفراء مائلة الى الاحمرار ، سامة تحرق الساق إذا مستها أثناء الاستحمام...

وسألت توني : « أتريد أن تعرف كم كنت غبية من قبل ؟ لقد أردت أن استخرج

النجوم الزهر من الريات . كنت أحمل الكثير منها في منديلي الى البيت ، وأضعها نظيفة فوق الشرفة في الشمس كي تتبخر فتتخلف النجوم بلا ريب! حسناً... وإذ أعود أعاينها أجد بقعة بليلة كبيرة تقريباً تفوح منها رائحة خضر البحر العفن... » .

وسارا يلاحقهما هدير الموج المتلاحق الرتيب تصافح وجهيهما الريح الملحة المتجددة الهابة من الموج طليقة لايعترضها شيء ، تقتحم الاذن وتصيب بدوار لطيف وتخدير خفيف... سارا في هذا السلام الشامل الذي يرنق على البحر في زمزمة خافتة ويجعل في كل صوت بسيط ، بعيد أو قريب شيئاً مستسراً .

وكانت عن الشمال هوى متشابهة ذات شقوق يكسوها الطمي الأصفر والحصى وزوايا تتبدّل دائماً وتخفي تعاريج الساحل . هنا في مكان ما حيث البلاج أشد وعورة مما ينبغي تسلق ليستأنفا بين الأشجار طريقهما الصاعد الى «هيكل البحر» . وكان الهيكل خصاً مستديراً مقاماً من جذوع الأشجار الخشنة والألواح ، قد غطيت جوانبه الداخلية بالنقوش الكتابية والأحرف الأولى والقلوب والأشعار... فجلس توني ومورتن في غرفة من الغرف المقسمة المواجهة للبحر . وكانت تفوح منها رائحة الخشب كما تفوح من أكشاك الاستحمام ـ جلسا على مقعد مديد ضيق من صنع النجار في مؤخرة الخص .

وكان المكان هادئاً جداً ، رهيباً هنا فوق ، في هذه الساعة من بعد الظهر تغرد فيه بضعة عصافير ويختلط فيه حفيف الشجر الخافت بهدير البحر المترامي تحت وتبدو على بعده سفينة للعيان . إذ وقاهما الخص من الريح التي كانت قبل الآن تهاجم آذانهما أحسا بغتة سكوناً يحمل على التفكير .

واستعلمت توني عن السفينة : «أآتية هي أم ذاهبة ؟ » فسألها مورتن بصوته المستأني : « كيف ؟ » ثمّ قال سريعاً وكأنه تنبه من ذهول عميق : «ذاهبة . هذه هي «العمدة شتينبوك» مسافرة الى الروسيا» . وأضاف بعد برهة من الصمت : «لو أردت ماركبتها . فالأحوال هناك أدعى الى السخط مما هي عندنا!» .

قالت توني : « كذا! أتنوي العودة الى الكلام عن النبلاء يامورتن . إني أتبيّن هذه النية على وجهك... ليس هذا جميلاً منك... فهل عرفت نبيلاً من قبل ؟ » .

فصاح مورتن غاضباً تقريباً : « كلا ، والحمد لله ؟ » .

«نعم ، نعم ، أترى ؟ لكني أنا عرفت فتاة على كل حال . أرمجارد فون شيلنج التي تقيم هناك وقد حدثتك عنها ، لقد كانت آنس منك ومني وكادت لا تعرف أنها تنادى بفون كانت تأكل مقانق «مت» وتتحدث عن البقر... »

فسارع الى القول : «إن هناك مستشفيات بالتأكيد يا آنسة توني . لكن اسمعي... إنك سيدة صغيرة تنظرين الى الأشياء من الناحية الشخصية تعرفين نبيلاً فتقولين : لكنه في الحق رجل طيب! بالتأكيد... بيد أنه لاحاجة بالمرء الى أن يعرف واحداً ليحكم به على الكل! فالأمر إنما يتعلق بالمبدأ . بالنظام! وعن هذا لابدّ أن تصمتي... أليس كذلك ؟ وما على المرء إلا أن يولد ليصبح المختار والنبيل... الذي يجوز له أن ينظر الينا من عل في ازدراء... إلينا نحن الذين لانستطيع بكل فضائلنا أن نبلغ علياءه» وكان مورتن يتكلم في غضب يدل على السذاجة وطيبة القلب ، كان يحاول الإتيان بحركات من يديه رأى نفسه أنها كانت خرقاء فعدل عنها . لكنه مضى في الكلام ، وكانت نفسيته مؤاتية . كان يجلس منكباً الى الأمام ، يدسّ أحد إبهاميه بين أزرار سترته ويفرض على عينيه الأنيستين تعبير التحدّي... «نحن الطبقة الثالثة كما نسمى حتى الآن ، نريد ألا يكون هناك سوى نبل الجدارة والاستحقاق . نحن لانعترف بعد الان بطبقة النبلاء المكاسيل ، نحن ننكر نظام المراتب التي تقسم اليها الطبقات... نريد أن يكون الناس جميعاً أحراراً متساوين ، وأن لايخضع أحد لشخص ، بل يخضع الجميع للقانون!... لاينبغي أن يكون بعد الآن امتيازات أو تحكّم ، بل ينبغي أن نكون أبناء للدولة متساوين في الحقوق . وكما أن لا وساطة الآن بين عامة الناس وبين الله ، فإنه ينبغي أن تكون علاقة المواطن بالدولة علاقة مباشرة!... نريد حرية الصحافة والعمل والتجارة... نحن نريد أن يكون الناس جميعاً قادرين على التنافس من دون محاباة ، وأن يكون للجدارة تاجها!... لكننا مستعبدون محكمو الوثاق... ماذا كنت أريد أن أقول من لحظة ؟ أجل ، انتبهي! من أربع سنوات مضت جددت قوانين الاتحاد فيما يتصل بالجامعات والصحافة ـ قوانين جميلة! لايجوز أن تكتب أو تعرف حقيقة قد لاتتّفق والنظام القائم... أتفهمين ؟ إن الحقيقة تكتم أنفاسها فلا يسمح بأن تجري على لسان... لماذا ؟ إبقاء على حالة سخيفة ، عتيقة ، متداعية ستُزال مع ذلك إن عاجلاً أم آجلاً كما يعرف كل إنسان... أظنّك لاتدركين هذا الانحطاط إطلاقاً ، إن القوة ، القوة الغبية الفجة التي يخولها البوليس في الآونة الراهنة من دون إدراك للفكر وللحديث... لا ، لقد اقترف ملك بروسيا ظلماً كبيراً . وفي سنة ١٨١٣ لما كان الفرنسيون في البلاد نادانا ووعدنا بالدستور... فلبّينا النداء وحرّرنا ألمانيا...» .

وكانت توني تتأمّله من الجنب ، وتعتمد ذقنها فوق يدها ، فجعلت تفكّر لحظة تفكيراً جدّياً! أكان يسعه هو نفسه أن يساعد حقاً على طرد نابليون . وعاد مورتن يقول : «فهل تظنين أنه برّ بوعده ؟ كلا! إن الملك الحالي بارع في الكلام المعسول ، حالم ، رومانتيكي

مثلك ياآنسة توني... ذلك أنه يجب أن تلتفتي الى شيء هو أنه إذا نقض الفلاسفة والشعراء حقيقة أو رأياً أو مبدأ وعفوا عليه جاء ملك يكون قد ألمّ بهذه الحقيقة أو هذا الرأي أو المبدأ ولما يكد ، فاعتده أحدث وأحسن ماهناك ، وأنه يجب اتّباعه... نعم ، هذا هو شأن الملكية! والملوك ليسوا بشراً فحسب بل هم أوساط بين الناس الى أبعد حد ، إنهم دائماً متخلفون عن بقية الناس مراحل عديدة . وقد وقع لألمانيا ماوقع للطالب المنتمي الى جماعة من جماعات الشباب ، كان أيام حروب التحرير محتفظاً بشبابه الجريء المتحمس فلم يلبث أن بات اليوم جباناً رعديداً... » .

فقالت توني : « نعم ، نعم ، هذا حسن ، ولكن دعني أسألك شيئاً . ماذا يعنيك هذا في الحق ؟ إنك لست بروسياً... »

« ياآنسة بودنبروك! إنني أناديك باسم الأسرة عامداً... وكان يجب أيضاً أن أقول ديموازيل بودنبروك كي يكون حقك كاملاً! فهل الناس عندنا أكثر حرية ومساواة وإخاء مما هم في بروسيا ؟ هنا الحدود والفروق والارستقراطية كما هي هناك!... إنك تعطفين على النبلاء... فهل أخبرك لماذا ؟ لأنك نفسك نبيلة! ألم تعرفي ذلك بعد ؟ إن أباك رجل عظيم ، وأنت أميرة تقوم هوة بينك وبيننا نحن الآخرين الذين لانتمي الى محيطكم - محيط الأسر الحاكمة . حقاً إنه ليسعك أن تتنزّهي مع أحدنا قليلاً على البحر طلباً للاستجمام لكنك يوم تعودين الى محفلك... محفل المختارين المفضلين يكون للمرء منا أن يجلس فوق الصخر... »

وكان صوته قد بات غريباً بادي الانفعال .

وقالت توني حزينة : « إذن لقد كنت مستاء حين جلست فوق الصخر...! لقد رجوتك أن أقدمك الى الجماعة... » .

« أوه! إنك تنظرين ثانية الى الموضوع نظرة شخصية كسيدة صغيرة يا آنسة توني! إنني ربّما أتكلم عن مبدأ... إنني أقول إنه ليست عندنا أخوة إنسانية أكثر مما يوجد في بروسيا » ثمّ استطرد بعد فترة من الصمت يقول بصوت أكثر خفوتاً لكنه يحتفظ بانفعاله الغريب : « لو كنت أتكلم بصفة شخصية لما عنيت الحاضر بل لعلي كنت أعني المستقبل... حين تختفين بوصفك مدام كيت أو كيت نهائياً في محيطك الراقي... ويجلس المرء حياته فوق الصخر... » .

وصمت ، وصمتت توني كذلك ، فلم تعد تنظر اليه بل الى الجانب الآخر ، الى جدار الألواح القائم بجانبها . وساد بينهما سكون مقبض فترة كادت تكون طويلة .

وعاود مورتن الكلام فقال : « أتذكرين أني قلت لك مرة أن عندي سؤالاً أريد أن أسألك

إياه ؟ أجل لقد شغلني منذ عصر اليوم الأول الذي وصلت فيه الى هنا . فلتعرفي ذلك! فاحزري ماهو! إنه من المحال أن تعرفي ما أقصد... سأسأل كرّة أخرى إذا عرضت مناسبة ، فليس مايدعو الى العجلة . إن الأمر في أساسه لايعنيني ، إنما هو الفضول... كلا ، اليوم أريد أن أفشي اليك شيئاً آخر... انظري! » .

وهنا سحب مورتن من جيب سترته طرف شريط رفيع ملون ، ونظر في عيني توني نظرة هي مزيج من الترقب والإنتصار .

فقالت توني غير فاهمة : « ماأجمل! مامعنى هذا ؟ » .

فتكلم مورتن في خطورة : « معنى هذا أني أنتمي في جوتنجن الى إحدى جماعات الشباب ـ فالآن تعرفين ذلك! إن عندي طاقية بهذه الألوان ، لكني ألبستها الهيكل العظمي الذي يرتدي بذلة الشرطي لمدة العطلة... ذلك أني لايجوز لي أن أظهر بها هنا . أتفهمين... ولي أن أعتمد على كتمانك! فلو علم أبي بهذا الأمر لحلت بي مصيبة... » .

« ولا كلمة يامورتن! كلا ، يمكنك الإعتماد علي!... بيد أني لاأفطن الى شيء من هذا الأمر مطلقاً... فهل أنتم جميعاً متآمرون على النبلاء ؟... ماذا تبغون ؟ » .

قال مورتن : « نبغي الحرية! » .

فسألت : « الحرية ؟ » .

قال : « أجل ، الحرية . أتعلمين ؟ الحرية... » وكرّر هذا وهو يحرك ذراعه حركة غامضة ، خرقاء بعض الشيء ، لكنها تدل على التحمس ، تارة الى الخارج وتارة الى تحت ، وآونة في اتجاه البحر ، لكن ليس الى تلك الجهة التي يحد الجون عندها ساحل ميكلنبورج ، بل الى حيث البحر مطلق مترام الى الأفق في خطوط خضراء ، زرقاء غبراء تضيق دائماً ، بديع ، بعيد ، متموج تموجاً خفيفاً...

وتتبّعت توني بعينيها اتجاه يده ، بينما لم ينقص الكثير لتتحد يدا كليهما وهما ملقاتان على المقعد إحداهما الى جانب الأخرى ، كانت توني ومورتن ينظران معاً بعيداً في نفس الإتجاه . وقد لبثا صامتين طويلاً أثناء أن كان هدير البحر يتناهى الى سمعهما هادئاً متثاقلاً... واعتقدت توني بغتة أنها متفقة مع مورتن في فهم مايسمّى بالحرية فهماً عظيماً غير محدّد ، عامراً بالإدراك والشوق .

الفصل التاسع

«غريب أن لايسأم المرء من البحر يامورتن . استلق مرة في مكان آخر ثلاث ساعات أو أربعاً على ظهرك دون أن تحرّك ساكناً أو تتعلق بفكرة...» .

«أجل ، أجل...هذا الى أني يجب أن أعترف بأني ضجرت قبل ذلك أحياناً ياآنسة توني ، لكن ذلك كان قبل أسابيع...» .

وحل الخريف ، وكانت أول ريح قوية تهب وبعض السحب الغبراء الهزيلة الممزقة ترف مسرعة فوق وجه السماء . وكان البحر الكدر الغائر يغشاه الزبد في كل مكان والموج العظيم القوي يدرج نحو الشاطيء في هدوء لايني يشيع الفزع ، وينطوي ليستدير في خضرة داكنة وبريق معدني ، ثمّ ينقض صاخباً فوق الرمل .

كان الموسم قد انتهى تماماً ، والجزء الذي كانت تعمره جمهرة المستحمين والذي قد رفع عنه جانب من الأكشاك الآن مشغول بقليل من الكراسي التي على هيئة السلال ، قد فارقته أو كادت . لكن توني ومورتن كانا يرابطان بعد الظهر في ناحية نائية : هناك حيث تبدأ جدران الطين وحيث يقذف الموج عند موفنشتين برغاه عالياً . وكان مورتن قد أقام لتوني ربوة من الرمل أحكم دقها لتستند اليها ظهرها . وقد وضعت قدميها في حذاء مربوط وجوربين أبيضين ، إحداهما فوق الأخرى ، وارتدت سترة خريفها الناعمة الرمادية ذات الأزرار الكبيرة . وكان مورتن مستلقياً على جنبه ووجهه إليها ، وذقنه معتمدة في يده ، وبين الحين والخين يمرق طائر النورس فوق البحر ويطلق صرخة الطير الجارح . كانا يتأمّلان جدران الأمواج الخضراء المرقشة بكلأ البحر وهي تهدد بالإقتراب وتتكسّر على كتلة الصخر التي تتلقاها... في هذا الصخب الأبدي الضال الذي يخدر الأعصاب ، ويصيب بالبكم ويقتل الشعور بالزمن .

وأخيراً أتى مورتن بحركة من كان نائماً ثمّ استيقظ وسأل : «ستسافرين عمّا قريب يا آنسة توني ؟ » .

فقالت توني شاردة الفكر ومن دون فهم : « كلا... كيف ؟ » .

فقال : « ياإلهي! إننا في العاشر من سبتمبر... وعطلتي تنتهي في كل حال قريباً... فكم بقي عليها... أتشتاقين مجتمعات المدينة... ؟ قولي! إن هناك سادة ظرفاء ترقصين معهم... لكن لا ، فما أردت أن أسأل عن هذا! الآن يجب أن تجيبيني عن شيء » . قال هذا وسوى ذقنه في يده في تصميم مفاجيء ثمّ نظر اليها... « إنه السؤال الذي كنت أرجئه الى هذا الزمن الطويل... فهل تعرفين ؟ الآن! من هو السيد جرينليش ؟ » .

فأجفلت توني ، ونظرت الى وجهه نظرة سريعة ، ثم حولت بعد ذلك نظرها كمن ذكّر بحلم بعيد . فتنبه فيها الشعور الذي كان داخلها في الوقت التالي لخطبة جرينليش إياها ، شعورها بأهمية شخصها .

فسألت جادة : «تريد أن تعرف هذا يامورتن ؟ اذن فسأخبرك به . لقد آلمني جداً أن توماس ذكر الاسم في عصر اليوم الأول لوصولنا . وإذ كنت قد سمعته... فيكفي . السيد جرينليش ، بندكس جرينليش ، صديق في العمل لوالدي ، وتاجر في هامبورج ، ذو مركز حسن . وقد طلب في المدينة يدي» .

وأتى مورتن بحركة أجابت عنها في عجل بقولها : «ولكن لا... فقد رددته ولم أستطع أن أحزم أمري على الرضا به والإرتباط بموافقتي مدى الحياة...» .

فقال مورتن في خرق : «ولم لا... إذا جاز لي أن أسألك ؟» .

فصاحت وهي مغضبة تقريباً : «لماذا ؟ ياللـه لأني لم أطقه . كان ينبغي أن تعرفه! منظره ومسلكه وأن له ، في جملة ماله ، لحية عارضية صفراء ذهبية . شخص غير طبيعي تماماً ، أعتقد أنه يتخضب بالمسحوق الذي يذهّبون به بندق عيد الميلاد... هذا الى أنه منافق ، يتمسح بوالدي ، ويوافق بصورة زرية على مايقولون...» .

فقاطعها مورتن :

«ولكن مامعنى... يجب أن تقولي لي شيئاً آخر... مامعنى : هذا يلمع بصورة غير مألوفة تماماً ؟» .

فضحكت توني ضحكة عصبية متلاحقة ثمّ قالت :

«نعم هكذا كان يتكلم يامورتن! لم يكن يقول «هذا ممتاز» أو «هذا يزين الغرفة» بل «هذا يلمع بصورة غير مألوفة تماماً» . لقد كان بهذه البلاهة . أؤكد لك! وفي هذا كان

لحوحاً الى أبعد حد . كان يلاحقني مع أني لم أعامله قط إلا متهكمة . وفي مرة أثار مشهداً كان يبكي فيه... أرجوك! إن رجلاً يبكي...» .

فقال مورتن بصوت خافت : «لابدّ أنه يحبك» .

فصاحت مندهشة : «وماذا يعنيني هذا ؟» وانقلبت على جنبها وهي مستندة الى الربوة الرملية .

قال : «إنك قاسية يا آنسة توني... فهل أنت قاسية دائماً ؟ قولي لي أنك لم تطيقي هذا السيد جرينليش ، فهل كنت تميلين إذ ذاك الى غيره ؟...

إنني أتساءل أحياناً : هل لك قلب جامد ؟ أريد أن أقول لك شيئاً... وحقاً إنني أستطيع أن أقسم لك عليه . إن رجلاً لايكون أبله ، لأنه يبكي من صدك عنه ... هذا هو الموضوع . إني لست متأكداً إطلاقاً من أني قد أكون هذا الرجل... أرأيت ، إنك مخلوقة مدللة راقية... فهل تسخرين دائماً ممن يترامون على قدميك ؟ أقلبك جامد حقاً ؟» .

وجعلت شفة توني العليا ترتجف فجأة بعد ذلك المرح الوجيز ، وصوّبت اليه عينين واسعتين حزينتين لم تلبثا أن اغرورقتا بالدموع وقالت بصوت خافت : «كلا يامورتن ، أتعتقد هذا فيّ... يجب ألا تعتقد فيّ هذا!» .

فصاح مورتن : «إنني لاأعتقد هذا أيضاً» . وضحك ضحكة بادية التأثر يحاول جاهداً أن يكتم فيها هتاف النفس . وتقلب تماماً حتى بات بجانبها على بطنه ، وتناول ، وهو يرتكن على مرفقه ، يديها بكلتا يديه ، وتأمل وجهها بعينين فيهما زرقة الفولاذ وأنس الروح مغتبطاً متحمساً...

قال : «وأنت . . . . ، ألا تسخرين منّي إذا قلت لك إنّي . . . »

فقاطعته : «إني أعلم يامورتن» وحولت نظرها جانباً الى يده الطليقة التي كانت تمر الرمل الأبيض الناعم من بين أصابعها في تؤدة .

«وأنت تعلمين...! وأنت ... أنت ياآنسة توني...» .

«نعم يامورتن... إني أعلق عليك الكثير . إني أحبك حباً جماً . إنك أحب اليّ من كل من أعرفهم» .

فهبّ ، وأتى ببضع حركات من ذراعه وحار ماذا يفعل . ووثب على قدميه ثم ارتمى ثانية بقربها على الأرض ، وصاح بصوت متقطع ، مضطرب ، متضارب . عاد رناناً من الغبطة : «آه ، إني أشكرك ، أشكرك . أترين ، لقد بت من السعادة مالم أكنه يوماً في حياتي!...» ثم ّجعل يقبل يديها .

وبغتة قال بصوت أكثر خفوتاً : «ستسافرين الى المدينة عمّا قريب يا توني ، وعطلتي الجامعية تنتهي بعد أربعة عشر يوماً… فأعود ثانية الى جوتنجن ، لكن هل تعدينني ألا تنسي عصر هذا اليوم الذي قضيناه هنا على البلاج حتى أعود… وأنا دكتور ، وأخطبك من والدك وإن شق عليّ الأمر… وإنك في تلك الأثناء لاتصغين الى سيد يدعى جرينليش ؟… إن غيابي لن يطول . فاجعلي بالك الى ذلك… سأعمل… وليس في هذا مشقة» .

فقالت هائئة شاردة الفكر : «نعم يامورتن» وتأملت عينيه وفمه ويديه اللتين كانتا تمسكان بيديها .

وأدنى يدها من صدره أكثر وسألها مخافتاً راجياً : «ألا تقوي أملي في هذا …أتسمحين لي بأن أقوي هذا الأمل ؟» .

فلم تجب ، بل لم تجبه بنظرة ، لكنها دفعت جسمها الأعلى من على ربوة الرمل مترفقة وأدنت نفسها منه قليلاً فقبلها مورتن من فمها مستأنياً محتفلاً ، ثمّ وجه كلاهما نظره الى جهات مختلفة في الرمل وتولاهما خجل شديد .

الفصل العاشر

«الآنسة الغالية بودنبروك!

ماأطول ماحرم صاحب التوقيع من رؤية محيا الفتاة الفاتنة! هذه الأسطر بهذه القلة خليقة أن تنبئك بأن هذا المحيا لم يكف عن المثول لعيني فكرة بحيث لم ينقطع في هذه الأسابيع العامرة بالقلق واللهفة عن التفكير في ذلك الأصيل البديع الذي أفلت منك فيه في صالون والديك وعد قد كان حقاً نصفاً محفوفاً بالخجل ، لكنه كان مسعداً أيما إسعاد . في ذلك الحين تقضت أسابيع طويلة اعتكفت فيها عن العالم طلباً للاستجمام والتأمل بحيث يجوز لي أن آمل الآن أن تكون قد مرت فترة الإمتحان . وإن صاحب التوقيع ليسمح لنفسه بأن يبعث اليك أيتها الآنسة الغالية مع الإحترام بالخاتم المرفق بهذا عربوناً على الحنان الخالد .

مع أخلص التحيات وأحب القبلات أطبعها على يديك .

أخلص المخلصين لذات الكريمة

جرينليش

«أبي العزيز»

ماأشد . والله ما استأت! لقد تلقيت الخطاب والخاتم المرفقين من جريـ... فأصابني صداع من فرط الإنفعال . ولم أجد خيراً من أن أبعث بهما اليك . إن جريـ... لايريد أن يفهمني . وهذا «الوعد» الذي يتحدث عنه بهذه الشاعرية لم يقع ، فأرجوك وألح في الرجاء أن تفهمه بإيجاز أني الآن أقل ألف مرة مما كنت قبل ستة أسابيع رغبة في منحه موافقتي مدى الحياة ، وأنه ينبغي أن يدعني أخيراً في سلام . إنه يعرّض نفسه للسخرية . ولك أنت ياخير والد أستطيع أن أقول أني مرتبطة من جهة أخرى بإنسان يحبني وأحبه ، حتى أنه لم

يعد هناك محل لكلام . آه يا أبي! إني لأستطيع أن أكتب عن هذا صحفاً كاملة ، إني أتحدث عن السيد مورتن شفارتسكوبف الذي يدرس الطب ويريد أن يطلب يدي بمجرد أن يصبح دكتوراً . وإني لأعرف أن العادة لتقضي بأن أتزوج تاجراً . لكن مورتن ينتمي الى الجانب الآخر من السادة المحترمين ، جانب العلماء ، وهو ليس غنياً ، وهو ماله شأنه عندك وعند والدتي . لكني يجب أن أقول لك هذا ياأبي العزيز وإن كنت بهذا الصغر ، إن الحياة ستعلم البعض أن الغنى وحده لايسعد دائماً كل إنسان .

مع ألف قبلة

من ابنتك المطيعة

أنتونيا

حاشية ـ الخاتم من ذهب خسيس ، وهو أيضاً ضيق جداً فيما أرى .

«عزيزتي توني!»

وصلتني رسالتك في الوقت المناسب ، وقد استوعبتها . وأخبرك أني قياماً بواجبي لم أقصّر في إبلاغ السيد جرينـ... بصورة لائقة رأيك ووجهة نظرك الى الأشياء . لكن النتيجة كانت مع ذلك بحيث صدمتني صدمة بالغة... إنك فتاة ناضجة في موقف جاد من مواقف الحياة بحيث لاأتردد في أن أبصرك بالنتائج التي يمكن أن تترتب على خطوة تخطينها لاتصدر عن تفكير .

لقد انفجر السيد جرنـ... . عند كلامي وتملكه اليأس فصاح بأنه يحبك ولن يتعزى عن حبك الى حد أنه يريد الإنتحار إذا أصررت على قرارك . وإذا كنت لاأحسبك جادة فيما كتبت عن ميل لك الى ناحية أخرى فإني أرجوك أن تضبطي انفعالك من الخاتم الذي أرسل اليك ، وأن تفكري مرة أخرى في الأمر تفكيراً جدياً . وإن إيماني المسيحي يا ابنتي العزيزة ليوحي اليّ بأن من واجب المرء أن يحفل بمشاعر الغير . ولسنا نعرف هل يجعلك قاض أعلى مسؤولية عن إجرام رجل ازدريت مشاعره بإلحاح وعدم اكتراث ، في حق حياته ، لكن الشيء الذي طالما أفهمتك إياه شفاهاً أريد أن أذكرك به ، وإني لمسرور أن تتاح لي الفرصة لأكرره عليك كتابة . ذلك وإنه وإن كان الحديث الشفوي ذا تأثير أقوى وأكثر مباشرة فالكلمة المكتوبة أفضل في أنها تختار وتصاغ في هينة فتثبت ويعاد تلاوتها بالصيغة والوضع اللذين انتهى اليهما كاتبهما فيمكن أن يكون أثرها نفس الأثر . إننا يابنيّتي العزيزة لم نولد لما نعده بقصر نظرنا هناءنا الشخصي الخاص الضئيل ، ذلك أننا لسنا أفراداً

منفصلين مستقلين قائمين بذواتنا ، بل نحن كحلقات في سلسلة . ولكننا خلقاء ونحن كما نحن ، أن لايكون لنا شأن من دون أولئك الذين سبقونا وأرشدونا الى الطريق ، إذ هم من جانبهم قد اتّبعوا في حزم ومن دون أن ينظروا يمنة أو يسرة تقليداً مجرباً محترماً . وطريقة كما يخيل إلي مرسوم الحدود واضح المعالم منذ أسابيع طويلة . وغير معقول أن تكون ابنتي وحفيدة جدك الذي اختاره الله الى جواره عضواً محترماً في أسرتنا على الإطلاق إذا أنت عزمت بصورة جدية على أن تختاري وحدك أن تسيري في طريقك الخاص غير السليم في تحد واعتزاز . فأرجوك ياعزيزتي أنتونيا أن تجعلي هذا نصب عينيك .

إن أمك وتوماس وكريستيان وكلارا وكلوتيده (وهذه الأخيرة قد قضت عدة أسابيع عند والدها في ضيق) وكذلك الآنسة يونجمان يحيونك من قلوبهم .

وإنه ليسرنا جميعاً أن نستطيع عمّا قريب أن نضمك الى صدورنا .

الوفي في حبك

أبوك

الفصل الحادي عشر

وانهمر المطر ، وعامت السماء والأرض والبحر بعضها في بعض بينما انخرطت الريح العاصفة في المطر تلطم به زجاج النوافذ فلا يسيل عليه قطرات بل يجري غدراناً ولايجعل الرؤية منها ممكنة ، وتحدثت أصوات في مداخن المواقد شاكية يائسة .

فلما تقدم مورتن شفارتسكوبف من الشرفة عقيب الغداء بغليونه ليتبين ، حالة الجو كان سيد يرتدي سترة طويلة ضيقة مخططة بالمربعات الصفراء ويضع قبعة رمادية ، يقف أمامه ، على حين كانت مركبة مقفلة يلمع سطحها من البلل ، ملطخة العجلات بالطين تقف أمام البيت . فحملق مورتن من دون وعي في وجه السيد المحمر ، وكانت له لحية عارضية مخضبة بالمسحوق الذي يصبغ به بندق عيد الميلاد باللون الذهبي .

فنظر السيد ذو السترة المخططة الى مورتن كما ينظر إنسان الى خادم ، ورمش بعينيه رمشاً خفيفاً من دون أن يوجه اليه بصره ، وسأله بصوت ناعم :

«هل السيد رئيس المرشدين موجود ؟» .

فتمتم مورتن : «بالتأكيد... أظن أن أبي...» .

وهنا حدّق فيه السيد ، وكانت عيناه بزرقة عيني الأوزة ، وسأله : «هل أنت السيد مورتن شفارتسكوبف ؟» .

فأجاب مورتن : «نعم ياسيدي»وجهد أن يكسب تعبيراً ثابتاً .

فلاحظ السيد ذو السترة : «أنظر! حقاً...» ثم قال : «تفضل أيها الشاب فأعلن الى السيد والدك قدومي . إني أسمّى جرينليش» .

فقاد مورتن السيد خلال الشرفة وفتح له الدهليز الى اليمين باب المكتب وعاد الى حجرة الجلوس ليبلغ والده فلمّا خرج السيد شفارتسكوبف جلس الشاب الى المائدة

المستديرة وأسند مرفقه عليها ، وبدا من دون أن ينظر الى أمه التي كانت مشغولة عند النافذة القائمة ، برفو الجوارب ، وكأنه مستغرق في قراءة الصحيفة التافهة التي لاتروي سوى أنباء العيد الفضي لزواج القنصل فلان... وكانت توني في حجرتها تستريح .

ودخل رئيس المرشدين الى مكتبه وعليه سيماء الرجل الراضي عما تناول من غدائه . وكانت سترته الرسمية مفتوحة فوق صدريته المقبوة البيضاء ، تتباين فيه لحية الملاح الناصعة تباينا شديداً مع وجهه الأحمر ، ويدير لسانه في رضى بين أسنانه ، ويتخذ فمه المستقيم خلال ذلك أوضاعاً مختلفة هنا وهناك . فانحنى انحناءة مقتضبة يعبر بها تعبير من يريد أن يقول : هكذا تكون .

قال : «طاب وقتك . في خدمتك ياسيدي!» .

وانحنى السيد جرينليش من جانبه في تؤده ، وسحب زاويتي فمه قليلاً ، ثمّ قال بصوت خافت : « هـ ـ ئـ ـ هم »

وكان المكتب حجرة صغيرة غشيت تقريباً جدرانها بضع أقدام الى أعلى بالخشب بدا كلسها الذي لم يكن مورقاً . وأمام النافذة التي كان المطر ينقر على زجاجها بلا انقطاع تتدلى ستائر صفراء مدخنة ، وعن يمين الباب منضدة طويلة خشنة مغطاة بالورق ، عليها خريطة كبيرة لأوربا وأخرى صغرى لبحر البلطيق مثبتة على الحائط ، يتدلى من وسط سقف الحجرة نموذجاً جيد الصنع لسفينة منشورة الأشرعة جميعاً .

ودعا رئيس المرشدين ضيفه الى الجلوس على الأريكة المهروشة ، المكسوة بمشمع أسود بال والمقابلة للباب ، وارتاح هو فوق مقعد خشبي ساند ، شابكاً يديه فوق بطنه ، بينما كان السيد جرينليش جالساً في سترته المحكمة الإقفال ، وقبعته على ركبتيه ، على حافة الأريكة بالضبط ، لايلامس سنادة الظهر .

قال : «اسمي كما أعود فأقول جرينليش ، جرينليش من هامبورج ، ولأقدم نفسي اليك اسمح لنفسي بأن أذكر بأني صديق حميم في العمل لتاجر الجملة القنصل بودنبروك» .

«لي الشرف يا سيد جرينليش! ولكن ألا يحب السيد أن يرتاح قليلاً في مجلسه ؟ كأساً من الجروج بعد الرحلة ، إني أنادي من في المطبخ في الحال...» .

فتكلّم السيد جرينليش في هدوء : «أسمح لنفسي بأن ألاحظ أن وقتي محدود ، وأن مركبتي تنتظرني ، وأني مضطر فقط إلى أن أرجوك في محادثة لا تزيد على كلمتين» .

فكرّر السيد شفارتسكوبف : «في خدمتك ياسيدي» وقد أرهبه الزائر قليلاً ، وساد السكون برهة .

وأنشأ السيد جرينليش يقول : «ياسيدي الرئيس»! وهو يهزّ رأسه قليلاً . ثمّ صمت ثانية ليعزّز تأثير خطابه ، وزمّ فمه في ذلك زمة شديدة في تصميم كما لو كان كيس نقود يشد برباط .

وعاود الكلام ، وتكلّم عندئذ في عجلة : «سيدي الرئيس ، إن المسألة التي جئت اليك من أجلها تتعلق رأساً بالسيدة الصغيرة التي تقيم في بيتكم من بضعة أسابيع» .

فسأل السيد شفارتسكوبف : «الآنسة بودنبروك ؟» .

فردّ السيد جرينليش بلا نبرة : «بالتأكيد» وطأطأ في ذلك رأسه وشدّ زاويتي فمه على بعض التغضّنات .

واستطرد في توكيد يميزه تهزيج خفيف : «أراني مضطراً الى أن أفاتحك» وتوثبت عيناه أثناء الكلام في التفات شديد من نقطة في الحجرة الى نقطة أخرى ثم الى النافذة : «بأني من وقت قريب قد طلبت يد الآنسة بودنبروك ، وإني أملك كل الملك موافقة والديها فوق ماخولتني الآنسة نفسها من حق في يدها بصريح العبارة وإن كانت تلك الخطبة لم تعلن بالفعل في كل مظاهرها» .

فسأل السيد شفارتسكوبف في حرارة : «صحيح بالله ؟ إني لم أعلم عن ذلك شيئاً . أهنئك يا سيد... جرينليش ، أهنئك من كل قلبي! لقد بات ملك يمينك شيء طيب! شيء حقيقي!...» .

فقال السيد جرينليش وهو يضغط كلامه في برود : «ممنون جداً»... ثم استطرد يقول بصوت مرتفع كأنه يغني : «على أن الذي جاء بي اليك في هذا الشأن ياسيدي القومندان المحترم هو أنه قد قامت أخيراً في طريق هذه الرابطة عقبات ، وأن هذه العقبات... تنشأ من بيتك...» ونطق الكلمات الأخيرة في توكيد المتسائل الذي يريد أن يقول : «أمن الممكن هذا الذي بلغ مسامعي ؟» .

لم يجد السيد شفارتسكوبف مايجيب به غير أن يرفع حاجبيه الأشيبين يخوضان في جبينه وأن يقبض على ذراعي كرسيه بكلتا يديه ، يدي الملاح السمراوين اللتين يعلوهما الشعر الأشقر .

وتكلّم السيد جرينليش قائلاً شأن الواثق الحزين : «أجل ، حقاً إن هذا ماسمعته . لقد سمعت أن ابنك السيد طالب الطب... سمح لنفسه ـ وهو لايدري بالتأكيد ـ بأن

يتعرض لحقوقي... سمعت أنه انتهز فرصة وجود الآنسة هنا ، فانتزع منها وعوداً بعينها...» .

فصاح رئيس المرشدين وهو يعتمد بشدة على سنادتي الذراعين ويهب ناهضاً : «ماذا ؟ ينبغي في الحال... أن نتبيّن جلية الأمر» .

وفي خطوتين كان عند الباب يغتصبه ويصبح عند الدهليز بصوت كان قميناً أن يطغى على أصخب صوت لتلاطم الموج : «ميتا! مورتن! تعاليا! تعاليا كلاكما!» .

وتكلّم السيد جرينليش وعلى وجهه ابتسامة رقيقة : «إني لخليق أن يؤسفني أشد الأسف ، إذا كنت باستمساكي بحقي الأقدم أعترض خططك الأبوية ياسيدي الرئيس...» .

فالتفت اليه ديدريش شفارتسكوبف وحملق فيه بعينيه الزرقاوين الحادتين اللتين تحوطهما التغضنات الدقيقة ، وكأنه يجهد عبثاً في فهم مايعني بكلماته .

على أنه لم يلبث أن قال بصوت رنّ كأنما يخرج من حلق ألهبته جرعة حامية من شراب الجروج الساخن ولما تكد : «إني رجل بسيط لا أدرك هذه التعبيرات الدقيقة الأريبة... لكنك إذا كنت تعني أني... إذن فلتعلم أنه قد عداك الصواب ياسيدي ، وأنك واهم فيما تفقهه من مبادىء! إني أعلم من هو ابني ، وأعرف من هي الآنسة بودنبروك . وإن عندي ياسيدي من الاحترام لنفسي ومن الكبرياء مايجعلني أترفع عن تدبير مثل هذه الخطط الأبوية!... ألا خبّراني ، ألا أجيباني ماهذا الذي يقال ؟ ماهذا الذي أسمع في حقيقة الأمر ؟...» .

وكانت السيدة شفارتسكوبف وابنها واقفين بالباب ، الأولى خالية الذهن مشغولة بإصلاح وضع مئزرها ومورتن عليه سيماء الخاطىء المصر على خطئه . وقد ظلّ السيد جرينليش عند دخولهما جالساً فلم ينهض لهما بحال ممعناً في جلسته المنتصبة الهادئة على حافة الأريكة وقد أحكم تزرير سترته .

وانتهر رئيس المرشدين ابنه مورتن بقوله : «إذن لقد سلكت مسلك الغلام الغر ؟...» .

وكان الفتى يدس إبهامه بين أزرار جاكتة الصيد التي كان يرتديها متجهّم العينين ، عابساً ، فقد نفخ خديه تحدياً .

قال : «نعم يا أبي ، إن الآنسة بودنبروك وأنا...» .

«كذا! أقول لك أنك معتوه أحمق! غداً ترحل الى جوتنجن! أسمعت ؟ في اليوم التالي! إن الأمر كله عمل صبياني ، عبث أطفال ، انتهينا!» .

فقالت السيدة شفارتسكوبف وهي تعتصر يديها : «ديدريش يا الهي! ليس هذا الأمر

بالذي يحسم على هذه الصورة! من يعلم...» وكفت عن الكلام وقد رأت كيف انهار أمام عينيها أمل جميل .

والتفت قائد المرشدين الى السيد جرينليش وقال له بصوت أجش : «أيريد السيد أن يكلم الآنسة ؟» .

فقالت السيدة شفارتسكوبف متأثرة يداخلها العطف : «إنها نائمة في غرفتها!» .

فقال السيد جرينليش وقد تنفّس الصعداء قليلاً : «متأسف» ونهض وهو يقول : «وأعود فأكرر أن وقتي محدود وأن مركبتي تنتظرني» . ثمّ استطرد وهو يرسم أمام السيد شفارتسكوبف بقبعته حركة من فوق الى تحت فقال : «إني أسمح بنفسي ياسيدي الرئيس بأن أعبّر لك عن أتمّ الرضا والتقدير لمسلك الرجولة والخلق الذي سلكته . إني أحييكم . وقد تشرفت والى اللقاء» .

ولم يمد اليه ديدريش شفارتسكوبف يده بحال ، بل رج جسمه الأعلى الثقيل رجة مقتضبة الى الأمام كمن يريد أن يقول : «هكذا وإلا فلا!»

ومر السيد جرينليش بين مورتن وأمه في خطوة متّزنة الى الباب ثمّ خرج .

الفصل الثاني عشر

وظهر توماس مستقلاً مركبة آل كروجر .وكان اليوم قد حل .

جاء الشاب في العاشرة صباحاً وتناول لقمة صغيرة مع الأسرة في حجرة الاستقبال . اجتمعوا كما اجتمعوا أول مرة لولا أن الصيف كان قد ولى ، وأن الجو كان أبرد ممّا ينبغي لايصلح للجلوس في الشرفة وأن مورتن لم يكن موجوداً... إذ كان في جوتنجن . ويوم رحل لم تودعه توني ولم يودعها الوداع الواجب . فقد وقف رئيس المرشدين عند الرحيل وقال : «كذا ، انتهينا!» .

وفي الحادية عشرة صعد الأخوان الى المركبة التي شدّت الى مؤخرتها حقيبة توني الكبيرة . وكانت شاحبة اللون ترتعد في جاكتتها الخريفية الناعمة من البرد ، والتعب ، وترقب السفر ، والأسى الذي كان يطغى عليها فجأة بين الحين والحين ويشيع في صدرها شعوراً مقبضاً بالألم . وقد قبلت ميتا الصغيرة ، وضغطت يد ربة البيت وهزّت للسيد شفارتسكوبف رأسها لمّا قال : «لاتنسينا ياآنسة . فلم نقصد سوءاً ، أليس كذلك ؟» .

«هكذا ، وسفراً سعيداً! والى السيد أبيك والسيدة القنصلة أطيب التحيات...» ثمّ اصطفق باب المركبة في قفله وجرها الجوادان البنّيان السمينان ، ولوّح آل شفارتسكوبف الثلاثة بالمناديل...

وضغطت توني رأسها في ركن المركبة ونظرت من النافذة الى الخارج . وكانت السماء ملبّدة بالغيوم ، ونهر ترافيه يدرج موجات صغيرة تسبق الريح ، وبين الحين والحين تنقر قطرات صغيرة فوق زجاج النافذة . وكان على مخرج الصف الأمامي أناس يجلسون أمام أبواب بيوتهم يرتقون الشباك ، وبعض الأطفال الحفاة يعدون قادمين يتأملون المركبة في فضول . وقد بقي هؤلاء هناك .

ولما استدبرت المركبة آخر البيوت انحنت توني الى الأمام لترى المنارة كرّة أخرى ثمّ ارتدّت ثانية الى الوراء تسند ظهرها وتغمض عينيها المتعبتين الحساستين . ولم تكن قد نامت الليل من الانفعال فنهضت مبكرة لتعد حقيبتها ، ولم تجد ميلاً الى الإفطار ، وكان طعم فمها تافهاً ، واحساسها بالهبوط قد بلغ منه أنها لم تحاول أن تكبح دمعها الذي كانت تغرورق به عيناها كل لحظة بطيئاً حاراً .

ولم تكد تغمض جفونها حتى كانت ثانية بالشرفة الى ترافيمنده تتمثل مورتن شفارتسكوبف بلحمه ودمه أمامها يتحدث اليها وينحني الى الأمام على طريقته ، ويتصور آخر هنا وههنا فينظر اليه فاحصاً دمثاً ، ويكشف عن أسنانه فيما يرى... فهدأت كل الهدوء ، وتهلّل وجهها ، واستذكرت كل شيء سمعته وعلمته منه في أحاديث كثيرة فاستشعرت الرضا المسعد من أنها تريد أن تحتفظ بكل هذا في نفسها كشيء مقدس ، شيء لايمسّ ، أما أن ملك بروسيا قد اقترف ظلماً فادحاً ، وأن صحف المدن وريقات أسيفة ، بل أن قوانين الاتحاد الألماني عن الجامعات جددت من أربع سنوات مضت ، إن هذا كله سيبقى من الآن فصاعداً بالنسبة لها حقائق محترمة معزية ، كنزاً سرياً يسعها أن تتأمله كلما راقها أن تتأمله . ستفكر فيه وهي في الشارع وبين أسرتها وعلى الأكل... من يعلم ؟ فقد تسلك الطريق المرسوم لها وتتزوج السيد جرينليش ، وهذا عندها أمر غير ذي بال . لكن إذا تحدث اليها فسوف يكون تفكيرها فجأة أن النبلاء هم من حيث المبدأ قوم خليقون بالإزدراء .

وابتسمت راضية ، لكنها على حين بغتة تبيّنت في صورة العجلات لغة مورتن واضحة تماماً . حية بصورة لاتصدق ، فجعلت تميّز كل لفظ يحمله صوته المقرقر الطيب في شيء من البطء ، وتسمع بأذنها الحقيقية كيف كان يقول : «اليوم يجب أن يجلس كلانا على الصخر يا آنسة توني .» وكانت هذه الذكرى الصغيرة تطغى عليها فانقبض صدرها من الأسى والألم ، وفاض دمعها من دون أن تحاول كبحه . وانضغطت في ركنها تمسك بمنديلها بكلتا يديها أمام وجهها وتبكي بكاءً مراً .

فنظر توماس في شيء من الحيرة خارجاً الى الطريق وسيجارته في يده . وقال أخيراً وهو يمسح بيده على جاكتته : «مسكينة ياتوني! إني متألم لك من كل قلبي... إني أفهمك جيداً ، أترين ؟لكن مع العمل ؟ إن مثل هذا يجب أن يجتاز... صدقيني... إني أعرفه أيضاً» .

فقالت توني وهي تنتحب : «آه!... إنك لاتعرف شيئاً ياتوم!» .

قال : «لاتقولي هذا ، فالآن على سبيل المثال قد ثبت أني ذاهب الى أمستردام في

بداية العام القادم ، إذ حصل لي ابي على وظيفة لدى فان دركلين وشركائه... ولابد لي هنا من افتراق يدوم طويلاً ، طويلاً جداً » .

« أخ ، ياتوم! افتراق عن الوالدين والأخوة! هذا ليس بشيء! » .

فقال : « أجل - » وهو يمطها مطاً ، وتنفّس الصعداء كمن يريد أن يقول شيئاً آخر ثمّ يسكت عنه . ورفع أحد حاجبيه وهو ينقل سيجارته من زاوية فمه الى الزاوية الأخرى ، وحوّل رأسه جانباً .

ثمّ عاود الحديث بعد برهة قائلاً : « ولن يدوم هذا طويلاً . فهذا مايحدث ثمّ ينسى... » .

فصاحت توني وقد تملّكها اليأس : « لكن لاأريد بالذات أن أنسى... أنسى ؟... أهذا إذن عزاء ؟! » .

الفصل الثالث عشر

وجاءت المعدية ، وجاء طريق اسرائيلدروف وجبل أورشليم وحقل القصر ، واجتازت المركبة بوابة القصر التي تعلو عن يمينها جدران السجن ، ثمّ درجت على امتداد شارع القصر وعبر كوبرج . فتأملت توني بيوت الجمالون الغبراء ، ومصابيح الغاز المعلقة فوق الشارع ، ومستشفى روح القدس وأمامه شجر الزيزفون الذي كاد أن يتعرى من ورقه... ياإلهي ، لقد لبث كل شيء كما كان . كما لو كان حلماً عفا عليه الزمن ، خليقاً بالنسيان! إن هذه الجمالونات الغبراء كانت ماتقادم عليه العهد وألفه الناس وتوارثوه ، وما يستقبلها من جديد وماينبغي أن تعود الى العيش فيه . لقد كادت أغنية الوداع تخفت بهذه الطرقات وهذه الوجوه البادية فيها ، المعروفة من قديم . في هذه اللحظة ـ وكانت المركبة تخترق الشارع العريض ـ مرّ بها الحمال ماتهيرن فرفع قبعته العالية الخشنة وخفضها خفضاً شديداً كأنما يقول لنفسه بوجه الأجير المشاغب : «من المؤكد أنني من الأوغاد...» .

وعرجت المركبة على شارع منج ، ووقف الجوادان البنّيان السمينان يلهثان أمام بيت بودنبروك . وعنى توم بأخته يعاونها على الترجل بينما هرع أنطون ولينا اليهما ليفكا الحقيبة ولكنه كان لابدّ من الإنتظار قبل الوصول الى البيت ، إذ كان ثلاث من مركبات النقل الضخمة يخرج بعضها في إثر بعض من باب البيت ، وقد علت شحنتها من أعدال الغلال التي كانت تحمل اسم بيت «يوهان بودنبروك» التجاري بأحرف عريضة سوداء ، وكانت المركبات الثلاث تترنح بأصواتها المتثاقلة المتجاوبة وهي تهبط الى الفناء عبر الرحبة والدرجات المسطحة . وكان مقرّراً أن يفرّغ جانب من حمولة الغلال في الدار الخلفية ويتحول الباقي الى مخزن «الحوت» أو«الأسد» أو«السنديانة»...

وخرج القنصل والقلم خلف أذنه من المكتب لما وطىء الأخوان الرحبة وبسط ذراعيه لإبنته .

«مرحباً بك في بيتك ياعزيزتي توني!» .

فقبلته ونظرت إليه بعينين كانتا ماتزالان مقرّحتين من البكاء يُقْرَؤُ فيهما شيء كأنه الخجل ، لكنها لم تجده غاضباً ولم يذكر كلمة بل قال فحسب : «إن الوقت متأخر ، لكننا انتظرنا بالإفطار الثاني» .

وكانت القنصلة وكريستين وكلوتيده وكلارا وايدا ويونجمان واقفين على بسطة السلم مجتمعين هناك للتحية...

* * *

ونامت توني في الليلة الأولى في شارع منج نوماً عميقاً هانئاً ، ونزلت في صباح اليوم التالي الثاني والعشرين من سبتمبر الى حجرة الإفطار منتعشة هادئة . وكان الوقت لايزال باكراً جداً ، لاتكاد الساعة تبلغ السابعة . فليس سوى الآنسة يونجمان تعد قهوة الصباح .

فقالت : «مرحى! مرحى! ياتوني ، ياطفلتي!» وتلفّتت حولها بعينين صغيرتين ناعستين ، عسليتين ، مستطردة : «بهذه الدقة في المواعيد ؟» .

وجلست توني الى المكتب الذي كان مرفوع الغطاء : وشبكت يديها وراء رأسها ثمّ أجالت بصرها برهة في بلاط الفناء الذي كان يلمع من البلل في لون أسود ثمّ الى الحديقة المصفرة الرطبة . ثمّ أخذت تنبش مستطلعة في بطاقات الزيارة والرسائل الموجودة فوق المكتب...

وكان يلاصق الدواة تلك الكراسة الكبيرة المعروفة ذات الجلدة المضغوطة والرسم الذهبي والورق المختلف . ولا بد أنها كانت تستعمل مساء أمس . وعجيب أن أباها لم يضعها في المؤخرة كمألوف عادته .

وقد تناولتها وتصفحتها وجعلت تقرأ فيها وتتعمق في القراءة . وكان ماقرأته أشياء بسيطة في الغالب معروفة لها . لكن كلاً من الكتابيين قد تلقى عن سلفه طريقة جدية في المحاضرة لاغلو فيها وأسلوباً في تدوين اليوميات يميل الى التلميح بصورة غير مقصودة تمليها السليقة وتنطق بالإحترام المكنون الذي تكنه الأسرة لنفسها وللتقاليد وللتاريخ ، وهم من ثم أكثر انطواء على التوقير . ولم يكن هذا بالنسبة لتوني بالشيء الجديد ، فقد كان

يجوز لها أحياناً الاشتغال بهذه الصفحات . بيد أنه لم يكن لمضمون هذه الأوراق في نفسها في يوم ما ماكان له في هذا الصباح من وقع . فقد أثّر فيها الجد والتبجيل اللذان كان يعالج بهما هنا أيضاً أتفه ماتضمّن تاريخ الأسرة من أحداث . وقد اعتمدت مرفقيها وجعلت تقرأ في تفانٍ متزايد وفخر وجد .

كذلك ماضيها الخاص الوجيز لم تنقصه نقطة من النقط : ميلادها والأمراض التي انتابتها في طفولتها وأول ذهاب لها الى المدرسة ، ودخولها مثوى الآنسة فيشبروت وتثبيتها...

لقد كان كل من هذا مسجلاً بعناية بخط القنصل الدقيق الفياض الذي يلتزمه التجار ، وبالإحترام الذي يكاد يكون خشوعاً دينياً أمام الوقائع . أفليس أضأل واقعة فيها من عمل الله وإرادته التي تصرف مصائر الأسرة هذا التصريف العجيب ؟... . وماذا عساه يكتب تحت اسمها في المستقبل وقد تلقته من جدتها انطوانيت ؟ وسيقرأ كل شيء من يجيء من أعضاء الأسرة فيما بعد بنفس التقوى التي تابعت بها هي ماسبق من حوادث .

واستندت الى الخلف وهي تتنفس الصعداء ، ودق قلبها رهبة وأفعمتها الهيبة التي تحسها لنفسها ، وداخلها ماعرفته من شعور بأهميتها ، وعزّز هذا الشعور روح استسلمت من هنيهة لتأثيره وسرى فيها كما تسري الرعدة . لقد كتب أبوها كحلقة في سلسلة وكانت هي... أي نعم... كانت بالذات مطالبة كحلقة في سلسلة ذات شأن رفيع قوية الشعور بالتبعة ، بأن تعاون على كتابة تاريخ أسرتها بالفعل والعزيمة .

وجعلت تتصفح الكراسة الكبيرة حتى أوفت على النهاية حيث سجل على قرطاس خشن من الفولسكاب نسب آل بودنبروك كاملاً ملخصاً بيد القنصل في تواريخ واضحة مزودة بالأقواس والحواشي : ابتداء من زوج أول ابن للأسرة من ابنة الواعظ المدعوة بريجيت شورين الى زواج القنصل يوهان بودنبروك من اليصابات كروجر في عام ١٨٢٥ .وقد جاء في الكراسة : وأنجب هذا القران أربعة أطفال... ثمّ تلت الأسماء الأولى بعضها تحت بعض ، مقرونة بتواريخ الميلاد وأيامه... وكان قد دوّن بالفعل تحت اسم الابن أنه في عيد فصح سنة ١٨٤٢ دخل في تجارة آبائه « صبياً » .

وأطالت توني النظر الى اسمها والى الموضع الخالي تحته . وبغتة ارتجت ، وانتابت محياها حركات عصبية نشطة ـ وبلعت ريقها وتحركت شفتاها لحظة حركات سريعة وهما مطبقتان ثمّ اختطفت القلم ولم تغمسه بل رشقته في المحبرة وكتبت بسبابة منحنية ورأس

حام مائل على كتفيها ، وبخطها العصي الصاعد من الشمال الى اليمين في انحراف :
« ......خطبت في الثامن والعشرين من سبتمبر ١٨٤٥ الى السيد بندكس جرينليش التاجر بهامبورج » .

الفصل الرابع عشر

« إني من رأيك تماماً ياصديقي العزيز : إن هذه المسألة ذات أهمية ويجب إنجازها . فلنوجز : إن البائنة النقدية التقليدية لفتاة شابة من أسرتنا تبلغ ۷۰,۰۰۰ مارك » .

فألقى السيد جرينليش على حميه المقبل نظرة تاجر ـ نظرة وجيزة فاحصة من الجنب وقال : « حقاً » . وكانت هذه الكلمة « حقا » في طول الفرد الأيسر من لحيته العارضية الصفراء كالنضار بالضبط ، وكان يعبث بها بأصابعه في اتزان ، فلمّا انتهى من نطق « حقاً » أفلت عثنونه .

واستطرد يقول : « إنك تعرف ياأبي المحترم ما أحسه للتقاليد والمبادىء المحترمة من توقير! لكن... ألا تدل هذه المراعاة الجميلة في مثل هذه الحالة القائمة على غلو ؟... أن عملاً يتسع... وأسرة تزدهر...بالإيجاز ، إن الشروط تصبح غير الشروط وخيراً منها » .

فتكلم القنصل : « ياصديقي العزيز ، إنك ترى فيّ تاجراً مطبوعاً! يا إلهي... إنك لم تدعني أتمّ كلامي ، وإلا لعلمت أني راغب ومستعد لأن أتساهل معك وفقاً للظروف ، وأن أضيف الى السبعين ألفاً عشرة آلاف مرة واحدة » .

فقال السيد جرينليش : « إذن ۸۰,۰۰۰... » وأتى عندئذ بحركة من فمه كمن يريد أن يقول : « ليس أكثرمما ينبغي ولكنه كاف » .

واتّفقا على أسمح وجه ، وخشخشت ربطة مفاتيح القنصل الكبيرة الموجودة في جيب سرواله وهو ينهض علامة الرضا . فقد بلغ بالثمانين ألفاً مقدار البائنة التقليدية على حرف .

وهنا سلّم السيد جرينليش وسافر الى هامبورج ولم تدرك توني كثيراً وضعها الجديد في الحياة . لم يمنعها أحد من الرقص عند آل مولندروف ولانجهالز وكستنماكر وفي بيتها هي ، ولا أن تتزحلق في ساحة القصر ومراعي ترافيه وتتلقى احترامات الشبان... وفي أواسط

أكتوبر أتيحت لها فرصة حضور حفلة عند آل مولندروف لإعلان خطبة ابنهم الأكبر وجوليا هاجنشتروم . وقالت تخاطب أخاها : «توم ، إني لاأريد الذهاب . إن هذا مما يثير غضبي!» لكنها ذهبت مع ذلك وتسلّت على خير وجه .

هذا وقد بات لها بالكلمة التي أضافتها الى تاريخ الأسرة أن تغشى مع القنصلة أو وحدها جميع الحوانيت وأن تعنى بجهازها الذي يجب أن يكون وجيهاً .

وقد جلست خياطتان أياماً في حجرة الإفطار تكففان وتطرّزان الأسماء وتأكلان الكثير من خبز الريف بالجبن الأخضر...

وتسأل أمها : «أجاء التيل من لينتفور ياأماه ؟» .

«لا يا ابنتي ، ولكن ها هي ذي دستتين من فوط الشاي» .

«جميل ـ ولكنه وعد بأن يرسلها حتى عصر اليوم . ولابدّ للمفارش من حواش!» .

«إنها الآنسة بيترلش تسأل عن الدانتيللا للحشايا يا ايدا» .

«إنها في خزانة البياضات في الردهة على اليمين ياتوني ، يا ابنتي» .

«لينا ـ!» .

«ألا تستطيعين أن تتحركي مرة بنفسك باعزيزتي!» .

«يا إلهي ، هل تزوجت لأصعد الدرج وأهبط بنفسي!» .

«هل فكرت يا توني في ثوب الزفاف ؟» .

«موريه أنتيك يا ماما! ...... لا أزف بدون موريه أنتيك!» .

وهكذا مرّ أكتوبر ونوفمبر ، فلمّا كان عيد الميلاد ظهر السيد جرينليش ليقضي ليلة العيد بين أسرة بودنبروك . كذلك لم يرفض الدعوة الى الاحتفال عند كروجر الشيخ . وكان سلوكه نحو عروسه يحدوه شعور رقيق كان من حق العروس أن يظهره . ولم يكن ثم رسميات لاضرورة لها! ولا موانع اجتماعية ، ولامظاهر حنو خالية من الكياسة! وقد ختمت الخطبة بقبلة متزنة في حضرة الوالدين نفثت على الجبين نفثاً . وكانت توني تتعجب أحياناً قليلاً من أن هناءه آنئذ يكاد لايطابق ذلك اليأس الذي كان يظهره أيام أن كانت تصده . بل لقد كان فحسب يتأملها بسيماء مرحة هي سيماء من يملك من يتأمله... وهنا وهناك بطبيعة الحال يمكن أن تتملكه نفسية منبسطة مباسطة إذا ما اتّفق أن كان معها وحده ، وأن يحاول جذبها لإجلاسها على ركبتيه ليدني فرداً من لحيته العارضية من وجهها ، وليسألها بصوت يهتزّ سروراً : «ألم تبيتي ملكي ؟ ألم أستحوذ عليك ؟...» فترد توني : «رباه ، إنك تنسى نفسك!» ثمّ تفلت منه في لباقة .

وسرعان ماعاد السيد جرينليش الى هامبورج عقب عيد الميلاد ، ذلك أن تجارته النشيطة كانت تتطلب حتماً وجوده شخصياً . وقد أقره آل بودنبروك صامتين على أن توني قد أتيح لها قبل الخطبة الوقت الكافي للتعرف به .

وقد سوّيت مسألة السكن كتابة ، فإن توني التي كان يسرها كل السرور أن تعيش في مدينة كبرى ، أعربت عن رغبتها في الإقامة في قلب هامبورج حيث مكاتب السيد جرينليش أيضاً وفي شارع المستشفيات . بيد أن العريس توصل بإلحاح ينبعث عن رجولة الى تفويضه في شراء فيلا بقرب ايمز بيتل خارج المدينة في موضع رومانتيكي بعيد عن الناس ، تصلح أن تكون عشاً شعرياً لزوجين شابين .* Pocul Negotus

كلا إنه لم يكن نسي لاتينييه كل النسيان!

وانقضى شهر ديسمبر . وفي بداية عام ١٨٤٦ أقيمت حفلة الزفاف ، فأحيوا مساء صاخباً وحفلة فخمة ، حضرها نصف المدينة . ورقصت صاحبات توني . وفي جملتهن أرمجارد فون شيلينج التي جاءت الى المدينة في مركبة عالية - مع أصدقاء توم وكريستيان - ومن بينهم أندرياس جيزيكه ابن قائد المطافيء وطالب الحقوق ، وكذلك ستيفان وأدوارد كستنماكر من شركة كستنماكر وابنه - في قاعة الأكل ، وفي الدهليز الذي كان مرشوشاً لهذا الغرض بمسحوق التالك . وقد تكفل القنصل بيتر دولمان بالصخب قبل كل إنسان ، فكان يحطم على بلاط الرحبة الكبرى كل ما أمكنه الحصول عليه من قدور الفخار .

وقد عرضت لمدام شتوت القاطنة في شارع صناع النواقيس الفرصة كرّة أخرى للإختلاط بالطبقة الراقية ، إذ عاونت الآنسة يونجمان والخياطة في تزيين توني في ليلة الزفاف . قالت : وليعاقبها الله إن كانت تكذب ، إنها لم ترَ عروساً أجمل من توني . وجثت على ركبتها ، على مابها من بدانة ، وثبتت فروع الآس على الموريه أنتيك الأبيض رافعة عينيها في إعجاب... حدث هذا في حجرة الإفطار . وكان السيد جرينليش ينتظر أمام الباب في فراك طويل وصدرية حريرية ، وعلى وجهه الوردي تعبير ينطق بالجد والإستقامة . وقد لوحظ على الثؤلول النابت على منخره الأيسر شيء من المسحوق وكانت لحيته العارضية مسرّحة بعناية .

وهناك في بهو الأعمدة حيث اتّفق أن يتم الزفاف اجتمعت الأسرة - وكانت جماعة ممتازة! فقد جلس الزوجان كروجر المسنّان يبدو عليهما شيء من الكآبة ، لكنهما كانا

---

* بعيداً عن الأعمال التجارية

ظاهرة بارزة كما هو شأنهما على الدوام . وكان هناك القنصل كروجر وزوجه مع ولديهما يورجن ويعقوب ، وقد جاء الأخير مثل الأقارب دوشان من هامبورج . وجاء جوتهولد بودنبروك وزوجه التي من أسرة شتيونج ومعهما فريدريكه وهنرييت وفيفي اللواتي زهد ثلاثتهن في الزواج بعد الآن . وإن كان الفرع الميكلنبورجي من الأسرة ممثلاً بأبي كلوتيده السيد برنارد بودنبروك الذي جاء من أونجناديه فراعه ما رأى من مظاهر السيادة في بيت قريبه الثري . أما القاطنون من الأسرة في فرانكفورت فقد اجتزأوا بإرسال الهدايا ، ذلك أن السفر كان كثير التكاليف... لكنه كان بدلاً منهم إثنان بوصفهما الغريبين الوحيدين عن الأسرة ، وهما الدكتور جرابو طبيب الأسرة الخاص ، والآنسة فيشبروت التي كانت تحمل فوق خصلها الجانبية قلنسية قلنسية ذات أشرطة جديدة خضراء ، وترتدي ثوباً أسود . قالت لما ظهرت توني في بهو الأعمدة الى جانب السيد جرينليش : «أتمنى لك السعادة ياطفلتي!» وشبت وقبّلتها على جبينها قبلة قرقعت طويلاً . لقد كانت الأسرة راضية عن العروس ، فقد كانت توني تبدو حسناء ، رابطة الجأش ، مرحة ، وإن كانت شاحبة بعض الشيء من أثر الترقب والإنفعال الذي يسبق السفر .

كان بهو الأعمدة مزداناً بالأزهار وكان هيكل مقاماً على الجانب الأيمن فقام القس كولنج راعي كنيسة القديسة مريم بمراسيم الزواج وحثّ على الاعتدال خاصة بكلمات قوية . وتمّ كل شيء وفقاً للنظام والعرف فنطقت توني «بنعم» بسيطة رضية ، بينما تنحنح السيد جرينليش مقدماً «ليسلك» حنجرته ، وتلا ذلك أكل شهي كثير بصورة غير عادية . وبينما الضيوف والقسيس في وسطهم يواصلون الأكل هناك في القاعة ، صاحب القنصل وزوجته الزوجين الفتيين اللذين كانا قد استعدا للسفر ، الى الخارج ، في الهواء المثلوج الذي كان يتخلل الضباب الأبيض . وكانت مركبة السفر الكبيرة تنتظر أمام باب البيت محملة بالحقائب والأكياس .

وصعدت توني الى المركبة ، وتركت أمها تدثرها بغطاء الفراء الدافىء في عناية بعد أن أعربت مراراً عن يقينها بأنها ستعود عمّا قريب الى البيت للزيارة ، وأنها تنتظر ألا تتأخر زيارة والديها لها في هامبورج طويلاً . وكذلك اتّخذ زوجها في المركبة مجلسة .

وقال القنصل : «...جرينليش ، الدنتيللا الجديدة موضوعة في حقيبة اليد الصغرى فوق ، فضعها قبل الوصول الى هامبورج بقليل تحت المعطف ، أليس كذلك ، إن ضريبة الاستهلاك... يجب التفادي منها ماأمكن . وداعا! وداعاً مرة أخرى ياتوني! والله معك!» .

وسألت القنصلة : «ستجدان في آرينزبورج مقاماً طيباً بالتأكيد...»

فأجاب السيد جرينليش : «أوصينا ياعزيزتي ماما ، أوصينا على كل شيء!» .

وودع مدام جرينليش كل من أنطون ولينا وترينا وصوفي .

وكان باب المركبة يوشك أن يقفل عندما أتت توني بحركة مفاجئة . فإنها على الرغم من الظروف التي سبب هذه الحركة ، أزاحت غطاء السفور عنها ، وترجلت من المركبة من فوق ركبتي السيد جرينليش غير واعية ، وعانقت أباها بحرارة فأخذ جرينليش يضيق بذلك .

«وداعاً ياأبي... ياأبي الطيب!» ثم همست في خفوت تام : «أراضٍ أنت عني ؟»

فاحتضنها القنصل لحظة من دون أن ينبس ببنت شفة ، ثمّ دفعها برفق ، وهزّ يدها في حرارة .

وبات كل شيء معد للرحيل فأقفل باب المركبة وقرقع سوط السائق ، وهمت الخيل حتى ارتجت ألواح الزجاج ، وجعلت القنصلة تلوّح بمنديلها الباتستا في الهواء حتى توارت المركبة التي كانت تهبط الشارع مقرقرة ، في ضباب الثلج .

كان القنصل واقفاً نهباً للأفكار الى جانب زوجته التي أحكمت وضع كاب الفراء بحركة رشيقة فوق كتفيها .

«لقد رحلت يابتسي» .

«أجل ياجان ، أول شيء يتركنا» . «أتعتقد أنها سعيدة معه ؟» ـ .

«آه يابتسي ، إنها راضية عن نفسها ، وهذا أعظم هناء يمكن أن نطمع فيه في هذه الدنيا» ،

وعادا الى ضيوفهما .

الفصل الخامس عشر

وهبط توماس بودنبروك شارع منج الى فينفهاوزن ، وتحاشى أن يلف عالياً الشارع العريض حتى لايضطر الى حمل قبعته دائماً في يده من أجل معارفه الكثيرين . وسار ويداه في جيبي معطفه الدافىء الرمادي الداكن ، فوق الثلج المتجمد الذي كان يلمع كالبلور وتحت حذائه وهو يراجع نفسه تقريباً...

كان يسير في طريقه الذي لم يعرف أحد عنه شيئاً... وكانت السماء تضيء نيرة زرقاء باردة ، وكان الهواء منعشاً حاداً عبقاً ، والجو ساكناً قارصاً رائقاً نقياً تبلغ درجة جليده الخمس ، واليوم من أيام فبراير عديم المثال .

وخطا توماس نحو فينفهاوزن هابطاً فاجتاز «حفرة الخبازين» ووصل من شارع قاطع ضيق الى «حفرة السماكين» وتابع هذا الشارع الذي كان ينحدر مع شارع منج في نفس الاتجاه الى نهر ترافيه ـ تابعه بضع خطوات مجانباً حتى وقف أمام بيت صغير ودكان أزهار متواضع جداً ، باب ضيق وواجهته حقيرة قامت فيها بضعة أصص تحوى أبصالاً نابتة يقوم بعضها الى جانب بعض على لوح أخضر من الزجاج .

فدخل ، فجعل جرس من الصفيح مركب فوق الباب يرن كما لو كان كلب يقظ ينبح بالداخل . وكانت بداخل الحانوت سيدة قصيرة بدينة مسنة عليها لفاعة تقف أمام الخوان تتحدث الى الفتاة البائعة وتتخير بين بضعة من أصص الأزهار تفحصها وتشمها وتساوم وتثرثر ، تمسح فمها على الدوام بمنديل جيبها . فحياها توماس بأدب وانتحى جانباً... وكانت قريبة لآل لانجهالز رقيقة الحال ، وعانساً ثرثارة رضية الخلق تحمل اسم أسرة من المجتمع الراقي من دون أن تنتسب الى هذا المجتمع ، لاتدعى الى مآدب أو مراقص كبرى ولكن الى دوائر صغيرة لتناول قدح من القهوة ، ويسميها الجميع فيما خلا القليل «العمة

لوتشن » . وتحولت الى الباب تتأبط أصيصاً ملفوفاً في ورق حريري ، وقال توماس بعد أن حيّا من جديد ـ قال لفتاة الحانوت بصوت مرتفع : « أعطني بضع وردات من فضلك... أجل أياً كانت . « لافرانس » .

فلمّا أقفلت العمة لوتشن الباب خلفها وتوارت عن الأنظار قال بصوت أكثر انخفاضاً : « كذا . أعيدي ماأحضرته يا آن... طاب يومك يا آن الصغيرة! أجل ، إني أجيئك اليوم حزيناً حقاً » .

وكانت آن تضع مئزراً أبيض فوق ثوبها الأسود البسيط . كانت رائعة الحسن ، رقيقة كالغزال ، لها وجه بنات الملايو تقريباً ، ووجنتان بارزتان هوناً ما ، وعينان سوداوان ضيقتان يغمرها لمعان ناعم ، وبشرة تميل الى الصفرة لاتلمع ولايوجد لها شبه في مكان ما قريب أو بعيد . وكانت يداها بنفس اللون « المطفىء » ، رفيعتين جميلتين جمالاً غير مألوف في بنات تعمل في حانوت .

وخطت خلف الخوان الى الطرف الأيمن من الدكان الصغير حيث تتعذّر الرؤية من واجهة المحل فتبعها توماس الى ذلك الجانب من الخوان وانحنى فوقه وقبلها من شفتيها وعينيها .

فقالت : « إنك مقرور تماماً أيها المسكين! » .

قال توم : « الدرجة الخامسة! إني لم ألحظ شيئاً ، بل جئت مكروباً تقريباً الى هنا » .

وجلس على خوان الدكان ، وأبقى يدها في يده واستطرد يقول : « أجل يا آن ، أتسمعين ؟ اليوم يجب أن نكون عقلاء . فقد وصلنا الى هذا الحد » .

قالت وفي صوتها نبرة الشكوى : « ياإلهي...! » ورفعت مئزرها والخوف والحزن مستوليان عليها...

« كان لابدّ أن ننتهي الى هذا يا آن... فهلاّ كففت عن البكاء! نحن نريد في الحق أن نكون عقلاء ، أليس كذلك ؟ فهل مايمكن عمله ؟ مثل هذا لابدّ له من نهاية » .

وسألت آن وهي تنتحب : « ومتى ؟ » .

« بعد غد » .

« آه ياربي... ولماذا بعد غد ؟ أسبوعاً آخر أرجوك... خمسة أيام!... » .

« غير ممكن ياعزيزتي آن الصغيرة . كل شيء مقرّر منظم... إنهم ينتظرونني في أمستردام... إني لا أستطيع أن أزيد يوماً واحداً وإن كنت أتمنى أن أفعل! » .

« وهذه بعيدة بشكل مخيف...! » .

«أمستردام ؟ ماذا تقولين ؟ كلا ، كلا . ثم أننا نستطيع أن يفكر كلانا في الآخر دوماً ، أليس كذلك ؟ ثمّ أني سأكتب! ألقي بالك ، سأكتب بمجرد ما أصل الى هناك...» .

قالت :«أما تزال تذكر... قبل سنة ونصف سنة ؟ في احتفال الرماة ؟» .

فقاطعها مغتبطاً...

«حقاً ، سنة ونصف!... كنت أظنك إيطالية... لقد اشتريت منك قرنفلة ، ودسستها في العروة... ولأزال أحتفظ بها... سآخذها معي الى أمستردام... ياله من غبار وياله من حر ذلك الذي كان سائداً في المرج!...»

«نعم ، جئت لي بقدح من شراب الليمون من المحل المجاور... إني لأذكر هذا كأنه وقع اليوم! كان كل شيء تفوح منه رائحة الخبيز بالدهن والناس...» .

«لكنه ما أجمل ماكان في الحق! ألم يتبيّن كلانا في عين الآخر في الحال ماكان من أمرنا ؟» .

«وأردت أن تركب معي الدوارة...ولكني لم يمكني ذلك ، لأنه كان عليّ أن أبيع! ولكانت السيدة خليقة أن تنتقد...» .

«كلا ، لم يمكن يا آن . وقد رأيت هذا تماماً» .

فقالت بصوت منخفض : «وقد كان هذا هو الشيء الوحيد الذي أبيته عليك» .

فقبلها من جديد على شفتيها وبين عينيها .

«وداعاً ياحبيبتي آن الصغيرة الطيبة!... أجل يجب أن نشرع في أن نقول : وداعاً!» .

«آه ، إنك آت غداً على التحقيق كرّة أخرى ؟» .

«نعم بالتأكيد في مثل هذا الوقت . وفي صباح بعد غد أيضاً إذا استطعت أن أفلت .. بيد أني أريد أن أقول لك شيئاً يا آن...إني راحل إلى مكان بعيد شيئاً ما ، الى أمستردام . وهو مكان بعيد على كل حال... وستتخلفين أنت هنا . فإياك وارتكاب مايحط! أتسمعين يا آن... ذلك أنك لم ترتكبي حتى الآن مايشينك . هذا ماأقوله لك» .

وبكت في مئزرها وقد سترت به وجهها .

قالت :«وأنت ؟... أنت ؟...» .

قال : «الله أعلم يا آن كيف تسير الأمور! إن المرء لايظل دائماً شاباً... وأنت فتاة عاقلة ، لم تذكري يوماً كلمة عن زواج أو ماشاكل ذلك...» .

«كلا ، حاشا لله!... أن أطلب منك هذا...» .

«قد يحمل المرء ، أترين...إذا كنت في قيد الحياة فسأتولى أعمالنا وسأتّخذ زوجة...

نعم إني صريح معك وأنا أودعك... وكذلك أنت... وسيجري الأمر هذا المجرى... فأتمنى لك الهناء كل الهناء ياحبيبتي آن الصغيرة الطيبة . ولكن إياك وارتكاب مايحط ، أتسمعين ؟ ذلك إنك لم ترتكبي حتى الآن مايشينك ، وهذا ماأقوله لك...! » .

وكان المكان في الداخل دافئاً . وكانت رائحة رطبة تفوح من التربة ومن الأزهار في الحانوت الصغير . وفي الخارج كانت شمس الشتاء تتهيأ للغروب . وكانت حمرة الشفق الرقيقة النقية الشاحبة كأنها مرسومة على بورسلين تزين السماء في الجانب الآخر من النهر . وكان الناس يمرون سراعاً بنافذة العرض وأذقانهم مختفية فيما رفعوا من بنيقات معاطفهم ، فلم يروا شيئاً من الاثنين اللذين كان يودع كلاهما الآخر في ركن دكان الأزهار الصغير .

الجزء الرابع

الفصل الأول

في الثلاثين من أبريل ١٨٤٦

عزيزتي ماما

ألف شكر على رسالتك التي أبلغتني فيها نبأ خطبة أرمجارد فون شيلنج الى السيد فون مايبوم في بوبنراده . وقد أرسلت الى أرمجارد نفسها إعلاناً بالمثل (وجيهاً جداً وبحافة مذهبة) ومعه خطاب منها ، تتحدث فيه عن عريسها في أشد غبطة وتقول عنه أنه آية في الجمال وأنه وجيه فما أسعدها! إن الكل يتزوجون . فكذلك في ميونيخ تلقيت إعلاناً من إيفا ايفرز ، فستتزوج مدير مصنع للبيرة .

لكني أريد أن أسألك الآن شيئاً يا أمي العزيزة . لماذا لم يأت الى الآن نبأ عن زيارة للقنصل والقنصلة بودنبروك الى هذا المكان! لعلكما تنتظران دعوة رسمية من جرينليش ؟ ومابكما حاجة الى ذلك ، فإنه لايفكر في هذا إطلاقاً فيما أعتقد ، فإن ذكرته قال : «نعم ، نعم ، ياطفلتي ، إن لأبيك مايعمله غير ذلك» . أو لعلكما تعتقدان أنكما تزعجانني ؟ كلا إطلاقاً! أو ربّما تظنّنان أنكما تثيران حنيني الى الوطن ؟ يا ربّاه ، إني امرأة عاقلة ، أقف في غمار الحياة وقد نضجت .

كنت من هنيهة أتناول القهوة عند مدام كيزيلاو الساكنة على مقربة . وهم أناس لطاف ، وكذلك جيراننا الذين الى اليسار ، آل جوسمان ، قوم يحبون الاختلاط وإن كان بيتانا يقعان متباعدين تقريباً . ولنا صديقان طيبان يسكنان هنا بالمثل خارجاً : الدكتور كلاسن (وسوف أحدثك عنه فيما بعد) والمصر في كيسلماير صديق جراينليش الحميم . ولاتتصورين كم هو مضحك ذلك الرجل المسن! إن له لحية عارضية بيضاء ، مقصوصة ، وشعراً أسود أبيض خفيماً يعلو رأسه كالزغب ويعبث به كل تيار هواء . ولما كانت

لرأسه أيضاً حركات مضحكة كأنه طائر وكان ثرثاراً أو يكاد يكون فإني أسميه دائماً العقعق ، لكن جرينليش يحرم عليّ هذه التسمية ، لأن العقعق على قوله يسرق وكيسلماير رجل شريف . وهو يسير منحنياً يطوح ذراعيه ، ويصل زغبه الى منتصف مؤخرة رأسه ، وفي هذا المنتصف فنازلاً يبدو قفاه محمراً محززاً . إن فيه شيئاً يبلغ المرح البالغ ، وأحياناً مايربت على خدي ويقول : أيتها الزوجة الطيبة الصغيرة ، إنها بركة لجرينليش من عند الله أن بت له زوجة! ثمّ يخرج نظارة شابكة (ويحمل منها ثلاثاً مربوطة في أقطنة طويلة معقودة دائماً على صدريته البيضاء) ويضعها على أنفه الذي يغضنه عندئذ ثمّ يتأملني متسلياً فاغراً فاه حتى ليحملني على الضحك في وجهه عالياً . لكنه لايستاء من ضحكي .

أما جرينليش فمشغول كثيراً يركب في الصباح مركبتنا الصغيرة الصفراء الى المدينة ثمّ يعود الى البيت في الغالب متأخراً ، وأحياناً يجلس معي يقرأ في الصحيفة .

فإذا خرجنا الى مجتمع ، الى كيسلماير على سبيل المثال أو إلى القنصل كودسيكر في أمستردام أو الى السناتور بوك في شارع راتهاوس اكترينا مركبة . ولقد رجوت جرينليش مراراً أن يشتري لنا كوبيه لأنها ضرورية هنا في ظاهر المدينة . وقد وعدني بها نصف وعد ، لكنه من عجب لايحب أن أصطحبه في مجتمع ولايحب كما يبدو لي أن أتحدث الى الناس في المدينة . فهل هذه غيرة منه ؟

إن فيلتنا التي سبق أن وصفتها لك تفصيلاً يا أمي العزيزة جميلة جداً في الحق ، وقد ازدادت حسناً بما جلبناه اليها من أثاث حديث . ولا أظنك تقولين شيئاً ضد صالوننا في الطبقة الأرضية المرتفعة : إنه مكسو كله بالحرير البني ، وحجرة الطعام المجاورة مكسوة كسوة جميلة بالخشب ، وقد تكلف الكرسي فيها ٢٥ ماركاً . أما جلوسي ففي غرفة التأملات التي نستعملها حجرة للجلوس هذا الى جانب غرفة أخرى للتدخين ولعب الورق . أما القاعة التي تشغل في الجانب الآخر من الدهليز نصف الأرضية فقد جهزت الآن بستائر صفراء وأصبحت تتميز عن غيرها بوجاهتها . وفوق حُجَر النوم والحمام واللبس والخدم . وللمركبة الصفراء «سائس» صغير . وأنا أكاد أقتنع بالخادمتين ، ولاأعلم هل هما أمينتان تماماً ، ولكني أحمد الله لست بحاجة الى مراقبة كل من الثلاثة . وبالإيجاز كل شيء هنا كما يليق بإسمنا .

على أن هناك شيئاً هوالأهم ، وقد أرجأته الى الختام . من وقت قريب أحسست شيئاً غريباً بعض الغرابة لم أكن معه في صحة كاملة ولكني في حالة مغايرة للمعتاد كل المغايرة .

وقد أنبأت بهذا الشيء الدكتور كلاسن لما عرضت مناسبة . وهو شخص قصير القامة جداً ، ذو رأس كبير وقبعة أكبر ، منحولة فوق هذا الرأس . وهو دائماً يضغط لحيته الطويلة الرائقة الاخضرار لأنه ظل سنين طويلة يصبغها بالأسود ، يضغطها بعصا ذات مقبض على صورة قرص من العظم . ولكنت خليقة يا أماه أن تريه . فلما أنبأته لم يعجب بشيء بل جعل يحرك نظارته وتبرق عيناه ، ويومىء اليّ بأنفه الذي يشبه البطاطسة ، ثمّ يضحك وعايني بوقاحة لم أعرف معها أين أولي وجهي ، ثم فحصني وقال إن كل شيء على مايرام ، فقط يجب أن أتناول ماءً معدنياً ، لأني ربّما كنت ، على قوله فقيرة في الدم . ـ آه يا أماه ، أرجو أن تترفقي في إبلاغ هذا الى أبي الطيب كي يسجله في أوراق الأسرة . سأنبئك بما يجد في أقرب فرصة .

تحياتي القلبية لأبي وكريستيان وكلارا وتيلده وايدا يونجمان . لقد كتبت أخيراً الى توماس في أمستردام .

ابنتك المطيعة

انتونيا

في الثاني من أغسطس ١٨٤٦

عزيزي توماس

تلقيت بسرور ما أبلغتني أياه عن اجتماعك بكريستيان في أمستردام ، فلعلك قضيت معه أياماً سارة . إني لا أعلم بعد شيئاً عن متابعة أخيك السفر الى انجلترا عن طريق أوستند وآمل أن ترافقه السلامة ، وأرجو بعد إذا اعتزم اتخاذ المهنة العلمية أن لايكون قد فات الأوان بالنسبة له لتحصيل شيء ذي قيمة لدى رئيسه المستر ريتشاردسن ، وأن يحالف عمله التجاري البحري النجاح ويباركه الله . والمستر ريتشاردسن (بثريد نيدل ستريت) كما تعلم من أصدقاء بيتنا التجاري الحميمين ، فكم يسعدني أن أدخل ولديّ الاثنين شركات تربطني بها أوثق أواصر الصداقة . وما أراك إلا شاعراً الآن ببركة ذلك : فاحساسي بالرضا التام من أن السيد فان دركيلن قد رفع مرتبك بالفعل في ربع السنة هذا ، وأنه يهيء لك بعد ذلك مكاسب إضافية . وإني لمقتنع بأنك قد أظهرت بمهارتك في العمل جدارة بهذا الإقبال .

على أنه يؤلمني أن صحتك ليست على مايرام . فما كتبته اليّ عن حالتك العصبية

ذكّرني بشبابي لما كنت أعمل في أنفرس ثمّ اضطررت الى السفر الى إيمز من هناك للاستشفاء . فإذا كان شيء من هذا لازماً لك يابني فإني مستعد كما هو مفهوم ، لأن أمدك بالرأي والفعل إن كنت أتهيب مثل هذه النفقات الأخرى في هذه الأوقات المضطربة من الناحية السياسية .

وعلى كل فقد قمنا أنا وأمك في أواسط يونيه برحلة الى هامبورج لزيارة أختك توني ، وإن يكن قرينها لم يدعنا اليها . لكنه لاقانا مع ذلك لقاء قلبياً وكرس نفسه لخدمتنا خلال اليومين اللذين قضيناهما عنده الى حد أنه أهمل أعماله ، وكاد لايدع لي وقتاً لزيارة دوشان في المدينة . إن توني في شهرها الخامس . وقد أكّد طبيبها أن كل شيء سيجري مجرى طبياً ساراً .

بعد ذلك أحب أن أذكر لك شيئاً عن رسالة جاءتني من السيد فان دركيلن ، فهمت منها أنك تزور أسرته على الرحب والسعة . وأنت يابني الآن في السن التي تبدأ تجني فيها ثمار التربية التي رباك أبوك . فلتكن نصيحة لكأني في مثل سنك كنت أنبه دائماً سواء في برجن أو في أنفرس إلى أن أكون في خدمة رئيساتي ، لطيفاً معهن ، وهو ما حقق لي أعظم المنافع . وبغض النظر عن التشريف الذي يلقاه المرء من الاختلاط الوثيق بأسر الرياسة فإنه إذا ما أخطأ المرء مرة في عمله أو كان الرئيس غير راضٍ عنه كل الرضا ــ وهي حال يجب على كل حال تجنبها ما أمكن ، وإن كانت مما يمكن أن يقع ـ أقول إذا حدث هذا فالمرء خليق أن يجد في الرئيسة مدافعاً عنه وساعياً الى نفعه .

أما مايتعلق بخططك المستقبلية في عملك يابني فإنها تدعو الى غبطتي بما ألمسه فيها من حيوية ناطقة ، لكني لا أوافقك عليها كل الموافقة ، فإنك لتصدر فيها عن رأي هو أن تصريف تلك المحاصيل التي ينتجها محيط مدينة آبائنا كالغلال والبذور والجلود والصوف والزيت والكسب والعظام ألخ ، هو التجارة الطبيعية الدائمة التي تفضل غيرها وتزاولها مدينة آبائنا . وترى أن تتجه نحو هذا الفرع الى جانب تجارة العمولة . ولقد راودتني هذه الفكرة في وقت كانت المزاحمة في هذا الفرع التجاري ماتزال ضئيلة جداً (بينما هي اليوم قد اشتدت اشتداداً كبيراً) وقمت ، بقدر ماسمح المجال وسنحت الفرصة ، ببضع تجارب في هذا الباب ، وقد كانت رحلتي الى انجلتره تستهدف في الغالب السعي وراء إنشاء صلات مع هذه البلاد أيضاً . وقد ذهبت لهذا الغرض حتى سكوتلنده وأوجدت معارف نافعين ، لكني لم ألبث أن تبيّنت الصبغة الخطرة التي لازمت تجارة الصادر الى هناك ، وهو ماحال دون تنمية هذه التجارة لاسيما وأني كنت دائماً على ذكر من تلك النصيحة التي خلفها لنا جدنا ،

مؤسس متجرنا وهي : «يا بني ، أد أعمالك بالنهار وأنت مرتاح الضمير ، لكن لاتؤد منها إلا مايجعلنا ننام الليل مرتاحين!»

وأرى أن أقدس هذا المبدأ حتى آخر يوم في حياتي ، وإن كان من الممكن أن يخالج المرء الشك هنا وهناك ، إذ يرى أناساً تنقصهم هذه المبادىء ينجحون في هذه الأعمال أكثر منا ، وإني لأفكر في شترونك وهاجنشتروم اللذين يزدادان مكانة . بينما تسير أعمالنا سيراً بطيئاً . وأنت تعلم أن المتجر بعد أن صغر من جراء موت جدك قد توقف عن النمو . وإني لأصلي لله أن يمكنني من أن أخلف لك تجارتنا في مثل حالتها الراهنة . ولي في وكيلي السيد ماركوس معاون مجرب بصير . فحبذا لو استبقت أسرة أمك مالها خيراً بعض الشيء مما هو الآن ، متضاماً غير موزع ، فإن الإرث ليصبحن لنا عظيم الشأن!

إني مرهق بصورة غير عادية بالأعمال التجارية والبلدية . فأنا رئيس جمعية مرتادي الجبال . وقد انتخبت بعد ذلك مندوباً عن الأهالي في الإدارة المالية وغرفة التجارة ولجنة المحاسبة وملجأ فقراء القديسة آن .

تحيات أمك وكلارا وكلوتيده القلبية . كذلك كلفني سادة عديدون بأن أبلغك تحياتهم وهم السناتور مولندروف والدكتور أوفرديك والقنصل كستنماكر والسمسار جوش وا .ف . كوبن وأيضاً السيد ماركوس في المكتب والربانان كلوت وكلوترمان . صحبتك بركة الله يابني . فاعمل وصلِ وادخر .

والدك المحب

الثامن من اكتوبر ١٨٤٦

والديّ العزيزين المحترمين

إن الموقّع على هذا ليشعر بالإرتياح إذ يبلغكما أن ابنتكما زوجتي المحبوبة وضعت بتوفيق الله ومشيئته بنتاً من نصف ساعة مضت . ولست أجد كلاماً يعبر عن مبلغ تأثري وابتهاجي ، وصحة النفساء الغالية وكذلك صحة الطفلة على مايرام . والدكتور كلاسن راضٍ كل الرضا عن الحالة . كذلك تقول مدام حروس جورجيس القابلة أن الأمر تمّ في يسر . وإن انفعالي ليحملني على أن أدع القلم وأقدم احترامي الى الوالدين المبجّلين مشفوعاً بالحنان والإجلال

ب. جرينليش

ولو كان المولود ذكراً لعرفت له اسماً جميلاً . أما الآن فأحب أن أسمي المولودة ميتا لكن جرينليش يريد لها اسم ايريكا .

ت.

الفصل الثاني

وقال القنصل لمّا حضر الى المائدة ورفع الطبق الذي كان يغطي حساءه : « ماذا بك يا بتسي ؟ أتشعرين بتعب ؟ ماذا تحسين ؟ يبدو أنك متألمة ؟ » .

لقد باتت المائدة المستديرة القائمة في قاعة الأكل الواسعة صغيرة جداً . فلم يكن يجلس عليها كل يوم خلا الوالدين غير الآنسة يونجمان وكلارا البالغة العشرين من عمرها وكلوتيده الهزيلة الذليلة التي تأكل في هدوء . وتلفت القنصل من حوله... فألفى الوجوه جميعاً مهمومة . فما الذي حدث ؟ لقد كان نفسه عصبياً تنتهبه الهموم ، ذلك أن البورصة قد ألمّ بها الاضطراب من تلك المسألة المعقدة ـ مسألة شلزويج هولشين... وفي الجو الى ذلك اضطراب آخر ؛ فإنه لما خرج أنطون بعد ذلك ليحضر طبق اللحم علم القنصل ماحدث بالبيت . فترينا الطاهية ـ ترينا الفتاة التي لم تبد الى ذلك الحين سوى الوفاء والإستقامة ـ تحولت بغتة الى حال من السخط السافر ،إذ كانت عقدت من زمن قريب أواصر صداقة هي من نوع المحالفة الفكرية مع صبي قصاب ، الأمر الذي اشمأزت منه القنصلة كثيراً . ولابدّ أن هذا المخلوق الدموي قد أثر في مجرى آرائها السياسية على أسوأ صورة . ذلك أن القنصلة لما لفتتها الى نوع من الصلصة أساءت صنعه ثبتت ذراعيها العاريتين في خصرها وقالت : « على رسلك ياحضرة القنصلة ، فلن يدوم الأمر طويلاً ، ثمّ يأتي نظام آخر ، أجلس فيه عندئذ على الأريكة في ثوب حريري وتخدمينني أنت... »

وطبيعي أن تنذر في الحال بترك الخدمة .

وقد هزّ القنصل رأسه . فهو نفسه قد اضطر أخيراً الى ملاحظة أشياء مختلفة تثير القلق . حقاً إن الحمالين وعمال المخازن الذين هم أكبر من غيرهم سناً قد كانوا من الاستقامة بحيث لم تدخل مثل هذه الأفكار رؤوسهم ، لكنه كان بين الصغار من دل مسلكه

على أن روح السخط الجديدة قد عرفت كيف تشق طريقها في خبث... وقد وقع في الخريف اضطراب في الشوارع على الرغم من أن مشروع دستور جديد يتفق ومقتضيات العهد الجديد كان مُعداً ، وقد صدر به مرسوم من الدولة بعد ذلك بقليل ليكون قانونها الأساسي على الرغم من معارضة ألبرت كروجر وغيره من الشيوخ العنيدين . وقد انتخب ممثلون للشعب وانعقد مجلس المواطنين... بيد أن الهدوء لم يستقر ، وكانت الفوضى شاملة . أراد كل تعديل الدستور وقانون الانتخاب وتشاجر المواطنون ، نادى البعض «بمبدأ الطبقات» وقالها أيضاً القنصل بودنبروك . ونادى الآخرون «بقانون الانتخاب العام» وقالها معهم هينريش هاجنشتروم . وصاح آخرون فوق ذلك : «نريد قانون انتخاب طبقات عاماً» ولعلهم كانوا أيضاً يعرفون ماتنطوي عليه هذه الصيحة . وراحت الأفكار تنتشر في الجو وتطنّ في الهواء مثل إزالة الفروق بين المواطنين والسكان وتسهيل الحصول على حرية الأفراد بقانون . فليس عجيباً أن يخطر ببال ترينا خادمة بودنبروك ماخطر من الجلوس فوق الأريكة وارتداء الثياب الحريرية . وسوف تسوء الحال أسوأ مما ساءت . فإن الأمور كانت تهدد بتحول مخيف...

كان اليوم من أوائل أكتوبر من عام ١٨٤٨ ، والسماء زرقاء يشوبها بعض السحاب الخفيف المعلق ، وتضيئها في مثل بياض الفضة شمس لم تعد بطبيعة الحال من القوة بحيث تمنع الموقد من أن يطقطق خلف سياجه العالي اللامع في حجرة المناظر الطبيعية .

وكانت كلارا الصغيرة ، وهي طفلة ذات شقرة داكنة وعينين قاسيتين تقريباً جالسة تحيك أمام منضدة الخياطة عند النافذة ، بينما كانت كلوتيده تحتل المكان المجاور للقنصلة على الأريكة مشغولة كذلك على هذا المنوال . ومع أن كلوتيده بودنبروك لم تكن أكبر كثيراً من ابنة عمها المتزوجة أي في الحادية والعشرين لاأكثر ولاأقل ، فقد جعل وجهها المستطيل يبدي خطوطاً ظاهرة يساعد شعرها المفروق المشدود الذي لم يكن يوماً أشقر ، بل كان على الدوام أغبر باهتاً ، على أن يدخل في الروع أن صورة العانس قد اكتملت لها . وقد كانت راضية بهذا ، لم تعمل شيئاً لتخفف من هذا الواقع . ولعل حاجتها كانت الى أن تكبر بسرعة لتجتاز على عجل كل شك وكل أمل . وإذ كانت لاتملك شروى نقير فقد عرفت أن أحداً على وجه الأرض لن يرضاها زوجة وجعلت تنظر في تواضع الى مستقبل لن يعدو أن تستهلك في أية حجرة صغيرة معاشاً ضئيلاً يدبره لها عمها القادر من صندوق مبرة ترعى الفقيرات من بنات الأسر المحترمة .

وكانت القنصلة مشغولة من جانبها بقراءة رسالتين قصت توني في إحداهما على نمو

صغيرتها ايريكا السعيد ، وروى كريستيان في الأخرى عن حياته وأفعاله في لندن في حرارة من دون أن يذكر بطبيعة الحال شيئاً عن عمله عند المستر رتشاردسن... وكانت القنصلة التي ناهزت الخامسة والأربعين تشكو مرّ الشكوى من مصير الشقراوات اللواتي يهرمن بهذه السرعة ، ذلك أن اللون الرقيق للشعر المحمر ينطفىء في هذه السنوات على الرغم من كل وسائل الترطيب ، والشعر نفسه يأخذ في المشيب ويمعن إذا لم يكن باليد والحمد لله وصفة الصبغة الباريسية التي تحول دون ذلك أول ماتحول . وقد صمّمت القنصلة على ألا تبيّض شعرها ، فإذا ثبت أن الصبغة لم تعد صالحة فسوف تضع على رأسها عارية شعر من ذلك اللون الذي كان لشعرها أيام الصبا .

وقد كانت تضع على قمة تسريحتها التي ماتزال تنطق بالفن شريطاً حريرياً صغيراً تحوطه دانتيلا بيضاء وهو البداية والإشارة الأولى الى القلنسية ، وأحاطت بها جونلة فضفاضة منقوشة ، أما أكمامها الجرسية الشكل فكانت مبطنة بالموسلين المنشى . وكانت بضع أساور من ذهب كثيراً ماترنّ حول معصمها رنيناً خفيفاً .

كانت الساعة إذ ذاك الثالثة بعد الظهر فسمع بغتة تصايح وصياح ، ونوع من الزعيق والصفير ووقع خطوات كثيرة على الشارع ، ضجة كانت تقترب وتتزايد...

فقالت كلارا : «أماه ؟ ماهذا ؟» وكانت توصوص من خلال النافذة «كل هؤلاء الناس... ماخطبهم ؟ من أي شيء هم مسرورون هكذا ؟» .

فصاحت القنصلة وقد ألقت الرسالتين وهبّت من مقعدها والخوف يساورها ، وبادرت الى النافذة وقالت : «أهذه... ياإلهي ، أجل هي الثورة... هو الشعب...» .

وكانت المسألة أن الاضطرابات تفشت في المدينة أثناء النهار بطوله فقذفت بالحجارة نافذة عرض عند تاجر الأقمشة بنتيين في الشارع العريض وحطّم زجاجها ، والله وحده يعلم دخل نافذة السيد بنتيين بالسياسة العليا .

ونادت القنصلة بصوت مرتعش من قاعة الأكل حيث كان الخادم يشتغل بالأدوات الفضية : «أنطون! انزل! وأوصد باب البيت! أقفل كل شيء! إنه الشعب...» .

فقال أنطون : «نعم ياحضرة القنصلة ! وهل أجسر على هذا!... إني عبد السيادة... فإذا رأوا مبذلة خدمتي...» .

فقالت كلوتيده حزينة تتمطى دون أن تقف عملها اليومي : «يالهم من أشرار» . - في هذه اللحظة قدِم القنصل من بهو الأعمدة ، ودخل من الباب الزجاجي وكان يحمل معطفه فوق ذراعه وقبعته في يده .

فقالت القنصلة مرتعبة : «أتريد الخروج ياجان ؟...» - .

قال : «أجل ياحبيبتي . يجب أن أذهب الى المجلس...» .

قالت : «لكن الشعب ياجان ، الثورة...» .

قال : «أخ ، ليس الأمر بهذه الخطورة يابتسي..إن الله حافظ . لقد تجاوزوا البيت فعلاً وسأخرج من الجهة الخلفية...» .

قالت : «جان ، إذا كنت تحبني... . أتريد أن تعرض نفسك لهذا الخطر ؟... أتريد أن تتركنا هنا وحدنا ؟... أوه ، إني خائفة ، خائفة!» .

«ياحبيبتي أرجوك ، إنك تثيرين نفسك على هذا النحو... إن الناس سيتظاهرون قليلاً أمام البلدية أو في السوق... وقد تكلف مظاهراتهم الدولة بعض ألواح من الزجاج ، وهذا كل شيء » .

«الى أين تريد ياجان ؟» .

«الى المجلس... وسأصل متأخراً تقريباً . فقد أخرتني أعمالي . وإنه لمن العار أن أتخلف اليوم . فهل تعتقدين أن أباك يدع أحداً يمنعه من الخروج على كبر سنه...» .

«اذن اذهب في حراسة الله يا جان..ولكن حاذر ، أرجوك انتبه لنفسك! واجعل بالك الى أبي! فلو أصابه شيء...» .

«لاتنشغلي ياحبيبتي... ؟

وصاحت القنصلة في أثره : «متى تعود ؟» .

«في منتصف الخامسة ، في الخامسة ، على حسب... إن جدول الأعمال يشتمل على أمور هامة ، فالأمر يتوقف...» .

وعادت القنصلة تقول : «إني خائفة ، خائفة!» وجعلت تتحرك في الحجرة غادية رائحة وهي تتلفت يمنة ويسرة .

الفصل الثالث

وقطع القنصل بودنبروك أرضه المترامية وهو مسرع ، فلما خرج الى «حفرة الخبازين» سمع خلفه وقع خطوات ثمّ أبصر السمسار جوش وكان بالمثل يصعد الشارع المنحرف الى الجلسة وهو ملتف بمعطفه الطويل بصورة رائعة . وفيما هو يلوح بإحدى يديه الطويلتين النحيلتين بقبّعته الجزويتية ويؤدي بالأخرى حركة تدل على التواضع التام ، تكلم بصوت كظيم مكبوت يقول : «سيدي القنصل...إني أحييك!» .

كان هذا السمسار سجسموند جوش وهو أعزب يناهز الأربعين ، أشرف الناس وأدمثهم خلقاً على الرغم من هيئته ، غير أنه كان أديباً وكان مبدعاً ، يتميز وجهه الحليق الناعم بأنف مقوّس وذقن مدببة بارزة وملامح حادة وفم عريض مسحوب الى جنب ، وقد انطبقت شفتاه الرقيقتان في صورة تدل على الشر .

وقد كان وكده ـ وقد نجح في هذا نجاحاً لابأس به ـ أن يعرض رأساً وحشياً جميلاً شيطانياً يكون لدساس ، وشخصية شريرة مشاكسة مسلية تشيع الخوف في النفس هي وسط بين أبليس ونابليون . . . وكان شعره الأشيب يطغى على جبينه في عمق وعبوس وقد آسف مخلصاً أنه لم يكن أحدب . ـ كان ظاهرة غريبة لطيفة بين سكان المدينة التجارية القديمة . فهو منهم لأنه يزاول بكل فضائل المواطن عملاً صغيراً ثابتاً ، وفي تواضعه عملاً محترماً من أعمال الوساطة والسمسرة . لكن في مكتبه خزانة كتب كبيرة حافلة بدواوين الشعر بكل اللغات ، وقد شاع أنه يشتغل مذ كان في العشرين من عمره بترجمة درامات لوب دي فبجا كافة . . وحقاً لقد مثّل مرة دومنجو في رواية «دون كارلوس» لشيلر في عرض فدمه هواة وكان هذا هو خاتمة ماوصل اليه في حياته . ـ لم تخرج قط كلمة نابية من فمه ، بل إنه في أحاديثه التي تتناول أعماله كان يلفظ عباراته المألوفة من بين أسنانه وعلى ملامحه تفاعل

من يريد أن يقول : «أيها الوغد! إني ألعن أجدادك في أجداثهم!» وقد كان في بعض الإعتبارات وريث المرحوم جان جاك هوفشتيده وخليفته ، لولا أن كيانه أكثر تجهماً وأعظم تأثيراً وأن ليست له تلك البهجة وتلك الدعابة التي استخلصها صديق يوهان بودنبروك الكبير من القرن السابق -.

وفي ذات يوم خسر في البورصة بضربة واحدة ستة ريالات ونصف ريال في ورقتين أو ثلاث ورقات مالية اشتراها عن طريق المضاربة ، فتملكه شعوره الدرامي ، وقدم عرضاً تمثيلياً : ارتمى على مقعد واتّخذ هيئة من خسر معركة واترلو فضغط على جبينه وكرر «عليك اللعنة!» وهو يفتح عينيه فتحة الذي يجدف في حق الله . ولما كانت المكاسب الضئيلة الهادئة الأكيدة التي يجنيها من بيع هذه القطع من الأرض أو تلك تضجره في الحقيقة فقد كانت هذه الخسارة وهي الضربة القاسية التي أصابت بها السماء دساساً ، متعة وسعادة له ظل أسابيع يستهلكها ، فكان إذا خاطبه أحد بقوله : «لقد سمعت أنك ألمّ بك مصاب ياسيد جوش! لقد عزّ عليّ ذلك...» أجابه : «أواه ياصديقي العزيزhoms non educato dal dolore riman sempre bambino» ومفهوم أن أحداً لم يفقه هذا القول . فهل كانت هذه العبارة من لوب دي فيجا ؟ الثابت أن هذا السيجسموند جوش رجل عالم غريب الأطوار .

قال للقنصل بودنبروك وهو يصعد الشارع الى جانبه منحنياً فوق عصاه التي يتكىء عليها : «أية أوقات هذه التي نعيش فيها ، أوقات العاصفة والحركة!»

فأجابه القنصل : «إنك محق» . وقال له : «إن الأوقات مضطربة فماذا ياترى ستكون عليه جلسة اليوم ؟ إن مبدأ الطبقات...» .

واستطرد السيد جوش يقول : «كلا ، استمع اليّ! لقد لبثت طيلة النهار خارجاً وراقبت الشعب ، فكان بينه فتيان عظام تضطرم أعينهم بالبغضاء والحماسة...» .

فأخذ يوهان بودنبروك يضحك : «إنك عندي المنشود ياصديقي! يظهرأن هذا يروقك! ولكن لا اسمح لي... هذه أعمال صبيانية! كل هذا! ماذا يريد هؤلاء الناس ؟ إنهم شرذمة من الشبان لاأخلاق لهم يريدون أن ينتهزوا الفرصة للتجمهر قليلاً...» .

«مؤكد ، لكنه لايمكن أن ننكر... لقد كنت حاضراً حين قذف صبي القصاب فير كيماير نافذة بنتيين بالحجارة... لقد كان كالنمر!» .

ولفظ السيد جوش الكلمة الأخيرة منطبق الأسنان بصورة خاصة ثمّ استطرد يقول :

---

* من لم يهزمه الألم بقي طفلاً طوال حياته .

«أوه ، لايمكن أن ننكر أن للمسألة جانبها الرفيع ، فهي في آخر الأمر شيء يغاير ماعرفناه ، شيء غير عادي ، عنيف ، عاصف ، وحشي ...إعصار... أخ ، إن الشعب جاهل ، أعرف ذلك! لكن قلبي ، قلبي هذا ، معه...» . وكانا قد بلغ البيت البسيط المدهون بالزيت الأصفر ، الذي توجد قاعة اجتماع المجلس في طبقته الأرضية .

وتتبع هذه القاعة محلاً للبيرة ومرقصاً تديره أرملة تدعى سيركرينجل ، لكنها في أيام بعينها توضع تحت تصرف السادة أعضاء مجلس المواطنين . ويدخل اليها من دهليز مبلط ضيق على جانبه الأيمن أماكن للأكل وتتصاعد منه روائح البيرة والأطعمة ، وعلى جانبه الأيسر باب مركب من ألواح مدهونة باللون الأخضر يؤدي الى القاعة ليس له أكرة ولا قفل ، ويبلغ من ضيقه وانخفاضه أنه لايخطر ببال أحد أن وراءه قاعة بهذا الإتّساع . وكانت القاعة باردة جرداء تشبه المخزن لها سقف مبيض برزت منه العروق الخشبية وجدران مبيضة أيضاً . ولنوافذها العالية تقريباً صلبان مدهونة باللون الأخضر وهي عارية من الستائر ، ترتفع قبالتها صفوف مدرجة من المقاعد في أسفلها مائدة عليها جرس كبير وملفات وأدوات كتابة ، مخصصة للرئيس وكاتب المجلس وقومسيري مجلس الشيوخ الحاضرين . وعلى الحائط المقابل للأبواب مشاجب للملابس مغطاة بالمعاطف والقبعات .

واستقبل القنصل ومرافقه لغطاً وهما يدخلان القاعة من الباب الضيق يتبع أحدهما الآخر ، وقد كانا على ماظهر آخر من وصلا . وكانت القاعة حافلة بالمواطنين الذين كانوا واقفين بعضهم مع بعض جماعات ، أيديهم في جيوب سراويلهم ، أو خلف ظهورهم أو في الهواء يتناقشون . وقد كان مائة على التحقيق مجتمعين من الأعضاء المائة والخمسين الذين يؤلفون الهيئة ، إذ آثر عدد من نواب المركز أن يلزموا بيوتهم في الظروف القائمة .

وكان فيما يلي المدخل جماعة واقفون ، يتألفون من أناس أقل من غيرهم شأناً ، ومن اثنين أو ثلاثة من أصحاب الأعمال ومدرس في المدارس الثانوية ومن «أبي الأيتام» السيد مندرمان ، والسيد فنتسل الحلاق المحبوب . والسيد فنتسل رجل قصير القامة قوي البنية أسود الشارب ذو وجه تلوح عليه إمارات الذكاء ، ويدين حمراوين ، قد حلق ذقن القنصل في صباح اليوم ، لكنه في هذا المكان ند له . وهو يحلق في الأوساط الراقية فقط تقريباً لآل مولندروف ولانجهالز وبودنبروك وأوفرديك . ويرجع الفضل في انتخابه المواطنين الى معرفته التامة بشؤون المدينة واختلاطه بالناس ومهارته واعتداده الملحوظ بنفسه مع كل من هم دونه .

وصاح بهمة وبعينين جادتين يخاطب راعيه : «أيعرف السيد القنصل أحدث ماجدّ ؟» .

«وماذا ينبغي أن أعرف ياعزيزي فنتسل ؟» .

«حتى صباح اليوم لم يكن أحد قد عرفه بعد... لايؤاخذني السيد القنصل ، إنه آخر نبأ! إن الشعب لايزحف على البلدية أو السوق! إنه آتٍ الى هنا ويريد تهديد مجلس المواطنين! لقد حرضه المحرر ريبسام» .

فقال القنصل : «غير ممكن!» وشقّ طريقه بين الجماعات الأمامية الى وسط القاعة حيث أبصرحماه مع عضوي الشيوخ الدكتور لانجهالز وجيمس مولندروف فقال وهو يهزّ أيديهم : «أصحيح إذن أيها السادة ؟»...

حقاً لقد كان المجلس كله عليماً به ، فالمتجمهرون كانوا يزحفون وكانوا على مسمع منه .

فقال البرشت كروجر في برود واحتقار : «أوغاد!» .

وقد جاء الى هنا في مركبته ، وكان صاحب هذه القامة المديدة الوجيهة التي كانت ذات يوم للفرسان المتأنقين ، قد بدأ ينوء في الظروف العادية بوقر الثمانين التي بلغها .لكنه اليوم كان منتصب القامة تماماً ، يغمض عينه نصف إغماضة ، ويرخي زاويتي فمه اللتين يقوم فوقهما طرفا شاربه الأبيض القصيران وجيهين يبديان الإزدراء . وكان يتلألأ على صدريته المخملية السوداء صفان من الأزرار المرصعة بالحجارة الكريمة...

وكان غير بعيد في هذه الجماعة هينريش هاجنشتوم ، وهو رجل ربعة ذو لحية عارضية محمرة شيباء ، وعلى صدريته المخططة بالأزرق سلسلة سميكة من سلاسل الساعات يرتدي سترة مفتوحة . وقد كان واقفاً مع شريكه السيد شترونك فلم يحيّ القنصل على الإطلاق .

واجتمع بعيداً حول تاجر الأقمشة بنتيين الرجل الذي يظهر عليه اليسار عدد كبير من السادة الآخرين يقص عليهم في اسهاب دقيق ماأصاب لوح زجاج نافذته... «قطعة من الآجر هي نصف قالب ياسادة!... تراح... ونفذت الآجرة وأصابت بعدئذ «ثوباً» من القماش المضلع الأخضر... أصابت الملف!... ومع ذلك فهذه مسألة تتعلق بالدولة...» .

وكان صوت السيد شتوت في شارع جلوكنجيسر يسمع في أي ركن من أركان المكان بلا انقطاع ، وكان صاحبه يرتدي سترة سوداء فوق قميص صوفي ويترك في المناقشة بعبارة «إنها لنذالة لم يسمع بها من قبل!» يكررها على الدوام ، ويؤكدها في غضب .

وطاف يوهان بودنبروك بالموجودين يحيي هنا صديقه المسن ت . ف كوبن . وهناك

مزاحم هذا الصديق القنصل كستنماكر وقد ضغط يد الدكتور جرابو ، وتبادل بضع كلمات من جيزيكه قومندان المطافىء والمهندس فويجت والرئيس الدكتور لنجهالز شقيق السناتور ، ومع بعض التجار والمدرسين والمحامين .

ولم تكن الجلسة قد افتتحت لكن المناقشة كانت حامية ، يسب السادة جميعاً هذا الكاتب ، هذا المحرر ريبسام الذي يعلم الناس عنه أنه هو الذي حرض الجمهور... ولماذا في الحق ؟ إنهم هنا ليتحققوا هل يحافظ المجلس الممثل للشعب على مبدأ الطبقات أو يدخل قانون الانتخاب العام الذي يسوي بين الجميع . وقد طالب مجلس الشيوخ بهذا الأخير بالفعل ، فماذا كان الشعب يريد إذن ؟ إنه يريد أن يمسك بخناق السادة ، هذا هو كل شيء . لقد كان أسوأ مركز تعرض له السادة من قبل! فقد أحاط القوم بقومسيري الدولة ليتعرفوا رأيهم ، كذلك أحاطوا بالقنصل بودنبروك الذي كان يجب أن يكون ملماً بموقف المحافظ في هذه المسألة ، ذلك أنه منذ أن بات السناتور أوفرديك صهر القنصل يوستوس كروجر رئيساً لمجلس الشيوخ في العام الماضي أصبح آل بودنبروك أصهاراً للمحافظ ، وهو مارفعهم في نظر الناس كثيراً...

وعاد الضجيج في الخارج بغتة... فقد بلغت الثورة ماتحت نوافذ قاعة الاجتماع! فخمدت في الحال تلك الآراء الهائجة المائجة التي كانوا يعربون عنها هنا في الداخل ، وشبكت الأيدي على البطون التي ارتفعت وراءها القضبان ، وامتلأ الجو بصيحات تصم الآذان خرجت عن الحد وجفاها العقل ، ثمّ خمدت الأصوات في الخارج على حين غفلة كما خمدت داخل الدار ، وكأنما رعب الثوار أنفسهم من مسلكهم . وفي هذا السكون العميق الذي كان يخيم على الجميع لم يسمع إلا كلمة صادرة من المقاعد السفلى في القاعة حيث كان يجلس ليبرشت كروجر ، كلمة هتكت حجاب الصمت باردة بطيئة مؤكدة ، كلمة : « أوغاد » .

فنطق على أثرها في ركن من القاعة لسان مكتوم يتفزز من الغضب : « إنها لنذالة لم يسمع بها من قبل! » .

ثمّ رفرف فجأة فوق الاجتماع صوت مسرع مرتعش مستتر هو صوت بنتيين تاجر الأقمشة يقول :

« أيها السادة! . أيها السادة . استمعوا إليّ . . إني أعرف هذه الدار . . فإذا وطأ الثوار أرضها فهناك في السقف فجوة... وقد كنت أطلق منها النار على القطط وأنا غلام صغير...ومن اليسير عندئذ التسلق منها الى سطح الجار فيصبح المرء في أمان... » .

ففحّ صوت السمسار جوش بين أسنانه يقول : « جبن وضيع! » وكان يعتمد ذراعيه

المتشابكين على مائدة الرياسة ويحملق في النوافذ بنظرةتثير الرعب مطرق الرأس «جبن» أيها السيد ؟ كيف ؟ اللعنة... إن الناس يقذفون بالحجارة! إني أرى بعيني...» .

في هذه اللحظة ثارت الضجة في الخارج من جديد ، ولكن من دون أن تصل الى الدرجة العاصفة التي وصلت اليها في البداية . كانت ترتفع الآن هادئة ، متواصلة ، مدمدمة ، شادية ، تتحلى بالصبر ، فيها تقريباً رنة السرور ، ويميز المرء فيها هنا وهناك صفيراً أو نداءات مثل «مبدأ» و«حق المواطن»...أما المواطنون فكانوا ينصتون في تفانٍ...

وتكلّم الرئيس السيد الدكتور لانجهالز بعد برهة بصوت مكتوم يخاطب المجتمعين «سادتي ، أرجو أن أكون متفقاً معكم ، إذا أنا افتتحت الجلسة الآن...» .

وكان اقتراحاً متواضعاً ، لكنه لم يلق أقل تأييد من هنا أو هناك .

وقال أحدهم في تصميم قويم لايسمح باعتراض : «أنا لست من هذا الرأي» . وكان رجلاً قروياً يدعى بفال من مركز ريتسراور نائباً عن قرية كلاين ـ شريتشتاكن . ولم يذكر أحد أنه سمع صوته من قبل في مداولات المجلس ، لكنه في الموقف الحاضر كان الرأي الصادر أيضاً عن أبسط الرؤوس ذا وزن... فكان أن عبر السيد فال عن رأي المواطنين جميعاً غير وجل وبغريزة سياسية أمينة .

فقال السيد بنتيين غاضباً : «الله يحفظنا! هناك في الشارع يمكن أن نرى مايجري ونحن جلوس على مقاعدنا هنا! إن الناس يقذفون بالطوب! إني أرى بعيني...» .

وصاح تاجر الخمور كوبن يائساً : «وكأنه ينقصنا أيضاً أن يكون الباب اللعين بهذا الضيق . إننا إذا أردنا الخروج انضغطنا فيه وضغطنا أنفسنا!» .

فتكلم السيد شتوت بصوت مكتوم : «إنها لنذالة لم يسمع بها من قبل!» .

وعاود الرئيس الكلام ملحاً : «سادتي! أرجوكم أن تنعموا النظر... إن عليّ أن أقدم في غضون ثلاثة أيام صورة من محضر الجلسة الذي ندونه اليوم... هذا الى أن المدينة تنتظر نشر هذا المحضر مطبوعاً ، فأحب على كل حال أن آخذ الأصوات على فتح الجلسة...» .

على أنه بغض النظر عن بضعة قليلة من المواطنين أيدت الرئيس ، لم يوجد أحد على استعداد للإنتقال الى جدول الأعمال . فقد كان أخذ الأصوات خليقاً أن يكون عديم الجدوى ، فلم يكن يجوز إثارة الشعب لأن أحداً لم يكن يعرف مايريد الشعب . ولم يكن يجوز أن يلطم الشعب بقرار يتبع هذا الاتجاه أو ذاك ، فكان لابدّ من التريث وعدم الإنفعال . وكانت ساعة كنيسة مريم تدق منتصف الخامسة...

وشد بعضهم أزر بعض ليصبروا ويصابروا ، وجعلوا يعتادون الضجيج الذي كان يرتفع في

الخارج ، ثمّ ينخفض ويقر ثم يعود الى الإرتفاع . وأخذوا يستمسكون بأهداب الهدوء ويخلدون الى السكينة ، ويتّخذون مجالسهم فوق الصفوف السفلى والكراسي... وبدأ نشاط كل هؤلاء المواطنين المجدّين يدب . فجرؤا هنا وههنا على الكلام عن الأعمال ، بل هنا وههنا على عقد الصفقات... واقترب السماسرة من كبار رجال الأعمال... جعل السادة المحتجزون يتحادثون ، كأناس يجلس بعضهم الى بعض أثناء اعصار شديد عن أشياء أخرى ، وينصتون الى الرعد بوجوه تبدو عليها إمارات الجد وتبعث على الاحترام . ودقت الساعة الخامسة ثم منتصف السادسة وحلّ الغسق . وجعل أحدهم يتنهد بين الحين والحين لأن امرأته تنتظره بالقهوة . فسمح السيد بنتيين لنفسه هنا بأن يذكّر بشغرة السطح ، لكن معظم الحاضرين صرفوا أنظارهم عنها مثل السيد شتوت الذي قال وهو يهزّ رأسه هزّاً عجيباً : « إني أسمن من أن أمر منها » .

وكان يوهان بودنبروك قد لازم حماه كما حثّته القنصلة ، فتأمله في شيء من القلق وهو يسأله : « لعلّ هذه المغامرة الصغيرة لم تؤثر فيك يا أبي ؟ » .

وكان على جبين ليبرشت كروجر تحت ذؤابة ناصيته الناصعة البياض عرقان مزرقان نافران ، وبينما كانت إحدى يدي الشيخ الارستقراطيتين تعبث بأزرار صدريته المصنوعة من الحجارة الكريمة كانت الأخرى ترتعش فوق ركبته مزدانة بماسة كبيرة .

قال وقد ألمّ به تعب غريب : « هراء يا بودنبروك! إني متضايق . وهذا كل شيء » لكنه كذّب نفسه حين انشأ فجأة يقول : « بالله يا جان! إن هذه الوقاحة السافلة يجب أن تلزم الحد بالبارود والرصاص ؟ هؤلاء الغوغاء! الأوغاد! » .

فتمتم القنصل مطيباً خاطره قائلاً : « كذا . . كذا . . إنك محق ، فهذه مهزلة مزرية تقريباً... ولكن ما العمل ؟ يجب أن يحلم المرء... لقد حلّ المساء وسينسحب الناس بالفعل... » .

وسأل ليبرشت كروجر وقد خرج عن طوره تقريباً : « أين مركبتي ؟... إني آمر بإحضار مركبتي! » وانفجر غضبه ، وارتعش جسمه كله واستطرد يقول : « لقد أوصيت أن تكون حاضرة في الخامسة فأين هي ؟... إن الجلسة لن تنعقد... ففيم بقائي هنا ؟... إني لا أفكّر في أن يستغفلوني! . . إني أريد مركبتي . هل يهينون حوذيي ؟ انظر ماذا هناك يا بودنبروك! »

« ياحمي العزيز ، رفقاً بنفسك وهدء روعك! إنك ثائر... وهذا يضر بك ، بديهي... أن أذهب للبحث عن مركبتك... فأنا نفسي برم بهذا الموقف . سأكلم الناس وأطلب اليهم الإنصراف الى بيوتهم... » .

وسار القنصل يخترق القاعة مسرعاً على الرغم من احتجاج ليبرشت كروجر ومن أنه أمر بغتة في توكيد ينم عن الهدوء والإزدراء : «قف! ابق هنا! إنك تعرض نفسك للمهانة يابودنبروك! » .

ولحق به سيجسموند جوش عند الباب الأخضر الصغير ، وأمسك ذراعه بيده وسأله بصوت كريه هامس : «الى أين ياسيدي القنصل ؟... » .

وكان وجه السمسار قد تغضن تغضناً عميقاً ، وهمت ذقنه المدببة حتى كادت تبلغ أنفه معبرة عن تصميم وحشي ، وتهدّل شعره الأبيض قاتماً فوق سالفيه وجبينه ، ودكّ رأسه بين كتفيه حتى نجح في أن يكون له مظهره المشوه وصاح : «إنك تراني مستعداً لأن أخاطب الشعب! » .

فقال القنصل : «خل عنك! فخير أن تدعني أفعل أنا ذلك ياجوش... فإن لي في الراجح بين الناس أكثر مما لك من معارف...» .

فأجاب السمسار بصوت خافت : «فليكن! فأنت إنسان أعظم مني شأناً » ، ثم استطرد وقد رفع صوته : «ولكني سأصحبك ، سأقف بجانبك يا قنصل بودنبروك! ولو مزقني العبيد الطلقاء إرباً...» .

فلما خرجا قال : «أوه ، ياله من نهار وياله من مساء!»... ولاشك أنه لم يشعر قط بمثل ماشعر به عندئذ من السعادة إذ قال : «أجل ياسيدي القنصل! هذا هو الشعب! » .

واجتاز كلاهما الطرقة وخرجا قبالة الباب ووقفا على بسطة الدرج الضيق المؤدي بدرجاته الثلاث الى الرصيف . وكان الشارع معرضاً لمنظر غريب . كان كأنما أقفر . في النوافذ المفتوحة المطلة عليه ، المضاءة في البيوت المحيطة ، طلعة يطلون منها على جمهور الثوار الذين تكتنفهم الظلمة ويتزاحمون أمام مجلس المواطنين . وكان الجمهور من حيث عدده لا يزيد كثيراً على عدد المجتمعين في القاعة ، يتألف من شباب عمال المبناء والمخازن ، ومن الخدم وتلاميذ المدارس الإلزامية ، وفي الأزقة والممرات والمتسللات . كان هناك ثلاث أو أربع من النسوة يمنّين أنفسهن من هذا المشروع بنفس المغانم التي تمنّي بها نفسها طاهية بيت بودنبروك . وكان بعض الساخطين وقد تعبوا من الوقوف ، قد جلسوا على الرصيف ووضعوا أرجلهم في مجرى المطر . وجعلوا يتناولون قطع الخبز المدهون بالزبد .

كانت الساعة تقارب السادسة ، ومع أن الغسق كان قد أوغل كانت مصابيح الزيت المتدلية من سلاسل ممتدة عبر الشارع غير مضاءة . وكانت هذه الحقيقة الواقعة وهذا

الخرق الواضح للنظام وهو مالم يسمع به ، هو أول ما أغضب القنصل بودنبروك بحق ، وجعله يبدأ الكلام بلهجة ساخطة تكاد تكون موجزة . قال :

« أيتها الجيف! ماهذا الذي تأتونه في خرق! ماذا تقترفون هنا! » .

فهبّ الآكلون على أقدامهم عن الرصيف ، وشب الذين يلونهم في ذلك الجانب في طريق المرور على أطراف أصابعهم ، ورفع بعض عمال الميناء الذين يعملون في خدمة القنصل بودنبروك قبعاتهم . والتفت الجميع ، ودفع بعضهم بعضاً في الجوانب ، وقال بعضهم بصوت مكبوت : « هذا هو القنصل بودنبروك! القنصل بودنبروك يريد أن يلقي كلمة! أقفل فمك ياكريستيان ، إنه يستطيع أن يخطب كالشيطان! هذا هو السمسار جوتش... انظر! ياله من قرد! إنه مهتاج أشد الاهتياج » .

وعاود القنصل الكلام موجهاً عينيه الصغيرتين الى عامل من عمال المخزن في الثانية والعشرين مقوّس الساقين كان واقفاً أمام الدرج مباشرة ، وقبّعته في يده وفمه محشو بالخبز : « كورل سمولت! تكلم ياكورل سمولت! لقد لبثتم هنا طيلة بعد الظهر تزعقون » .

فقال كورل سمولت وهو يمضغ : « نعم ياسيدي القنصل ، هذه قضية... لكن...الأمور بلغت هذا الحد... إننا نقوم بثورة » .

« ماهذه الحماقة ياسمولت! »

« نعم ياحضرة القنصل ، أنت تقول هذا ، لكن الأمور بلغت هذا الحد... ونحن لم نعد راضين عن هذه القضية... نحن نطالب بنظام آخر... ولم يعد أيضاً أننا... » .

« اسمع ياسمولت وأنتم الآخرون من كان منكم يعقل فليذهب الى بيته ، ولايشغل نفسه بعد الآن بثورة ولايخل بالنظام... » .

فقاطع السيد جوش ولصوته مثل الفحيح... « النظام المقدس! » .

قال القنصل بودنبروك : « النظام أقول... حتى المصابيح لم تشعل... هذا خروج بالتورة عن الحد! » . هنا كان كورل سمولت قد انتهى من ازدراد لقمته فوقف والجمهور من خلفه منفرج الساقين وأبدى اعتراضاته...

« أجل ياحضرة القنصل ، هذا ماتقوله ، لكن هذا فقط من أجل المبدأ العام لقانون الانتخاب... » .

فصاح القنصل : « يا لله ، ويالك من أحمق » ونسي في غضب أن يخاطبه بالعامية « إنك تهذي وتقول سخفاً... » .

فقال كورل سمولت وقد أرهبه كلام القنصل شيئاً ما : « نعم ، ياحضرة القنصل ، إن كل

شيء كما هو ، لكن الثورة يجب أن تكون . هذا قول مؤكد كل التأكيد . الثورة في كل مكان . في برلين وفي باريس...» .

«سمولت ، ماذا تريد في الحق ، قل!» .

«نعم ياحضرة القنصل ، إني أريد فقط : إننا نريد جمهورية ، أقول ذلك فقط...» .

«لكن أيها الأبله... . إن لكم واحدة بالفعل!» .

«نعم ياحضرة القنصل ، إذن نريد واحدة أخرى» .

فأخذ البعض بالوقوف ، ممن هم أعرف منه ، يضحكون مستأنين ومن قلوبهم ، ومع أن قلة منهم هي التي فهمت جواب كورل سمولت فقد انتشرت البهجة بينهم حتى باتت جمهرة الجمهوريين يقهقهون قهقهة عريضة تنطق بالطيبة . وظهر بنوافذ قاعة مجلس المواطنين بعض الوجوه المستطلعة لبعض السادة وبأيديهم أقداح البيرة... وكان الوحيد الذي خيب أمله هذا التحوّل في الأمور وآلمه هو سيجسموند جوش .

وقال القنصل بودنبروك في النهاية : «والآن أيها الشقي ، أظن أن خير مايُفعل هو أن تعودوا جميعاً إلى بيوتكم!» .

أجاب كورل سمولت وقد ربكه كل الربكة ما أحدثه من تأثير : «نعم ياحضرة القنصل ، هكذا ، ولنترك المسألة الآن . وإني مسرور من أن حضرة القنصل لم يستأ منّا ، والى اللقاء أيضاً ياحضرة القنصل...» .

وأخذ الجمهور يتفرق وهو في أشد اغتباط .

وصاح القنصل بسمولت : «قف لحظة! قل لي ألم ترَ مركبة كروجر ؟ هنا أمام بوابة القصر ؟» .

«أجل ياحضرة القنصل ، إنها قادمة ، إنها تصعد الينا على غير انتظار...» .

«حسناً ، انصرف الآن بسلام ياسمولت ، وقل ليوخن أن يسرع قليلاً لأن السيد يريد العودة الى المنزل» .

«سمعاً وطاعة ياسيدي القنصل!» وألقى كورل سمولت قبعته فوق رأسه وهبط الشارع بخطى متباعدة متزنة .

الفصل الرابع

لمّا عاد القنصل بودنبروك مع سيجسموند جوش الى الاجتماع كان مظهر القاعة أدل على الإرتياح مما كان قبل ربع ساعة . وقد كانت مضاءة بمصباحين غازيين قائمين على منضدة الرياسة وعلى ضوئهما الأصفر كان السادة جلوساً ووقوفاً مع بعضهم البعض يصبون لأنفسهم من بيرة القناني في أقداح لامعة ويتقارعون ويتحادثون في ضوضاء ونفسية غاية في المرح . وكانت مدام زير كلنجل حاضرة تعنى بضيوفها المحتجزين وتمدهم بالاقتراحات بكلام فصيح ، إذ الحصار خليق أن يستمر طويلاً ، وإذ تفيد من هذه الأوقات الهائجة المائجة لتبيعهم مقادير كبيرة من جعتها الصفراء التي تكاد تكون كحولية . وكان خادم الدار عند عودة المفاوضين قد أحضر مؤونة جديدة من القناني حاسراً كمية متهلل الوجه بابتسامة ، ومع أن المساء كان قد أوغل والوقت كان من التأخر بحيث يمنع من الالتفات الى تعديل الدستور ، فإن أحداً لم يبد ميلاً الى الانفضاض والعودة الى المنزل . وتناول القهوة كان في هذه الحالة قد فات اليوم أوانه......

وبعد أن تلقى القنصل عدة مصافحات تهنئة له على نجاحه توجه من فوره الى حميه الذي كان ساخطاً . فقد كان جالساً في مكانه منتصباً ، جافاً ، برماً يجيب على مانقل اليه من أن المركبة الآن في طريقها الى المجلس بصوت فيه سخرية يرتعش من مرارة النفس أكثر مما يرتعش من الشيخوخة : «هل سمح الغوغاء بأن يتركوني أعود الى بيتي ؟» .

وفي حركات جافة لاتذكّر بحال بلفتاته الظريفة التي يعرفها الناس فيه ترك من يضع له المعطف فوق كتفيه ، ودفع ذراعه تحت ذراع صهره لما عرض عليه القنصل أن يرافقه ، وقال في غير اكتراث : «شكراً!» .

وكانت المركبة الفاخرة المزدانة بمصباحين كبيرين عند مقعد الحوذي واقفة أمام الباب

حيث بدىء بإشعال المصابيح ـ الأمر الذي أثلج صدر القنصل ، وامتطى كلاهما المركبة .
وجلس ليبرشت كروجر عن يمين القنصل مستقيماً في جلسته ، صامتاً ، لايسند ظهره ، مغمض العينين نصف إغماضة ، وعلى ركبتيه غطاء المركبة ، بينما كانت المركبة تدرج مخترقة الشوارع وتجري زاويتا فمه المسحوبتان جانباً في غضنين عمودين يصلان الى ذقنه ، تحت طرفي شاربه الأبيض القصيرين ، ويأكل صدره غل ما أصابه من اذلال وينتهبه ، وهو ينظر الى المقعد الخالي أمامه نظرة جامدة باردة .

وكانت الحركة في الشوارع أنشط من المألوف في أيام الآحاد ، والجو السائد فيما يبدو جو الأعياد ، والشعب يجول هنا وههنا راضياً مسروراً بأن الثورة قد جرت هذا المجرى السعيد . بل لقد كان الناس يغنون ، وهنا وهناك تنطلق صيحات الصغار : مرحى! والمركبة مارة بهم وهم يلقون بقبعاتهم في الهواء .

قال القنصل : « إني أعتقد حقاً أنهم متأثرون بالقضية تأثراً كبيراً يا أبي . فحسبنا أن نتذكّر أي مهزلة من التغفيل كان الأمر كله وأية ملهاة! » ولكي يتلقى من الشيخ جواباً أو تصريحاً جعل يتكلم عن الثورة كلاماً عاماً ، قال : « لو أن الجمهور المحروم من الملك تبيّن مبلغ ماتؤديه الثورة لقضيتهم في هذه الأوقات من نفع ضئيل... يالله! إن الأمر هكذا في كل مكان! لقد دار بيني وبين السمسار جوش بعد ظهر اليوم حديث وجيز . وهو الرجل العجيب الذي يتأمل كل شيء بعين شاعر وكاتب مسرحيات... انظر ياحمي! لقد انتشرت الثورة في برلين على موائد الشاي الأنيقة ، ثمّ جاء الشعب فخاض المعركة في سبيل القضية وعرّض نفسه للأخطار ـ فهل ينتهي الأمر على حسابه ؟ » .

فقال السيد كروجر « لعلك تفتح النافذة التي الى جانبك! » .

فألقى يوهان بودنبروك عليه نظرة سريعة وعجّل بإنزال اللوح الزجاجي .

وسأله مهتماً : « أتحس بوعكة يا أبي العزيز ؟ » .

فأجاب ليبرشت كروجر بشدة : « كلا ، كلا ، إطلاقاً! » .

فقال القنصل وقد عدّل غطاء الفراء على ركبتي حميه ليفعل أي شيء : « إنه تلزمك لقمة وراحة » .

وبغتة ـ وكانت المركبة تدرج في شارع القصر ـ وقع شيء مخيف . ذلك أنه لما مرت المركبة على مبعدة خمس عشرة خطوة من جدران البوابة التي بدت في شبه ظلام بجماعة من غلمان الأزقة الصاخبين الطروبين قذف أحدهم حجراً الى داخل المركبة من النافذة المفتوحة ، وكان حجراً عديم الأذى تماماً يكاد لايتجاوز حجمه بيضة الدجاجة ألقته يد

كريشان سنوت أو هيني بوس من الغلمان احتفالاً بالثورة ، لايراد به سوء على التحقيق ولم يستهدف المركبة في الراجح على الاطلاق . وقد دخل المركبة من النافذة من دون أن يحدث صوتاً ، وصدم من دون صوت أيضاً صدر ليبرشت كروجر المغطى بالفراء الوثير ، ثمّ تدحرج بلا صوت كذلك من الفراء واستقر على الأرض .

فقال القنصل غاضباً : «قحة سمجة! هل الناس مساء اليوم مفلوتو العيار ؟... لكنه لم يصبك أذى ياحمي ، أليس كذلك ؟» .

فلزم كروجر الشيخ الصمت . لزمه بصورة تبعث على الخوف . فقد كان داخل المركبة من الظلمة بحيث يتعذر تمييز وجهه . وقد كان يجلس أشد استقامة وعلواً وتيبساً من ذي قبل من دون أن يمس حشية الظهر . لكنه بعدئذ ندت عنه كلمة واحدة نطقها في بطء وجفاء وثقل : «أوغاد!» .

وتحاشى القنصل إثارته أكثر من ذلك فلم يرد . ومرّت المركبة من البوابة ولها رنين ، وبعد ثلاث دقائق كانت تسير في الطريق العريض الممتد أمام السور المذهب الأطراف الذي يحد ملك كروجر ، وكان على جانبي باب الحديقة الواسع الذي يؤلف المدخل الى الممشى المؤدي الى الشرفة والذي يقوم على جانبيه شجر الكستناء ــ مصباحان ساطعان على غطائيهما زران مذهبان . وأجفل القنصل لمّا أن تأمل هنا وجه حميه فقد كان أصفر اللون مترهلاً بالغضون ، قد تقبض فيه التعبير الجاف الجامد المنطوي على الإزدراء الذي كان فمه يحتفظ به ، الى ذلك الحين ، الى ملمح غريب من ملامح الشيخوخة يدل على الوهن والإنحراف والتدلي والغباء... ووقفت المركبة أمام الشرفة .

وقال ليبرشت كروجر : «ساعدوني! وإن كان القنصل الذي ترجل قبله قد طرح عنه غطاء الفراء وقدم له ذراعه وكتفه ليستند اليهما . وقد اقتاده في هينة ورفق على أرض الحصباء بضع خطوات الى الدرج المكشوف اللامع المفضي الى قاعة الأكل . وفي أسفل الدرج هوى الشيخ على ركبتيه وانطرح رأسه بثقل فوق صدره الى أن سمع صوت اصطكاك فكه المتدلي بفكه الأعلى ودارت عيناه وانكسرتا...

ولحق ليبرشت الفارس الأنيق بآبائه .

الفصل الخامس

بعد ذلك بسنة وشهرين ، وفي صباح يوم من أيام يناير من عام ١٨٥٠ وقد تشبع الجو ببخار ثلجه كان السيد جرينليش وزوجته جالسين بجانب ابنتهما الصغيرة البالغة من العمر الثالثة في حجرة الطعام المكسوة بخشب ذي لون بني فاتح على كرسيين يبلغ ثمن كل منهما ٢٥ ماركاً يتناولان إفطارهما الأول .

وكان زجاج النوافذ يغشيه الضباب فيكاد لايشف عمّا وراءه ، فكانت الأشجار العارية والشجيرات من خلفها تبدو عائمة . وكان الموقد الوهاج المنخفض المزجج باللون الأخضر يطقطق ويشيع في المكان دفئاً لطيفاً عبقاً بعض الشيء ، والموقد قائم في بعض الأركان بجانب الباب المفتوح المؤدي الى حجرة التأملات حيث يرى بعض النبات . وفي الجهة المقابلة ستائر خضراء مزاحة تكشف عن الصالون المكسو بالحرير الاخضر وعن بابٍ زجاجي عالٍ قد سدت شقوقه بملفات من القطن . واختفت من خلفه شرفة صغيرة في الضباب الأشهب الكثيف ، هذا الى مخرج ثالث جانبي يؤدي الى الدهليز .

وكان الحرير الدمشقي المشغول الناصع البياض المبسوط فوق المائدة المستديره تعلوه متساية من القماش الأخضر المطرز ، ويغطيه بورسلين ذو كنار ذهبي يبلغ من شفافيته أنه كان يبرق هنا وهنا كالصدف . وكان جهاز للشاي يطن ، وفي سلة خبز مسطحة من الفضة الرقيقة على صورة ورقة مشرشرة ملفوفة قليلاً قطع مستديرة وشرائح من خبز اللبن . وكان تحت مكبة من البلور كرات مبشورة من الزبد ، وتحت مكبة أخرى صنوف مختلفة من الجبن يرى منها الأصفر والمرمري والأخضر والأبيض . ولم يكن ينقص المائدة زجاجة من النبيذ الأحمر كانت قائمة أمام رب البيت ، ذلك أن السيد جرينليش كان يفطر بما هو ساخن .

وكان جالساً مديراً ظهره الى الصالون كامل اللباس ، قد زيّن لحيته العارضية من هنيهة ، وبدا وجهه في هذه الساعة من الصباح وردياً ، يرتدي سترة سوداء وسراويل ساق زاهية اللون مخططة بالمربعات الكبيرة ، ويأكل على العادة الانجليزية قطعة من الكستليتة محمرة تحميراً خفيفاً . وكانت زوجه تجد هذا من مقومات الوجاهة ، لكنها تمجه بدرجة كبيرة الى حد أنها لم تستطع قط أن تحزم أمرها على استبداله بفطورها المكوّن من الخبز والبيض .

وكانت توني في عباءة نومها ، فهي تحب عباءات النوم ولا يبدو في عينيها أوجه من « نيجليجيه » أنيق ، ولمّا كانت لم تتخل في بيت أبيها عن هذا الكلف فقد كانت أحرص عليه امرأة متزوجة . فهي تملك ثلاثة من هذه الأردية الطيعة الرقيقة التي يبدي صنعها من الذوق والدقة والخيال أكثر مما تبدي ثياب الرقص . لكنها اليوم كانت ترتدي ثوب الصباح الأحمر الداكن الذي يوافق لونه بالضبط لون الغشاء الخشبي والذي يزيد قماشه المزدان برسوم الأزهار الكبيرة نعومة عن القطن ، تحليه فصوص زجاجية دقيقة جداً من نفس اللون مبثوثة فيه كقطرات الغيث... وقد جرى فوقه من مقفل الرقبة الى الحاشية صف مستقيم متقارب من الشرائط المخملية الحمراء . وكان شعرها الأشقر الفاتح المزدان بشرائط من المخمل داكن الحمرة ، معقوصاً خصلاً فوق جبينها . ومع أن مظهرها ، كما كانت تعلم نفسها ، كان قد بلغ المنتهى ، فقد بقي تعبير شفتها العليا المفترة قليلاً عمّا كان من قبل ، دالاً على الطفولة والسذاجة والجرأة .وكانت جفون عينيها اللتين تجمعان بين الزرقة واللون الرمادي ، محمرة من الماء البارد ، وكانت يداها البيضاوان القصيرتان بمعصميهما الرقيقين سوارا الأكمام المخمليان ، وتحركان السكين والملعقة والفنجال حركات تدل اليوم لأمر ما ،على الاقتضاب والعجلة .

كانت الى جانبها الصغيرة ايريكا طفلة حسنة التغذية ، ذات خصل قصيرة رائقة الشقرة تجلس على كرسي برجي من كراسي الأطفال وترتدي ثوباً مضحكاً عديم الشكل مشغولاً من الصوف السميك الرائق الزرقة ، وتمسك بكلتا يديها الصغيرتين فنجالاً كبيراً يخفي وجهها بأكمله وتحتسي منه لبنها ويسمع لها بين الحين والحين تنهدات صغيرة تنم عن الاستسلام .

ودقت مدام جرينليش الجرس على الأثر فدخلت التابعة تينكا من الدهليز لترفع الطفلة على برجها وتحملها الى حجرة لعبها في الدور العلوي .

وقالت توني : « يمكنك أن تنزهيها بالعربة نصف ساعة في الخارج ياتينكا . لكن

لاتزيدي ، وألبسيها الجاكتة السميكة ، أتسمعين ؟... فالضباب منتشر » . وبقيت مع زوجها وحدهما .

وقال بعد صمت وجيز تريد مايبدو استئناف حديث انقطع : « إنك تجعل نفسك مضحكاً . . فهل عندك أسباب ترد بها ؟ إبدِ حقاً أسباباً مضادة . فإني لا أستطيع دوماً أن أعنى بأمر الطفلة... » .

« أنت لاتحبين الأطفال ياأنتونيا » .

« لاأحب الأطفال!... إني لا أملك الوقت لحب الأطفال... إن تدبير البيت يستغرقني! إني أستيقظ وفي رأسي عشرون فكرة يجب تنفيذها أثناء النهار ثمّ آوي الى الفراش وذهني مشحون بأربعين لم تنفذ بعد... » .

« إن لديك فتاتين تخدمانك ، منهما شابة » .

« فتاتان ، حسن ، تينكا عليها الغسيل والتنظيف والخدمة والطاهية مشغولة دائماً . فأنت تأكل كوستليته في الصباح الباكر..فكّر ياجرينليش! إن ايريكا يجب إن عاجلاً أو آجلاً أن تكون لها مربية... » .

« إنه لايناسب حالتنا أن يكون لها من الآن مربية... » .

« حالتنا آ..آه ياربي » إنك تجعل نفسك مضحكاً! فهل نحن إذن متسوّلين ؟ هل بات علينا أن نتخلى عن الضروري ؟ إني على ما أعلم قد جلبت لك ثمانين ألفاً من الماركات... » .

« آه آلافك هذ الثمانون! » .

« بالتأكيد!... إنك تذكرها مستهيناً... إن الأمر عندك لم يتوقف عليها... إنك تزوجت مني عن حب . حسن...لكن أما زلت تحبني ؟ إنك لاتعبأ برغباتي . فينبغي أن يكون للطفلة فتاة... والمركبة « الكوبيه » اللازمة لنا لزوم الخبز اليومي لم تعد تُذكر مطلقاً...لماذا تدعنا نسكن الريف على الدوام ، إذا كانت حالتنا لاتسمح لنا بإقتناء مركبة نتوجه بها الى المجتمعات كما يليق ؟ لماذا لاتحب أبداً أن أتوجه الى المدينة ؟... لأحب اليك أن ندفن هنا دفعة واحدة ، وأن لا أرى وجه إنسان . إنك لاتطاق! » .

فصبّ السيد جرينليش لنفسه كأسا من النبيذ ، ورفع المكبة البلورية ومدّ يده الى الجبن ، ولم يحر جواباً على الإطلاق .

فعادت توني تقول : « أما زلت تحبني! إن صمتك من عدم اللياقة بحيث يسمح لي بأن أذكرك بمنظر بعينه في حجرتنا ذات المناظر الطبيعية... كان لك يومئذ مظهر آخر!... إنك منذ يومنا الأول لاتجلس معي إلا في المساء ، وذلك فقط لتقرأ في صحيفة... .كنت في

البداية تبدي على الأقل شيئاً من الالتفات لرغباتي ، لكن هل بات من أمد طويل وكأنه لم يكن . إنك تهملني! » .

« وأنتِ . أنتِ تعملين على خرابي » .

« أنا ؟ أنا أعمل على خرابك... » .

« أجل . إنكِ تجرين علي الخراب بكسلك ، بحبك للخدم والإنفاق... . »

« أوه! أتأخذ علي تربيتي الحسنة! إنني عند والدي لم أكن أحتاج الى أن أحرّك اصبعاً . والآن أصبح من المحتّم عليّ أن أكد في تدبير المنزل ، لكني أستطيع أن أطلب أن لاتحبس عنّي أبسط المعونات .إن أبي رجل غني ماكان يسعه أن ينقصني من يخدمني... »

« إذن انتظري حتى نفيد من هذا الغنى ، وبعدها تظفرين بالخادمة الثالثة » .

« أتتمنى موت أبي ؟! إنني أقول أننا من أهل اليسار وأنني لم آت اليك بيدين خاليتين... » .

ومع أن السيد جرينليش كان يمضع فإنه ابتسم ، ابتسم متعالياً ، شجناً ، صامتاً ، فأربك هذا توني .

فقالت وهي أهدأ نفساً : « جرينليش ، إنك تبتسم وأنت تتحدث عن أحوالنا ... فهل أنا مخدوعة في مركزنا ؟ هل ساءت أعمالك ؟ هل... » .

في هذه اللحظة سمع دق ، نقر وجيز على باب الدهليز ، ودخل السيد كيسلماير .

الفصل السادس

جاء السيد كيسلماير كصديق للبيت الى الحجرة من دون استئذان ، ودون قبعة ومعطف ، وظلّ واقفاً بالباب ، كان مظهره يطابق كل المطابقة ماوصفته به توني في رسالة لها الى أمها . كان قصير القامة شيئاً ما ، لا بالبدين ولا بالنحيل . وكان يرتدي سترة سوداء باتت تلمع بعض الشيء وسراويل قصيرة ضيقة مما ينتهي عند الساق ، وصدرية بيضاء تتقاطع فوقها سلسلة ساعة طويلة رفيعة مع رباطين أو ثلاثة أربطة تمسك بها نظارته ، تتباين مع وجهه الأحمر لحيته العارضية البيضاء المقصوصة تبايناً حاداً ، وكانت تغطي خدّيه وتكشف ذقنه وشفتيه . وكان فمه صغيراً حركاً مضحكاً ، لايحتوي فكه الأسفل سوى سنّين . وبينما وقف السيد كيسلماير مرتبكاً ، تائهاً ، مفكراً ، ويداه ، في جيبي سرواله العموديين ، ثبت هاتين السنين الجانبيين الصفراوين المشبهين المخاريط فوق شفته العليا . وكان الزغب الأبيض والأسود النابت في رأسه خفيفاً ، وإن لم تكن هناك أدنى نسمة تهب أو تحس .

وأخيراً أخرج يديه من جيبي سراويله ، وانحنى ، وترك شفته السفلى مدلاة ، واستخلص في عناء رباطاً من أربطة نظارته من التعقيدة المستقرة على صدره ثم ركّز بضربة واحدة نظارته الشابكة على أنفه ، واتّخذ وجهه في ذلك تقطيبة تعبر عن إقدامه على أعظم مغامرة ، ثمّ تأمل الزوجين وقال : «آها!» .

ويلاحظ في الحال وقد ألف استعمال هذه العبارة بصورة غير عادية ، إنه درج على أن يلفظها على صور مختلفة جداً ، فريدة جداً ، كان يستطيع نطقها ورأسه منطرح الى الخلف ، أنفه منكمش ، وفمه مفغور ، ويداه ملوحتان في الهواء ، رنين أنفي مسترسل معدني يذكّر بغناء الجونج الصيني... وكان يستطيع أن يلفظها من جهة أخرى وبغض النظر عن ظلال

كثيرة ، وجيزة جداً ، عرضية ، رقيقة ، وهو مايمكن أن يتميّز بأنه أغرب في بابه ، ذلك أنه كان ينطق حرف «أ» كدراً ، وأنفياً جداً . أما اليوم فلفظ «أها» عابرة مرحة ، مصحوبة بهزة صغيرة متقلصة من الرأس لاحت كأنها صادرة عن حالة نفسية طروب غاية الطرب . ومع ذلك فإنه لايجوز أن يؤمن لهذا ، لأن هناك حقيقة واقعة هي أنه كلما ازداد المصرفي كيسلماير مرحاً كان هذا منه أدل على نفسية خطرة . وإذا ظلّ يقفز هنا وهناك بأهاته ، ويرشق أنفه بنظارته ، ثمّ يدعها تسقط ، وإذا لوّح بذراعيه وثرثر ولم يعرف من فرط بلاهته أن يستقر فليثق المرء بأن الشر يستهلكه . وقد طرف السيد جرينليش بعينيه حين رآه واستراب به بصورة صريحة .

قال : «أبهذا البكور ؟»

فأجابه كيسلماير : «أجل» وهزّ إحدى يديه الصغيرتين الحمراوين المتغضنتين في الهواء كمن يريد أن يقول : صبراً ، فإن لك عندي مفاجأة!... «إني أريد أن أتحدث معك . أريد أن أتحدث معك بلا إبطاء ياعزيزي!» وكان كلامه مضحكاً جداً ، فقد كان يدحرج كل كلمة ويخرجها من فمه الصغير الأدرد ، الحَرِك بكل مافي السخف من قوة . كان يلفظ «معك» كما لو كان حلقه مشحماً . ومضى السيد جرينليش يطرف بعينيه ، كلما ازداد استرابة وسوء ظن .

وقالت توني : «تعال الى هنا ياسيد كيسلماير! اجلس! جميل منك أن تأتي... انتبه . ينبغي أن تكون حكماً بيننا . لقد كنت من لحظة أتشاحن مع جرينليش... .قل لي : أيجب أن يكون لطفلة في الثالثة مربية أم لا! والآن ؟...» .

بيد أن السيد كيسلماير بدا كأنه لم يلتفت اليها . فقد جلس فاغراً فاه الصغير بأوسع مايستطيع مغضناً أنفه ونبش بسبابته لحيته العارضية المقصوصة الأمر الذي أحدث صوتاً يثير الأعصاب . وعاين من فوق النظارة مائدة الإفطار الأنيقة ، وسلة الخبز الفضية والبطاقة الملصقة على زجاجة النبيذ الأحمر بوجه طروب جداً .

واستطردت توني تقول : « ذلك أن جرينليش يزعم أني جررت عليه الخراب!» .

وهنا نظر كيسلماير اليها... ثمّ حول نظرته الى جرينليش... ثمّ انفجر يقهقه قهقهة عجيبة ، صاح : «أنت تجرين عليه الخراب... ؟ أنت... تجر... أنت . إذن أنت تخربين بيته... يا إلهي! ياأيها الزمن السعيد!... إن هذا لمضحك! مضحك الى آخر ، آخر حد» . واستسلم لفيض من الآهات المتنوعة .

وكان الهر جرينليش يتحرّك فوق كرسية يمنة ويسرة حركة عصبية ظاهرة ، تارة يدس

سبابته الطويلة بين بنيقته ورقبته ، وتارة يمر يديه في عجلة فوق لحيته الصفراء الذهبية...

قال : « كيسلماير! أمسك عن هذا! إنك مستكمل حواسك! كف عن الضحك! أتريد نبيذاً ؟ أتريد سيجاراً ؟ علام تضحك في الحقيقة ؟

« علام أضحك ؟... نعم ناولني كأساً من النبيذ ، أعطني سيجاراً... علام أضحك ؟ أنت تجد إذن أن قرينتك تجر عليك الخراب ؟ » .

فقال جرينليش غاضباً : « إنها مخلوقة للترف » .

فلم تعارض توني في هذا بحال ، بل قالت وقد رفعت شفتها العليا الى أعلى وتبحبحت في سند ظهرها ، ووضعت يديها في حجرها فوق الشرائط المخملية التي تزدان بها عباءتها المنزلية : « نعم... هكذا خلقت ، فهذا واضح وقد ورثته عن أمي . فآل كروجر جميعاً مترفون » .

وكان يمكن أن تصرّح بنفس الهدوء بأنها رعناء ، سريعة الغضب ، لاتترك ثأراً . إن روح الأسرة المتأصل فيها قد أبعدها تقريباً عن معاني الإرادة الحرة وتقرير المصير ، وجعلها تتبيّن صفاتها في هدوء وتسلّم بها دون تمييز ودون أن تحاول إصلاحها ، وقد كان من رأيها دون أن تفطن الى هذا ، أن كل صفة كائناً ما كان نوعها ، تعني شيئاً موروثاً وتقليداً عائلياً جديراً من ثمّ بالإحترام والتبجيل في كل الحالات .

لقد فرغ السيد جرينليش من تناول فطوره ، واختلط عبير السيجارين بدخان الموقد الدافىء .

وقال رب البيت : « أيمر الهواء في سيجارك ياكيسلماير ؟ ... خذ واحداً آخر . إني أصب لك كأساً أخرى من النبيذ الأحمر... إنك تريد التحدث اليّ إذن ، فهل الأمر يدعو الى العجلة ، ذو شأن ؟... أتجد الجو هنا أدفأ مما ينبغي ؟... سنركب فيما بعد معاً الى المدينة... إن حجرة التدخين أبرد على كل حال... » لكن السيد كيسلماير لم يعد ، مع كل مظاهر الالتفات هذه ، أن يهزّ إحدى يديه في الهواء كمن يريد أن يقول : لافائدة من كل هذا ياعزيزي!

وأخيراً نهض كلاهما ، وبقيت توني في قاعة الطعام لتراقب التابعة وهي تخلي المائدة اقتاد السيد جرينليش صديق أعماله مخترقاً حجرة التأملات ، يسير أمامه مائل الرأس يلف طرف الفرد الأيسر من لحيته العارضية بين أصابعه مستغرقاً في التفكير ، واختفى السيد كيسلماير خلفه في حجرة التدخين وهو يطوح بذراعيه .

وانقضت عشر دقائق ، وتوجهت توني لحظة الى الصالون ، لتمر بنفسها الرياشة

المتعددة الألوان فوق القرص اللامع المصنوع من خشب الجوز الذي للمكتب الصغير وعلى الأرجل المقوسة للمائدة ، ثمّ انتقلت على مهل الى حجرة الجلوس من قاعة الطعام تخطو في هدوء ووقار ملحوظين . وظاهر أن الآنسة بودنبروك لم تفقد شيئاً من الاعتداد بالنفس بوصفها مدام جرينليش . فقد كانت تسير منتصبة القامة ، تضغط ذقنها بعض الضغط على صدرها وتتأمل الأشياء من عل . تعابثها العباءة من حولها بثنياتها الطويلة الناعمة وهي جادة وتمسك بإحدى يديها ربطة المفاتيح المدهونة باللاكيه ، وتلامس باليد الأخرى الجيب الجانبي للعباءة الداكنة الحمرة بينما ينم تعبير فمها ـ ذلك التعبير الساذج الدال على خلو البال ـ عن أن مهابتها كلها شيء من عمل الأطفال عديم الأذى ، يدل على التظاهر .

وكانت تتحرك في حجرة التأملات وبيدها رشاشة صغيرة من النحاس تروي بها تربة النبات الورقي السوداء ، وكانت شديدة الحب لنخيلها الذي كان يزيد في وجاهة بيتها بصورة فخمة ، تتحسّس في رفق نبتاً صغيراً ناجماً من أحد العيدان السميكة المستديرة ، وتفحص في حنو تلك المراوح المبسوطة في جلال . وتبعد هنا أو هناك طرفاً أصفر بالمقص... وبغتة أنصتت إذ كان الحديث الذي يدور في غرفة التدخين قد علا ورنّ بالفعل منذ عدة دقائق رنيناً قوياً... لقد ارتفع الى حد أن فهمت منه مدام جرينليش كل كلمة حيث كانت ، مع أن الباب كان محكماً والستارة صفيقة .

سمعت السيد جرينليش يصيح : «لاتصرخ هكذا! بربك الا ما اتزنت!» وكان صوته الناعم لايحتمل هذا الجهد فهو يصر من جراء ذلك صريراً... ثم زاد على ذلك قوله : «ألك في سيجار!» .

فأجاب المصرفي : «بكل سرور . شكرا!» وتلت فترة صمت تناول السيد كيسلماير في خلالها ماتناول . ثمّ قال : «فلنوجز ، أتريد أم لاتريد! واحدة من اثنتين!» .

«اكيسلماير ، مد الأجل!» .

«آها!... . لا ياعزيزي ، كلا ، مستحيل . لاكلام في هذا! على الإطلاق...» .

«لم لا ؟ ماذا دهاك ؟ تفاهم معي برب السماء! هل انتظرت كل هذا الوقت...» .

«لايوم فوق ما انتظرت ياعزيزي! بلى ، لنقل ثمانية أيام ، لاساعة زيادة . ألا يعتمد اذن أحد ما على...» .

«لاتذكر أسماء يا كيسلماير!» .

«لاأسماء ، حسن... ألا يعتمد أحد ما آخر على المحمود السيرة السيد...» .

«لاتسمه...! لاتكن أحمق بربك!» .

«حسناً . لا تسمه . ألا يعتمد أحد ما آخر على البيت التجاري المعروف الذي يعلو ائتمانك ويهبط معه ياعزيزي ؟ كم خسر هذا البيت في تفليسة بريمن ؟ خمسين ألفاً ؟ سبعين ألفاً ؟ مائة ألف ؟ أكثر من ذلك ؟ أما أنه كان مرتبطاً ، ومرتبطاً بصورة هائلة تماماً فيما يعرفه كل مخلوق... إن مثل هذا مسألة مزاج . أمس كان... حسن ، لاأسماء . أمس كان البيت التجاري المعروف طيباً يحميك كل الحماية من الضيق وهو خلي البال... واليوم هو في كساد . وبندكس جرينليش أكسد الكاسدين... هذا واضح بلا ريب ألا تلاحظ هذا ؟ إنك في الحق أول من يجب أن يحس هذه التقلبات... فكيف يلاقونك إذن ؟ كيف ينظرون اليك إذن ؟ إن «بوك وكوتسيكر» كرماء تحدوهم الثقة بصورة هائلة ، فكيف مسلك بنك الإئتمان اذن ؟»

«إنه يمد الأجل» .

«أها! أتكذب ؟ إني أعرف أنه ركلك أمس! ركلك ركلة منعشة الى أبعد حد ؟... والآن انظر ؟... ولكن لايتولك الخجل! فإنه بطبيعة الحال في مصلحتك أن تموه عليّ بأن الآخرين اليوم هادئون مطمئنون كما كانوا من قبل . هيه ياعزيزي! اكتب الى القنصل . إني أنتظر اسبوعاً» .

«دفعة على الحساب يا كيسلماير!» .

«دفعة هنا وهناك . إن الدفعات التي على الحساب يدفعها المرء وهو مقتنع سلفاً بأن أحداً بعينه قادر على الدفع! فهل أنا بحاجة الى إجراء تجارب في هذا الباب ؟ إني عليم بمبلغ قدرتك على الدفع . إن الدفعة على الحساب مما أجده غاية في التسلية...» .

«اخفض صوتك يا كيسلماير! لاتواصل الضحك بهذا الشكل اللعين! إن مركزي من الخطورة... أجل إني أعترف بأنه خطير ، لكني أنتظر على هذا النحو أو ذاك أعمالاً كثيرة... ويمكن أن تجلب هذه الأعمال جميعها خيراً . استمع اليّ! مد الأجل ، وأنا أوقع لك على عشرين في المائة...» .

«لاشيء من هذا ، لا شيء من هذا... مضحك كل الضحك ياعزيزي! إني محب للبيع في الوقت المناسب . وقد عرضت عليك ثمانية في المائة ، ومددت لك الأجل . وعرضت عليك ١٢و ١٦ في المائة وكنت في كل مرة أمهلك . والآن تستطيع أن تعرض ٤٠ في المائة فلن أفكر في إمهالك ، لن أفكر ياعزيزي!... إنه منذ أن سقط أخوان فستفال في بريمن على أنوفهم وكل امرىء في هذه اللحظة يسعى الى إنقاذ مصالحه من البيت التجاري المعروف وتأمينها... وكما قلت ، إنني ممن يحبون البيع في الوقت المناسب . لقد كنت أحترم

توقيعاتك طيلة أن كان بودنبروك في مركز حسن لايعتوره شك... في تلك الأثناء كنت أجمع من الفوائد المتأخرة رأسمال وأرفع لك النسب المئوية! غير أن المرء يستبقي الشيء طالما كان يرتفع أو يظل على الأقل في مركز ثابت... أما إذا بدأ في النزول فالمرء خليق أن يبيع... أريد أن أقول أني أطالب برأسمالي» .

«كيسلماير ، إنك قليل الحياء!» .

«آ- ها ، إني أجد هذه الكلمة مسلية جداً! ماذا تريد إطلاقاً ؟ إنك لابدّ أن تتجه الى حميك! إن بنك الإئتمان يغلي وأنت بالذات لست الى هذا خلواً من الشوائب...» .

«كلا يا كيسلماير... إني أستحلفك أن تستمع اليّ الآن في هدوء!...

إني صريح ، إني أعترف لك بلا لف ولا دوران أن مركزي حرج وأنت وبنك الإئتمان لستما الوحيدين... لقد قدمت اليّ صكوك... كأنّما كل شيء كان على ميعاد...» .

«بديهي . وفي هذه الظروف... لكنها تصفية...» .

«كلا يا كيسلماير ، اسمعني! أولني حبك ، وخذ سيجاراً آخر...» .

«إني لم أفرغ بعد من هذا ؟ دعني وسيجارك في سلام! ادفع لي...» .

«كيسلماير ، لاتدعني أسقط الآن... إنك صديقي ، لقد أكلت مائدتي...» .

«لعلك لم تأكل أيضاً على مائدتي ياعزيزي ؟» .

«أجل ، أجل... لكن لاتنذرني بسحب ثقتك الآن يا كيسلماير...!» .

«ثقة ؟ إئتمان بعد هذا ؟ هل أنت مجنون ؟... قرض جديد... ؟» .

«إني أستحلفك يا كيسلماير... قرضاً صغيراً ، شيئاً قليلاً!... إني محتاج الى بضع دفعات للتأدية وعلى الحساب ، أنفقها ذات اليمين وذات الشمال لأسترد احترامي وصبري...أسندني تفز بصفقة كبيرة! فكما قلت لك ، إن هناك طائفة من الأعمال تنتظرني ، وستكون النتيجة خيراً في كل شيء... فأنت تعلم أني جاد وواجد...»

«نعم أنت غبي أخرق ياعزيزي ، ألا تتكرم الكرم الأكبر فتقول لي ماذا تريد أن تجد الآن ؟ . . . ربّما في مكان ما من العالم الواسع بنك يضع لك على المائدة فرضاً فضياً ؟ أو حماً آخر... دعك... إن ضربتك الكبرى باتت في ذمة الماضي! ومثلها عزيز عليك مرة أخرى! احتراماتي! لا ، بل أسمى التقدير!»

«اخفض صوتك بحق الشيطان...»

«إنك غبي! غبي وواجد... نعم ولكن لمصلحة أناس آخرين ، إنك عديم المبالاة ، ومع ذلك لم تجن فائدة من وراء ذلك . لقد نصبت واحتلت على رأس المال لتدفع لي ١٦ في

المائة بدلاً من ١٢ . لقد أطرحت شرفك ودست عليه من دون أن تجني أقل فائدة . لك ضمير كضمير كلب القصاب ، ومع ذلك أنت منحوس ، بل أبله ، مغفل هزيل ، إن أمثالك موجودون ، وهم مسلون الى أقصى حد!... لِمَ تخاف مثل هذا الخوف من الإلتجاء بالمسألة كلها الى «المعروف» ؟ الأنك لاتشعر براحة تامة في هذا ؟ الأنه من أربع سنوات مضت لم تكن الأمور على مايرام ؟ولم يكن كل شيء يجري مجرى نظيفاً كل النظافة ، أليس كذلك ، أتخشى أن أشياء بعينها...» .

«حسناً يا كيسلماير ، سأكتب . لكن إذا رفض ؟ إذا تركني أسقط ؟...»

«أوه... أها! عندئذ نعلن إفلاساً صغيراً مسلياً للغاية ياعزيزي . وهذا لايهمني . لايهمني بحال من الأحوال! إني شخصياً قد استرددت مصاريفي تقريباً من الفوائد التي التقطتها من هنا وهناك . . ولي في التفليسة الأولوية يا عزيزي . . ثمّ انتبه ، إنه لن ينقصني شيء . فأنا عليم بدخائلك أيها المحترم! وقائمة الجرد في جيبي مقدماً... أها! وسأعنى بألا تهرب سلة خبز فضية أو عباءة منزل...»

« كيسلماير ، لقد أكلت على مائدتي...» .

«دعني من مائدتك! بعد ثمانية أيام أتلقى ردّك . إني ذاهب الى المدينة . قليل من الحركة ينفعني نفعاً جزيلاً . عم صباحاً ياعزيزي! وليكن صباحاً سعيداً مرحاً...»

وبدا على السيد كيسلماير أنه يريد الانصراف ، بلى لقد انصرف ، وسمع وقع خطاه الغريبة الجارفة في الطرقة ، وتمثله من شاء يطوح ذراعيه...

ولما دخل السيد جرينليش في حجرة التأملات كانت توني واقفة هناك وبيدها الرشاشة النحاسية ، فنظرت في عينه .

فقال لها : «لم تقفين ؟... لمَ تحملقين ؟...» وكشّر عن أسنانه ، ورسم في الهواء حركات مبهمة بيديه ، وأرجح جسمه الأعلى هنا وهناك ، ولم يكن وجهه الوردي قادراً أن يشحب الشحوب كله ، بل كانت تغطيه بقع حمراء ، كأنه وجه مريض بالحصبة .

الفصل السابع

وصل القنصل بودنبروك في الساعة الثانية بعد الظهر الى الفيلا فدخل صالون آل جرينليش بمعطف السفر الرمادي وعانق ابنته بحرارة أليمة بعينها . وكان بادي الشحوب والتيخوخة ، وكانت عيناه الصغيرتان غائرتين في محجريهما ، وأنفه بارزاً حاداً وكبيراً بين خديه المترهلين ، وشفتاه تبدوان أرق مما كانتا في العادة ولحيته التي لم تعد أخيراً سوى خطين مخصلين يجريان من السوالف الى وسط الخدين ، لكنها كانت تنبت تحت ذقنه وخديه تغطيها نصف تغطية بنيقته المنشاة وربطة رقبته العالية ـ هذه اللحية وقد وخطها الشيب كما وخط شعر رأسه .

لقد قضى القنصل أياماً عصيبة أليمة ، إذ مرض توماس بنزيف في الرئة تلقى الأب نبأه السيىء من السيد فاندر كيلن فاستودع أعماله يدي وكيله الحريصتين وبادر من أقصر طريق الى مستردام ، وقد تثبت من أن مرض ابنه لاينطوي في ذاته على خطر مباشر ، لكنه كان من المستحسن أن يبدل الهواء في الجنوب على عجل ـ جنوب فرنسا . ولما كان من محاسن المصادفات أنه كان قد رتب لابن رئيسه الشاب رحلة استجمام ، فقد ترك الشابان يسافران الى بو مَعاً بمجرد أنه أصبح توماس قادراً على السفر .

ثمّ أنه ماكاد يعود الى بيته حتى أصابته هذه المصيبة التي زعزعت كيانه لحظة من الزمان! هذا الإفلاس في بريمن الذي فقد فيه «من ناحية» ثمانين ألف مارك... فلأي سبب ؟ كانت السفاتج المسحوبة المخصومة على «فستفال أخوان» بعد أن توقف المشترون عن الدفع ، لقد عادت الى بيت بودنبروك التجاري ، لابوصف أنه ينقصها التغطية . فقد أبدى بيت بودنبروك في الحال ماوسعه دون تردد أو ارتباك . لكن هذا لم يمنع أن يتجرع القنصل

كل مافاجأه من جفوة وتحفظ وسوء ظن يثيره عادة مثل هذا المصاب ، ومثل هذا الوهن في رأسمال المتجر لدى المصارف «والأصدقاء» والبيوت التجارية...

وقد نهض ، وتنبه لكل شيء وهدأ ، وسوى ، وتحدى... لكنه وسط الكفاح وفي غمرة البرقيات والرسائل والحسابات حل به هذا أيضاً : بندكس جرينليش ، جرينليش زوج ابنته بات عاجزاً عن الدفع فهو يرجو ويتوسل ويندب في رسالة مسهبة مضطربة ، أسيفة جداً ، طلبا لمساعدة تبلغ من مائة الى مائة وعشرين ألف مارك . وقد أبلغ القنصل زوجه هذا النبأ في إيجاز ، مترفقاً ملتزماً السطح ، ورد على السيد جرينليش رداً جافاً يرجوه مقابلته مع المصرفي كيسلماير في بيت الأول ، ثمّ سافر اليه .

استقبلته توني في الصالون ، وكان يروقها أن تستقبل الضيف في الصالون المكسو بالحرير البني . وإذ كان يداخلها شعور نافذ رهيب بأهمية مركزها الخاص دون أن تلم ببواطن الأمور فإنها لم تستثن الأب اليوم من هذا الاستقبال . وكان منظرها جميلاً جاداً وهي ترتدي ثوباً رمادياً زاهياً جرسي الأكمام ، مزداناً بالدنتيلا من فوق الصدر والمعصمين وجونلة واسعة تساير أحدث شهرة ، وتتحلى برصيعة صغيرة من الماس عند مقفل الجيد .

«طاب يومك ياأبي ، أخيراً نلتقي بك مرة أخرى! كيف صحة ماما ؟... ألديك أخبار طيبة عن توم!... اخلع معطفك وتفضل بالجلوس ياأبي العزيز! ألا تريد أن تتزين ؟... لقد أعددت لك حجرة الضيوف في الطبقة العليا... إن جرينليش يتزين في هذه اللحظة أيضاً...»

«دعيه الآن يا ابنتي ، فإني أريد أن أنتظره هنا تحت . أنت تعلمين أني أتيت لحديث مع زوجك... حديث جدّي جداً ياعزيزتي توني . فهل حضر السيد كيسلماير ؟»

«نعم ياأبي ، إنه جالس في حجرة التأملات يتفرج على الألبوم...»

«وأين ايرينكا ؟»

«فوق مع تينكا في حجرة الأطفال ، وصحتها حسنة . إنها تغسل دميتها ... ليس في الماء طبعاً... دمية من الشمع... بالإيجاز تفعل فقط هكذا...»

قال القنصل : «مفهوم» وتنفس الصعداء ثمّ استطرد : «إني أفترض يا ابنتي العزيزة أنك غير ملمّة بمركز زوجك ؟»

وكان قد جلس فوق مقعد ساند من المقاعد المحيطة بالمائدة الكبيرة بينما اتّخذت توني مجلسها عند قدميه على كرسي صغير يعرض ثلاث حشايا حريرية بعضها فوق بعض في وضع منحرف . وكانت أصابع يده اليمنى تعبث بانتباه بالماسات العالقة بجيدها .

فأجابت توني : «كلا ياأبي فإني لاأعلم شيئاً . وهذا ما أعترف لك به . ياإلهي إنني

بلهاء ، أتعلم ؟ إني غير بصيرة! لقد أنصت أخيراً حينما كان يتكلم كيسلماير مع جرينليش... وقد بدا لي في ختام حديثهما كأنما كان السيد كيسلماير يمازح... فقد كان كلامه دائماً مضحكاً . وقد طرق سمعي اسمك مرة أو مرتين... »

« سمعت اسمي ؟ بأية مناسبة ؟ »

« لاأعلم يا أبي ، فلست أعرف عن المناسبة شيئاً! ... لقد بات جرينليش في ذلك يتولاه السخط... أجل ، لايحتمل ، وهذا مالابد من قوله!... الى أمس . ثمّ رق ، وسأل عشر مرات أو اثنتي عشرة مرة هل أحبه ، وهل أتكلم له عندك كلمة طيبة إذا مارجاك في شيء... »

« آه! »

« لقد أنبأني أنه كتب اليك ، وأنك آت... وأحمد الله أنك أتيت! فالحال هنا غريبة بعض الغرابة... لقد أعد جرينليش مائدة اللعب الخضراء... وعليها طائفة من الأوراق والأقلام الرصاص... ويقال أنك ستتداول معه ومع كيسلماير » .

فقال القنصل وهو يملس شعرها بيده : « اسمعي يا ابنتي العزيزة... يجب أن أسألك عن شيء ، شيء جدي! فقولي لي... أتحبين زوجك من كل قلبك ؟ »

فقالت توني : « بالتأكيد يا أبي » . قالت هذا بوجه فيه رياء الأطفال كعادتها يوم كانت تسأل : إنك لن تغضبي بعد الآن ليزا بائعة العرائس ياتوني ؟ وصمت القنصل لحظة . ثمّ عاد يسأل :

« إنك تحبينه طبعاً بحيث لاتستطيعين العيش من دونه... مهما تكن الظروف ، أليس كذلك ؟ حتى لو أراد الله أن يتبدل مركزه وأن ينتقل الى حال لاتعود تسمح له بأن يظل يحيطك بكل هذه الأشياء... ؟ » ورسم بيده حركة خاطفة تناولت أثاث الحجرة وستائرها وألمّت بالساعة المذهبة القائمة فوق ركيزة المرآة . وأخيراً عبر ثيابها الى تحت .

فأعادت توني بنفس النغمة المعزية التي تتخذها دائماً تقريباً إذا ماكلمها أحد بصورة جدية : « بالتأكيد ياأبي » . وعبر نظرها بوجه أبيها الى النافذة التي كان يساقط خلفها مطر رفيق كثيف دون أن يسمع له صوت .

وكانت عيناها تنطقان بتعبير كالذي يتخذه الأطفال حين تجافي اللياقة امرءاً يتلو أقصوصة فيفيض بالكلام عن الأخلاق والواجبات... تعبير يمتزج فيه الارتباك والقلق والتقوى والتضايق .

ولبث القنصل دقيقة يتأملها وهو يطرف بعينيه في تفكير . فهل كان مرتاحاً الى جوابها ؟ لقد درس كل شيء أثناء أن كان في بيته وأثناء الطريق . وكل انسان يفهم أن قرار

يوهان بودنبروك الأول والأكثر انطواءاً على الإخلاص كان يتجه الى أن يتحاشى جهده دفع شيء الى صهره مهما كان مقداره . لكنه لمّا تذكر كيف ألح ـ ولنستعمل هنا كلمة خفيفة ـ في مناصرة هذا الزواج ، لما استعاد الى الذاكرة تلك النظرة التي حدجته بها حين كانت تودعه بعد حفلة الزفاف ثمّ سألته : «أأنت راضٍ عني ؟» ، وجب عليه أن يفسح في نفسه لشعور مرهق تقريباً بذنبه حيال ابنته ، وأن يقول لنفسه أن إرادتها هي التي يجب أن يكون لها القول الفصل في هذه المسألة .

فقد كان يعلم أن موافقتها على هذا الزواج لم تكن عن حب لكنه كان ينتظر أن يكون في الإمكان بهذه السنوات الأربع وبالإعتياد وبميلاد الطفلة تغيير الكثير ، وأن تحس توني الآن أنها مرتبطة بزوجها قلباً وقالباً ، وأن ترفض أنه في هذه الحالة يجب عليه أن يرضى ببذل أي مبلغ من المال . حقاً إن الواجب المسيحي والكرامة الزوجية تقتضيان توني أن تتبع زوجها الى الصحراء بدون قيد أو شرط ، لكنها إذا أظهرت بالفعل مثل هذا التصميم فإنه خليق أن يشعر بأنه لن يكون من حقه حرمانها دون ذنب جنته من كل المزايا ووسائل الراحة التي ألفتها في الحياة منذ نعومة أظفارها . وهكذا كان يحس أنه مكلف بالحيلولة دون وقوع كارثة ، وأن يأخذ بيد جرينليش بأي ثمن . ولنوجز فنقول أن نتيجة تأملاته كانت الرغبة في أن يأخذ معه ابنته مع طفلتها وأن يدع السيد جرينليش وشأنه . فلا قدر الله هذه النهاية! وعلى كل فقد فكّر في المادة القانونية التي تنص على حق طلب الطلاق إذا عجز الزوج عن إعالة الزوجة والولد . بيد أنه يجب عليه قبل كل شيء أن يتحرى رأي ابنته .

قالها وهو ماضٍ في تمليس شعرها في حنان : «إني أرى ياطفلتي العزيزة أنه تحدوك مبادىء حميدة طيبة . لكني... لايسعني أن أفترض أنك تنظرين الى الأشياء كما يجب أن ينظر اليها كوقائع ، والشكوى لله . فإني لم أسألك ماذا أنت خليقة أن تفعلي في هذه الحالة أو تلك ، ولكن ماذا تفعلين الآن ، اليوم ، في الحال . ولست أدري مبلغ علمك وحزرك للأحوال السائدة... من ثمّ أرى عليّ واجباً محزناً هو أن أقول لك أن زوجك يرى نفسه مضطراً الى التوقف عن الدفع . وإنه من ناحية عمله لم يعد يستطيع الوقوف على قدميه... وأظنك تفهميني... »

فسألت توني بصوت خافت وهي تنهض نصف نهوض عن وسائدها ، وتقبض على يد القنصل في عجلة : «هل أفلس جرينليش... ؟»

فقال القنصل في جد : «نعم يا ابنتي ، ألم تحزري هذا ؟»

فقالت متلعثمة : «لم أحزر شيئاً معيناً» ثمّ استطردت تقول وهي تحملق من الجنب في

السجادة : «اذن لم يكن كيسلماير يهزل... ؟» وصاحت بغتة : «ياربياه!» وهوت على مقعدها . في هذه اللحظة تمثّلت كل مايمكن أن تؤديه كلمة إفلاس ، وكل ماكانت أحسّته كطفلة صغيرة في هذه الكلمة من غموض ورعب . . «إفلاس» . كان شيئاً أشنع من الموت ، معناه الهرج والمرج والانهيار والخراب والعار والفضيحة واليأس والشقاء . وأعادت : «هل أفلس ؟» وكانت هذه الكلمة المهلكة قد طعنتها في الصميم وحطّمتها ، بحيث لم تفكر في معونة يمكن أن تمد بها يدها ، ولا في معونة يمكن أن تأتي من ناحية أبيها .

ورعاها أبوها بحاجبين مرفوعين وعينين صغيرتين غائرتين يبدو عليهما الحزن والتعب ، لكنهما ينمّان مع ذلك عن قلق بالغ .

فقال في رفق : «لقد سألتك إذن ياعزيزتي توني هل أنت مستعدة لأن تتبعي زوجك الى الفاقة والفقر ؟...» وقد اعترف لنفسه على الأثر بأنه اختار كلمة «الفقر» القاسية مدفوعاً بغريزته كوسيلة للتخويف ، ثمّ زاد عليها بقوله : «وقد ينهض ثانية من عثرته...»

فأجابت توني : «بالتأكيد يا أبي» . لكن هذا لم يمنع أن تنخرط في البكاء . فكانت تنتحب في منديلها الباتستا المشغول بالدانتيلا والذي يحمل حرفي ا .ج وكان بكاؤها من قبيل بكاء الأطفال دون تهيب أو تزويق . وكانت فيه شفتها العليا ذات وقع مؤثر يجل عن الوصف .

ومضى أبوها يتأملها ويسألها : «أجد ماتقولين يا ابنتي ؟» وكان مثلها لايدري مايفعل .

فشهقت : «ألا يجب علي... إنه يجب عليّ بالتأكيد .»

فقال في قوة : «ليس على الإطلاق» لكنه صحح في الحال قوله شاعراً بالذنب فقال : «إني لاأحملك على هذا قطعاً ياعزيزتي توني إن قيدتك مشاعرك بزوجك دون فكاك...»

فنظرت اليه بعينين مغرورقتين بالدموع تنمّان عن عدم فهم .

قالت : «كيف يا أبي ؟...»

فالتفت القنصل يمنة ويسرة حتى اهتدى الى وسيلة للكلام قال : «ياطفلتي الطيبة ، يمكنك أن تعتقدي أني خليق أن يحز في نفسي تعريضك للمتاعب والآلام التي سوف يجرها زوجك وتصفية أعماله ومركز بيتك رأساً...وإني لراغب في تجنيبك هذه المضايقات الأولى وأخذك أنت وصغيرتك ايريكا مقدماً الى بيتنا . وأظن أنك ستحمدين لي هذا... ؟»

فصمتت توني لحظة كفكفت خلالها دمعها ، ونفخت باهتمام في منديلها وضغطته على

عينيها لتحول دون التهابهما ، ثمّ سألت بلهجة المصمم دون أن ترفع صوتها : «أبي ، هل جرينليش مسؤول ؟ هل أوقع نفسه في هذه المصيبة بخرقه وعدم شرفه!»

فقال القنصل : «الراجح جداً أنه كذلك... أعني . كلا . لست أدري يا ابنتي . لقد قلت أن الكلام معه ومع مصرفيه لم يجر بعد...»

وظهر أن توني لم تلتفت الى هذا الجواب إطلاقاً . وقد كانت منحنية تعتمد على مرفقيها وذقنها في يدها فوق حشياتها الحريرية الثلاث ، تنظر برأسها المنخفض غارقة حالمة الى داخل الغرفة من تحت الى فوق .

قالت بصوت خافت تكاد لاتحرك به شفتيها : «أخ يا أبي ، ألم يكن خيراً إذ ذاك...» .

وكان القنصل لايستطيع أن يتبين وجهها . لكن هذا الوجه كان يحمل التعبير الذي كان يحمله في غير مساء من أمساء الصيف ، حين كانت تستند في ترافيمنده الى نافذة حجرتها الصغيرة... وقد كانت إحدى ذراعيها مستقرة فوق ركبتي والدها بينما أرخت يدها دون سند الى أسفل . وحتى هذه اليد كانت تعبّر عن أسى بالغ . وتفان رقيق ، عن حنين حلو عامر بالذكريات مسترسل الى بعيد .

واستفسر القنصل بودنبروك : «خيراً... ؟ ليته لم يقع شيء ياطفلتي ؟»

لقد كان مستعداً لأن يقر من قلبه أنه كان خيراً لو أن هذا الزواج لم يتم ، لكن توني قالت فحسب وهي تتنهد : «لاشيء!» .

لقد بدا أنها كانت قيد أفكارها وأنها بهذه الأفكار كانت تحوم بعيداً ، وأنها نسيت «الافلاس» تقريباً . والفى القنصل نفسه مضطراً لأن ينطق بما كان أحب اليه أن يؤيده .

قال : «أظن أني أحزر أفكارك ياعزيزيّ توني ، وأنا كذلك من جانبي لا أتردد في الاعتراف بأني نادم في هذه الساعة على الخطوة التي بدت لي من أربع سنوات مضت حكيمة شافية... نادم باخلاص . وأعتقد اني لست مسؤولاً أمام الله . أعتقد أني قمت بواجبي خير قيام حين عنيت بأن أوفر لك كياناً يوائم أصلك... لكن الله أراد شيئاً وأردت غيره... ولن تعتقدي في أبيك أنه عرض هناك للخطر في رعونة ومن دون تفكير . لقد اتّصل بي جرينليش مزوداً بخير التوصيات ، ابناً لقسيس ورجلاً مسيحياً خبيراً بالدين... وقد تحريت عنه فيما بعد في دوائر الأعمال فكانت نتائج تحرّياتي في مصلحته ، وأنعمت النظر في الظروف والأحوال... إن هذا غامض مظلم مايزال ينتظر الجلاء . لكنك لاتتهمينني ، أليس كذلك ؟...»

«لا ياأبي ، كيف يسعك أن تقول مثل هذا الكلام! تعال لاتدع هذا يكربك يا أبي المسكين... إنك شاحب اللون ، ألا أتيك ببضع من نقط المعدة ؟» وكانت تطوّق رقبته بذراعيها فقبلته فوق خديه .

قال : «أشكرك ، كذا ، كذا... دعيني فقط! شكراً ـ أجل لقد مرّت بي أيام عصيبة... فما العمل ؟ لقد تعرّضت للمضايقات . هذا امتحان من الله . لكن هذا لايمنع أنني لاأستطيع أن أشعر أني حيالك بلا ذنب تماماً ، يا ابنتي . إن كل شيء يتوقف الآن على السؤال الذي سبق أن وجهته اليك ، والذي لم تجيبي بعد عنه بما فيه الكفاية . كلميني بصراحة ياتوني... هل تعلمت أن تحبي زوجك في سني الزواج هذه ؟»

فعات توني تبكي ، وفيما هي تغطي عينيها بمنديلها الباتستا الذي تمسك به بكلتا يديها قالت وهي تنتحب : «آه ، ماذا تقول يا أبي!... إنني لم أحبه قط... لقد كان دائماً بغيضاً اليّ . ألا تعرف هذا إذن... ؟»

وكان من الصعب أن تقول ماذا كان يعتمل على وجه يوهان دونبروك . فقد كانت عيناه تنظران مرعوبتين حزينتين يطبق شفتيه مع ذلك إطباقة تغضّنت منها زاويتا فمه وخداه كما هو شأنه حين ينتهي من عقد صفقة رابحة .

قال في خفوت : «أربع سنوات...»

وجف دمع توني فجأة وهبت من مقعدها واقفة ومنديلها المبلل في يدها ثمّ قالت غاضبة : «أربع سنوات... ها! لقد كان أحياناً يجلس معي في المساء ويقرأ الصحف في هذه السنوات الأربع...!»

فقال القنصل متأثراً : «لقد وهبكما الله طفلة...»

«نعم يا أبي... وإني أحب ايريكا جداً... وإن زعم جرينليش أني لاأحب الأطفال... إنني لن أنفصل عنها ، هذا ماأقوله لك... لكن جرينليش ـ كلا!... جرينليش ـ كلا! . ويفلس الى هذا الحد أيضاً!... آه يا أبي ، بكل سرور! إذا أردت أن تأخذني أنا وايريكا الى البيت...فالآن تعرف كل شيء!» .

فأطبق القنصل شفتيه من جديد ، وكان راضياً كل الرضا ، ومع هذا فإنه لم يطرق المسألة الرئيسية بعد ، على أنه مع هذا التصميم الذي أظهرته توني لايخاطر المرء بشيء كثير...

وقال : «يلوح مع هذا كله أنك تنسين تماماً يا ابنتي أن من الممكن تقديم يد المعونة... ومن قبلي... لقد عرفك أبوك فعلاً أنه لايسعه الشعور ببراءته حيالك من كل ذنب...

وفي حالة ما... نعم في حالة ما إذا رجوت وانتظرت منه هذه المساعدة فسوف يتدخل ويحول دون السقوط ، ويغطي ديون زوجك بالحق أو بالباطل ، ويدع مركبه تسير... »

وتأملها قلقاً فأرضته ملامح وجهها إذ كانت تعبر عن خيبة أملها .

وسألته : « كم في الحقيقة يتطلب الأمر ؟ »

قال : « وماذا يهم هذا في الموضوع... إن الأمر يتطلب مبلغاً كبيراً جداً ، وهزّ القنصل بودنبروك رأسه عدة مرات كما لو كانت فداحة التفكير في هذا المبلغ تهزه رويداً رويداً في غدو ورواح . واستطرد يقول : « لايصح أن أخفي عنك في هذا أن بيتنا التجاري ، بغض النظر تماماً عن هذه المسألة ، قد تكبّد خسائر ، وأن تقديم هذا المبلغ معناه إضعاف البيت وتوهينه . وهنا يبيت من الصعب أن يسترد قوته . ولست أقول هذا بحال كي... » .

ولم يكمل . فقد هبّت توني واقفة ، بل إنها تراجعت بضع خطوات ومنديلها المبلل لايزال في يدها ، وصاحت : « كفى ، مستحيل! » .

وكان في مظهرها بطولة أو كاد يكون : وقد فعلت كلمة « البيت التجاري » فعلها . والراجح كل الرجحان أنها كانت أفعل في نفسها من نفس نفورها من السيد جرينليش .

ومضت تتكلم وقد خرجت عن طورها : « لاتفعل هذا يا أبي! أتريد أن تفلس أنت أيضاً ؟ كفى! مستحيل! »

في هذه اللحظة فتح باب الطرقة قليلاً وفي تردد ودخل السيد جرينليش . فنهض يوهان بودنبروك ، وأتى في نهوضه بحركة معناها : انتهى!

الفصل الثامن

كان وجه السيد جرينليش تعلوه بقع حمراء لكنه كان في أحسن هندام ، فكان يرتدي سترة سوداء من قماش متين ، مثناة ، وكانت سراويله بلون الحمص شبيهة كلها بتلك التي أدى فيها زيارته الأولى ذات مرة . ولقد لبث واقفاً في تراخٍ ، وتكلم وبصره الى الأرض ، بصوت ناعم خافت : «أبي...» .

وانحنى القنصل في جفاء ، وأصلح من رباط رقبته ببضع مسكات نشيطة ، وزاد السيد جرينليش على كلمته : «أشكر لك قدومك» .

فأجاب القنصل : «كان هذا واجبي ياصديقي . لكن أخشى أن يكون هذا هوكل ماأستطيع أن أفعله في موضوعك» .

فألقى عليه صهره نظرة عجلى وازداد موقفه تراخياً .

واستطرد القنصل يقول : «اسمع إن مصرفيك السيد كيسلماير ينتظرنا... فأي مكان خصصت لحديثنا ؟ إني تحت تصرفك...» .

فتمتم السيد جرينليش قائلاً : «أرجو أن تتفضل فتتبعني» .

فقبل القنصل بودنبروك ابنته فوق جبينها وقال : «اصعدي الى ابنتك يا أنتونيا!» .

ثمّ سار مع السيد جرينليش الذي كان يتحرك تارة أمامه وتارة وراءه ثمّ أزاح الستائر خلال قاعة الطعام الى حجرة الاستقبال .

فلمّا التفت السيد كيسلماير الذي كان واقفاً عند النافذة قفت شعرات الزغب البيضاء السوداء فوق رأسه ثمّ ارتخت ثانية فوق قمته .

وقال جرينليش جاداً متواضعاً : «السيد المصرفي كيسلماير ... تاجر الجملة القنصل بودنبروك ، نسيبي...» وكان وجه القنصل جامداً لاتتحرّك فيه جارحة ، وانحنى السيد

كيسلماير مرخياً ذراعيه ، مثبتاً نابيه فوق الشفة العليا قائلاً : «خادمك ياسيدي القنصل! إني شديد الارتياح لإيلائي هذه المسرة!» .

وقال السيد جرينليش : «أستميحك عذراً يا كيسلماير أن اضطررتك الى الإنتظار» . وكان جم الأدب مع هذا ومع ذاك .

وأبدى القنصل وهو يتلفت ذات اليمين وذات الشمال : «هل ندخل في الموضوع ؟» فأسرع ربّ البيت الى الجواب قائلاً : «فليتفضل السيدان...» .

وبينما كان السادة ينتقلون الى حجرة التدخين قال السيد كيسلماير منشرحاً : «هل ارتحت في سفرك يا حضرة القنصل ؟... أها ، مطر ؟ نعم ، فصل رديء من فصول السنة ، فصل كريه قذر ، لو كان هناك قليل من الجليد ، قليل من الثلج! ولكن لاشيء من ذلك! مطر! وحل! فصل يفيض الى أبعد حد...» .

وقال القنصل لنفسه : ياله من انسان غريب .

وقامت في وسط الحجرة الصغيرة التي كان توريقها داكناً محلى بالأزهار مائدة مستطيلة مكسوة بقماش أخضر أقرب الى أن تكون واسعة . وكان المطر في الخارج قد ازداد هطوله والظلام من الحلوكة بحيث أشعل السيد جرينليش الشمعات الثلاث القائمة في شمعدانات فضية على المائدة في الحال . وكان على المائدة الخضراء رسائل أعمال مزرقة عليها أختام المتاجر وأوراق منزوعة ممزقة هنا وههنا مغطاة بالتواريخ والتوقيعات . ولوحظ فوق ذلك دفتر رئيسي سميك وأداة معدنية تحوي محبرة ورمالة تبرز منها ريشات أوز جيدة العيدان وأقلام رصاص .

وأدى السيد جرينليش احتراماته بالإيماءات والحركات الهادئة اللبقة المتحفظة التي يحيي بها المرء المشيعين في الجنازات .

وقال في عذوبة : «أبي العزيز تفضل وتناول هذا المقعد السائد ، وأنت ياسيد كيسلماير هل تتكرّم بالجلوس هنا ؟...»

وأخيراً استتب النظام وجلس المصرفي قبالة رب البيت بينما رأس القنصل الاجتماع على الجانب العريض من المائدة فوق الكرسي السائد ، وكان ظهر هذا الكرسي يلامس باب الطرقة .

وانحنى السيد كيسلماير وأرخى شفته السفلى واستخلص من فوق صدريته نظارة ورشقها فوق أنفه مغضناً إياه ، فاغراً فاه ، ثمّ جعل يمشط لحيته العارضية المشذبة بأصابعه فتحدث صوتاً يثير الأعصاب ، ثمّ ثبت يديه فوق ركبتيه وأشار الى الأوراق وأبدى في إيجاز وابتهاج : «هذه هي العملية بحذافيرها!» .

وقال القنصل : «أتسمحان لي بأن ألقي نظرة أدق على الموقف ؟» وتناول الدفتر الكبير . وبغتة مدّ السيد جرينليش كلتا يديه فوق المائدة مظللاً وكانتا يدين طويلتين تجري فيهما عروق بارزة زرقاء وترتعشان فيما يرى ثم صاح بصوت متأثر : «لحظة ، لحظة يا أبي! ألا ما تتركني أمهد للموضوع بكلمة!... ستطلع ولن يفوت نظرك شيء... ولكن صدقني! أنك ستطلع على مركز رجل بائس ، لارجل مذنب! انظر فيّ ياأبي الى رجل جاهد القدر دون هوادة لكن القدر صرعه! انظر الي هذه النظرة...»

فقال القنصل برماً برماً ظاهراً : «سأرى ياصديقي ، سأرى» . وسحب السيد جرينليش يديه ليجري القدر مجراه .

وتقضت دقائق طويلة مخيفة ساد فيها الصمت وكان السادة الثلاثة جالسين في ضوء الشموع المضطرب تحتويهم جميعاً وترهقهم حيطان أربعة مظلمة . ولم يكن يسمع من حركة سوى حفيف الأوراق التي كان القنصل يتناولها . اللهم إلا المطر المتساقط في الخارج الذي كان هو الصوت الوحيد .

ودفع السيد كيسلماير بإبهاميه في فتحتي الذراعين بالصدرية ، ولعب ببقية أصابعه البيان على كتفيه ، وجعل ينظر من الواحد الى الآخر في مرح لايوصف . وكان السيد جرينليش جالساً دون أن يسند ظهره ، واضعاً يديه على المائدة ، يحملق أمامه في كدورة ، ويحدّق الحين بعد الحين في حماه بنظرة من الجنب تدل على الخشية . وكان القنصل يقلب صفحات الدفتر الكبير ، ويتابع بظفر أصبعه خانات من الأرقام ، ويقارن التواريخ ، ويدون بالقلم الرصاص أرقامه الصغيرة غير المقروءة على الورق . وكان وجهه المتوتر يعبّر عن رعبه من الحالة التي يطلع عليها . وأخيراً وضع يده اليسرى فوق ذراع جرينليش وقال مهزوزاً : «مسكين!» .

ونطق جرينليش : «أبي...» وسقطت دمعتان كبيرتان على خدي الرجل المأسوف عليه وجرتا في لحيته العارضية الصفراء الذهبية ، فتابع السيد كيسلماير مجرى هاتين القطرتين بأعظم اهتمام ، بل لقد نهض قليلاً ، وانكب الى الأمام ، وحملق في وجه الجالس قبالته فاغراً فاه . وقد تأثر القنصل بودنبروك تأثراً كبيراً ، وألانه المصاب الذي نزل به أيضاً فأحس كيف جرفته المرثية ، لكنه لم يلبث أن تمالك شعوره .

فقال وهو يهز رأسه هزة خالية من العزاء : «كيف أمكن هذا في هذه السنوات القليلة ؟» .

فأجاب السيد كيسلماير منبسط النفس : «لعب أطفال! في أربع سنوات يمكن كأحب

مايكون أن تنزل بالمرء مصيبة ، لو فكر المرء كيف كان فستفال أخوان مايزالون في بريمن من أمد قريب يغطون...» .

ونظر اليه القنصل وهو يطوف بعينيه وكأنه يراه ولايسمعه . إنه لم يعبّر بحال عن الفكرة الحقيقية التي تشغل باله...وقد تساءل مستريباً ، وبلا فهم مع ذلك... لماذا كل هذا الآن بالذات ؟ لقد كان ب . جرينليش خليقاً قبل سنتين أو ثلاث سنوات أن يكون في نفس الموقف الذي يقفه الآن . كان يمكنه أن يدرك هذا بنظره واحدة : فقد كان إئتمانه لاينفد ، وكان يتلقى من البنوك الأموال ، ويحصل لمشاريعه على توقيعات بيوت تجارية ثابتة تابعة لأمثال السناتور بوك والقنصل جودشتيكر مراراً وتكراراً ، وكانت سفاتجه في السوق كالنقد . فلماذا الآن ، الآن بالذات ـ ومدير بيت يوهان بودنبروك كان يعرف تمام المعرفة معنى هذه الكلمة «الآن» ـ لماذا هذا الانهيار من كل جانب ـ هذا السحب التام لكل ثقة كما لو كان الجميع على ميعاد ، هذا الانقضاض الجماعي على ب . جرينليش مع اطراح كل مراعاة ، بل كل مجاملة ؟ إن القنصل لخليق أن يكون رجلاً ساذجاً إذا هو لم يعرف أن الاعتبار الذي كان لبيته هو كان قميناً أن يفيد صهره السيد جرينليش بعد خطبته لابنته . ولكن هل كانت سمعة الأخير تتوقف على سمعته هو هذا التوقف التام الرائع دون غيره ؟ ألم يكن جرينليش نفسه عندئذ شيئاً مذكوراً ؟ والتحريات التي قام بها القنصل والدفاتر التي فحصها ؟... فليكن من أمرها مايكون ، فإن تصميمه ألا يحرك في هذه المسألة عقله في اصبع قد بات أقوى من ذي قبل . لابدّ أنه أخطأ الحساب! والظاهر أن ب . جرينليش عرف أن يدخل في الروع أنه متضامن مع يوهان بودنبروك وهذا الخطأ الشائع شيوعاً مرعباً يجب أن يستبعد الآن الى الأبد! وكيسلماير هذا أيضاً يجب أن تتولاه الدهشة! فهل لهذا المهرج ضمير ؟ فقد تجلى كيف قامر بلا خجل على شيء واحد هو أنه أي يوهان بودنبروك ـ لن يترك زوج ابنته يسقط ، وكيف ظل يزود جرينليش المقضي عليه من أمد بالقرض تلو القرض ، لكنه يدعه يوقع دائماً على فوائد ربا فاحشة...

قال : «لايهم ، فلندخل في الموضوع . إنه إذا صحّ لي كتاجر أن أقدم تقريراً في هذا الشأن ، فإني آسف أن أقول إن هذا مركز رجل تعس حقاً ، لكنه مسؤول الى درجة كبيرة» .

فتمتم جرينليش قائلاً : «أبي...»

فقال القنصل في سرعة وقسوة : «هذا النداء يقع في أذني وقعاً سيئاً!» ثمّ استطرد

يقول وقد التفت الى المصرفي التفاتة خاطفة : «إن مطالبك ياسيدي من السيد جرينليش تبلغ ستين ألف مارك...»

فأجاب السيد كيسلماير في هدوء : «بالمتأخرات والفوائد المضافة الى رأس المال ثمانية وستين ألفاً وسبعمائة وخمسة وخمسين ماركاً وخمسة عشر شلناً» .

«حسناً... وأنت لاتميل بحال من الأحوال الى الصبر عليه فوق ما صبرت ؟» .

فأخذ السيد كيسلماير يضحك ببساطة ، يضحك ملء فمه ويقذف ضحكات لاأثر فيها للسخرية ، بل ضحكات دمثة ، ناظراً في وجه القنصل كأنما يريده أن يضحك مثله .

فتكدّرت عينا يوهان بودنبروك الصغيرتان الغائرتان واحمرّت حوافهما بغتة حتى بلغ الاحمرار عظمتي الخدين . وقد سأل ما سأل حرصاً على الشكل فحسب ، إذ كان يعلم أن أي تأجيل من جانب الدائن الواحد ماكان ليحسن المركز تحسيناً جوهرياً ، لكن الكيفية التي ردّ بها هذا الرجل أخجلته وأثارت مرارته الى أبعد حد . وفي حركة واحدة من يده أزاح كل شيء كان أمامه ، وألقى بالقلم الرصاص على المائدة وقال : «وهكذا أعلن أني لاأريد أن يكون لي بهذه المسألة دخل بعد الآن ، وبأي شكل كان» .

فصاح السيد كيسلماير وهو يهزّ يديه في الهواء : «آها! هذه كلمة نطقت بوقار . إن السيد القنصل سيسوّي المسألة بكل بساطة! دون دخول في مناقشة طويلة! وبخفة يد!» .

فلم ينظر اليه يوهان بودنبروك نظرة واحدة .

والتفت في هدوء الى السيد جرينليش قائلاً : «إني لاأستطيع أن أساعدك ياصديقي . إن الأمور يجب أن تجري مجراها ، ولست أجد نفسي قادراً على وقفها . فتمالك نفسك وأنشد العزاء والقوة عند الله . يجب أن أعد هذه المحادثة منتهية» .

وفجأة اتّخذ وجه السيد كيسلماير تعبيراً جدياً يختلف عمّا اعتاده اختلافاً عجيباً ، لكنه أومأ الى السيد جرينليش مشجعاً . وكان هذا يجلس بلا حراك ، يعتصر يديه الطويلتين فوق المائدة بشدة مما طقطقت له أصابعه .

فقال بصوت يتلجلج : «أبي ... سيدي القنصل... لن . ولاتستطيع أن تبغي خرابي وشقائي! ألق السمع الي! إن الأمر يتعلق بعجز قدره مائة وعشرون ألفاً..وفي وسعك إنقاذي! فأنت رجل غني! ولتنظر الى المبلغ كما تريد...كتسوية نهائية ، كنصيب ابنتك من الميراث ، كقرض ذي فوائد... فسوف أعمل... فأنت تعلم أني جاد وواجد...» .

فقال القنصل : «لقد قلت الكلمة الأخيرة» .

فسأل السيد كيسلماير وهو ينظر الى القنصل من خلال نظارته القابضة ويغضن في ذلك أنفه : «اسمح لي... ألا تستطيع ؟ إذا كان لي أن أحمل السيد القنصل على التفكير فالآن بالذات أحسن فرصة في الحق لإقامة الدليل على متانة بيت يوهان بودنبروك التجاري...»

«تحسن ياسيدي صنعاً إذا تركت لي وحدي الاهتمام باعتبار بيتي - وليس من الضروري لإظهار قدرتي على الدفع أن ألقي بمالي في أول حفرة أصادفها...»

«لاأقصد ، لاأقصد! «حفرة» كلمة مسلية الى أقصى حد . ولكن ألا تعني ياسيدي القنصل أن إفلاس السيد صهرك يمكن أن يظهر مركزك في ضوء كاذب . ضوء رديء ، أليس كذلك ؟»

فقال القنصل : «أستطيع أن أُوصيك مرة أخرى بأن تجعل سمعتي في عالم الأعمال من شؤوني الخاصة» .

فنظر السيد جرينليش في وجه مصرفيه حائراً وعاد يقول : «أبي... إني أتوسل اليك ، فكّر فيما تفعل!... هل الأمر يتعلق بي وحدي ؟ أوه ، فليحل بي الخراب أنا! ولكن ابنتك ، امرأتي ، تلك التي أحبها ، والتي جاهدت في سبيل الحصول عليها هذا الجهاد المرير... وطفلتنا . طفلتنا نحن الاثنين ، تلك الطفلة البريئة... أنتركها للشقاء! لا يا أبي ، ما كنت لأحتمل هذا ، إني لأؤثر أن أقتل نفسي... أجل ، بيدي هذه أقتل نفسي... صدقني! ولتبرئك السماء عندئذ من كل ذنب!» .

فاستند يوهان بودنبروك الى كرسيه الساند ممتقع اللون خافق القلب . فللمرة الثانية تجتاحه مشاعر هذا الرجل الذي يعبر عنها بصدق... فعليه ثانية أن يسمع نفس نغمة التهديد الكريهة التي سمعها يوم أبلغ السيد جرينليش خطاب ابنته المرسل من ترافيمنده ، وثانية تسري في نفسه الرعدة من ذلك التبجيل الحالم الذي يحسه جيله من نحو المشاعر المتضاربة في ذهنه الصاحي العملي . بيد أن هذه النوبة لم تستغرق أطول من ثانية ، فقد أعاد في نفسه : مائة وعشرين ألف مارك ، ثمّ قال في هدوء وثبات : «إن أنتونيا ابنتي . وسأعرف كيف أحول بينها وبين معاناة ما لاذنب لها فيه» .

فسأل السيد جرينليش وقد تقلّص رويداً رويداً : «ماذا تعني بهذا القول...»

فأجاب القنصل : «ستعلم هذا . والآن لن أزيد على قولي شيئاً» . ونهض ، وثبّت كرسيه على الأرض ، واتّجه نحو الباب .

وجلس السيد جرينليش جامداً ، صامتاً ، يتحرّك فمه في جهتيه حركات ارتجاجية

تحول دون استخلاص كلمة منة . وعاد الى السيد كيسلماير مرحه بحركة القنصل الختامية النهائية ، بل لقد طغى عليه ، وتجاوز كل حد ، وبات مخيفاً! وزالت نظارته عن أنفه الممتد الى مابين عينيه ، بينما هدد فمه الصغير البارز منه ناباه الأصفران الوحيدان بالتمزّق . وكانت يداه الصغيرتان الحمراوان تطوحان في الهواء ، وزغب رأسه يرفرف ، ووجهه الناشز تماماً عن موضعه ، المقطب من فرط المرح بلحيته العارضية البيضاء المشذبة يشبه في لونه القصدير .

صاح بصوت يتضارب : «آها! إني أجد هذا مسلّياً جداً . لكنه ينبغي أن تنعم النظر ياحضرة القنصل بودنبروك في مغبة التخلي عن مثل هذا المثال الفائق البديع للأصهار... فإن مثل نشاطه وابتكاره لن يوجد مرة أخرى في أرض الله الواسعة الحبيبة! أها! فقبل أربع سنوات ، لما كانت السكين ذات مرة فوق الرقبة... والحبل من فوقها... كيف كنّا نصرح في البورصة على حين بغتة معلنين خطبته للآنسة بودنبروك قبل أن تتم بالفعل... احترامات الجميع! كـ ـ ـ لا بل مني أسمى التقدير...!»

وصر السيد جرينليش : «كيسلماير!» وأتى من يديه بحركات تشنجية كمن يدفع عن نفسه شبحاً ، ثمّ جرى الى ركن في الغرفة فارتمى فوق مقعد ، مخفياً وجهه في يديه ، منطوياً على نفسه الى حد أن استقر فردا لحيته العارضية فوق فخذيه ، بل جعل يرفع ركبتيه مرات .

ومضى كيسلماير يقول : «كيف كنا نفعل هذا في الحق؟ كيف بدأنا في اقتناص البنت وآلاف الماركات الثمانين؟ أو ـ هو! من السهل تدبير ذلك . من السهل حتى على من يملك سدس نشاطه وابتكاره أن يدبر هذا بأن يقدّم للنسيب المنقذ دفاتر جميلة ، دفاتر نظيفة بديعة يثبت فيها كل شيء على خير وجه... إلا أنها تتفق والحقيقة المرة كل الإتفاق... ذلك أنه في الحقيقة المرة كانت ثلاثة أرباع البائنة تسدّد سفاتج بديون» .

كان القنصل واقفاً بالباب ، شاحب اللون شحوب الموت ، قابضاً يده . وكانت القشعريرة تنساب في ظهره . فهل كان في هذه الغرفة الصغيرة المضطربة الضوء وحده مع نصاب ، ومع قرد مسعور من فرط الشر؟

ولفظ وقد زايله الاطمئنان : «أيها السيد ، إني أحتقر كلماتك ، وأحتقر وشاياتك الجنونية على الأكثر ، لأنها تمسني أيضاً ، أنا الذي لم أدفع ابنتي الى الشقاء في طيش وقلة مبالاة . لقد قمت بتحريات أكيدة عن صهري .

واستدار ولم يرد أن يسمع شيئاً آخر . وفتح الباب . لكن السيد كيسلماير صاح في أثره : «أها! تجربات ؟ لدى من ؟ عند بوك ؟ عند جود شستيكر ؟ عند بيترسن ؟ عند ماسمان وتم ؟ لقد كانوا جميعاً ضالعين! كانوا كلهم ضالعين بصورة مخيفة ، كانوا جميعاً في غاية الغبطة ، لأنهم باتوا بالزواج آمنين...»

وصفق القنصل الباب وراءه .

الفصل التاسع

كانت دورا تعمل في قاعة الطعام ودورا هي الطاهية التي لاتخلو تماماً مما يريب فأمرها القنصل : « دعي مدام جرينليش تنزل من فضلك! »

فلمّا حضرت توني قال لها أبوها : « استعدي يا ابنتي! » وسار معها الى الصالون هناك . وقال : « أعدّي أشياءك على جناح السرعة ، وأتمنى أن تكون ايريكا أيضاً على أهبة السفر.. فنحن سنركب الى المدينة... وسنبيت في الفندق ، ثمّ نسافر في الصباح الى موطننا » .

قالت توني : « أجل يا أبي » . وكان وجهها محمراً يدل على الاضطراب والحيرة تأتي من يدها بحركات سريعة غير مجدية عند خصرها من دون أن تدري بأي شيء تبدأ استعداداتها ، أو تستطيع أن تصدق بعد حقيقة ما وقع .

وسألت أباها وجلة منفعلة : « ماذا آخذ معي يا أبي ؟... كل شيء ؟ كل ملابسي ؟ حقيبة أو اثنتين ؟... هل يشهر جرينليش افلاسه حقاً ؟... يا الهي... ولكن هل آخذ معي حليي ؟... أبي ، البنات يجب أن يصرفن... فلن أستطيع بعد الآن دفع أجورهن... كان جرينليش سيعطيني اليوم أو غداً مصروف البيت... »

« دعي هذا يا ابنتي ، فهذه الأشياء سترتب هنا . خذي الضروري فقط . حقيبة واحدة... صغيرة . وسترسل اليك أشياؤك فيما بعد . أسرعي! أسمعت ؟ إن... » .

في هذه اللحظة انفرجت الستائر ودخل السيد جرينليش الى الصالون بخطى سريعة ، وذراعين ممدودتين ورأس مائل الى جنب : مسلك رجل يريد أن يقول : ها أنذا! اقتليني إذا شئت! وأسرع الى زوجته وخرّ أمامها على ركبتيه . وكانت نظرته تبعث على الشفقة وفردا لحيته العارضية الصفراء الذهبية منفوشين ، وسترته متكسرة ، وربطة رقبته منحرفة ، وبنيقته مفتوحة وعلى جبينه تلاحظ قطرات دقيقة .

قال : «أنتونيا... . انظري الى هنا... ألك قلب... قلب يشعر ؟... استمعي اليّ... إنك ترين أمامك رجلاً مقضياً عليه إذا...نعم ، رجلاً سيموت من الحزن إذا ازدريت حبه! هنا أجثو...فهل تستطيعين أن تقولي لي : «إني أمقتك ـ ؟ إني أتركك ؟» .

وبكت توني . فقد كان بالضبط ماكان إذ ذاك في حجرة المناظر الطبيعية فهل ترى من جديد ذلك الوجه الذي يجعده الخوف وتينك العينين المتوسلتين اللتين تتطلعان اليها ، ترى ثانية مع الدهشة والتأثر أن هذا الخوف ، وهذا التوسل صادقان لايشوبهما رياء .

فقالت وهي تنتحب : «انهض باجرينليش! انهض بربك!» وحاولت أن تنهضه من كتفيه «إني لا أمقتك! فكيف يسعك مثل هذا القول!» والتفتت الى أبيها عديمة الحيلة لاتدري ما ينبغي أن تقوله فوق الذي قالته . فتناول القنصل يدها وانحنى لصهره واتجه معها الى باب الطرقة .

وصاح السيد جرينليش وقد هبّ على قدميه : «أتذهبين ؟...»

فقال القنصل : «لقد صارحتك بأني لا أستطيع أن اخذ على عاتقي تسليم ابنتي الى الشقاء بلا ذنب جنته . وأزيد على ذلك أنك بالمثل لاتستطيع ذلك . لا ، ياسيدي . لقد أضعت ابنتي ، فاشكر الله على أنه حفظ قلب هذه الطفلة نقياً ، وذهنها خالياً ، وأنها تنفصل عنك من دون مقت لك! استودعك الله» .

وهنا فقد السيد جرينليش صوابه . فقد كان يمكن أن يتكلم عن انفصال وجيز وعودة وحياة جديدة ، ولعله كان يمكنه أن ينقذ الميراث ، لكنه لم يعد هناك محل لتفكيره وجده ووجده . كان يمكنه أن يتناول الطبق البرونزي الكبير غير القابل للكسر الموجود فوق ركيزة المرآة ، لكنه تناول الزهرية الرقيقة المحلاة بالأزهار الموجودة بجانب الطبق وألقاها على الأرض فتناثرت ألف قطعة .

وصاح : «ها! حسن! طيب! انصرفي! أتظنين أني أعول وراءك أيتها الحمقاء ؟ أخ لا ، إنك تخدعين نفسك أيتها الغالية! إني لم أتزوجك إلا لمالك ، وإذ هو مايزال غير كاف فإلي بيتك! فقد بت برماً... برماً... برماً بك» .

واقتاد يوهان بودنبروك ابنته الى الخارج دون أن ينبس ببنت شفة... لكنه نفسه رجع أدراجه ، وخطا الى السيد جرينليش الذي كان واقفاً عند النافذة ويداه فوق ظهره يحملق في المطر المتساقط في الخارج ، ومس كتفه برفق وتكلّم اليه مخافتاً حانياً : «تمالك نفسك ، وصل لله!» .

الفصل العاشر

ظل البيت الكبير القائم في شارع منج طويلاً تخيم عليه نفسية مكبوتة لماعادت اليه مدام جرينليش بطفلتها الصغيرة . فكانوا يسيرون فيه محاذرين ويكرهون الحديث «عن الموضوع »... اللهم إلا الشخص الأول في الموضوع نفسه فقد كان على النقيض من ذلك يتكلم عنه بحرارة ويشعر بأنه موضوعه .

وقد شغلت توني مع ايريكا في الطبقة الثانية الحجرات التي كان يشغلها والدها ذات يوم في عهد الجدين بودنبروك ، وقد خاب أملها قليلاً لمّا لم يلق أبوها في روعها بحال أن يجعل لها خادمة خاصة بها ، ومرت بها نصف ساعة تفكر لما أن أبدى لها في كلمات رقيقة أنه لايجمل بها في أول الأمرغير أن تعيش في عزلة ، وأن تستغني عن المجتمع في المدينة لأن مركزها كإمرأة مطلقة يفرض عليها أشد اعتزال أول مايفرض ، وإن كانت من ناحية المعاني الانسانية بريئة لاذنب لها في المصير الذي قدره الله امتحاناً لها . بيد أن توني كانت تتحلى بسجية جميلة هي أن ترتضي كل مركز في الحياة في حذق وسرورعظيم بالجديد . وهكذا سرعان مارضيت عن نفسها في دورها امرأة أصابها الضر ، دون أن تسأل عنه ، فكانت ترتدي ملابس داكنة ، وتسرح شعرها الأشقر الباهت مفروقاً مصقولاً كصغار الفتيات وتعوض ما ينقصها من العشرة والاجتماع بانطلاقها في تأملات عن الزواج والسيد جرينليش وعن حياتها ومصيرها عامة ، مظهرة أهمية عظمى وسروراً لايهن بجدية مركزها وعظم شأنه .

ولم يكن كل امرىء يتيح لها فرصة لذلك . فالقنصلة كانت مقتنعة بأن زوجها سلك مسلكاً يمليه الواجب ، لكنها باتت إذا بدأت توني الكلام ، ترفع يدها الجميلة البيضاء رفعة خفيفة وتقول : «كفى يا ابنتي . إني لاأحب سماع شيء عن هذا الموضوع » .

وكلارا وهي في الثانية عشرة ولما تكد تبلغها ، لم تكن تفهم شيئاً في الموضوع ، وابنة العم تيلده كانت كذلك أغبى من أن تفقه شيئاً فكان كل ماكانت تلفظه ، ممطوطاً ينم عن الدهشة : « أو ، توني! هذا محزن! » وعلى العكس من ذلك كانت الشابة تجد سامعة منتبهة في الآنسة يونجمان التي كانت تبلغ الخامسة والثلاثين من العمر ويحق لها أن تباهي بأنها شابت في خدمة الطبقة الراقية . كانت تقول لها : « لاحاجة بك الى الخوف ياتوني يا ابنتي ، فما زلت صغيرة وستتزوجين ثانية » . هذا الى أنها كانت منقطعة لتربية ايريكا الصغيرة توليها الحب والوفاء وتقص عليها الذكريات والحكايات نفسها التي كان أطفال الفنصل ينصتون لها من خمس عشرة سنة مضت! خاصة عن عم مات غصة في مارينفردر لأنه « أنكر قلبه » .

بيد أن حديث توني كان على أحبه وأطوله مع والدها بعد طعام الغداء أو في الصباح أثناء أفطارها الأول . فقد باتت صلتها به دفعة واحدة أوثق كثيراً من ذي قبل . إذ كانت فيما مضى أدنى في شعورها نحوه إلى الهيبة والخوف منها إلى الحنو ، وذلك لسلطانه في المدينة ، وحذقه المتّسم بالهمة والثبات والشدة والتقوى . لكنه أثناء الحديث الذي جرى بينهما في صالونها كان معها إنساناً أفعمها فخراً وتأثّراً حين أكرمها بالتحدّث اليها عن هذه المسألة حديثاً خاصاً جدياً فترك لها نفسها الفصل ، واعترف لها وهو من لايجرؤ على الدنو منه أحد ، بأنه لايشعر حيالها بأنه بريء من الذنب . ومن المؤكد أن توني ماكان ليخطر لها هذا الخاطر قط ، لكنها وقد قاله قد صدّقته وباتت مشاعرها نحوه أرق . أمّا مايتعلق بالقنصل نفسه فإنه لم يغيّر أسلوب تفكيره بل كان يعتقد أنه يجب عليه أن يهوّن على ابنته مصيرها الفادح بمضاعفة حبه لها .

إن يوهان بودنبروك لم يسلك مع صهره المخاتل ما سلك عن باعث شخصي . وحقاً أن توني وأمها قد علمتا من مجرى بعض الأحاديث كيف لجأ السيد جرينليش الى وسائل غير شريفة للحصول على ٨٠,٠٠٠ مارك ، لكن القنصل تحاشى بلا ريب أن يذيع المسألة أو يبلغ العدالة ، وقد شعر في كبريائه بوصفه رجل أعمال أنه أغضب اغضاباً شديداً ، لكنه طوى صامتاً ذلك العار الذي لحقه من أن يستغفل هذا الاستغفال المزري .

وعلى كل فقد رفع قضية الطلاق في تصميم بمجرد أن أشهر إفلاس بيت ب . جرينليش التجاري الذي منى بيوتاً أخرى في هامبورج بخسائرغير قليلة . وكانت هذه القضية والفكرة في أنها نفسها تؤلف المحور في قضية حقيقية ـ كان هذا هو ما ملأ توني بشعور من الوقار يجل عن الوصف .

قالت : «أبي» ذلك أنها في مثل هذه الأحاديث لاتخاطب أباها قط : بابا «أبي كيف تتقدم قضيتنا ؟ إنك ترى أكيداً أن كل شيء سيسير سيراً حسناً ؟ والمادة واضحة تماماً ، فقد درستها دراسة حقيقية «عجز الزوج عن إعالة أسرته...» ويجب أن يرى السادة هذا . ولو كانت طفلتي ولداً لاحتفظ به جرينليش .

وقالت مرة أخرى : «لقد أطلت الفكرة في سني زواجي يا أبي . ها! اذن هذا هو السبب في أن الرجل لم يرد بتاتاً أن نسكن في المدينة ، وهو ماكنت شديدة الرغبة فيه . إذن هذا هو السبب في أنه لم يكن يحب أن يراني أتردد على المدينة وأغشى المجتمعات! ففيها كل الخطر أكبر مما كان في ايمزبيتل من أن أعلم بصورة ما ما كان يدور حوله! . ياله من لص!»

فردّ عليها القنصل : «ينبغي أن لا نقيم أنفسنا قضاة يا ابنتي» .

أو تبدأ بهيئة من يشعر بأهميته لمّا أن حكم لها بالطلاق : «هل دونت الحكم يا أبي في أوراق الأسرة ؟ كلا ، أوه إذن أدونه أنا... أرجوك أن تعطيني مفتاح المكتب» .

وجعلت تكتب تحت السطور التي خطتها من أربع سنوات مضت تحت اسمها في همة وخيلاء : «انحل هذا الزواج في سنة ١٨٥٠ في شهر فبراير بحكم القانون» .

ثمّ وضعت القلم وفكرت لحظة .

وقالت : «أبي ـ إني أعلم جيداً أن هذا الحادث وصمة في تاريخ أسرتنا... أجل ، لقد أطلت الفكرة في هذا . إنه بالضبط كما لو كان في هذا الكتاب بقعة من الحبر . لكن لاتبتئس... فإن عليَّ أن أمحو هذه الوصمة ثانية! فما زلت صغيرة . ألا تجد أني مازلت جميلة نوعاً ما ؟ وإن كانت مدام شتوت قد قالت لي لمّا لقيتني : «يا إلهي! لقد كبرت يامدام جرينليش!» ومهما يكن من أمر فإنه يستحيل أن يظل المرء طيلة العمر غبياً كما كنت في أربع سنوات مضت . فالحياة تجر المرء معها بطبيعة الحال... وصفوة القول ، أني سأتزوج ثانية! سترى أن كل شيء سينصلح بزوج جديد مفيد! ألا ترى ذلك ؟» .

«إنك بين يدي الله يا ابنتي . لكنه لايليق على الإطلاق أن تتحدثي الآن عن مثل هذه الأمور» .

هذا الى أن توني بدأت حوالي هذا الوقت تستعمل كثيراً عبارة : «كما يقع في الحياة» وإنها عند كلمة «الحياة» كانت تفتح عينيها فتحة لطيفة جادة تدخل في الروع أن لها في حياة الإنسان ومصيره نظرات عميقة .

واتسعت المائدة في قاعة الطعام عمّا كانت ، وعرضت لتوني فرصة جديدة للإفاضة لما

عاد توماس في أغسطس من هذا العام من بو إلى البيت . وكانت تحب هذا الأخ وتحترمه . وقد عرف أيضاً ألمها في سفرها من ترافيمنده واحترمه ، ورأت فيه من كل قلبها مدير البيت التجاري في المستقبل ورب الأسرة في يوم من الأيام .

قال : «نعم ، نعم ، إننا كلينا قد خضنا أشياء كثيرة ياتوني...» ثمّ رفع حاجباً وترك السيجارة الروسية تنتقل الى الزاوية الأخرى من فمه ، وكان في الراجح يفكر في بائعة الأزهار الصغيرة ذات الوجه الملائكي التي تزوجت من أمد وجيز من ابن صاحب المحل واستقلت بإدارة دكان الأزهار الكائن في «حارة الصيادين» .

وتوماس بودنبروك ، وكان مايزال شاحب اللون قليلاً ، ظاهرة أنيقة تلفت أناقتها الأنظار . وقد بدا أن هذه السنوات الأخيرة قد أكملت تربيته . فقد كان يقع في نفس رائيه أنه عسكري بتسريحته المفرشة فوق الأذنين الى ربوتين صغيرتين ، وشاربه المفتول على الطريقة الفرنسية تماماً والمشدود بمكواة في اتجاه أفقي ، وقامته الربعة العريضة المنكبين تقريباً . لكن عروقه المزرقة البارزة جداً فوق سالفيه الضيّقين اللذين يرتد شعره منهما على شكل جونين وميله الخفيف الى الارتعاش ، وهو ماكافحه الدكتور جرابو الطبيب عبثاً ، كان يشير الى أن بنيته لم تكن قوية بشكل ملحوظ . أما ما يتعلق بتفاصيل تكوين الجسم كالذقن والأنف واليدين خاصة... وهما يدان بودنبروكيتان أصيلتان كل الأصالة ـ فإن شبهه بجده كان بارزاً كل البروز .

وكان يتكلم لغة فرنسية فيها نبرة اسبانية ويدهش كل امرىء بهوايته لكتّاب حديثين يميلون الى السخر والجدل... ولم يكن يفهم نزعته هذه في المدينة سوى السيد جوش السمسار العبوس . أما أبوه فكان ينحي عليهما إنحاءً بالغ الشدة .

ولم يمنع هذا في أن يرى في عين القنصل ما كان يشعر به نحو ابنه الأكبر من فخر وسعادة ، فقد حياه عقب وصوله في تأثر وفرح بوصفه معاونه الجديد في مكاتبه التي جعل هو نفسه يعمل فيها برضا أكبر من ذي قبل ، وخاصة بعد موت مدام كروجر العجوز في نهاية العام .

وكان لابدّ من تحمل الخسارة في السيدة المسنة برباطة جأش ، إذ كانت قد بلغت أرذل العمر ، وكانت تعيش وحدها أخيراً . صعدت روحها الى بارئها وقد خلفت لال بودنبروك مالاً كثيراً يبلغ ١٠٠,٠٠٠ ريال كاملة عزّزت رأسمال العمل في المتجر تعزيزاً مرموقاً جداً .

ونتيجة أخرى من نتائج هذه الوفاة أن يوستوس ، صهر القنصل ، صفّى أعماله وأخلد

الى الراحة بمجرّد أن باتت في يده بقية إرثه ، تعباً من فشله المتواصل في أعماله . ولم يكن يوستوس كروجر المستهتر ابن الفارس الأنيق ، المحب للحياة ، رجلاً سعيداً جداً . إذ عجز لدماثة خلقه وحياته السهلة المرحة عن أن يخلق لنفسه في عالم التجارة مركزاً أميناً ، متيناً ، لايعتوره شك . وقد بدّد جانباً كبيراً من ميراثه عن والديه سلفاً ، ثمّ زاد عليه أخيراً أن سبب له يعقوب ـ أكبر أبنائه ـ هماً مقيماً .

فهذا الشاب الذي اتّخذ فيما يظهر في هامبورج صحاباً لا أخلاق لهم قد كلف والده مع الأيام مبلغاً طائلاً من الماركات . وحين كان القنصل كروجر يأبى أن يدفع أكثر مما دفع ، وتنفح الزوجة الضعيفة الحانية هذا الابن المفكك في السر مبالغ أخرى من المال ، كانت تنشب بين الزوجين خلافات محزنة . ولكي تترع الكأس حدث في نفس الوقت الذي توقف فيه بندكس جرينليش عن الدفع تقريباً ـ حدث في هامبورج حيث كان يعقوب كروجر يعمل عند دلبك وكومب ، شيء آخر ، شيء رديء... اعتداء منكر... لزم فيه من يعنيهم الأمر الصمت ، ولم يوجهوا فيه أسئلة إلى يوستوس كروجر ، لكن قيل أن يعقوب حصل في نيويورك على مركز وكيل تجاري وأنه سيسافر عمّا قريب . وقد رُؤيَ مرة في المدينة قبل سفره حيث رجح أنه ذهب اليها ليحصل من أمه على مزيد من المال فوق الذي أرسله اليه أبوه للسفر . وكان فتى خليع اللباس سقيم المنظر .

وصفوة القول أن الأمر وصل إلى أن القنصل يوستوس كان يقول «ابني» فقط كأن ليس له سوى ابن واحد ، يعني بذلك يبرجن الذي لم يرتكب في الحق جريمة قط ، لكنه كان ضيق الذهن . فقد حصل على الشهادة الثانوية بمشقة وكان يقيم في يينا من أمد وجيز ، حيث كان يتوفر على دراسة القانون دون ميل كبير أو نجاح كما كان يلوح .

وقد كان يوهان بودنبروك شديد الألم لما آلت اليه أسرة زوجه من حال لاتشرفها كثيراً ، يتوجس من ثم خيفة قلقاً على ولديه . وقد كان من حقه أن يثق الثقة كلها بمهارة ابنه الأكبر وحده ، أمّا مايتعلق بكريستين فقد كتَبَ مستر ريتشارد يقول أن الفتى قد أتقن اللغة الإنجليزية وأبدى موهبة أكيدة ، لكنه لايبدي دائماً اهتماماً كافياً بالعمل ، ويظهر ضعفاً ملحوظاً جداً حيال تسليات المدينة العالمية ، كالمسرح على سبيل المثال .

وقد دلّ كريستيان نفسه في رسائله على حاجة ملحة الى التجوال ورجا بحرارة أن يؤذن له في قبول وظيفة «هناك» أي في أمريكا الجنوبية وربما في شيلي . لكن القنصل قال أن هذا منه تعلّق بالمغامرة ، وأمره أن يكمل أولاً معارفه التجارية عند المستر ريتشارد سن في خلال سنة رابعة . وقد تبودلت عندئذ بضع رسائل عن خططه ، وفي صيف ١٨٥١ أبحر

كريستيان بودنبروك بالفعل الى فالباريزو حيث حصل على وظيفة . وقد سافر رأساً من انجلتره دون أن يعرج قبل ذلك على وطنه .

بيد أن القنصل ، بغض النظر عن ولديه . لاحظ مع الارتياح كيف كانت توني تدافع عن مركزها في المدينة بكل تصميم وشعور بالذات كإبنة من بيت بودنبروك... وقد كان عليها طبعاً أن تتغلب بوصفها امرأة مطلقة على كثير من الشماتة والتحامل من جانب الأسر الأخرى .

قالت لما عادت من نزهة على الأقدام محمرة الوجه : «أها!» وألقت قبعتها على الأريكة في حجرة التأملات... «إن مولندروف هذه المولودة في أسرة هاجنشتروم وسميلنجر ، هذه المسماة جوليا ، هذه المخلوقة... مارأيك فيها يا أماه! إنها لاتحييني... كلا ، إنها لا تحييني! إنها تنتظر أن أحييها أنا أولاً! فماذا تقولين في ذلك ؟ لقد مررت بها في الشارع العريض رافعة الرأس ونظرت رأساً في وجهها...»

«إنك تذهبين الى أبعد مما ينبغي ياتوني... كلا ، إن لكل شيء حدوده . لماذا لم تحيي مدام مولندروف أولاً ؟ إنك من لداتها ، وهي سيدة متزوجة كما كنت أنت...»

«أبداً يا أماه! رباه ، هذه النفاية!»

«كفى ياعزيزتي! هذه العبارات الخشنة...»

«أوه ، ألا يمكن أن يجمع المرء!»

إن كراهيتها لهذه الأسرة الصاعدة قد غذاها مجرد تصورها أن آل هاجنشتروم ربّما كانوا يشعرون بأن من حقهم أن ينظروا اليها من عل ، وخاصة للحظ الذي جعل هذا البيت يتدرج في معارج الرقي . فقد مات هينريش الشيخ في أوائل عام ١٨٥١ فأدار هرمان... هرمان صاحب خبز الليمون واللطمة متجر الصادر الناجح الى جانب السيد شترونك ، وتزوّج بعد ذلك بأقل من عام من ابنة القنصل هونيوس أغنى رجل في المدينة . وقد وصل بتجارته في الخشب الى أن يستطيع أن يخلف لكل من أولاده الثلاثة مليونين . وأخوه موريتس كان في دراسته طالباً ممتازاً على الرغم من ضعف صدره ، ثمّ استقر في المدينة عالماً من علماء القانون . وهو يعد من الرؤوس الرائقة الماكرة الفكهة بل الألمعية ، وزاول بسرعة عملاً كبيراً ، فليس في مظهره شيء من أسرة سميلنجر لكن له وجهاً أصفر وأسناناً حادة فلجاء .

بلى إنه لمن تقاليد الأسرة ـ أسرة بودنبروك ـ أن يكون المرء فيها مرفوع الرأس . ومنذ عاش العم جوتهولد بعيداً عن الأعمال يجوب مسكنه المتواضع على ساقيه القصيرتين وفي سراويله الفضفاضة ، ويأكل من علبة من الصفيح «بومبونا للصدر» لأنه يحب الحلوى

كثيراً ـ باتت نفسيته نحو أخيه من أبيه ذلك الأخ المفضل ـ أهدأ مع الأيام ، وأكثراستسلاماً ، وهو مالم يمنع أن يستشعر حيال زواج توني الفاشل شيئاً خفياً من الارتياح بالنظر الى بناته الثلاث اللواتي لم يتزوجن . لكننا لكي نتناول بالكلام زوجته التي من أسرة شتيونج ، وعلى الأخص بناته الثلاث البالغات السادسة والثلاثين والسابعة والثلاثين والثامنة والثلاثين على التوالي ، نقول أنهن قد أبدين بالنسبة لمصاب ابنة عمهنّ وقضية طلاقها اهتماماً يكاد ينطوي على الغلو ، أبلغ كثيراً مما أبدين جلياً يوم الخطبة ويوم الزفاف نفسه . وفي أيام الأطفال التي باتت تنعقد ثانية في أيام الخميس في شارع منج منذ وفاة السيدة كروجر الكبيرة لم تكن توني في مركز سهل للدفاع عن نفسها...

كانت فيفي الصغرى القصيرة البدينة ـ وكان لها اسلوب مضحك هو أن تهتز مع كل كلمة ويسيل لعابها من زاويتي فمها ـ كانت تقول : « يااللمسكينة! إذن لقد نطق بالحكم ؟ إذن بت بالضبط كما كنت من قبل ؟ » .

وكانت هنرييت التي تشبه أختها الكبرى في قامتها المديدة العجفاء البالغة الطول والنحول تقريباً تقول : « أخ ، بالعكس ، إنك في هذه الحالة أشد أسى مما لو كنت لم تتزوجي إطلاقاً » .

وكانت فريدريكا تؤكد : « يجب أن أقول هذا ، إن من الخير كل الخير ألا يتزوج المرء » .

فتقول توني وهي تطرح رأسها الى الوراء بعد أن فكرت في جواب سديد محكم الصيغة : « لا ياعزيزتي فريدريكا! إنك تقعين عندئذ في غلطة لاريب فيها ، أليس كذلك ؟ لقد خبر المرء الحياة على كل حال ، أتعلمين! إن المرء لم يعد غبياً! الى أنه مايزال عندي في أن أتزوج ثانية أمل أكبر مما يحدو من يتزوج لأول مرة » .

وقالت بنات العم : « كذا! » بصوت واحد ، ونطقنها بصورة جعلتها أحد وأكثر إمعاناً في عدم التصديق .

أما زيزيمي فيشبروت فكانت أطيب وألبق من أن تذكر المسألة ولو مجرّد ذكر . فقد كانت توني تزور مربيتها السابقة في المنزل الصغيرالأحمر الواقع في ميلنبرونك رقم ٧ وكان مايزال آهلاً بعدد من الفتيات الصغيرات ، وإن كان المثوى قد أخذ يخرج عن النهج الحديث قليلاً قليلاً . كذلك كانت الفتاة المسنة الحاذقة تدعى الى شارع منج على ظهر وعل أو أوزة محشوة بين الحين والحين فتنهض بعدئذ على أطراف أصابعها ، وتقبّل توني في تأثر قبلة معبّرة ترن جبينها رنيناً خافتاً . أمّا مايتّصل بأختها غير المتعلمة مدام كيتلسن فقد جعل

الصمم تشتد عليها وطأته أخيراً فلم تفقه شيئاً تقريباً من قصة توني . كانت تطلق ضحكتها خالية من الذهن تكاد ترن بالشكوى في مناسبات غير ملائمة من فرط طيبتها فترى زيزيمي نفسها مضطرة على الدوام الى أن تدق على المائدة تصيح بها « نلي » .

ومرت السنون وتلاشى الأثر الذي خلفته حكاية ابنة القنصل بودنبروك في المدينة وفي الأسرة شيئاً شيئاً . وكانت توني لاتذكر زواجها إلا الفينة بعد الفينة ، حينما تلاحظ في وجه ايريكا الصغيرة النامية هذا الشبه أو ذاك ببندكس جرينليش . لكنها عادت ترتدي الملابس الزاهية وتموج شعرها ثانية فوق الجبين وتزور كسابق العهد المجتمعات في محيط معارفها . وعلى كل فقد كانت جد فرحة بأن تتاح لها الفرصة لمغادرة المدينة صيفاً في كل عام لمدة طويلة... ذلك أن صحة القنصل كانت للأسف تستلزم رحلات أخرى للاستشفاء .

كان يقول : « إني لاأعرف معنى أن يشيخ المرء! إن قطرة من القهوة تقع على سروال ، لا أستطيع أن آتي فوقها بماء بارد من دون أن أعود من ذلك في الحال بداء شديد في المفاصل... فكم سمح المرء لنفسه في الماضي بأشياء! » . كذلك إن القنصل يعاني أحياناً من نوبات الدوار .

وتوجه الى أوبروزالسبرون وايمز وبادن ـ بادن وكيسنجن وقام من هناك برحلة تثقيفية مسلية عبر نيرنبرج وميونيخ ماراً بسالسبورغ الى ايشل وڤينا فبراغ ودرسدن فبرلين الى موطنه . ومع أن مدام جرينليش كانت ، لضعف عصبي في المعدة ، قد بدأ يبدو عليها أخيراً أنها مضطرة الى الخضوع في الحمامات لاستشفاء قاس ، فإنها كانت تشعر بأن هذه الرحلات تبديل مرغوب فيه جداً ، ذلك أنها لم تكن تخفي البتة برمها بعض الشيء بالبقاء في موطنها .

كانت تقول وهي تتأمل سقف الغرفة تفكر : « أوه ، ياربي ، أنت تعرف يا أبي كيف تجري الحياة! حقاً إنني قد عرفت الحياة... لكنه من أجل هذا بالذات يبدو لي أن الجلوس هنا دوماً في البيت شيئاً سخيفاً ومنظراً كدراً نوعاً ما . لعلك لاتظن أني أكره البقاء عندكم ياأبي... إذن لاستحققت الضرب ولكنت ناكرة للجميل الى أبعد حد! لكنك تعلم ماهي الحياة... »

على أنها كانت تتضايق على الأخص من الروح الذي كان مظهره الديني يتزايد على الدوام في بيت أبيها الفسيح إذ كانت نزعة التقوى عند القنصل تظهر أقوى وأشد كلما تقدمت سنه وازداد سقمه ، ومنذ تقدم بزوجه العمر بدأت هي الأخرى تستسيغ هذا الاتجاه الروحي . وقد كانت الصلاة على المائدة في بيت بودنبروك مألوفة دائماً ، لكنه منذ أمد

أصبح قانوناً أن تجتمع الأسرة صباحاً ومساءً في حجرة الإفطار ومعها الخدم لتسمع من فم رب البيت فقرة من الانجيل . هذا الى تزايد زيارات القسس والمبشرين من عام لعام ، ذلك أن البيت السري المحترم القائم في شارع منج حيث ـ وهذا على الهامش ـ كان يقدم الطعام التسهي ، كان معروفاً في عالم الإصلاح اللوثري الكهنوتي والإرساليات الداخلية والخارجية بأنه يقري الضيف . فكان يقصده من نواحي البلاد كافة في شتى المناسبات سادة سود اللباس طوال الشعور ليقيموا فيه بضعة أيام... ضامنين أحاديث ترضي الله ، ووجبات مغذية ، ومعونة كبيرة لأغراض مقدسة . وكذلك وعّاظ المدينة يدخلون ويخرجون ضيوفاً عليه...

وكان توم من الرزانة والفهم بحيث يقتصر على ابتسامة يبديها ، أما توني فكانت تهزأ بكل بساطة بل إنه كان يروقها للأسف أن تستغفل رجال الدين كلما سنحت لها فرصة لذلك .

فأحياناً حين تعاني القنصلة وجعاً في الرأس كان من شؤون مدام جرينليش أن تعنى بإدارة البيت وتختار قائمة الطعام . ففي ذات يوم وقد حل ضيفاً على البيت واعظ أجنبي تبعث شهيته على سرور الجميع ، أعدت في خبث حساء خنزير وهو الطبق المحلي لأهل المدينة . وهو مؤلف من حساء الكرنب توضع فيه ألوان الطعام كلها من شرائح خنزير مقددة وبطاطس وشمندور وقنبيط وبازلاء وفول وكمثرى وبرقوق حامض ويعلم الله ماذا من عصير وخلافه . طبق لايستسيغه على وجه البسيطة من لم يعتده منذ الطفولة .

وكانت توني لاتني تسأل الضيف : «أيعجبك الطعام يا سيدي القسيس ؟ أطيب المذاق ؟ كلا ؟ يا رباه ، من كان يظن هذا!» ويبدو على وجهها خبث الصغار ، وتدع طرف لسانها يعابث شفتها العليا ، شأنها كلّما فكّرت في «مكيدة» أو نفّذتها .

ووضع القسيس البدين الملعقة مستسلماً وقال في براءة : «سأتناول الطبق التالي» .

فبادرت القنصلة الى القول : «إنه ليس ثم سوى طبق صغير من الحلوى» ذلك أنه لم يكن من المعقول أن يتلو مثل هذا الحساء طبق ما ، وعلى الرغم مما تلا من حلوى «الفرسان الغلابة» مع هلام التفاح فإن القسيس المخدوع لم يملك سوى النهوض عن المائدة دون أن يشبع ، بينما كانت توني تضحك خفية وتوم يضبط نفسه برفع حاجب من حاجبيه .

وفي مرة أخرى كانت توني تقف مع الطاهية شتينا تتحدثان عن شؤون البيت في الردهة وإذا بالقس ماتياس المقيم في كانشتات ، وكان ينزل بالبيت مرة أخرى لبضعة أيام ، عائداً من خرجة ، يدق باب الجرس ، فذهبت ترينا لتفتح وهي تخوض في مشيتها كعادة أهل

الريف فسألها القس في لطف يريد مباسطتها وامتحانها قليلاً : «أتحبين السيد ؟» ولعله قصد أن ينفحها بشيء لو وجدها مخلصة للسيد المسيح .

فقالت ترينا مترددة : «نعم ياحضرة القسيس...» واحمر وجهها وفتحت عينيها «أيهما تعني إذن ؟ الكبير أو الصغير ؟»

ولم يفت مدام جرينليش أن تروي هذه النادرة على المائدة حتى أن القنصلة لم تتمالك نفسها من الإغراق في الضحك على نحو مايفعل آل كروجر .

أما القنصل فخفض بصره فوق طبقه بالتأكيد ، جاداً ساخطاً .

وقال القس ماتياس مرتبكاً : «سوء فهم...»

الفصل الحادي عشر

ووقع مايلي في مرحلة متأخرة من صيف ١٨٥٥ في عصر يوم من أيام الآحاد . كان آل بودنبروك في حجرة المناظر الطبيعية ينتظرون القنصل ، وكان مشغولاً بارتداء ملابسه تحت ، إذ تواعد آل بودنبروك مع أسرة كستناكر على مشروع من مشاريع الأعياد ، نزهة في حديقة للتسلية أمام «باب القصر» واتّفقوا فيما خلا كلارا وكلوتيده اللتين كانتا في كل يوم أحد تنسجان جوارب في بيت إحدى الصديقات لأطفال صغار من الزنوج ـ اتّفقوا على أن يتناولوا القهوة هناك ، وربّما خرجوا ، إذا سمح الجو ، الى نزهة تجذيف في النهر .

وقالت توني : «إن أبي هذا لايحتمل» لاجئة كعادتها الى ألفاظ قوية «ألا يستطيع مرة أن يكون متأهباً في الموعد المضروب! إنه يجلس الى مكتبه..ويظل جالساً لايبارحه... لأن هذا أو ذاك من الأمور يجب أن ينجز... يا لله ، لعل هذا ضروري ، وكأني لم أقل شيئاً... وإن كنت لاأعتقد أن علينا أن نشهر إفلاسنا في الحال ، إذا هو وضع القلم قبل أوانه بربع ساعة... إنه حين يتأخر عشر دقائق عن الميعاد ويخطر موعده بباله يصعد الدرج قفزاً ، درجتين درجتين ، وإن كان يعلم أنه يصيبه الاحتقان والخفقان بعد الصعود... هذا مايقع منه قبل كل اجتماع وقبل كل خروج! ألا يتيح لنفسه الوقت الكافي ؟ ألا يسعه الخروج في الميعاد والإتئاد ؟ إن هذا لايدل على شعور بالمسؤولية ، فلو كان زوجي لحركت ضميره بصورة جدية ياماما!...»

كانت تجلس مرتدية حريراً متلوّناً يطابق البدع السائد (الموضة) ، وتجاور القنصلة على الأريكة . وكانت من جانبها تلبس ثوباً أثقل وزناً من الحرير الرمادي المضلع المشغول بالدانتيلا السوداء . وكانت أطراف قبعتها المصنوعة من الدنتيلا والتل المنشى المربوطة

تحت ذقنها بشريط من الأطلس تتدلى فوق صدرها ، وكان شعرها المفروق المصقول لايتغير لونه الأشقر الأحمر ، وفي يديها البيضاوين اللتين تبدو عروقهما مزرقّتين ازرقاقاً خفيفاً ، بومبادورة ، وبجانبها توم سانداً ظهره الى كرسيه الساند يدخن سيجارته ، بينما كلارا وتيلده تجلسان متقابلتين بجوار النافذة . وكان من غير المفهوم أن تتناول كلوتيده المسكينة كل يوم مثل طعام البيت الطيب الدسم ولايمرى عليها ، فهي تزداد على الدوام نحولاً ، وثوبها الأسود الرديء التفصيل لاتجمله هذه الحقيقة الواقعة ، هذا الى أنف مستقيم ذي مسام ، متضخم عند الأرنبة! تحت رأس مشدود الشعر بلون الرماد في وجه مستطيل هادىء أغبر اللون...

وقالت كلارا : «أترين أن السماء لن تمطر! » وكان من عادة الفتاة الصغيرة ألا ترفع صوتها عند السؤال قط بل تنظر الى وجه كل واحد نظرة معينة قاسية تقريباً . وكان ثوبها البني مزداناً فحسب ببنيقة مستقرة صغيرة بيضاء منشّاة وقلابات على هذا الغرار . كانت جالسة في استقامة تضم يديها في حجرها . وكانت الخادمات يخشينها أكثر مما يخشين سواها ، وتؤدي الصلاة صباح مساء ، ذلك أن القنصل لم يعد يستطيع أن يتلوها من دون أن يشكو صداعاً .

وعادت الى السؤال : «أتأخذين معطفك هذا المساء ياتوني! فالسماء ستمطر ... خسارة هذا المعطف الجديد...إني أرى من الأصوب أن ترجئوا نزهتكم... »

فردّ عليها توم بقوله : «كلا ، إن آل كستنماكر آتون... لابأس... فقد هبط البارومتر فجأة... كارثة ما صغيرة... لاتلبث السماء بعدها أن تفلع . إن أبي لم ينته بعد . حسن ، نستطيع أن ننتظر حتى يفرغ » .

ورفعت القنصلة إحدى يديها تعارض مستعيذة : «أتعتقد أن الجو سيتغير ياتوم ؟ أخ ، إنك تعلم أن هذا يخيفني » .

قال توم : «كلا ، لقد تكلّمت صباح اليوم في الميناء مع القبطان كلوب ، وهو لايخطىء . إن الأمر لايعدو هطلة مدرارة... لاتصحبها ريح قوية... »

لقد أتى هذا الاسبوع الثاني من سبتمبر بأيام متأخرة رديئة وقد أناخ أغسطس على المدينة بأثقل مما فعل يوليه في ريح جنوبية شرقية فأضاءت فوق الجمالونات سماء قاتمة الزرقة بصورة غريبة ، شاحبة الأفق كما هو الشأن في الصحراء . وبعد غروب الشمس شعّت البيوت والأرصفة في الشوارع دفئاً خافتاً كأنها أتون... واليوم تحوّلت الريح الى الغرب كل التحوّل وهبط البارومتر في نفس الوقت هذا الهبوط المفاجىء... بيد أن رقعة كبيرة من

السماء كانت ماتزال زرقاء ، لكن كتلة من السحب الزرقاء الغبراء كانت ترتفع منتفخة طرية كالوسادة .

وأضاف توم : «إني أجد أيضاً أنه لو نزل المطر لكان هذا على مايرام . فنحن خلقاء أن يضنينا هذا الهواء إذا سرنا فيه . فهو دافىء دفئاً غير طبيعي ولم نشهد مثله في بو...»

في هذه اللحظة دخلت ايدا يونجمان الى الغرفة وبيدها الصغيرة ايريكا .

وكانت الطفلة مندسّة في ثوب قطني منشّى حديثاً تفوح منه رائحة النشا والصابون ويبدو منظرها مضحكاً جداً . فلها تماماً اللون الوردي الذي للسيد جرينليش وعيناه ، لكن شفتها العليا كانت شفة توني .

وكانت ايدا الطيبة قد شاب شعرها تماماً ، فهو أبيض تقريباً وإن لم تتجاوز الأربعين ، لكن هذا في أسرتها كمين ؟ كذلك عمها الذي قضى نحبه كمداً ، شاب شعره في الثلاثين : هذا الى أن نظرة عينيها الصغيرتين ، العسليتين كانت تدل على الوفاء والحياة واليقظة . وقد بات لها الآن عشرون عاماً عند آل بودنبروك وهي تفخر بأنها لايستغنى عنها ، فقد كانت تشرف على المطبخ وقاعة الطعام وخزائن البياضات والصيني ، وكانت تقوم بالمشتريات المهمة ، وتقرأ لأيريكا الصغيرة ، وتحيك لها ملابس العرائس ، وتعمل معها ، وتحضرها ظهراً من المدرسة مزودة بربطة من خبز فرانتس الممون . وكانت كل سيدة تقول للقنصلة بودنبروك أو لإبنتها « يا لها من آنسة هذه التي عندكم يا عزيزتي! إنها تساوي وزنها ذهباً ، هذا ما أقوله لك! عشرون سنة!... ستكون في الستين ومابعدها ماتزال قوية! هؤلاء الناس ذوو العظام... ثمّ هذه العيون الوفية! إني أحسدك ياعزيزتي! » لكن ايدا يونجمان كانت تعرف قيمة نفسها . كانت تعرف من هي . فإذا جلست خادمة عادية مع ربيبها على نفس المقعد الذي تجلس عليه في ميلنفال وأرادت أن تتجاذب معها أطراف الحديث كمن يخاطب نداً ، قالت الآنسة يونجمان : «ايريكا! هنا تيار» وانصرفت بها .

وجذبت توني ابنتها الصغيرة اليها وقبلتها فوق احدى وجنتيها الورديتين ، ثم مدت اليها القنصلة على الاثر راحة يدها وهي تبتسم لها ابتسامة شتيتة... ذلك أنها كانت تراقب السماء وهي قلقة اذ تتزايد فيها الغيوم . وكانت يدها اليسرى تعبث في حالة عصبية بحشايا الأريكة وعيناها الصافيتان تجولان في اضطراب من الجنب الى النافذة .

وسمح لايريكا بالجلوس بجانب جدتها ، واتّخذت ايدا مجلسها على كرسي دون أن تسند ظهرها اليه وجعلت تشتغل بالإبرة . وهكذا جلس الجميع برهة صامتين ينتظرون القنصل . وكان الهواء مقبضاً ، وفي الخارج قد اختفت آخر قطعة زرقاء من السماء الشديدة

الغيم التي كانت تبسط رواقها على الأرض قريبة ، ثقيلة ، ملبدة . وقد بهتت ألوان الحجرة وانطفأت أصباغ المناظر الطبيعية من ورق الحيطان ، وذهبت صفرة الأثاث والستائر ولم تعد الظلال في ثوب توني تتراقص ، وباتت أعين الحاضرين باهتة اللون ، والريح ، الريح الغربية التي كانت تعبث هناك بالأشجار في فناء كنيسة مريم وتسفى في الشارع المظلم فتثير الغبار في الجو حلزونات صغيرة ، سكنت مرة واحدة ، وساد الهدوء التام برهة .

هنا حلّت بغتة هذه اللحظة... وحدث شيء لم يسمع له حس ، شيء مرعب ، فقد تضاعف الشعور آنئذ بالزمن وأحسست الأجواء وكأنها تضغط ضغطاً ارتفع في ثانية واحدة ارتفاعاً سريعاً وأرعب المخ وأرهق القلب وكتم الأنفاس... وكان طير من طيور السنونو يرفرف فوق الشارع ، ويداني بلاطه الى حد أنه كان يلطمه بجناحيه... هذا الضغط الذي لم يكن منه انفراج ، هذا التوتر ، هذه المضايقة الطاغية للمتعضي ـ هذا كله كان خليقاً ألا يحمل لو أنه طال أكثر مما طال أدنى جزء من لحظة ولو لم يتل منتهاه الذي بلغه في لمح البصر فرج وتخلفه طفرة... انشقاق وقع في مكان ما واعتقد الناس أنهم يسمعونه كذلك... لو لم ينهمر في نفس اللحظة غيث كاد ألا يسبقه قطر حتى أزبد الماء في مجاريه وطغى على الأرصفة...

وتوماس الذي عوده مرضه على تعقب انفعالات أعصابه ، انحنى في تلك الثانية الى الأمام ، وحرّك يده نحو رأسه ورمى بلفافة تبغه . وتلفت حوله لعلّ الآخرين شعروا بما شعر هو به ، وانتبهوا اليه . وقد ظنّ أنه لاحظ شيئاً على أمه ، أما من عداها فبدا أنهم لم يعوا شيئاً . كانت الأم تنظر إذ ذاك الى الخارج في المطر الغزير الذي كان يحجب كنيسة مريم تماماً . وتتنهد قائلة : «الحمد لله!» .

وقال توم : «هكذا . سيبرد الجو في دقيقتين ، وتعلو القطرات بالأشجار . وسنتناول القهوة في الشرفة . تيلده افتحي النافذة!» .

ونفذ صوت المطر الى الداخل أعلى وقعاً ، وصخب صخباً صريحاً .وهدر كل شيء وتلاطم ، ورزّ وأزبد ، وانطلقت الريح ثانية وشقّت في هبوبها قناع الماء الكثيف ومزّقته . وبدّدته في طريقها ، وأتت كل دقيقة بتلطيفة جديدة .

هنا جاءت لينا ، التابعة لينا تعدو في بهو الأعمدة وتقتحم الحجرة في هوج ، حتى صاحت ايدا يونجمان مهددة لائمة : «ماخطبك بربك!...»

وكانت عينا لينا الزرقاوان الخاليتان من التعبير تحملقان وفكاها تصطكان برهة من دون كلام...

«أخ ياسيّدتي القنصلة! أحقاً! تعالوا بسرعة... أحقاً يا ربي . ماذا جنيت!...»

فقالت توني : «حسناً . إني أراها قد أتت وزراً جديداً! كسرت في الراجح بورسليناً ثميناً! لا يا أماه ، إن خدمك...!»

لكن الفتاة صرخت هالعة : «لا ، السيد جرينليش... ليت الأمر كان هكذا... إنّما هو يتعلق بالسيد ، فقد أردت أن أحضر له الحذاء ، وكان جالساً على الكرسي الساند لايستطيع الكلام» .

فصاح توماس : «الى جرابو!» وانطلق الى الخارج من الباب .

وصاحت القنصلة : «ربّاه ، ربّاه» وشبكت يديها بجانب وجهها وأسرعت الى الخروج .

وردد توماس مبهور الأنفاس : «الى جرابو... في مركبة... في الحال!»

وهبطوا الدرج ودخلوا حجرة الافطار الى مخدع النوم .

لكن يوهان بودنبروك كان قد لَقِيَ ربه .

الجزء الخامس

الفصل الأول

قالت القنصلة : « عم مساءً يايوستوس . أبخير أنت ؟ اجلس! » .

وعانقها القنصل كروجر في رقة وخفة ، وهزّ يد ابنة اخته الكبرى التي كانت موجودة كذلك في حجرة الطعام . وكان إذ ذاك في الخامسة والخمسين من عمره ، يطلق الى شاربه الصغير لحية عارضية قوية مستديرة تترك ذقنه خالية ، ويخطها الشيب تماماً . وكانت على صلعته العريضة الوردية بضعة خيوط هزيلة من الشعر مسرحة ، وعلى كم سترته الأنيقة شريط حداد عريض .

وسألها : « أتعرفين الجديد يابتسي ؟ إن هذا يهمك كثيراً ياتوني . بالإيجاز ، إن أرضنا الواقعة أمام « باب القصر » قد بيعت... لمن ؟ لا لرجل واحد بل لاثنين لأنها ستقسم ، فيقتطع البيت ويقام سياج معترض ، ثمّ يقيم التاجر بنتيين عن اليمين والتاجر زورنسن عن الشمال كوخاً حقيراً... والآن على بركة الله » .

فقالت مدام جرنيليش وهي تشبك يديها في حجرها ، وترفع بصرها الى السقف : « عجيب... قطعة أرض جدي!... بهذا يكون الملك قد تبدد . ان فتنة المكان كانت بالذات في ترامِيه... وهو ما لم يكن له في الحقيقة ضرورة... لكنه كان من مقتضيات الوجاهة . الحديقة الكبيرة الممتدة الى نهر تراڤيه... والبيت القائم في المؤخرة مع المصعد ، وطريق الكستناء... فالآن تقسم الأرض اذن ، فيقف بنتيين على باب يدخن غليونه ، ويقف زورنسن على الآخر... بلى اني أقول أيضاً : « على بركة اللّه » يا خالي يوستوس . فلم يعد أحد من الوجاهة بحيث يسكن الأرض جميعها . والحمد للّه أن جدي لم يعد يمكنه أن يشهد هذا... »

وكان الحِداد مازال مخيماً رهيباً لايسمح لتوني بأن تعبر عن استيائها بكلمات أعلى وأقوى . كان ذلك في يوم فضّ الوصية بعد وفاة القنصل بأسبوعين وفي منتصف السادسة بعد

الظهر . وكانت القنصلة بودنبروك قد دعت أخاها الى موافاتها في شارع منج ليشترك مع توماس والسيد ماركوس الوكيل في اجتماع للنظر فيما أوصى به الفقيد وفي حالة ثروته . وقد أعلنت توني تصميمها على الاشتراك في المداولات . وهي على حد قولها مدينة بهذا الاهتمام للبيت التجاري وللأسرة على السواء ، معنية بأن تكسب هذا الاجتماع صفة الجلسة أو مجلس الأسرة ، فأسدلت ستائر النوافذ ، وأضاءت على الرغم من مصباحي الغاز القائمين على مائدة الطعام المفتوحة ، المغطاة بالقماش الأخضر ، كل الشموع الموجودة في الشمعدانات الكبيرة المذهبة ، مبالغة في الاحتفال . هذا الى كمية كبيرة من ورق الكتابة وأقلام الرصاص المبرية وزعتها على المائدة من دون أن يعلم أحد فيم يكون استعمالها في الحقيقة .

وكان ثوبها الأسود يجمل قامتها بنحافة البنات ، ومع أنها كانت أشد من الآخرين تألماً لموت أبيها ـ وقد كانت في السنوات الأخيرة بهذا القرب الى قلبه ـ وإنها الى الآن قد سكبت دموعها الحارة مرّتين لمجرّد تذكّره ، فإن انتظار اشتراكها في هذا المجلس الصغير وهذا الاجتماع الجدي ، كسا خديها الجميلين بلون الورد ، وأشاع الحياة في نظراتها ، وأكسب حركاتها غبطة وأهمية... أما القنصلة فكانت على النقيض من ذلك تعاني ، قد هدها الخوف وبرح بها الألم ، وأنهكتها آلاف الرسميات التي اقتضاها الحداد ، والاحتفالات التي استلزمها الدفن . فبدا وجهها وقد أحاطت به الدنتيلا السوداء في أشرطة قبعتها ، أشحب ، وكانت نظرات عينيها الزرقاوين الرائقتين غير لامعة ، لكن شعرها المفروق المشدود ، الأشقر الأحمر ، لم تر فيه الى الآن شعرة بيضاء واحدة... فهل كان هذا من فعل الصبغة الباريسية أو كانت العادية ؟ هذا ماكانت تعلمه الآنسة يونجمان وحدها ، ولن تفشيه لسيدات البيت ولو مرة واحدة .

وجلسوا في طرف مائدة الطعام ينتظرون مجيء توماس والسيد ماركوس من المكتب . وكانت صور الآلهة المرسومة تتميز على قواعدها بيضاء فخورة من مؤخرة اللوحة وسمائها الزرقاء .

وقالت القنصلة : «إن المسألة ياعزيزي يوستوس هي... أني دعوتك... ولأوجز ، فالمسألة تتعلق بكلارا الصغيرة . وقد ترك لي عزيزي المرحوم جان اختيار وصي لاتزال تحتاج اليه الفتاة خلال ثلاث سنوات...وإني لأعلم أنك لاتحب أن تُرهق بالتزامات ، فعندك واجبات حيال زوجك وحيال ولديك...»

«حيال ولدي يا بتسي» .

«حسناً ، حسناً . يجب أن نكون مسيحيين ورحماء يايوستوس وأن تصفح عن المسيئين كما هي الوصية . وفكّر في أبينا الذي في السموات» .

ونظر اليها أخوها متعجباً بعض الشيء . فقد كانت مثل هذه العبارات قبل الآن تسمع من فم القنصل المرحوم...

واستطردت تقول : «كفى! إنه لايرتبط بهذه المهمة التي تحدوها المحبة متاعب تقريباً... فأرجوك أن تتولى الوصاية» .

«بكل سرور يا بتسي ، حقاً ، بكل سرور أفعل هذا . ألا يسمح لي برؤية قاصرتي ؟ إن هذه الطفلة الطيبة جادة بعض الشيء أكثر مما ينبغي...»

ونوديت كلارا ، فظهرت شاحبة اللون لابسة ثياب الحداد ، تمشي متئدة ، وتأتي بحركات تدل على التحفّظ الحزين . فقد كانت تقضي وقتها بعد وفاة أبيها في صلاة متواصلة تؤديها في حجرتها .وكانت عيناها السوداوان بلا حراك ، قد تحجرتا فيما بدا من الألم وخشية الله .

فخطا اليها الخال يوستوس كيّساً كما هو . وكان ينحني لها وهو يضغط يدها ، ثمّ وجه اليها بضع كلمات حسنة الصياغة . ورجعت من حيث أتت بعد أن تلقت قبلة على شفتيها الجامدتين .

وعاودت القنصلة الكلام : «كيف حال يورجن الطيب ؟ كيف يجد نفسه في ڤسمر ؟ »

فأجاب يوستوس كروجر إذ يعاود الجلوس ويهزّ كتفيه : «بخير . أظنه وفق الى مكانه . فهو غلام طيب يا بتسي ، غلام شريف ، لكنه... بعد أن أخفق مرّتين في الامتحان ، كان الخير كل الخير في هذا... فدراسة القانون لم تكن تروقه ، ووظيفة البريد في ڤسمر مقبولة كل القبول... قولي لي ، إني أسمع أن ابنك كريستيان قادم ؟ »

«نعم يايوستوس إنه قادم . فالله يصونه في البحر! آه لقد طالت غيبته بصورة مخيفة! ومع أني كتبت اليه في اليوم التالي لوفاة جان ، فإنه لم يتسلّم الخطاب بعد . وهو الى ذلك يحتاج بالسفينة الشراعية الى شهرين تقريباً . لكنه لابدّ من مجيئه ، فإني شديدة الحاجة اليه يايوستوس! حقاً لقد قال توم أنجان ما كان ليوافق قط على تركه ليسافر لوظيفة في ڤالباريزو . لكني أرجوك : لقد مرّت ثماني سنوات تقريباً دون أن أراه . ثمّ بعد ذلك في هذه الظروف! كلا! إني أريدكم جميعاً من حولي في هذا الوقت العصيب... فهذا بطبيعة الحال بالنسبة للأم...»

فقال القنصل كروجر : «بالتأكيد ، بالتأكيد!» ذلك أن عينيها اغرورقتا بالدموع .

واستطردت تقول : «والآن يوافق توماس أيضاً . فأين يكون كريستيان خير مقاماً إلا في متجر المرحوم والده ، في متجر توم ؟ ففي استطاعته البقاء هنا ، والعمل هنا...آه ، إنني دائماً وجلة من أن يصيبه المناخ هناك بأذى...»

ودخل توماس بودنبروك مصحوباً بالسيد ماركوس الى القاعة . وكان فريدريك ولهلم ماركوس وكيل القنصل المتوفى رجلاً فارع القوام ، يرتدي سترة بنية على كمها شريط الحداد ، وكان في كلامه خافت الصوت متردداً يتلعثم بعض الشيء ويفكر طويلاً في كل كلمة ، اعتاد أن يمسح على شاربه الكستنائي الأحمر الذي يغطي فمه دون عناية بأصبعيه السبابة والوسطى الممدودتين المستقيمتين من يده اليسرى في بطء وحذر ، أو يفرك يديه بعناية مجيلاً عينيه العسليتين المستديرتين جانباً محاذراً حتى ليدخل في الروع أنه في غاية الاضطراب وشرود الفكر ، وإن كان يقظاً على الدوام في فحصه للأشياء .

وكان توماس بودنبروك ، وقد بات في سنيه الباكرة رئيساً للبيت التجاري الكبير ، يبدي في مظهره ومسلكه شعوراً جدياً بمكانته . لكنه كان ممتقع اللون وكانت يداه خاصة ـ بيضاوين كالقلابتين البادتين في أكمامه السود ، شاحبتين شحوباً كالذي يخلفه الصقيع ، وتدلان دلالة تامة على مابهما من جفاف وبرد . وقد كان من الممكن أن تعبر هاتان اليدان اللتان كانت أظافرهما البيضاوية المُعنى بها عناية كبيرة تبدي لوناً مائلاً الى الزرقة ـ تعبران في لحظات بعينها ومواقف بعينها يعتريها شيء من التشنج وينقصها شيء من الوعي ـ تعبيراً يجل عن الوصف عن حساسية أبيه وتحفظ مشوب تقريباً بالخوف ، تعبيراً كان الى ماقبل ذلك غريباً عن أيدي آل بودنبروك العريضة تقريباً المشبهة أيدي المواطنين لكنها بديعة التكوين ، ولايلائمها كثيراً... وقد كان أول هم لتوم أن يفتح الباب ذا المصراعين المؤدي الى حجرة المناظر الطبيعية ليتيح للقاعة دفء الموقد الذي كان يتقد خلف السياج المصنوع من الحديد المطروق .

وسأله يوستوس كروجر : «اذن لايجوز بعد أن يُخاطبك المرء بيا «حضرة القنصل ؟» أفقدت الأراضي الواطئة الأمل في أن تمثلها ياتوم ؟»

«نعم ياخالي يوستوس! فقد فضلت هذا... انظر ، لقد كان في وسعي أن أتولى القنصلية في الحال مع بعض الالتزامات الأخرى ، لكني أولاً مازلت صغير السن الى حد ما... ثمّ إني تحدّثت في هذا مع عمي جوتهولد فسرَّ وقبل» .

«معقول جداً يابني ، وسياسي جداً... مسالك الأماجد تماماً» .

وقالت القنصلة : «ياسيد ماركوس ، ياعزيزي السيد ماركوس!» ومدت يدها اليه التي

قلبت راحتها بعيدة جداً فتناولها ببطء ، وبنظرة جانبية حذرة تدل على الامتنان «لقد دعوتك الى هنا... وأنت تعلم بماذا يتعلق الأمر ، وأعلم أنا ، أنك متفق معنا . فقد أعرب زوجي المرحوم في وصاياه الأخيرة عن رغبته في أن تضع قواك الأمينة المحمودة في خدمة بيتنا التجاري لا كمعاون غريب كما كان الحال الى الآن ، بل كشريك» .

فتكلم السيد ماركوس قائلاً : «على التحقيق وبالتأكيد ياحضرة القنصلة . وإني لأرجو بكل إخلاص أن تكوني مقتنعة بأن هذا التكريم الشخصي الذي ينطوي عليه هذا العرض يلقى مني التقدير والشكر . ذلك أن الوسائل التي أستطيع أن أقدمها للبيت التجاري ضئيلة كل الضآلة . ولست أعلم أمام الله والناس ماأفعله خيراً من قبول ماتعرضينه ويعرضه السيد نجلك مع أجزل الشكر» .

فتكلم توماس قائلاً في عجلة وخفة : «أجل ياماركوس . وإذن أشكر لك من قلبي استعدادك لتولي جانب من المسؤولية الكبيرة التي ربّما نؤت بها أكثر مما ينبغي» . ومد يده عبر المائدة إلى شريكه لأن كليهما متفق على ذلك من أمد ، ولم يكن هذا كله سوى شكليات .

وقال القنصل كروجر : «يقولون «الشركة صعلكة» وستقضيان كلاكما على هذه السخافة! والآن نريد أن نستعرض الأحوال . وأنا هنا لأعنى ببائنة قاصرتي فحسب ، وماعداها عندي سيان ، هل عندك نسخة من الوصية يا بتسي ؟ وأنت ياتوم حسبة بسيطة ؟ »

قال توم : «هي في رأسي» وأخذ يشرح الموقف ، وهو يحرّك قلمه الذهبي على رقعة المائدة هنا وهناك ، ويرسل بصره الى حجرة المناظر الطبيعية مستنداً الى الوراء..

وكان الموضوع أن الثروة التي خلفها القنصل كانت أجسم مما كان يظن . وطبعاً لقد ضاعت بائنة ابنته الكبرى ، والخسائر التي تكبّدها البيت التجاري في تفليسة بريمن سنة ١٨٥١ كانت ضربة شديدة . كذلك سنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٥٥ الحالية قد جرّت اضطراباتها ومجرى الحرب فيها الخسائر . لكن نصيب بودنبروك في تركة كروجر ومقداره ٤٠٠,٠٠٠ مارك قد بلغ ٣٠٠,٠٠٠ لأن يوستوس استهلك منه سلفاً مبلغاً كبيراً . ومع أن يوهان بودنبروك كان دائماً يشكو جرياً على عادة التجار فقد عودلت الخسائر بمكاسب بلغت ٣٠,٠٠٠ ريال في خمس عشرة سنة . وإذن فقد بلغت الثروة بغض النظر عن كل عقار مبلغاً صحيحاً قدره ٧٥٠,٠٠٠ مارك .

بل إن توماس على كل ماكان يطلع عليه من سير الأعمال قد أخفى عنه مقدار هذه

الثروة . وبينما كانت القنصلة تتلقى هذا الرقم في رزانة ، وتوني تنظر أمامها في أجمل وقار خلا من الفهم ، ولاتستطيع مع ذلك أن تنفي عن سيماها شكاً يدل على القلق معناه : هل هذا أيضاً كثير ؟ كثير جداً ؟ هل نحن أيضاً أثرياء ؟... وبينما السيد ماركوس يفرك يديه في تؤدة ، مشتت الفكر فيما يظهر والقنصل كروجر يبدو عليه الضجر ، كان هذا الرقم الذي نطق به توماس يملأه فخراً أثار أعصابه وحرّكه وكاد يضايقه فقال بصوت متهدج ويدين مرتعشتين : « كان يجب أن نكون وصلنا من أمد الى المليون... إنه كان تحت تصرف جدي في خير أوقاته ٩٠٠,٠٠٠ مارك . وأية صفقات عقدنا هنا وهناك! وبائنة ماما! وميراثها ، آه ، لكن الخسارة الدائمة... ياإلهي ، إن هذا من طبائع الأشياء . لاتؤاخذني إذا كنت أتكلّم في هذه اللحظة في مصلحة البيت دون سواها ، وأرفع الكلفة بعض الشيء... فهذه البائنات وهذه الدفعات التي أُديت الى العم جوتهولد والى من في فرانكفورت وهذه المئات والآلاف التي لم يكن بد من خروجها من المتجر... ولم يكن إذ ذاك لرئيس البيت سوى ولدين... كفى ، إن هناك أعمالاً تنتظرنا يا ماركوس! » .

إن الحنين الى العمل والشوق الى الظفر والسلطان واشتهاء إخضاع الحظ قد التهب كله في عينيه برهة واضطرم ، فقد شعر بأنظار الجميع متجهة اليه تترقب هل يرفع من مكانة المتجر ومنزلة الأسرة القديمة أو يحافظ عليها على الأقل . وكان في البورصة تلقاه النظرات الشزراء من رجال الأعمال المسنّين الطروبين المتشككين الساخرين بعض الشيء تتساءل فيما يلوح : « هل تتغلب على هذا الأمر يابني ؟ » فيقول في نفسه : نعم سأتغلب .

وفرك فريدريك ولهلم ماركوس يديه متئداً وقال يوستوس كروجر :

« هدىء روعك يا توم! إن الزمن لم يعد كما كان إذ جدك مورد بروسي للجيش » .

وبدأ حديث مفصل عن فحوى الوصية جليلها وحقيرها ، حديث اشترك فيه الجميع ، وأبدى فيه القنصل كروجر حالة نفسية مرحة ، إذ كان يتكلم عن توماس دائماً كما يتكلم عن حضرة صاحب السمو الأمير الحاكم من الآن فصاعداً ، وكان يقول : « إن أرض المخازن تبقى للتاج من دون كلام طبقاً للتقاليد » .

واقتضت نصوص الوصية فيما خلا ذلك ، وكما هو مفهوم ، أن يبقى كل شيء ما أمكن مجتمعاً ، وأن تكون السيدة اليصابات بودنبروك من حيث المبدأ وريثة عامة ، وتظل الثروة كلها مودعة في العمل حيث أكد السيد ماركوس أنه يعزّز رأس مال المتجر بمبلغ ١٢٠,٠٠٠ مارك بوصفه شريكاً . وقد خصص لتوماس ثروة خاصة مؤقتة بمبلغ ٥٠,٠٠٠ مارك ولكريستيان مثل هذا القدر إذا ماأراد أن يستقل في عمله ، وكان يوستوس كروجر

نشطاً في هذا الأمر لما تليت الفقرة التالية : «إن تحديد مبلغ البائنة لإبنتي الصغرى المحبوبة كلارا في حالة الزواج أتركه لتقدير زوجتي المحبوبة» .

فأقترح : «لنقل مائة ألف» مستنداً الى الوراء في جلسته واضعاً ساقاً على ساق ، فاتلاً بكلتا يديه شاربه الأشيب القصير . فكان الدماثة بعينها . لكن المبلغ المقرر حدد بثمانين ألف مارك .

وجاء في الوصية بعد ذلك : «وفي حالة زاوج ابنتي الكبرى المحبوبة أنتونيا مرة أخرى يصح ألا يتجاوز جهازها مبلغ ١٧,٠٠٠ ريال بالنظر الى أنها سبق أن خصها في زواجها الأول مبلغ ٨٠,٠٠٠ مارك...» فحرّكت مدام أنتونيا ذراعيها الى الوراء ، ثمّ رفعت بصرها الى السقف وصاحت : «جرينليش ـ هه!!» وكأنها صيحة حرب ، أو نفخة مزمار . وسألت : «أتعرف في الحق ياسيد ماركوس كيف حال الرجل ؟ كنّا نجلس ذات عصر في الحديقة أمام البوابة في صفاء... أتعرف ياسيد ماركوس : بوابتنا . ـ حسناً! فمن ذا حضر ؟ شخص له لحية عارضية بلون النضار... ياله من لص!...»

فقال توماس : «كذا! لندع الكلام عن السيد جرينليش لما بعد . أليس كذلك ؟»

«حسناً ، حسناً! لكنك توافقني ياتوم ، فأنت إنسان عاقل ، وقد خبرت أن ليس كل شيء في الحياة شريفاً عادلاً ولو أني كنت قبل أمد وجيز مازلت ساذجة جداً» .

قال توماس : «أجل...» ومضى فيما كانوا فيه ، ودخلوا في التفاصيل وعلموا بالنصوص الواردة في الوصية عن انجيل الأسرة الكبير ، وعن أزرار القنصل الماسية وعن أشياء كثيرة أخرى... وبقي يوستوس كروجر والسيد ماركوس لتناول طعام العشاء .

الفصل الثاني

في أوائل فبراير ١٨٥٦ وبعد غيبة ثماني سنوات ، عاد كريستيان بودنبروك الى مدينة آبائه آتياً من هامبورج بعربة البريد ، يرتدي بزة صفراء ذات مربعات كبيرة عليها مسحة المناطق الحارة ، حاملاً معه منقار سمكة السيف وعوداً من قصب السكر فتلقى قبلات القنصلة بمسلك موزع بين تشتت الفكر والارتباك .

وقد احتفظ بهذا المسلك أيضاً لما توجهت الأسرة في صباح اليوم التالي لوصوله مباشرة الى المقبرة الواقعة فيما يلي «باب القصر» لتضع إكليلاً على القبر . وقد وقفوا جميعاً في الطريق المغطى بالثلوج أمام اللوحة العريضة التي تحيط فيها أسماء الراقدين هناك برنك الأسرة المنقوش على الحجر... أمام الصليب الرخامي القائم المستند الى حافة حرج المقبرة الصغير العاري من الورق بفعل الشتاء ، كانوا جميعاً هناك فيه عدا كلوتيده التي كانت تقيم في أونجناده لتعني بوالدها المريض .

ووضعت توني الاكليل على اسم أبيها المنقوش حديثاً بالأحرف الذهبية على اللوحة ، وركعت أمام القبر على الرغم من الثلج لتصلي بصوت خافت . وكان القناع الأسود يرفرف حولها وثوبها الفضفاض يستقر بجانبها مبسوطاً مرتفعاً بصورة بديعة ، ولايعلم إلا الله مبلغ ماكان في هذا الوضع المصبوب من كامن الألم والتقوى من جهة ، ومن رضى سيدة جميلة عن نفسها من جهة أخرى . ولم يكن توماس في حالة نفسية تسمح له بالتفكير في ذلك . لكن كريستيان كان ينظر الى أخته نظرة شزراء تعبر عن مزيج من الهزء والقلق كأنه يريد أن يقول : «أتستطيعن أن تتحملي تبعة ذلك أيضاً ؟ ألن ترتبكي حين تنهضين ؟ ياللفعلة السوء!» وضبطت توني هذه النظرة وهي تنهض ، لكنها لم ترتبك على الإطلاق بل طرحت

رأسها الى الوراء وأصلحت من شأن القناع والثوب ، وتحولت للذهاب في اطمئنان ووقار ، وهو ماخفف عن كريستيان فيما بدا .

وإذا كان القنصل المتوفي بتدلهه في حب الله والمسيح أول من عرف في أسرته المشاعر الرفيعة الراقية المفضلة وتعهدها ، فإن ولديه كليهما كانا أول من أجفل من آل بودنبروك في إظهار هذه المشاعر الطليقة الساذجة وذعر منها في حساسية . وحقاً لقد خبر توماس موت أبيه في ألم أفدح مما كان ألم جده في فقد أبيه .

ومع ذلك فلم يألف أن يجثو على ركبتيه أمام القبر ولا ارتمى قط فوق المائدة لينتحب كالطفل كما فعلت أخته توني ، بل تألم الى أقصى حد من الكلمات الضخمة الممزوجة بالعبرات التي أحبت مدام جرينليش أن تنوه بها بأخلاق أبيها الميت وبشخصه أثناء تناول المحمر والحلوى . فقد كان يقابل مثل هذه الانفجارات بجد وكياسة وصمت رزين وإيماء متحفظ من الرأس . وبالذات حين لا يرد المتوفى على لسان أحد ولا يعدد أحد مآثره كانت عيناه تغرورقان بالدمع رويداً رويداً من دون أن يحول تعبير وجهه .

أمّا كريستيان فكان غير ذلك . فلم يكن يستطيع ضبط نفسه وكانت أخته تفيض بهذه المشاعر الساذجة ـ مشاعر الأطفال . كان ينكب فوق طبقه ، ويشيح بوجهه ، ويبدي رغبته في التسلل وكثيراً ماكان يقاطعها بقوله : «بربك ياتوني!» في خفوت وعذاب ، مقطباً أنفه الكبير تقطيبات لاتحصى .

أجل لقد كان يبدي الاضطراب والارتباك بمجرد أن يتحول الحديث إلى المتوفى ، وكان يبدو كما لو كان لايخشى ولا يتجنب فلتات التعبير عن المشاعر العميقة الجادة المظهرية وحدها بل المشاعر نفسها كذلك .

لم يره أحد يسكب دمعة على أبيه الميت . وليس هذا فقط لأنه لم يعتد البكاء ، فالغريب أنه كثيراً ماكان يأخذ أخته توني جانباً ليجعلها تقص عليه بجلاء وإسهاب ما وقع عصر ذلك اليوم الرهيب الذي حدثت فيه الوفاة ، على الرغم من كراهيته لمثل هذه الأحاديث . ذلك أن مدام جرينليش كان في وكدها أن تقص بحرارة .

ويسألها للمرة الخامسة : «إذن كان أصفر اللون ؟ ماذا كانت الفتاة تصرخ لما اقتحمت علية الحجرة ؟... إذن كان أصفر اللون جداً ؟... ولم يستطع أن يقول شيئاً قبل أن يموت ؟... ماذا قالت الفتاة ؟...» وسكت ، سكت طويلاً ، وكان أثناء هذا الصمت يجيل عينيه الصغيرتين المستديرتين الغائرتين في الغرفة جولات سريعة يحدوها التفكير . قال بغتة : «شنيع» وروِيَ والرعدة تسري فيه وهو ينهض . كان على الدوام يغدو ويروح بعينين

مضطربتين تنمّان لأسباب غير مفهومة حين تندب أباها عالياً ، كان يحب أن يعيد بصوت مرتفع وفي غمرة من التفكير المرعب حشرجة الموت التي استفسر الخادم لينا إياها في اهتمام بالغ .

وكان كريستيان لايتجمل إطلاقاً ، وكان هزيلاً شاحب اللون مشدود جلد الرأس يبرز بين عظمتي خديه أنف ذو أرنبة ضخمة ، بينما كان خالياً ، من اللحم ، خفيف شعر الرأس بشكل ملحوظ . وكانت رقبته دقيقة مديدة ، وساقاه النحيلتان مقوّستين الى الخارج تقويساً قوياً . . . هذا إلى أن إقامته في لندن قد أثرت فيه فبما يبدو تأثيراً أبقى . وإذا كان في فالباريزو أيضاً قد اختلط غالباً بإنجليز فقد اتّخذ مظهره بأكمله مسحة انجلزية لم تكن تضيره وكانت تبدو في تفصيلة بزّته المريحة وقماشها الصوفي المتين وفي أناقة حذائه ـ تلك الأناقة العريضة الثابتة ، وفي الصورة التي يتدلى بها شاربه القوي الأشقر المحمر فوق فمه في عبوس . حتى يداه اللتان كان بياضهما من النوع الباهت ذي المسام وهو ماتسببه الحرارة ، كانتا تتركان بأظافرهما المستديرة المقصوصة النظيفة أثراً انجليزياً .

وسأل مرة بلا مناسبة أخته توني : « قولي لي... أتعرفين مايصيب المرء... إني أجد صعوبة في التعبير... عندما يزدرد لقمة جامدة فيحس ألماً ينتاب الظهر كله ؟ » وكان أثناء هذا الكلام يقطب أنفه كله ويجعّده تجعيدات صغيرة بارزة .

فقالت توني : « نعم ، إن هذا شيء عادي جداً... يتناول المرء جرعة من الماء... »

فرد عليها غير راضٍ عن الجواب قائلاً : « كذا ؟ كلا ، لا أظن أننا نعني الشيء نفسه » وسرى في وجهه شيء من الجد المشوب بالقلق يظهر تارة هنا وتارة هناك .

لقد كان أول من اصطنع في البيت نفسية طلقة مسرية . فهو لم ينس شيئاً من تلك المحاكاة التي كان يقلد بها مارسيلوس شتنجل المتوفى ، وكثيراً ماظلّ الساعات يتكلم بلهجته... وكان على المائدة يستعلم عن مسرح المدينة... هل تعمل عليه فرق جيدة... وماذا يمثل عليه .

فقالت توني في شيء من التوكيد بالغت فيه في قلة الاكتراث كي لا يعيل صبرها : « لاأعرف ، إني أتوهم الآن بذلك » .

لكن كريستان تجاهل سماع ذلك كل التجاهل ، وبدا يتكلم عن المسرح قال : « إني لاأستطيع أن أقول كم أحب ارتياد المسرح ، فمجرد كلمة « مسرح » تجعلني من فوري سعيداً... ولست أعلم هل يحس أحدكم هذا الشعور ؟ فإني أستطيع أن أجلس ساعات ساكناً أتطلع الى الستارة المسدلة... فأشعر في ذلك بالغبطة التي كنت أشعر بها طفلاً حين كنّا

ندخل هنا لنتلقى هدايا عيد الميلاد... واصلاح آلات الفرقة الموسيقية للاستعداد!... إني لأذهب الى المسرح ، ولو لأسمع هذا!... وأحب مناظر الحب بصفة خاصة... فإن بعض المحبّين يفهمون كيف يعتمد المحب رأسه هكذا بين يديه... والممثلون على الاطلاق... لقد اختلطت في لندن وفالباريزو أيضاً بالممثلين كثيراً... وكنت في أول الأمر فخوراً حقاً بالكلام معهم في الحياة العادية الصرفة . وفي المسرح كنت ألتفت الى كل حركة من حركاتهم... هذا مسل جداً! فالواحد منّا يلقي كلمته الأخيرة ويستدير بكل هدوء ثمّ يتجه نحو الباب متئداً غاية الإتئاد ، مطمئناً غاية الإطمئنان من دون أن يحس ارتباكاً ، وإن كان يعلم أن أنظار الجميع تتابعه... فكيف يكون هذا في الاستطاعة ؟... كنت من قبل أشتاق دائماً أن أكون مرة وراء الكواليس ـ فالأن أصبح هناك وكأني في بيتي تقريباً . هذا ماأقوله... تصوروا... في مسرح أوبيريت ـ كان هذا في لندن ـ رفعت الستارة ذات مساء وأنا ما أزال فوق خشبة المسرح أتحدث الى الآنسة ووترلوز ... الآنسة ووترلوز... فتاة جميلة جداً! وبغتة تنكشف لي قاعة النظارة... ياإلهي ، لست أعلم كيف انحدرت من خشبة المسرح! »

كانت مدام جرينليش هي وحدها تقريباً التي تضحك بين الجلوس على المائدة ، لكن كريستيان مضى يتكلم بعينين جائلتين ، تكلم عن مغنيات الكونسير الانجليزيات أثناء تناول القهوة ، فتحدث عن سيدة ظهرت بعارية شعر مرشوشة بالمسحوق ، وبعصا طويلة مسنودة على الأرض ، وغنّت أغنية اسمها : هذه ماري! « ماري ، أتعلمون ، ماري أشد الناس خزياً... فإذا ارتكبت إحدى النساء أشنع الأوزار فهذه ماري! ماري هي أردأهن جميعاً ، أتعلمون... الرذيلة... » . ونطق الكلمة الأخيرة في تقزز ، مقطباً أنفه ، رافعاً يده اليمنى معوجة الأصابع .

وقالت القنصلة : « كفى ياكريستيان! إن هذا لايهمنا على الإطلاق » .

لكن نظرة كريستيان تجاوزتها شاردة ، وكان سيكف عن الكلام حتى من دون اعتراضها ، وذلك أن بينما كانت عيناه الصغيرتان المستديرتان الغائرتان تطوفان ولاتكفّان بدا أن التفكير العميق المضطرب في ماري والرذيلة يستغرقه .

وبغتة قال : « غريب . ... إني أحياناً لاأستطيع أن أبلعَ! لا ، ليس هذا بالذي يضحك ، إني أجده أمراً جدياً بالغ الجد ، إنه ليخطر ببالي أني ربّما لا أستطيع أن أبلع فأبيت عاجزاً بالفعل عن البلع ، وتستقر اللقمة بعيدة عن الحلق ، وهذا الذي هنا ، الرقبة والعضلات... يتعطل بكل بساطة... لايخضع لإرادة ، أتعلمون . أجل ، إن المسألة هي : أني لاأجرؤ مرة على أن أريد إرادة حقة » .

وصاحت توني صيحة أخرجتها عن طورها : « كريستيان! يا إلهي ، ماهذا الهراء! أنت لاتجرؤ على إرادة البلع... لا ، إنك تعرّض نفسك للسخرية ، ماهذا الذي تحكيه لنا ؟... »

ولزم توماس الصمت ، لكن القنصلة قالت : « هذه هي الأعصاب ياكريستيان ، فقد حان الوقت لأن تعود الى وطنك . فالمناخ في تلك البلاد خليق أن يزيدك مرضاً » .

وجلس بعد المائدة الى الهارمنيوم القائم في قاعة الطعام ، ومثل عازفاً على البيان ، فكان كأنما يطرح رأسه الى الوراء ، وفرك يديه وأجال نظره في الغرفة من تحت الى فوق . ثمّ بدأ ، بلا حس ، ودون أن يطأ المنافيخ ، لأنه لايستطيع أن يعزف بحال من الأحوال ، ولأنه لم يكن على استعداد موسيقي كمعظم آل بودنبروك ـ بدأ وهو منكب ، يعالج « الباس » فأدى تقاسيم جنونية ، ثمّ ارتمى الى الوراء ورفع بصره الى أعلى مغتبطاً ، ودق بكلتا يديه على المفاتيح بكل قوة وانتصار... فأغرقت كلارا نفسها في الضحك . كان عزفه خداعاً ، ونزوة وشعوذة ومهزلة لاتقاوم ، يحمل الطابع الانجليزي الأمريكي الغريب الشاذ ، بعيداً بعداً كبيراً عن أن يؤثر تأثيراً سيئاً . لأنه نفسه كان يحس الراحة التامة فيه والأمان .

وقال : « كثيراً جداً ماذهبت الى الحفلات الموسيقية ، فأنا أغلو في شهود العازفين وهم يعزفون على آلاتهم!... فإنه حقاً غاية في الإبداع أن تكون فناناً! » .

ثمّ عاود الكلام من جديد ، لكنه لم يلبث مع ذلك أن كف فجأة فانقلب جاداً على غير انتظار : مفاجئاً الى درجة أن بدا كأنما أزيح عن وجهه قناع ، فنهض ، وملس شعره القليل وتوجه الى مكان آخر ، ولبث هناك صامتاً متكدراً ، قلق العينين ، يحمل وجهه تعبير من ينصت الى صوت غريب .

وقالت مدام جرينليش ذات مساء لأخيها توماس ، إذ كانا وحدهما : « إني أجد كريستيان أحياناً على شيء من الغرابة... فانظر كيف يتكلم في الحقيقة... إنه ينهمك في التفاصيل بصورة غريبة يخيّل اليّ معها... ولكن كيف أعبّر! إنه يتناول الأشياء من زاوية غريبة جداً ، أليس كذلك ؟... »

فقال توم : « أجل ، إني أدرك تماماً ماتقصدين ياتوني . إن كريستيان أخرق القلب ، ومن الصعب أن أعبر عن ذلك... إنه ينقصه مايمكن أن يسميه المرء التوازن ، التوازن الشخصي . فهو من جهة يعجز عن ضبط نفسه حيال مايبديه الناس من سذاجات خرقاء... فهو غير كفء لضبط النفس هذا . لايفهم كيف يكتم هذه المخاوف ويفقد راحة النفس كل الفقد . لكنه من جهة أخرى يستطيع أن يفقد راحة النفس على نحو أن يقع هو نفسه في أسوأ ثرثرة ، فيقلب دخيلته ظهراً لبطن ، بصورة غريبة . أليس هذا كما كان امرؤ يهذي

في بحران ؟ فالمتخيل ينقصه الإتزان والمراعاة بنفس الصورة تماماً . آه ، إن الموضوع هو بكل بساطة أن كريستيان ينشغل بنفسه أكثر مما ينبغي ، بما يدور في باطنه هو . فأحياناً تنتابه لوثة فيكشف عن أدق وأعمق مايدور في نفسه هو ويفيض به ــ وهو مالايهتم به إنسان عاقل ولا يريد أن يعرف عنه شيئاً . وذلك لسبب بسيط هو أن المرء يخجل من الإفضاء به . إن في مثل هذا الإفضاء شيئاً كثيراً من قلة الحياء ياتوني! انظري! إن انساناً آخرغير كريستيان يمكن أيضاً أن يقول إنه يحب المسرح ، لكنه يقولها عندئذ بنبرة أخرى عرضية وجيزة متواضعة . لكن كريستيان يقولها في توكيد معناه : أليس غرامي بالمسرح شيئاً عجيباً ، مثيراً للاهتمام بصورة هائلة ؟ إنه يجاهد الكلمات وهو يحكي ذلك . يفعل كما لو كان يكافح في سبيل التعبير عن شيء بديع مثالي ، خفي ، عجيب...... »

وواصل الكلام بعد برهة قائلاً وهو يلقي بلفافة تبغه في الموقد من السياج الحديدي المطروق : « أريد أن أقول لك شيئاً . . . لقد فكّرت أنا نفسي أحياناً في هذا التشغل بالنفس المنطوي على الوجل والغرور والفضول . ذلك أني كنت أنزع اليه بالمثل من قبل . لكني لاحظت أنه يتلف المرء ويجعله مرتبكاً مزعزعاً... والإتزان هو المهم عندي بالنسبة لي . فسيوجد دائماً أناس لهم الحق في مثل هذا الاهتمام بالنفس وهذه الملاحظة المستفيضة لمشاعرها : شعراء يستطيعون أن يعبّروا عن حياتهم الباطنة المفضلة تعبيراً أميناً جميلاً ، ويعمروا بذلك عالم المشاعر عند الغير . لكننا نحن أناس بسطاء يا طفلتي ، فملاحظاتنا الذاتية فقيرة بشكل موينس ويمكننا عند الضرورة أن نقول أن تنغيم آلات الأوركسترا ، إصلاحها يتيح لنا متعة غريبة ، وأننا أحياناً لانجرؤ على البلع...آه ، إنه ينبغي أن نستقر ونؤدي شيئاً مما أداه آباؤنا ، والى الشيطان بنا!... »

« أجل ياتوم ، إنك تعبر عن رأيي . إنني حين أفكر أن آل هاجنشتروم هؤلاء يزدادون على الدوام غطرسة... ياإلهي ، هذه الحثالة ، أتعلم... إن أمي لاتريد سماع هذه الكلمة ، لكنها الوحيدة السديدة ، ألعلهم يظنون إن لم يعد في المدينة من أسر وجيهة سواهم ؟ ها ، إني لأضحك ، أتعرف! إني يجب أن أضحك عالياً... »

الفصل الثالث

حدج رئيس بيت يوهان بودنبروك التجاري شقيقه عند وصوله بنظرة طويلة فاحصة ، وظلّ خلال الأيام الأولى يلاحظ ملاحظة عابرة عارضة ، ثمّ لاح أنه أرضى استطلاعه وكون رأيه من دون أن يدع أحداً يقرأ على وجهه الهادىء الرزين مايكون من حكم . وكان يتحدث معه في دائرة الأسرة بلهجة عدم الإكتراث عن أشياء قليلة الأهمية ، ويتسلى كالباقين حين يعرض كريستيان شيئاً ما...

وبعد ثمانية أيام تقريبا قال له : « إذن سنعمل معاً ياصغيري ؟... لقد تفاهمت مع ماما على ماأعلم ، أليس كذلك ؟... وقد أصبح ماركوس كما تعرف شريكي بالحصة التي تطابق ثروته المدفوعة . وإني أرى أن تأخذ ، بوصفك أخي ، مكان ماركوس السابق تقريباً تتولى مركز الوكيل في الظاهر... وهو مركز وجيه على الأقل... أما مايتعلق بعملك فلست أعلم مبلغ تقدّم معارفك التجارية ، وأرى أنك الى الآن قد ضربت في الآفاق قليلاً ، أليس كذلك ؟... وعلى كل فستكون المراسلة بالإنجليزية هي في الغالب أهم ماتتولاه... لكن لابدّ أن أرجوك شيئاً ياعزيزي! فإنك بوصفك شقيق رئيس العمل ستشغل بين بقية الموظفين بطبيعة الحال مكاناً مفضلاً بالفعل... لكنني لست بحاجة الى أن أقول لك ، أليس كذلك . أنك تنال التفاتهم بالتساوي معهم والتفاني في تأدية الواجب أكثر كثيراً مما تناله بالإنتفاع بامتيازاتك والتعالي عليهم . إذن أوصيك بالمحافظة على مواعيد المكتب والخارج ، أليس كذلك ؟...»

ثمّ عرض عليه بعد ذلك اقتراحاً يتعلق بالوكيل قبله كريستيان دون تفكير أو مساومة ، وبوجه مرتبك ، ، مشتت ، يشهد بالقناعة الكثيرة والرغبة الشديدة في إنهاء الموضوع بسرعة .

وفي اليوم التالي قدمه توماس الى مكتب الشركة ، وبذا عمل كريستيان في خدمة المتجر القديم .

لقد اتّخذت الأعمال بعد وفاة القنصل مجراها الثابت الذي كان قد انقطع . لكنه سرعان مالوحظ أنه منذ تولى توماس بودنبروك القيادة سرى في العمل روح أبرع وأنشط وأكثر إقداماً... فهنا وهناك شيء يقدم عليه ، وهنا وهناك يفاد وينتفع في وعي من سمعة البيت التي كانت في العهد الماضي مجرد فكرة ونظرية وترف... فجعل السادة في البورصة يومئ بعضهم إلى بعض ويقولون : « أن بودنبروك يريد أن يكسب مالاً معنا » لكنهم وجدوا من الخير كل الخير أن يسحب توماس السيد فريدريك ولهلم ماركوس الشريف وراءه كما يسحب كرة من الرصاص مثبتة في قدمه . فنفوذ السيد ماركوس هو بمثابة اللحظة المعطلة لسير الأعمال ، فهو يمسح باصبعين على شاربه بعناية ، ويحرك أدوات الكتابة وقدح الماء القائم على مكتبه على الدوام الى مكانها الصحيح في حب دقيق للنظام ، ويفحص المسألة المؤلفة من عدة صفحات ، وعلى وجهه تعبير يدل على الشرود ويخرج فيما خلا ذلك ، وجرياً على عادته خمس أو ست مرات أثناء العمل الى الفناء أو الى دورة المياه ليضع رأسه تحت رشاش الماء ابتغاء التنشيط .

كان رؤساءالبيوت التجارية الكبرى يقول بعضهم لبعض : « إنهما يكملان أحدهما الآخر » . وربّما قالها القنصل هوينوس للقنصل كيستنماتر ، ويكرر الناس هذا الحكم بين رجال السفن وهم عمال المخازن ، وبين أسر صغار المواطنين ، ذلك أن المدينة كان يهمها أن تعرف كيف يعالج بودنبروك الصغير أموره... كذلك السيد شتوت المقيم بشارع صناع النواقيس ، كان يقول لزوجته التي كانت تتردد على الأوساط الراقية : « إنهما يتممان أحدهما الآخر جيداً ، أقول لك ذلك! » .

بيد أن شخصية المتجر بلا ريب قد كانت لأصغر الشريكين ، يبدو هذا من أنه كان هو الذي يعامل عملاءالبيت والربابنة ومديري العمل في مكاتب المخازن ، والسائقين ، وعمال المخازن . كان يجيد التكلم بلغتهم من دون تكلف والبقاء مع ذلك على بعد منهم...

لكن حين يقول السيد ماركوس لأحد العمال الشرفاء : « أتفهمني ؟ » يرن هذا القول ويبلغ من نشازه التام أن شريكه الجالس قبالته على المكتب يأخذ ببساطة في الضحك ، فما يكاد المكتب يسمع هذه الإشارة حتى يضج عن بكرة أبيه بالضحك ..

وكان توماس بودنبروك تحدوه الرغبة التامة في الاحتفاظ للمتجر بلمعانه والاستزادة من تألقه الذي يوائم اسمه القديم . فكان يجب أن يساعد بشخصه في الجهاد اليومي في

سبيل النجاح ، ذلك أنه يعلم جيداً أنه مدين بأكثر من صفقة رابحة لمظهره المطمئن الأنيق ولطفه الجذاب ولباقته الماهرة في الحديث .

كان يقول : «لايجمل برجل الأعمال أن يكون ديوانياً!» قال هذا الكلام لستيفان كيستنماير ، أحد أصحاب بيت كيستنماير وأولاده ، ورفيقه ذات يوم في المدرسة ، وقد ظلّ هو صديقه الأرجح عقلاً وكان يصغي الى كل كلمة من كلماته لينشرها ــ أي ستيفان ـ بعدئذ على أنها رأيه هو... قال لهذا الرفيق : «إن هذا يتطلب شخصية . وهذا مايوائم ذوقي . ولست أعتقد أن النجاح الكبير مما يحرز من فوق المكتب... فهو بهذه الصفة لايسرّني كثيراً . فالنجاح لايستطاع على المكتب فقط... فإني أحتاج دائماً الى أن أسيّر الأمور وأنا حاضر ، بالنظرة والكلمة والإلتفات... أسيطر عليها بالتأثير المباشر لإرادتي وموهبتي وحظي كما تحب أن تسمّيه . لكن هذا مع الأسف يصبح نهجاً قديماً . هذا التدخل التشخصي من جانب التاجر . والزمن يتقدم ، لكنه يخلف في رأيي وراءه خير ما هنالك... إن المواصلات تسهل على الدوام ، والأسعار تعرف بأسرع مما كانت... والمخاطرة تقل ويقل معها الربح... أجل لقد كانت حال القدامى غيرذلك... فجدي على سبيل المثال... كان يسافر الى ألمانيا الجنوبية بوصفه مورداً بروسياً في مركبة للجيش تجرها أربعة من الجياد ، سيداً مسناً مذرور الرأس بالمسحوق ، في قدميه الاسكاربين... فكان بهذا الهندام يأسر من حوله ، ويبدي فنونه ، ويكسب مالاً وفيراً ياكيستنماير! ـ آه ، إني لأخشى أن يصبح للتاجر مع الزمن كيان أرخص مما كان له الى الآن...»

هكذا كان يشكو أحياناً ، فكانت من ثمّ أحب صفقاته تلك التي يعقدها حين دخل طاحونة في إحدى نزهاته الأسرية ، ويتحدث الى صاحبها الذي يحس أن حديثه اليه تشريف له فيتعاقد معه ـ عرضاً ـ راضي النفس على صفقة طيبة... ومثل هذا لايوائم طبع شريكه .

... أما مايتعلق بكريستيان فيبدو أنه كرس نفسه أول الأمر لعمله يؤديه بهمة وسرور حقيقيين . أجل ، لقد بدا أنه يستشعر فيه الراحة ويرتاح اليه بصفة استثنائية ، وبات له خلال أيام عدة أسلوب خاص : يأكل بشهية ، ويدخن غليونه الصغير ، ويدفع كتفيه في السترة الانجليزية في الوضع الصحيح مما كان يعبّر عن الرضا . وكان يذهب الى المكتب صباحاً في نفس الوقت الذي كان يذهب فيه توماس تقريباً ، ويأخذ مكانه بجانب السيد ماركوس وتجاه أخيه في شيء من الإنحراف فوق كرسيه الساند المتحرك . ذلك أنه كان له كرسي ساند أسوة برئيسيه . كان يقرأ «صحف الاعلانات» ويدخن سيجارة الصباح أثناء ذلك الى نهايتها ، ثمّ يخرج من خزانة المكتب السفلى كأساً من الكونياك المعتق ، ويبسط

ذراعيه ليتيح لنفسه حرية الحركة ويقول : «استعنّا بالله» ثم يقبل على عمله ، بينما يدير لسانه بين أسنانه . وكانت رسائله التي يحررها بالإنجليزية مكتوبة بحذق ، ذات تأثير . لأنه كان يتكلم الانجليزية بسهولة ومن دون تكلف ، وكيفما اتفق ، وبلا عناء . وكان يكتبها أيضاً .

كان في محيط الأسرة يعبّر عن النفسية التي تفعمه ، بكلمات على طريقته ، فيقول : «إن التجارة مهنة جميلة مسعدة حقاً ، ثابتة ، باعثة على القناعة والهمة ، مريحة... وأنا والحق يقال قد ولدت لها . وبوصفي أحد أعضاء البيت تعلمون أني باختصار أشعر بأني بخير كما لم أكن من قبل . فأنا أذهب في الصباح الى المكتب منتعشاً ، أقرأ الصحيفة عن آخرها ، وأدخن ، وأفكر في هذا وذاك وكيف ينجزه المرء على خير وجه ، وأتناول كأساً من الكونياك ، وأعمل قليلاً . ثمّ تحل الظهيرة فآكل مع أسرتي ، واستريح ، ثم أعاود العمل... أكتب على ورق جيد ، مصقول ، نظيف من ورق المكتب بقلم جيد... وعندي مسطرة وفتّاحة ورق ، وخاتم ، كلها من أجود صنف وصالحة... بها يؤدي المرء كل شيء بهمة ، حسب الدور ، وواحدة بعد الأخرى الى أن يفرغ المرء أخيراً من عمله . وهكذا يوماً بعد يوم . وعندما يصعد المرء لتناول طعام العشاء يشعر بالرضا يسري في أعضائه... فكل عضو يشعر بالرضا... واليدان تستشعران الرضا...» .

فصاحت توني : «بربّك ياكريستيان! إنك تجعل نفسك إضحوكة! كيف تشعر اليدان بالرضا...»

«بلى! ألا تعرفين هذا إذن ؟ إني أعني...» وأهتم بأن يعبّر عنه بتوضيحه... واستطرد : « إن المرء يقبض يده ، أتعرفين... فيتّخذ قبضته غير قوية كما ينبغي ، إذ المرء متعب من عمله . ليست لينة لكنهالاتضايق... تشعر أنها بخير ، راضية... وهذا شعور بالإكتفاء الذاتي... وقد يجلس المرء ساكناً كل السكون ، دون أن يتضايق...»

ولزم الجميع الصمت ، ثمّ قال توماس وكله عدم اكتراث ليخفي اشمئزازه : «يلوح لي ، أنك لاتعمل لكي... »وقطع الكلام ولم يكرر شيئاً . ثمّ قال : «وأنا على الأقل أضع نصب عيني أغراضاً أخرى» .

لكن كريستيان الذي كانت عيناه تجولان فلم يسمع هذا ، لأنه كان يفكر ، وسرعان مابدأ يقص حكايته عن ڤالباريزو ، حادثة قتل واغتيال شهدها شخصياً... «وهنا نزع الرجل السكين...» ومثل هذه الحكايات التي يحفظ منها كريستيان الكثير وتجد فيها مدام جرينليش تسلية كبيرة ، بينما ترتعب منها القنصلة ، وكلارا وكلوتيده ، وتنصت اليها

الآنسة يونجمان والى جانبها ايريكا فاغرتين فاهيهما ، يقابلها توماس دائماً بعدم الارتياح . وقد اعتاد أن يعلق عليها بملاحظات جافة ساخرة ويظهر بوضوح كما لو كان يعتقد أن كريستيان يغلو ويدلس وهو مايخالف الواقع . إذ أنه إنّما يقص بأعصابه ويخلع عن حكاياته الألوان . ترى هل كان توماس لايحب أن يسمع أن أخاه الأصغر ساح أبعد مما ساح هو وشاهد أكثر ما شاهد ؟ أم أنه كان يكره أن يشعر بامتداح الفوضى والعنف الغريب الذي تنطوي عليه حكايات عن مُدى ومسدسات... وثابت أن كريستيان لم يكن يكترث مطلقاً لاستهجان حكاياته . فقد كان نفسه تستغرقه أوصافه كل الاستغراق الى درجة ألا يلتفت الى نجاحها أو فشلها عند الغير ، فكان إذا انتهى من روايتها أجال في الغرفة بصراً تائهاً ، واستحوذت عليه الأفكار .

وإذا كانت العلاقة بين الأخوين بودنبروك لم تجلب على الأيام خيراً فإن كريستنيان لم يكن خليقاً أن يبدي أية عداوة لأخيه أو يكنها له أو يجرؤ على إبداء رأي فيه أو حكم عليه أو تقدير له . إنه في بداهة صامتة لم يدع أحداً يشك في اعترافه بتفوق أخيه الأكبر عليه ، وبأنه أكثر جداً منه ، وأكفأ ، وأمهر ، وأجدر منه بالاحترام . لكن توماس كان يتيره بالذات هذا التواضع له في مظهره غير المحدود المنطوي على عدم الإكتراث ، والتسليم ، ذلك أن كريستيان كان يمعن في الاستخفاف في كل مناسبة بحيث كان يبدو عليه أنه لايعلق أهمية على التفوق والحذق والاحترام والجد .

وقد لاح أنه لم يلحظ إطلاقاً أن رئيس المتجر كان يلقاه بمرارة صامتة تزداد على الدوام... وعند توماس لهذا أسباب إذا جعلت همة كريستيان تفتر للأسف بعد الاسبوع الأول ، فلمّا تقضى الاسبوع الثاني فترت فتوراً كبيراً ، وقد ظهر هذا أولاً في أن استعدادات كريستيان للعمل ـ وكانت في مبدأ الأمر على صورة الإقبال المصطنع الممطوط بشكل متقن من قراءة صحف وتدخين سيجارة الإفطار وتناول كأس الكونياك ـ هذه الاستعدادات جعلت شيئاً فشيئاً يطول أمدها تمتد في النهاية الى قبيل الظهر ، ثمّ كان أن كريستيان أخذ يتجاوز مافرض عليه من مواعيدالمكتب ، فيظهر في الصباح متأخراً دائماً يوماً عن يوم ، وسيجارة إفطاره في فمه ، ولكي يتم تمهيداته للعمل يذهب ظهراً لتناول الغداء في النادي ويعود الى العمل بعد الميعاد ، وأحياناً مساء ، وأحياناً لايعود...

وهذا المنتدى الذي ينتمي اليه في الغالب تجار أعازب ، يحتوي في الطبقة الأولى بضعة أماكن مريحة من مطعم وحانة يتناول فيها المرء وجباته ويتقابل في مجالس على السجية ، لاتسلم كثيراً من الأذى . ذلك أنه كان يلعب فيها الميسر . كذلك كان بعض أرباب الأسر

غير الثابتين كثيراً مثل القنصل كروجر وبيتر دولمان أعضاء في هذا المنتدى! ومفوض الشرطة كريمر كان «الرجل الأول والرأس» كما قال الدكتور جيزيكه ، أندرياس جيزيكه ابن مدير المطافىء ورفيق كريستيان القديم في المدرسة ، الذي أقام في المدينة محامياً فسرعان ماضمّ اليه بودنبروك الأصغر مجدداً صداقته له ، وإن كان معروفاً بأنه مستهتر وطائش تقريباً .

وكريستيان أو كريشان ، ذلك الاسم الرديء الذي كان يطلق عليه في الغالب قد استقبل هنا بأذرع مفتوحة ، إذ كان من قديم من معارف الجميع وأصدقائهم بدرجة ما ، ومعظم هؤلاء من تلاميذ المرحوم مارسيلوس شتنجل . وإذا كان التجار أو المشتغلون بالعلم ، لايؤمنون كثيراً بكفاياته الذهنية فهم يعرفون موهبته الاجتماعية المسلية ، وفي الواقع لقد كان يقدم هنا «نمرة» ويقص خير حكاياته . كان يجعل من نفسه على بيان النادي عازفاً منفرداً ويقلّد الممثّلين ومغني الأوبرا الانجليز والأمريكيين ، ويجيد رواية فضائح النساء في مختلف الجهات على وجه عديم الأذى ومسل الى أقصى حد ، لأنه مما لاشك فيه أن كريستيان بودنبروك قد كان من الفجّار ، فقد كان يقص مغامرات وقعت له على ظهور السفن وفي السكك الحديد ، وفي سان باولو ، وفي هوايت تشابل ، وفي الغابات... كان يحكي بعبارة طاغية ، مؤثرة ، فياضة غير متكلفة ، ونطق فيه رنة الشكوى وفيه جاذبية وفيه غرابة ، لايؤذي كنطق الفكاهي الانجليزي . قص حكاية كلب أرسل في صندوق من ڤالباريزو الى سان فرانسيسكو وكان أجرب . ويعلم الله مغزى القصة ، لكنها كانت في فمه مضحكة بصورة هائلة . فإذا لم يعرف أحد ممن حوله أن يغرب في الضحك ، جلس هو بأنفه المقوّس الضخم ورقبته الدقيقة المديدة جداً ، وشعره الخفيف ، الأشقر الأحمر ، وأجال عينيه الصغيرتين المستديرتين الغائرتين فيما حوله مفكراً ، يبدو على سيماه إمارات قلق غامض هو مظهر من مظاهر الجد ، ويضع إحدى ساقيه النحيلتين المعوجّتين الى الخارج فوق الأخرى... وكان يظهر أن جلساءه يضحكون على حسابه وعليه... لكنه قلّ أن خطر هذا بباله .

وفي البيت كان يحلو له الحديث عن مكتبه في ڤالباريزو ، عن درجة الحرارة الشديدة السائدة هناك وعن لندني شاب يدعى جوني ثندرستورم ، صعلوك شنيع ، لم يره قط يزاول عملاً ، لكنه مع ذلك تاجر حاذق... قال كريستيان : «يا إلهي! هذه الحرارة! ماعلينا ، ويدخل الرئيس المكتب... وكنّا ثمانية منطرحين كالذباب هنا وهناك ، ندخن السجاير ونطرد البعوض على الأقل . يا إلهي! ويقول الرئيس : ما خطبكم! إنكم لا تعملون ايها

السادة . فيقول جوني ثندرستورم : لاياسيدي! كما ترى ياسيدي! وفي هذا ننفخ جميعاً في وجهه دخان السجائر . يا إلهي! » .

وسأله توماس منفعلاً : «لماذا تقول دائماً : ياإلهي ؟ » ولم يكن هذا مع ذلك ما أسخطه ، بل إنه كان يشعر أن كريستيان إنّما قص هذه الحكاية بهذه الصيغة لأنها أتاحت له فرصة للكلام عن العمل في سخرية واحتقار .

وحولت أمهما الحديث في رصانة الى شيء آخر .

وقالت القنصلة بودنبروك وهي من أسرة كروجر نفسها أن هناك في هذه الدنيا أشياء كريهة كثيرة . والأخوة أيضاً يمكن أن يبغض بعضهم بعضاً ويحتقره . وهذا مايقع مع شناعته . لكن أحداً لايذكره . بل يكتمه . ولاحاجة بأحد الى العلم به .

الفصل الرابع

حدث في مايو أن العم جوتهولد ، القنصل جوتهولد بودنبروك ، قضى نحبه في أحضان زوجته ، وهي من أسرة شتيونج ، ومات ميتة أليمة في الستين من عمره في ليلة ليلاء ، ضحية تقلصات في القلب .

وكان ابن مدام جوزفين يعاني شظف العيش بالنسبة لمن أنجبتهم بعده مدام انطوانيت من أخوته ذوي الجاه والسلطان . كان راضياً بما قسم له ، وكان في السنوات الأخيرة وخاصة بعد أن تخلى له ابن أخيه عن القنصلية الهولندية يستحلب من علبته الصفيح بعض أقراص للصدر دون أن يكن هذا الصدر ضغينة . أما الذين كان يحدوهم الانقسام العائلي القديم على صورة عداوة عامة غير معينة ، ويحرصون عليه فكانوا في الأغلب سيدات بيته! زوجته الدمثة الأخلاق ، الضيقة الذهن ، وبناته الثلاث المسنات اللواتي لم يكن يسعهن إلا أن ينظرن الى القنصلة أو أنتونيا أو توماس وفي أعينهن شعلة صغيرة سامة .

ففي أيام الخميس وفي «اجتماعات الأطفال» التي جرى بها العرف والتقليد كنّ يجتمعن في الساعة الرابعة في البيت الكبير الكائن في شارع منج ليتناولن هناك طعام الغداء ، وليقضين المساء . وكان أحياناً مايظهر القنصل كروجر أيضاً أو زيزيمي فيشبروت مع أختها الجاهلة ـ وهنا كانت سيدات بودنبروك يأتين من الشارع العريض وعلى ألسنتهن كلام مفضّل عندهن بطبيعة ـ كلام عن زواج توني السابق ابتغاء حمل مدام جرينليش على بضع كلمات من كلامها الضخم فيرسلن في أثره بعض نظرات وجيزة حادة... أو يدخلن في تأملات عامة عن صبغ الشعر وكيف أنه عجب غير لائق ، أو يستقين معلومات عن يعقوب كروجر ابن أخي القنصلة يبدين فيها عطفهن عليه . وبين ذلك يُذقْنَ كلوتيده المسكينة البريئة ، الصبور ، الوحيدة التي لابدّ أنها كانت تشعر بأنها أقل منهنّ أيضاً ، سخرا ليس

خلواً من الأذى كالذي تتلقاه الفتاة الفقيرة الجائعة كل يوم من توم أو توني في رحابة صدر ، منشرحة ، دهشة ، ويتندّرن بصداقة كلارا وتعصبها ـ وسرعان مااهتدين الى أن علاقة كريستيان بتوماس ليست على مايرام ، وأنهنّ لسن بحاجة الى احترام كريستيان بحال من الأحوال والحمد لله ، ذلك أنه كان في البيت امعة ومخلوقاً مضحكاً . أما مايتعلق بتوماس فلم يكن فيه من نقط ضعف تُلاحظ ، وكان يقابلهنّ من جانبه باتّزان وتسامح معناهما : أنني أفهمكن وأرثي لكنّ... وهكذا كنّ يعاملنه باحترام مسموم شيئاً ما . أما عن ايريكا الصغيرة المتوردة ، المعتنى بها حقاً فكان لابدّ أن يقال مع ذلك أنها متخلفة في نموها بصورة تبعث على القلق . وهنا تهتز فيفي ويسيل لعابها من زاويتي فمها ، وهي تلتفت ، ليطفح كأسهن ، الى مابين الطفلة والنصاب جرينليش من شبه مرعب...

والآن يحطن مع أمهن باكيات بسرير الأب المسجى عليه . وعلى الرغم من أنه كان يبدو عليهن كما لو كان هذا الموت من عمل أقربائهن في شارع منج ، فإنهن أرسلن رسولاً الى هناك ، فدق جرس الباب في جوف الليل عابراً الرحبة ، وإذ كان كريستيان قد عاد الى البيت متأخراً متألماً ، فقد خرج توماس وحده الى الطريق تحت مطر الربيع .

وقد جاء في الوقت المناسب بالضبط ليشهد اختلاجات السيد المسن التشنجية الأخيرة ، ثمّ وقف طويلاً شابكاً يديه في حجرة الوفاة ، وتأمل القامة القصيرة التي ترتسم تحت الأغطية والوجه ذا الملامح الناعمة نوعاً ما والجسد الأبيض...

فقال لنفسه : لم تكن حالك بالحياة بالتي تسر يا عمّاه . لم تتعلم في الوقت المناسب أن تتساهل وأن تراعي... لكن هذا ضروري... ولو كنت في مثل حالك لتزوجت حانوتاً من سنين... والمحافظة على المظهر! هل أردت غير الذي أحببت ؟ كنت عنيداً متحدياً ، تعتقد أن هذا التحدي شيء مثالي ، ومع ذلك لم يكن ذهنك على شيء كثير من القدرة على التحليق ، أو شيء كثير من قوة التصور . لم يكن لك الكثير من تلك المثالية التي تؤهل المرء لأن يحرص ويُعنى ويدافع ويكرم ويجلب القوة والبهاء بأحلى وأسعد وأرضى من الحب الخفي . أية قطعة أرض مجردة! أي اسم قديم! أية لوحة لمتجر ، إن حاسة الشعركانت تنقصك ، وإن كنت قد أوتيت الشجاعة لأن تحب وتتزوج ممن تحب على الرغم من أمر والدك ونهيه . لم تكن أيضاً طموحاً ياعماه جوتهولد . حقاً أن الاسم القديم اسم من أسماء المواطنين الحضريين ، ولكن المرء يمكن أن يتعهده بأن يساعد على إدخال شحنة من الحبوب في رحبته ، وأن يجعل شخصه في قطعة صغيرة من العالم مكرماً محبوباً قوياً . كنت تفكر : أتزوج شتيونج التي أحبها ولا أحفل باعتبارات أخرى عملية لأنها صغائر وجهالات .

إننا كذلك في النضج والتعلم بحيث نستطيع أن نتبيّن أن الحدود المرسومة لطموحنا ضيقة يرثى لها متى نظر اليها من الخارج ومن فوق . لكن كل شيء على هذه الأرض استعارة فحسب ياعمي جوتهولد . أفلم تكن تعلم أن المرء يمكن أن يكون رجلاً عظيماً في المدينة الصغيرة أيضاً ؟ وأن المرء يمكن أن يكون قيصراً في مكان تجاري متوسط على بحر البلطيق ؟ بلا شك . وهذا يتطلب قليلاً من الخيال وقليلاً من المثالية... لكنك لم تكن تملك ما لعلك ظننته في نفسك .

وتحول توماس بودنبروك وسار الى النافذة ونظر ، وعلى وجهه الذكي ابتسامة ، الى واجهة البلدية ، وكانت من الطراز الغوطي يضيئها نور واهن ويغسلها المطر .

* * *

وانتقلت طبعاً الى توماس وظيفة القنصلية الهولندية الملكية ولقبها . وكان خليقاً بعد وفاة والده أن يطالب بهما . وقد استشعرت توني جرينليش في هذا فخراً لايحد ، وباتت اللوحة المقبوة ذات الأسدين والرنك والتاج من الآن ترى على واجهة الجملون في شارع منج تحت عبارة Dominus Provedebit .

وبعد الإنتهاء من هذه المسألة وفي يونيه من نفس العام خرج القنصل الشاب في رحلة الى أمستردام لبعض الأعمال من دون أن يعلم كم تستغرق من الوقت .

الفصل الخامس

من عادة الوفيات أن تجلب نفسية تتجه الى السماء . فلم يثر عجب أحد أن يسمع من فم القنصلة بودنبروك بعد رحيل زوجها الى عالم البقاء هذه العبارة الدينية السامية أو تلك مما لم يعهده المرء فيها من قبل .

ومع ذلك سرعان ماتبيّن أن هذا لم يكن شيئاً عابراً . فسرى في المدينة بسرعة أن القنصلة راغبة في أن تكرّم ذكرى خالد الذكر في المقام الأول ، بأن تعتنق نظرته الورعة الى العالم وهي التي كانت تشاطره ميوله الفكرية في السنوات الأخيرة من حياته ومنذ أن تقدمت بها السن .

وهكذا جهدت في أن تفعم البيت المترامي بروح الراحل . بجده المسيحي الرؤوف الذي كان يستبعد مرح القلب المتحلي بالوقار . فاستؤنفت الصلوات التي كانت تقام في الصباح والمساء على نطاق أوسع ، وجعلت الأسرة تجتمع في قاعة الأكل ، بينما يقف الخدم في بهو الأعمدة ، فتقرأ القنصلة أو كلارا في انجيل الأسرة الكبير ذي الأحرف الهائلة ، فقرة يتلوها من كتاب المزامير بضعة أبيات تنشد على الهارمنيوم الذي تعزف عليه القنصلة . كذلك كان يحل محل الانجيل كتاب من كتب الوعظ والإرشاد أسود الجلدة محلى بالذهب .

ولم يكن كريستيان يحضر هذه الصلوات كثيراً . وقدم توماس اعتراضاً على هذه التدريبات في إحدى المناسبات محاذراً في ذلك كل المحاذرة ، مباسطاً بعض الشيء فرد اعتراضه في لين ووقار . أمّا مايتعلق بمدام جرينليش فلم يكن سلوكها في هذا الأمر سليماً على الدوام للأسف أو خلواً تماماً من الملام . وفي ذات صباح وكان هناك بالذات واعظ أجنبي ينزل ضيفاً على آل بودنبروك ـ اضطروا الى أن يغنّوا من أغنية تبعث الهيبة ، وتنطق بالإيمان الراسخ ، وتصدر عن القلب ، هذه المقاطع :

إني جيفة غراب حقه
أعرج حقيقي من فرط خطاياه
يلتهم في نفسه هذه الخطايا
كما يأكل الصدأ صلب الحديد
إلهي قدني من أذني كالكلب
وتفضّل من منك عليّ بعظمة
وخذني أنا الصعلوك الخاطىء
الى رحاب غفرانك رهن السماء

فألقت مدام جرينليش الكتاب من فرط أساها وغادرت القاعة ، وكانت القنصلة تتطلب من نفسها أكثر مما تتطلبه من أولادها كثيراً ، فأنشأت على سبيل المثال مدرسة تعمل في يوم الأحد ، فكان يدق الجرس في شارع منج في صباح هذا اليوم فتيات صغيرات من بنات المدارس الابتدائية ، فتدخل شتينا بوس المقيمة عند السور وميكا شتوت الساكنة في شارع صناع النواقيس ، وفيكا سنوت القاطنة على نهر ترافيه أو في «حفرة جروبل» الصغيرة أو في انجلز فيشر ، بشعورهن الشقراء الممشطة بالماء من الرحبة الكبيرة الى حجرة الحديقة النيرة القائمة هناك والتي لم تعد تستعمل من أمد بعيد مكتباً ، قد صفت فيها المقاعد .

وكانت القنصلة بودونبروك المولودة باسم كروجر تجلس فيها قبالتهن في ثوب من الأطلس الأسود الثقيل ، ووجه أبيض وقور ، وقبعة أكثر بياضاً ، الى مائدة صغيرة وضع عليها قدح من ماء مسكر ، تعظهن ساعة كاملة .

كذلك أسست «مساء أورشليم» . وكان فيما خلا كلارا وكلوتيده على توني أيضاً أن تشترك فيه بالحق أو بالباطل . وكان ينعقد أسبوعياً حول المائدة المفتوحة عن آخرها في قاعة الأكل في ضوء المصابيح والشموع ـ اجتمع ذات مرة عشرون سيدة بلغن السن التي يحين عندها وقت البحث في السماء عن مكان مريح ، يشربن شاياً أو غيره ويأكلن شرائح الخبز المزودة بالزبد مع البودنج وينشدن الأغاني ويقرأن الفصول الدينية وينجزن أعمالاً يدوية تباع آخر العام في إحدى الأسواق ويرسل دخلها الى بيت المقدس لينفق في أغراض التبشير .

كانت هذه الجمعية الورعة مؤلفة في الغالب من سيدات من البيئة الاجتماعية التي تنتمي اليها القنصلة ، وتنتمي الى هذه الجمعية السناتورة لانجهالز والقنصلة مولندروف والقنصلة

المسنة كيستنماكر ، بينما كانت سيدات أخريات من ذوات الاستعداد الدنيوي والمدني مثل مدام كوين يسخرن من الصديقة بتسي . كذلك كانت زوجات الوعاظ في المدينة والقنصلة الأرملة بودنبروك المولودة باسم شتيونج وزيزيمي فيشبروت وأختها غير المتعلمة أعضاء فيها ، والكل أمام المسيح سواء لاتميّزهم درجة ، ولايفرّق بينهم فرق ، وبذا كان يشترك أيضاً في «مساء أورشليم» أشخاص أرق حالاً وأغرب شأناً كمخلوقة قصيرة كثيرة التجاعيد غنية بتقوى الله ونماذج الكروشيه على سبيل المثال . وكانت تقيم بمستشفى روح القديس وتسمى هيملز برجر ، وهي آخر سلالتها ، فكانت تذكر ذلك في أسى وتمد يدها بإبرة الكروشيه الى ماتحت طاقيتها لتهرش .

وأجدر كثيراً من هؤلاء الأعضاء بالملاحظة عضوان آخران توأمان ، عانسان غريبتا الأطوار ، تضعان قبعة كان الرعاة يلبسونها في القرن الثامن عشر ، وترتديان ثوبين بهت لونهما من أكثر من سنة . كانتا تجوبان المدينة ويد أحداهما في يد الأخرى تفعلان الخير . وكان اسماهما جيرهارت وتؤكدان أنهما من سلالة بول جيرهارت . وقد قال الناس أنهما ليستا رقيقتي الحال كل الرقة ، لكنهما تعيشان عيشة الضنك ، وتهبان الفقراء كل شيء... وأبدت القنصلة بودنبروك التي كانت تخجل منهما بعض الشيء أحياناً : «ياعزيزتي! إن الله هو المطّلع على القلوب ، لكن ثيابكما رثة شيئاً ما... فيجب على المرء أن يعنى بنفسه...» على أنهما بعدئذ قبلتا صديقتهما الأنيقة التي لاتستطيع إنكارهما فوق جبينها بذلك التفوق المنطوي على التسامح والحب والعطف مما يحسه الوضيع نحو الرفيع الهانىء . ولم تكونا بحال مخلوقتين غبيّتين ، فقد كان في كل من رأسيهما الصغيرين الدميمين المنكمشين كرأس الببغاء عينان برّاقتان عسليّتان عليهما غشاوة رقيقة ، وفيهما تعبير غريب عن الشفقة والمعرفة تنفذان بهما الى العالم...

وكان قلباهما حافلين بعلم عجيب مستتر فكانتا تعلمان أنه في ساعتنا الأخيرة يمثل أمامنا كل من اختاره الله الى جواره من أحبائنا ، في غناء وهناء ، ليتوفونا . وكانتا تنطقان كلمة «الرب» في يسر المسيحيين ، الأولين وأصالتهم ، أولئك الذين سمعوا من نفس فم المعلم قوله : «الشيء الصغير يريكم إياي» ولهما أغرب النظريات عن الأنوار والحدسيات وعن نقل الأفكار وانتقالاتها ، فقد كانت «لي» هي إحداهما ، صمّاء ، ومع ذلك كانت تعلم على الدوام تقريباً ماكان يقال .

وإذ كانت لي جيرهارت صماء كانت هي في العادة من تحاضر في أماسي أورشليم . كذلك كانت السيدات يجدنها تقرأ قراءة جميلة مؤثرة . كات تخرج من كيسها كتاباً عتيقاً

من المضحك وعدم التناسق فيه أن ارتفاعه كان كبيراً بالنسبة لعرضه وفي واجهته صورة جدها الأكبر مأخوذة عن أصل محفور في النحاس ، منتفخ الخدين بشكل لم تعهده البشرية . كانت تخرج هذا الكتاب وتضعه بين يديها وتقرأ ، لكي تسمع نفسها قليلاً ، بصوت مخيف يصفر كصفير الريح في مدخنة الموقد :

«أيريد الشيطان أن يزدردني...»

وفكرت توني : ترى أي شيطان يشتهي أن يزدرد هذه! لكنها لم تقل شيئاً بل انهمكت من جانبها في تناول البودنج وجعلت تفكر هل تبيت يوماً في دمامة الآنستين جيرهارت ؟ .

إنها لم تكن سعيدة وكانت تشعر بالسأم ، ويسخطها القس والمبشرون الذين لعلهم قد ازدادت زياراتهم للبيت بعد وفاة القنصل ، وكانت لهم السيطرة وكان المال ، والنقطة الأخيرة مما يهم توماس ، لكنه كان يسكت عنها . بينما كانت أخته تتمتم هنا وهناك شيئاً عن أناس ينهبون بيوت الأرامل ويتذرعون بإطالة الصلاة .

كانت تكره هؤلاء السادة الذين يرتدون الأسود كراهية شديدة بوصفها سيدة ناضجة تمرست بالحياة ولم تعد بالغبية البلهاء ، لم تكن تستطيع أن تؤمن بقداستهم المحتومة . كانت تقول لأمها : «أماه! أن يترفع المرء عن اغتياب جاره... أمر حسن ، أعرفه! لكني لابدّ من أن أقول شيئاً واحداً أعجب إذا كانت الحياة لم تعلمك إياه وهو أنه ليس كل من يرتدي القفطان الطويل ويقول : «الرب ، الرب! »دائماً طاهراً! » .

وقد بقي بلا إيضاح ماكان يسلكه توماس حيال هذه الحقائق التي كانت أخته تقول بأنها في شدة متناهية . بيد أن كريستيان لم يكن له فيها رأي ، بل كان يجتزىء بأن يراعي السادة بأنف كشيش ، كي يقدم بعد ذلك صورة منهم في المنتدى أو في البيت .

على أنه من الحقيقي أن توني كانت أكثر من يعاني من هؤلاء الضيوف الروحانيين . فقد حدث ذات يوم حقاً وصدقاً أن مبشراً اسمه يوناتان كان في سوريا وكان كذلك في بلاد العرب ، رجلا ذا عينين واسعتين لائمتين ، وخدّين مترهلين كدرين ، تقدّم منها وطالبها بصرامة محزنة أن تقرر هل خصلها المكوية المتدلية على جبينها مما يتّفق والتواضع المسيحي الصميم... آه ، إنه لم يحسب حساباً في الحق لفصاحة توني جرينليش الساخرة اللاذعة . فقد لزمت الصمت لحظات ، ولوحظ كيف يعتمل ذهنها ، لكنها لم تلبث أن قالت : «أيأذن لي حضرة القسيس أن أرجوه العناية بخصلته هو ؟!» وانصرفت يحف ثوبها رافعة كتفيها قليلاً ، طارحة رأسها الى الوراء محاولة بالرغم من ذلك أن تضغط ذقنها على

صدرها ـ ولم يكن برأس القسيس يوناتان شعر يذكر ، بل إن رأسه كان عاطلاً منه .

ومرة أخرى كتب لها نصر أكبر من هذا ، فإن القس تريشكه ـ «تريشكه الدموع» من برلين ـ وقد حمل هذه الكنية لأنه كان في كل يوم أحد يأخذ في البكاء مرة أثناء الوعظ عند موضع موات لذلك..فتريشكه الدموع هذا الذي كان يتميز بوجه شاحب وعينين حمراوين وفكين يشبهان فكي الحصان تماماً ، والذي ظلّ ثمانية أو عشرة أيام في بيت بودنبروك يأكل مع كلوتيده على سبيل التغيير يتسابق معها في الأكل ويقيم الصلاة ، تريشكه هذا أحب توني بهذه المناسبة . لم يحب فيها روحها الخالدة ، كلا ، بل شفتها العليا ، وشعرها الغزير ، وعينيها الجميلتين ، وشخصها النامي! وهذا الرجل من رجال الله ، وله في برلين زوجة وأولاد كثيرون ، لم يخجل أن يضع لمدام جرينليش في مخدع نومها في الطبقة الثانية على يد الخادم أنطون ، رسالة تجمع بين مقتطفات من الانجيل وحنان بالغ غريب ممزوجاً كله مزجاً فعالاً . فوجدتها وهي تتوجه الى النوم وقرأتها ونزلت الدرج بخطى ثابتة الى الطبقة الوسطى والى مخدع نوم القنصلة حيث تلت على أمها في ضوء الشموع رسالة طبيب الروح من دون حرج وبصوت مرتفع . فأصبح ظهور تريشكه الدموع في شارع منج من ذلك الحين ضرباً من المحال .

وقالت مدام جرينليش : «هكذا هم جميعاً! ها ، هم جميعاً هكذا! يا إلهي لقد كنت فيما مضى بلهاء ، مخلوقة غبية ياأماه . لكن الحياة سلبتني ثقتي بالناس فمعظمهم لصوص... أجل ، هذه هي الحقيقة للأسف . جرينليش ـ!» . ورنّ الاسم كصوت البرق ، كنفخة صغيرة في مزمار أرسلتها في الهواء وهي رافعة كتفيها ، رافعة بصرها .

الفصل السادس

كان سيبرت تيبورتيوس رجلاً قصيراً ، ضئيل الجسم ذا رأس كبير ولحية عارضية خفيفة لكنها شقراء طويلة مقسومة ، يضع طرفيها أحياناً على الجانبين فوق كتفيه توخياً للراحة . وكان يغطي رأسه المستدير عدد لايحصى من الخصيلات الحلقية الصوفية البالغة القصر . وكانت أذناه كبيرتين متباعدتين الى أقصى حد ملتويتين عند حوافهما الى الداخل مرهفتين من فوق كأذني الثعلب . وكان أنفه مركباً في وجهه كالزر المفرطح الصغير ، وعظمتا خديه بارزتين ، وعيناه الرماديّتان اللتان كانتا ترمشان من حوله في شيء قليل من الغباء مزرورتين في ضيق لكنه في استطاعتهما أن تتسعا في لحظات بعينها بصورة لاتكون في الحساب ، وأن تزداد على الدوام اتّساعاً ، فتجحظا وتكادا تخرجان...

كان هذا هو راعي الكنيسة تيبورتيوس من أهالي ريجا . تولى العمل بضعة أعوام في ألمانيا الوسطى ثمّ هو الآن يمر بالمدينة في طريقه الى وطنه حيث كان من نصيبه وظيفة واعظ . وقد جاء لزيارة القنصلة مزوداً بكتاب توصية من أخ له في الوظيفة تناول مرة بالمثل في شارع منج حساء السلحفاة ولحم الخنزير المزود بصلصة شارلوت . وقد زار القنصلة ، وضيف أثناء إقامته التي قدر لها أن تستغرق بضعة أيام قليلة ، فنزل بحجرة الضيوف الفسيحة الكائنة بالطبقة الأولى على الدهليز .

على أنه أقام أطول مما كان يتوقع فمرّت ثمانية أيام ولم يتشاهد بعد هذا المعلم أو ذاك ؛ رقصة الموت أو ساعة الرسول القائمة في كنيسة مريم أو دار البلدية أو جمعية الملاحين أو الشمس ذات الأعين المتحركة في الكاتدرائية . وانقضت عشرة أيام وهو لاينقطع له حديث عن الرحيل ، فإذا سمع أول كلمة لاستبقائه أجل سفره من جديد .

كان خيراً من السيدين يوناتان و« تريشكه الدموع » فلم يهتم بخصل جبين مدام

أنتونيا المكوية ، ولم يكتب لها أية رسائل ، لكنه من ثمّ كان أكثر التفاتاً الى كلارا أختها الصغيرة التي تتحلى بأكثر من جد أختها فشغل بها . كان يحدث في حضرتها إذا ماتكلّمت أو غدت وراحت ، أن تتسع عيناه بصورة لاتخطر ببال ، ثمّ تستمرا في الاتساع ، ثمّ تجحظا وتكادا تخرجان... ثم يقضي النهار بأكمله معها فيحدثها في شؤون الدين والدنيا ، أو يقرأ لها بصوته العالي المتلاحق ، ونطق وطنه البلطي الذي تحجل فيه الألفاظ حجلاً مضحكاً .

وفي اليوم التالي بالذات قال : «ارحمي نفسك ياحضرة القنصلة! أي كنز وأية بركة من الله لك في ابنتك كلارا! إنها طفلة عظيمة!» .

فأجابت القنصلة : «إنك محق» لكنه لم ين عن تكرار ذلك الى حد أن أمرت القنصلة به عينيها الزرقاوين الصافيتين تفحصه في رزانة ، وحملته على أن يتحدث بإسهاب أكثر قليلاً من هذا عن أصله وأحواله وآماله . فظهر أنه من أسرة تجار ، وأن أمه ذهبت الى رحمة الله ، وأن ليس له أخوة ولا أخوات ، وأن أباه التسيخ يعيش في ريجا على دخله الخاص من ثروة لابأس بها ستؤول يوماً اليه هو ، الى القس تيبورتيوس ، هذا الى أن وظيفته تضمن له دخلاً كافياً .

أما مايتعلق بكلارا بودنبروك فقد كانت وقتئذ في التاسعة عشرة من عمرها ، قد نمت ، بشعرها الأسود المفروق المصقول ، وعينيها العسليّتين القاسيتين الحالمتين مع ذلك ، وأنفها المقوّس تقويساً خفيفاً وفمها المطبق بأشد مما ينبغي قليلاً ، وقامتها الفارعة الهيفاء ـ الى غادة ذات حسن فريد قاس . وهي في البيت أشد ماتكون تعلقاً بابنة عمها كلوتيده المسكينة ، الشبيهة بها في تقواها ، والتي مات أبوها أخيراً وكان يجول بخاطرها أن تستقر أي تقصد الى أي مكان في مثوى تعيش فيه ببضعة الدراهم وقطع الأثاث التي ورثتها... ولم تكن كلارا تعلم شيئاً بطبيعة الحال عن تواضع تيلده المطاط الصابر الجائع . فهي على النقيض من ذلك قد باتت لها في التعامل مع الخدم بل مع أخواتها وأمها كذلك نغمة تنم عن شيء من السيطرة ، وأصبح لصوت العجائز ـ صوتها ـ الذي كانت تفهم كيف تخفضه بالتأكيد ، ولاتعرف قط أن ترفعه سائلة ، رنة الآمرة الناهية ، فكان كثيراً مايكون له وقع مقضب قاس برم له هبوب . وذلك في الأيام التي تشعر فيها كلارا بالصداع .

كانت قبل أن يلبس موت القنصل الأسرة ثياب الحداد تحضر المجتمعات في بيت الوالدين وفي البيوت المساوية لها في المرتبة ، في وقار وتحفّظ ، فكانت القنصلة تتأملها ولاتستطيع أن تخفي أنه على الرغم من البائنة الطائلة ومهارة كلارا في التدبير المنزلي لا يمكن تزويج هذه الطفلة . وما كان يمكن لواحدٍ من تجار البيئة المتشككين الطروبين

الذين يحتسون النبيذ الأحمر ، ولكن يمكن لرجلٍ من رجال الدين أن يتصور نفسه إلى جانب هذه الفتاة الجادة التي تخشى الله . وإذا كانت هذه الفكرة تسر القنصلة فقد لقيت عندها تمهيدات القس تيبورتيوس الرقيقة استعداداً يتّسم بالإعتدال والوداد .

وحقاً لقد تطوّرت المسألة في دقة كبيرة ، إذ قامت الأسرة عصر يوم دافىء صحو من أيام يوليه بنزهة وخرجت القنصلة وأنتونيا وكريستيان وكلارا وتيلده وايريكا جرينليش مع الآنسة يونجمان وبينهم القس تيبورتيوس بعيداً «الى باب القصر» ليتناولوا في محل ريفي في الهواء الطلق التوت واللبن أو الحب المقشور الأحمر على موائد خشبية . وبعد هذه الوجبة الخفيفة توجهوا للنزهة في الحديقة الكبيرة ذات المطعم ، الممتدة الى النهر بين أشجار الفاكهة وشجيرات الخرّوب وعنب الذئب وحقول الهليون والبطاطس .

وتخلف سيفرت تيبورتيوس وكلارا بودنبروك قليلاً . فخلع ، وهو أقصر قامة منها كثيراً ، ولحيته العارضية المقوسة على كلتا كتفيه ، قبعته القشية السوداء المنحولة عن رأسه الكبير ، وتجاذب معها ، وهو يجفف عرق جبينه هنا وههنا بالمنديل ، ويوسع عينيه ، أطراف حديث مستفيض رقيق ، وقف كلاهما في خلاله مرة ، وأمنت فيه كلارا «بنعم» واحدة جادة هادئة .

وبعد العودة ، إذ القنصلة متعبة حرانة بعض الشيء ، جالسة في حجرة المناظر الطبيعية ، جلس اليها القس تيبورتيوس في الأصيل الصيفي البهي ، وكان عصر يوم الأحد ينشر في الخارج هدوءه الساجي وأخذ معها في حديث طويل رقيق قالت القنصلة في ختامه : « كفى ياعزيزي القسيس... إن طلبك يطابق رغباتي كأم . وأنت من ناحيتك لم تسىء الاختيار وأؤكّد لك ذلك . فمن كان يظن أن دخولك عندنا وإقامتك في بيتنا يمكن أن يبارك هذه اا مباركة العظيمة!... ولست أريد القول أن أعطي الكلمة الأخيرة ، فإنه من الواجب أن أكتب الى ابني القنصل الموجود كما تعلم في الخارج في الآونة الراهنة . فسافر غداً الى ريجا فى صحة وعافية لتتولى عملك . ونحن نفكر في التوجه الى البحر لقضاء بضعة أسابيع... وستلقى مني قريباً خبراً . ولتكن مشيئة الله أن نلتقي في سعادة» .

الفصل السابع

أمستردام في العشرين من يوليه ١٨٥٦
فندق «هت هاسيه»

أمي العزيزة!

تلقيت من هنيهة خطابك الحافل ، وإني أبادر الى شكرك أخلص الشكر على ماتضمنه من التفات إذ تسألينني الموافقة على المسألة المعروفة . ومن البديهي ألا أوافق فحسب بل أن أقدم مع الموافقة أحب التهاني ، مقتنعاً كل الاقتناع بأنكما أنت وكلارا قد وفقتما في الاختيار . فاسم تيبورتيوس الجميل معروف لي ، وأعتقد اعتقاداً جازماً أن أبي كان على اتصال في العمل بأبيه ، وعلى كل فإن كلارا تنتقل بهذا الى أحوال مرضية ، وأن مركزها كزوجة لقسيس مما يلائم مزاجها .

إذن فقد سافر تيبورتيوس الى ريجا ، وسيزور عروسه في أغسطس مرة أخرى ؟ وسوف تجري الأمور أمرح مما هي في شارع منج وأمرح أيضاً مما تتوقعون جميعاً ، لأنكم لاتعلمون لماذا ولأية أسباب خاصة قد دهشت في غبطة تامة من خطبة الآنسة كلارا ، وبأي اجتماع حبيب يتعلق الأمر! أجل يا سيدتي الوالدة المفضلة ، إنني إذ ارتحت اليوم إلى أن أبعث اليك بموافقتي الجدية من الأمستل الى بحر البلطيق على هناء كلارا الأراضي فإنما أفعل ذلك مشترطاً بكل بساطة أن أتلقى من قلمك بعودة البريد موافقة كهذه على مسألة شبيهة! إني لأدفع ثلاث جلدنات طيبة في مقابل أن أرى وجهك وخاصة وجه توني الشجاع وأنتما تقرءان هذه السطور... لكنني أريد أن أدخل الموضوع .

إن فندقي الصغير النظيف الذي يطل في وسط المدينة على القنال في منظر جميل يقع

غير بعيد من البورصة . والأعمال التي جئت من أجلها الى هنا (والأمر يتعلق بإيجاد علاقة جديدة قيمة . وأنت تعلمين أني أفضل أن أدبر هذا بنفسي) قد أخذت تتطور في اليوم الأول على مايرام . وإذ كنت معروفاً جيداً في المدينة منذ أيام التلمذة فقد شغلني المجتمع من فوري بصورة ملحوظة جداً ، وإن كانت أسر كثيرة ترتاد الآن حمامات البحر . وقد اشتركت في سهرة صغيرة عند فان هنكدومز وموليز . . وفي ثالث يوم لوصولي هنا كان لابد لي من أن أرتدي لباس السهرة لأحضر عند رئيسي السابق السيد فان دركيلن مأدبة عشاء أقامها فيما يبدو تكريماً لي بعد انتهاء الفصل . لكنني اقتدت الى المائدة . . . فهل تحزران ؟ الآنسة أرنولدسن ، جيردا أرنولدسن رفيقة توني في المدرسة الداخلية فيما مضى من الزمان وكان أبوها التاجر والعازف الأكبرعلى الكمان وكذلك ابنته المتزوجة وزوجها حاضرين بالمثل .

وأتذكر جيداً أن جيردا ــ ومسموح أن أذكر اسمها الأول دون غيره ــ خلفت ، وهي ماتزال فتاة صغيرة جداً تذهب الى مدرسة الآنسة فشتبروت عند ميلنبرنك أثراً قوياً في نفسي لم يخب قط . لكني والآن قد وجدتها أكبر وأنمى وأجمل وأذكى... وإذ كان من الممكن أن يثبت أنها عنيفة بعض الشيء فأذنا لي في وصف شخصها الذي ستستطيعان عمّا قريب مشاهدته وجهاً لوجه!

إنه يمكن أن يجول في خاطركما أن طائفة من البدوات قد أدت إلى حديث طليٍّ على المائدة . لكننا تركنا بعد تناول الحساء منطقة النوادر القديمة وانتقلنا الى أشياء أكثر جداً وتشويقاً . ففي الموسيقى لم أستطع أن أنافسها ، ذلك أننا نأسف لمعلومات آل بودنبروك الضئيلة فيها ، لكنني كنت بفن الرسم الهولندي أخبر ، وفي الأدب كان كلانا يفهم الآخر .

وفي الحق لقد مرّ الوقت سريعاً ، وقد قدمت بعد المائدة الى أرنولدسن الشيخ الذي تلقاني بأعظم ترحاب ، وفيما بعد عزفت في الصالون عدة قطع من قطع الكونسير وكذلك عزفت جيردا . وقد كان مرآها رائعاً . ومع أني لا فكرة عندي عن العزف على الكمان ، فإني أحس أنها أتقنت العزف على آلتها (وهي من نوع ستراديفاري الأصيل) حتى لقد اخضلت الأعين بالدمع .

وفي اليوم التالي زرت بيت أرنولدسن في بوتينكانت فاستقبلتني أولاً سيدة عجوز اضطررت الى أن أتكلم معا بالفرنسية ، ثمّ جاءت جيردا وجعلنا نتحدث ساعة كاليوم

السابق : إلا أننا كنا هذه المرة أكثر تقارباً وأكثر سعياً الى أن يفهم أحدنا الآخر ويعرفه ، فدار الكلام عنك يا أماه ، وعن توني ، وعن مدينتنا الطيبة القديمة وعن أعمالي فيها .

وفي هذا اليوم اتخذت قراري : أما هذه وأما لاأحد ، والآن أو أبداً! وقد اجتمعت بها بمناسبة حفلة في حديقة صديقي فان سڤندرن ودعيت الى حفلة موسيقية مسائية صغيرة عند آل أرنولدسن أنفسهم جربت خلالها أن أستفهم من السيدة الصغيرة نصف استفهام أجس به نبضها فكان جوابها مشجعاً... ومن خمسة أيام مضت توجهت الى السيد أرنولدسن قبل الظهر لأستئذنه في أن أطلب يد ابنته ، فاستقبلني في مكتبه الخاص وقال لي : «ياعزيزي القنصل ، إنك تلقى عندي أعظم ترحاب ، وإن كان يشق علي كثيراً أنا الأرمل الشيخ أن أنفصل عن ابنتي! لكن هي ؟ لقد قررت ألا تتزوج ، واستمسكت من أمد طويل بقرارها . فهل يكون لك حظ ؟» وقد دهش إيما دهشة لما أجبته بأن الآنسة جيردا شجعتني في الواقع على الأمل .

وقد ترك لها بعض الوقت للتفكير وأظنه حاول من فرط أنانيته صرفها ، لكن محاولته ذهبت سدى ، فقد بت المختار . ومنذ عصر أمس والخطبة تامة .

كلا ياأماه ، إنني لأرجو الآن أن تباركي هذه الصلة كتابة ، ذلك أني أسافر بعد غد ، لكني أحمل معي وعد آل أرنولدسن بأن يزورنا ، الأب وجيردا وأختها المتزوجة في شهر أغسطس ، وعندئذ لن تستطيعي إلا أن تسلمي بأن هذه هي اللائقة بي . ولن يكون سبباً لاعتراضك أن جيردا أصغر مني بثلاث سنوات فقط! ولاأخالك فيما أرجو تفرضين أن أدخل البيت طفلة غريرة من محيط مولندروف ـ لانجهالز ـ كيسيتنماكر ـ هاجنشتروم .

أما مايتعلق بالزيجة!...آه إنني لأخشى تقريباً أن يرعاني شتيفان كيستنماكر وهرمان هاجنشتروم وبيتر دولمان والخال يوستوس والمدينة بأسرها بأعين ماكرة إذا ماعلموا بهذه الزيجة ، ذلك أن حما المستقبل مليونير...ياالهي ، ما الذي سوف يقال عن هذا . وإني لأحترم جيردا أرنولدسن بحماسة لكنني لاأفكر مطلقاً في أن أغوص في نفسي الى الأعماق لأسبر هل والى أي مدى كان للبائنة الطائلة التي همسوا بها في أذني بصورة تكاد تكون ماكرة دخل في حماستي . إني لأحبها ، لكنه مما يجعل هنائي وفخري أعظم أني في الوقت الذي تصبح فيه ملكاً لي أحصل لمتجرنا على فيض هام من رأس المال .

إني أختم يا أمي العزيزة هذا الخطاب الذي أسهبت فيه كثيراً بالنظر الى أننا سنتناول في بضعة أيام هنائي بالكلام . وإني لأتمنى لك إقامة طيبة مقرونة بالاستجمام في الحمام . وأرجو تبليغ أخلص التحيات القلبية الى جميع الآل .

محبك وابنك المطيع

ت.

الفصل الثامن

لقد كان منتصف صيف هذا العام في بيت بودنبروك مصحوباً في الواقع بالنشاط والاحتفالات .

فقد قام توماس في آخر يوليه الى شارع منج ثانية وزار أسرته مرات على البحر ، كما أدى الزيارة لبقية السادة الذين استبقتهم أعمالهم في المدينة . وقد قضى كريستيان على ساحل البحر عطلته كلها ، لأنه كان يشكو ألماً ما في ساقه اليسرى لم يعرف الدكتور جرابو مطلقاً مايعالجه به ، وهو ماجعل تفكير كريستيان فيه من ثم أطول .

وفسر كريستيان متعباً وهو يمر يده على ساقه طرداً وعكساً ، ويغضن أنفه الكبير ، ويجيل عينيه : « إنه ليس بألم... فلست أستطيع أن أسميه ألماً . إنه عذاب ، عذاب مستمر ، خافت ، مزعج في الساق كلها... وفي الجهة اليسرى ، في الجهة التي يقع فيها القلب... غريب... إني أجده غريباً! فما رأيك ياتوم... »

ثم انحدر كريستيان الى البحر ليقص على جماعة من المستحمين الحكايات حتى ضج السيف بالضحك ، أو الى صالة الاستشفاء ليلعب الروليت مع بيتر دولمان والخال يوستوس والدكتور جيزيكه وغيرهم من تجار هامبورغ .

وزار القنصل بودنبروك مع توني الشيخين شفارتسكوبف أول من زارا كعادتهما كلما كانا في ترافيمنده . وقال قومندان المرشدين وهو يتحدث بالعامية مغتبطاً : « طاب يومك أيضاً يامدام جرينليش أما تزالين تذكرين ؟ لقد مضى أمد طويل على قضائنا معاً ذلك الوقت الطيب . وابننا مورتن ، لقد بات دكتوراً في برسلاو من أمد وهو يزاول مهنته بنجاح... » وجرت مدام شفارتسكوبف وأعدت القهوة ، وتناولوا تعصيرة في الشرفة الخضراء كسابق العهد... لولا أن الجميع قد باتوا أسن عشر سنوات كاملة مما كانوا ، وأن مورتن ومينا

الصغيرة قد تزوجت من رئيس ناحية هوفكروج كانا غائبين ، وأن القومندان الذي ابيضّ شعره تماماً وأصبح أصم تقريباً ، قد تقاعد ، وأن زوجه كذلك تجمع في شبكتها شعراً أشيب جداً ، وأن مدام جرينليش لم تعد ساذجة ، بل خبرت الحياة ، وهو مالم يمنعها أن تأكل الكثير من أقراص العسل ، ذلك أنها قالت : « هذا نتاج طبيعي خالص ، فالمرء يعرف معه مايبتلع! » .

وفي أوائل أغسطس عاد آل بودنبروك ومعظم الأسر الأخرى الى المدينة . ثمّ جاءت اللحظة الكبرى التي وصل فيها الى شارع منج في وقت واحد تقريباً كل من القس تيبورتيوس عائداً من الروسيا وآل أرنولدسن قادمين من هولنده ليؤدي كلاهما زيارة طويلة .

وقد كان منظراً بديعاً جداً ساعة أن اقتاد القنصل عروسه للمرة الأولى الى حجرة المناظر الطبيعية والى أمه التي أقبلت عليها باسطة ذراعيها تميل برأسها الى جانب . وكانت جيردا فارعة ، مليئة ، تخطو على السجادة الزاهية في ظرف طليق وكبرياء . كانت هذه الفتاة البالغة من العمر السابعة والعشرين ذات جمال رشيق ، غريب ، فتان ، ملغّز بشعرها الأحمر الداكن الثقيل وعينيها العسليتين المتقاربتين اللتين تحيطهما ظلال رقيقة تميل الى الزرقة ، وأسنانها العريضة اللامعة التي تفتر عنها باسمة وأنفها المستقيم القوي ، وفمها البديع الكريم التكوين . وكان وجهها أبيض في لمعان يبدو عليه التعالي قليلاً ، لكنها طأطأت رأسها مع ذلك لما أن احتوته القنصلة بين يديها في حنان ، وقبلت جبينها الناصع الطهور... وقالت : « إني أرحب بك في بيتنا وبين ظهرانينا يا ابنتي العزيزة الجميلة المباركة... إنك سوف تسعدينه... ألست أرى كم تجعلينه سعيداً ؟ » ثمّ سحبت توماس بذراعها اليمنى اليها لتقبله كذلك .

لم يكن البيت الكبير الذي تلقى الضيوف بالترحاب أشد مرحاً وأكثر أنساً في يوم من الأيام مما كان في هذه الأيام اللهم إلا في عهد الجد على الأكثر . غير أن القس تيبورتيوس اختار لنفسه حجرة في الجناح الخلفي عند قاعة البليار تواضعاً منه . أما الباقون وهم السيد أرنولدسن : رجل في نهاية الخمسينيات حَرِك ، فكه ، ذو لحية مدببة ، متوثب في كل حركة في صورة مقبولة ، وابنته الكبرى وهي سيدة يبدو عليها التوعك ، وصهره وهو رجل دنيا أنيق يقوده كريستيان في المدينة والى المنتدى ، ثم جيردا . وقد وزعوا أنفسهم على الأماكن الفائضة في الطبقة الأولى بمحاذاة الأرض تقريباً من بهو الأعمدة...

وكانت أنتونيا جرينليش مسرورة من أن سيڤرت تيبورتيوس كان رجل الدين الوحيد

الموجود في الوقت الحاضر في بيت والديها... كانت أكثر من مسرورة! وقد ساعد على دوام غبطتها خطبة أخيها المحترم والحقيقة الواقعة في أن صديقتها جيردا كانت بالذات هي المختارة ، والشيء الباهر في هذه الزيجة التي ألقت على اسم الأسرة والبيت التجاري ضوءاً جديداً ، والبائنة البالغة ٣٠٠,٠٠٠ مارك التي سمعت بها همساً ، والفكرة فيما عسى أن تقوله المدينة وتبلغ الأسر الأخرى وخاصة آل هاجنشتروم في هذا... كل هذا قد ساعد على ادخال الغبطة الدائمة على قلبها ، فكانت تقبل زوجة أخيها المستقبلية بحرارة بمعدل ثلاث مرات في الساعة .

وقد صاحت : «أوه ، جيردا! إني أحبك ، أتعلمين ؟ لقد أحببتك دائماً! إني أعرف أنك لاتطيقينني ، وأنت كنت تكرهينني دائماً ، لكن...»

فقالت الآنسة أرنولدسن : «أرجوك ياتوني ، كيف كان يمكن أن أكرهك ؟ فهل تسمحين لي أن أسألك أي سوء ألحقت بك ؟» .

ومع ذلك فإن توني لأسباب ما ، وفي الغالب لمجرد حبها وشغفها الشديد بالكلام ، كانت تصر بإلحاح على أن جيردا كانت تكرهها دائماً ، لكنها من جانبها هي - وهنا اغرورقت عيناها بالدموع - كانت تقابل هذا الكره بالمحبة . وأخذت توماس على الأثر جانباً وقالت له : «لقد أحسنت صنعاً ياتوم . لقد كان صنيعك حسناً! وكون أبي لم يعش حتى يرى هذا الصنيع لما يحمل على البكاء والعويل ، أتعرف ؟ إن هذا ليمحو شيئاً ما... وليس آخر هذه الأشياء أمر تلك الشخصية التي يجب ألا يذكرها المرء على لسانه» . وعندئذ خطر لها أن تسحب جيردا الى حجرة خالية ، وقصت عليها حكاية زواجها من بندكس جرينليش في اسهاب مرعب ، كذلك تحدثت معها ساعات طويلة عن عهد المدرسة الداخلية وعن أحاديثهما المسائية إذ ذاك ، وعن أرمجارد فون شلينج المقيمة في مكلينبورج وإيفا ايفرز المقيمة في ميونيخ... ولم يلق سيفرت تيبورتيوس وخطبته لكلارا شيئاً من اهتمامها تقريباً . لكن كليهما لم يسع الى هذا الاهتمام . فقد كانا يجلسان هادئين يداً في يد ، ويتحدثان حديثاً رقيقاً جدياً عن مستقبلهما الجميل .

ولما كان عام حداد آل بودنبروك لم ينته ، فقد اقتصر الاحتفال بالخطبتين على محيط الأسرة ، لكن جيردا أرنولدسن سرعان ماذاع صيتها في المدينة ، فكان شخصها محور الحديث في البورصة والمنتدى وفي مسرح المدينة والمجتمع فقال الفجار : «ماأبهى!» وسأسأوا بألسنتهم ، ذلك أن هذه السأسأة كانت في هامبورج أحدث مايعبر

به عن الطريف المنتقى سواء أكان علامة نبيذ أحمر أو سيجاراً أو مأدبة عشاء أو قيمة حقيقية . لكنه كان بين المواطنين ، القويمي الأخلاق ، المستقيمين ، الشرفاء ، كثيرون هزوا رؤوسهم وقالوا : «غريب... هذه الأناقة ، وهذا الشعر ، وهذا السلوك ، وهذا الوجه... إن هذا غريب غرابة ليست بالقليلة» . وعبر التاجر سورينسن عن هذا بقوله : «إن فيه شيئاً أكيداً بدرجة ما...» وتحول وهو يقول هذا ، وقطب وجهه كما يفعل كلما عرض عليه في البورصة عرض يدل على سوء الطوية . لكنه القنصل بودنبروك ، على خلاف غيره قليلاً ، أيضاً على خلاف أجداده . كانوا يعرفون ، لاسيما تاجر الأقمشة بنتيين كان يعرف ، إنه لايستقدم فحسب كل ملابسه الأنيقة الحديثة ، وكان يملك منها الكثير بصورة غير عادية : ملابس فوقانية وستر وقبعات وصدريات وسراويل قصيرة وربطات رقبة ـ بل كذلك الملابس الداخلية من هامبورج . بل إنهم كانوا يعرفون أنه كان يغير قميصه كل يوم ، بل مرتين في اليوم ، وكان يعطر منديله وشاربه المفتول على مثال نابليون الثالث . ولم يكن يفعل هذا كله حباً في المتجر والمظهر ـ فإن بيت يوهان بودنبروك لم يكن بحاجة الى ذلك ـ بل عن ميل شخصي الى كل ماتناهى في الابداع ، والارستقراطية... كيف يكون التعبير عن هذا . ياللشيطان! ثم هذه الاستشهادات التي كان يدخلها من هايني وغيره من الشعراء في كلامه أحياناً في أكثر المناسبات صبغة عملية ، في المسائل الخاصة بالعمل والمدينة... . ثم هذه السيدة... كلا ، إنه فيه أيضاً ، في القنصل بودنبروك «شيئاً أكيداً بدرجة ما» ـ شيئاً بدهياً يلاحظ بكل احترام ، ذلك أن الأسرة كانت شديدة الاحترام ، والمتجر كان في أحسن حالة مالية ، والرئيس كان لطيفاً مهيباً ، يحب المدينة وسيخدمها على التحقيق بنجاح فوق ماخدمها... ثم أن هذه زيجة بديعة جداً . فالناس تتحدث عن ١٠٠,٠٠٠ ريال ومع ذلك فبين السيدات من يجدنها «بلهاء» . وهذه مناسبة للتذكير بأن كلمة «بلهاء» تعبير قاس جداً في الحكم على الناس .

لكن الذي احترم عروس توماس بودنبروك بحماسة طاغية منذ أن رآها أول مرة في الطريق ، قد كان السمسار جوش . كان يقول : «ها» في المنتدى أو في جمعية الفلاحين رافعاً قدحه مقطباً وجهه الدساس في تمثيل كريه... «يالها من امرأة أيها السادة! ساحرة وأفروديت وبرونهلده وميلوزين في شخص واحد...» ثم يضيف الى ذلك على غير انتظار : «ها! صحيح أن الحياة جميلة!» فأما من كانوا يجلسون حوله ، ويحتسون أقداحهم من المواطنين ، فوق المقاعد الخشبية المحفورة في بيت الملاحين القديم ، تحت نماذج السفن

الشراعية والأسماك الكبيرة المتدلية من السقف فلم يكن أحد منهم يفهم مناسبة لظهور جيردا أرنولدسن في حياة السمسار جوش المتواضعة التي تصبو الى ماهو غير عادي .

وإذا كان المجتمع الصغير المقيم في شارع منج معفى كما قلنا من إقامة الحفلات الكبرى فقد كان فراغه أكبر لاختلاء بعضه ببعض ، فكان سيفرت تيبورتيوس يقص على كلارا ، ويدها في يده ، من أنباء والديه ويحكي لها عن شبابه وخططه المستقبلية ، وكان آل أرنولدسن يروون عن شجرة نسبهم النامية في درسدن والتي لم يمتد منها الى الأراضي الواطئة سوى هذا النوع ، ثم مدام جرينليش التي طلبت مفتاح المكتب القائم فى حجرة المناظر الطبيعية ، وسحبت في جد تلك الاضبارة التي تحوي أوراق الأسرة والتي دون فيها توماس أيضاً أحدث التواريخ . وقد سجلت هذه الاضبارة تاريخ آل بودنبروك في احتفال ، وروت عن حائك الأردية في رستوك الذي كان في سعة من العيش ، وقرأت قصيدة قديمة مما ألقى في إحدى الاحتفالات جاء فيها :

مـــهـــارة وجـــمـــال مـــهـــذب
اجـــتـــمـــعـــا أمـــام نـــاظـــرنـــا
فـــيـــنـــوس أنـــا ديـــومـــيـــنـــا
ويـــد فـــولـــكـــانـــي الـــنـــشـــيـــطـــة

فكانت من خلال ذلك تطرف بعينها لتوم وجيردا ، ويلامس لسانها شفتها العليا . واحتراماً منها للتاريخ لم يفتها بحال أن تعرج على تاريخ الأسرة من ناحية شخصية كانت تكره أن تذكرها على لسانها...

بيد أنه في الساعة الرابعة من يوم الخميس كان الضيوف المعتادون يفدون : يوستوس كروجر مع زوجته الضعيفة التي كان يعيش معها في شقاق ، لأنها لم تفتأ ترسل الى أمريكا النقود تلو النقود الى يعقوب الفاشل المحروم من الميراث... وقد كانت تدخر ماترسله من مصروف البيت ولاتأكل مع زوجها إلا التافه ، فلم ينفع معها شيء . وجاءت سيدات بودنبروك المقيمات في الشارع العريض اللواتي يقدسنَ الحقيقة فكان أن قررن أن ايريكا جرينليش ماتزال غير نامية ، وأنها قد ازدادت شبهاً بأبيها النصاب ، وأن عروس القنصل تسرح شعرها تسريحة تكاد تلفت الأنظار . كذلك جاءت زيزيمي فيشبروت وشبت على أطراف أصابعها وقبلت جيردا فوق جبينها بصوت خافت وقالت متأثرة : «لتكن السعادة من نصيبك أيتها الطفلة الطيبة!» .

وتكلم السيد أرنولدسن على المائدة فشرب نخب العروسين بكلمة فكاهية خيالية ثمّ عزف أثناء تناول القهوة على الكمان كأحد النور في عنف وحرارة وحذق... وكذلك جيردا أتت بكمانها صنع ستراديڤاري ، وكان لايفارقها ، وتدخلت في تقاسيمه بأغنية جميلة ، وعزف الاثنان ثنائياً رائعاً في حجرة المناظر الطبيعية على مقربة من الهارمونيوم في نفس الموضع الذي عزف فيه القنصل الجد ذات مرة ألحانه الصغيرة على الناي عامرة بالمعاني .

وقالت توني التي كانت متكئة في كرسيها السائد : «عظيم!... ياالله كم أجد هذا عظيماً!» واستطردت جادة ، متندة ، مؤكدة ، رافعة بصرها . تعرب عن مشاعرها الحارة الخالصة وتقول : «كلا ، أتعلمون كيف تجري المقادير في الحياة... ليس مثل هذه الموهبة مما يقسم دائماً لكل انسان! لقد أبت السماء على مثلها ، أتعلمون ، كم من ليلة كنت أبتهل اليها أن تمنحني إياها... إني بلهاء غبية... أجل ياجيردا ، دعيني أقل لك... إنني الكبرى وقد خبرت الحياة... ينبغي أن تركعي كل يوم على ركبتيك شكراً على أنك هذه المخلوقة التي غفر لك الله .!»

فقالت جيردا : «... تقصدين «أنعم عليك» وأبدت أسنانها الجميلة البيضاء العريضة ضاحكة .واقترب الجميع فيما بعد كل من الآخر ليتشاوروا فيما يتطلبه المستقبل القريب ، ويتناولوا هلاماً بالنبيذ ، فتقرر أن يعود سيڤرت تيبورتيوس وآل أرنولدسن في نهاية الشهر أو أوائل سبتمبر ، كل الى بلده ، وأن يحتفل بزواج كلارا بعد عيد الميلاد مباشرة في بهو الأعمدة بين مظاهر الأبهة جميعاً ، بينما يؤجل زفاف أمستردام الى مستهل العام التالي لتحضره القنصلة «حباها الله بالعمر والصحة» ويتاح بذلك فترة استراحة . ولم ينفع شيء في صرف توماس عن المعارضة . فقالت القنصلة وقد وضعت يدها على ذراعه : «أرجوك! إن لسيڤرت الأولوية!»

وتنازل القس وعروسه عن رحلة شهر العسل . أما جيردا وتوماس فقد اتفقا على منهج للرحلة يخترق شمال إيطاليا الى فرنسا فيمكثان فيها شهرين . لكنه من خلال ذلك تتولى انتونيا مع المنجد جاكوس المقيم في شارع السمك توسيع البيت الصغير الجميل الكائن في الشارع العريض والتابع لأعزب انتقل الى هامبورج ، وقد شرع القنصل في شرائه . أوه ، إن توني سوف تنجز ذلك بما يرضي الجميع! فقد قالت : «سوف تجدانه وجيهاً!» وهذا مايعتقده الجميع .

كان كريستيان يجوب أطراف هذه الحجرة التي كان فيها زوجان من العرائس

يمسك في كل منهما الواحد بيد الآخر ، بساقيه النحيلتين المقوستين وأنفه الكبير . وهي حجرة لم يدر فيها كلام إلا عن الزفاف والجهاز ، ورحلات شهر العسل ، فأحس عذاباً ، عذاباً ما في ساقه اليسرى ، ورأي كل شيء بعينيه الصغيرتين المستديرتين الغائرتين جاداً ، قلقاً ، مفكراً . وفي الختام قال بلسان مارسيلوس شتنجل لإبنة عمه المسكينة التي كانت تجلس بين السعداء وعليها سيماء المسنين ، ساكنة ، عجفاء ، ماتزال تحس بعد المائدة جوعاً : «ايه ياتيلده! عمّا قريب نتزوج نحن أيضاً! أعني : كل لنفسه! »

الفصل التاسع

وعاد القنصل بودنبروك مع زوجته من ايطاليا بعد ذلك بسبعة أشهر تقريباً ، وكان ثلج مارس يغطي الشارع العريض لما وقفت المركبة في الساعة الخامسة بعد الظهر أمام واجهة بيتهما البسيطة المدهونة بالزيت ، فرابط بضعة من الأطفال والمواطنين الكبار ليشاهدوا القادمين يترجلان . وكانت مدام أنتونيا جرينليش واقفة بباب البيت فخورة بالاستعدادات التي اتخذتها ، ومن خلفها الخادمتان اللتان اختارتهما عن خبرة لزوجة أخيها ، مستعدتان بالمثل للاستقبال عاريتي الذراعين ، تضعان على رأسيهما طاقيتين بيضاوين وترتديان جونلتين سميكتين مخططتين .

فبادرت مدام أنتونيا في حمية العمل وحرارة الغبطة الى هبوط الدرجات المفرطحة ، واقتادت جيردا وتوماس اللذين غادرا المركبة المحملة بالحقائب مرتدين الفراء الى ردهة البيت تغمرهما بالقبلات… «ها أنتما ذان! ها أنتما ذان ، أيها السعيدان جبتما كل مكان! أرأيتما البيت ؛ إن سطحه يقوم على أعمدة ؟… لقد بت أجمل مما كنت ياجيردا ، تعالي ، دعيني أقبلك… كلا ، من فمك أيضاً… هكذا! طاب يومك ياتوم العجوز ، لك مني قبلة أيضاً . لقد قال ماركوس أن الأعمال في تلك الأثناء سارت على مايرام . إن أمي تنتظرنا في شارع منج ، لكن ارتاحا قبل ذلك… أتريدان شاياً ؟ حماماً ؟ كل شيء معد . لن تجدا ماتشكوان منه ، فقد أفرغ جاكوبس قصاراه ، وفعلت أنا كذلك كل ما في وسعي…»

وسارا معاً في الردهة ، بينما جلبت الفتاتان الأمتعة مع الحوذي الى الداخل . وقالت توني ؛ «إنكما لن تستعملا الحجرات الموجودة هنا في الأرضية في الوقت الحاضر كثيراً… في الوقت الحاضر» مكررة إياها ملامسة شفتها العليا بطرف لسانها . «هذه هنا جميلة» ــ وفتحت في الحال باباً عن اليمين . ــ «وهذا الباب أمام النوافذ… أثاث خشبي بسيط…

سنديان... وهناك الى الخلف من الناحية الأخرى للطرقة واحدة أخرى أكبر . وهنا عن اليمين المطبخ وقاعة الأكل... لكن لنصعد ، فإني أريد أن أريكما كل شيء! »

وصعدوا الدرج المريح فوق المشاية العريضة الداكنة الحمرة الى باب الطبقة الزجاجي الذي تمتد خلفه طرقة ضيقة . وكانت حجرة الأكل على هذه الطرقة ذات مائدة مستديرة ثقيلة عليها سماور يغلي ، وحيطان بمثل الحرير الداكن الحمرة تستند اليها كراسي من خشب الجوز ذات مقاعد من الخيزران ، وبوفيه ثقيل . وكانت هناك حجرة جلوس مريحة فرشها رمادي ، تفصلها ستائر فقط عن صالون مستطيل ذي مقاعد ساندة مخططة بالأخضر ، وخارجه . لكن قاعة من ثلاث نوافذ كانت تشغل مساحة تعادل ربع الطبقة ، أدت بهم الى مخدع للنوم ، وكان على اليمين يطل على الطرقة ، ذا ستائر محلاة بالأزهار وسريرين ضخمين من خشب الموغنا . وسارت توني الى الباب الصغير النافذ من المخدع هناك الى الخلف فضغطت أكرته ، وفتحت الممر الى درج حلزوني تصل لفاته الى الأرضية : الى الحمام وغرفة الخدم .

قالت جيردا : « هنا جميل . هنا أريد البقاء » . وارتمت على مقعد ساند قريب من أحد السريرين تتنفس الصعداء .

وانحنى القنصل فوقها وقبلها فوق جبينها وقال : « أتعبة أنت ؟ لكنها الحقيقة . وأنا أيضاً أحب أن أنظف نفسي قليلاً... . »

وقالت مدام جرينليش : « وأنا سأراقب ماء الشاي وأنتظركما في قاعة الأكل . . . » وذهبت الى هناك .

كان الشاي يدخن ، معداً في أقداح ميسن لما جاء توماس وقال : « ها أنذا ، إن جيردا تحب أن تستريح نصف ساعة ، فهي تشكو صداعاً . وسنذهب فيما بعد الى شارع منج . هل الجميع بخير ياعزيزتي توني ؟ أمي وايريكا وكريستيان ؟ » ثمّ استطرد في ألطف حركة من حركاته يقول : « ولكن الآن ؟ أجزل الشكر وأخلصُه من جيردا أيضاً عن كل مابذلت من جهد يا أختي الطيبة! ماأجمل ما أعددت هذا كله! فليس ينقص شيء سوى أن تكون في الخارج بضع نخلات لزوجي ، وأن أبحث عن بضع لوحات زيتية نافعة... ولكن أحكي لي! كيف حالك ؟ وماذا فعلت في تلك الأثناء ؟ »

وسحب كرسياً لأخته الى جانبه وجعل يرتشف الشاي على مهل وأكل بسكوتة بينما كانا يتكلمان .

فأجابت : « أخ ياتوم! ماذا كنت تنتظر أن أفعل ؟ إن حياتي باتت في ذمة الماضي... »

«سخف ياتوني! أنت وحياتك... ولكنا نضجر أنفسنا ضجراً شديداً تقريباً! »

« أجل ياتوم ، إني برمة بصورة غير عادية . إني أحياناً ما أبكي من السأم ، وقد أتاح لي شغلي بهذا البيت سروراً . ولست تصدق كم أنا سعيدة بعودتكما... لكني لاأحب البقاء في البيت ، أتعلم ؟ وليعاقبني الله إذا كانت هذه خطيئة... اني الآن في الثلاثين . لكن هذا ليس بالعمر الذي أعقد فيه صداقة قلبية مع أهل السماء الأخيرين أو مع السيدتين جيرهارت أو مع واحد من ذوي الأردية السود الذين يزورون أمي ويلتهمون بيوت الأرامل . إني لا أؤمن بهؤلاء ياتوم . فهم ذئاب في فراء الحملان... هم جيل من الثعابين... ونحن جميعاً أناس ضعاف ، ذوو قلوب خاطئة ، فحين يريدون أن ينظروا الي من عل أظهاراً لعطفهم عليّ أنا الطفلة المسكينة ، أضحك منهم . لقد كان في رأيي أن الناس جميعاً سواسية وأنه لاحاجة الى وساطة بيننا وبين الرحمن الرحيم . وأنت تعرف أيضاً مبادىء السياسة . فإني أريد أن يكون المواطن للدولة... »

فسألها توم : « إذن أنتِ تشعرين بالوحدة قليلاً ، أليس كذلك ؟ » يريد أن يردها الى الطريق .

ثم استطرد يقول : « ولكن اسمعي ، أليست ، عندك ايريكا ؟ » .

« أجل توم ، وإني أحب الطفلة من كل قلبي ، وإن كان شخص بعينه قد زعم أني لاأحب الأطفال... ولكن انظر! . إني صريحة معك ، إني امرأة شريفة ، أتكلم بما في قلبي ، ولا أهتم بالألفاظ » .

« ماهو حسن منك ياتوني » .

« صفوة القول أن من المحزن أن الطفلة تذكر بجرينليتش أكثر مما ينبغي...وكذلك آل بودنبروك اللواتي يسكن في الشارع العريض يقلن أنها تشبهه جداً . ثم أنني حين أضعها أمامي ، يستغرقني التفكير فأقول لنفسي : إنك امرأة مسنة ، لك ابنة كبيرة ، وقد استدبرت الحياة ، لقد لبثت في قلبها بضع سنوات ، فيمكن الآن أن تبلغي السبعين أو الثمانين وتصبحي هنا فقيرة تصغين الى ماتقرأ « ليا » جيرهارت . إن هذه الفكرة تحزنني ياتوم الى حد أنها تقف في حلقي وتضغط... ذلك أني أشعر بأني مازلت صبية ، أتعلم ، أشتاق الى أن أخرج مرة أخرى الى الحياة... وأخيراً لأني لاأشعر بالارتياح التام ، لا في البيت ولا في المدينة . ولاتعتقد أني عمياء عن أحوالنا فلم أعد بالبلهاء التي كنت ، وعيناي في رأسي . إني امرأة مطلقة أشعر بهذا الوضع ، وهذا واضح جداً . ويمكنك أن تصدقني ياتوم إذا قلت لك أني أشعر دائماً بالضيق أن يكون اسمنا بهذا التلطيخ وإن لم يكن علينا في ذلك جناح .

ويمكنك أن تفعل ماتشاء ، يمكنك أن تكسب مالاً وتصبح أول رجل في المدينة ـ لكن الناس سيقولون دائماً : «نعم... إن أخته الى ذلك امرأة مطلقة» . إن جوليا مولندروف وهي من أسرة هاجنشتروم لاتحبني... حقاً إنها غبية! ولكن هكذا تجري الأمور في كافة الأسر... وحقاً أنني لايمكن أن أفقد الأمل ياتوم في أن تنصلح الأمور كرة أخرى ، فما زلت صبية... أو مازلت جميلة تقريباً ؟ إن أمي لم تعد تستطيع أن تزودني ببائنة كبيرة ، لكنها على كل حال قطعة مقبولة من المال . فلو أني تزوجت ثانية ؟ صراحة ياتوم ، إنها أحر أمنية لي ، وبتحقيقها ينتظم كل شيء وتزول البقعة العالقة... آه ياالهي ، لو أني استطعت الحصول على زوج يليق باسمنا واستقر ثانية ـ! أتعتقد أن هذا بات محالاً تماماً ؟» .

«لاقدر الله ياتوني! كلا ، كلا! إني لم أكف مطلقاً عن أن يكون هذا حسابي . لكنه يلوح لي ضرورياً قبل كل شيء أن تخرجي قليلاً ، وترفهي عن نفسك ، وتنشدي شيئاً من التغيير...»

قالت في حمية : «هذا هو ما أريد! لكني لابد أن أروي لك حكاية» .

واستند توم الى الوراء مرتاحاً الى هذا الاقتراح ، وكان يدخن سيجارته الثانية والغسق يقترب .

«أثناء غيبتكما كدت أقبل وظيفة ، وظيفة مرافقة في ليفربول! أكنت خليقاً أن تجدها مزرية ؟ وعلى كل حال إنها مسألة فيها نظر... أجل ، أجل . كان من الراجح ألا تكون لائقة . لكنها كانت رغبتي الملحة أن أرحل... وبالإيجاز أخفق المشروع ، إذ بعثت الى السيدة بصورتي الفوتوغرافية فاستغنت عن خدماتي ، لأني على حد قولها أجمل مما ينبغي ، ولأن لها بالبيت ابناً شاباً . لقد كتبت تقول : «إنك أجمل مما ينبغي... ها ، إني لم أضحك من شيء كما ضحكت من هذا القول!» .

وضحك الاثنان من كل قلبيهما .

واستطردت توني تقول : «على أن هناك الآن ما أنتظره ، لقد دعيت ، دعيت الى ميونيخ . والداعية هي ايفا ايڤرز . وتسمى فيما خلا ذلك ايڤا نيدر باور . وزوجها مدير مصنع للبيرة . النهاية أنها رجتني أن أزورها ، وأرى أن أبعث في القريب في طلبها . وطبيعي أن ايريكا لن تستطيع مرافقتي ، فهل لديك اعتراض ؟» .

«لا ، إطلاقاً . ومن الضروري على كل حال أن تنتقلي مرة أخرى الى أحوال جديدة» .

فقالت شاكرة : «أجل هذا ما أريد! ولكن أنت ياتوم! إني أتكلم دواماً عن نفسي ، فأنا امرأة أنانية! الآن أحك لي . لك الله . لابدّ أنك كنت سعيداً!» .

قال وهويفكر : «أجل ياتوني!» ونفخ دخان سيجارته عبر المائدة واستطرد : «أولا إني مغتبط بأني تزوجت ، وإنني أسست بيتاً لي . فأنت تعرفينني ، فالعزوبة ماكانت تصلح لي . وكل عزوبة فيها طعم العزلة والصعلكة ، وعندي كما تعلمين بعض الطموح . فإني لاأرى سيرتي في الحياة تنتهي تجارياً أو ـ ولنقل ذلك على سبيل الفكاهة ـ سياسياً... لكن المرء يحرز ثقة العالم الحقيقية أول مايحرزها عندما يصبح رب بيت أو أسرة . وقد كان الأمر معلقاً من شعره ياتوني... فمن طبعي الانتقاء . وقد لبثت طويلاً لاأعتقد ممكناً أن أجد في العالم من تليق بي . لكن منظر جيردا حسم الأمر . فقد رأيت في الحال أنها الوحيدة بلا منازع...وإن كنت أعرف أن كثيرين في المدينة مستاءون يستهجنون ذوقي . إنها إنسانة مدهشة . مثيلاتها في هذه الدنيا قليلات جداً . ولاشك أنها تختلف عنك ياتوني ، فأنت أبسط منها نفساً ، وطبيعية أكثر منها أيضاً...» ثمّ استطرد وقد انتقل فجأة الى لهجة أخف : «إن السيدة أختي بكل بساطة تستطيع أحياناً أن تكون على شيء من البرود... وصفوة القول ، إنها لاتقاس بالمقياس العادي . فطبيعتها طبيعة فنان... فهي مخلوقة فريدة ، ملغزة ، بديعة» .

قالت توني : «أجل ، أجل ، أجل» . وكانت تصغي الى أخيها في جد وانتباه . وقد أقبل عليهما المساء دون أن تفكر في مصباح .

وهنا فتح باب الطرقة ووقفت أمامهما في ضوء الغسق الخابي قامة منتصبة في ثوب البيت هفهاف ، متثن ، من الحرير الأبيض الناصع ، وكان شعرها الغزير الداكن الحمرة يحيط بوجهها الأبيض ، وفي زوايا العينين العسليتين المتقاربتين ظلال مقيمة تميل الى الزرقة .

كانت جيردا أو الجيل المقبل من آل بودنبروك .

الجزء السادس

الفصل الأول

كان توماس بودنبروك يتناول فطوره الأول في حجرة طعامه الجميلة وحده دائماً تقريباً ، ذلك أن زوجته اعتادت أن تبارح مخدع نومها متأخرة جداً ، إذ كثيراً ماعانت في الصباح صداعاً وساءت مزاجاً على وجه عام . وكان القنصل يتوجه عندئذ في الحال الى شارع منج حيث بقيت مكاتب المتجر ، فيتناول الفطور الثاني في «الطابق المتوسط» مع والدته وكريستيان وايدا يونجمان ثم لايلتقي ثانية بجيردا إلا في الرابعة لتناول الغداء .

وقد احتفظت حركة العمل للطبقة الأرضية بالحياة والنشاط . بيد أن طبقات بيت شارع منج الأخرى كانت خيالية موحشة ، إذ تلقت الآنسة فيشبروت الصغيرة ايريكا تلميذة عندها في القسم الداخلي ، وتوجهت كلوتيده المسكينة بقطع أثاثها الأربع أو الخمس الى أرملة معلم ثانوي يدعى الدكتور كراوزيمنتس في مثوى رخيص . بل إن الخادم أنطون بارح البيت منتقلاً الى سادته الصغار حيث كانت الحاجة اليه أمس ، فإذا بقي كريستيان في المنتدى جلست القنصلة والآنسة يونجمان في الساعة الرابعة وحدهما الى المائدة المستديرة التي لم يكن يضاف اليها لوح واحد ، والتي كانت ضائعة في معبد الطعام الفسيح بصور آلهته .

لقد انطفأ بموت القنصل يوهان بودنبروك سراج الحياة الاجتماعية في شارع منج ولم تعد القنصلة ترى من حولها ، فيما عدا هذا القس أو ذاك ، زواراً آخرين سوى أعضاء الأسرة الذين يفدون في أيام الخميس . وكان ابنها وكنتها قد استدبروا أول غداء لهما عندها ، وكان قد أعد في قاعة الأكل وحجرة الجلوس وضم الطاهية والأجراء وأنبذ كيستنماكر كما ضمّ مجتمعاً من مجتمعات مابعد الظهر ، بدأ في الساعة الخامسة وكان في الساعة الحادية

عشرة ماتزال روائحه وضجيجه منتشراً . وقد حضره جميع آل لانجهالز وهاجنشتروم وهونيوس وكيستنماكر وأوفرديك ومولندروف ، تجاراً وعلماء ، متزوجين وفجاراً ، وختم بلعب الورق وببضع آذان عامرة بالموسيقى . وظلّ الناس يتحدثون عنه في البورصة ثمانية أيام يطرونه أجمل الإطراء . وحقاً لقد ظهر أن القنصلة الصغيرة كانت خبيرة بشؤون الاستقبال . وقد بقيت والقنصل وحدهما في ذلك المساء في الحجرات المضاءة بالشموع المحترقة بين الأثاث المختلط ، المنحى عن مكانه ، وفي بخار كثيف حلو ثقيل خلفته أطعمة شهية ، وعطور فواحة ، وأنبذة ، وقهوة وسجائر ، وأزهار في التواليت وعلى المائدة . بقيا وحدهما يضغط القنصل يدها ويقول : «أنت رائعة ياجيردا! فلم نفعل مايخجلنا . إن متل هذا على جانب عظيم من الأهمية... ذلك أني لاأحب أن أشتغل بالمراقص كثيراً وأن أدع الشبان يحجلون هنا وهناك . هذا الى أن المكان لايتسع لمثل ذلك . وهكذا يجب أن تكون مائدتنا مقصورة على العقلاء . وقد تكلفت هذه المأدبة شيئاً أكثر من المعتاد... لكنها لم تكن سيئة التدبير» .

وقد أجابته : «عندك حق» وعدلت الدنتيلا التي كان صدرها يلمع من خلالها كالمرمر ، واستطردت : «إني كذلك أفضل المآدب على المراقص . فالمأدبة مهدئة بصورة ملحوظة... وقد عزفت بعد ظهر اليوم فأحسست احساساً غريباً... فمخي الآن معطل حتى ليمكن أن يخطف البرق هنا فلا يمتقع لي لون أو يحمر» .

* * *

لما جلس القنصل في منتصف الساعة الثانية عشرة الى جانب أمه قرأ عليه الرسالة التالية :

ميونيخ في الثاني من ابريل ١٨٥٧

ميدان ماريا رقم ٥

أمي العزيزة

من العيب أني لم أكتب اليك الى اليوم وقد بقي لي هنا ثمانية أيام ، فأرجو المغفرة . وقد استحوذ علي في خلال هذه الأيام كل مايرى هنا استحواذاً شديداً . وسأقصه عليك فيما بعد . والذي أسأل عنه أولاً هو هل أنتم جميعاً يامن أحبهم : أنت وتوم وجيردا وايريكا وكريستيان وتيلده وايدا يونجمان بخير ؟ هذا هو المهم .

آه ، ما الذي لم أره في هذه الأيام! متحفاً البيناكوتيك الجلبتوتيك وحانة الهوفبروى هاوس والمسرح الملكي والكنائس وأشياء كثيرة أخرى مما سأقصه عليك شفاهاً وإلا لأعيتني الكتابة عنه . كذلك قمنا برحلة في المركبة الى وادي نهر الايزر . والمنتظر أن نقوم غداً بنزهة الى بحيرة فورم ألخ . إن ايڤا لطيفة معي والسيد باور مدير مصنع البيرة رجل مريح . ونحن نقيم في ميدان جميل جداً وسط المدينة في وسطه فسقية ، كما هي الحال عندنا في السوق ، وبيتنا قائم قريباً جداً من دار البلدية وهو بيت لم أر مثله قط فهو من فوقه لتحته مزدان بالرسوم الملونة ، بصور سان جورج يقتل التنين والأمراء البفارين القدامى في لباسهم الكامل ورنوكهم . تصوري!

أجل إن ميونيخ تروقني جداً ويقال أن هواءها مقو للأعصاب جداً ولست أشكو في الآونة الراهنة من معدتي ، فإني أتناول البيرة بكثرة وسرور كبير ، وعلى الأخص لأن الماء ليس صحياً جداً . لكني لاأستطيع بعد أن أعتاد الأكل هناك كما ينبغي ، فالخضر أقل من اللازم ، والدقيق أكثر من الصلصات على سبيل المثال ، وقانا الله إياها . أما ماهو في الحقيقة ظهر عجل فما لايعرفونه هنا ، ذلك أن القصابين يقطعون كل شيء على أسوأ وجه . وينقصني السمك هنا نقصاً كبيراً ، ثم أن من الجنون أن يزدرد المرء على الدوام سلاطة خيار بالبطاطس مع البيرة! إن معدتي تزمجر أثناء ذلك .

ولا بد من اعتياد هذا أو ذاك أحياناً ، ولا تنسوا أن المرء هنا في بلد أجنبي . فهنا عملة لم نألفها ، وهنا مصعبة التفاهم مع بسطاء الناس والخدم ، فأنا أتكلم معهم أسرع مما ينبغي وهم يتكلمون معي رطانة ، ثم هنا الكثلكة ، إني أكرهها كما تعلمين ولا أقيم لها وزناً . . . »

هنا أخذ القنصل يضحك مستنداً ظهره الى الأريكة وممسكاً بقطعة من خبز الزبد مفروشة بجبن الأعشاب .

فقالت أمه : «أجل ياتوم ، إنك تضحك...» ونقرت بالاصبع الوسطى على المائدة مراراً ثمّ استطردت تقول : «لكن مايروقني فيها تماماً أنها مستمسكة بعقيدة آبائها ، وأنها تعج عجيج ما ليس بانجيلي وضجيجه . أعلم أنه قد داخلك في فرنسا وايطاليا عطف بعينه على الكنيسة البابوية ، لكن هذا ليس منك تديناً ياتوم ، بل شيئاً آخر ، أفهم أيضاً ماهو . لكن العبث والهواية في مثل هذه الأمور ، وإني لأرجو الله أن يهبك ويهب زوجك جيردا مع الأيام الجد اللازم في هذا ، ذلك أني أعلم أنها بالمثل لاتنتمي بالضبط الى الراسخين في الايمان . هذه ملاحظة ستغتفرها لأمك» .

وتابعت القراءة : «فوق الفسقية التي أراها من نافذتي تمثال للعذراء توضع عليه

الأكاليل أحياناً فيركع له عامة الشعب ويضعون أكاليل الورد ويصلون ، وهو مايبدو جميلاً جداً . لكنه مكتوب عليه : اذهب الى حجرتك . وكثيراً مايرى هنا رهبان في الشوارع عليهم مهابة لكن تصوري ياأماه : أمس مر بي في شارع تياتين رجل من كبار رجال الكنيسة في مركبته ، ولعله الأسقف ، فهو رجل مسن ـ النهاية ، هذا الرجل ألقى عليّ وأنا بالنافذة بضع نظرات مما يلقيه ملازم في الحرس! أتعرفين ياأماه أني لا أتوقع خيراً كثيراً من أصدقائك المبشرين والقسيسين ، لكن تريشكه الدموع ليس بالتأكيد شيئاً مذكوراً بجانب هذا المستهتر من أمراء الكنيسة... »

فاستهجنت القنصلة مغمومة قائلة : « خسئا! »

وقال القنصل : « توني بعينها! »

« كيف ياتوم ؟ »

« ألا تكون قد استفزته قليلاً... لامتحانه ؟ إني أعرف توني! ومع ذلك فقد سلتها « بضع النظرات » هذه تسلية كبيرة... ولعل هذا ما قصده الرجل المسن » .

وهنا لم ترد القنصلة بل استمرت تقرأ : « وأول من أمس أقام آل نيدرباور حفلاً وأحيوا سهرة غاية في الإبداع وإن كنت لم أستطع دائماً متابعة الحديث إذ كنت أجد لهجته أحياناً مبهمة . وقد كان بين الضيوف أحد مغني الأوبرا وقد غنى أغاني ، ورسام شاب رجاني أن يرسمني فرفضت ، لأني لا أجد هذا لائقاً . وكان خير من راقني حديثه يدعى بيرمانيدر ـ هل ظننت يوماً أن يكون أحد بهذا الاسم ؟ ـ تاجر يتاجر في حشيشة الدينار ، لطيف ، فكه ، أعزب ، ثابت . وقد كان جاري على المائدة ، فلازمته لأنه كان البروتستانتي الوحيد بين المدعوين . ومع أنه مواطن طيب من أهالي ميونيخ فإن أسرته من نيرنيرج . وقد أكد لي أنه يعرف متجرنا من الاسم جيداً ، ويمكن أن يتصور توم مبلغ ما فعلت في نفسي اللهجة الناطقة بالاحترام التي نطق بها هذا . كذلك قد استعلم عنا بدقة : كم عدد أخوتنا وأخواتنا وعن أكثر من هذا . كذلك استفسر عن ايريكا وعن جرينليش . وهو يزور آل نيدرباور أحياناً . وسيركب معنا غداً الى بحيرة فيرم .

والآن الى اللقاء ياأماه فلم أعد أستطيع الكتابة . وسأبقى هنا ثلاثة أسابيع أو أربعة في حياة وصحة كما اعتدت أن تقولي ، وبعدئذ أستطيع أن أقص عليك من أخبار ميونيخ بنفسي ، ذلك أني لاأعرف بم أبدأ إذا أنا كتبت . لكنها تروقني جداً ، وهذا ما أؤكده لك . وإن كان يجب أن تدرب الطاهية على اعداد الصلصات الطيبة... إنك ترين أني بت امرأة مسنة وباتت حياتي في ذمة الماضي ولم يعد لي ماأنتظره فوق هذه الأرض . لكنه على سبيل المثال

إذا تزوجت ايريكا هنا فيما بعد في حياة وصحة فلن يكون لي على ذلك اعتراض هذا كمايجب أن أقوله» .

هنا أيضاً كان لابدّ للقنصل أن يقطع الأكل وأن يستلقي على ظهره فوق الأريكة من الضحك .

«إنها رائعة ياأماه! إنها حين تريد الرياء تجل عن المقارنة ولايكون لها نظير! إني مغرم بها ، لأنها بكل بساطة لاتستطيع أن تتنكر ولوعلى بعد ألف ميل...» .

قالت القنصلة : «أجل ياتوم ، إنها طفلة طيبة تستحق كل خير» .

ثمّ أتمت تلاوة الرسالة .

الفصل الثاني

في آخر ابريل عادت مدام جرينليش إلى بيت أبيها ، . ومع أنها مرة أخرى قد استدبرت قطعة من الحياة ، وعاودت حياتها القديمة ، تحضر الصلوات التي تقام وتسمع قراءات ليا جيرهارت في «مساء أورشليم» فإنها كانت فيما يلوح في حالة نفسية أشد مرحاً وأعمر بالرجاء من ذي قبل .

ولما لاقاها أخوها القنصل على المحطة ـ وكانت قادمة من بيشن ـ وركب معها خلال باب هولشتين الى المدينة لم يتمالك نفسه من أن يحييها بقوله أنها ـ بعد كلوتيده ـ ماتزال أجمل بنات الأسرة ، فما كان منها إلا أن أجابته : «خسئاً لك ياتوم ، إني أكرهك! أتسخر من امرأة مسنة على هذا النحو...»

لكن هذا القول على الرغم من ذلك كان له مايصححه : فإن مدام جرينليش كانت تصون نفسها على خير وجه وأنفعه ، فمن كان يراها لايقدر سنها بالثلاثين بل والثالثة والعشرين نظراً الى شعرها الأشقر الرمادي القوي المجتمع على جانبي رأسها الممشط الى الخلف فوق أذنيها الصغيرتين ، يرفعه فوق قمة الرأس مشط سلحفاة عريض ، والى التعبير الرقيق الباقي لعينيها الرماديتين المائلتين الى الزرقة . ولشفتها العليا اللطيفة والاستطالة البديعة والألوان الرقيقة التي يتحلى بها وجهها . وكانت تزدان بقرطين من الذهب متدليين أنيقين إلى أقصى حدود الأناقة كانت جدتها تحمل مثلهما فيما مضى بشكل يختلف قليلاً . وكان ثوبها متهدلاً عليها مصنوعاً من قماش حريري خفيف داكن وله قفا من الأطلس وأكتاف منبسطة من الدنتيلا يكسب صدرها تعبيراً مبهجاً ناعماً...

وقد كانت كما قلنا راضية النفس الى أبعد حد وحين يجتمع في أيام الخميس حول المائدة القنصل بودنبروك وسيدات بودنبروك المقيمات في الشارع العريض والقنصل كروجر

وكلوتيده وزيزيمي فيشبروت وايريكا كانت تقص من أخبار ميونيخ وبيرة الشعير الساخنة والرسام الذي أراد أن يرسمها ومركبات البلاط التي كان لها في نفسها أجمل الأثر . وكانت أيضاً تذكر السيد بيرمانيدر ـ عرضاً ـ فإذا حدث أن أبدت فيفي بودنبروك هذه الملاحظة أو تلك كأن تقول أن هذه الرحلة مواتية جداً وإن خلت من أي نفع عملي ، تجاهلت مدام جرينليش هذا القول في تواقر شديد بأن تطرح رأسها الى الخلف وتحاول على الرغم من ذلك أن تضغط ذقنها على صدرها .

هذا الى أنها جعلت من عادتها إذا دق جرس باب الصفة في الرحبة الكبيرة أن تبادر إلى بسطة الدرج لترى من القادم . . فماذا يمكن أن يعني هذا : إن ايدا يونجمان وحدها هي التي كانت تعلم ، ايدا مربية توني وموضع سرها السنين الطوال التي كانت تقول لها هنا وههنا شيئاً بعينه : «توني ياطفلتي ، سترين . إنه سيأتي! لن يكون مخادعاً» .

وقد حمد أعضاء الأسرة كل بمفرده لأنتونيا العائدة الى الوطن مرحها هذا . فقد كانت نفسية البيت بحاجة ملحة الى التسرية لسبب هو أن العلاقة بين رئيس المتجر وبين أخيه الأصغر لم تتحسن على مر الأيام بل كانت تسوء بشكل محزن . وكانت أمهما القنصلة تتابع هذا المجرى للأشياء في حزن . فكانت تبذل الكثير للتوسط عند الحاجة بين الاثنتين . فكان كريستيان يقابل حثها له بأن يحضر الى المكتب في مواعيده بالضبط بصمت المشتت . أما تنبيهات أخيه نفسه فكان يتلقاها في خجل جاد ، باديَ الاضطراب والتفكير ، من دون اعتراض ليؤدي بعد ذلك عمله في تحرير المراسلات الانجليزية بمزيد من النشاط لبضعة أيام . وأخيراً ثبت في نفس الأكبر شيئاً فشيئاً احتقارٌ للأصغر لم يحد منه أن كريستيان كان يقابل ماتثيره المناسبات من عباراتهما دون دفاع وبعينين تدوران في تفكير .

ولم يكن مايبذله توماس في عمله من مجهود ولا حالة أعصابه بالذي يسمح له بسماع مايفصله كريستيان عن ظاهرات مرضه المتبدلة ، ومقابلة هذا بالعطف أو الهدوء ، إذ كان يقابل هذه التفصيلات بالسخط وينعتها لأمه وأخته بأنها النتائج السخيفة «لتأمل ذاتي» بغيض .

والعذاب ، العذاب غير المعين الذي كان كريستيان يحسه في ساقه اليسرى ، قد اختفى من أمد بعلاجات متعددة . لكن الشكوى من البلع كثيراً ماكان يعاوده على المائدة . وقد زاد عليها أخيراً ضيق تنفس لبث بعض الوقت ، تعب من متاعب الربو ظل كريستيان أسابيع طويلة يحسبه سلاً رئوياً ، ويعنى برواية حالته وتأثيراته لأسرته في أوصاف مسهبة

مقطباً في ذلك أنفه . وقد استشير الدكتور جرابو في الأمر فقرّر أن القلب والرئة يعملان بقوة ، لكن ضيق التنفس الذي يقع له الحين بعد الحين يرجع الى كسل بعينه في عضلات بعينها ووصف له لتجفيف العرق أولاً استعمال مروحة وثانياً مسحوقاً أخضر يحرق ويستنشق .

وقد جعل كريستيان يستعمل المروحة في المكتب أيضاً ، فلما لفته الرئيس أجابه بقوله أنهم في ڤالباريزو كان لكل كاتب مروحة بسبب الحرارة : «جوني ثندرستورم – ياإلهي!» لكنه في ذات يوم بعد أن ظل يتأرجح على كرسيه جاداً قلقاً ، وأخرج مسحوقه من جيبه وحرقه في المكتب فتصاعد منه دخان قوي كريه الرائحة حتى أخذ عدة أناس يسعلون بشدة وامتقع لون السيد ماركوس نفسه واصفر اصفراراً شديداً... حدثت ضجة علنية ، فضيحة ، مشادة مخيفة كانت خليقة أن تفضي في الحال الى قطيعة لولا أن القنصلة كتمت الأمر وعالجته بعقل وسوته في سلام .

ولم يكن هذا وحده بل أيضاً الحياة التي كان كريستيان يعيشها خارج البيت مع رفيق المدرسة الدكتور جيزيكه المحامي غالباً ، كان القنصل يتابعها ساخطاً . ولم يكن ضيّق الذهن أو معانداً ، فقد كان يذكر جيداً ما اقترف في شبابه من خطايا . كان يعلم أن مدينة آبائه ـ تلك المدينة التجارية التي يدق فيها التجار والمواطنون المبجلون أرصفة الشوارع بعصيهم وعلى وجوههم سيماء الاستقامة التي تجل عن المقارنة ليست بحال من الأحوال مهد الأخلاق الفاضلة التي لايشوبها شائبة . ولم يكن المرء ليعوض نفسه من الأيام التي يقضيها جالساً فوق كرسي المكتب بالأنبذة الثقيلة والأطباق الثقيلة وحدها... فإن معطفاً سميكاً متيناً كان يستر هذه التعويضات وإذا كانت المحافظة على المظاهر مما يعتده القنصل بودنبروك قانوناً ، فإنه كان في هذا الصدد متشبعاً بنظرة مواطنيه الى العالم . والمحامي جيزيكه ينتمي الى أولئك «العلماء» المتلائمين مع «التجار» في شكل الحياة ، والى «الفجار» السيئي السمعة ، ومايلحظه كل امرىء فيه . لكنه كبقية رجال الدنيا المرتاحين كان يفهم كيف يتخذ المظهر السليم فيتحاشى المتاعب ، ويحتفظ لمبادئه السياسية والمهنية بسمعة التعقل الذي لامطعن عليه وكانت خطبته لآنسة من أسرة هونيوس قد أعلنت ولما تكد ، فكان بهذا يتزوج من مكانة في المجتمع الراقي وبائنة ذات شأن . وكان يباشر شؤون المدينة باهتمام رائع فقال الناس إنه يطمع في مقعد في دار البلدية ويتشهي بعد ذلك كرسي الدكتور أوڤرديك المحافظ المسن .

لكن كريستيان بودنبروك صديقه الذي ذهب ذات مرة بخطى ثابتة الى الآنسة مادير

دي لاجرانج وقدم اليها باقة من الأزهار وقال لها : «أيتها الآنسة ، ماأجمل ما مثلت!» ـ كريستيان هذا قد بات بخلقه وسني تجواله الطويلة مستهتراً من نوع بالغ السذاجة وعدم المبالاة لايميل في شؤون القلب وغيرها من الشؤون الى الحد من عواطفه ، والتزام الرزانة والوقار . وقد تسلت المدينة كلها بعلاقة له على سبيل المثال بممثلة ثانوية في مسرح سومر وتندرت بها وراحت مدام شتوت المقيمة في شارع صناع النواقيس والسيدة التي تغشى الأوساط الراقية تقص على كل سيدة تريد أن تسمع أن «كريشان» رؤي مرة أخرى مع فتاة «تيفولي» في شارع مفتوح مضيء .

وهذا أيضاً لم يؤخذ عليه... فقد كان الناس في تشككهم أشد استقامة من أن يبدو سخطهم الخلقي بصورة جيدة . وكريستيان بودنبروك والقنصل بيتر دولمان مثلاً ، وهو الذي حملته أعماله التجارية الكاسدة على التماس العمل بصورة شبيهة عديمة الأذى ، كانا محبوبين بوصفهما مسليين لايستغنى عنهما بحال من الأحوال في مجتمع الرجال . لكنهما لم يكونا يحملان على محمل الجد . فهما لايساهمان في شؤون جدية . ومما له دلالة أنهما لم يكونا يذكران في المدينة بأسرها وفي المنتدى وفي البورصة وفي الميناء إلا باسمهما الأول : كريشان وبيتر . ولسيئي النية أمثال آل هاجنشتروم الحرية في ألا يضحكوا من حكايات كريشان وفكاهاته بل على كريشان نفسه .

ولم يكن يفكر في هذا أو كان يتجاوز عنه بأسلوبه ، بعد لحظة من التفكير الغريب في قلقه . لكن أخاه القنصل كان يعرف ذلك . كان يعرف أن كريستيان يتيح لخصوم الأسرة نقطة الهجوم... ونقطة الهجوم هذه كثيرة . فالقرابة لآل أوفرديك واسعة النطاق ، خليقة بعد موت المحافظ أن تصبح عديمة القيمة . وآل كروجر كفوا عن أن يقوموا بأي دور ، فكانوا في حياتهم معتزلين ، ولهم مع ابنهم حكايات متعبة... وزيجة العم المرحوم جوتهولد التي أخطأه التوفيق فيها قد بقيت أمراً لا يسر . . . وأخت القنصل امرأة مطلقة وأن لم يكن المرء بحاجة الى فقدان الأمل في زواجها من جديد . وأخوه يعتقد أنه انسان يثير السخرية ، يملأ سادة ذوو أعمال فراغهم بالضحك على تهريجاته حسني النية أو ساخرين . وهو الى ذلك يستدين ، وفي نهاية ربع السنة حين تنفد نقوده ، يدع الدكتور جيزيكه ينفق عليه علانية ، الأمر الذي يحرج المتجر ويخجله رأساً .

ويبدو الاحتقار الشديد الذي يكنه توماس لأخيه والذي يتحمله هذا في قلة اكترات يتخللها تفكير -في كل الصغائر التافهة التي تقع بين أعضاء في أسرة واحدة مسلط بعضهم على بعض . فإذا تناول الحديث على سبيل المثال تاريخ آل بودنبروك انتابت كريستيان

نفسية لايوائمه فيها أن يتحدث عن مدينة آبائه وعن أجداده في جد وحب واعجاب . فينهي القنصل الحديث بملاحظة جافة . ذلك أنه لم يكن يتحمل هذا ، وأنه كان يزدري أخاه الى حد أنه لم يكن يسمح له بأن يحب حيث أحب هو . وأحب اليه كثيراً أن يسمع أخاه يتكلم عن هذا بلهجة مارسيلوس شتنجل . وقد قرأ كتاباً ـ كتاباً ما في التاريخ ـ أثر فيه تأثيراً قوياً ومجده هو بكلمات مؤثرة ، فكان أن كريستيان ، الرأس الذي لايعرف الاستقلال ، والذي ما كان ليقع وحده على هذا الكتاب ، ولكن لأنه يستجيب لكل شيء ويقع تحت كل تأثير ـ كان أن كريستيان قرأه ، منشوراً بهذه الطريقة ، ومجعولاً في المتناول ، ووجده بالمثل عظيماً جداً فعبّر عن مشاعره نحوه أدق تعبير ممكن . من ذلك الحين بات الكتاب بالنسبة لتوماس مقضياً عليه ، فأصبح يذكره في برود ، ولايكترث له ، ويظهر كما لو كان لم يقرأه تقريباً . وترك لأخيه أن يعجب به وحده...

الفصل الثالث

عاد القنصل بودنبروك من «الانسجام» وهو محفل المطالعة المخصص للرجال الذي يقضي فيه ساعة بعد تناول طعام الافطار الى شارع منج فقطع الأرض من الخلف وبلغ جانب الحديقة بسرعة عبر الممشى المبلط الذي يمتد بين الأسيجة النابتة ويربط الفناء بالفناء الأمامي ثمّ اجتاز الرحبة ونادى في المطبخ هل أخوه بالبيت . وكانت تعليماته تقضي بأن ينبؤه حين يحضر ، واخترق المكتب حيث كان الموظفون منكبين على حساباتهم فوق مكاتبهم ، فلمّا رأوه ازدادوا انكباباً . ودخل هو الى مكتبه الخاص ونحى قبعته وعصاه وارتدى رداء العمل ثمّ توجه الى مكانه عند النافذة تجاه السيد ماركوس . وكان بين حاجبيه اللذين تلفت شقرتهما الأنظار غضنان ، وقطعة الفم الصفراء من سيجارة روسية تدخن وتنتقل مضطربة من زاوية في الفم الى أخرى . وكانت حركاته في تناول الورق وأدوات الكتابة مقتضبة خشنة الى درجة أن السيد ماركوس أمرّ اصبعين على شاربه مفكراً ، وأجال نظرة مستأنة فاحصة في شريكه ، بينما كان الشبان ينظرون اليه رافعي الحواجب . لقد كان الرئيس غاضباً .

وانقضت نصف ساعة لم يسمع خلالها سوى صرير الأقلام ونحنحة السيد ماركوس المترفقة ، فإذا القنصل يتخطى ببصره قاعدة النافذة الخضراء ويبصر كريستيان آتياً في الشارع يدخن ، قادماً من المنتدى حيث أفطر ولعب لعبة صغيرة . وكان يلبس قبعته مائلة قليلاً على جبينه ويطوح عصاه الصفراء التي جلبها من «هناك» والتي تمثل قبضتها تمثالاً نصفياً محفوراً من العاج لراهبة من الراهبات . والظاهر أنه كان في صحة طيبة ونفسية مرحة يترنم بأغنية ما ، حين دخل الى المكتب وقال : «عموا صباحاً أيها السادة!» مع أن الوقت كان عصر يوم من أيام الربيع . ثم خطا الى مكانه «ليعمل

قليلاً » . لكن القنصل نهض من مكانه وقال له وهو مار به من دون أن يلتفت اليه : «اه... اسمح لي بكلمتين ياعزيزي» .

فتبعه كريستيان ، واجتازا الرحبة مسرعين ، ويدا توماس فوق ظهره ، وكريستيان يفعل فعله عفواً ، موجهاً أنفه الضخم نحو أخيه بارزاً بين خديه الغائرتين فوق شاربه الأشقر المحمر المتدلي على الطريقة الانجليزية على فمه ، حاداً مقوساً بادي العظم . وبينما هما يسيران في الفناء قال توماس : «لابدّ أن ترافقني خلال الحديقة خطوتين ياصديقي» .

فأجاب كريستيان : « حسناً » . ثم رنق الصمت من جديد فكانا في خلاله يطوفان بالحديقة الى اليسار على الطريق الخارجي ، مارين بواجهة البوابة المنشأة على طراز الركوكو ، والحديقة إذ ذاك تنبت براعمها الأولى . وأخيراً قال القنصل بصوت عال وهو يتنفس تنفساً سريعاً : «لقد ضايقني مسلكك من هنيهة مضايقة شديدة» .

« مسلكي أنا ؟ »

« نعم ، لقد حكوا لي في «الانسجام» عن ملاحظة أبديتها مساء أمس في المنتدى وكانت خارجة تتجاوز كل الحدود الى درجة أني لم أجد ماأقوله... فالفضيحة وقعت وتعرضت لإنتهار مؤسف فهل يروقك أن تذكر ماحدث ؟ »

« آه... الآن أعرف ماتعني . ـ فمن حكى لك هذا ؟ »

« وماقيمة ذلك في الموضوع ـ دولمان . ــ بلهجة تجعل من البداهة أن من لم يعرف الحكاية بعد يمكن أن يسر بها... »

« اسمع ياتوم . يجب أن أقول لك... لقد خجلت لها جنشتروم » .

« خجلت لـ ... إذن فهذا صحيح... اسمع! » وكان صياح القنصل بهذا وهو يرفع راحتيه الى فوق ويميل برأسه جانباً ويهزّ يديه محتجاً :

« تقول في مجلس مكون من تجار وعلماء على السواء بحيث يسمع الجميع قولك إن كل تاجر في الحقيقة وواقع الأمرنصاب... أنت ، ونفسك تاجر ، تنتمي الى بيت تجاري يسعى بكل قواه الى الوحدة المطلقة والمتانة التي لايعتورها ضعف... »

فقال كريستيان : « بحق السماء ياتوماس ، إني أمزح! ولو أن... في الحقيقة... » وغضن أنفه ، ودفع رأسه الى الأمام في شيء من الانحراف... وخطا في هذا الوضع عدة خطوات .

فصاح القنصل : « مزاح! مزاح! إني أتصور أن أفهم المزاح ، لكنك قد رأيت كيف فهم

المزاح! لقد أجابك هاجنشتروم بقوله : «إني من جانبي أحترم مهنتي جداً» . وأنت جالس إذ ذاك انساناً صعلوكاً لايعرف لمهنته قيمة . »

«اسمع ياتوم ، أرجوك ، ماذا تقول في هذا ؟ إني أؤكد لك ، أن الهدوء التام زايلهم بغتة فضحكوا كأنهم يوافقونني على قولي . وكان هذا الهاجنشتروم جالساً فقال في جد مخيف : «إني من جانبي...» هذا الغبي لقد خجلت له حقاً ، لقد لبثت حتى مساء أمس في فراشي أفكر طويلاً في هذا واستشعر منه شعوراً عجيباً... لست أعلم هل تعرف هذا...»

فقاطعه القنصل : «كف عن الثرثرة أرجوك ، كف!» . وكان ينتفض من كل جسمه غضباً ثمّ قال : «إني أقرك . أجل إني أوافقك على أن الجواب لعله لم يكن مطابقاً للحالة وأنه كان خلواً من الذوق . لكن المرء يختار الناس الذين يقول لهم متل هذا القول . . . إذا كان لابدّ من قوله ، ولايعرض نفسه في بلاهة الى مثل هذا الانتهار الخشن . لقد انتهز هاجنشتروم الفرصة ليكيل لنا ، ليس لك فحسب ، ضربة . فهل تعلم مامعنى : «إني من جانبي» . معناه : إن مثل هذا الحكم قد أتاحه لك مكتب أخيك ياسيد بودنبروك ؟ هذا هو معناها أيها الحمار!» .

قال كريستيان : «ماذا... حمار...» وبدا على وجهه الارتباك والاضطراب .

واستطرد القنصل قائلاً : «وآخر الأمر أنك لست ملك نفسك وحسب . لكني مع ذلك لاأكترث لشيء تعرض فيه نفسك للسخرية وصاح : وأي شيء لاتعرض فيه نفسك للسخرية!» وكان ممتقع اللون قد نفرت عروقه الزرقاء في سالفيه الضيقين اللذين يسترسل منهما شعره الى الخلف في تجويفين ، وظل حاجب من حاجبيه الأشقرين مرفوعاً . بل إن طرفي شاربه المتيبّسين المشدودين في استطالة كان فيهما مايدل على الغضب أثناء أن كان يلقي كلماته جانباً عند قدمي كريستيان فوق الطريق المرصوف بالحصى مطوحاً يديه . ومضى يقول : «إنك تجعل نفسك أضحوكة بغرامياتك وألاعيبك وأمراضك وبالأدوية التي تعالجها بها...»

فقال كريستيان وقد هزّ رأسه في جد بالغ ، ورفع سبابته في صورة مرتبكة بعض الشيء : «ولكن ياتوماس . إن مايتعلق بهذا الأمر لاتستطيع أن تفهمه كل الفهم... إن المسألة هي أنه... يجب أن يكون المرء مرتاح الضمير... ولست أعلم هل تعرف ذلك... فقد وصف لي جرابو مرهماً لعضلات الرقبة... حسن! فإذا لم أستعمله ، وأهملت استعماله فسيخيل الي أني ضائع ، عديم الحيلة ، مضطرب ، غير مطمئن ، خائف ، وإني لست بخير

ولا أستطيع أن أبلغ شيئاً . لكنني إذا استعملته شعرت بأني أقوم بواجبي ، وأني بخير ، فيرتاح عندئذ ضميري ، وأهدأ ، وأرضى ، ويكون البلع على مايرام والمرهم لايفعل هذا فيما أعتقد... لكن المسألة هي أن مثل هذا التصور ، افهمني جيداً ، يمكن أن ينسخه تصور آخر ، تصور مضاد... لست أعلم هل تفهم ذلك ؟...»

فصاح القنصل : «أجل ـ أجل!» واعتمد رأسه لحظة بين يديه ، ثم عاود الكلام : «افعل ذلك ، واسلك المسلك الذي يوحي به! لكن لاتتحدث به! ولا تثرثر! أرح غيرك من طرائفك البغيضة . كذلك بهذه الثرثرة غير الكريمة تجعل نفسك أضحوكة من الصباح الى المساء! لكني أقول لك وأكرر القول : إنني لن أكترث لك مهما يكن من تغفيلك شخصياً ، لكني أمنعك ، أتسمعني جيداً ؟ أمنعك من احراج المتجر على نحو مافعلت مساء أمس!» .

لم يرد كريستيان على هذا القول ، بل مر بيده على شعره الأشقر المحمر الخفيف وجعل يجيل نظره فيما حوله تائهاً حائراً وعلى وجهه إمارات جد يشوبه الاضطراب . ولاشك أنه كان مشغولاً بذلك الذي قاله أخيراً . وسادت فترة صمت ، وتقدم توماس منه في يأس ساكن .

وبدا من جديد يقول : «تقول إن جميع التجار نصابون . حسن! فهل ضقت بمهنتك ؟ أتندم على أنك أصبحت تاجراً ؟ لقد حصلت إذ ذاك على إذن من والدك...»

قال كريستيان مفكراً : «أجل ياتوم إني لأؤثر الدراسة في الحق! في الجامعة ، أتعرف ؟ فلا بد أن يكون هذا مرضياً جداً... يتوجه المرء اليها كلما راقه ذلك ، باختياره ، يجلس ويستمع كما لو كان في مسرح...»

«كما في مسرح... في مقهى الأغاني مكانك أيها المهرج... إني لا أمزح!» . وأكد القنصل : «إن اعتقادي الجازم هو أن هذا مثلك الأعلى» فلم يعترض كريستيان بحال ، بل تلفت حوله مستغرقاً في الفكر .

«وأنت الذي تجرؤ على إبداء ما أبديت من ملاحظة... أنت الذي لاتدري ... لافكرة عندك عما هو العمل ، والذي تقضي حياتك مشتغلاً بخلق طائفة من المشاعر والأحاسيس والحالات ، ترتاد المسرح وتتصعلك وتتغفل نفسك ، تراقب تلك الحالات وتتعهدها لتستطيع الثرثرة بها بلا حياء...»

وقال كريستيان متكدراً بعض الشيء : «نعم ياتوم» ، ثمّ استطرد يقول وهو يمسح بيديه ثانية على رأسه : «هذا صحيح ، لقد عبرت عنه تعبيراً سديداً جداً . وهذا هو الفرق

بيننا ، أترى . إنك تحب أيضاً مشاهدة المسرحيات ، وكان لك يوماً ما هواياتك ، وهذا بيننا . وقد لبثت طويلاً تؤثر قراءة القصص والأشعار وماشاكل... لكنك كنت دائماً تفهم كيف تربط هذا كله بالعمل المنظم وجد الحياة... وهذا ينقصني ، أترى . وقد استنفدني الآخرون واستهلكتني الحثالة استهلاكاً تاماً ، ولم يبق عندي لما هو منظم ولما هو سليم شيء ما . ولست أعلم هل تفهمني...»

وصاح توماس وقد كف عن المشي وشبك ذراعيه فوق صدره : «اذن أنت ترى ذلك . إنك تسلم به في هدوء ، ومع ذلك تبقي كل شيء على حاله! هل أنت كلب اذن يا كريستيان ؟! إن لكل امرىء كبرياءه ، الهنا الذي في السماء! إن المرء لايواصل حياة لايجرؤ نفسه على الدفاع عنها مرة! ولكن هكذا أنت! وهذا كيانك! إذا كان شيء من رأيك وفهمته واستطعت وصفه... لا ، إن صبري نفد يا كريستيان!» وخطا القنصل الى الوراء خطوة سريعة أتى فيها بحركة عنيفة أفقية من ذراعه : «أقول لك نفد صبري! إنك تؤجر علي وكالتك ، لكنك لاتأتي أبداً الى المكتب... وليس هذا مايثيرني . فاذهب وضيع حياتك على نحو مافعلت الى الآن! لكنك تورطنا ، تورطنا جميعاً أينما ذهبت وأقمت! إنك خرّاج ، موضع سقيم في جسم الأسرة! إنك شر في هذه المدينة ، فلو كان هذا البيت ملكي لطردتك منه طرداً الى خارج البيت!» قال هذا صارخاً آتياً بحركة عنيفة واسعة تناولت الحديقة والفناء والرحبة الكبيرة... ولم يعد يتمالك نفسه فقد هاج وماج وصبّ جام حنقه...

قال كريستيان وقد أصابته نوبة من الغضب مستغربة منه الى حد كبير : «ماذا تظن ياتوم!» وكان واقفاً هناك في الوضع الذي يلزم معوجي الساقين في الغالب مقصوفاً قليلاً ، على شيء من علامة الاستفهام ، مدفوع الرأس والبطن والركبة الى الأمام ، متسع العينين المستديرتين الغائرتين اللتين اتسعتا الى أقصى مايمكن وأحاطت بهما حواف حمراء وصلت الى عظمتي الخدين وكما كانت حال أبيه إذا غضب وقال : «كيف تخاطبني بهذا الكلام ؟ ماذا فعلت لك ؟ إني ذاهب من نفسي ولست بحاجة الى أن تطردني ـ خسئاً!» . وكانت هذه الكلمة التي زادها على رده بمثابة الملام الخالص تصحبه من يده حركة مقتضبة خاطفة الى الأمام كمن يقنص ذبابة .

ومن العجيب أن توماس لم يرد على هذا بأعنف منه بل طأطأ رأسه صامتاً واتّخذ طريقه ثانية من حول الحديقة متئداً . ولعله قد أرضاه ، بل أثلج صدره أنه أغضب أخاه أخيراً... وحمله في النهاية على رد شديد ، على احتجاج .

قال في هدوء ويداه على ظهره مرة أخرى : «صدقني يا كريستيان أن هذا الحديث آلمني من القلب لكنه كان لابدّ أن يدور . ومثل هذه المناظر في محيط الأسرة شيء مخيف ، لكنه لم يكن بد من أن يدلي كل منّا بما عنده... وفي وسعنا أن نتناول الأمور بكل هدوء ياصغيري . ولن ترضى عن نفسك في وضعك الراهن كما أرى ، أليس كذلك... ؟» .

«لا ، ياتوم ، لقد أصبت في تبين هذا ، انظر : لقد كنت في مبدأ الأمر مرتاحاً بصورة غير عادية... وأنا هنا أفضل مما لو كنت في متجر أجنبي . لكن الذي ينقصني هو الاستقلال فيما أعتقد... وقد كنت دائماً أحسدك كلما رأيتك جالساً تعمل ، ذلك أنه ليس في الحقيقة بالعمل الذي يلائمك ، إنك لاتعمل لأنه يجب أن تعمل ، بل لأنك السيد الرئيس وتستطيع أن تكلف غيرك بالعمل لك ، تعمل حساباتك وتحكم وتستمتع بحريتك..وهذا شيء آخر كلية .»

«حسناً يا كريستيان ، ولكن أما كان في مكنك أن تقول هذا من قبل ؟ إن لك الحرية في أن تستقل أو تكون أكثر استقلالاً . فأنت تعرف أن أبانا قد خصص لك كما خصص لي حصة مؤقتة في الميراث تبلغ ٥٠,٠٠٠ مارك ، وإني بداهة مستعد في كل لحظة لأن أدفع لك هذا المبلغ تستخدمه في شيء أحكم وأمتن . فهناك في هامبورغ كما في في غيرها دائماً أعمال مضمونة كافية ولكن محدودة يمكن أن تحتاج الى مزيد من رأس المال ، وفي استطاعتك أن تدخل فيها شريكاً ، فدعنا ، كلاً بمفرده ، نفكر في الأمر ونتكلم فيه مع أمنا إذا جدت مناسبة . وأنا الآن عندي مايشغلني ، وفي وسعك هذه الأيام أن تستمر في انجاز المراسلات الانجليزية . أرجوك...» .

وسأله وهو ما يزال في الرحبة : «ما رأيك على سبيل المثال في هـ .ا . بورميستر وشركاه في هامبورغ للاستيراد والتصدير... اني أعرف الرجل وأعتقد أنه سيمد يده...» .

* * *

كان هذا في آخر مايو ١٨٥٧ . وفي أول يونيه سافر كريستيان الى هامبورج عن طريق بيشن... فكان سفره خسارة فادحة للمنتدى ومسرح المدينة وتيفولي وكافة المجتمع الذي يستمتع بحرية أكثر . وقد ودعه جميع المستهترين في المحطة ومن بينهم الدكتور جيزيكه وبيتر دولمان ، وقدموا له الأزهار بل السيجار ، وضحكوا خلال ذلك من كل قلوبهم . وقد تذكروا بلا ريب كل الحكايات التي كان يرويها كريستيان لهم . وفي النهاية قلّد المحامي

الدكتور جيزيكه كريستيان بين هتاف الجميع نيشان كوتيون العظيم المصنوع من الورق المذهب وثبته على معطفه . وأصل هذا النيشان من بيت على مقربة من الميناء ، نزل يضع على بابه بالليل مصباحاً أحمر ، ومكان يجتمع فيه الرواد على سجيتهم ، ويستخفهم فيه المرح . . . وقد قلد الراحل كريشان هذا النيشان لما أداه من جلائل الأعمال . . .

الفصل الرابع

دق جرس باب الصفة وظهرت مدام جرينليش على بسطة الدرج جرياً على عادتها كي تطل على الرحبة من فوق الدرابزين المدهون باللاكية الأبيض وما أن كاد الباب يفتح من تحت حتى ارتجت فجأة وظلت منحنية الى أسفل ، ثم ارتدت في عنف وضغطت منديلها بإحدى يديها على فمها ، وضمت تنورتها بالأخرى ، وأسرعت الى فوق منكبة قليلاً الى الأمام... وعلى الدرج الصاعد الى الطبقة الثانية قابلت آنستها يونجمان فأسرت اليها شيئاً بصوت خافت ، أجابت عليه وهي فزعة من الفرح بكلام بولوني رن : «مايبوشيكوش هانه!»

في نفس الوقت كانت القنصلة بودنبروك جالسة في حجرة المناظر الطبيعية تعمل بإبرتين خشبيتين كبيرتين في نسج شال أو مفرش أو ماأشبه ذلك . وكانت الساعة الحادية عشرة قبل الظهر .

وبغتة جاءت الفتاة التابعة مارة ببهو الأعمدة ، ودقت على الباب الزجاجي ، وحملت الى القنصلة بطاقة من بطاقات الزيارة وهي تهرول في مشيتها . فتناولت القنصلة البطاقة وأصلحت وضع نظارتها ، ذلك أنها كانت تحمل نظارة أثناء عملها اليدوي وقرأت . ثم رفعت بصرها ثانية الى وجه الفتاة الأحمر ثم قرأت مرة أخرى ثم نظرت الى الفتاة من جديد . وأخيراً قالت متلطفة ولكن في حزم : «ماهذا ياعزيزتي ؟ مامعناه ؟»

وكان مطبوعاً على البطاقة «اكس نويه وشريكه» فأما اكس نويه ومعه علامة «و» فكانت مشطوبة بقوة بالقلم الأزرق فلم يبق على البطاقة سوى «شريكه» .

فقالت الفتاة : «نعم ياسيدتي القنصلة ، هذا سيد لكنه لايتكلم الألمانية ، وهو شخص غريب الأطوار» .

فقالت القنصلة «دعيه يتفضل» ذلك أنها فهمت الآن أن الذي يرغب في الدخول هو

الشريك . وذهبت الفتاة وفتحت الباب الزجاجي على الأثر كرّة ثانية وأدخلت شخصاً قصير القامة ، توقف لحظة عن المسير في مؤخرة الحجرة الظليلة ومط شيئاً رن وكأنه يعني : «لي الشرف...» .

فقالت القنصلة : «عم صباحاً ، هلا تفضلت بالاقتراب!» . واعتمدت يدها في خلال ذلك على حشايا الأريكة ، ونهضت قليلاً لأنها لم تكن عرفت بعد هل يليق أن تنهض له كل النهوض..

فأجاب السيد بدوره في نبرة شادية مديدة مرتاحة وقد انحنى بأدب وتقدم خطوتين : «إني أسمح لنفسي...» ثم توقف مرة أخرى عن المسير وتلفت حوله باحثاً : هل من فرصة للجلوس أو مكان يضع فيه قبعته وعصاه ، ذلك أنه دخل الحجرة بكلتيهما ، بالعصا أيضاً وكان مقاس تكاتها المصنوعة من القرن ، المقوسة كالمخلب قدماً ونصف قدم على الأقل .

كان رجلاً في الأربعين من عمره ، قصير الأعضاء ، بديناً ، يلبس سترة مفتوحة على دفتيها من الجوخ البني ، وصدرية زاهية مزهرة تغطي بطنه في تقبية خفيفة . عليها سلسلة ساعة ذهبية تلمع فيها بأناقة حقيقية هي مجموعة كاملة من الدلايات مصنوعة من القرن والعظم والفضة والمرجان - ثمّ سراويل ركبة قصيرة ذات لون أخضر رمادي غير واضح ، يبدو أنها مصنوعة من قماش صلب بصورة غير مألوفة ، ذلك أن أطرافها كانت تحيط من أسفل برقبة حذائه القصير العريض بشكل دائري مشدود . - وكان شاربه الأشقر الرائق الخفيف المفتل المتدلي فوق الفم يكسب رأسه المستدير الشبيه بالكرة بأنفه المدكوكة وشعره الخفيف نوعاً غير المسرح ، شيئاً من كلب البحر .

وكان للسيد الغريب بين الذقن والشفة السفلى شامة بارزة بعض الشيء تتباين مع شاربه . وكان خداه ممتلئين بشكل ملحوظ ، دهنيين ، مقببين طاغيين على عينين نصف مغمضتين في شقين ضيقين ، رائقتي الزرقة ، متغضّنتين عند الزوايا ، مما أكسب الوجه المنتفخ على هذه الصورة تعبيراً هو مزيج من المضض والطيبة المستقيمة الحائرة المؤثرة . وكان تحت الذقن الصغيرة خط يجري عمودياً الى داخل ربطة الرقبة الرفيعة البيضاء... خط رقبة يشبه الحوصلة - رقبة ماكانت لتطيق البنيقات العالية . فالجزء السفلي من الوجه والرقبة ومؤخرة الرأس والقفا والأنف ، كل أولئك قد امتزج بعضه ببعض في غير تناسق وحشا بعضه بعضاً... وكان جلد الوجه من جراء هذه الانتفاخات جميعاً مشدوداً أكثر مما ينبغي ، يبدي في بعض المواضع كموضع شحمة الأذن وعلى جانبي الأنف احمراراً ناشزاً... وقد أمسك

السيد في إحدى يديه القصيرتين البيضاوين السمينتين بعصاه وفي الأخرى بقبعة خضراء من قبعات التيرول مزدانة بلحية تيس .

ورفعت القنصلة النظارة عن عينيها وظلت متكئة في نصف وقفة على الأريكة .

وسألته في أدب ولكن في حزم : « بم أستطيع أن أخدمك ؟ »

وهنا وضع السيد القبعة والعصا على غطاء الهارمونيوم بحركة تدل على التردد ثم فرك يديه الطليقتين مرتاحاً ، ونظر الى القنصلة بعينيه الصغيرتين الرائقتين المنتفختين وقال : « أرجو سيدتي المعذرة من بطاقتي ، إذ ليس معي غيرها . إن اسمي هو بيرمانيدر ، الويس بيرمانيدر من ميونيخ . ولعل السيدة المحترمة قد سمعت اسمي من السيدة ابنتها ـ » .

قال هذا كله بصوت مرتفع أو توكيد تكاد تخشنه لهجته العامية المقرقرة التي تتخللها مدات مفاجئة ، ولكن مع رمش من شقي العينين يدل على رفع الكلفة كأنه يعني : نحن متفاهمون...

وهنا نهضت القنصلة نهوضاً كاملاً ، وخطت نحوه برأس مائل الى جنب ويدين ممدودتين...

« السيد بيرمانيدر! أهذا أنت ؟ بالتأكيد حدثتنا ابنتي عنك . إني أعرف كم ساعدت على جعل اقامتها في ميونيخ مرضية مسلية... وأنت تقيم هنا في مدينتنا ؟ » .

فقال السيد بيرمانيدر(بلهجته العامية) وهو يتخذ مجلسه بقرب القنصلة على كرسي ساند : « أنت تعجبين ، أليس كذلك ؟ »

فسألته القنصلة (ولم تفهم لهجته) : « ماذا من فضلك ؟ » وكان قد جعل يدلك فخذيه المستديرتين القصيرتين بكلتا يديه راضياً...

فأجاب السيد بيرمانيدر (بكلام عامي آخر) وكف عن دعك فخذيه...

فقالت القنصلة : « جميل » وهي لاتفهم مايقول واتّكأت في مجلسها الى الوراء ويدها في حجرها تتظاهر بالارتياح . لكن السيد بيرمانيدر لاحظ ذلك فانحنى الى الأمام ورسم في الهواء دوائر بيده يعلم الله لماذا ثم قال وهو يبذل جهداً كبيراً : « إن السيدة المحترمة تتعجب من كلامي! » .

فردت القنصلة مسرورة : « أجل ، أجل ، ياعزيزي السيد بيرمانيدر .

وبعد أن انتهيا من هذا حلت فترة صمت قال السيد بيرمانيدر ، لكي يملأها ، وهو يتنهد تنهيدة حارقة (كلاماً آخر بنفس اللهجة العامية معناه) : « هم مقدر . أليس كذلك ؟ » .

فسألت القنصلة : «ماذا من فضلك ؟» وهي تحول بصرها جانباً شيئاً ما...

فأعاد السيد (نفس القول) بصوت جاوز الحد في الارتفاع والخشونة .

فقالت القنصلة مطيبة خاطره : «جميل» . وانتهيا بذلك من هذه النقطة .

واستطردت القنصلة تقول : «أتسمح لي أن أسألك : ما الذي جاء بك هذه الشقة البعيدة ياسيدي العزيز! إنها لرحلة شاقة من ميونيخ الى هنا...»

فقال السيد بيرمانيدر وهو يلوح بيده القصيرة في الفضاء هنا وهنا : «الأعمال . الأعمال أيتها السيدة المحترمة . مصنع البيرة في ڤالكميله!»

«آه صحيح ، أنت تتاجر في حشيشة الدينار ياعزيزي السيد بيرمانيدر «نوبه وشريكه» أليس كذلك ؟ ثق بأني سمعت من ابني من هنا وهناك الكثير السار عن متجرك» . قالت القنصلة هذا مجاملة له . لكن السيد بيرمانيدر دفع هذه المجاملة قائلاً : «هذا صحيح ، لاشك فيه . على أن المهم أنه كانت تحدوني الرغبة دائماً أن أزور دائماً السيدة المحترمة وألاقي مدام جرينليش! هذا هو السبب الحقيقي الذي جعلني لاأتهيب الرحلة!» .

فقالت القنصلة من قلبها : «أشكرك» ومدت اليه يدها كرة أخرى وهي تبسط راحتها بسطاً كبيراً ثم زادت على ذلك قولها : «لكنه ينبغي أن أخبر ابنتي!» ونهضت من مجلسها وخطت نحو مشد الجرس المطرز الذي كان يتدلى بجانب الباب الزجاجي .

فصاح السيد بيرمانيدر وقد استدار بكرسيه الساند نحو الباب : «أجل بالله! إن هذا ليوليني سروراً» .

وأمرت القنصلة الفتاة : «دعي مدام جرينليش تتفضل بالنزول ياعزيزتي» .

ثم عادت الى الأريكة وأدار السيد بيرمانيدر كرسيه على الأثر كما كان .

وكرر شارد الفكر : «سيوليني هذا السرور!» وجعل يتأمل توريق الحيطان والمحبرة الكبيرة المصنوعة من صيني سيفر والموضوعة على المكتب ، وقطع الأثاث ، ثمّ أخذ يكرر (بلهجته العامية كلاماً سبق أن قاله) ويدعك في خلال ركبتيه ، ويتنهد تنهداً عميقاً ، من دون سبب ظاهر . وقد شغل بهذا وقته تقريباً الى أن ظهرت مدام جرينليش .

من المؤكد أنها لم تسرف في زينتها . فقد كانت ترتدي ثوباً زاهياً وكانت تسريحتها منظمة ووجهها أنضر وأجمل من ذي قبل ، ولسانها يدور في زاوية فمها بمكر .

ماكادت تدخل حتى هبّ السيد بيرمانيدر وانطلق يلاقيها في حماسة هائلة . وقد انقلب كل شيء فيه الى حركة ، وقبض على كلتا يديها وهزهما وصاح : «نعم ، مدام

جرينليش! حياك الله! كيف كان حالك في تلك الأثناء! ماذا كنت تصنعين هنا طيلة الوقت ؟ يالله! إنني أجن من الفرح! أما تزالين تذكرين مدينة ميونيخ وجبالنا ؟ لقد كنّا في غاية الانشراح ، أليس كذلك ؟ هانحن أولاء نتلاقى ثانية! فمن كان يظن هذا ؟ »

وحيته توني من جانبها أيضاً بحفاوة شديدة وسحبت كرسياً الى جواره وجعلت تتحدث معه عن الأسابيع التي قضتها في ميونيخ ، وانساب الحديث دون عائق ، وتابعته القنصلة وهي تومىء الى السيد بيرمانيدر متساهلة مشجعة ، تترجم هذا أو ذاك من تعبيراته الى الألمانية الفصحى ، ثم تعود الى الإتكاء على الأريكة في كل مرة مسرورة من أنها فهمته .

وكان على السيد بيرمانيدر أن يوضح مرة أخرى لمدام جرينليش أيضاً سبب وجوده ، لكنه لم يعط في الظاهر لكلمة « أعمال » مع مصنع البيرة إلا القليل من الأهمية حتى بدا أنه لم يكن يبغي في الحقيقة شيئاً في المدينة ، على حين استفسر في اهتمام عن الابنة الثالثة وعن ولدي القنصلة ، وأسف كثيراً لغياب كلارا وكريستيان لأنه كانت تحدوه في كل وقت رغبة التعرف بأعضاء الأسرة جميعاً...

ولم يذكر إطلاقاً عن مدة إقامته في المدينة شيئاً معيناً ، لكنه لما لاحظت القنصلة · « إني أتوقع مجيء ابني في كل لحظة للإفطار يا سيد بيرمانيدر فهل تولينا سرور تناول لقمة بالزبد معنا... ؟ » قَبِل هذه الدعوة قبل أن تنطق بها وكان استعداده لهما ينم عن أنه كان يتوقعها

وجاء القنصل فوجد حجرة الإفطار خالية وظهر برداء المكتب مسرعاً ، مرهقاً ، متوتر الأعصاب بعض الشيء ليحث على تناول لقمة خاطفة... لكنه ما أن رأى ظاهرة الضيف الغريبة بدلايات ساعته الهائلة وسترته المصنوعة من الجوخ الخشن ولحية التيس القائمة فوق الهارمونيوم حتى رفع رأسه متنبهاً ، وما أن ذكر الاسم الذي طالما سمعه على لسان مدام أنتونيا كثيراً حتى حدج أخته بنظرة سريعة وحيا السيد بيرمانيدر بلطفه الآسر... ولم يجلس بل توجهوا في التو والساعة الى الطابق المتوسط حيث أعدت الآنسة يونجمان المائدة ، وسمعوا طنين الصنبور ـ وهو صنبور أصيل هدية من القس تيبورتيوس وزوجته .

قال السيد بيرمانيدر لما جلس وعرض لنخبة المأكولات الباردة على المائدة : « إنكم في نعمة! » وكان يستخدم في كلامه جمع المخاطب على الأقل في أبسط تعبير من وجهه .

وقال القنصل : « ليست هذه بيرة هوفبروي يا سيد بيرمانيدر ، لكنها على كل حال ألذ طعماً من بيرتنا الوطنية » . وصب له من نبيذ البورتو الأسمر المزبد الذي ألف نفسه أن يتناول منه في هذا الوقت .

فقال السيد بيرمانيدر وهو يمضغ : «أشكرك أيها الجار!» ولم يلحظ شيئاً من تلك النظرة المرعبة التي ألقتها عليه الآنسة يونجمان .وقد تناول من البورتو في شيء من التحفظ حمل القنصلة على أن تأمر بإحضار زجاجة من النبيذ الأحمر فازداد مرحه بصورة ملحوظة ، وجعل يعاود الحديث مع مدام جرينليش ، وكان يجلس مبتعداً عن المائدة كثيراً لبروز بطنه ، مباعداً بين ساقيه كثيراً ، مسقطاً إحدى ذراعيه القصيرتين بيده البيضاء السمينة عمودية على مسند الكرسي ، بينما ينصت الى كلام توني وإجاباتها ، مائلاً برأسه السمين ذي الشارب المشبه شارب كلب البحر جانباً ، معبراً بوجهه تعبيراً ينم عن الارتياح المشوب بالضيق ، طارفاً بشقي عينيه أمارة السذاجة .

وكانت توني تقطع له المشويات بحركات منمقة لم يتمرس بها ، ولاتتحفظ في كلامها عن هذا أو ذاك من تأملات الحياة .

قالت تشير الى إقامتها في ميونيخ : «ياالهي ، من المحزن حقاً يا سيد بيرمانيدر أن كل حسن وجميل في الحياة يمضي سريعاً!» ووضعت السكين والشوكة لحظة ورفعت بصرها الى السقف وعليها امارات الجد . هذا أنها كانت بين الحين والحين تحاول كذلك محاولات مضحكة لاتدل على ذكاء كما تتكلم بلهجة بفارية عامية .

ودق الباب أثناء الأكل وجاء صبي المكتب ببرقية قرأها القنصل وهو يمر طرف شاربه الطويل بين أصابعه ببطء ، ومع أنه كان يلاحظ أنه مشغول بمضمون البرقية فقد سأل خلال ذلك في أخف لهجة : «كيف تسير الأعمال يا سيد بيرمانيدر ؟»

ثمّ قال على الأثر للصبي : «حسن» واختفى الغلام .

فأجاب السيد بيرمانيدر : «آه ياصديقي» والتفت ناحية القنصل كما يتلفت عديم الحيلة ، فقد غلظت رقبته وتيبّست ، لكي يسقط على مسند الكرسي ذراعه الأخرى عمودية ، وقال : «ليس هناك مايذكر! فالحال في ميونيخ كَرِب» ـ وكان ينطق اسم مدينة آبائه دائماً بصورة تجعل المرء يحزر مايعنيه ولايصدقه ـ«ميونيخ ليست مدينة أعمال... فكل ينشد فيها راحته وقدح بيرته... والبرقيات لاتقرأ فيها أثناء الأكل... فعندكم هنا عادات أخرى حقاً!... أشكرك إنني آخذ كأساً أخرى...بلاء! إن شريكي نويه كان يفضل الذهاب الى نيرنبرج ، لأن البورصة هناك وروح المشاريع...لكني لاأغادر ميونيخ.. وليس هذا بجميل.. إنه... فهناك المنافسة السخيفة... والتصدير... إن أمره يبعث على الضحك... ففي الروسيا نفسها يريدون الشروع قريباً في زراعة النباتات» .

وفجأة ألقى على القنصل نظرة عجلى ملحوظة وقال : «كأني لم أقل شيئاً ياحضرة

الرفيق! إنه لعمل طيب! نجني المال من مصنع البيرة المساهم الذي يديره نيدر باور ، أتعلم ؟ كانت شركة صغيرة فيما مضى ، والآن نقرض ولنا أموال نقدية... ونرهن بأربعة في المائة... وبذا أمكننا توسيع بنائنا ، الآن نكسب كثيراً ونبيع كثيراً ولنا دخل سنوي» . وختم السيد بيرمانيدر ورفض شاكراً أن يأخذ سيجارة أو سجاراً ، وأخرج من جيبه بعد الاستئذان غليونه ذا الرأس القرني الطويل ، ودخل مع القنصل يحجبه دخان غليونه في حديث عن التجارة لم يلبث أن تحول الى السياسة فتناول علاقة بفاريا ببروسيا والملك ماكس والامبراطور نابليون... حديث كان السيد بيرمانيدر يتوبله بعبارات غير مفهومة إطلاقاً ، ويملأ فترات صمته بتنهدات لاصلة ظاهرة لها به .

وكانت الآنسة يونجمان تنسى من الدهشة ـ حتى حين تكون اللقمة في فمها ـ أن تمضي في المضغ فتنظر الى الضيف مذهولة وتتأمله بعينيها العسليتين البراقيتين ممسكة كما هي عادتها بالسكين والشوكة عموديتين على المائدة ، تحركهما هنا وهناك . فمثل هذه الألفاظ لم تسمعها هذه الحجرات من قبل ، ومثل هذا الدخان يتصاعد من غليون لم يلبد سماءها ، وعدم اللياقة في السلوك يصحبه الارتياح والضيق معاً غريبان عليها... وثابرت القنصلة بعد أن استعلمت في اهتمام عن الاعتداءات التي لابدّ أن هذه الطائفة الانجيلية الصغيرة تتعرض لها بين بابا وبين أقحاح ، على الاستماع للضيف في لطف من دون أن تفهم منه شيئاً . ولاح أن توني قد انتابها أثناء تناول الطعام شيء من التفكير والقلق . بيد أن القنصل كان في غاية التسلي ، بل لقد حمل أمه على أن تطلب إحضار زجاجة ثانية من النبيذ الأحمر وألحّ على السيد بيرمانيدر في زيارته في الشارع العريض قائلاً أن زوجه سوف تسر بهذه الزيارة سروراً كبيراً...

وبعد أن قضى تاجر حشيشة الدينار ثلاث ساعات منذ وصوله أبدى استعداده للانصراف ونفض غليونه وأفرغ كأسه وصرح بشيء ما عن «الصليب» ونهض وهو يقول : «لي الشرف ياسيدتي المحترمة . حفظك الله يامدام جرينليش... حفظك الله ياسيد بودنبروك» وارتعدت ايدا يونجمان في هذا الخطاب واحمر وجهها... وعند انصرافه قال لها : «طاب يومك ياآنسة... طاب يومك!...»

وتبادلت القنصلة وابنتها نظرة... بعد أن أعلن السيد بيرمانيدر عزمه على العودة الى النزل المتواضع النازل فيه على نهر ترافه .

فقالت السيدة المسنة وقد خطت نحو السيد بيرمانيدر كرة أخرى : «إن صديقة ابنتي التي تقيم في ميونيخ وزوجها بعيدان ، ولن تعرض فرصة في القريب للقيام نحوهما بواجب

الضيافة فلعلك ياسيدي تولينا مسرة إقامتك عندنا أثناء وجودك في المدينة... فإنك لتلقى منا إذن ترحيباً قلبياً... »

ومدت اليه يدها فانظر ماذا صنع : هز يدها موافقاً بلا تردد وقَبِل هذه الدعوة كما قَبِل الدعوة الى تناول الغداء بسرعة واستعداد ، وقبّل يد السيدتين ـ الأمر الذي بدا وجهه في خلاله غريباً تقريباً ، وأحضر قبعته وعصاه من حجرة المناظر الطبيعية ، ووعد مرة أخرى بأن يبعث بحقيبته في الحال ، وأن يكون ثانية في المكان في الساعة الرابعة بعد أن ينهي أعماله ، ورافقه القنصل الى تحت ، وعند الباب التفت مرة أخرى وقال وهو يهز رأسه في تحمس ساكن : « لاتؤاخذني ياحضرة الرفيق ، إن السيدة أختك « بنت لطيفة » فليحفظها الله! » واختفى وهو مايزال يهزّ رأسه .

وأحس القنصل ضرورة الصعود مرة أخرى الى الطبقة العليا للإطمئنان على السيدتين . وكانت ايدا يونجمان تجري هنا وهناك حاملة بياضات للسرير لتعد غرفة في الطرقة .

كانت القنصلة ماتزال جالسة الى مائدة الإفطار توجه بصرها الى بقعة في سقف الحجرة وتدق بأصابعها البيضاء على مفرش المائدة دقاً خفيفاً . وكانت توني جالسة الى النافذة شابكة ذراعيها لاتنظر يمنة أو يسرة بل تنظر أمامها في وقار وجد ، والصمت سائد .

وسأل توماس : « والآن » ؟ واقفاً بالباب يتناول سيجارة من العلبة المرسوم عليها المركبة ذات الجياد الثلاثة... وكانت كتفاه تتحركان وتهتزان من الضحك .

فأجابت القنصلة في سذاجة : « إنه رجل لطيف » .

فقال القنصل : « هذا رأيي! » ثم التفت ناحية توني التفاتة سريعة بالغة الكياسة تنطوي على الدعابة كأنما يسألها مع الاحترام التام عن رأيها هي أيضاً . فلزمت الصمت ، ونظرت أمامها في استقامة نظرة جدية .

واستطردت القنصلة وهي مهمومة بعض الشيء : « لكني أرى ياتوم أنه كان ينبغي أن يتخفف من اللعن ، فإذا كنت قد فهمته جيداً فقد كان يُستعمل ألفاظاً تدل على ذلك... »

« أوه . لابأس يا أماه فهو لايقصد بذلك سوءاً... »

« وهو أيضاً يسرف في التهاون قليلاً ياتوم ، أليس كذلك ؟ »

فقال القنصل : « ماذا تنتظرين ؟ إنه من ألمانيا الجنوبية » . ونفث دخان سيجارته في الغرفة متمهلاً وابتسم لأمه ، واستقرت عيناه خلسة على توني . فلم تلحظ القنصلة من ذلك شيئاً .

« إنك قادم اليوم مع جيردا ياتوم لتناول الطعام ، أليس كذلك ؟ فأولياني السرور » .

«حباً وكرامة ياأماه ، بكل سرور . إني لأمنّي نفسي من هذه الزيارة بغبطة كبيرة في الحق . ألست كذلك ؟ فهذا شيء يختلف بعض الشيء عن زوّارك من رجال الدين »...

«لكل أسلوبه ياتوم» .

«اتفقنا . إني ذاهب» ثمّ قال وهو ممسك بأكرة الباب : «على فكرة! لقد تركتي في نفسه أثراً حاسماً ياتوني! كلا ، بلا أدنى شك! أتعرفين كيف ذكرك تحت من هنيهة ؟ قال : «إنك بنت لطيفة» ـ هذه كلماته...»

هنا التفتت مدام جرينليش وقالت بصوت مرتجف : «حسناً ياتوم ، إنك تروي لي هذا وماكنت لأحظر عليك ذكره . لكني على الرغم من ذلك لاأعرف هل من اللائق أن تنقله الي . إني أعرف وأريد أن أذكر أن الأمر في هذه الحياة لايتوقف على أن يذكر شيء ويعبر عنه ، بل على النية فيه والشعور . وإذا كنت تسخر من كيفية تعبير السيد بيرماندر... إذا كنت تجده اضحوكة...» .

«من ؟ لكن ياتوني ، إني لاأفكر في هذا على الإطلاق! ففيم اهتمامك هذا الاهتمام...»

فقالت القنصلة : «حسبكما!» وحدجت ابنها بنظرة جادة متوسلة معناها ترفق بها!

فقال : «لاتغضبي ياتوني! إني لم أرد إغضابك . والآن إني ذاهب لأبعث أحد رجال المخازن بالحقيبة الى هنا...الى اللقاء!» .

الفصل الخامس

وانتقل السيد بيرمانيدر الى شارع منج . وأكل في اليوم التالي عند توماس بودنبروك وزوجه ، وتعرف في الثالث ، وكان يوم خميس ، بيوستوس كروجر وزوجه ، وبسيدات بودنبروك المقيمات بالشارع العريض ، وقد وجدنه مضحكاً الى أبعد حد... وبزيزيمي فيشبروت التي عاملته بشيء من القسوة ، وبكلوتيده المسكينة وايريكا الصغيرة اللتين نفحهما بقرطاس من «الحلوى» .

وكانت بتلك التنهدات القوية التي لم تكن تعني شيئاً والتي لاح أنها كانت في فيض شعوره بالإرتياح في حالة نفسية راضية لاينضب رضاها ، وبغليونه ولغته الغريبة وعدم ضجره من إطالة الجلوس في مكانه بعد وجبات طعام في وضع مريح غاية الراحة ، فكان يدخن ويشرب ويطيل الحديث . ومع أنه كان يضيف الى الحياة الهادئة في البيت القديم نغمة غريبة جديدة كل الجدة ، ويجلب بكيانه كله الى حجراته شيئاً يخالف العرف ، فإنه لم يؤثر في ذلك في عادة من العادات السائدة فيه . وقد كان مواظباً على حضور صلوات الصباح والمساء ، كما استأذن القنصل في الاستماع الى الدروس التي كانت تُلقى في أيام الآحاد . بل أنه ظهر في مساء أورشليم وبقي لحظة في القاعة ليقدم الى السيدات ، ثمّ انسحب لما بدأت ليا جيرهارت في قراءتها .

وسرعان ماعرفت ظاهرته في المدينة وتحدث الناس في البيوت الكبيرة عن ضيف آل بودنبروك القادم من بڤاريا مستطلعين . لكنه لم تكن له صلة لا بالبيوت ولابالبورصة . ولما كان القنصل قد تقدم واستعد معظم الناس للتوجه الى البحر فقد تحاشى القنصل تقديم السيد بيرمانيدر الى المجتمع . لكنه تفرغ للضيف في حرارة والتفات . وكان على الرغم من واجبات العمل وارتباطاته في المدينة يقتطع من وقته ليطوف به في المدينة ويريه معالمها

من العصرالوسيط ، كنائسها وأبوابها وفسقياتها وسوقها ودار بلديتها وجمعية ملاحيها ، ويسليه على جميع الوجوه وبكل صور التسلية ويعرفه مع ذلك في البورصة بأصدقائه الأقربين... ولما عرضت للقنصلة الأم مناسبة لشكره على روح التضحية فيه لاحظ في جفاء : «آه يأماه ، ما الذي لايفعله المرء...»

وتركت القنصلة هذه الكلمة بلا جواب الى حد أنها لم تبتسم ولم تحرك جفناً ، بل أجالت عينيها الصافيتين جانباً ، وسألت سؤالاً ما في مناسبة أخرى...

وقد كانت لطيفة مع السيد بيرمانيدر في غير غلو وهو مالم يمكن أن يقال عن ابنتها حتماً . وقد حضر تاجر حشيشة الدينار يومين من «أيام الأطفال» ـ ذلك أنه ، مع تلميحه عرضاً في اليوم الثالث أو الرابع لقدومه بأن عمله مع مصنع البيرة هنا قد أُدِّيَ ، كان قد تقضى في ذلك الحين أسبوع ونصف أسبوع -وفي كل من أمساء الخميس كانت مدام جرينليش تلقي نظرات عاجلة هيابة على دائرة الأسرة ، على خالها يوستوس وعلى بنات عمها بودنبروك أو على توماس ، كلما تكلم السيد بيرمانيدر أو تصرف . وكان وجهها يحمر أو تجلس دقائق طويلة جامدة صامتة أو تغادر الغرفة...

* * *

كانت الستائر الخضراء في مخدع نوم مدام جرينليش الكائن بالطبقة الثانية تتحرك حركة خفيفة من نسمات فاترة في ليلة صافية من ليالي يونيه ، لأن كلتا النافذتين في الغرفة كانتا مفتوحتين . وكانت فتائل عديدة صغيرة تحترق في زجاجة فوق طبقة من الزيت عائمة فوق الماء الذي كان يملأ نصف الزجاجة ، وترسل في الحجرة الكبيرة ذات المقاعد الساندة المنتصبة المغطاة بكسوة من التيل الرمادي صوناً لبخارها ، ضوءاً هادئاً ضعيفاً متناسباً . وكانت مدام جرينليش مستلقية في فراشها ، ورأسها الجميل غارق في الوسائد المحوطة بأكنرة عريضة من الدنتيلا ويداها متشابكتان فوق اللحاف . لكن عينيها ، وكانتا أكثر شغلاً بالتفكير من أن تغمض ، كانتا تتبعان حركات حشرة كبيرة طويلة على مهل ، كانت تحوم حول الزجاجة المضيئة بإصرار ، وجناحها يخفق مليون خفقة من دون أن يسمع لها صوت . وكان بجانب السرير على الحائط بين صورتين قديمتين منقولتين عن نحاسة محفورة ، ومناظر للمدينة من القرون الوسطى ، حكمة في إطار فحواها : «كل الى الله طريقك» . فهل هذا عزاء للمرء إذا مارقد حوالي منتصف الليل بعينين مفتوحتين ، وكان عليه أن يقرر ويفصل في حياته وفي غير حياته وحده وبلا مشورة ، بنعم أو لا ؟

كان السكون مخيماً ، لايسمع فيه سوى ساعة الحائط ، ثمّ نحنحة الآنسة يونجمان بين الحين والحين في الغرفة المجاورة التي لايفصلها عن مخدع توني سوى الستائر ، وكان الضوء هناك مايزال قوياً ، وكانت البروسية الوفية ماتزال جالسة منتصبة تحت المصباح المعلق الى المائدة التي تفتح وتقفل ، ترتق جوارب لايريكا الصغيرة التي كان يسمع تنفسها العميق وكانت الطفلة تقيم في شارع منج .

ونهضت مدام جرينليش قليلاً من فراشها وهي تتنهد ، واعتمدت رأسها بيدها .

وسألت بصوت مكبوت : « إيدا! أما زلت جالسة ترتقين ؟ »

فأسمعتها ايدا صوتها قائلة : «نعم ، نعم ياتوني ، ياطفلتي... نامي فقط ، فلابدّ من نهوضك غداً مبكرة ولن تكوني استكملت نومك» .

«حسناً يا ايدا... ؟ إذن أيقظيني غداً في السادسة!»

«آه ، إنني لن أنعس أبداً!»

«أي توني ، ليس هذا طيباً . فهل تريدين أن تتعبي في شفارتاو ؟ تناولي سبع جرعات من الماء ، ونامي على جنبك الأيمن وعدي الى ألف...»

«آه ايدا! أرجوك ، تعالي هنا قليلاً! فإني لا أستطيع النوم ، وهذا ما أريد أن أقوله لك . لابد لي من التفكير كثيراً وهذا يؤلم رأسي... انظري ، أظن أني محمومة ، ثم الى ذلك ، المعدة ثانية ، أو لعله فقر دم . ذلك أن العروق في سالفي نافرة جداً ، تنبض الى درجة الإيلام ، فهي مترعة الى هذا الحد ، وهو مالا يستبعد معه أن يكون الدم في الرأس مع ذلك أقل مما ينبغي...»

وتحرك كرسي ، وظهر بين الستائر شخص ايدا يونجمان العظمي القوي في ثوبها البني البسيط القديم الطراز .

«أي توني! حمى ؟ دعيني أجسك يا طفلتي . . . لنضع كمادات . . .»

ومشت بخطاها الثابتة المديدة قليلاً كخطى الرجال الى الخزانة وأخرجت منديلاً ، وغمسته في الطست ، وعادت الى الفراش ووضعته محاذرة على جبين توني ، ثم سوته مراراً بكلتا يديها .

«شكراً يا ايدا . لقد ارتحت... آه ، اجلسي الي قليلاً على حافة السرير يا ايدا الطيبة العجوز! انظري ، إني أفكر دائماً في غد... فماذا أصنع ؟ إن كل شيء يدور في رأسي» .

فجلست ايدا وتناولت ثانية ابرتها والجورب المشدود على كرة الرفو ، وفيما هي تميل

برأسها الأشيب الأملس وتتابع غرزها بعينيها العسليتين اللتين لاتكفان عن اللمعان قالت : «أتعنين أنه سيسأل غداً ؟»

«بالتأكيد يا ايدا! فليس في ذلك شك . إنه لن يفلت الفرصة . كيف كان أمر كلارا ؟ أيضاً في زوج كهذا... كان في مقدوري أن أتجنبه ، أترين ؟ كان يسعني أن أتمسك بالآخرين ولا أدنيه مني... لكن أوان هذا قد فات! إنه يسافر بعد غد ، هذا ماقاله ، ومحال أن يستطيع البقاء أطول مما بقي ، إذ لم يسفر الأمر عن نتيجة . فلا بدّ أن أقطع فيه عداً برأيي . . . فماذا أقول يا ايدا إذا سألني ؟! إنك لم تتزوجي بعد ، ومن ثم لاتعرفين الحياة حقاً . لكنك امرأة شريفة ، ولك عقل ، وقد بلغت الثانية والأربعين . أفلا تستطيعين أن تشيري علي ؟ إني في حاجة الى مشورتك...»

فتركت ايدا يونجمان الجورب يسقط في حجرها وقالت : «نعم ، نعم ياتوني لقد فكرت أيضاً في هذا طويلاً . لكن الذي أجده هو أنه لم يعد ثم مايشار به ياطفلتي ، إنه لايسعه الانصراف بعد الآن من دون أن يخاطبك ويكلم أمك . فإذا لم تبد موافقة فكان خليق بك أن تصرفيه قبل الآن» .

«أنت على حق يا ايدا ، لكنه ما كان يسعني أن أفعل ذلك ، ولامناص في النهاية من قضاء الأمر! بيد أني لاأزال أفكر في التراجع في يدي وأن الأوان لم يفت بعد! وهكذا أرقد وأعذب نفسي...» .

«أيمكن احتماله ياتوني ؟ أصدقيني القول!» .

«نعم يا ايدا وإلا لكنت كاذبة إذا أنكرت ذلك . إنه ليس جميلاً لكن الأمر في هذه الحياة لا يتوقف على الجمال . وهو رجل في قرارة نفسه طيب ولا يأتي سوءاً . صدقيني . وحين أفكر في جرينليش . . . يا إلهي! كان يقول دائماً إنه جاد وجاد ، ويخفي لؤمه بصورة ماكرة... لكن بيرمانيدر غيره ، أترين . إنه ، وأحب أن أقول ذلك ، أكسل من أن يفعل هذا وأسهل للحياة مأخذاً ، وهو مايعتبر من جهة أخرى عيباً . ولاشك أنه لن يصبح مليونيراً وأنه يميل الى أن يدع المقادير تجري في أعنتها والى استشارة الحظ في أموره كما يقولون هنا في الجنوب... ذلك أنهم جميعاً على هذا المنوال . هذا ما أردت أن أقوله يا ايدا . هذه هي المسألة . وفي ميونيخ ، حيث هو بين أمثاله ، بين أناس على شاكلته ، يتكلمون بلغته ، أحببته مباشرة ، إذ ألفيته لطيفاً ، رقيقاً ، مريحاً ، وألاحظ من فوري أن الأمر كان بيننا متبادلاً ـ ولعله قد ساعد هذا اعتقاده بأني امرأة غنية ، وأغنى مما أنا فيما أخشى . ذلك إن أمي لاتستطيع أن تعطيني كثيراً كما

تعرفين... لكني أعتقد أنه ليس لهذا تأثير عليه... فالسعي وراء المال الكثير ليس من وكده... كفى... ماذا أردت أن أقول يا ايدا ؟ »

« في ميونيخ ياتوني ، ولكن هنا ؟ »

« لكن هنا يا ايدا! أراك تلحظين ما أريد أن أقول . هنا حيث يبتعد عن بيئته الحقيقية وحيث كل شيء مختلف ، كل شيء أصرم وأكثر انطواء على الطموح والجد مثلاً... هنا لابد أن أخجل من تصرفاته . أجل إني أعترف لك بهذا صراحة يا ايدا ، فأنا امرأة صادقة ، إني أخجل منه ، ولعل هذا مني رداءة! أترين... لقد حدث بكل بساطة مراراً أن قال « لي » بدلاً من « ني » (خطأ نحوي) وهذا مايفعلونه في الجنوب يا ايدا . يقع ويحدث لأكثر الناس ثقافة حين يكونون في الكلام على سجيتهم ، فلا يؤلم أحداً ولايكلف شيئاً ، ويمر من دون أن يعجب منه أحد . لكن هنا تنظر إليه أمي شزراً ، ويرفع توم حاجبه ، ويتشجع خالي يوستوس ويسخر تقريباً ، كما هي حال آل كروجر دائماً ، وتلقي فيفي بودنبروك على أمها أو على فريدريكه أو هنرييت نظرة ذات معنى ، وأخجل أنا خجلاً شديداً ، يبلغ من شدته أن أود لو خرجت من الحجرة ، ولا أتصور عندئذ أني أستطيع أن أتزوج منه... »

« ماذا تقولين ياتوني! إنك ستعيشين معه في ميونيخ » .

« أنت على حق في هذا يا ايدا . والآن ستأتي الخطبة وسيحتفل بها ، الآن أرجوك ، عندما لايكون مناص من أن أخجل من نفسي أمام الأسرة وأمام آل كستنماكر ومولندروف وغيرهم دائماً لأنه قليل الوجاهة... أخ ، إن جرينليش كان أوجه منه يقابل ذلك أنه كان سيء السريرة كما كان السيد شتنجل يقول إذ ذاك دائماً على مايقال... ايدا ، إن رأسي يدور ، اغمسي الكمادة ، أرجوك » .

وعاودت الكلام فقالت : « لامناص في النهاية من أن يقضى الأمر » . وتلقت الكمادة الباردة متنهدة : « ذاك أن المهم ، الباقي مهما ، إني سأصبح زوجة من جديد ، وإني لن ألبث هنا بعد الآن امرأة مطلقة... أخ يا ايدا ، إني لامفر لي من العودة هذه الأيام الى التفكير فيما كان إذ ذاك حين ظهر هنا جرينليش أول مرة ، وفي المشاهد التي أثارها ـ لقد كانت فضيحة يا ايدا! ثم في ترافيمنده وآل شفارتسكوبف... » ونطقت هذا متمهلة ، واستقرت عيناها لحظة على الموضع المرفو في جورب ايريكا كأنها في حلم... ثم استأنفت الكلام : « وبعد ذلك الخطبة وايمز بيتل وبيتنا ـ لقد كان وجيهاً يا ايدا ، إنني حين أفكر في أردية نومي... لن تكون لي مثلها مع بيرمانيدر . إن الحياة تزيد المرء قناعة دائماً ، أتعرفين ـ والدكتور كلاسن والطفلة والمصرفي كيسلماير... ثم النهاية أخيراً ـ لقد كانت مرعبة

لاتتصورينها ، وحين يجرب المرء في الحياة مثل هذه التجارب المخيفة... لكن بيرمانيدر لن يأتي أعمالاً قذرة ـ إن هذا آخر ما أنتظره منه . وفي مكنتنا أن نعتمد عليه تجارياً ، ذلك أني أعتقد حقاً أنه يكسب من نويه في مصنع بيرة نيدر باور كثيراً تقريباً . وحين أصبح زوجة يا ايدا سترين ، سأعمل على أن يصبح أكثر طموحاً ، ويسير بنا قدماً ، ويجد ، ويكرمنا جميعاً ، لأنه يبيت في النهاية ملزماً متى ماتزوج من آل بودنبروك! »

وشبكت يديها تحت رأسها وتطلعت الى السقف .

وقالت : «لقد مضت الى الآن عشر سنوات على الأقل منذ زواجي بجرينليش... عشر سنوات! وقد بت في مثل هذا الوضع السابق وبات علي أن أعلن لآخر موافقتي من جديد . أتعلمين يا ايدا أن الحياة جد بالغ!... لكن الفرق هو أنه إذ ذاك كان الأمر هاماً ، وكانوا يلحون عليّ ويعذبونني وأنهم الآن يلتزمون الهدوء جميعاً ، ويرون أن من البداهة أن أقول نعم ، ذلك أنه يجب أن تعرفي يا ايدا أن هذه الخطبة لألويس ـ وأقول ألويس بالفعل ، لأنه لامناص في النهاية من أن يقضى الأمر ـ ليست بالشيء المبهج المفرح . ولايقتضي هنائي أن يكون هناك شيء من ذلك ، لأني بقبولي هذا الزواج الثاني أصلح الأول بكل هدوء وبداهة ، ذلك أن هذا هو ما أنتويه لاسم الأسرة . هكذا تفكر أمي وهكذا يفكر توم...» .

«ماذا تقولين ياتوني! إذا أنت لم تريديه ، وإذا هو لم يسعدك...»

«ايدا ، لقد خبرت الحياة ولم أعد بالفتاة الغبية . وعيناي في رأسي . إن أمي... وهذا ممكن ، قد تلح في هذا ، لأنها تصرف النظر عن الأشياء غير المضمونة وتقول : «كفى . أما توم فيريده . فأنا أعرف توم ، فلن تعرفيني به! أتعلمين ماذا يفكر توم ؟ إنه يفكر : كل واحد ، كل واحد لايكون حتماً عديم اللياقة . ذلك أن الأمر هذه المرة لايتعلق بزواج لامع ، بل بإصلاح «غلطة» ذلك الحين بزواج ثان . هذا مايفكر فيه . فإنه بمجرد أن أقدم بيرنانيدر ، أجرى توم في سكون تحريات عن أعماله . وصدقي أنه لما جاءت النتيجة في مصلحته وباعثة على الاطمئنان عد المسألة منتهية...إن توم سياسي ، يعرف مايريد . من الذي أطار كريستيان.. إن الأمر لكذلك وإن كانت هذه الكلمة قاسية . ولماذا ؟ لأنه أحرج المتجر والأسرة . وهذا ماكنت خليقة أن أفعله من وجهة نظره يا ايدا ، لا بالأفعال والأقوال ، ولكن لمجرد أني امرأة مطلقة . وهو يريد أن تنتهي هذه الحالة . وهو في هذا محق ، ومن أجل هذا لايقل حبي له وأقسم بالله . وإني لأرجو أن يكون هذا بيننا متبادلاً . وأخيراً لقد كنت في كل هذه السنين أشتاق أن أخرج ثانية الى الحياة ، ذلك أني برمة بالإقامة مع أمي ، وليعاقبني الله إذا كنت أرتكب بهذا خطيئة ، لكني لاأكاد أبلغ الثلاثين وأشعر بأني شابة .

إن أنصبة الناس في الدنيا متفاوتة . فقد شاب شعرك بالفعل وأنت في الثلاثين . ويرجع هذا الى أسرتك والى خالك برال الذي مات كمداً...»

وظلت تتابع تأملاتها في هذه الليلة وتقول هنا وهنا : «لامناص في النهاية من أن يقضيَ الأمر» ثم غلبها النعاس ونامت خمس ساعات نوماً هادئاً عميقاً .

الفصل السادس

كان الضباب يخيم على المدينة لكن السيد لونجيه صاحب مركبات الأجرة في شارع يوحنا وقد أوقف بشخصه في شارع منج في الساعة الثامنة مركبة مما تركبه الجماعات مغطاة مكشوفة مع ذلك من كل الجوانب ، قال : «لن تمر ساعة حتى تطلع الشمس» فاستشعر الجميع الراحة من هذا القول .

وكانت القنصلة وأنتونيا والسيد بيرمانيدر وايريكا وايدا يونجمان قد أفطروا معاً ، وتلاقوا الواحد بعد الآخر في الرحبة الكبرى على أهبة الرحيل منتظرين جيردا وتوم . وكانت مدام جرينليش على الرغم من قصر الراحة التي نعمت بها بالليل . تبدو في أبهى منظر ، مرتدية ثوباً بلون الزبد ، ذا ربطة للرقبة من الأطلس . ويظهر أن الأخذ والرد قد انتهيا فيها الى نهاية ، ذلك أن إمارات الهدوء والطمأنينة والوقار كانت بادية على محياها وهي تتحدث مع الضيف وتزر قفازها الخفيف في تؤدة... فلقد عاودها الرضى الذي كان معهوداً فيها في الأيام الخالية ، وغمرها الشعور بأهميتها وأهمية القرار الذي طلب اليها اتخاذه والوعي بأنه قد حل يوم آخر يفرض عليها أن تتدخل في تاريخ أسرتها بقرار جدّي ، جعل قلبها يخفق عالياً . وقد رأت هذه الليلة في الحلم الموضع الذي انتوت أن تسجل فيه من أوراق الأسرة واقعة خطبتها ـ رأت هذا الموضع ماثلاً لعينيها . وهي واقعة محت ماحوته الأوراق من نقطة سوداء وجردتها من الأهمية ، وهاهي ذي الآن تترقب بسرور وقلق اللحظة التي يظهر فيها توم وتحييه بإيماءة جادة من رأسها...

وجاء القنصل مع زوجته متأخرين قليلاً ، لأن القنصلة الصغيرة لم تعتد أن تتم زينتها بهذا البكور . وكان منظره حسناً بادي المرح في بذته البنية الرائقة المخططة بالمربعات الصغيرة والتي تبدي قلابتها العريضة حرف الصدرية الصيفية . وقد ابتسمت عيناه لما أن

تبيّن ماعلا وجه توني من وقار ليس له مثيل . لكن جيردا التي كان جمالها المستسر العليل بعض الشيء ، نقيضاً غريباً لصحة نسيبتها النضرة ، لم يلح عليها شيء مما يبدي الناس في أيام الآحاد وعند الخروج الى النزهة من حالة معنوية راضية . ولعلها لم تنم نوماً كافياً . وقد جعل الليلاق الريان الذي كان يكون اللون الأساسي لثوبها وينسجم بصورة فريدة مع حمرة شعرها الغزيرالداكنة ، لون بشرتها أبيض مما هو وأكثر بعداً عن اللمعان . وكانت ظلال مزرقة تستقر في زاوية عينيها العسليتين المتلاصقتين تقريباً أعمق وأدكن مما هي في العادة... وقد قدمت جبينها ببرود الى حماتها لتقبله ، ومدت الى السيد بيرمانيدر يدها للتحية وهي تكاد تتهكم . وعندما رأتها مدام جرينليش أطبقت كفيها وصاحت بصوت مرتفع : «جيردا يا إلهي ما أجمل ما أصبحت ثانية ـ!» فردت على هذا الإطراء بابتسامة فحسب .

كانت تكره مثل مشروع اليوم كراهية شديدة وخاصة في الصيف ، وفي يوم الأحد على الأخص . وكانت ، وهي التي يظل مسكنها في الغالب مسدل الستائر في ضوء خاب ، والتي يندر أن تخرج ، تخشى الشمس ، والغبار ، وصغار المواطنين الذين يرتدون ملابس العيد ، ورائحة القهوة والبيرة والتبغ... وأبغض شيء اليها في هذه الدنيا التعجل والإزعاج . قالت لتوماس عرضاً لما وافق على الخروج الى شفارتساو والى «حرج المارد» كي يعرف ضيف ميونيخ شيئاً عن محيط المدينة القديمة أيضاً : «ياصديقي العزيز ، أنت تعلم كيف ركبني الله ، فقد قدر لي الراحة والحياة العادية فأنا في هذه الحالة لم أخلق للتعجل والتغيير . فأنتم تتصرفون في ، أليس كذلك ؟...»

وما كانت لتتزوج منه لو لم تكن واثقة من موافقته على جوهر هذه الأمور .

«حقاً ياجيردا ، أنت محقة ما في ذلك شك . وإنه لوهم محض في الغالب أن يتسلى المرء بمثل هذه الأشياء... لكن المرء يشاطرهم إياها ، لأنه لايحب أن يبدو أمام الغير وأمام نفسه مخالفاً . ومثل هذا العجب مما يحدو كل أحد ، أفلا يحدوك ؟ والمرء بغير ذلك يقع في وحدة صورية وشقاء صوري ، ويكفر عن ذلك بشيء من اعتباره . ثم إن هناك شيئاً آخر ياعزيزتي جيردا... إننا جميعاً عندنا مايدعونا الى خطب ود السيد بيرمانيدر قليلاً . ولست أشك في أن هذه الحالة قد فاتتك . فإن هناك شيئاً يتكون ، وليكونن من المؤسف ألا يتم هذا الشيء...»

«إني لاأرى ياعزيزي الى أي حد يكون حضوري.. ولكن على كل حال ما دمت ترغب في هذا فليكن ماتريد . ولندع هذه التسلية تكن من نصيبنا» .

«سأكون مديناً لك» .

وخرجا الى الشارع... وحقاً لقد بدأت الشمس تشرق خلل ضباب الصباح . وفي كل يوم أحد تدق الأجراس في كنيسة مريم . وتملأ الجو سقسقة العصافير . ورفع الحوذي قبعته . وأومأت اليه القنصلة محيية بقولها : «عم صباحاً أيها الرجل العزيز!» يحدوها في هذه التحية حسن الإرادة الذي يحدو رب الأسرة ، وهو ما أحرج توماس بعض الشيء . واستطردت القنصلة : «اصعدوا اذن يا أعزائي! لقد كان الوقت وقت عظة الصباح ، لكنا اليوم نريد أن نحمد الله بقلوبنا في طبيعته الطلقة . أليس كذلك يا سيد بيرمانيدر ؟»

«حقاً ياحضرة القنصلة» .

وتسلقوا الدرجين المقصدرتين من الباب الخلفي الضيق الى المركبة التي كانت خليقة أن تسع عشرة أشخاص ، وارتاحوا فوق الحشايا التي كانت مخططة بالأزرق والأبيض اكراماً للسيد بيرمانيدر على التحقيق ، واصطفق الباب ، وسأسأ السيد لونجيه بلسانه ، وصاح صيحات السوق المختلفة فانطلقت خيوله البنية العضلة بالمركبة هابطة شارع منج وعلى امتداد ترافيه ، فمارة بباب هولشتين ، ثم عرجت بعد ذلك يميناً على طريق شفارطاو السلطاني ماضية في سبيلها...

حقول ومراعٍ وأشجار وبيوت ريفية... وقبرات يسمعون أصواتها يبحثون عنها في الضباب الضارب الى الزرقة الذي كان يرتفع ويرق على الدوام . وكان توماس يدخن السجائر ويتلفت حوله بانتباه كلما مروا بحقول الغلال ، ويرى السيد بيرمانيدر كيف هي . وكان تاجر حشيشة الدينار في معنوية الشباب حقاً ، وقد وضع قبعته المزدانة بلحية التيس منحرفة بعض الشيء ، وجعل يوازن عصاه ذات القبضة القرنية الضخمة فوق راحة يده العريضة البيضاء ، بل فوق شفته السفلى ـ لعبة كانت تقابل على الأخص من ايريكا الصغيرة بالتصفيق على الرغم من اخفاقه فيها على الدوام ، وكان يعيد مراراً قوله : «لن يكون ذلك قمة اتسوج(١) . لكننا سنتسلق قليلاً ويغمرنا الدفء وتحدث لنا بعض الفصول الفكهة ـ بعض الحكايات ، يامدام جرينليش!» .

ويشرع بعد ذلك في الكلام بحرارة عن جماعات التسلق الذين يحملون الخرجة على ظهورهم ويمسكون بمشطات الثلج ، فتقابل القنصلة حكاياته بالإعجاب ، ثم يبدي أسفه

(١) Zugspitze جبل في سلسلة جبال الألب البفارية ارتفاعه ٢٦٨٩ متراً .

لغياب كريستيان الذي سمع أنه سيد محب للمرح والفكاهة ، معبراً عن أسفه بكلماتٍ مؤثرة متابعاً مجرى ما لأفكاره .

فيقول القنصل : «هذا يختلف . لكنه في مثل هذه المناسبات عديم النظر ، هذا صحيح» . ـ وصاح القنصل منبسطاً : «سنأكل كابوريا ياسيد بيرمانيدر وجنبري من بحر البلطيق ، وقد ذقتها عند أمي مرات . لكن صديقي ديكمان صاحب مطعم «الحرج المارد» يقدم منها دائماً صنفاً ممتازاً ، وجوز خبز الزنجبيل المشهور في هذه الناحية! أو إن شهرته لم تصل بعد الى نهر ايزار ؟ سوف تراه» .

وأمرت مدام جرينليش مرتين أو ثلاثاً بوقف المركبة لتقطف عند حافة الطريق بعض أزهار الخشخاش والحبوب ، فكان السيد بيرمانيدر في كل مرة يلح الحاحاً شديداً في وجوب مساعدتها ، لكنه كان يحجم مع ذلك عن هذه المساعدة لأنه يخشى دخول المركبة والخروج منها .

وكانت ايريكا تبتهج بكل غراب يطير ، وايدا يونجمان التي كانت كعادتها ترتدي معطف مطر طويلاً مفتوحاً في الجو الأمين ، وتحمل مظلة ، كانت توافق بوصفها مربية أطفال حقة وتماشي حالات الأطفال النفسية لا في الظاهر فحسب بل تشعر كذلك بشعورهم وتسايرهم بضحكة صاهلة في غير تهيب ، حتى أن جيردا التي لم ترها وهي تشيب في أحضان الأسرة ، كانت تتأملها مراراً وتكراراً بشيء من البرود والدهشة .

وبلغوا ناحية هامبورج وتراءت أشجار الزان ، وسارت المركبة تخترق الناحية عبر ميدان السوق بفسقيته ، ثم بلغت العراء ثانية ودرجت عبر الجسر القائم على النهير . ووقفت أخيراً أمام محل «حرج المارد» المؤلف من طبقة واحدة . وكان يقع على جانب من ميدان منبسط يغطى الكلأ مساحات منه ، وتخترقه ممرات رملية وأحواض من النبات ، وفي الجانب الآخر من الميدان ترتفع الغابة على هيئة مدرج تتصل كل من طبقاته بالأخرى بدرج مرصوف رصفاً غير متقن استعملت فيه جذور أشجار ناتئة وحجارة بارزة ، وصفت على طبقات المرج بين الأشجار موائد مدهونة بالأبيض ومقاعد مديدة ، وكراسي .

ولم يكن آل بودنبروك أول الضيوف ، وكانت بضع فتيات بدينات ، ونادل أيضاً يرتدي فراكاً مدهناً ، يرحن ويغدين مسرعات فوق الميدان يحملن الأطعمة الباردة والمشروبات الرطبة واللبن والبيرة الى الموائد القائمة في عل يجلس اليها عدة أسر بأطفالها على مسافات متباعدة .

وتقدم السيد ديكمان صاحب المحل نفسه بطاقيته المطرزة بالأصفر وأكمام قميصه

المرفوعة على باب المركبة ليعاون السادة على الهبوط ، وبينما انتحى لونجيه بالمركبة جانباً قالت القنصلة : « سنقوم الآن أولاً بنزهة على الأقدام أيها الرجل الطيب ، ونحب بعد ساعة أو ساعة ونصف أن نفطر فليكن تقديم الأكل الينا هناك من فضلك ولايكن مجلسنا أعلى مما ينبغي ، وأرى أن يكون في الطبقة الثانية... »

وزاد القنصل على ذلك قوله : « أرنا همتك يا ديكمان فمعنا ضيف مدلل... » فاحتج السيد بيرمانيدر قائلاً : « أبداً ، بيرة وجبن... »

بيد أن السيد ديكمان لم يفهم هذا بل أخذ يعدد بطلاقة سيالة : « كل ما هنا ياحضرة القنصل... كابوريا ، جنبري ، مقانق منوعة ، أجبان مختلفة ، ثعبان بحر مدخن وحوت سليمان مدخن وحنش مدخن... »

« حسناً يا ديكمان . سنفعل هذا ، وعندئذ أعطينا ستة أكواب من اللبن وبيرة سيدل إذا لم أخطىء ياسيد بيرمانيدر ، أليس كذلك ؟... »

« بيرة واحدة ، وستة لبناً... لبناً محلى ولبناً بالزبد بعد ساعة إذن » .

وعبروا الميدان .

وقال توماس : « علينا أولاً أن نزور المنبع ياسيد بيرمانيدر ، هو منبع « أو » . والأور هو النهير الصغير الذي تقع عليه شفارطاو والذي كانت تقع عليه مدينتنا في الأصل في العصر الوسيط المظلم الى أن احترقت ـ وماكانت لتدوم طويلاً ـ ثم أقيمت ثانية على نهر ترافيه . هذا الى أنه قد اقترنت باسم النهر ذكريات أليمة ، فقد كنا ونحن أطفال نجد من المضحك أن يقرص أحدنا الآخر في ذراعه وهو يسأله : « ماسم النهر القريب من شفارطاو ؟ فيصرخ المقروص بطبيعة الحال من الألم ناطقاً الاسم رغم أنفه... » وقاطع توماس نفسه فجأة وهو على مبعدة عشر خطوات من المصعد قائلاً : « هناك! لقد سبقونا . هاهم أولاء آل مولندروف وهاجنشتروم » .

وفي الواقع لقد كان فوق في الطبقة الثالثة من الشرفة المشجرة أهم أعضاء الأسرتين المتأصرتين على ماينفعهما ، جالسين الى مائدتين متلاصقتين يأكلون في حديث حفي . وكان يرأسهم السناتور مولندروف وهو سيد شاحب اللون ذو لحية عارضية بيضاء رفيعة ، مدببة ، ذات المقبض الطويل يحيط الشعر الأشيب برأسها منفوشاً كما هي عادتها . وكان ابنها أوغست موجوداً وكان شاباً أشقر الشعر ، حسن الهندام ، متزوجاً من جوليا هاجنشتروم التي كانت تجلس بين أخويها هرمان وموريتس صغيرة نشطة ذات عينين واسعتين لامعتين سوداوين ، في أذنيها ماستان كبيرتان في مثل حجمهما تقريباً .

وقد جعل القنصل هرمان هاجنشتروم يزداد بسطة في الجسم لأنه يعيش عيشة الترف . ويقال أنه يبدأ في الصباح بهريسة كبد الأوز . وكانت له لحية شقراء ضاربة الى الاحمرار يحتفظ بها قصيرة ، وأنفه ـ وهو أنف أمه ـ مفرطح فوق شفته العليا بشكل يلفت النظر . أما الدكتور مورنس وهو مسطح الصدر ، مصفر اللون ، فكان يبدي في حديثه أسنانه الحادة الفالجة . وكان مع الأخوين زوجتاهما . ذلك أن رجل القانون أيضاً كان متزوجاً منذ سنين من الآنسة بوتفاركن من هامبورج . وهي سيدة ذات شعر بلون الزبد ، وملامح وجه منتظمة خالية كل الخلو من الانفعالات ، مظهرها انجليزي لكنها رائعة الجمال . ذلك أن المعروف عن الدكتور هاجنشتروم أنه مثقف فلا يمكن أن يجمع بين ذلك وبين الزواج من فتاة دميمة . وأخيراً كانت إبنة هرمان هاجنشتروم الصغيرة وابن موتس هاجنشتروم الصغير حاضرين . وهما طفلان يرتديان ملابس بيضاء كأنهما من الآن خطيبان ، فلم يكن ينبغي أن تتبدد ثروة هونيوس وهاجنشتروم . . وقد تناول الجميع بيضاً مخفوقاً بلحم الخنزير .

وقد حيا أولئك هؤلاء لما أن أصبح آل بودنبروك وهم يصعدون على مقربة من هذه الجماعة ، فأحنت القنصلة رأسها قليلاً وهي مشتتة الفكر متعجبة في نفس الوقت ، ولوح توماس بقبعته محركاً شفتيه ، كأنما يقول شيئاً فيه مجاملة وفيه برود . وانحنت جيردا انحناءة الغريب من قبيل الرسميات . أما السيد بيرمانيدر وقد حركه الصعود فطوح بقبعته الخضراء غير هياب ،وصاح بصوت مرتفع مرح : «أتمنى لكم صباحاً سعيداً!» ـ فتناولت السناتورة مولندروف على الأثر نظارتها... بقيت توني وهذه رفعت كتفيها قليلاً وأطرحت رأسها الى الخلف وحاولت مع ذلك أن تضغط ذقنها على صدرها ، وحيّت ، متنزلة من علو لايدرك ، متخطية بالضبط قبعة جوليا مولندروف الأنيقة العريضة الحافة... في هذه اللحظة رسخ تصميمها نهائياً لايتزعزع .

«الحمد لله ياتوم وألف حمد ، إننا لن نفطر إلا بعد ساعة! فإني لاأحب أن ترعاني جوليا هذه على الأكل... هل لاحظت كيف حيّت ؟ كأن لم تحيّي تقريباً . وقد كانت قبعتها في رأيي الذي لايعتد به ، عديمة الذوق الى أبعد حد » .

«أما مايتعلق بالقبعة... أما التحية فلم تكوني أنت أيضاً أكثر منها تسامحاً ياعزيزتي . على أنه لاداعي الى سخطك ، فالسخط يحدث التجاعيد » .

«أسخط ياتوم ؟ كلا! وإذا زعم هؤلاء الناس أنهم فوق الغير لكان هذا باعثاً على الضحك لا على شيء آخر . فأي فرق بين جوليا هذه وبيني إذا جاز لي أن أسأل ؟ إنها لم

تتزوج لصاً بل تـزوجت عتلاً كما يمكن أن تقول ايدا . فلو كانت شغلت في الحياة مكاني لكان عليها أن تثبت هل تقع على زواج ثانٍ» .

«ما معنى أنك ستقعين من جانبك على زوج ؟» .

«على عتل ياتوماس ؟» .

«خير جداً من لص» .

«لاضرورة أن يكون هذا أو ذاك . لكنه لايصح الكلام في هذا» .

«صحيح . وقد تخلفنا أيضاً . والسيد بيرمانيدر يصعد بهمة...» .

وانبسط طريق الغابة الظليل ، ولم يطل وقت الوصول الى المنبع . وهي بقعة جميلة رومانتيكية ، فيها جسر خشبي قائم فوق هوة صغيرة ، ومنحدرات ذات وهاد وأشجار معلقة قد انكشفت أصولها . وجعلوا يغترفون بقدح فضي متداخل أحضرته القنصلة معها ، من حوض حجري صغير يقع رأساً تحت المخرج وينعشون أنفسهم بالماء المتجدد المشتمل على الحديد . والسيد بيرمانيدر في هذا قد أصابته نوبة من الكياسة ، فهو يصرعلى أن تذوق مدام جرينليش مشروبه قبل أن يحتسيه . لقد كان شاكراً كل الشكر ، يكرر القول بأن هذا بديع ، ويتحدث في انتباه والتفات مع القنصلة توماس ، ومع جيردا وتوني على السواء ، بل مع الصغيرة ايريكا أيضاً... حتى جيردا التي كانت الى الآن تعاني من التورد المفاجىء وينتابها اضطراب عصبي صامت جامد ، بدأت الآن تنتعش . ولما بلغوا المطعم ثانية بعد عودة عاجلة ، وجلسوا حول مائدة زاخرة فوق الطبقة الثانية من مدرج الغابة ، كانت هي من أبدى أسفه بعبارات ودية من أن سفر السيد بيرمانيدر قد بات بهذا القرب : الآن وقد عرف الواحد الآخر بعض المعرفة وأصبح من السهل جداً على سبيل المثال أن يلاحظ أن ماتسببه اللهجة العامية من سوء الفهم أو عدمه قد بات أندر مما كان... إنها ليمكن أن تكون على رأس من يزعم أن صديقتها ونسيبتها توني قد قالت بالعامية كلمة «حاشا لله» مرتين أو ثلاثاً في اتقان الأستاذ .

وقد تفادى السيد بيرمانيدر من أن يجيب أي جواب يؤكد كلمة «السفر» ، بل حرص على التهافت على اللذاذات التي حفلت بها المائدة والتي لم تكن مما يتيسر له كل يوم في ذلك الجانب من نهر الدانوب .

وكانوا يلتهمون الأطايب في رفق ، وكانت ايريكا الصغيرة أشد في الغالب سروراً بالفوط المصنوعة من الورق الحريري التي كانت تبدو لها مما لاتدانيه فوط المنزل المنسوجة من التيل ، فدست منها في جيبها بعد استئذان الندل بضعاً على سبيل التذكار .

وجلست الأسرة مع ضيفها وقتاً أطول تتحدث اليه ، بينما كان يدخن في تلك الأثناء العديد من السيجار الأسود وهو يتناول البيرة ، ويدخن القنصل لفائف تبغه ، ـ بيد أن الجدير بالملاحظة أن أحداً لم يعد يفكر في رحيل السيد بيرمانيدر ، وأن المستقبل لم يتناول بكلمة . وأولى من هذه تبادلهم الذكريات وتحدثهم عن الحوادث السياسية في السنوات الأخيرة . وبعد أن اهتزّ السيد بيرمانيدر من الضحك على نوادر وقعت في سنة ١٨٤٨ مما حكته القنصلة عن المرحوم زوجها بدا هو يقص عن ثورة ميونيخ وعن لولامونتز التي أثارت اهتمام مدام جرينليش الى أقصى حد . لكنه لما تقضت الساعة الأولى بعد الظهر شيئاً فشيئاً وعادت ايريكا مجهدة محملة بأنواع الأزهار والأعشاب والحشائش من جولة مع ايدا ، وذكرتهم بجوز الزنجبيل الذي كان عليهم أن يشتروه نهض الجميع للقيام بجولة في المكان... بعد أن دفعت القنصلة الحساب بقطعة ذهبية ليست بالصغيرة ، إذ كان الجميع اليوم ضيوفها .

وقد صدر الأمر أمام المحل بأن تكون المركبة جاهزة بعد ساعة ، ذلك أنه أريد أن ينعموا بالراحة قليلاً في المدينة قبل المائدة ، ثمّ ساروا متمهلين لأن الشمس كانت صاخدة فوق التراب ، واتّجهوا نحو البيوت المنخفضة في تلك البقعة .

وانتظم الترتيب من نفسه بعد جسر «أو» مباشرة من دون كلف واستمر على حاله أثناء الطريق ، فسارت الآنسة يونجمان في المقدمة لاتساع خطاها وبجانبها ايريكا التي لم يدركها التعب من القفز ، ولم تكف عن اصطياد فراشة الكرمب ، ثمّ تبعتها القنصلة وتوماس وجيردا معاً ، وآخراً ، وعلى بعد ما مدام جرينليش والسيد بيرمانيدر . وكانت تقوم في المقدمة ضجة من هتاف الفتاة الصغيرة ومصاحبة ايدا لها بصهيلها الغريب في عمقه المنطوي على الطيبة . وفي الوسط كان الثلاثة يلازمون الصمت ، لأن جيردا كانت قد عاودها اليأس بصورة عصبية من جراء الغبار ، ولأن القنصلة وابنها كانا يفكران . كذلك كان الهدوء يسود المؤخرة... ولكن في الظاهر ، لأن توني والضيف القادم من بفاريا كانا يتحدثان حديثاً مكتوماً خاصاً . ـ نعم كانا يتكلمان ؟ عن السيد جرينليش...

فقد لاحظ السيدبيرمانيدر ملاحظة سديدة هي أن ايريكا لطيفة ، وطفلة حبيبة جميلة ، لكنها على الرغم من ذلك تكاد لاتشبه السيدة أمها . فأجابت توني على هذه الملاحظة بقولها : « إنها أبوها بالضبط . ويمكن القول ليس مما يضيرها لأن جرينليش كان في الظاهر رجلاً ماجداً ـ (جنتلمان) في كل ماهو حقيقي! فقد كانت له لحية عارضية ذهبية اللون فريدة كل الفرادة ، ولم أر قط مايشاكلها... » ومع أن توني كانت قد قصت عليه حكاية زواجها عند

نيدر باور بميونيخ ولم تغفل منها شيئاً تقريباً ، فقد عاد يستعلم كرة أخرى عن كل شيء ويتحرى بالتفصيل عن كل تفاصيل الإفلاس وهو يطرف بعينيه قلقاً مشاطراً إياها .

قالت : «لقد كان انساناً ردیئاً ياسيد بيرمانيدر أو لما استردني أبي منه . صدقني في هذا . وليس كل الناس فوق هذه الأرض طيبي القلب ، فهذا ماعلمتني الحياة إياه ، على الرغم من أني مازلت شابة بهذا القدر ، وأني لبثت منذ عشر سنوات بلا زواج أو مايشبه ذلك . لقد كان رديئاً ، وكان مصرفيه كيسلماير شراً منه ، وكان غبياً كل الغباوة كالكلب الصغير . ولكن هذا لا ينبغي أن أعني أني أعد نفسي ملاكاً وأني مبرأة من كل عيب . . فلا تسئ فهمي! لقد أهملني جرينليش فكان إذا جلس مرة معي ينصرف الى قراءة الصحف ، وكان يخاتلني ويدعني ألازم ايمز بيتل لأني كنت خليقة في المدينة أن أعرف المستنقع الذي يتردى فيه... لكني لست سوى امرأة ضعيفة ، ولي أخطائي ، وأنا واثقة من أني لم أحسن التصرف دائماً . ولأضرب لك مثلاً : لقد أعطيت زوجي سبباً للهم والشكوى برعونتي وميلي للاسراف وتعلقي بأردية النوم الجديدة . لكني يصح أن أضيف الى ذلك شيئاً هو أن لي عذري ، فقد كنت ما أزال طفلة حين تزوجت ، كنت مخلوقة غبية بلهاء . فهل تصدق على سبيل المثال ، أني لم أعلم إلا قبيل خطبتي أنه جددت قبلها بأربع سنوات قوانين للاتحاد تتناول الجمعيات والصحافة . وهي على فكرة قوانين جميلة!... أي نعم ، إن من المحزن حقاً أن يعيش المرء مرة واحدة ياسيد بيرمانيدر ، وإنه لايستطيع أن يبدأ الحياة مرة أخرى ؟ فلو استطاع لكان خليقاً أن يكون أحسن تصرفاً من ذي قبل...»

وسكتت وخفضت من بصرها فوق الطريق قلقة ، إذ أتاحت له في خرق نقطة ارتكاز ، ذلك أن التفكير كان قريباً من أنه ، إن كان بدء حياة جديدة كل الجدة محالاً ، لم يكن بدء زواج جديد خير من الأول من المحال . بيد أن السيد بيرمانيدر ترك الفرصة تمر ، واجتزأ بأن ينحي على السيد جرينليش بألفاظ شديدة نفرت في أثنائها «الشامة» التي على ذقنه الصغير المستدير... «هذا المخلوق التافه ، البغيض ، الكلب ـ هذا الوغد الذي أتمنى لو لطمته» .

«خسئاً ياسيد بيرمانيدر : لا ، لا . يجب أن تكف عن ذلك . إننا نريد أن نصفح وننسى . ولندع لله أمره فهو المنتقم وحده... سل أمي... وقانا الله ... إني لا أعلم أين يقيم جرينليش ، وما حاله في الحياة ، لكني أرجو له كل خير وإن لم يستحق» .

وبلغا المكان ، وكانا فيه يقفان أمام البيت الصغير الكائن فيه دكان الخباز ، وكفا عن السير من دون أن يشعرا تقريباً ، ورأيا بأعين جادة شاردة ايريكا وايدا والقنصلة وتوماس

وجيردا منحنين يختفون من خلال باب الدكان المنخفض بشكل غريب دون أن يسأل أحدهما الآخر كيف كان ذلك . فقد كانا منهمكين الى هذا الحد في حديثهما ، لم يتناولا في هذا الحديث الى ذلك الحين سوى أشياء سطحية ليس فيها غناء .

وكان الى جانبيهما سياج يجري على امتداده حوض مزروع مستطيل ضيق تنمو فيه بليحاء وتحرث مدام جرينليش تربته الرخوة السوداء بطرف مظلتها بنشاط زائد ، ورأسها الذي كان يجري فيه الدم حامياً ، مائل الى جنب . وكان السيد بيرمانيدر واقفاً ملاصقاً لها ، قد انحدرت قبعته الصغيرة الخضراء المزدانة بلحية التيس فوق جبينه ، يشترك هنا وههنا في العبث بعصاه بخندق الحوض . وكذلك كان هو مطأطاً رأسه ، لكن عينيه الصغيرتين الرائقتين في زرقتهما ، المنتفختين ، اللتين غمرهما اللمعان وانتابهما الاحمرار قليلاً ، كانتا تنظران اليها من تحت الى فوق بمزيج من الإخلاص والكدر والقلق ، نفس التعبيرالذي كان يتدلى به فوق فمه شاربه المفتول .

قال : «هاأنت ذي تخشين الزواج ، ولاتريدين محاولته مرة أخرى أليس كذلك يامدام جرينليش... ؟ »

فقالت في نفسها : ما أقل لباقته! أيجب أن أكد وأجابت : «أجل ياسيد بيرمانيدر ، إني أعترف صراحة أنه سوف يشق عليّ أن أقول لأحد «نعم» مرة أخرى ، لأرتبط مدى الحياة . ذلك أني تعلمت أن مثل هذا القرار بالغ الجد . ثم أن الأمر يتطلب الى هذا اقتناعاً ثابتاً بأن الأمر أمر رجل حكيم حقاً ، كريم ، طيب القلب...»

وهنا سمح لنفسه بأن يسألها هل تعده مثل هذا الرجل ، فأجابت : «نعم ياسيد بيرمانيدر ، إني أعدك مثل هذا الرجل» .

ثم تلا ذلك بضع كلمات خافتة وجيزة تتضمن العهد ، وللسيد بيرمانيدر الاذن بأن يخاطب في الأمر القنصلة وتوماس في البيت...

ولما عاد بقية أعضاء الجماعة الى الظهور في العراء محملين بعدة قراطيس من جوز الزنجبيل أجال القنصل عينيه خفية فوق رأس الاثنين . ذلك أنهما كانا شديدي الارتباك : السيد بيرمانيدر من دون أن يحاول إخفاء ذلك ، وتوني مصطنعة وقاراً يقرب من الجلال .

وأسرع الجميع الى اللحاق بالمركبة ، لأن السماء كانت ملبدة بالغيوم وبعض المطر كان يساقط .

* * *

كان توماس كما افترضت توني قد قام بعد حضور السيد بيرمانيدر بقليل ، بتحريات دقيقة عن مركزه في الحياة أسفرت عن أن «اكس نويه وشريكه» متجر محدود نوعاً ما ، لكنه متين كل المتانة ، وأنه بالاشتراك بالعمل مع شركة البيرة المساهمة التي يرأسها السيد نيدباور كمدير يربح ربحاً طيباً ، وأن نصيب السيد بيرمانيدر إذا ضم اليه بائنة توني وهي ١٧٠٠٠ ريال ، يضمن لهما حياة مشتركة مما يحياها موسرو الطبقة الوسطى من دون ترف . وقد أحيطت القنصلة علماً بذلك ، وسويت كل المسائل من دون عقبات في حديث مفصل جرى بينهما وبين السيد بيرمانيدر وأنتونيا وتوماس مساء يوم الخطبة في حجرة المناظر الطبيعية . وقد تناولت هذه المسائل ايريكا الصغيرة التي تقرر بناء على رغبة توني وموافقة من خطيبها كان لها أثر طيب في النفس ، أن تنتقل بالمثل الى ميونيخ .

وبعد ذلك بيومين سافر تاجر حشيشة الدينار ـ «حتى لايسب نويه» ـ ، لكنه في شهر يوليه عادت مدام جرينليش معه بالفعل الى مدينة آبائه مع توم وجيردا التي رافقتها الى حمام كرويت لأربعة أسابيع أو خمسة ، بينما بقيت القنصلة مع ايريكا وايدا يونجمان على بحر البلطيق . هذا الى أنه قد عرضت لكلا الزوجين في ميونيخ فرصة معاينة البيت الذي كان السيد بيرمانيدر على وشك أن يشتريه في شارع كاوزنجر ـ وهو قريب جداً من آل نيدر باور ، وكان السيد بيرمانيدر ينوي أن يؤجر معظمه . بيت غريب ، قديم ، له درج ضيق يؤدي خلف الباب رأساً وفي خط مستقيم الى الطبقة الأولى من دون بسطة أو تعريج كأنه سلم الى السماء . فإذا بلغ المرء هذه الطبقة عرج من الجانبين الى الخلف عبر الطرقة الى الحجرات الواقعة على الواجهة .

وفي منتصف أغسطس عادت توني الى بيتها لتتوفر على إعداد جهازها خلال الأسابيع التالية . وقد كان الكثير منه موجوداً منذ عهد زواجها الأول ، لكنه كان لابد من إكماله بمشتريات جديدة . وفي يوم من الأيام وصل من هامبورج حيث تستورد بعض أشيائها ، رداء نوم بالذات ، غير مكلف بالمخمل طبعاً ، لكنه مستكمل بأشرطة من القماش .

وفي أوان متقدم من الخريف عاد السيد بيرمانيدر الى شارع منج ، إذ لم يرد إرجاء الموضوع أطول من ذلك...

أما ما يتعلق بحفلات الزفاف كما توقعت توني بالضبط وكما لم ترد عليه ، من دون اسراف . فقد قال القنصل : «دعونا من الفخفخة . فأنت تتزوجين للمرة التانية ، والمسألة من البساطة بحيث يمكن أن تعدى كما لو كنت لم تكفي قط عن أن تكوني زوجة» . اللهم إلا القليل من بطاقات الخطبة ، وقد حرصت مدام جرينليش على أن تتلقى إحداها جوليا

مولندروف ـ وهي من أسرة هاجنشتروم . وقد غض الطرف عن رحلة شهر العسل لأن السيد بيرمانيدر كان يكره مثل هذا . وتوني ، وقد عادت من أمد قريب من المصيف ، قد وجدت أن السفر الى ميونيخ أبعد مما يجب . أما الزواج الذي لم يجر هذه المرة في بهو الأعمدة بل في مكانه في كنيسة مريم ، فقد تمّ في دائرة عائلية ضيقة . وقد ازينت توني بزهر البرتقال بدلاً من الآس وكان عليها سيماء الوقار . ووعظ كبير القسس كولنج بصوت أوهن بعض الشيء من ذي قبل ، ولكن في عبارات قوية ، وعظ بالاعتدال كمألوف عادته .

وقد عاد كريستيان من هامبورج أنيق الملبس الى حد بعيد ، متوعكاً بعض الشيء لكنه مرح ، يروي أن عمله مع بورمستر على مايرام ، ويعلن أنه وكلوتيده سيتزوجان أول مايتزوجان «هناك فوق» لكن «كل لذاته!» وجاء الى الكنيسة متأخراً جداً ، لأنه كان في المنتدى . وقد تأثر الخال يوستوس جداً ، وكان كريماً كعادته حين أهدى الى الزوجين الحديثين صينية من الفضة الثقيلة ، جميلة جداً... وكان وزوجه يتضوران في البيت جوعاً تقريباً ، لأن الأم الضعيفة كانت تدفع من مخصصات المنزل كعادتها دائماً ديون يعقوب المطرود ، المحروم من أمد من الميراث ، والمقيم على ما اتّصل بهم في باريس في الآونة الراهنة . ـ وقد لاحظت سيدات بودنبروك القاطنات في الشارع العريض : «لعلها تثبت هذه المرة» . والسيء في هذا هو شك الجميع في هل كنّ يتمنّين هذا حقاً... وقد همت زيزيمي فيشبروت على أطراف أصابعها وقبلت تلميذتها التي أصبحت من الآن مدام بيرمانيدر في قرقعة خفيفة فوق جبينها وقالت بألفاظها العامرة بالإخلاص : «لتكن السعادة من نصيبك أيتها الطفلة الطيبة!» .

الفصل السابع

في تمام الساعة الثامنة صباحاً جعل القنصل بودنبروك بمجرد أن غادر الفراش ونزل من الدرج الحلزوني خلف البوابة الصغيرة الى القبو ، وأخذ حماماً ، وارتدى رداء نومه ثانية . جعل يشتغل بأمور عامة ، إذ ظهر عندئذ السيد ڤنتسل الحلاق وعضو مجلس المواطنين في حجرة الحمام ، بيديه الحمراوين ووجهه الذكي يحمل قدراً فيه ماء دافىء أحضره من المطبخ واليه اللوازم الأخرى . وبينما جلس القنصل طارحاً رأسه الى الوراء في كرسي ساند كبير أخذ السيد فنتسل يرغي الصابون ويتجاذب معه أطراف الحديث جرياً على عادته دائماً تقريباً ، مبتدئاً براحة الليل والجو ، متنقلاً بعد ذلك الى حوادث العالم الكبير ، متناولاً على الأثر شؤون المدينة الخاصة . وكان من شأن هذا كله أن يطيل أجل مهنته إذ كان لابدّ للسيد فنتسل كلما تكلّم القنصل أن يرفع الموس عن وجهه

« هل نمت جيداً ياحضرة القنصل ؟ »

« شكراً يا ڤنتسل . الجو حسن اليوم ؟ »

« صقيع ، وقليل من الضباب الثلجي ياحضرة القنصل . وقد اختط الأطفال ثانية محطة تزحلق في شارع جاكوب طولها عشرة أمتار حتى لقد كدت أرتطم بها وأنا قادم من عند المحافظ . لعنهم الله!... »

« هل قرأت الصحف ؟ »

« الإعلانات وأنباء هامبورج ، نعم . وليس فيها سوى قنابل أورسيني.. شيء مخيف . وفي الطريق الى دار الأوبرا... جماعة لطيفة... »

« أظن ألا أهمية لذلك ، فليس للشعب دخل به . ولن يكون له من تأثير سوى مضاعفة رجال البوليس وزيادة الضغط على الصحف وماشاكل... إنه حذر... وهذا اضطراب أبدي حقاً ،

ذلك أنه لابدّ له على الدوام من اللجوء الى مشروعات للثبات في وجه الأحداث ، لكني أحترمه مهما يكن من أمر . ولايسع المرء على الأقل أن يتهاون في التقاليد كما تقول الآنسة يونجمان . وقد أعجبني في الحق ما أتخذ حيال صندوق المخابز وأسعار الخبز الرخيصة على سبيل المثال . إنه يعمل الكثيرللشعب بلا مراء...»

«نعم هذا ما قاله أيضاً السيد كيستنماكر من قبل» .

«ستيفان ؟ نعم لقد تكلّمنا أمس في ذلك» .

«وفريدريك ڤلهلم ملك بروسيا . إن حالته سيئة ياحضرة القنصل . ولن يصبح بعد شيئاً مذكوراً . إنهم يقولون أن الأمير ينبغي أن يكون الوصي نهائياً...»

«أوه . ماذا ترى يكون من هذا الأمر . لقد ظهر من الآن بمظهر الرجل الحر ، ڤلهلم هذا . وهو على التحقيق لايقف من الدستور موقف المشمئز الخفي الذي وقفه أخوه . وليس في النهاية سوى الأسى مايجنيه هذا الرجل المسكين... هل من جديد في كوبنهاجن ؟ »

«لاشيء ياحضرة القنصل . إنهم لايريدون . لقد أعلن الاتحاد أن الدستور العام لهولشتين ولاونبورج غير شرعي... وأولئك الذين هم في عليائهم ليسوا بكل بساطة ممن يحملون على إلغائه...»

«نعم ياڤنتسل . إن هذه لبلية . إنهم يتحدون البندستاج أن ينفذ ، آه لو كان كل شيء من الهمة... أجل هؤلاء الدنيماركيون! إني لأذكر جيداً كيف كان يضايقني وأنا غلام صغير شطرة من الشعر الغنائي مطلعها : «هبني وهب كل الذين* يشتاقون من القلب» . فكنت أتخيل الدانيماركيين هم المعنيين «بالذين» ولاأتصور كيف يهب الله الدانيماركيين شيئاً...»

«انتبه الى الموضع المعاكس يا ڤنتسل! أتضحك ؟ والآن ثانية الى سكة حديد هامبورج المباشرة . لقد كلفتنا كفاحاً ديبلوماسياً ، وستكلفنا فوقه حتى يمنحونا في كوبنهاجن الامتياز...»

«أجل يا حضرة القنصل . والسخيف أن شركة سكة التونا - كيل الحديد وهولشتين بأسرها إذا أنعمنا النظر ، تعارضان . هذا ماقاله المحافظ الدكتور أوڤر أيضاً من قبل . فإن خوفهم لشديد من نهضة كيل...»

«مفهوم ياڤنتسل . فمثل هذا الربط الجديد بين بحر البلطيق وبحر الشمال... وسترى أن شركة التونا ـ كيل لن تكف عن الدس ، ففي إمكانها مد سكة للمزاحمة في شرق

---

* «للذين» تكتب بالألمانية Denen وكلمة «الدانيمركيون» تكتب Daenen ونطق الكلمتين واحد ، ومن هنا اللعب بالألفاظ .

هولشتين أو بين نويمنسر ونويشتات . أجل ، فهذا ليس بمستحيل . لكنه لايصح أن نتراجع ، والسفر مباشرة الى هامبورج مما يجب أن يتم » .

« إن حضرة القنصل يناصر المشروع بحرارة » .

« مادام هذا في استطاعتي ، وعلى قدر مايصل اليه نفوذي الضئيل... إني مهتم بسياستنا الخاصة بالسكك الحديد ، وهذا تقليد عندنا ، فقد كان أبي في مجلس إدارة سكة بوخن منذ سنة ١٨٥١ . وهذا هو السبب في أني قد أنتخبت لهذا المجلس وأنا في الثانية والثلاثين . ومالي من أعماله فيه ليس بعد بالكثير... »

« أوه ، ياحضرة القنصل ، بعد خطبة حضرة القنصل آنئذ في مجلس المواطنين... »

« حقاً لقد كان لهذه الخطبة بعض الوقع . والإرادة الحسنة موجودة على كل حال . ولايسعني إلا أن أشكر الله على أن أبي وجدي وجدي الأكبر قد مهدوا لي الطريق ، وأن ماأحرزوه من ثقة واعتبار في المدينة قد انتقل الي بلا عناء ، وإلا لما وسعني أن أقوم بما أقوم به... فما الذي ، على سبيل المثال ، لم يعمله أبي بعد سنة ١٨٤٨ وفي بداية هذه السنوات العشر لإصلاح البريد عندنا! فكّر ياڤنتسل كيف حثّ مجلس المواطنين على توحيد مركبات هامبورج السريعة والبريد ، وكيف أنه في سنة ١٨٥٠ حث في مجلس الشيوخ الذي كان إذ ذاك في حالة من البطء لاتتفق ومسؤوليته كل الاتفاق ، على الانضمام الى اتحاد البريد الألماني النمسوي... فإذا كان قد بات لنا الآن تعريفة منخفضة للرسائل والطرود وطوابع البريد وصناديقه والمواصلات التلغرافية مع برلين وترافيمنده ، فإنه ليس بآخر من يشكر على ذلك . وإذا لم يكن هو وآخرون ألحوا على مجلس الشيوخ الحين بعد الحين لكنّا لبثنا الى الأبد متخلفين عن البريد الدانيماركي وبريد تورن وتاكس . والآن إذا ما أبديت رأيي في مثل هذه المسائل وجدت من يستمع اليّ... »

« وهذا مايعلمه الله ياحضرة القنصل ، إن حضرة القنصل يقول الصدق . أما مايتعلق بسكة حديد هامبورج فإنه لم تمر ثلاثة أيام على قول المحافظ الدكتور أوڤرديك لي : لو أصبحنا بحيث نستطيع شراء قطعة أرض لمحطة السكة الحديد في هامبورج ، فسنرسل القنصل بودنبروك مع من نرسل ، فالقنصل بودنبروك يحتاج اليه في مثل هذه المفاوضات أكثر مما يحتاج الى آخرين قانويين... هذه كانت كلماته... »

« إن هذا إطراء شديد لي ـ لكن ضع هنا فوق الذقن بعضاً آخر من الرغوة فيجب أن ينعم هذا الموضع أكثر » .

« صفوة القول أننا يجب أن نعمل! لاشيء ضد أوڤرديك ، لكنه الآن قد بلغ السن ، فلو

أصبحت محافظاً لسار كل شيء أسرع قليلاً مما يسير . هذا ماأراه . ولست أستطيع أن أقول أية ترضية أحسها من أن أعمال الإضاءة بالغاز قد بدأت ، وأن مصابيح الزيت الخطرة بسلاسلها تختفي أخيراً . ولي أن أعترف بأني ساهمت بعض الشيء في هذا النجاح... وأي شيء غير موجود للعمل! إن الوقت يتغير ياڤنتسل ، وعلينا الكثير من الواجبات نحو العصر الجديد . وإذا أنا فكرت في صباي الأول... أنت تعرف خيراً مني كيف كانت الأمور تجري عندنا : الشوارع بلا أرصفة ، والحشائش نابتة بين قطع البلاط ، وللبيوت مبان أمامها ، وبها ملاحق ومقاعد... ومبانيها التي ترجع الى القرون الوسطى قد قبح شكلها بما زيد عليها ، وتفتت بعضها ، ذلك أن الناس أفراداً كان عندهم مال ، ولم يكن منهم من يجوع ، لكن الدولة كانت فقيرة ، وكل شيء كان يجري مجراه كما يقول صهري بيرمانيدر ، ولم يكن يفكر في اصلاح . كانت إذ ذاك أجيال سعيدة تعيش في رغد ، وكان صديق جدي الحميم جان جاك هوفشتيده الطيب يتجول متنزهاً ويترجم أشعاراً غير لائقة عن الفرنسية... لكنه لم يمكن على الدوام أن تجري الأمور على هذا المنوال . فقد تغير الكثير وسيتغير دائماً أكثر... فلم يعد عدد سكاننا ٢٧٠٠٠ بل أصبح فوق الخمسين ألفاً كما تعلم ، وطبيعة المدينة تتغير . فعندنا مبان جديدة ، وعندنا الضواحي الممتدة والشوارع الجيدة ، ونستطيع أن نعيد تماثيل عصرنا العظيم الى أصلها . بيد أن هذا في النهاية إنما هو في الظاهر فحسب . ولايزال معظم ماهو أهم باقياً لم يتم ياعزيزي ڤنتسل . ها أنذا قد وصلت ثانية الى ما كان يقول المرحوم والدي : هذا رأيي . الاتحاد الجمركي يا ڤنتسل يجب أن ننضم إلى الاتحاد الجمركي ، فلم يعد يجمل أن تظل هذه المسألة معلقة... يجب عليكم جميعاً أن تساعدوني ، إذا أنا جاهدت في هذا السبيل... فإني بوصفي تاجراً ، وصدقني في ذلك ، أعرف خيراً مما يعرف الديبلوماسيون . والخوف من أن ندفع الثمن من استقلالنا وحرّيتنا مضحك في هذا الصدد . فداخل البلد ومكلنبورج وشلزڤيج هولشتين ستفتح لنا أبوابها ، وأدعى الى أن نتمنى هذا أننا لم نعد نسيطر على تعاملنا مع الشمال كل السيطرة كما كانت الحال من قبل... كفى!...» وختم القنصل كلامه بقوله : «أعطني الفوطة من فضلك ياڤنتسل» .

وحينما كانت ماتزال هناك كلمة تقال عن الأسعار الحالية للحنطة السوداء التي تقف عند ٥٥ ريالاً ـ وكانت تميل دائماً الى الهبوط بصورة لعينة ـ أو لعله ماتزال هناك ملاحظة تبدى عن حادث عائلي وقع في المدينة ـ إذ ذاك اختفى السيد ڤنتسل في القبو ليفرغ وعاء الرغاوي البيضاء على بلاط الشارع ، وصعد القنصل الدرج اللولبي الى مخدع النوم حيث قبل جيردا فوق جبينها ، وكانت قد استيقظت في تلك الأثناء ، وارتدت ملابسها .

كانت هذه الأحاديث الصباحية الصغيرة مع الحلاق الميقظ تؤلف المدخل الى أنشط الأيام وأحفلها بالعمل ، أيام مفعمة بالتفكير والكلام والمساومة والكتابة والحساب والذهاب والإياب . ويرجع الفضل في أن توماس بودنبروك كان في محيط أقل الرؤوس اشتغالاً بالشؤون المحلية الى رحلاته ومعلوماته ومصالحه . ولاشك أنه كان أول رأس يشعر بضيق الأحوال التي يعيش فيها وضآلتها . لكنه في الخارج ، في وطنه الأوسع تلت النهضة التي ألمّت بالحياة العامة والتي جاءت بها سنوات الثورة ، فترة من التراخي والجمود والتراجع أقفر من أن تشغل ذهناً حياً . وهنا كان له من الروح ما يجعل من حكمة الأهمية الرمزية المحضة لكل عمل إنساني حقيقته المحببه اليه ، ويكرّس كل ماينطوي عليه من إرادة ومقدرة وحماسة وهمة فعالة لخدمة الصالح العام الذي يذكر في دائرته اسمه في مقدمة الأسماء ـ وكذلك لخدمة هذا الاسم ولوحة المتجر التي ورثها... روح كانت كافية لأن يبتسم لطموحه الى رفع شأن هذه اللوحة وتقوية سلطانها في أدق الأمور والى أن ينظر اليه في نفس الوقت نظرة جدية .

وما أن تناول إفطاره في قاعة الطعام ، وقد قدم اليه أنطون ، حتى أخذ في ارتداء ملابسه للخروج . وقد توجه الى مكتبه في شارع منج ، ولم يمكث هنا أكثر من ساعة كتب في خلالها اثنتين أو ثلاثاً من الرسائل والبرقيات العاجلة ، ثم هذه أو تلك من التعليمات ، ودفع بالمثل دولاب العمل الكبير دفعة صغيرة ، ثم عهد الى السيد ماركوس بالإشراف على سير العمل يرعاه بنظرته الجانبية الحذرة .

وظهر للناس ، وتكلم في الجلسات والاجتماعات ، وقضى في البورصة برهة تحت البوائك القوطية الطراز في ميدان السوق ، وقام بتفتيشات في الميناء وفي المخازن ، وفاوض الربابنة بوصفه من أصحاب السفن ، ثمّ تلا ذلك طائفة من الأعمال لم يقطعها إلا إفطار ثان خاطف مع القنصلة الأم وغداء مع جيردا قضى بعده نصف ساعة على الأريكة يدخن سيجارته ويقرأ الصحف . وقد استمرت هذه الأعمال الى المساء فكانت تتناول تجارته الخاصة وشؤون الجمارك والضرائب والبناء والسكك الحديد والبريد والخيرات ، كما تتناول مناطق ليست في الحقيقة من شأنه بل هي في العادة من شأن «العلماء» فيلقي عليها نظرة . والمسائل المالية خاصة من الأمور التي لمعت فيها موهبته بسرعة .

وقد كان حريصاً على ألا يهمل حياة المجتمع . وحقاً أنه كان في هذا الصدد لا يحافظ على مواعيده كثيراً فيظهر دائماً في اللحظة الأخيرة حين تكون زوجته في ثياب السهرة وتكون المركبة تحت في انتظاره من نصف ساعة ، يعتذر لجيردا بأعماله ويرتدي فراكه على

عـجل . لكنه في المكان وفي مـآدب العـشـاء وفي المرافص والمجتـمـعـات المسـائيـة كـان يحرص على أن يكون محدثاً لطيفاً... ولم يكن هو وزوجته دون غيرهما في البيوت الموسرة الأخرى مظاهر استقبال . فقد كان مطبخه وقبوه في رأي الناس من الطبقة الأولى ، وكانوا يقدرون فيه المضيف الرقيق المعتني الملتفت ، وكانت الفكاهة التي تصاحب أنخابه فوق المتوسط . أما الأمسية الهادئة فكان يقضيها في صحبة جيردا ، فينصت ، والسيجارة في يده ، الى عزفها على الكمان ، أو يقرأ معها في كتاب قصصاً ألمانية وفرنسية وروسية تختارها...

على هذا النحو كان يعمل ، فانتزع النجاح ، ذلك أن اعتباره كان يزداد في المدينة وأن المتجر مرت به سنون من اليسر على الرغم مما استنفد استقرار كريستيان وزواج توني الثاني من رأس المال . على أنه في هذا كله وجدت أشياء كانت تثبط من همته ، وتضير مرونة ذهنه وتكدّر نفسيته .

كان كريستيان في هامبورج حيث أصيب شريكه السيد بورميستر بالسكتة القلبية فجأة في ربيع هذه السنة ١٨٥٨ . وقد سحب ورثاؤه في الشركة ما يخص المتوفى من رأس المال ، ونهى القنصل أخاه عن المضي في إدارة المتجر برأسماله هو ، وألح عليه في ذلك ، لأنه يعلم جيداً كيف أنه من الصعب أن يمسك عمل قد اقطع منه الجزء الأكبر ، برأس مال انتقص منه الكثير على حين بغتة . لكن كريستيان أصرّ على الاستمرار مستقلاً ، وتولى ما لشركة هـ . ت . ف . بورميستر وشريكه وما عليها... فكان يخشى أن يقع ما لايسر .

كذلك شقيقة القنصل كلارا في ريجا ـ حقاً إنه لم يكن ثمة ضير في أن زواجها من القس تيبورتيوس لم يبارك بالأولاد ، ذلك أن كلارا بودنبروك لم تشبه الولد قط ، ولم يكن لها بلا ريب من عاطفة الأمومة إلا قليل القليل . لكن صحتها ، كما جاء في رسائلها ورسائل زوجها ، لم تكن على مايرام وكان ينقصها الكثير .وما كانت تكابده وهي فتاة صغيرة من آلام المخ قد جعل ، كما قيل ، يظهرأحياناً بصورة دورية وبدرجة تكاد لاتحتمل .

وقد كان هذا باعثاً على القلق ، بيد أن هماً ثالثاً تجلى في أن هنا أيضاً ، على المكان ، لم يكن دائماً مايبعث على الاطمئنان على استمرار اسم الأسرة . وقد عالجت جيردا هذا الموضوع في اتزان من له السيادة والسلطان وبعدم اكتراث بلغ مرتبة الرفض والنفور . وقد كتم توماس همه ولكن القنصلة الكبيرة تولت الموضوع وانتحت بجرابو جانباً وقالت له : «يادكتور! ليكن هذا بيننا! إن شيئاً يجب أن يحدث ، أليس كذلك؟ إن قليلاً من هواء الجبل في كرويت وقليلاً من هواء البحر في جليكسبورج أو ترافيمنده يلوح أنه غير نافع في

هذه الحالة ، فماذا ترى ؟...»

وقد وصف جرابو بيرمون وشلانجن باد لأن وصفته المريحة أي الحمية الشديد المؤلفة من قطعة من الحمام وقطعة من الخبز فرانتس لم تكن تفيد في هذه الحالة الفائدة المرجوة .

هذه هموم ثلاثة . وتوني ؟- مسكينة توني!

الفصل الثامن

كتبت تقول : «إذا قلت[١] Frieadellen لم تفهمها لأنها هنا تسمى غير ذلك وإذا قالت Karfiol لم يوجد بسهولة إنسان مسيحي يمكن أن يدرك أنها تعني «قنبيط» وإذا قلت «بطاطس محمرة» جعلت تصيح : «مـ... اذا» وتظل تكررها حتى أقول لها : «محمصة» بدلاً من المحمرة . ومعنى الكلمة التي تكررها «أفندم» وهذه هي خادمة ثانية ، لأن الأولى التي كانت تسمى كاتي قد سمحت لنفسي بطردها من البيت لأنها سرعان ما كانت تسيء الأدب ، أو هذا في الأقل ما كان يبدو لي ، وقد أكون على خطأ ، كما يمكن أن يتبين لي فيما بعد . والحق أني لا أميز هنا بين أن يكون المرء خشناً أو يكون لطيفاً . أما الحالية واسمها «بابيته» وتنطق «بابيت» فذات مظهر حسن ، وفيها كل ما في الجنوب ، كما هي حال البعض هنا : شعر أسود وعينان سوداوان وأسنان يمكن أن تحسد عليها . وهي الى ذلك مطيعة وعلى استعداد لأن تطهو تحت إرشادي بعض ألوان الطعام مما يطهى في بلدنا . وقد أعدت لنا أمس صنفاً سبب لي هماً كثيراً ، لأن بيرمانيدر رأى في تقديم هذه الخضر إساءة له حتى ظل طيلة ما بعد الظهر لا يبادلني كلمة بل يدمدم فحسب . ويمكنني يا أماه أن أقول أن الحياة ليست دائماً سهلة» .

على أن صنوف الخضر هذه لم تكن وحدها التي جعلت حياتها مرة... فإنها في شهر العسل نفسه صدمت صدمة لم تكن في حسابها أو تدر في خلدها أو تدركها ، حادث سلبها كل مسرة ولم تستطع إفاقة منه . وكان كما يلي :

كان الزوجان بيرمانيدر قد قضيا في ميونيخ بضعة أسابيع إلى أن استطاع القنصل

---

(١) كبيبة من اللحم .

بودنبروك الإفراج عن بائنة أخته المحددة في الوصية وهي ٥١٠٠٠ مارك ، محولة الى جولدنات ، آيلة أيضاً الى يد السيد بيرمانيدر وقد أودعها السيد بيرمانيدر إيداعاً أميناً فيه المصلحة . أما ماقاله بعد ذلك لزوجه من دون تردد أو احمرار وجه فقد كان هذا : «تونرل ـ فهو يناديها بتونرل ـ تونرل ، هذا بالضبط ماأريد ، ولن نحتاج الى أكثر . وقد كنت أكد دائماً ، والآن أريد أن أستريح . سنؤجر الدور الأرضي والطبقة الأولى . وهنا مسكن لنا طيب . نستطيع أن نأكل لحم الخنزير ، ولانحتاج في كل وقت الى العناء والتعب... . وفي المساء نذهب الى بيرة هوفبروي . إني لست ممن يباهون بالثراء . ولاأحب أن أجمع المال في كل وقت ، فأنا أحب الراحة! فمن الغد سأختم وأصبح من ذي الإيراد! »

فصاحت لأول مرة بصوت حلقي خاص جداً كانت تنطق به اسم السيد جرينليش في العادة : «بيرمانيدر! » فلم يرد عليها إلا بقوله : «دعك ، وكوني عاقلة! » لكنه نشب بينهما شجار جاء مبكراً ، وكان في عنفه وجده خليقاً أن يزعزع هناء الزوجية الى الأبد... . وقد خرج من هذا الشجار مظفراً ، وانهارت مقاومتها الشديدة بإصراره على مطلب الراحة . وكانت النهاية محتومة في أن السيد بيرمانيدر صفى ماكان أودعه من رأس المال في تجارة حشيشة الدينار بحيث أمكن السيد نويه أن يشطب بالقلم الأزرق كلمة «شريكه» من بطاقته... وقصر زوج توني كغالبية أصدقائه الذين كان يلعب معهم الورق على مائدتهم الخاصة في مبيرة هوفبروى ، ويحتسي لتراته الثلاثة بانتظام ـ قصر عمله على رفع الإيجار كمالك وعلى اقتطاع الكوبون لاقتضاء الربح في تواضع وهدوء .

وقد أبلغت القنصلة هذا بكل بساطة... لكنه في الرسائل التي كانت مدام بيرمانيدر تخطها الى شقيقها كان الألم الذي تحسه بيناً... مسكينة توني! لقد تجاوز الأمر أسوأ ماكان يساورها من مخاوف . فقد كانت تعلم سلفاً أن السيد بيرمانيدر لم يكن يتحلى بشيء من ذلك «الجد» الذي كان يبديه زوجها الأول . لكنه خيب أملها في كل ماتوقعته وما كانت لاتزال تبديه للآنسة يونجمان ليلة خطبتها . أما أن ينكر كل الإنكار تعهداته التي أخذها على عاتقه يوم تزوج من سيدة آل بودنبروك فما لم يخطر لها ببال .

وهذا أمر يجب التغلب عليه ، فقد تبينت أسرتها من رسائلها كيف استسلمت له . فهي تعيش مع زوجها وايريكا التي تذهب الى المدرسة عيشة تكاد تكون رتيبة ، وتحافظ على مكانة بيتها ، وتخالط الناس الذين يقيمون في الدور الأرضي والطبقة الأولى كمستأجرين وتتودد اليهم ، كما تخالط أسرة نيدر باور المقيمة في ميدان ماريا ، وتبلغ أهلها بين الحين والحين عن زياراتها للمسرح الملكي «هوف تياتر» التي تقوم بها مع صديقتها إيفا ، ذلك

أن السيد بيرمانيدر لايحب مثل هذه الأشياء . وقد ثبت أنه وقد أصبح عمره في ميونيخ «الحبيبة» أكثر من أربعين سنة لم يشهد قط متحف البيناكوتيك من الداخل .

ومرت الأيام... لكن المسرة الحقة التي كانت توني خليقة أن تحسها في حياتها الجديدة قد ذهبت منذ أخلد السيد بيرمانيدر الى الراحة عقب تلقي بائنتها وتبدد أملها . ولن يكون في مكنتها أن تنبيء أهلها بتوفيق يحالف بيتها أو رفعة . وكما هي الآن لاتحمل هماً ولكن مضيّق عليها ، لاتلوح عليها سيماء الوجاهة إلا قليلاً ، قد كتب عليها أن تظل الى آخر حياتها على حال واحدة . لقد كانت تنوء بهذا ، وكانت رسائلها تبدي بوضوح أن هذه النفسية غير المرتاحة كانت تجعل تأقلمها في جنوب ألمانيا أمراً عسيراً . حقاً لقد كان هذا التأقلم يتم في الجزئيات ، وقد تعلمت كيف تتفاهم مع الخادمات والموردين وأن تقول شيئاً آخر لم تألفه بدلاً من Frieadellen وأن تكف عن تقديم حساء الثمار الى زوجها بعد أن أنحى باللائمة على مثل هذه الأشياء . لكنها في الجملة ظلت غريبة في موطنها الجديد . ذلك أن شعورها بأن انتسابها الى آل بودنبروك الذي لاوزن له هنا في الجنوب كان معناه مذلة دائمة لها لاتنقطع . وإذ روت في رسائلها أن رجلاً من البنائين قد خاطبها في الشارع وفي إحدى يديه جرة تسع لتراً وفي الأخرى فجلة يمسك بها من أطرافها ، وقال لها : «كم الساعة من فضلك ياصديقتي!» كان هذا على الرغم مما فيه من دعابة مدعاة للشعور القوي بشيء من الغضب المكبوت . وقد كان من الهين أن يعتقد المرء أنها أطرحت رأسها عندئذ الى الوراء ولم تجبه برد أو نظرة... هذا الى أن هذا الخروج وهذا الفهم القليل للفروق لم يكن وحده ما استغربته واستثقلته : إنها لم تتغلغل في حياة ميونيخ ومعيشتها ، لكنه كان يحيط بها مع ذلك جو ميونيخ ، جو المدينة الكبرى الزاخر بالفنانين والمواطنين العاطلين . جو قلت فيه الحشمة ومنعها كثيراً من أن تكون على سجيتها إذا ما أرادت أن تتذوق الفكاهة .

ومرت الأيام... ثم ظهر مع ذلك أن هناءً يريد أن يحل ، هناء هفت النفوس اليه في الشارع العريض وشارع منج عبثاً ، فإنه لم ينقض على عيد رأس سنة ١٨٥٩ كثيراً حتى بات الأمل حقيقة ، وأصبحت توني تنتظر أن تكون أماً للمرة التانية .

وقد نبضت الفرحة في رسائلها أيضاً وكانت حافلة بعبارات تنطق بالغطرسة والصبيانية والاعتداد بالنفس ـ الأمر الذي كانت كفّت عنه من أمد طويل . وقد أسفت القنصلة لاضطرارها الى البقاء بعيدة عن ابنتها في هذا الوقت وكانت بغض النظر عن رحلاتها الصيفية قد باتت تزداد اقتصاراً على شاطيء بحر البلطيق وكراهية للرحلات ، وقد أكدت لها كتابة أن الله سيكون معها . لكن توم وجيردا أعلناها بأنهما سيحضران التعميد . وكان رأس توني

ملیئاً بالخطط ترسمها لاستقبالهما استقبالاً وجيهاً . مسكينة توني! لقد قدر لهذا الاستقبال أن يكون محزناً الى أبعد حد ، ولهذا التعميد الذي تمثلته في خاطرها حفلاً صغيراً سارا مزداناً بالزهور ومحلى بالحلوى والشكولاته ألا يقع إطلاقاً ، ـ ذلك أن المولودة قد قدّر لها أن تدخل هذه الدنيا لتفارقها بعد ربع ساعة ضنيل كان الطبيب في خلاله يجاهد على غير جدوى في سبيل بقاء هذا الكائن الصغير غير الصالح للبقاء .

ووجد القنصل بودنبروك وزوجه لما جاءا الى ميونيخ أن توني نفسها في خطر ، ترقد في أشد من حالة وضعها الأول وكثيراً وتأبى معدتها ــ التي تعاني بين الحين والحين من ضعفها العصبي ـ تقبّل أي غذاء تقريباً .

وشفيت في تلك الأثناء وأمكن الزوجان بودنبروك أن يسافرا مطمئنين عليها من هذه الناحية وإن لم يخلوا من جهة أخرى من التفكير ، ذلك أنه قد ظهر لهما بكل وضوح ولم يفت القنصل على الأخص أن يلاحظ ، أن الألم المشترك لم ينجح مرة في تقريب الزوجين أحدهما الى الآخر تقريباً يذكر .

وليس مايعاب على قلب السيد بيرمانيدر الطيب... فقد اهتزّ من الحادث مخلصاً ، وسالت دموعه غزيرة حزناً على الطفلة الميتة ، ذرفتها عيناه الصغيرتان المنتفختان على خديه البارزين وأجرتاها على شاربه المفتل ، فكان يصيح مراراً وهو يتنهد تنهداً شديداً : «إنه لمصاب! مصاب! يا إلهي!» لكن راحته كما تتصورها توني لم تكابد من هذا المصاب كثيراً ، وساعاته المسائية في مبيرة هوفبرى لم تلبث أن سرت عنه ، ولم يلبث هو أن عاود أسلوب حياته بجبريته ، المتوكلة ، الرضية ، المتمردة أحياناً قليلاً ، البليدة بعض الشيء ، المتمثلة في عبارته : «ألا إنه لمصاب!» .

وقد باتت رسائل توني من ذلك الحين لاتخلو من نغمة اليأس بل الشكوى... قد كتبت تقول : «آه يا أماه! ما كل هذا الذي يحل بي! أولاً جرينليش وإفلاسه ، ثمّ بيرمانيدر كصاحب ملك ، ثم موت الطفلة ، فبأي شيء استحققتُ كل هذا الشقاء!» .

وكان القنصل حين يقرأ مثل هذه العبارات في البيت لايتمالك نفسه من الابتسام ، لأنه على الرغم من كل هذا الألم الذي تنضح به السطور ، كان يستشف منها نغمة خافتة من الزهو الذي يقرب أن يكون مضحكاً ، وكان يعلم أن توني بودنبروك بوصفها مدام جرينليش أو مدام بيرمانيدر لم تكف عن أن تكون طفلة ، وأنها خبرت كل خبرتها البالغة غير مصدقة تقريباً ، ثم داخلها بعدئذ ما يداخل الأطفال من جد وشعور بالأهمية ــ وقبل كل شيء ـ من مقدرة على المقاومة .

إنها لم تكن تدرك بم استحقت الألم ، لأنها وإن سخرت من تقوى أمها وتدينها الشديد ، كانت هي نفسها مفعمة بهذه التقوى وهذا التدين الى حد أنها كانت تؤمن بالاستحقاق والعدالة فوق هذه الأرض إيماناً عميقاً... مسكينة توني! إن موت طفلتها الثانية لم يكن بآخر ضربة ولا أقسى ضربة قدر لها أن تصاب بها . فقد حدث شيء مرعب لما آذنت سنة ١٨٥٩ بالإنتهاء .

الفصل التاسع

كان يوم في أواخر نوفمبر يوماً بارداً من أيام الخريف بخرت سماؤه وآذن ثلجه بالهطول وانتشر فيه الضباب تخترقه أشعة الشمس بين الحين والحين كان يوم من الأيام التي تصفر فيها الريح الشمالية الشرقية اللاسعة في الثغر حول أركان الكنائس المكتلة صفيراً خبيثاً ، وترزؤ المرء بالتهاب رئوي على أهون سبيل .

فلمّا دخل القنصل توماس بودنبروك «حجرة الإفطار» حوالي الظهر وجد أمه منكبة على ورقة والنظارة على أنفها .

فقالت وقد أبصرته ونحت الورقة بكلتا يديها كأنما تتردد في إطلاعه عليها... «توم! لاتنزعج... شيء غير سار... لاأفهمه... من برلين... لابدّ أن يكون وقع شيء...»

قال في ايجاز : «تفضلي!» وحال لونه وبرزت عضلاته لحظة فوق سالفيه ، فقد كان يحرق الأرم . ومدّ يده في حركة بالغة التصميم كمن يريد أن يقول : «اليّ سريعاً هذا الشيء غير السار ولاتمهدي!»

وقرأ مضمون الورقة وهو واقف يرفع أحد حاجبيه الشقراوين ويجذب طرف شاربه الطويل بين أصابعه في بطء . وكانت برقية فحواها : «لاتنزعجوا! آتية مع ايريكا بأسرع مايمكن . انتهى كل شيء . أنتونيا التعسة» .

فقال منفعلاً : «بأسرع مايمكن... بأسرع مايمكن...» ونظر الى القنصلة وهو يهز رأسه هزّاً متواصلاً : «مامعنى بأسرع مايمكن ؟...»

«هذا تعبير فحسب ياتوم ، لايعني شيئاً . وهي تقصد «حالاً» أو ماشابه ذلك...»

«ومن برلين ؟ ماذا تصنع في برلين ؟ كيف جاءت الى برلين ؟»

«لاأعلم ياتوم ، لم أدرك بعد ، لقد وصلت البرقية من عشر دقائق مضت . لكنه لابدّ

أن يكون شيء قد حدث . وعلينا أن ننتظر لنعلم ماهو . فلندع الله أن يكون خيراً . اجلس يابني ، وتناول طعامك!»

وجلس ، وصبّ لنفسه البورتو في صورة آلية في كوبة سميكة عالية . وكرر : «انتهى كل شيء» ثمّ «أنتونيا» «صبيانيات...» .

وجعل يأكل ويشرب وهو صامت .

وجرؤت القنصلة بعد برهة أن تلاحظ : «أيمكن أن يكون هذ الشيء وقع مع بيرمانيدر ياتوم ؟»

فهزّ كتفيه من دون أن يرفع بصره .

وعند الانصراف قال وأكرة الباب في يده : «نعم يا أماه يجب أن ننتظر حتى تحضر . وإذا كان المفروض ألا تنقض عليك في البيت في ساعة متأخرة من الليل فإنها سوف تأتي غداً حتماً أثناء النهار ، فأرجو أن تبلغيني...»

* * *

وجعلت القنصلة تنتظر من ساعة الى ساعة ، فلم تذق طعم الراحة بالليل . ودقت الجرس لايدا يونجمان التي كانت تنام على مقربة منها في الحجرة الأخيرة من الدورالمتوسط ، وطلبت ماءً وسكراً ، وجلست في سريرها منتصبة فترة طويلة ومعها بعض الأعمال اليدوية . وكذلك انقضى ماقبل ظهر اليوم التالي وهي في توتر نفساني . وعند تناول الإفطار الثاني قال القنصل إنها إذا جاءت فسيكون قدومها من بيتشن في الساعة التالتة والدقيقة التالثة والثلاثين بعد الظهر . في هذا الوقت كانت القنصلة جالسة في حجرة المناظر الطبيعية الى النافذة تحاول القراءة في كتاب على جلدته السوداء سعفة نخلة مضغوطة بالذهب .

وكان اليوم كأمس : برداً وبخاراً وريحاً ، وخلف السياج الحديدي المطروق اللامع يطقطق الموقد . وكانت السيدة العجوز ترتعش وتتطلع الى الخارج كلما سمعت وقع عجلات مركبة . وفي الساعة الرابعة وعلى حين غفلة وقد كادت تنسى ابنتها قامت حركة تحت في البيت . فاستدارت بجسمها الأعلى نحو النافذة بسرعة ومسحت بالمنديل المطرز بالدنتيلا مايغشى زجاجها من قطرات : حقاً لقد كانت ثمة مركبة واقفة ، وسرعان ماكان صعود فوق الدرج .

فقبضت بيديها على سنادتي المقعد لتنهض ، لكنها فكرت في خير من هذا فنهضت ثانية وأدارت رأسها ناحية ابنتها وعلى وجهها تعبير يكاد ينطوي على الممانعة في النهوض .

وبينما كانت ايريكا جرينليش عند الباب الزجاجي تمسك بيدها ايدا يونجمان كانت أمها تخترق الحجرة بخطى سريعة مهرولة تقريباً .

كانت مدام بيرمانيدر تلبس حرملة مزودة بالفراء وقبعة مستطيلة من اللباد ذات قناع . وكان منظرها بادي الامتقاع والتعب وعيناها محمرتين وشفتها العليا ترتعش كسابق عهدها حين كانت تبكي أيام الطفولة . وقد رفعت ذراعيها ثمّ تركتهما تهبطان ، ثمّ خرت عند أمها على ركبتيها وأخفت وجهها في ثنيات ثوب السيدة الكبيرة وجعلت تبكي بكاء مراً . وكان لهذا كله مظهر من انطلق على هذه الحال لايلوي على شيء من ميونيخ في شوط واحد ــ وهاهي ذي الآن قد بلغت نهاية الشوط من هربها ناحية منهوكة القوى . وصمتت القنصلة لحظة .

وقالت وفي صوتها رنة ملام رقيقة : «توني!» وجذبت الدبوس الكبير الذي كانت مدام بيرمانيدر تثبت به قبعتها في شعرها حذرة ، ووضعت القبعة على قاعدة النافذة ومسحت بكلتا يديها على شعر ابنتها الأشقر الرمادي الغزير تهدىء من روعها وتتحبب اليها...

«ماذا يا ابنتي... ماذا حدث ؟»

وكان عليهاأن تصبر قليلاً حتى تجد على هذا السؤال جواباً .

ثم نطقت ابنتها : «أماه ، ماما!» ولم تزد .

فرفعت القنصلة رأسها نحو الباب الزجاجي ، وبينما تحيط ابنتها بإحدى ذراعيها مدت اليد الطليقة نحو حفيدتها وكانت واقفة هناك مرتبكة تضع إحدى السبابتين في فمها .

«تعالي ياطفلتي ، تعال وحيي تحية الصباح . لقد كبرت وبات منظرك نضراً بادي العافية والحمد لله . كم عمرك الآن يا ايريكا ؟»

«ثلاث عشرة ياجدتي...»

«ماشاء الله! عروس...»

وقبلت الفتاة الصغيرة من فوق رأس توني واستطردت : «اصعدي الآن مع ايدا ياطفلتي ، فسنتناول الطعام بعد لحظة . غير إني عندي ما أخاطب أمك فيه . أليس كذلك ؟»

وبقيا وحدهما .

«والآن ياعزيزتي توني ؟ ألا تريدين أن تكفكفي من دمعك ؟ إن الله إذا أراد امتحاننا فرض علينا أن نتحمل برباطة جأش . وقد جاء في الكتاب : احمل صليبك...لكنك ربّما ترغبين في الصعود أولاً والاستراحة قليلاً ، لتنتعشي ثمّ تنزلي إليّ ، وقد أعدت لك يونجمان

الطيبة حجرتك... . إني أشكر لك برقيتك . وقد أزعجتنا كثيراً...» . وكفت عن الكلام لأن أصواتاً كانت تخرج مكتومة مرتعشة من ثنيات ثوبها : «إنه انسان فاسد ، انسان فاسد ، فاسد...» .

ولم تدع مدام بيرمانيدر هذه الكلمة الشديدة ، فقد بدا أنها تحذقها كل الحذق . وكانت وهي تقولها يزداد ضغطها بوجهها في حجر القنصلة ، بل إنها كانت تقبض يدها بجانب الكرسي .

فسألتها السيدة المسنة بعد برهة : «ترى أتعنين بهذا الكلام زوجك يا ابنتي ؟ كان ينبغي ألا يرد هذا الخاطر بذهني ، فإني عليمة بذلك ، لكنه لم يكن لي ندحة عن التفكير في غيره ياتوني ، فهل أصابك بيرمانيدر بسوء ؟ هل عندك مايحملك على الشكوى منه ؟» .

فصاحت مدام بيرمانيدر : «بابيت... بابيت!» .

فكررت القنصلة متسائلة : «بابيت ؟» ثم اتكأت الى الوراء ، وأجالت عينيها الصافيتين من خلال النافذة . فقد أدركت ماهنالك . وحلت فترة من الصمت كان يقطعها الفينة بعد الفينة شهيق من توني كان يخف شيئاً فشيئاً .

وقالت القنصلة بعد برهة : «توني ، إني أرى الآن أن هماً في الواقع قد نزل بك... وإن لديك مايبرر الشكوى... ولكن أكان من اللازم أن تعبري عن شكواك هذا التعبير الأهوج ؟ هل كان هذا السفر من ميونيخ الى هنا ومعك ايريكا ضرورياً الى درجة أن يتصور من هم أقل فهماً مني ومنك أنك لاتريدين العودة الى زوجك بحال ؟» .

فصاحت مدام بيرمانيدر : «هذا ما لاأريده أيضاً... أبداً...» ورفعت رأسها رفعة شديدة وهي تقول ذلك ونظرت الى وجه أمها بعينيها الدامعتين في توحش ثمّ عادت تخفي وجهها في ثنيات ثوب أمها التي تجاهلت هذه الصيحة .

ورفعت الأم صوتها وقالت وهي تحول رأسها متئدة من جانب الى جانب : «ولكن الآن وقد بت هنا يهون الأمر ، ذلك أنه سوف يمكنك أن تهدئي وتقصي عليّ كل شيء . وعندئذ سنرى كيف نصلح بالحب والصفح والرزانة» .

فقالت توني مرة أخرى : «أبداً ، أبداً!» لكنها أخذت تروي ماحدث ، ومع أن أمها لم تفهم منها كل كلمة لأنها كانت تتكلم ورأسها مدسوس في تنورة القنصلة الصوفية المثناة ، ولأن روايتها كانت تتفجر وتمزقها صيحات الغضب الشديد قد تبيّن مع ذلك أن الأمر لايخرج ببساطة عمّا يلي :

في منتصف الليل بين الرابع والعشرين والخامس والعشرين من الشهر الجاري استيقظت

مدام بيرمانيدر التي كانت أثناء النهار تعاني اضطراباً عصبياً في معدتها ولم تجد راحتها إلا متأخراً جداً ، استيقظت من نعاس خفيف على حركة متواصلة هناك أمام السلم ، وتنبهت الى ضوضاء خفية يحاول كتمانها كان يتميز فيها صرير الدرجات من الضحك الذي يصاحبه السعال ، من الكلمات المكتومة الدالة على الممانعة ، من الأصوات الغريبة التي تشبه الهرير والتأوه . فلم يكن ممكناً أن يشك لحظة في طبيعة هذه الحركة... لكن مدام بيرمانيدر لم تدرك منها شيئاً لحواسها المتخدرة إلا لمّا وعتها وشعرت بأن الدم يفيض من خديها ويتدفق على قلبها الذي انقبض وواصل النبض في دقات ثقيلة مقبضة ، وقد لبثت دقيقة طويلة قاسية في فراشها كالمذهولة المفلوجة . لكنها لمّا لم تسكن هذه الحركة المخجلة أضاءت النور بيدين مرتعشتين وغادرت فراشها واليأس يتملكها والحنق والتقزز ، وجذبت الباب واندفعت الى الأمام على مقربة من السلم ، ذلك السلم العالي المستقيم الذي يؤدي من باب البيت الى الطبقة الأولى رأساً . وهناك فوق الدرجة العليا لهذا السلم تبينت بعينين اتسعتا من الرعب تلك الصورة المجسمة لما كان يجب أن تتمثله داخل مخدع نومها لحظة أن ألمت بالحركة الصريحة... لقد كان عراكاً ، كان صراعاً فاضحاً لايليق بين الطاهية بابيت والسيد بيرمانيدر . كانت الفتاة وفي يدها ربطة مفاتيح وشمعة كذلك ، لأنها لابدّ أنها كانت مشغولة في مكان ما بالبيت في هذه الساعة المتأخرة من الليل ، كانت تتلوى يمنة ويسرة وتجاهد سيدها وتمانعه وهو يلف ذراعيه حولها ولا يني ، وقبعته فوق مؤخرة رأسه ، عن محاولة الضغط على وجهها بشاربه المشبه شارب كلب البحر ، فوفق الى ما أراد هنا وهنا . فلمّا ظهرت أنتونيا ندّ عن الفتاة شيء من قبيل « يسوع ومريم ويوسف » كرره السيد بيرمانيدر وأخلى سبيلها ـ وبينما اختفت الفتاة في نفس اللحظة بصورة لبقة ولم يتبين لها أثر ، كان هو واقفاً أمام زوجته مرتخي الذراعين مطأطىء الرأس متهدل الشارب ، يتمتم شيئاً لاشك في سخفه : « هذه مصيبة!... هذه بلية!... » فلما تجاسر ورفع رأسه كانت قد انصرفت فذهب في أثرها ووجدها في مخدع النوم ، على سريرها في وضع هي فيه نصف جالسة ونصف مستلقية . تنتحب انتحاباً شديداً وتكرر الحين بعد الحين كلمة « فضيحة » واستند إلى الباب متهالكاً ووقف هناك ، ثمّ أتى بحركة من كتفه كأنما يزغدها ليبهها وقال : « كوني عاقلة! كوني عاقلة ياتونرل! انظري ، إن فرانتسل رامزاور كان يحتفل بعيد ميلاده مساء اليوم... فشربنا كلنا قليلاً... » لكن رائحة الكحول القوية التي انتشرت في المخدع بلغت بغضبها أشده فلم تعد تنتحب ولم تعد خائرة ولا واهنة ، بل هبت من مرقدها حانقة وقذفته في وجهه بكل ماتحوي كينونتها وكيانها من اشمئزاز وتقزز واحتقار من

الأعماق ، في يأس تجاوز الحدود... ولم يبق السيد بيرمانيدر ساكناً ، بل كان رأسه صاخداً... ذلك أنه لم يكرم صديقه رامزاور بأقداح البيرة الكثيرة ، بل احتسى كذلك الشمبانيا في صحته ، فرد عليها ، ورد عليها في عنف ، ونشب بينهما شجار أفظع من ذلك الذي شجر بينهما حين تقاعد السيد بيرمانيدر ، وضمت السيدة أنتونيا ثوبها لتعتزل في حجرة تقاعد الاستقبال... لكنه في الختام طرقت سمعها من جانبه كلمة ما كانت لتعيدها أو ترد على شفتيها قط... كلمة... كلمة .

كان هذا كله هو أهم ماتضمّنته الاعترافات التي أفضت بها مدام بيرمانيدر وهي تخفي وجهها بين ثنيات ثوب أمها . لكنها لم تتجاوز عن هذه «الكلمة» التي هزّتها من الأعماق في تلك الليلة المخيفة . وقد أقسمت بالله أنها لن تعيدها وإن كانت القنصلة لم تلح عليها في إعادتها إطلاقاً بل كانت تهزّ رأسها في ثورة وتفكير هزّاً كاد ألا يكون ملحوظاً ، بينما تخفض بصرها فوق شعر توني الجميل الأشقر الرائق .

قالت : «أجل ، أجل . لقد كان عليّ أن أسمع أشياء محزنة ياتوني . وإني لمدركة كل شيء تمام الإدراك يا ابنتي المسكينة الصغيرة ، ذلك أني لست أمك فحسب ، بل أنا كذلك امرأة مثلك... وأرى الآن كم أنت على حق في تألمك ، وكم نسي زوجك في لحظة ضعف كل النسيان مالك عليه من دين... »

وصاحت توني : «في لحظة» وهبّت واقفة وتراجعت خطوتين ، وجففت عينيها بحرارة واستطردت : «في لحظة يا أماه ؟! لقد نسي ما هو مدين لي ولاسمنا به... . لم يكن يعرفه منذ البداية! رجل يخلد ببائنة زوجته الى الراحة بكل بساطة! رجل عديم الطموح ، متقاعس ، عديم الأهداف! رجل في عروقه بدل الدم عصيدة كثيفة من شعير البيرة! أجل إني واثقة من هذا! رجل ينحط فوق ذلك الى مثل الحقارات التي أتاها مع بابيت ، فإذا مالفته الى حطته أجابني بكلمة...بكلمة...» .

وبلغت تلك الكلمة ثانية ، الكلمة التي لم تعدها ، وبغتة خطت خطوة الى الأمام وقالت بصوت هادىء يدل على اهتمام رقيق : «ماأبدع! من أين لك هذا يا أماه ؟»

وأشارت بذقنها إلى سلة صغيرة مجدولة مس الخيزران ، قائمة منمقة مزدانة بشرائط من الأطلس اعتادت القنصلة منذ عهد قريب أن تودعها عملها اليدوي .

فأجابت السيدة المسنة : «لقد اشتريتها عندما احتجت اليها» .

فقالت توني وهي تتأمل السلة القائمة برأس مائل الى جنب : «بديع!» كذلك القنصلة أدارت الى هذا الشيء عينيها وهي غارقة في أفكارها دون أن تراه .

ثم قالت في النهاية وهي تمد الى ابنتها يديها مرة أخرى : «والآن ياعزيتي توني : مهما يكن من أمر فأنت هنا ، فأهلاً بك من القلب وسهلاً ياطفلتي . إن كل شيء سيبحث متى هدأت النفوس... فاخلعي ملابسك في حجرتك واستريحي» . ونادت من حجرة المائدة بصوت مرتفع : «ايدا... أعدي الفراش لمدام بيرمانيدر وايريكا ياحبيبتي!» .

الفصل العاشر

وانسحبت توني بعد المائدة مباشرة الى مخدع نومها ، ذلك أن القنصلة أكّدت لها أثناء الأكل ما افترضت من علم توماس بمقدمها... . وقد لاح أنها لم تكن على لقائه جد متلهفة .

وفي الساعة السادسة بعد الظهر صعد القنصل الى فوق وتوجه الى حجرة المناظر الطبيعية ، حيث جرى له مع أمه حديث طويل .

وسأل : « كيف هي ؟ ومامسلكها ؟ » .

قالت : « أخشى ياتوم أن يكون من الصعب إرضاؤها... ياإلهي ، إنها منفعلة الى حد كبير... ثم هذه الكلمة...لو إني عرفت الكلمة التي قالتها » .

« إني ذاهب اليها » .

« افعل ذلك ياتوم . لكن اطرق الباب برفق حتى لاتنزعج ، وحافظ على هدوئك ، أتسمعني ؟ إن أعصابها ليست على مايرام... وهي لم تأكل شيئاً تقريباً... إنها المعدة كما تعلم . كلمها بهدوء » .

وصعد الدرج الى الطبقة الثانية مسرعاً يتخطى في عجلته كعادته درجة دائماً ، ويفتل شاربه مفكّراً . لكنه وهو يدق الباب أشرق وجهه لأنه كان مصمماً على أن يعالج الموضوع في دعابة ما أمكن .

وفتح الباب على كلمة تنطق بالألم هي « ادخل » ووجد مدام بيرمانيدر كاملة اللباس مستلقية على سريرها الذي كانت ستائره مزاحة ، تسند ظهرها الى حشية وتضع بجانبها زجاجة من نقط للمعدة على منضدة الليل . فالتفتت قليلاً واعتمدت رأسها فوق يدها ونظرت اليه تبتسم في عبوس فانحنى لها انحناءة عميقة جداً ورسم بيديه الممدودتين حركة تدل على التوقير .وقال :

«أيتها السيدة المحترمة...! أي شرف تولينا ساكنة العاصمة ومقر الملك...» .

قالت : «قبلني ياتوم!» ونهضت لتقدم له خدها ثمّ تعود ثانية الى الاستلقاء . «عم صباحاً أيها الفتى الطيب! لقد تغيرت تماماً فيما أرى منذ أيام ميونيخ!» .

«إنك هنا بين ستائرك المسدلة لاتستطيعين حكماً أيتها الغالية . ومع ذلك ماكان يجوز أن تحرميني من الإطراء لأنه من حقك بطبيعة الحال...» .

وسحب كرسياً وهو ممسك بيدها وجلس اليها .

«وكما قلت مراراً : إنك وكلوتيده» .

«خسئاً ياتوم!... وكيف حال تيلده ؟» .

«على ما يرام طبعاً! فمدام كراوزيمتس تُعنى بها وبألا تجوع . وهو ما لا يمنع تيلده من أن تأكل بنهم في أيام الخميس وتلتهم الطعام التهاماً شاذاً كأنما تتمون لاسبوع مقدماً...»

وضحكت من قلبها كما لم تفعل من أمد طويل ، ثمّ أمسكت بتنهيدة وسألت : «وكيف تسيرالأعمال ؟»

«ها نحن أولاء نجاهد . ويجب أن نكون راضيين...»

«الحمد لله . إن كل شيء ، هنا في الأقل ، كما ينبغي أن يكون! إني لست على استعداد لأن أكون مرحة في الحديث» .

«وا أسفاه! فالمرء خليق مع ذلك أن يكون فكهاً» .

«كلا ياتوم . لقد انتهى هذا ـ فهل تعرف كل شيء ؟»

فردد قولها : «هل تعرف كل شيء!...» وترك يدها وأراح كرسيه الى الوراء قليلاً واستطرد يقول : «ياالله ، يالوقع الكلمة! «كل شيء»! ما أكثر ماينطوي عليه «كل شيء» . هذا! لقد دفنت حبي أيضاً وألمي فيه ، أليس كذلك ؟ كلا ، اسمعي...»

ولزمت الصمت وحدجته بنظرة عميقة الدهشة ، عميقة الأشياء .

قال : «لقد كنت أتوقع هذا الوجه ، لأنك ماكنت لتحضري الى هنا من دونه... ولكن اسمحي لي ياعزيزتي توني بأن أستسهل المسألة بقدر ماتستصعبينها فترين أننا سيكمل أحدنا الآخر وينتفع كلانا...»

«أستصعبها ياتوماس ، أستصعبها...»

«رباه ، دعينا من تمثيل المآسي! لنتكلم في شيء من التواضع لا بعبارات : انتهى ، وكل شيء ، وابنتكم التعسة أنتونيا! افهميني جيداً يا توني فأنت تعلمين أني أول من يسر

من قلبه بمقدمك . فقد كنت أتمنى من أمد طويل أن تزورينا من دون زوجك ، وأن نستطيع الجلوس معاً جلسة عائلية . ولكن أن تأتي الآن وتجيئي ـ عفواً ، فهذه جهالة ياطفلتي... نعم... دعيني أنه كلامي! ـ لقد طالما سلك بيرمانيدر سلوكاً معيباً ، هذا صحيح ، وسأفهمه أنا أيضاً ذلك ، فكوني واثقة... »

فقاطعته وقد هبّت واقفة ووضعت يدها على صدرها ، بقولها : لقد أفهمته مسلكه بالفعل ، ولم أفهمه إياه فحسب ، وهذا ماأريد أن أقوله . فقد كانت لي مع الرجل منازعات أخرى أراها غير لائقة على الإطلاق! » .

وارتمت على الفراش ورفعت بصرها الى السقف في صرامة ورباطة جأش .

وطأطأ رأسه كما لو كانت هذه الطأطأة تحت وقع كلماتها ، خفض بصره فوق ركبتيه مبتسماً وقال :

«اذن فلن أخط اليه كتاباً خشناً عملاً باشارتك ، فالأمر أمرك أولاً وآخراً ، ويكفي كل الكفاية أن تقوّمي أنت اعوجاجه . فأنت بوصفك امرأته مكلفة بذلك واذا تبينا الأمر فلن تأبى الظروف المخففة ولا استعمال الرأفة . فان صديقاً له يحتفل بعيد ميلاده ، فيعود الى البيت بنفسيته – نفسية المحتفل – مرحاً فيرتكب وزراً خفيفاً ، وانحرافاً بسيطاً ، غير لائق... »

قالت : « توماس . إني لاأفهمك . لاأفهم اللهجة التي تكلمني . أنت ... الرجل ذو المبادىء... لكنك لم تره! لم تر كيف يمسك بها في سكره ، وكيف كان منظره...... »

« مضحكاً بما فيه الكفاية كما يمكن أن أتصور . لكن هذه المسألة ياتوني! إنك لاتنظرين اليها بالقدر الكافي من الاستخفاف . والذنب في ذلك ذنب معدتك بطبيعة الحال . لقد ضبطت زوجك متلبساً بنقطة ضعف فرأيته مضحكاً بعض الشيء... لكن هذا ماكان ليسخطك الى هذا الحد ، بل كان خليقاً أن يسليك قليلاً ، وأن يدنيه منك كإنسان... أريد أن أقول لك شيئاً : حقاً إنه ماكان ليسعك أن تقري مسلكه فور الساعة بالابتسام والصمت ، حاشا . لكنك رحلت ، فكان هذا منك مظاهرة ربما كانت عنيفة قليلاً ، وعقاباً لعله كان أصرم مما ينبغي ـ ولست أتمنى أن أراه جالساً في تلك اللحظة واستشهد مبلغ حزنه ـ لكنه عقاب عادل على كل حال . إنما يتجه رجائي الى أن تكون نظرتك الى الأشياء أقل انطواء على العصب شيئاً ما وأكثر مراعاة للسياسة هوناً ما . إننا نتكلم طبعاً فيما بيننا . ويجب أن ألمح لك ، إنه مما ليس يكترث له في الزواج أن تكون الفضيلة في هذا الجانب دون ذاك... افهميني ياتوني! إن زوجك قد كشف عن سوءة له ما في ذلك شك . وقد ورّط نفسه وعرضها

بعض الشيء للسخرية... عرض نفسه للسخرية بالذات لأن خطيئته كانت مما يعد عديم الأذى قليل الخطورة... بالإيجاز إن هيبته لم تعد فوق المساس ، وتفوقك عليه قد بات الآن محقاً وهناؤك مؤكداً على شريطة أن تفهمي كيف تحافظين على هذا التفوق . فإذا ـ ولنقل في أسبوعين ـ نعم أرجوك ، فلا بد أن تكوني لنا على الأقل هذه الفترة ، إذا عدت بعد اسبوعين الى ميونيخ فسترين» .

«لن أعود الى ميونيخ ياتوماس» .

فسألها : «ماذا ؟» وقد قطب وجهه ، ووضع يده على أذنه وانحنى الى الأمام .

وكانت مستلقية على ظهرها تضغط مؤخرة رأسها في الوسائد بصورة برزت معها ذقنها في شيء بعينة من الصرامة . قالت : «أبداً» وتنفست بعدها نفساً طويلاً صاخباً ، وتنحنحت في بطء وجلاء نحنحة جافة بدأت تصبح معها عادة عصبية ويكون لها دخل في تعب معدتها ـ وسادت فترة من الصمت .

وقال بغتة وقد نهض وترك يده مستقرة فوق مسند الكرسي الأمبير : «توني ، لاتثيري فضيحة معي!...»

وعلمتها نظرة جانبية منه ، أنه كان ممتقع اللون ، وأن عضلات سالفيه تتحرك فتزعزع موقفها وجعلت كذلك تتحرك . ولكي تخفي ماساورها نحوه من خوف رفعت صوتها واصطنعت الغضب فهبت ناهضة وزحلقت قدميها عن الفراش وأنشأت تقول وقد صخد خداها وقطبت حاجبيها ، وجعلت تأتي بحركات سريعة من رأسها : «فضيحة ياتوماس ؟! أنت تأمرني بألا أثير فضيحة حين ألطخ بالعار ، ويبصق في وجهي بكل بساطة!! أهذا يليق بأخ ؟... نعم ؟ هذا سؤال يجب أن تسمح لي به! فالمراعاة واللباقة من الأشياء الطيبة ، وحاشا أن تخلو منهما . لكن هناك حدوداً في الحياة ياتوم ـ وإني لعليمة مثلك بالحياة ـ فإذا بدأ الخوف من الفضيحة فمعنى ذلك الجبن ، نعم : وإني لأعجب من أن اضطر الى أن أقول لك هذا ، أنا التي لاتعدو أن تكون غبية بلهاء... نعم ، فهذا أنا . وهذا ما أفهمه جيداً عندما ـ لا يكون بيرمانيدر قد أحبني قط ، لأني مسنة وإني امرأة دميمة ، هذا ممكن ، وبابيت على التحقيق أجمل مني . لكن هذا لايعفيه من المراعاة الواجبة عليه لأصلي وتربيتي وشعوري! وأنت لم ترَ ياتوم بأية صورة أغفل هذه المراعاة ، ومن لم يرَ لايعلم شيئاً . ولايسعني أن أقص كيف كان في حالته بغيضاً...وأنت لم تسمع الكلمة التي شيعني بها ، أنا أختك ، لما أخذت أشيائي وغادرت الغرفة لأنام على الأريكة في حجرة الاستقبال... هنا لم يكن بد من أن أسمع من خلفي كلمة تخرج من فمه... كلمة... كلمة!... هذه الكلمة ياتوماس هي بالإيجاز

ماتعلم أنه دفعني بل أرغمني على أن أظل طول الليل أحزم أمتعتي وأوقظ ايريكا في كل بكور وأنصرف بها ، ذلك أنه لم يكن يسعني أن أبقى عند رجل أسمع بقربه مثل هذه الكلمات... لن أرجع كما قلت الى رجل كهذا . وإلا لتلفت وكففت عن احترام نفسي ، ولما كان لي مقام في الحياة! »

« هل تريدين أن تتفضلي بإبلاغي هذه الكلمة اللعينة ، نعم أو لا ؟ »

« أبداً ياتوماس ، لن ألفظها أبداً! إني عليمة بما أنا مدينة به في هذا البيت لنفسي ولك » .

« إذن لافائدة من الكلام معك! »

« ربما ، وأحب ألا نعود الى الكلام في هذا... »

« وماذا تريدين أن تصنعي ؟ أتريدين الطلاق ؟ »

« هذا ما أريده يا توم . فهذا تصميمي الثابت . هذا هو التصرف الذي يجب عليَّ نحو نفسي وطفلتي ونحوكم جميعاً » .

فقال لها هادئاً : « هذا هو السخف » . واستدار على عقبيه وانصرف عنها كما لو كان انتهى بهذا ثم استطرد يقول : « والطلاق يتناول شخصين ياطفلتي ، ومن التسلية أن يخطر بالبال أن بيرمانيدر يبدي استعداده له وسروره به من دون تردد... » .

فقالت من دون أن يرهبها هذا الكلام : « دع هذا لي . إنك تظن أنه سيعارض من أجل السبعة عشر ألف ريال بائنتي ؟ لكن جرينليش لم يرد كذلك وقد أرغم عليه . إن هناك وسائل ، وسأذهب الى الدكتور جيزيكه صديق كريستيان وسيساعدني... حقاً إن الأمر كان يختلف إذ ذاك . ، وأنا أعرف ماتريد أن تقول . إذ ذاك كان المسوغ عدم كفاية الزوج لإعالة أسرته . نعم ، فأنت ترى الى هذا بأني خبيرة بهذه الأمور ، بينما تبدي في الحق كما لو كانت هذه أول مرة لي في الحياة أطلق فيها!... لكن الأمر سيان عندي ياتوم ، فقد لاتنجح المسألة وتستحيل ـ ربما ، وقد تكون محقاً . لكن هذا لن يغير شيئاً . بل لن يغير شيئاً مما قرّرته . فليحتفظ بالنقود ـ ففي الحياة أشياء أسمى من المال! لكنه لن يراني ثانية » .

وتنحنحت إثر ذلك ، وكانت قد غادرت الفراش وجلست على الكرسي الساند تعتمد مرفقها فوق المسند الجانبي وذقنها في يدها بحيث تحتوي أربع أصابع مقوسة شفتها السفلى . في هذا الوضع وجسمها الأعلى مائل جانباً كانت تحملق في النافذة بعينين ملتهبتين محمرتين .

وكان القنصل يخطو في الحجرة جيئة وذهاباً ويتنهد ويهز رأسه ويحرك كتفيه . وأخيراً وقف أمامها وهو يفرك يديه .

قال يائساً متوسلاً : «إن رأسك رأس طفل ياتوني! كل كلمة تلفظينها هذر أطفال! فهلا تريدين ، إذا أنا رجوتك ، أن تتناولي الأمور لحظة واحدة كما يتناولها بالغ ؟ ألا تلاحظين أنك تسلكين مسلك من تعرض في الحياة لشيء جدي فادح ، كما لو كان زوجك قد خانك بقسوة ولطخك بالعار أمام العالم أجمع ؟! ولكن فكري فقط في أن شيئاً لم يقع! من أن أحداً لم يدر بذلك الحادث التافه الذي وقع على سلمك بشارع كاوفنجر! إنك لن تمسي كرامتك وكرامتنا بحال إذا أنت عدت الى بيرمانيدر في هدوء وعلى الأكثر بوجه ساخر قليلاً... وعلى النقيض من ذلك! تنالين من هيبتنا إذا أنت جافيت هذا المسلك ، ذلك أنك بهذا ترتبين شيئاً على هذه التفاهة ، بهذا تثيرين فضيحة» .

فأطلقت ذقنها بسرعة ونظرت الى وجهه .

«الآن الزم الصمت ياتوماس! الآن دوري أنا! الآن أنصت اليَّ! كيف ؟ هل مايرتفع به الصوت ، ويذيع بين الناس هو فقط العار والفضيحة ؟ لا ، لا . إن الفضيحة الخفية تلتهم المرء في سكون ، وتذهب باحترام الذات أسوأ كثيراً! هل نحن آل بودنبروك ، الذين نريد أن نكون في ظاهرنا على أحسن حال كما تقولون هنا دائماً ، نرضى في مقابل ذلك المذلة والهوان نستسيغها بين أربعة حيطان ؟ توم ، إنني لأعجب منك! تصور أباك كيف كان يكون موقفه اليوم ، ثم أحكم وفق تفكيره! كلا ، إن النقاء والصراحة يجب أن يسودا... إنك تستطيع أن ترى العالم أجمع صحيفتك اليوم وتقول : هاكم صحيفتي!... وليس يجمل غير ذلك بأحد منّا . إني أعلم كيف خلقني الله . إني لا أخاف شيئاً! لتمر جوليا مولندروف بي ولاتحييني! ولتجلس فيفي بودنبروك هنا في أيام الخميس وتهتز من الشماتة وتقول : إن هذا للأسف ثاني مرة ، لكن الذنب في المرتين ذنب الرجال بطبيعة الحال! إني أرفع من هذا ياتوماس! إني أعلم أني أفعل ما اعتقدته الخير ، لكن أن أستسيغ هذا وأدع من يسبني بلغة البيرة العامية غير المهذبة خوفاً من إهانات جوليا مولندروف وفيفي بودنبروك... خوفاً منهما أصبر على زوج ، في مدينة اعتاد فيها مثل هذه الكلمات ، ومثل هذه المناظر ، وأتعلم فيها إنكار النفس والأصل والتربية وكل شيء فيَّ إنكاراً تاماً ، لاشيء سوى أن أتظاهر بالسعادة والرضا ، ـ هذا ماأسميه غير لائق ، ما أسميه فاضحاً ، أقول لك...!»

وقطعت الكلام وألقت ذقنها ثانية في يدها ، وحملقت منفعلة في زجاج النافذة . وكان

توماس واقفاً حيالها ، متكئاً على ساق ، يداه في جيبي سراويله ، وعيناه مستقرتان فوقها ، دون أن ينظر اليها ، غارقاً في أفكاره ، يهزّ رأسه في رفق .

قال : «توني ، إنك لاتبدّلين الأمور ، فقد كنت أعرفها من قبل . لكنك قد انكشفت بكلماتك الأخيرة . إنه ليس الزوج ، بل المدينة ، وليست الجهالة التي وقعت على السلم ، بل كل شيء هو السبب . إنك لم تستطيعي أن تتأقلمي . فكوني صريحة! » .

فصاحت : «أنت محق في هذا ياتوماس» بل لقد هبت وأشارت بيدها الممدودة رأساً إلى وجهه . وكان وجهها محمراً ، ووضعها وضع المحارب ، تمسك بالكرسي بإحدى يديها وتأتي بإشارات من الأخرى ، وتلقي خطبة ، خطبة حامية مؤثرة تتفجر من دون انقطاع . وجعل القنصل يتأملها وهو في غاية الدهشة ، فما أن تكاد تتمهل لتأخذ نفسها حتى تتدفق كلمات جديدة من فمها . أجل ، كانت تجد الكلمات وتعبّر عن كل شيء تجمّع فيها خلال السنوات الأخيرة بغضاً واشمئزازاً : مضطرباً بعض الشيء مختلطاً ، لكنها كانت تعبر عنه . كان انفجاراً ، وكان هبوطاً مفعماً بحاسة الشرف القانطة... هنا أفرغت شيئاً لاقِبل بمواجهته ، شيئاً عنصرياً لم يعد في الإمكان مجابهته...

«أنت محق في هذا ياتوماس! هلا قلته مرة أخرى! ها ، إني لأبدي لك صراحة أني لم أعد تلك الغبية ، وإني أعرف ماينبغي أن أدركه من الحياة . إني لن أدهش بعد الآن إذا علمت أن مايجري فيها ليس نظيفاً كله . لقد عرفت أناساً مثل «تريشكه الدموع» . وكنت متزوجة من جرينليش ، وأعرف مستهترينا في المدينة . لست ساذجة من أهل الريف ، أريد أن أقول لك . ومسألة بابيت في ذاتها وفي سياقها ماكانت لتطلق ساقي للريح ، صدقني! بل المسألة هي ياتوماس أنه طفح بي الكيل... ولم يكن الكيل بحاجة الى شيء لأنه كان في الحقيقة مليئاً... مليئاً من زمن طويل... من زمن طويل! كان خليقاً أن يطفح من لاشيء ، فما بالك بهذا! بمعرفتي أني ما كان يسعني أن أعتمد في هذه النقطة على بيرمانيدر! لقد توج هذا كل شيء! لقد أطار هذا قعر البرميل ، فاتّضح تصميمي على الهرب من ميونيخ دفعة واحدة ، وظلّ هذا التصميم طويلاً بسبيل النضوج ياتوم ، ذلك أني لاأستطيع العيش هناك في الجنوب ، لا أستطيع وأقسم على ذلك بالله وملائكته المقدّسين! إنك لاتعرف ياتوماس كم كنت تعسة ، لأني أيضاً عندما جئت للزيارة لم أدع شيئاً يلحظ عليّ ، فأنا امرأة لبقة لاتضايق الغير بشكواها ولاتحمل قلبها على لسانها في كل يوم من أيام الاسبوع ، تميل دائماً إلى الانطواء . لكني عانيت يا توم ، عانيت بكل شيء فيّ ، وكما يقولون : بكل شخصيتي . كنبتة ــ ولأستعمل هذا التشبيه ـ كزهرة غرست في تربة غريبة ،... وإن كنت

لاتستسيغ المقارنة لأني امرأة دميمة... لكني ماكنت أستطيع أن أغرس في تربة أكثر غربة من هذه ولوددت أن أغرس في تركيا . إنه أحرى بنا نحن أهل الشمال ألا نغترب أبداً! كان أحرى بنا أن نبقى في جون بحرنا ونعيش بترف... لقد كنتم أحياناً تسخرون من ايثاري طبقة النبلاء... أجل ، لقد طالما فكرت في هذه السنوات في بضع كلمات قالها لي أحد الناس من أمد طويل ، إنسان هياب . قال : «إنك تعطفين على النبلاء... فهل أخبرك لماذا ؟ لأنك نفسك نبيلة! فأبوك سيد عظيم وأنت أميرة . إن هوة تفصل بينك وبيننا نحن الآخرين الذين لاننتمي الى دائرتك المؤلفة من الأسر ذات السيادة... نعم ياتوم ، إننا نشعر كما لو كنّا نبلاء ، ونحس الفارق ، ولاينبغي أن نحاول العيش حيث يجهلنا الناس ولايفهمون أن يقدرونا ، ذلك أننا لن نجني من وراء ذلك سوى المهانة والذل ، وأن الناس سيجدوننا متغطرسين في صورة مضحكة . إن أحداً لم يقل لي ذلك ، لكني كنت أشعر به في كل ساعة ، وكان أيضاً سبباً لألمي . ها ، في بلد يأكلون فيه الفطيرة بالسكين ويتكلم الأمراء ألمانية غير صحيحة ، ويلفت النظر كسلوك ينطوي على الحب أن يلتقط السيد للسيدة مروحتها ، في مثل هذا البلد يسهل على المرء أن يتغطرس ياتوم! تأقلم ؟ كلا ، عند أناس غير مهذّبين ولامؤدبين ، قذرين ، كسالى ، رعناء ، ثقيلي الظل ، وسطحيين في نفس الوقت... عند أمثال هؤلاء لايسعني أن أتأقلم ، ولن يسعني مادمت أختك! لقد استطاعته ايفا ايفرز... حسن! لكن بنتاً من بنات ايفرز ليست كبنت من بنات بودنبروك ، ثم إن لها زوجها الذي يرجى منه في الحياة شيء من النفع . لكن كيف كان حالي أنا ؟ فكّر ياتوماس ، أبدأ من الأول وتذكّر! لقد ذهبت الى هناك من هنا ، من هذا البيت ذي الشأن الذي يتحرك فيه المرء ويسعى الى هدف ، ذهبت الى بيرمانيدر الذي تقاعد لما أن حصل على بائنتي... ها ! كان هذا عملاً أصيلاً ذا دلالة حقاً ، لكنه كان كل ماهنالك من شيء يسر . ثم ماذا ؟ ننتظر مولوداً! لكم سررت! كان المولود خليقاً أن يعوضني من كل شيء! فماذا حدث ؟ يموت المولود . لم يكن هذا ذنب بيرمانيدر ، حاشا وكلا ، فقد فعل ما استطاع ، بل إنه لم يذهب الى الحانة يومين أو ثلاثة أيام ، حاشا ، لكن الأمر كان يقتضي ذلك ياتوماس . فلم يجعلني أسعد مما كنت . وهذا مايمكنك أن تراه . تحملته ولم أتذمر ، فأنا وحيدة ، لايفهمني أحد ، كلما سرت قيل متغطرسة ، فأقول لنفسي : لقد أبديت له رضاك وارتضيته زوجاً مدى الحياة . إنه سمج قليلاً وكسول ، وقد خيب آمالك ، لكنه حسن النية ، نقي القلب . ثم يقدّر لي أن أشهد هذا وأراه في هذه اللحظة البغيضة . ثم شهدته بهذا القدر يفهمني ، وبهذا القدر يحترمني أكثر مما يحترم الغير بحيث يشيعني بكلمة ، كلمة لايقذف

بها أحد عمال مخازنك كلباً! ثم رأيت أن شيئاً لم يستبقني ، وإنه كان من العار أن أبقى! كنت راكبة مرة من المحطة في شارع هولستن فمر بي الحمال نيلسن وانحنى رافعاً قبعته العالية فرددت تحيته غير متغطرسة ولكن كما كان أبي يحيي الناس... هكذا...

باليد... والآن أنا هنا . وتستطيع أن تعد دستتين من الخيول ياتوم فلن تعيدني الى ميونيخ . وغداً أذهب الى جيزيكه! ـ» .

كانت هذه هي الخطبة التي ألقتها توني وارتمت بعدها على الكرسي منهوكة تقريباً تحتوي ذقنها في يدها وتحملق في زجاج النافذة .

وكان القنصل واقفاً أمامها مذعوراً ، مأخوذاً ، مرجوجاً تقريباً ، لاينبس ببنت شفة ، ثمّ تنفس الصعداء ورفع ذراعيه الى مستوى كتفيه ثمّ أرخاهما فوق فخذيه .

وقال بصوت خافت : «أجل ، لافائدة!» واستدار على عقبيه ، واتجه نحو الباب .

فتبعته بنفس التعبير الذي استقبلته به متألمة «مبوزة» وسألته : «توم . هل أنت مستاء مني ؟»

وكان ممسكاً بأكرة الباب البيضاوية فأتى من اليد الأخرى بحركة نفي قائلاً : «حاشا! اطلاقاً!»

فمدت يدها نحوه وألقت رأسها فوق كتفها وقالت :

«تعال ياتوم! إن أختك لاتحيا حياة سعيدة ـ فكل المصائب تنزل بها... وليس لها في هذه اللحظة من يقف بجانبها...»

فعاد وتناول يدها ، من جنب ، مرهقاً ، لايبدي اكتراثاً كبيراً ولاينظر اليها .

وبغتة بدأت شفتها العليا ترتعش .

وقالت : «أنت مضطر الآن أن تعمل وحدك . مع كريستيان لافائدة ولاعائدة ، وأنا منتهية الآن... منهارة... لا أستطيع أن أؤدي شيئاً... نعم ، الآن لامندوحة لكم عن التصدّق عليّ باللقمة ، أنا المرأة التي لاتنفع . ماكنت أحسب أني أعجز الى هذا الحد عن مساعدتك ياتوم! فإن علينا أن نحافظ نحن آل بودنبروك على اعتبارنا... والله معك» .

وجرت دمعتان كبيرتان صافيتان من دموع الأطفال على خديها اللذين بدأ اهابهما يبدي تجعدات خفيفة .

الفصل الحادي عشر

لم تخلد توني الى الراحة . فقد تولت مسألتها . وقد طلب اليها القنصل في تلك الآونة شيئاً فشيئاً ، أملاً منه في أن تهدأ وترق ويتحول تفكيرها ، أن تظل صامتة وكذلك ايريكا ، ولاتغادر البيت . فقد تتحسن الأحوال وتجري الأمور على مايرام... يجب قبل كل شيء ألا تعلم المدينة شيئاً . وقد ألغى اجتماع الأسرة في يوم الخميس .

لكنه في أول يوم لوصول مدام بيرمانيدر بعثت بخط يدها الى المحامي الدكتور جيزيكه برسالة تدعوه فيها الى موافاتها في شارع منج . واستقبلته وحدها في الغرفة الوسطى الواقعة على الطرقة بالطبقة الأولى حيث أوقد الموقد . وأعدت لأمر ما على المائدة الثقيلة محبرة وأدوات كتابة وكثيراً من الورق الأبيض من القطع الكبير جلبته من المكتب الكائن في الطبقة السفلى . واتّخذ الاثنان مجلسهما فوق مقعدين ساندين .

قالت شابكة ذراعيها ، طارحة رأسها الى الوراء ، رافعة بصرها الى السقف : « ياحضرة الدكتور ، إنك رجل تعرف الحياة إنساناً وصاحب مهنة ، فلي أن أصارحك القول! » وأخذت تفاتحه بكل ماوقع مع بابيت وفي مخدع النوم . ولم تكد تنتهي حتى أعرب لها الدكتور جيزيكه عن أسفه لاضطراره أن يقول لها أنه لا الحادث المكدر الذي وقع على السلم ولا السب المعين الذي وجه اليها والذي تأبى أن تصرح بتفاصيله بالذي يصلح سبباً كافيا للطلاق .

قالت : « حسناً ، أشكرك » .

وسلمها مجملاً للأسباب التي تبرر الطلاق في نظر القانون ، واستمعت في انتباه واهتمام بالغ الى محاضرة عن النصوص المفصلة المتعلقة بالبائنة ، ثمّ ودعت الدكتور جيزيكه مؤقتاً ، متلطفة جادة .

ونزلت الى الطبقة الأرضية ودعت القنصل الى مكتبه الخاص .

قالت : «توماس ، أرجوك أن تكتب الى الرجل على الفور... إني لا أحب أن أذكر اسمه . ففيما يتعلق بالمال أعرف ماهنالك بالدقة ، فليفصح عن نفسه ، بكذا أو كذا ، فلن يراني ثانية . فإذا وافق على الطلاق الشرعي فبها ونعمت ، فنطالب بحساب البائنة وأدائها ، وإذا رفض لم يحملنا هذا على اليأس ، فإنه يجب أن تعلم ياتوم أن حق بيرمانيدر في بائنتي ملك له على كل حال وفقاً للشكل القانوني ، وهذا مسلم به بالتأكيد! ـ لكني أحمد الله أن لي حقوقي أيضاً من الوجهة المادية على كل حال...»

فطاف القنصل بالمكان ويداه على ظهره ، وجعل يحرك كتفيه حركة عصبية ، ذلك أن الصورة التي كانت تنطق بها «بائنة» كانت بالغة الدلالة على الكبرياء .

ولم يكن عنده وقت ، فقد كان في الحق مرهقاً ، وكان عليها أن تلوذ بالصبر وتتفضل بالتفكير خمسين مرة! فإنه يزمع الآن وغداً على التعيين أن يسافر الى هامبورج ويحضر اجتماعاً ، ويجري حديثاً أليماً مع كريستيان . فقد كتب اليه كريستيان يطلب مساعدة ومعونة تخصمها القنصلة من نصيبه المقبل في الميراث . فقد ساءت أحوال تجارته . ومع أنه عرضة على الدوام لطائفة من الشكاوي ، فإنه يبدو أنه يتسلى وينفق عن سعة في المطعم والسيرك والمسرح ، ويتجاوز في عيشه ما يسمح به مركزه إذا نظرنا الى الديون التي علم الآن أمرها ، والتي أمكنه أن يستدينها معتمداً على ما لاسمه من حسن السمعة . وشارع منج يعرف والمنتدى والمدينة بأسرها يعرفان السبب في ذلك . امرأة وسيدة تقف وحدها ، تدعى ألينا بوفوجل ، ولها طفلان جميلان . ولم يكن كريستيان بودنبروك من تجار هامبورج هو المتصل بها وحده بأوثق الصلات وأبهظها كلفة .

وبالإيجاز قد كان هناك غير رغبات توني في الطلاق أمور بغيضة أخرى . وكان سفره الى هامبورج يقتضي العجلة . هذا الى أنه كان من الراجح أن يكتب بيرمانيدر من جانبه في القريب العاجل...

وسافر القنصل وعاد من سفره مغضباً متكدراً . ولما لم يكن قد جاء من مَيونيخ خبر بعد ، فقد ألفى نفسه مضطراً إلى أن يخطو الخطوة الأولى . فكتب . كتب في جفاء وفي الموضوع ومن عل شيئاً ما يقول : إن أنتونيا قد تعرضت في الحياة مع بيرمانيدر لخيبة أمل فادحة... وإنها بغض النظر عن التفاصيل لم تجد على العموم ما أملته في هذا الزواج من سعادة... وإن رغبتها أن ترى الرابطة مفصومة وهو مايبدو وجه الحق فيه لكل ذي عينين ،

وإن قرارها بألا تعود إلى ميونيخ يلوح ثابتاً مع الأسف . . وتلا ذلك تساؤل عمّا يكون عليه مسلك بيرمانيدر حيال هذه الوقائع...

وتقضت أيام مفعمة بالقلق!... ثمّ رد السيد بيرمانيدر .

ردّ كما لم يتوقع أحد ، لا الدكتور جيزيكه ولا القنصلة ولا توماس بل ولا أنتونيا ، وافق بعبارات بسيطة على الطلاق .

كتب يقول بأنه يأسف من قلبه لما حدث لكنه يحترم رغبات أنتونيا لأنه يرى أنها وإياه لم يخلق أحدهما للآخر قط ، فإذا كان قد سبب لها سنين من المتاعب فلتحاول نسيانها والصفح عنه . وإذا كان لن يراها أو يرى ايريكا فإنه يتمنى لها وللطفلة على الدوام كل مايتصور من هناء... ووقع ألوى بيرمانيدر ـ وقد عرض بجلاء في حاشية الكتاب أن يرد البائنة في الحال ، وقال إنه يستطيع بما يملك أن يعيش عيشة راضية وإنه بغير حاجة إلى مهلة ، لأن الأعمال ليست بحاجة الى تصفية والبيت بيته ومبلغ البائنة مما يمكنه أن يفرج عنه في الحال .

وكاد الخجل يتولى توني قليلاً ، وأحسّت لأول مرة بميل الى أن تجد عدم تهالك بيرمانيدر على الأعمال المالية جديراً بالثناء .

وظهر الآن الدكتور جيزيكه من جديد يزاول مهنته ، فاتّصل بالزوج في شأن الاتفاق على مبرر للطلاق ، فاستقر الرأي على أن يكون كراهية من الجانبين لاسبيل الى التغلب عليها . وابتدأت القضية ـ قضية طلاق توني الثاني التي تتبعت مراحلها في جد ، ومعرفة فنية ، وهمة عالية . فكانت تتكلم عنها أنّى ذهبت وأينما حلّت حتى أبدى القنصل استياءه مراراً . ولم يكن يسعها في مبدأ الأمر أن تشاطره همه ، بل كانت منهمكة في كلمات من قبيل : «ثمار» و«غلات» و«استياءات» و«مسائل بائنية» و«أموال يمكن التصرف فيها» كانت تلفظها بطلاقة وجد وهي مطرحة رأسها الى الوراء ورافعة كتفيها قليلاً . وقد كان مما ترك في نفسها أعمق الأثر من ايضاحات الدكتور جيزيكه مادة تناولت «كنزاً» وجد في قطعة أرض تتصل ببائنة ، ويعد جزءاً من قيمة هذه البائنة ، فلمّا فصمت عرى الزوجية سلم هذا الكنز . وقد كانت تحدث الناس جميعاً عن هذا الكنز الذي لم يوجد قط . حدثت ايدا يونجمان والخال يوستوس وكلوتيده المسكينة وسيدات بودنبروك القاطنات في الشارع العريض واللواتي ضربن الى هذا كفاً بكف في حجورهن لما بلغتهن الحوادث ، ونظرت كل منهن الى البقية يحملقن من الدهشة ويتوقعن أن تكون لهن هذه الترضية يوماً ما... ثم لتيريزه فشبروت التي

كانت ايريكا جرينليش تنعم إذ ذاك بتدريسها كرة أخرى ، بل لمدام كيتلسن الطيبة التي لم تفهم شيئاً من هذا الأثر لأكثر من سبب .

ثمّ جاء اليوم الذي صدر فيه الحكم بالطلاق نهائياً وفق القانون والذي أنهت فيه توني آخر شكل ضروري من أشكال الرسميات ، فرجت توماس إعطاءها سجل الأسرة ودوّنت فيه الواقعة الجديدة بخط يدها... والآن حق عليها أن تعتاد حالتها .

وقد اعتادتها في شجاعة فكانت تتغاضى في وقار لايمس تلك الوخزات الصغيرة المليئة بسوء النية بصورة عجيبة والتي كانت تصدر عن سيدات بودنبروك وتتجاهل في برود ينبو عن الوصف رؤوس آل هاجنشتروم ومولندروف كلما لقيتهم في الطريق ، واستغنت كل الاستغناء عن حياة المجتمع التي انقطعت منذ سنوات من بيت أبويها ، وتحولت الى بيت أخيها . وقد بقي لها أهلها الأقربون : القنصلة وتوماس وجيردا ، وايدا يونجمان وزيزيمي فشبروت صديقتها المتحلية بعاطفة الأمومة ، وايريكا التي عنيت بتعليمها الراقي والتي لعلها وضعت في مستقبلها آخر مايحدوها من آمال خفية... على هذا النحو كانت تعيش ، وعلى هذا المنوال كان الوقت يمر .

وفي وقت تالٍ وبصورة ما لم تنجلِ بعد ، عرف بعض أفراد الأسرة الكلمة الهائلة التي أفلتت في تلك الليلة من السيد بيرمانيدر . فماذا قال ؟ قال : الى الشيطان أيتها الجيفة المتعفنة!

هكذا ختمت توني بودنبروك زواجها الثاني .

توماس مان

أعمال خالدة ٥

قصة آل بودنبروك تعالج موضوعات خالطت حياة توماس مان وتصف تداعي الطبقة الوسطى، ورهافة حس فنانها الذي أقعده هذا الحس المرهف عن مجابهة الحياة لما تبينه من تنافر الحياة والفكر وما اتسما به من انقسام. وتوماس مان حين يحكي يصدق، وحين يكتب يلطف ويسهب في يسر، ويتهكم تهكماً لذيذاً ينساب في كتابته ويمتع قارئه، فهو مجتمع في «آل بودنبروك» بأكمله متفتح لفن اللغة يفسرها بألمعيته في التحليل النفسي ويشيع فيها رصانته ويميزها بأمانته ودقته في نقل الإيقاع وعرض السلوك.

أعمال خالدة
٥



توماس مان

آل بودنبروك ٢

ترجمة
محمود ابراهيم الدسوقي

مراجعة
عبد الرحمن بدوي

توماس مان

آل بودنبروك ٢

ولد توماس مان في ربيع سنة ١٨٧٥ في أسرة من التجار الخاصة بمدينة لوبيك وعاش كاتباً حراً في ميونيخ. فلما تولى النازيون حكم ألمانيا في سنة ١٩٣٣ هجر بلاده إلى سويسرة، ثم عنّ له أن يهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية في سنة ١٩٣٩ فأقام فيها إلى سنة ١٩٥٢ بولاية كاليفورنيا. ثم عاد إلى سويسرة وبقي فيها إلى أن وافاه الأجل في سنة ١٩٥٥. وقد حصل فوق جائزة نوبل على جائزة جوته في سنة ١٩٤٩.

أعمال خالدة

٥

آل بودنبروك

توماس مان

(الجزء الثاني)

ترجمة

محمود ابراهيم الدسوقي

مراجعة

د. عبد الرحمن بدوي

الجزء السابع

الفصل الأول

تعميد!... تعميد في الشارع العريض .

كل شيء تمثّلته مدام بيرمانيدر أيام الحمل وهي حالمة ، كان حاضراً ، كل شيء ، فالخادم كانت تكلل بالقشدة المضروبة أقداحاً كثيرة ملأى بالشكولاته الساخنة الملتهبة كانت قائمة فوق المائدة في حجرة الطعام ، مستأنية لايسمع لها ركز يمكن أن يزعج الاحتفال القائم هناك في القاعة . وكانت الأقداح متراصة على صينية شاي مستديرة هائلة ذات مقبضين ذهبيين على شكل المحار... بينما كان الخادم أنطون يقطع فطيرة شامخة قطعاً ، والآنسة يونجمان ترتب الحلوى والأزهار اليانعة في جفان الحلوى الفضية ، تميل برأسها على كتفها بعناية ، وتباعد بين اصبعيها الصغيرين وبين البقية...

عمّا قريب تدور هذه الأطايب على السادة والسيدات حين يستقر بهم المقام في حجرة الجلوس والصالون ولعلها تكفي ، ذلك أن الأسرة كانت مجتمعة في دائرة أوسع ، وإن لم تكن في أوسع دائرة إذ تربط الأسرة بآل كستنماكر عن طريق أوڤرديك بعض القرابة ، وترتبط عن طريق أولئك بآل مولندروف وهلم جرا! . وقد كان من المحال أن ترسم في ذلك حدوداً!... غير أن آل أوڤرديك كانوا ممثلين . وكان يمثلهم رأسهم الدكتور كاسبار أوفرديك محافظ المدينة الحاكم الذي تجاوز الثمانين من العمر .

وقد جاء بمركبته وصعد الدرج متوكئاً على عكازه ، مستنداً الى ذراع توماس بودنبروك ، وقد زاد وجوده من هيبة الاحتفال... وكان الاحتفال في الحق جديراً بكل وقار!

ذلك أنه كان هناك في القاعة أمام منضدة مكسوة على غرار الهيكل مزدانة بالأزهار يعظ خلفها قسيس شاب يرتدي حلة سوداء وبنيقة ناصعة منشاة تشبه حجر الطاحون ،

شخص طويل القامة قوي البنية غني اللباس بالأحمر والذهبي شبعان ريان يحمل على ذراعيه الممتلئتين شيئاً صغييراً غارقاً في الدنتيلا وشرائط الأطلس... وريثاً! وسليلاً! من آل بودنبروك! فهل يفهم المرء معنى هذا ؟

هل يدرك المرء الغبطة الكمينة التي صاحبت الخبر من الشارع العريض الى شارع منج لمّا نطقت الكلمة الأولى الخافتة ذات المعنى ؟ هل يدرك الحماسة الصامتة التي عانقت بها مدام بيرمانيدر عند سماعها الخبر أمها وأخاها ـ وفي شيء من الاحتياط ـ زوجته ؟ والآن إذ يحل الربيع ، ربيع سنة ١٨٦١ ، يولد الطفل ويتلقى السر المقدّس بالتعميد ، الطفل الذي عقدت عليه هذه الآمال الكبيرة من أمد طويل وطال الحديث عنه ، وكان ينتظر من سنين طويلة ويشتاق اليه ، الطفل الذي توسلوا الى الله أن يهبهم إياه ، وعذبوا الدكتور جرابو في سبيله... لقد جاء ، وكان خافياً كل الخفاء عن الأنظار .

إن يديه الصغيرتين تعبثان بالجدائل الذهبية المتدلية من خصر القابلة ، والرأس الذي تغطيه طاقية من الدنتيلا مزدانة باللون الأزرق السماوي ، يستقر فوق الوسادة مجانباً بعض الشيء ، متحولاً عن القس لايلتفت اليه ، بل ترمش عيناه في القاعة فاحصة كما يفعل الكبار العقلاء أو تكادان ، ناظرتين الى الأقرباء . في هاتين العينين اللتين ترسل جفونهما أهداباً طويلة جداً حالت الزرقة الصافية التي لحدقة الأب واللون العسلي الذي لحدقة الأم فأضحت عسلية ذهبية وضاءة لاتعنيها حدود ، متبدلة مع الضوء بيد أن الموق على كلا الجانبين عند منبت الأنف كان عميقاً تحوطه ظلال مائلة الى الزرقة . ومن شأن هذا أن يكسب الوجه الصغير الذي لم يكتمل بعد شيئاً مميزاً قبل الأوان لايوائم ابن الأربعة أسابيع على خير وجه ؟ لكن لعل إرادة الله أن لايكون في هذا مكروه ؟ ذلك أن وجه الأم التي تتمتع بصحة جيدة كان على هذا النحو... والأمر سيان : فهو يعيش ، وكونه غلاماً قد كان من أربعة أسابيع مضت باعثاً على الغبطة حقاً .

إنه يعيش ويمكن أن يحدث غير ذلك . فلن ينسى القنصل أبداً ضغطة اليد التي ضغط بها الدكتور جرابو على يده قبل أربعة أسابيع لحظة أن استطاع مغادرة الأم والوليد قائلاً : «احمد الله ياصديقي العزيز ، فلم يكن باقياً عليه كثير...» ولم يجرؤ القنصل على سؤاله عن ذلك الذي لم يكن باقياً عليه كثير ، ونفى عن هذه الدنيا في سكون ملحوظ كان يمكن أن يخرج منها كما خرجت ابنة أنتونيا الثانية... لكنه كان يعرف أنه مرت بالأم والولد من أربعة أسابيع مضت ساعة عصيبة فانحنى سعيداً عطوفاً على جيردا

التي كانت الى جانب القنصلة وأمامه مستندة الى كرسي بذراعين يتعامد حذاؤهما اللامع فوق حشية من المخمل .

وكانت ماتزال شاحبة اللون ، جميلة في شحوبها جمالاً غريباً ، بشعرها الغزير القاتم الحمرة وعينيها الملغزتين اللتين كانتا تستقران على الواعظ وفيهما شيء بعينه من السحر المقنع . وكان السيد أندرياس برنجزهايم الراعي المريمي الذي ارتقى بعد موت الشيخ كولنج المفاجيء الى قس أول وهو في سن الشباب ـ كان يشبك يديه متلاصقتين لذقنه البارز في ورع ، ويحمل شعراً أشقر قصير الخصل ووجهاً حليقاً ناعماً بادي العظام يتبدل مظهره بين التزمت والتهلل ، ويبدر مسرحياً شيئاً ما ، وهو من اقليم فرانكونيا حيث كان يرعى خلال بضع سنوات عشيرة لوثرية صغيرة تعيش وسط كثالكة أقحاح ، قد باتت لهجته العامية ، بتوخيه منطقاً نقياً مؤثراً ، أسلوباً في الكلام فريداً للغاية يتميز بأحرف علة مديدة أو مؤكدة على حين بغتة «وراء» متلاحقة عند الأسنان...

وهو يحمد الله بصوت خافت مفوه أو قوي ، وتنصت اليه الأسرة : مدام بيرمانيدر في جد بالغ يخفي غبطتها وكبرياءها ، وايريكا جرينليش وقد باتت في الخامسة عشرة تقريباً فتاة قوية ذات ضفيرة مثبتة في أعلى ولون وردي هو لون بشرة والدها ، وكريستيان الذي وصل في صباح اليوم من هامبورج يقلب عينيه الغائرتين من ناحية الى أخرى... والقس تيبورتيوس الذي كان يضع عثنوني لحيته العارضية الطويلة الرفيعة فوق كتفيه ، وتتسع عيناه الصغيرتان الرماديتان هنا وهناك بصورة لاتخطر بالبال وتكبران شيئاً فشيئاً ،ثمّ تجحظان وتكادان تخرجان...وكلارا التي كانت تجيل نظرها في المكان في تجهم وجد وصرامة ، وترفع يدها أحياناً الى رأسها الذي كان يؤلمها... وقد أحضرا لآل بودنبروك هدية فاخرة هي دب قوي ، ناهض ، محشو ، بُني ، فاغراً فاه ، اصطاده قريب للقسيس في مكان ما في قلب الروسيا وأصبح الآن يقف في الردهة وبين مخلبيه صفحة لبطاقات الزيارة .

وآل كروجر يزورهم يورجن موظف البريد المقيم في رستوك ، وهو إنسان هادىء الطبع ، بسيط اللباس . أما أين يقيم يعقوب فلا يعرف أحد سوى أمه المولودة باسم أوفرديك والسيدة الضعيفة التي تبيع الفضيات خفية لترسل الى الإبن المحروم من الميراث نقوداً... كذلك سيدات بودنبروك كنّ حاضرات ، جد مغتبطات بحادث الأسرة السعيد الذي لم يمنع فيفي مع ذلك من أن تلاحظ أن منظر الطفل أدنى الى أن يدل على

المرض . وهذا أمر لم يكن بد من أن تؤكده القنصلة المولودة باسم شتيڤنج وفردريكا وهنرييت بالمثل وأسفاه! أما كلوتيده المسكينة الغبراء ، النحيلة ، الصبور ، الجائعة فكانت متأثرة من كلمات القس برنجزهايم ، تصبو الى الفطيرة الشامخة المكسوة بالشوكولاتة... وكان حاضراً من غير أعضاء الأسرة السيد فوردريك فلهلم ماركوس وزيزيمي فيشبروت .

ويتوجه الآن القس الى الأبوين بالتعميد ويعظهما في واجبهما .وأحدهما يوستوس كروجر... وقد أبى القنصل بودنبورك في مبدأ الأمر دعوته الى أبوة التعميد قائلاً : «أنحمل الرجل المسن على حماقات . إنه يتشاجر كل يوم مع زوجه من جراء الابن . ويثير أشنع المشاهد ، ويبدد ثروته الضئيلة . وقد جعل في الحق يبدي في مظهره بعض الرثاثة من أثر همومه! لكن ماذا ترون ؟ لو أنّا دعوناه الى أبوة التعميد لأهدى الى الطفل طقماً كاملاً من الذهب الثقيل لايجني من ورائه جزاءً ولاشكورا! » ـ فلمّا سمع الخال يوستوس أن أباً غيره اختير للتعميد ـ إذ ذكر اسم ستيفان كستنماكر صديق القنصل ـ عزّ عليه هذا وآلمه إلى حد كبير فقدموه . وكان باعثاً على ارتياح توماس بودنبروك ان القدح الذهبي الذي أهداه لم يكن أثقل مما ينبغي .

والأب الثاني بالتعميد كان المحافظ الدكتور أوفرديك ، ذلك الشيخ الناصع البياض المهيب المنظر الجالس على كرسي ساند مريح غاية الراحة منحنياً فوق عكازه بربطة رقبته العالية وسترته السوداء الناعمة التي يطل من جيبها الخلفي دائماً طرف منديل أحمر يستعمله لسعوطه . كان هذا حدثاً ، كان نصراً! لم يفهم بعض الناس كيف وقع . يالله! إنه لاتكاد تكون هناك قرابة! فقد جذب آل بودنبروك الشيخ وأمسكوا بناصيته... وفي الواقع : لقد كانت حيلة ، كانت دسيسة صغيرة دبرها القنصل ونسج خيوطها مع مدام بيرمانيدر . كان في الحق مجرد فكاهة خلال الفرجة الأولى بنجاة الأم والولد . «غلام ياتوني! » فصاح القنصل : «ينبغي أن يكون المحافظ أبا له بالتعميد! » فلم تلبث أخته أن اهتبلت الفرصة ، ومضت فيها جادة ، وفكر هو في الأمر ، ووافق عندئذ على القيام بمحاولة . وهكذا تواريا خلف الخال يوستوس الذي بعث بزوجته الى نسيبتها زوجة تاجر الأخشاب أوفرديك ، فكان على هذه بدورها أن تعد حماها الشيخ بعض الاعداد ، ثمّ أدى توماس بودنبروك واجبه بزيارة رئيس الدولة أظهر له فيها منتهى الاجلال...

وبينما كانت القابلة ترفع طاقية الطفل أخذ القس يرش في حذر على شعر الصغير

بودنبروك قطرتين أو ثلاثاً من صحفة أمامه فضية ذهبية الباطن ويذكر الأسماء التي يعمده بها في تؤدة وتوكيد ، وهي : يوستوس ، يوهان ، كاسبار ثم يتلو ذلك بصلاة وجيزة ، ويمر الأقارب ليطبعوا على جبين المخلوق الساكن الرضي البال قبلة التهنئة . وتأتي تيريزه فشبروت آخراً فلا يكون مناص من أن تدني القابلة الطفل قليلاً فتقبله زيزيمي لقاء هذا الإدناء قبلتين تصطفقان اصطفاقاً خفيفاً وتقول بين القبلة والأخرى : « يالك من طفل طيب! » .

وبعد ثلاث دقائق يكونون قد اجتمعوا في الصالون وحجرة الجلوس وتدور عليهم الحلوى ، يجلس معهم القس برنجهايم أيضاً في حلته الطويلة التي يطل منها حذاؤه العريض اللامع من الدهان وتبدو بنيقة رقبته ، يرتشف القشدة الباردة من شوكولاتته الساخنة ويتحدث بوجهه المتهلل بأسلوب بالغ الخفة بالغ التأثير ، على نقيض عظته ، تنطق كل حركة من حركاته بما يعني : انظروا! ها أنذا أستطيع أن أخلع عني ثوب القسيس وأكون إبناً صافي المرح من أبناء الدنيا! وكان رجلاً لبقاً مرناً يتكلم مع القنصلة الكبيرة كلاماً عذباً ومع توماس وجيردا كلاماً دنيوياً ويسلك مسلكاً دمثاً ، ومع مدام بيرمانيدر في لهجة بادية المرح والكياسة صادرة من القلب... يشبك يديه إذا شاء في حجره ويطرح رأسه الى الوراء ، ويقطب حاجبيه ويعبس . وحين يضحك يشهق شهيقاً متدفعاً يصفر بين أسنانه المطبقة .

وبغتة تنشأ في الخارج حركة في الدهليز ، ويسمع الخدم يضحكون ، ويظهر بالباب مهنىء غريب المنظر . إنه جروبليبن ، جروبليبن الذي تعلق بأنفه النحيل في كل فصل من فصول السنة قطرة مديدة بصورة دائمة من دون أن تسقط أبداً . وجروبليبن عامل من عمال المخازن عند القنصل . وقد عين له مخدومه مكسباً إضافياً من مسح حذائه ، فهو يظهر في الصباح الباكر في الشارع العريض ويتناول الأحذية الموضوعة أمام الباب ، وينظفها تحت في الرحبة . لكنه في أعياد الأسرة وحفلاتها يظهر مرتدياً ملابس أيام العطلة يحمل أزهاراً ، ويلقي أثناء توازن القطرة على أنفه وبصوت متهدج عذب خطاباً يتلقى عليه نفحة من المال . لكنه ليس لهذا يفعل مايفعل!

وكان يرتدي سترة سوداء مما يخلعه القنصل ، لكنه يلبس حذاء ذا رقبة مدهونة بالزيت ، ولفاعة صوفية زرقاء يلف بها رقبته ، وفي يده العجفاء الحمراء طاقة كبيرة من الورد الباهت الذي بدأ ينفرط تتساقط بعض بتلاته على السجادة واحدة بعد الأخرى .

وكانت عيناه الصغيرتان الملتهبتان ترمشان وتدوران من دون أن تريا شيئاً فيما يظهر... وقد وقف بالباب ممسكاً بطاقة الورد وشرع يلقي خطابه في الحال ، بينما كانت القنصلة الكبيرة تنغض برأسها بعد كل كلمة مشجعة إياه ، وتلقي اليه بعبارات وجيزة تخفف بها عنه ، ويتأمله القنصل رافعاً إحدى حاجبيه الرائقين ، ويخفي بعض أعضاء أسرة مدام بيرمانيدر فمه بالمنديل .

قال : «إني رجل مسكين سيداتي وسادتي ، لكن لي قلباً يشعر بهناء القنصل وغبطته فهو دائماً طيب معي عطوف عليّ ، ولذا أتيت لأهنىء سيدي القنصل والسيدة وهو مايستحقه من الله والناس . وهذا ليس بكثير على سيد كالقنصل بودنبروك ، فهو سيد نبيل فليجزه الله خير الجزاء...»

«كذا يا جروبليبن! لقد أجدت! فشكراً ياجروبليبن! وماذا تبغي بالورد ؟»

لكن جروبليبن لم يكن انتهى بعد فهو يجد صوته المتهدج فيطغى على صوت القنصل .

«أقول فليجزه الله في الآخرة خير الجزاء حيث نقف أمام عرشه فلا بد يوماً أن ننزل الى القبر ، فقراء وأغنياء ، هذه إرادة الله وهذا قضاؤه فواحد له نعش جميل مدهون مصنوع من الخشب ، وآخر له صندوق حقير . لكن مصيرنا جميعاً الى عفن... عفن... عفن...»

«كلا يا جروبليبن! إن عندنا اليوم تعميداً ، فكف عن عفنك!...» .

وختم جروبليبن بقوله : «وهذه بعض الأزهار!»

«شكراً يا جروبليبن! لكن هذا كثير! لقد كلفت نفسك أيها الرجل مالا تطيق! وهذه الخطبة لم أسمع مثلها من أمد طويل! اليك خذ! وابتهج بيومك!» . ووضع القنصل يده على كتفه وقدم له ريالاً .

وقالت القنصلة الكبيرة : «هاك أيها الرجل الطيب! أتحب يسوع المخلص كذلك ؟»

«هذا هو من أحبه من كل قلبي يا حضرة القنصلة . هذا هو الحق...»

ويتناول جروبليبن ريالاً منها أيضاً وثالثاً من مدام بيرمانيدر ، وينسحب وهو ينحني في خضوع حاملاً معه في غير وعي طاقة الورد ، أو بالأحرى مما بقي منها لم ينتشر فوق السجادة .

... ونهض المحافظ عندئذ للانصراف فصحبه القنصل الى أسفل حتى المركبة ـ وكان هذا إيذاناً لسائر الضيوف بالإنصراف ، ذلك أن جيردا بودنبروك كانت بحاجة الى

الراحة . وساد الغرف السكون وكانت القنصلة الكبيرة وتوني وايريكا والآنسة يونجمان هنّ الأخيرات .

وقال القنصل : «أجل يا ايدا . لقد فكرت ـ وأمي موافقة على ذلك ـ فكرت في أنك ربّيتنا جميعاً . فلو كان يوهان الصغير أكبر مما هو قليلاً... إن القابلة تعنى به الآن وسنحتاج بعدها الى مربية له ، فهل يروقك أن تنتقلي عندئذ الينا؟»

«أجل ، أجل . ياحضرة القنصل ، إذا وافقت السيدة قرينتك...»

وجيردا أيضاً مرتاحة الى هذا الترتيب وهكذا يبيت الاقتراح قراراً الآن .

بيد أنه عند الانصراف استدارت مدام بيرمانيدر مرة أخرى عند الباب وعادت أدراجها الى أخيها وقبلته فوق خديه وقالت :

«إن هذا يوم جميل يا توم . إني سعيدة سعادة لم أحسها منذ سنين . إننا آل بودنبروك لسنا في ضيق والحمد لله ، فمن يظن هذا يكن واهماً الى أبعد حد! فالآن وقد رُزقنا بيوهان الصغير ـ وجميل أننا أسميناه يوهان من جديد ـ الآن يخيل اليّ أن عهداً جديداً كل الجدة سيطلع علينا» .

الفصل الثاني

دخل كريستيان بودنبروك صاحب محل بورميستر وشريكه بهامبورج وفي يده قبعته الرمادية الحديثة الطراز وعصاه الصفراء ذات المقبض الذي يمثل رأس راهبة ـ دخل الى حجرة الجلوس التي كان أخوه يجتمع فيها بجيردا يقرأ ، وكانت الساعة قد بلغت منتصف العاشرة من مساء يوم التعميد .

قال كريستيان : «عم مساء! أخ توماس يجب أن أكلمك في أمر عاجل ، فمعذرة ياجيردا... الأمر يقضي الاسراع ياتوماس .» .

فانتقلا الى قاعة الطعام المظلمة هناك حيث أشعل القنصل نفسه مصباحاً غازياً مثبتاً في الحائط وجعل يتأمل أخاه ، موجساً شراً . وفيما خلا التحية الأولى لم تكن قد حانت فرصة للكلام مع كريستيان ، لكنه كان أثناء احتفال اليوم يراقبه بانتباه فرأى أنه كان على خلاف عادته جاداً قلقاً . فلقد غادر القاعة أثناء خطبة القس برنجرهايم مرة لسبب ما وغاب عدة دقائق... ولم يكن توماس قد كتب له سطراً واحداً من ذلك اليوم الذي تسلم فيه كريستيان في هامبورج عشرة آلاف مارك من ميراثه سلفاً ـ سلمها اليه بيده تسديداً لديون عليه . وقد قال له القنصل : «امض على هذا المنوال تنفذ قروشك على عجل . أما مايتعلق بي فأرجو ألا تعترض سبيلي في المستقبل إلا قليلاً ، فقد امتحنت صداقتي في كل هاته السنين امتحاناً قاسياً»... فلماذا جاء الآن ؟ لابد أنه قد ساقته أمور عاجلة...

وقال القنصل : «والآن ؟»

فأجاب كريستيان وقد ارتمى جانباً على مقعد من ذوات الظهور العالية المحيطة بمائدة الطعام ، ووضع قبعته وعصاه بين ركبتيه النحيلتين : «لم أعد أستطيع بعد الآن شيئاً» .

فسأله القنصل الذي بقي واقفاً : «ألي أن أسألك ماهذا الذي لم تعد تستطيع بعد الآن ؟ ما الذي يقودك اليّ ؟ »

فأعاد كريستيان : «لم أعد أستطيع شيئاً بعد الآن» . والتفت يمنة ويسرة في جد بادي القلق في صورة مخيفة ، وأجال عينيه الصغيرتين المستديرتين الغائرتين في المكان . وكان عندئذ في الثالثة والثلاثين من عمره ، لكن منظره كان أسن كثيراً . وقد خف شعره الأشقر الضارب الى الحمرة خفة ملحوظة حتى انكشف كل مايغطي قمة الرأس منه تقريباً ، تبرز عظمتا خديه الغائرتين بروزاً شديداً ويحدودب بينهما أنفه الكبير مجرداً من اللحم هزيلاً في حدبة هائلة...

ومضى يقول وهو يزلق يده على جانبه الأيسر الى أسفل من دون أن يلمس جسمه : «لو كان هذا وحده! إنه ليس بألم ، إنه عذاب أتعرف ؟ عذاب دائم لايدرك كنهه . وقد قال لي الدكتور دروجميلر في هامبورج أن كل الأعصاب في هذه الناحية أقصر مما ينبغي... فتصور أن كل أعصابي في الجهة اليسرى جميعها أقصر مما ينبغي! إن هذا جد غريب... فأحياناً يخيل اليّ أن هنا في الجانب الأيسر تقلصاً ما أو فالجاً لابدّ أن يقع . فالجاً يلازمني على الدوام... إنك لاتتصور... لا أستطيع أن أنام بالليل نوماً هادئاً ، فإني أنتفض لأن قلبي يكف بغتة نبضه ويتولاني خوف شديد... ولايقع هذا مرة واحدة بل عشر مرات قبل النعاس... لاأعلم هل تعرف هذا... فسأصفه لك بالدقة... إنه...» .

فقاطعه القنصل ببرود : «دع هذا! فإني لاأظن أنك جئت الى هنا لتقص عليّ ذلك» .

«كلا ياتوماس ، ولو كان هذا وحده! لكنه ليس كل شيء! إنه عملي... فأنا لا أستطيع بعد الآن شيئاً» .

«هل اضطربت أحوالك ثانية ؟ » وكف القنصل عن الهبوب أو رفع الصوت ، وكان يسأل في هدوء تام ، بينما كان يتأمل أخاه من جنب في برود بادي التعب .

«كلا ياتوماس . ولكي أقول الحقيقة ـ ومع ذلك فالأمر سيان ـ الحقيقة أن الأمور لم تستقم لي قط . حتى بعشرة آلاف مارك ، كما تعلم أنت نفسك... فقد كانت هذه في الحقيقة لكي لا أغلق المتجر في الحال...والمسألة هي... إني منيت بعدها بخسارة أخرى... في البن ، وفي تفليسة أنفرس... هذا حقيقي . على أني بعد ذلك لم أفعل في الحق شيئاً ولزمت السكون... لكنه لابدّ للمرء أن يعيش... وهناك الآن سفاتج وديون أخرى... خمسة آلاف ريال... آه ، إنك لاتدرك مبلغ هبوطي! ثم هذا العذاب الى ذلك كله... »

وصاح القنصل به وقد خرج عن طوره : «اذن لقد لزمت السكون!» وطار في هذه اللحظة صوابه وقال : «لقد تركت العربة في الوحل وذهبت تتسلى في ناحية أخرى! أتظن أني لاأتمثل كيف كنت تعيش ، في المسرح والسيرك والنوادي ومع المنحطات من النساء» .

«هل تعني إلينا... أجل إنك في هذه الأشياء ينقصك الفهم الكثير ياتوماس ، ولعله من سوء طالعي أن فهمي لهذه الأشياء أكثر مما ينبغي ، ذلك أنك محق في أن هذا كلّفني أكثر من اللازم وسيكلفني دائماً الكثير تقريباً... إن الطفلة الثالثة ، الفتاة الصغيرة التي ولدت قبل نصف عام... مني» .

«حمار!»

«لاتقل هذا ياتوماس . يجب أن تكون منصفاً ، حتى في غضبك ، لها ولـ... لِمَ لاتكون الطفلة من ظهري ؟ أما مايتعلق بألينا فليست بالمنحطة قطعاً . ومثل هذا القول لايجوز . فليس يستوي عندها أن تعيش مع أي شخص كائناً ماكان وقد قطعت من أجلي علاقتها بالقنصل هولم الذي يملك من المال أكثر مما أملك . فإلى هذا الحد طيبتها... كلا ، إنه لافكرة عندك ياتوماس أية مخلوقة عظيمة هي! إنها صحيحة البدن...صحيحة البدن...!» أعادها كريستيان وهو يضع يده أمام وجهه مقوس الأصابع ، ظاهرها الى الخارج ، كما اعتاد أن يفعل كلّما حكى عن : «هذه ماري» وعن الرذيلة في لندن . قال : «حسبك أن ترى أسنانها وهي تضحك! إنني لم أجد في العالم كله بعد شبيهاً لهذه الأسنان ، لا في ڤلباريزو ولا في لندن... ولن أنسى قط ذات مساء وقد تعرفت اليها... عند أوليش في «حانة المحار»...كانت إذ ذاك ترافق القنصل هولم ، فأخذت أقص عليها شيئاً وأتلطف معها شيئاً... فلمّا فزت بها بعد ذلك... ما أبدع ياتوماس! إن هذا الشعور يختلف كل الاختلاف عن صفقة جيدة تعقدها... لكنك لاتحب سماع مثل هذه الأشياء . وألاحظ ذلك عليك الآن من جديد ، وقد انتهى أيضاً أمري معها . سأقول لها وداعاً ، وإن كنت سأبقى متصلاً بها من جراء الطفلة... سأدفع في هامبورج كل شيء أنا به مدين ، أتفهم ، ثمّ أغلق المحل . فلست أستطيع بعد الآن شيئاً . وقد تحدثت مع أمي ، وهي لاتمانع في إعطائي خمسة آلاف ريال مقدماً كي أرتب أموري ، وستوافق أنت على ذلك أيضاً ، لأنه خير لي أن يقال بكل بساطة أن كريستيان بودنبروك صفى أعماله وسافر الى الخارج من أن يقال أنه أفلس . وستعطيني الحق في ذلك . وأريد على التعيين أن أعود الى لندن ياتوماس ، ففي لندن وظيفة لي ، والاستقلال في العمل لم

يخلق لي ، فهذا ما أزداد تبيناً له على مر الأيام... هذه التبعة... فالمرء بوصفه مستخدماً يعود الى بيته في المساء خالي البال... وفي لندن يحلو لي المقام ، فهل لديك على هذا اعتراض ؟ »

كان القنصل أثناء هذا البيان كله يدير لأخيه ظهره ، ويرسم بقدمه وهو واضع يديه في جيبي سراويله ، صوراً على الأرض ، فقال ببساطة : « حسناً ، اذهب إذن الى لندن » . وخلفه وراءه في منتصف الطريق من دون أن يلتفت اليه ولو لمرة واحدة ، عائداً الى حجرة الجلوس .

بيد أن كريستيان تبعه ، وقصد الى جيردا التي كانت هناك وحدها جالسة تقرأ فمد اليها يده قائلاً : « طاب ليلك ياجيردا . أجل يا جيردا إني أعود في أول فرصة الى لندن ، وغريب كيف يقذف بالمرء هنا وهناك والآن الى المجهول ثانية . أتعلمين ، الى مثل هذه المدينة الكبيرة ، حيث تقع في كل خطوة ثالثة مغامرة ، ويشهد المرء الكثير . غريب... أتعرفين هذا الشعور ؟ إنه يستقر عندي هنا... في المعدة... غريب جداً... » .

الفصل الثالث

مات چيمس مولندروف عميد التجار الشيوخ . مات على صورة غريبة تقشعر منها الأبدان . فهذا الشيخ الهرم الذي كان مريضاً بالسكر تعطلت فيه غرائز حفظ الذات تعطلاً شديداً ، فوقع في السنوات الأخيرة من حياته فريسة شهوة جامحة للفطائر والتوترات . وقد احتج عليه الدكتور جرابو الذي كان أيضاً طبيب آل مولندروف الخاص ، بكل شدة ، وكان الدكتور يستطيع ذلك . فمنعت الأسرة المهمومة عميدها من تناول الخبائز الحلوة في شيء من الشدة والرفق معاً . لكن ماذا فعل السناتور ؟ استأجر وهو الضعيف العقل في مكان ما من شارع لايليق بمقامه في حي جروبل جروبه الصغير حجرة ، غرفة كأنها ثقب حقيقي ، كان يتسلل اليها ليأكل فيها فطائره... وهناك وجدوه ميتاً مليء الفم بفطيرة مضغ نصفها ولطخ بها سترته وتناثر بعضها فوق المائدة . وقد دهمته نوبة قلبية قضت عليه في الحال بدلاً من الموت البطيء .

وقد كتمت الأسرة تفاصيل هذه الميتة التي تثير الاشمئزاز ما أمكنها الكتمان . لكن هذه التفصيلات سرعان ماذاعت في المدينة فباتت حديث الناس في البورصة والمنتدى وفي مقهى «الانسجام» ، وفي المكاتب وبين المواطنين ، وفي المراقص والمآدب والسهرات ، ذلك أن الحادث وقع في فبراير سنة ١٨٦٢ حيث حياة المجتمع على قدم وساق . حتى صديقات القنصلة بودنبروك كنّ في «مساء أورشليم» يتحدثن عن ميتة السناتور مولندروف في كل مرة تكف فيها ليا جيرهارت عن التلاوة . وحتى الصغيرات من تلميذات يوم الأحد كنّ يتهامسن بها وهنّ يعبرن رحبة بيت بودنبروك الكبيرة هائبات . وقد جرى للسيد شتوت حديث مفصل عنها مع زوجته التي تغشى دوائر الطبقة الراقية .

على أن الاهتمام لم يقتصر طويلاً على ماوقع ، بل سرعان مانبتت مع أول إشاعة عن وفاة هذا العضو المسن من أعضاء المجلس المسألة الوحيدة الكبرى... ولما ووري التراب كانت هذه المسألة وحدها هي الشغل الشاغل لكل الأذهان : من يكون خلفاً له ؟

فياله من توتر ، وياله من شغل خفي! أما الأجنبي الذي جاء ليشاهد معالم المدينة من عهد القرون الوسطى ومحيطها الجذاب ، فلم يلحظ من ذلك شيئاً . لكن أية حركة كانت تجيش تحت السطح! ؟ أية إثارة! آراء شريفة ، سليمة ، لايتسرب اليها شك كانت تتضارب ، وتصطخب بدافع الاقتناع ويمحص بعضها بعضاً رويداً رويداً . كانت المشاعر ثائرة ، والطموح والغرور يفوران في سكون ، والآمال المدفونة تنتشر وتنهض وتخيب . فالتاجر العجوز كورتس الساكن في «حارة الخبازين» والذي يصيب ثلاثة أو أربعة أصوات في كل انتخاب سيجلس من جديد في يوم الانتخاب يرتعش في منزله ينتظر النداء ،لكنه لن ينتخب أيضاً هذه المرة ، بل سيمضي يضرب الافريز بعصاه وعليه سيماء الرجل الشريف الراضي عن نفسه ، وسيرقد في القبر يصحبه هذا الهم الخفي من أنه لم يصبح سناتوراً...

ولمّا دار الحديث في يوم الخميس وقت الغداء عند آل بودنبروك حول وفاة چيمس مولندروف كانت مدام بيرمانيدر قد بدأت ، بعد أن أعربت عن أسفها ببضع كلمات ، تدير طرف لسانها على شفتها العليا وترفع بصرها في مكر الى أخيها ، الأمر الذي حمل سيدات بودنبروك على أن يتبادلن نظرات حادة تنبو عن الوصف ، ثمّ أن يغمضن جميعاً أعينهن ويطبقن شفاههن ثانية كأنهن يصدعن بأمر . وقد ردّ القنصل لحظة على ابتسامة أخته الماكرة ثمّ حول موضوع الحديث ، فقد كان يعلم أن الناس في المدينة أبدوا الفكرة التي كانت تدور في خلد توني وتسعدها .

لقد ذكرت أسماء ثمّ أطرحت ، وظهرت أسماء أخرى ومحصت . فقد كان هننج كورتس أكبر سناً مما ينبغي والحاجة ماسة أخيراً الى نشاط متجدد . وكان القنصل هوينوس تاجر الخشب الذي لم تكن ملايينه خفيفة في الميزان ، غير مقبول من الناحية الدستورية لأن أخاه كان عضواً في مجلس الشيوخ . وكان القنصل ادوارد كستنماكر تاجر النبيذ والقنصل هرمان هاجنشتروم مكينين في القائمة ، لكنه منذ البداية كان هذا الاسم : توماس بودنبروك يرنّ على الدوام ، وكلّما اقترب يوم الانتخاب ازداد وضوحاً . إنه وهرمان هاجنشتروم أكثرالمتقدمين فرصاً .

وليس شك في أنه كان لهرمان هاجنشتروم أنصار معجبون ، فهمته في معالجة الشؤون

العامة والسرعة الملحوظة التي ازدهرت بها شركة شترونك وهاجنشتروم وتطورت ، وعيشة الترف التي يعيشها ، والبيت الذي يديره ، وعجينة كبد الأوز التي يفطر بها ـ كل هذا لم يقصر عن أن يكون له أثره . فهذا الرجل الضخم البدين أكثر من اللازم قليلاً بلحيته الضاربة الى الحمرة التي يحتفظ بها قصيرة وأنفه المفرطح المستقر فوق شفته العليا ، هذا الرجل الذي لم يعرف أحد جده ولا هو أيضاً عرفه ، والذي لايرحب المجتمع بأبيه لزواج در عليه المال لكنه كان مريباً ، والذي يعد اسمه ، وقد صاهر هونيوس كما صاهر مولندروف ، في جملة الأسر الخمس أو الست النافذة الكلمة وفي مستواها ، قد كان بلا جدال ظاهرة ملحوظة محترمة في المدينة . والطريف الجذاب في شخصيته ، وهو ماميزه وجعل له مركزاً مرموقاً في أعين الكثيرين قد كان الكرم والتسامح اللذين يتسم بهما كيانه ويؤلفان الملمح الأساسي فيه . وقد كان الأسلوب السهل الذي يكسب به المال وينفقه عن سعة يختلف عن أسلوب مواطنيه التجار وعملهم المضني الذي يتحلّون فيه بالصبر ويسترشدون فيه بما توارثوه من مبادىء صارمة . وقد كان هذا الرجل طليقاً من أسر التقاليد والتقوى الكابحة . يسير على هواه . وقد كان كل شيء قديم الطراز غريباً عنه ، فلم يكن يسكن بيتاً من بيوت الأعيان القديمة المتعددة الحجرات بصورة تدل على الترف والسخف والتي تحيط بأفنيتها الهائلة المرصوفة بالحجارة أروقة مدهونة باللون الأبيض وقد كان بيته في شارع زند ـ وهو امتداد للشارع العريض نحو الجنوب ـ بسيطاً في واجهته المدهونة بالزيت يحتوي على الغرف الضرورية مؤثثة برياش ثمين ، أنيق ، مريح ، وكان جديداً بعيداً عن كل طراز جامد . هذا الى أنه كان دعا الى بيته من أمد قصير في إحدى سهراته الكبرى مغنية من مسرح المدينة غنت بعد تناول الطعام لضيوفه الذين كان من بينهم أخوه القانوني المحب للفنون المولع بالآداب ، وبالغ في إكرامها . ولم يكن بالرجل الذي يؤيد في مجلس المواطنين رصد مبالغ كبرى من المال لترميم آثار القرون الوسطى وحفظها . أما أنه كان الأول ، أول من أضاء المدينة بأسرها مسكنه ومكاتبه بالغاز فأمر واقع . وحقاً إن القنصل هاجنشتروم إذا كان حرص على أي تقليد ، فقد كان أسلوب التفكير الحر التقدمي المنطوي على التسامح المتّسم بالنزاهة المأثور عن والده الشيخ هينريش هاجنشتروم ، وهذا أساس الإعجاب الذي استمتع به .

بيد أن مكانة توماس بودنبروك كانت من نوع آخر . فلم يكن فحسب ماهو ، بل كان الناس يكرمون فيه شخصيات أبيه وجده وجده الأكبر ، وكان بغض النظر عن نجاحه في

أعماله الخاصة والعامة يحرز بين المواطنين مجداً عمره مائة عام . وأهم شيء فيه قد كان بلا ريب تلك الطريقة السهلة النامة عن الذوق ، الودود ، الأسرة التي كان يمثل بها هذا المجد ويفيد فنه . وكان يميزه قدر من التعليم الشكلي غيرمألوف اطلاقاً بين مواطنيه العلماء . كان حيث يعبر يثير من العجب بقدر مايثير من الاحترام...

كان الكلام في أيام الخميس يدور عن آل بودنبروك عن الانتخاب المنتظر ، وكان يجري في صورة من الملاحظات الوجيزة العارضة تقريباً ولايتعداها فتجيل القنصلة الكبيرة خلالها عينيها الرائقتين جانباً . لكن مدام بيرمانيدر كانت على الرغم من ذلك لاتكف عن التشدّق قليلاً بمعرفتها المدهشة بدستور الدولة الذي درسته فيما يتّصل بانتخاب عضو مجلس الشيوخ كما درسته من أمد فيما يتعلق بمواد الطلاق تفصيلاً ، فكانت تتحدث عندئذ عن اللجان الانتخابية والناخبين وبطاقات التصويت وتبحث في كل مايخطر بالبال من احتمالات وتتلو عن ظهر قلب اليمين الرسمية التي يؤديها الناخبون وتتحدّث عمّا تديره اللجان الانتخابية كل على حدة من مداولات حرة وفق الدستور تتعلق بأولئك الذين تقيد أسماؤهم في قوائم المرشحين ، وتعرب عن رغبتها الحارة في أن يسمح لها بالاشتراك في المداولة «المتّسمة بخلوص الطوية» التي تدور حول شخصية هرمان هاجنشتروم . وبعد ذلك بلحظة انحنت الى الأمام وجعلت تحصي نوى البرقوق الملقى في صحن فاكهة أخيها المطبوخة وتقول : «كبير – حقير ، وزير – خفير...» وتدفع بالنواة الناقصة الى الطبق الصغير بطرف سكينها . وبعد الفراغ من تناول الطعام لم تقو على الصبر فسحبت القنصل من ذراعه وانتحت به جانباً الى حنية النافذة وقالت : «آه يا توم... إذا انتخبت... إذا دخل رنكنا الغرفة الحربية في مجلس البلدية... فإني سأجن من الفرح ، سأسقط ميتة وسترى!»

فقال : «ياعزيزتي توني! التزمي الرزانة والوقار قليلاً ، أرجوك! فإن هذا لايزايلك في مألوف عادتك ؟ فهل أطوف بالناس كما يفعل هننج كورتس ؟ فنحن من دون أن نكون أعضاء شيوخ شيء مذكور... وسواء ظفرت بهذا اللقب أو لم أظفر ، فستعيشين كما آمل» .

وأخذ التهيج وأخذت المداولات والمساجلات مجراها ، واشترك فيها القنصل بيتر دولمان المستهتر ، بمتجره الكاسد كل الكساد ، الباقي اسماً ، وبأبنته البالغة السابعة والعشرين من عمرها التي بدد ميراثها ، فكان في مأدبة عشاء أقامها توماس بودنبروك ، وفي مأدبة مماثلة أقامها هرمان هاجنشتروم ، يسمي الداعي وبصوت رنان صاخب «سيدي

السناتور» أما سيجموند جوش ، السمسار العجوز جوش ، فكان يطوف كالأسد الزؤور آخذاً على عاتقه أن يخنق بلا لف ولا دوران كل من لايصوت للقنصل بودنبروك .

«القنصل بودنبروك أيها السادة..ها! ياله من رجل! لقد وقف بجانب والده لما هدأ بكلمة واحدة ثورة الشعب المنفلت من عقاله في سنة ١٨٤٨ . . . فلو كان عدل على الأرض لكان أبوه وأبو أبيه عضوين في مجلس الشيوخ بالفعل» .

وفي قرارة الأمر لم يكن القنصل بودنبروك الذي ألهبت شخصيته باطن السيد جوش هو الباعث على هذا الكلام بقدر ماكانته السيدة القنصلة الشابة المولودة باسم أرنولدسن . وليس هذا لأن السمسار تبادل إذ ذاك كلمة معها ، أو أنه ينتمي الى دائرة التجار الأغنياء أو يأكل على موائدهم ، ويتبادل معهم بطاقات الزيارة ، ولكن لأن جيردا بودنبروك ، كما سبق أن ذكرنا ، لم تكد تظهر في المدينة حتى التهمتها نظرة من السمسار الجهم عامرة دائماً بالشوق تنشد غير المألوف . من ذلك الحين أدرك بغريزته الأمينة أن هذه الظاهرة صالحة لأن تكسب كيانه المتعطش شيئاً آخر من الري فجعل من نفسه بكليته عبداً لها وهي التي كادت ألا تعرف اسمه . من ذلك الحين أحاط بأفكاره هذه السيدة العصبية المتحفظة الى أقصى حد والتي لم يقدمه أحد اليها ، شأن النمر مع مروضه بنفس الوجه الحانق ونفس الموقف المنطوي على المذلة والعذر الذي يرفع لها فيه قبعته الجزويتية في الشارع من دون أن تتوقع منه ذلك.. وهذا العالم الوسط لم يكن يتيح له أن يرتكب نحو هذه السيدة عملاً خبيثاً بغيضاً ينهض بتبعته وهو الأحدب العابس ، المقرور في معطفه ، المستمتع بمثل راحة البال التي يستشعرها الأبالسة . ولم تكن عادات الناس المملة تسمح له أن يبوىء هذه المرأة عرش الأباطرة بالإغتيال والجريمة والحيل الملطخة بالدم . فلم تدع له سوى أن يصوت في مجلس الشيوخ لزوجها الذي يحترمه رغم أنفه وربّما أن يهدي اليها مرة ترجمته لمجموعة مسرحيات لوب دي ڤيجا .

الفصل الرابع

يجب في خلال أربعة أسابيع أن يملأ من جديد كل كرسي شاغر في مجلس الشيوخ . هذا نص الدستور . وقد تقضت ثلاثة أسابيع منذ وفاة جيمس مولندروف . والآن يقترب يوم الإنتخاب وهو يوم فيه تذوب الثلوج ويقع في نهاية فبراير .

وفي الشارع العريض أمام دار البلدية بواجهتها القرميدية المزججة المفرغة ، وأبراجه وبريجاتها المتسامية صوب السماء الشهباء ، ومصعد درجها المسقف المستقر على أعمدة خارجة ، وبوائكها المدببة التي يرى من خلالها ميدان السوق ونافوراته... أمام دار البلدية هذه يتزاحم الناس في الساعة الواحدة عند الظهيرة ، ويقفون في الثلج الذائب ومائه القذر في الشارع تغوص أقدامهم فيه الى الأعماق وينظر بعضهم الى بعض ، ثمّ ينظرون أمامهم ويتطلعون بأعناقهم : ذلك أنه في هذه الساعة بالذات ، هناك خلف ذات الباب المفضي الى قاعة المجلس التي صفّت مقاعدها الاثنى عشر ذات الأذرع على شكل نصف دائرة تنتظر كذلك جمعية الانتخاب المؤلفة من أعضاء مجلس الشيوخ ومجلس المواطنين ــ تنتظر مقترحات لجان الانتخاب...

وقد طال على ذلك الأمد ، إذ يظهر أن مناقشات لجان الانتخاب لم تشأ أن تقر ، وأن الكفاح كان يستعر ، وأنه الى تلك اللحظة لم يكن الرأي استقر على اقتراح شخص واحد للجمعية بحال من الأحوال ، وإلا لأعلن المحافظ انتخابه في الحال... غريب! إن أحداً لايدرك من أين تصدرالإشاعات ، وأين وكيف تنبت ، لكن الإشاعات تتدافع من الباب الى الشارع وتنتشر . فهل الواقف هناك في الداخل هو السيد كاسبرسن أكبر حاجبي المجلس سناً الذي لايطلق على نفسه سوى «موظف الدولة» ويدير من زاوية

فمه مايتّصل به الى الخارج ، بأسنانه المطبقتين وعينيه المحولّتين . الآن يقال أن الاقتراحات قد دخلت الى قاعة المجلس ، وإن كلاً من اللجان الثلاث قد اقترحت اسماً مختلفاً : هاجنشتروم ، بودنبروك ، كستنماكر! ندعوالله أن يسفر الانتخاب العام الآن عن أغلبية مطلقة في الأقل بالاقتراع السري فوق بطاقات الأصوات! فالناس ، من لم يلبس منهم فوق الأحذية أغطية دافئة ، أخذوا يحركون سيقانهم ويضربون الأرض بأقدامهم المتألمة من البرد .

واولئك الذين يقفون هنا ينتظرون هم أناس من طبقات الشعب كافة . فمنهم البحارة برقابهم العارية الموشومة يدسون أيديهم في جيوب سراويلهم الفضفاضة المنخفضة . وحمالو الغلال بقمصانهم وسراويلهم القصيرة المصنوعة من التيل الأسود اللامع ووجوهم المعبرة عن استقامة منقطعة النظير ، وسائقون يعتلون ، والأسواط في أيديهم أعدال الغلال المكدّسة طبقة فوق طبقة ينتظرون نتيجة الانتخاب ، وخادمات متلفعات مؤتزرات يرتدين الجونلات السميكة المخططة وعلى مؤخرة رؤوسهن القلانس الصغيرة البيضاء ، وفوق أذرعهنّ العارية السلال ذات الآذان ، وبائعات السمك والخضر بسلال القش . بل لقد كان من بينهم بضع فتيات جميلات بستانيات بقلانسهن الهولندية ، وجونلاتهن القصيرة ، وأكمامهن الطويلة المثناة البيضاء المنتفخة من النطاق المطرز بأزهى الألوان... وبين هؤلاء وهؤلاء مواطنون وأصحاب حوانيت من الجيران خرجوا من دون قبعات يتبادلون الرأي ، وتجار شبان حسنو اللباس ، أبناء يقضون في مكاتب آبائهم أو مكاتب أصدقاء آبائهم مدة التمرين ثلاث سنوات أو أربعاً ، وصبية مدارس يحملون حوافظهم وربط كتبهم .

وكان هناك عاملان يمضغان الطباق ويلتحيان بلحية كثة على غرار لحى الملاحين وقفت خلفهما سيدة تتلفت يمنة ويسرة في اضطراب شديد تحاول النظر بين أكتاف الشخصين القويين الى دار البلدية . وكانت ترتدي معطفاً مسائياً ركب عليه فراء طويل بنّي كانت تضمه من الداخل بكلتا يديها ، وتستر وجهها كله بقناع كثيف بني ، ويخوض حذاؤها المصنوع من المطاط في ماء الثلج بلا انقطاع .

وقال أحد العاملين للآخر : «لن ينجح السيد كورتس هذه المرة أيضاً» .

«كلا أيها الأحمق . إنه لن يحتاج الى تضليلي بعد الآن . إن الأصوات جميعاً قد أعطيت لهاجنشتروم وكستنماكر وبودنبروك» .

«أجل . غير أن المسألة هي : من من الثلاثة يتغلب على الآخرين ؟ »
«نعم ، قل لي أنت هذا!»
«أتعرف . أعتقد أنهم سينتخبون هاجنشتروم» .
«نعم أيها المخادع ، إن الشيطان يتكلم فيك» .

وبصق تبغه على الأرض إذ لم يمكّنه الزحام من أن يرسم ببصقته قوساً يبتدىء عنده ، ثمّ رفع بكلتا يديه سراويله من تحت نطاقه الجلدي الى أعلى وتابع كلامه : «هاجنشتروم إنه زكيبة أكل ولا يمر هواء في أنفه... هو بدين الى هذا الحد... كلا ، أما وقد أخفق كورتس من جديد فأنا مع بودنبروك : إنه رجل همام!»

«هذا ماتقوله أنت . لكن هاجنشتروم أكثر همة منه...»
«الأمر لايتوقف على هذا ، ولادخل لهذا هنا» .

«ثم إن بودنبروك أيضاً متناه في الأناقة بقلابات أكمامه وربطة عنقه الحريرية وشاربه المفتول... ألم تره وهو يسير ؟ إنه يتواثب دائماً كما لو كان طائراً...»

«أيها الأبله ، مادخل هذا ؟»
«وله أخت هربت ثانية من زوجين»
...فارتعشت السيدة التي ترتدي معطف المساء .
«هذه مسألة شائكة ، لكننا لانعرف عنها شيئاً . ثمّ إن القنصل لايملك لها دفعاً» .

كلا ، أليس كذلك ؟! هذا ماكانت تراه السيدة المقنعة وهي تضغط يديها تحت المعطف... أليس كذلك ؟ أوه ، والحمد لله!

وأضاف الرجل الذي يناصر بودنبروك قائلاً : «ثمّ إن المحافظ أوفرديك كان لابنه أبا التعميد . وهذا له شأنه ، أقول لك...»

وتفكر السيدة : أليس كذلك ؟ نعم ، والحمد لله!... فقد كان لهذا أثره... وارتعدت فقد خرجت إشاعة أخرى وسرت تتعرج الى الوراء حتى بلغتها . إن الانتخاب العام لم يصل الى نتيجة حاسمة . فقد حصل ادوارد كستنماكر على أقل الأصوات وخرج منه . والمعركة بين هاجنشتروم وبودنبروك مستمرة .

ويلاحظ مواطن عليه هيئة المعتد برأيه أنه إذا تعادلت الأصوات سيكون من الضروري اختيار أربعة مشرفين يقررون أغلبية الأصوات .

وبغتة ينادي صوت في المقدمة هناك عند المدخل يقول : «لقد انتخب هيني سيهاز!»

وهيني سيهاز هذا شخص سكير دائماً أبداً ، يجول بخبز مما ينضجه البخار على عربة يد! فيضحك الجميع ويشبون على أطراف أصابعهم ليروا صاحب النكتة . وكذلك السيدة ذات القناع قد هزّ كتفيها ضحك عصبي لحظة من الزمان وصاحبت هذا الضحك مع ذلك حركة معناها : «أهذا وقت التنكيت ؟» . ثمّ تمالكت نفسها يحدوها شيء من القلق وعاودت النظر بين العاملين الى دار البلدية في لهفة . لكنها في نفس اللحظة أرخت يديها حتى انفرج معطفها المسائي من أمام . ووقفت هكذا منخفضة الكتفين متراخية يكاد يقضى عليها...

هاجنشتروم! لقد وصل الخبر ولايدري أحد من أين جاء . وصل الخبر كأنّما نبت من بطن الأرض أو هبط من السماء ، وهو في نفس الوقت في كل مكان... ليس ماينقضه فهو حاسم . هاجنشتروم! ـ أجل ، أجل ، إنه اذن هاجنشتروم . وليس ثمة ماينتظر . كانت السيدة ذات القناع خليقة أن تتوقعه . فهكذا الحياة دائماً . فالآن يمكن العودة الى البيت . فهي تشعر كأنها توشك أن تبكي...

ولا تكاد تمر ثانية على هذه الحالة حتى تسري في الجمع عن بكرة أبيه صدمة مفاجئة ، رجة ودفعة تشق طريقها من أمام الى وراء ، وتسند الأماميين الى الخلفيين ، بينما يخطف في نفس الوقت عند الباب هناك شيء أحمر قان... سترتا حاجبي المجلس الحمراوان وقد ظهر صاحباها كاسبرسن وأوليفلت بلباسهما الرسمي يضعان القبعة المثلثة الأركان ويرتديان سراويل الركوب البيضاء تزدان أكمامهما بزركشة صفراء وعلى جانبيهما سيف الزينة يشقان طريقهما جنباً الى جنب بين الجمع المتراجع .

إنهما ينطلقان كالقضاء وقورين ، صامتين ، مغلقين ، لايلتفتان يمنة أو يسرة ، خافضين البصر الى الأرض... يتّجهان الوجهة التي عيّنتها نتيجة الانتخاب وهما يعلمان ، في عزيمة لاتهن . ولم تكن هذه الوجهة شارع زاند بل كانا يتّجهان الى اليمين هابطين الى الشارع العريض!

لم تصدق السيدة ذات القناع عينيها ، لكنه من حولها كان الناس يرون ماتراه ، فتحولوا في نفس الإتجاه الذي كان الحاجبان يتجهانه يقول بعضهم لبعض : «عجيب ، عجيب ، بودنبروك! وليس هاجنشتروم!» ويخرج من باب البلدية سادة مختلفون منهمكين في الحديث ويعرجون وينطلقون بخطى سريعة هابطين الى شارع منج ليكونوا أول المهنئين .

وهنا ضمت السيدة معطفها المسائي وانطلقت تعدو كما لاتفعل سيدة في الحقيقة ،

وانزاح قناعها وكشف عن وجهها الصاخد ، ولكن هذا لايهم . ومع أن فرداً من حذائها العلوي المحلي بالفراء كان ينسل دائماً في الثلج الذائب ويعوقها على أسوأ وجه فإنها سبقت الجميع وبلغت أولاً البيت الكائن على الناصية في « حفرة الخبازين » فدقت الجرس عند الصفة دقاً شديداً وصاحت بالفتاة التي فتحت الباب : « إنهم قادمون ياكاترين ، إنهم قادمون! » وصعدت الدرج طائرة واقتحمت حجرة الجلوس فنحى أخوها الصحيفة جانباً ، وكان في الحق ممتقع اللون شيئاً ما فلاقاها بحركة من يده يكفها عمّا كانت بسبيل أن تفعله... لكنها عانقته وكررت قولها : « إنهم قادمون ياتوم ، إنهم قادمون! لقد انتخبت وسقط هرمان هاجنشتروم »

●

كان يوم جمعة . فقد وقف السناتور بودنبروك في اليوم التالي بالفعل في قاعة المجلس أمام مقعد چيمس مولندروف الراحل يحلف اليمين في حضرة الآباء المجتمعين ولجنة المواطنين على السواء ، ويقول : «أريد أن أودي وظيفتي بذمة وأن أعمل لخيرالدولة بكل قواي . أريد أن أكون أميناً على دستورها ، وأن أرعى الصالح العام بشرف فلا أراعي في تأدية وظيفتي ، وخاصة في الانتخابات كافة ، مصلحتي الخاصة أو قرابة أو صداقة . أن أقيم قوانين الدولة وأنفذ العدالة مع الجميع الغني منهم والفقير . وأريد كذلك أن أكون كتوماً في كل مايتطلّب الكتمان لكنّي أريد على الأخص أن أحفظ سر مايطلب مني حفظ سره . وليساعدني الله! »

الفصل الخامس

تنشأ أمنياتنا وتنبت مشروعاتنا من احتياجات بعينها تتطلب أعصابنا ولايسع الكلمات تعيينها . وهذا الذي يسمونه عجب توماس بودنبروك والعناية التي يبذلها لهندامه والترف الذي يأخذ به في زينته كان في الحقيقة في أساسه شيئاً آخر . فلم يكن في الأصل شيئاً أكثر من حرص الانسان من العاملين على أن يشعر دائماً من قمة رأسه الى أخمص قدميه بتلك الاستقامة وذلك التماسك اللذين يتم بهما للمرء المظهر . بيد أن المطالب التي يتطلبها هو نفسه ويتطلبها الناس من موهبته وقواه نمت إذ تكاثرت عليه واجباته الخاصة والعامة . وقد خصه في «توزيعات المجلس» للوظائف على أعضاء مجلس الشيوخ دائرة الاختصاص الرئيسة للضرائب ومهام السكك الحديدي والجمارك وغيرها من شؤون الدولة . وفي آلاف الجلسات التي تعقدها مجالس الإدارة ويتولى منذ انتخابه رياستها كان مما يقتضيه كل حذر ولطف ومرونة مراعاة شعور أناس يكبرونه سناً بكثير ، فيأخذ ظاهراً بعين الاعتبار خبرة هؤلاء وهي أقدم من خبرته ، ويتولى الهيمنة مع ذلك . وإذا كان لابدّ من ملاحظة الغريب في أمره ونعني به تزايد «عجبه»في الوقت نفسه زيادة ملحوظة ، أي حاجته إلى ترطيب جسمه وتجديد نشاطه وتبديل ملابسه عدة مرات في اليوم الواحد والشعور بالانتعاش ـ إذا كان لابدّ من ملاحظة ذلك فمعناه في حالة توماس بودنبروك الذي لايكاد يبلغ السابعة والثلاثين توهين طاقته ونفاد قواه بأسرع مما تنفد .

كان إذا رجاه الدكتور جرابو الطبيب المزيد من الراحة قليلاً أجابه : «آه ياعزيزي الدكتور! إني لم أصل بعد إلى هذا الحد!» يريد بذلك أن يقول إنه مايزال عليه أن يؤدي الكثير الى أمد طويل قبل أن يفوز بحالة يستطيع ، بعد الانتهاء وبلوغ الهدف ، أن ينعم بها

مرتاحاً . أفي الحق أنه كان لايؤمن بهذه الحالة . لقد كانت تدفعه الى الأمام ولا تدعه في سلام . حتى بعد المائدة وهو يستريح في الظاهر بقراءة الصحف كانت آلاف المشاريع تختلط في ذهنه وهو يفتل شاربه الممدود في همة وبطء ، وتنقر عروقه فوق سالفيه الشاحبين . وكان همه في تدبير مناورة تتّصل بالعمل أو التفكير في خطبة كهمه في اعتزام تجديد المدخر كله من ملابسه الداخلية دفعة واحدة ليظل من هذه الناحية في الأقل مرتاحاً خلي البال .

وإذا كانت مثل هذه التدابير والاصلاحات تتيح له بصورة عابرة ارتياحاً وهدوءاً بعينهما فقد كان يكره أن يؤدي نفقات ذلك من دون مبالاة . إذ كانت أعماله التجارية تسيرفي هذه السنين سيرتها الفائقة كما كانت في عهد جده . فاسم المتجر لم يرتفع في المدينة فحسب بل كان كذلك في الخارج ذا وقع ، وكان اعتباره مايزال ينمو في الشؤون العامة على الدوام . فكان كل امرىء يقر له بالجد والحذق أما حاسداً وإمّا مشاركاً مغتبطاً ، بينما كان هو نفسه يجاهد عبثاً في الخلق والإنتاج في منطقته ، ذلك أنه كان يشعر دائماً بتخلفه الموينس عن خياله الحاسب المدبر .

وهكذا لم يكن من قبيل التعاظم أن يطوف السناتور بودنبروك في صيف عام ١٨٦٣ يفكر في مشروع بناء بيت جديد كبير ، فالسعيد يبقى حيث هو . لكن قلقه وعدم ارتياحه كانا يدفعانه الى ذلك . وكان إخوانه المواطنون خلقاء أن ينسبوا هذا المشروع الى «عجبه» ، فإن هذا من العجب ، فتشييد بيت جديد ، وتبديل مظهر الحياة تبديلاً أساسياً ، والتنظيم ، والانتقال ، والتأثيث من جديد ، ونفي كل قديم زائد عن الحاجة ، وأبعاد رواسب السنين المنصرمة كافة : هذه التصورات أتاحت له شعوراً بالنظافة والجديد والانتعاش والسلامة والقوة... ولابدّ أنه كان بحاجة الى هذا كله ، لأنه كان ينشده بهمة ، ويوجه التفاتة الى بقعة معينة .

وكانت قطعة أرض فسيحة في «حفرة الصيادين» يقع عليها بيت غبرته السنون ، مهمل ، معروض للبيع ، تملكه عانس شمطاء كانت تسكنه وحدها بوصفه من مخلفات أسرة منسية ، ثمّ توفاها الله أخيراً . في هذه البقعة شاء السناتور بودنبروك أن يقيم بيته فكان يرمقها في غدواته وروحاته من الميناء بنظرات فاحصة . وكان جوارها ينطبع في النفس : بيوت طيبة من بيوت الطبقة الوسطى ذات أسطح هرمية ، أكثرها تواضعاً مايقابله منها ، شيء ضيق في طبقته الأرضية دكان أزهار صغير .

وقد أجهده التفكير في هذا المشروع وقدر تكاليفه تقديراً تقريبياً ، مع أن القيمة التي حددها لم تكن هينة فقد ألفى نفسه قادراً على أن يؤديها غير مرهق ، ومع ذلك فقد بهت لمّا خطر بباله أن المشروع كله قد يكون خرقاً لاطائل تحته ، فاعترف لنفسه بأن بيته الحالي يكفيه ويتّسع له ولزوجته وولده والخدم . بيد أن احتياجاته التي لم يكن يحسها احساساً كاملاً كانت أقوى . ولأنه كان يتمنّى أن يجد خارج بيته من يشجّعه على مشروعه ويقره عليه فاتح أخته في أمره أول ما فاتح .

«وبالإيجاز ياتوني ، ماذا ترين فيه ؟ إن الدرج الحلزوني المؤدي الى غرفة الحمام ظريف جداً . لكن البيت في مجموعه عبارة عن حق في الواقع ، ضئيل المظهر ، أليس كذلك ؟ والآن حالفك الحظ في أن أصبح سيناتوراً... فهل يرجع هذا بإيجاز الى... ؟ »

يالله ؟ وأي شيء لايرجع فيه الفضل ، في عيني مدام بيرمانيدر ، اليه! لقد كانت تتملكها حماسة جدية! فقد شبكت ذراعيها على صدرها وجعلت تطوف بالغرفة رافعة كتفيها مطرحة رأسها الى الوراء .

«إنك محق ياتوم! يا إلهي ، ما أعظم حقك في هذا! إنه لاعذر لك! من ذا الذي يزيد على ماعنده سيدة من بيت أرنولدسن و ١٠٠٠٠٠ ريال... وعلى فكرة إني فخور أن تجعلني موضع ثقتك ، فهذا جميل منك!...وإن كنت جعلتني من قبل موضع ثقتك ، لكن هذا عظيم أيضاً ، أقول لك... .!»

«أجل ، إني أرى رأيك . وأريد أن أنفق على هذا المشروع شيئاً . وسيقوم فويجت بالعمل ، ويسرني أن أعاين الرسم معك ، فإن لفويجت ذوقاً مرهفاً . . . »

وكانت الموافقة الثانية التي حصل توماس عليها من جيروا . فقد أثنت على المشروع وأطرته كل الإطراء . حقاً إن متاعب الانتقال ليست مما يسر ، لكن الأمل في أن يكون هناك غرفة كبيرة تعزف فيها موسيقى طيبة قد أشعرها السعادة . أما القنصلة الكبيرة فقد أبدت في الحال استعدادها لأن تعد البناء نتيجة منطقية لحالات الهناء الأخرى التي عاشت فيها مرتاحة شاكرة . ومنذ ميلاد الوريث وانتخاب القنصل في المجلس وفخارها كأم أجلى تعبيراً من ذي قبل . وقد كان خطابها لابنها «بيا ابني السناتور» مما يثير ثائرة سيدات بودنبروك المقيمات في الشارع العريض الى أبعد حد .

وفي الحق أن الفتيات اللاتي كانت تتقدم بهنّ السن لم يجدن صارفاً كافياً لهنّ عن مراقبة الرفعة الرائعة التي بلغتها حياة توماس الظاهرة . فالسخرية في أيام الخميس من

المسكينة كلوتيده لم ترضهن إرضاءً كافياً . وكريستيان الذي وجد بوساطة المستر ريتشاردسن رئيسه السابق وظيفة في لندن والذي أبرق من هناك أخيراً وجدا برغبته الجنونية في اتخاذ الآنسة بوفوجل زوجة له ، فردته القنصلة في الحق رداً شديداً ـ كريستيان هذا الذي أصبح نداً وعديلاً ليعقوب كروجر قد حفظت سيدات بودنبروك أوراقه ولم يعد موضوعاً قائماً .

وهكذا عوضت الفتيات أنفسهن قليلاً ممّا فاتهن بنقط ضعف صغيرة للقنصلة ولمدام بيرمانيدر فحولن موضوع الحديث على سبيل المثال الى « ألبسة الشعر » وذلك أن القنصلة كان يسعها أن تقول وعلى وجهها أرق سيماء أنها « تلبس شعرها »... بينما كل من وهبهم الله العقل وبينهن سيدات بودنبروك كانوا يقولون لأنفسهم إن الشعر الأشقر الضارب الى الحمرة الذي لم يتغير لونه والذي تغطيه قلنسوة السيدة العجوز لم يعد في الإمكان تسميته « شعرها » وأعظم أجزاء لهن من هذا أن يحملن ابنة العم توني على أن تبدي الرأي قليلاً فيمن أثّر في حياتها الى الآن على أسوأ وجه : تريشكه الدموع! جرينليش! بيرمانيدر! آل هاجنشتروم!... هذه الأسماء التي كانت توني تطلقها في الهواء إذا مااستثيرت ، رافعة كتفيها قليلاً ، كأن هذه الأسماء نفخات صغيرة كثيرة من الاشمئزاز تخرج من مزمار ، كانت ترن في آذان بنات العم جوتهولد أحلى ماتكون .

هذا الى أنهن لم يكنّ يخفين أو يتولين بحال تبعة إخفاء أن يوهان الصغير يتعلم المشي والكلام ببطء ـ الأمر الذي كان يفزعهن... وقد كنّ محقات في ذلك ولابدّ من التسليم بأن هانو ، وهو الاسم الذي أطلقته زوجة السناتور بودنبروك على ابنها لتناديه به ، كان في الوقت الذي يستطيع أن يذكر جميع أعضاء أسرته بأسمائهم صحيحة ، يعجز دائماً عن نطق أسماء فريدريكه وهنرييت وفيفي بشكل مفهوم . أمّا مايتعلق بالمشي فإنه الى الآن وقد بلغ من العمر خمسة أرباع السنة لم يوفق الى أن يخطو خطوة مفهومة مستقلاً . هنالك كانت سيدات آل بودنبروك يهززن رؤوسهن في يأس قائلات إن هذا الطفل سيظل طيلة حياته أبكم عاجزاً .

وقد تبيّن فيما بعد كذب هذه النبوءة المحزنة ، لكن أحداً لم ينكر أن هانو كان متأخراً في النمو بعض الشيء . وقد قدر له أن يجتاز جهاداً مريراً في باكورة حياته وأن يبقى من حوله في خوف دائم عليه . وقد جاء الى هذه الدنيا طفلاً ساكناً ضعيفاً فسرعان ما أصيب عقب التعميد بنوبة من الإسهال كادت تكفي لأن تسكت قلبه نهائياً ، لولا أن أعيدت اليه

الحركة بعد عناء . وقد استغرقت هذه النوبة ثلاثة أيام بقي بعدها في قيد الحياة . وأمر الدكتور جرابو باتّخاذ مايلزم لتلافي أزمات التسنين التي كانت تتهدده ، مع بذل العناية الفائقة في التغذية والتمريض . لكنه ماكاد أول طرف أبيض يخترق الفك حتى ألمت به تقلصات عاودته أشد مما كانت . وعاودته مرات بصورة بلغ من رعبها أن الطبيب كان يضغط يد الوالدين من دون أن ينبس ببنت شفة . فقد كان الطفل راقداً يتملكه الاعياء وتدل نظرة جانبية تائهة من عينيه اللتين يحيط بهما ظل عميق عن تأثر المخ حتى لكادوا يتمنّون نهايته .

ومع ذلك فقد استرد هانو بعض قواه ، وبدأت نظرته تدرك الأشياء ، وإذا كانت المتاعب التي تغلّب عليها قد عاقت تقدمه في الكلام والمشي فإنه لم يعد ثمّ مايخشى عليه من خطر مباشر .

كان هانو نحيفاً تقريباً وأطول تقريباً مما تقتضيه سنه وجعل شعره الكستنائي الرائق الناعم جداً ينمو في ذات الوقت نمواً سريعاً غير عادي فلم يلبث أن تهدّل على كتفي ثوبه المتثني الذي يشبه المئزر يكاد لايلاحظ تمويجه ، وبدأت تظهر عليه مشابه من الأسرة في صورة كاملة فكانت له منذ البداية يدا آل بودنبروغ بشكل صريح : عريضتين قصيرتين بعض الشيء لكنهما جميلتا التكوين ، وكان أنفه أنف أبيه وجده الأكبر بالضبط ، وإن بدا أن المنخارين يميلان الى البقاء على نحو أرق ، بيد أن الجزء الأسفل من الوجه وكان مستطيلاً متضامناً لم يكن لا لآل بودنبروك ولا لآل كروجر بل كان يرجع الى أسرة الأم ، كذلك فمه قبل كل شيء وكان يميل قبل الأوان ، ومن الآن ، الى الانطباق بصورة تجمع بين الاكتئاب والخوف... وبهذا التعبير أصبحت نظرة عينيه العسليتين الفريدتين في لونهما ، تحيط بهما ظلال ضاربة الى الزرقة ، وصار هذا يلائمه ويزداد على الأيام ملاءمة .

لقد بدأ يعيش تحت نظرات أبيه المفعمة بالحنو المضبوط وفي انتباه كانت أمه ترعى به لباسه وتحيط تربيته ، تصلي له عمته أنتونيا ، وتهدي اليه القنصلة والخال يوستوس دمى تمثل فرساناً ودوارات . فإذا ظهرت عربته الصغيرة الجميلة في الشارع رمقه الناس بعين الإهتمام وتوقعوا له المصير . أمّا مايتعلق بمدام ديشو المربية الوقور التي كانت في مبدأ الأمر تقوم كذلك بالخدمة فقد تقرر ألا تتابعها في المنزل الجديد ، بل أن تحل محلها ايدا يونجمان ، على أن تبحث القنصلة لنفسها عمن يتولى خدمتها .

وقد نفذ السناتور بودنبروك مشروعاته ، فلم يعترض شراء قطعة الأرض في « حفرة

الصيادين » عقبات ، وابتاع السيد ستيفان كيستنماكر البيت القائم في الشارع العريض الذي كان السمسار جوش قد أعلن حانقاً أن يتولى أمره في الحال... وكانت أسرة ستيفان كيستنماكر قد تزايد عددها وكان هو وشقيقه يكسبان المال الوفير من تجارة النبيذ الأحمر . وتولى السيد فويجت البناء ، فسرعان ما استطاعت الأسرة في يوم الخميس أن تبسط الرسم النظيف أمامها وتطلع مقدماً على واجهة البيت ؛ وكان رسماً لبناء فخم مزوّد بأعمدة من الحجر الرملي تقوم عليها خارجة ، وله سطح مستو لاحظت عليه كلوتيده وهي مبتهجة تتمطى أنه يمكن أن تتناول القهوة بعد الظهر . وقد رتب كل شيء على خير وجه حتى فيما يتعلق بالغرف الأرضية في بيت شارع منج وهي التي ستخلى لأن السناتور فكّر في نقل مكاتبه منها الى « حفرةالسماكين » ، ذلك أنه تبيّن أن شركة التأمين من الحريق التابعة للمدينة راغبة في أن تستأجر هذه الغرف لمكاتبها .

وحلّ الخريف ، وانهارت الجدران الغبراء أنقاضاً ، وقام بيت توماس بودنبروك الجديد فوق أقبية فسيحة بينما فصل الشتاء يحل ويخف النشاط . ولم يعد حديث المدينة يدور حول شيء هو أكثر من بيت بودنبروك تشويقاً! فقد بلغ الغاية وأصبح أجمل بيت يسكن طولاً وعرضاً فهل كان في هامبورج مثلاً بيت أجمل منه ؟... على أنه كان باهظ التكاليف ، وماكان القنصل الكبير ليذهب على التحقيق الى هذا المدى... فالجيران وأهل الطبقة الوسطى سكان البيوت ذات الأسطح الهرمية كانوا في نوافذهم يشاهدون العمال وهم يعملون على صقالاتهم ، ويطربون للبناء وهو يعلو ، ويحاولون أن يحزروا موعد الحفلة التي تقام للعمال بعد الفراغ .

وقد قامت الحفلة وأحيطت بكل المظاهر ، وألقي فوق السطح مبيض عجوز خطاباً طوح في ختامه بزجاجة من الشمبانيا من فوق كتفه ، بينما كان اكليل العمارةالهائل يترنح في الريح متثاقلاً بين الأعلام ، مجدولاً من أعواد الورد والفروع الخضراء والأوراق المتعددة الألوان . وقد أقيمت بعد ذلك مأدبة للعمال كافة في حانة قريبة على موائد طويلة قدمت فيها البيرة وشطائر الخبز المحشوة والسيجار . وكان السناتور بودنبروك ينتقل في المكان المنخفض بين صفوف المدعوين بصحبة زوجته وابنه الصغير تحمله مدام ديشو على ذراعيها ويتلقى مايرفع له من هتافات شاكراً .

وأعيد هانو في الخارج الى عربته ، وعبر توماس الطريق بجيردا ليلقي على الواجهة الحمراء نظرة أخرى ويرفع بصره الى الأعمدة البيضاء . وهناك أمام دكان الأزهار ذي الباب

الضيق وواجهة العرض المتواضعة التي كانت تصطف فيها بضعة أصص من النبات البصيلي جنباً الى جنب على رف زجاجي أخضر ـ هناك كان يقف ايفرسن صاحب المحل الى جانب زوجته ، رجلاً مارداً أشقر الشعر يرتدي سترة صوفية . وكانت زوجته أنحف منه كثيراً ، ولها وجه أسمر كوجوه أهل الجنوب ، وتمسك بيدها غلاماً في الرابعة أو الخامسة من عمره وتهزّ باليد الأخرى عربة صغيرة فيها طفل أصغر نعسان تدفعها وتجذبها ويبدو أنها حامل .

وانحنى ايفرسن انحناءة عميقة خرقاء على السواء بينما كانت زوجه التي لم تكف عن دفع عربة الطفل وجذبها ، تتأمل زوجة السناتور في هدوء والتفات وترمقها بعينين سوداوين مستطيلتين وهي مقبلة عليها مستندة الى ذراع قرينها .

ووقف توماس ، ورفع عصاه يشيرالى الأكليل ويقول : «لقد أجدت صنعه يا ايفرسن» .

«الفضل في ذلك لإمرأتي ياحضرة السناتور وليس لي» .

فقال السناتور في اقتضاب : «آه!» راجاً رأسه الى أعلى ، ناظراً الى وجه مدام ايفرسن نظرة ثابتة ودوداً استغرقت ثانية ثمّ ودعها بحركة شاكرة من يده دون أن يزيد كلمة .

الفصل السادس

في يوم أحد في بداية يوليه ، وقد انتقل السناتور بودنبروك من أربعة أسابيع تقريباً الى بيته الجديد ، ظهرت مدام بيرمانيدر حوالي المساء عند أخيها فتخطت الرحبة الحجرية البليلة المزدانة برسوم بارزة يقلد فيها تورڤالدسن ، والمفضي منها الى اليمين باب من المكاتب ، فدقت جرس باب الصفة الذي يمكن أن يفتح من المطبخ بالضغط على كرة من المطاط وعلمت من الخادم أنطون في الردهة الفسيحة التي يقف عند أسفل الدرج الرئيسي فيها ذلك الدب الذي أهداه تيبورتيوس أن السناتور لايزال يعمل .

فقالت : «حسناً . وشكراً يا أنطون فسأذهب اليه» .

لكنها خطت أمامه مارة بمدخل المكتب منحرفة قليلاً الى اليمين ، الى حيث يقوم فوقها بئر السلم الهائل المكون في الطابق الأول من تتمة الدرابزين المصنوع من الحديد المصبوب ، لكنه في علو الطابق الثاني يتحول الى دهليز واسع من الأعمدة أبيض ذهبي ، بينما تتدلى من ارتفاع «مسقط النور» ، ذلك الارتفاع الشاهق ، ثريا فخمة تلمع بالذهب... فقالت مدام بيرمانيدر راضية وبصوت خافت : «ماأوجه!» وهي تتأمل هذه الفخامة المتجلية الزاهية التي كانت تعني لها ببساطة سلطان آل بودنبروك وأبهتهم وظفرهم . لكنه خطر لها عندئذ أنها جاءت في مسألة مكدرة فاتّجهت في بطء الى مدخل المكتب .

وكان توماس وحده فيه ، جالساً في مكانه عند النافذة يسطر رسالة ، فرفع بصره رافعاً في نفس الوقت أحد حاجبيه الأشقرين الرائقين ، ومدّ الى أخته يده .

«عمّي مساءً ياتوني . ماوراءك من خير ؟»

«آه ، ليس خيراً كثيراً ياتوم!... كلا ، إن بئر السلم عظيم جداً!... وعلى فكرة إنك تجلس هنا في هذا الضوء الخابي تكتب» .

«رسالة عاجلة... إذن لاتحملين خيراً! وعلى كل فأحب أن نطوف بالحديقة قليلاً وأنت تحكين . فهذا أوفق . تعالي!»

وكانت نغمة من الأمهل تنتهي اليها من الطابق الأول مرتعشة من عزف على الكمان أثناء عبورهما للردهة .

فقالت مدام بيرمانيدر : «أنصت!» وتلبثت لحظة ثم استطردت : «إن جيردا تعزف . ما أروع! لله در هذه المرأة! إنها حورية! كيف حال هانو ياتوم ؟»

«سيتناول عشاءه تواً مع يونجمان . محزن أنه لايتقدم في مشيه كما ينبغي» .

«سيتم هذا لك ياتوم . سيتم! أراضون أنتم عن ايدا ؟»

«أوه! كيف لانرضى...»

ومرا بالرحبة الحجرية الواقعة الى الخلف تاركين المطبخ عن يمينهما وخرجا من باب زجاجي هابطين درجتين الى حديقة الأزهار المنمّقة العبقة .

وسأل السناتور : «والآن ؟» .

وكان الجو دافئاً ساكناً ، وهواء المساء عطر بروائح الحياض المسيجة النظيفة . والنافورة المحوطة بالسوسن المشبه الليلاق في اللون ترسل شعاع مائها الهادر صوب السماء القاتمة ، وقد بدأت نجومها الأولى تلمع ، وكان درج مكشوف صغير تحف به مسلتان منخفضتان يفضي في المؤخرة الى مكان مرتفع مرصوف بالحصباء يقوم عليه خص خشبي مكشوف يظلل بستائره المسدلة بضعة مقاعد في الحديقة . وكان يحد قطعة الأرض من اليسار سور للحديقة المجاورة وعن اليمين كان حائط جانبي للبيت المجاور مغطى في ارتفاعه كله بتركيبة خشبية يراد بها أن تكسي مع الأيام بعريشة من نبات . وكان على جانبي الدرج المكشوف ومكان الخص شجيرات من عنب الذئب ، لكنه لم يكن هناك سوى شجرة كبيرة واحدة ، شجرة جوز كسيحة تقوم الى اليسار بجانب السور .

وأجابت مدام بيرمانيدر في تردد : «المسألة هي» بينما شرع الأخ والأخت يسيران في طريق الحصباء من حول المكان المتقدم متمهلين . قالت : «إن تيبورتيوس كتب...»

فسأل توماس : «كلارا ؟ أرجوك أن توجزي ولاتلفي!»

«أجل ياتوم . إنها راقدة في حالة سيئة ويخشى الطبيب أن تكون مصابة بتدرن...

تدرن في المخ... وإن عزّ عليّ أن أنطق بهذا . انظر : هاهي ذي الرسالة التي خطها زوجها الي . وهذه الكلمة المرفقة الموجهة الى أمي والمشتملة على نفس الشيء يطلب أن نسلمها اليها بعد أن نعدها قليلاً لتلقيها . ثمّ هنا أيضاً مرفق ثان موجه الى أمي كتبته كلارا نفسها بيد مضطربة . ويقص تيبورتيوس إنها لاتعنى أقل عناية بأن تعيش فهي في شوق دائم الى لقاء الله... » وختمت مدام بيرمانيدر وكفكفت دمعها .

كان السناتور الى جانبها يسير صامتاً ، ويضع يديه وراء ظهره ويطأطيء رأسه كثيراً .

« إنك صامت ياتوم... وأنت محق . فماذا يسع المرء أن يقول! وهذا في وقت يرقد فيه كريستيان أيضاً مريضاً في هامبورج... »

هكذا أمره . إن « العذاب » الذي يكابده كريستيان في جنبه الأيسر قد اشتدت وطأته عليه في لندن في الأيام الأخيرة الى حد كبير ، وتحول الى آلام حقيقية بلغ منها أنها أنسته جميع شكاواه الصغرى . ولقد عجز عن أن يفعل شيئاً فكتب الى أمه يقول أنه لامندحة له عن العودة لكي تعنى به أمه ، وأنه ترك عمله في لندن وسافر . لكنه ماكاد يصل الى هامبورج حتى لزم الفراش . وقد شخّص الطبيب حالته بأنها روماتزم المفاصل ، وأمر بنقله من الفندق الى المستشفى إذ كان من المحال أن يقوم الآن بسفر بعيد . وهو هناك راقد يملي على ممرضه رسائل تنضح بالكآبة .

فأجاب السناتور في خفوت : « أجل ، يظهر أن نصلاً يتكسّر على نصل ، ومصاباً يتلو مصاباً » .

فوضعت ذراعها لحظة حول كتفيه .

« لكنه يجب ألا تقنط ياتوم ، فلا حق لك في القنوط الى أمد طويل! إنّما أنت بحاجة الى شجاعة كافية... »

« أجل والله ، إني بحاجة اليها! »

« كيف ياتوم ؟...قل لي : لماذا كنت أول من أمس بعد ظهر الخميس كله صموتاً هكذا ، إذا جاز لي أن أعرف ؟ »

« آه ، أعمال أيتها الطفلة . لم أجن كثيراً من صفقة حنطة سوداء كبيرة نوعاً ما... بالإيجاز : كان علي أن أبيع صفقة كبيرة بثمن بخس جداً... »

« أوه ، هذا مما يقع ياتوم ، يقع اليوم وتعوضه غداً . فلا حاجة بك الى الكدر من جراء ذلك... »

فقال لها : «عدوت الصواب ياتوني» . وهزّ رأسه «إن نفسيتي ليست تحت الصفر ، لأني أخفقت . على العكس . إن هذه عقيدتي . ومن أجل ذلك يصيب الشيء محزه أيضاً» .

فسألته مذعورة دهشة : «لكنه ما الذي طرأ على نفسيتك ؟! إن المرء خليق أن يفترض فيك مرح النفس ياتوم! فكلارا تعيش . وكل شيء سيكون على مايرام بعون الله . وهناك يقوم بيتك حلماً من الأحلام . ومايسكنه هرمان هاجنشتروم كوخ بالنسبة له! وقد وفقت الى هذا كله...»

«أجل ياتوني ، إن هذا يكاد يفوق التصور . وأريد أن أقول : مايزال جديداً كل الجدة . لكنه يزعجني الى ذلك قليلاً ، ومن هنا تتولد النفسية السيئة التي تلم بي وتضر بي في كل شيء . لقد اغتبط بكل هذا ، لكن من الغبطة السابقة كانت كما هى الحال دائماً خير ماهنالك ، ذلك أن الخير يأتي دائماً متأخراً ويتم دائماً متأخراً حين لا يعود المرء يغتبط له حق الاغتباط...»

«لايعود يغتبط ياتوم ، برغم ما أنت عليه من شباب!»

«شباب المرء وكهولته على قدر شعوره ـ وحين يأتي الخير والمشتهى متثاقلاً ، متأخراً ، فإنه يأتي مرهقاً بكل حواشيه ، وملحقاته التافهة المزعجة المغيظة ، بكل ماتثير الحقيقة من غبار لم تحسب المخيلة حسابه ، ويثير المرء أيما إثارة...»

«نعم ، نعم... ولكن حسب مايشعر المرء إن شاباً وإن كهلاً ياتوم ـ»

«أجل ياتوني . وقد تمر...ويصفو الكدر ـ بالتأكيد . لكني أحس في هذه الأيام كأني أكبر سناً مما أنا . فأنا مهموم من ناحية التجارة . وفي مجلس إدارة سكة حديد بوشن أسكتني القنصل هاجنشتروم وعارضني وكاد يعرضني للابتسام العام... يخيل اليّ أن مثل هذا ما كان ليلحقني فيما مضى... يخيل اليّ أن شيئاً بدأ يتسرب اليه ، وأني لم أعد أقبض على زمام هذا الشيء المبهم كما كنت من قبل... ماهو النجاح ؟ قوة خفية تجل عن الوصف ، انتباه وأهبة... وعي بأن أضغط على تحركات الحياة من حولي بمجرد وجودي... الإيمان بأن الحياة تواتيني... فالسعادة والنجاح في أنفسنا . فيجب أن نتشبث بهما : نقبض عليهما ونستبقيهما في أعماقهما . فإنه متى جعل شيء هنا في باطننا يهن ، ويتراخى ، ويخور ، يصبح كل شيء حولنا طليقاً ، مناهضاً ، متمرداً ، متحرراً من تأثيرنا... فيتكسر نصل على نصل وتتلو هزيمة أخرى ، ويصرع المرء . لقد فكرت في الأيام الأخيرة في مثل تركي قرأته في موضع ما : «حين ينتهي البيت يقبل الموت» . ولاحاجة الآن لأن يكون القادم هو

الموت . ولكن القهقرى... الانحدار... بداية النهاية » . ودسّ ذراعه تحت ذراع أخته وخفض صوته عن ذي قبل وهو يقول : «أترين ياتوني ، لما عمدنا هانو ، أتذكرين ؟ لقد قلت لي : «يخيل اليّ أن عهداً جديداً كل الجدة لابد أن ينبثق الآن » لاأزال أسمع هذا القول واضحاً كل الوضوح . وقد بدا إذ ذاك أن قولك سيتحقق ، ذلك أن الانتخاب لمجلس الشيوخ حل فوفقت ، ونبت هذا البيت من الأرض . لكن لقب السناتور والبيت مظاهر . ثم إنني أعرف شيئاً لم تفكري فيه بعد ، أعرفه من الحياة والتاريخ . أعرف أنه غالباً ماتظهر الامارات والرموز الخارجية البينة الملموسة للهناء والرفعة في الوقت الذي يكون فيه كل شيء في الحقيقة قد أخذ في الانحدار . فالأمارات الخارجية تحتاج في ظهورها الى وقت كالنور المنبعث من مثل هذا النجم هناك فوق ، لانعرف عنه أشرع بالفعل في الانطفاء أم كان بالفعل منطفئاً حين يشع نوره أسطع مايكون... »

ومشيا برهة صامتين بينما تخر النافورة في سكون وتتهامس أعالي شجرة الجوز ، ثم جعلت مدام بيرمانيدر تتنفس في عسر كأنها تنتحب .

« إنك تتكلم ياتوم بلهجة حزينة لم تكن لهجتك قط! على أنه من الخير أنك نفست عن نفسك ، وستشعر بأنك تخففت ونفيت كل مايمضك عن ذهنك... » .

« أجل ياتوني ، هذا مايجب أن أحاوله ما استطعت . والآن ناوليني الورقتين : رسالة كلارا ورسالة القس ، فخير لك أن أعفيك من هذه المهمة وأتولى الحديث فيما قبل ظهر غد مع الأم . هذه الأم الطيبة! لكنه إذا كان المرض تدرناً فلا مناص من التسليم بقضاء الله » .

الفصل السابع

« ولاتسألينني ؟! وتتخطينني ؟! »

« لقد تصرفت كما كان يجب أن أتصرف! »

« لقد تصرفت بما جاوز كل الحدود خلطاً ومجافاة للرشد » .

« الرشد ليس أسمى شيء في الوجود! »

« أوه ، دعينا من هذه الألفاظ... فالأمر يتعلق بأبسط عدالة لم تراعيها في صورة مسخطة مثيرة » .

« ألاحظ عليك يابني أنك بهذه اللهجة تغفل من جانبك الاحترام الواجب عليك نحوي! »

« وأنا أرد عليك ياأمي العزيزة بأني لم أنس قط هذا الاحترام . وإن صفة الابن لايصبح لها وجود بمجرد أن أقف حيالك في أشياء تتعلق بالمتجر والأسرة بوصفي الرئيس الأكبر الذكر وفي مكان أبي » .

« أريد أن تسكت الآن ياتوماس ؟ »

« كلا ، لن أسكت حتى تتبيني خطل رأيك وضعفك الذي لاحد له! »

« إني أتصرف فيما أملك كما يطيب لي » .

« إن الإنصاف والعقل يقيدان رغبتك! »

« لم أكن أحسب قط أنك تستطيع إغضابي الى هذا الحد! »

« ولم أكن أحسب قط أنك تستطيعين لطمي على وجهي بهذا الاستخفاف...!!

وسمع صوت مدام بيرمانيدر في تخوفها تقول : « توم!... لكن ياتوم! » وكانت جالسة عند النافذة في حجرة المناظر الطبيعية تعتصر يديها ، بينما كان أخوها يذرع المكان هائجاً

هياجاً مخيفاً ، والقنصلة يتملكها الغضب والألم جالسة على الأريكة تتكىء بإحدى يديها على الحشايا وتهوي بالأخرى على قرص المائدة بكلمة شديدة . كان ثلاثتهم حزانى على كلارا التي لم تعد تقيم في هذه الدار الدنيا ، وكان ثلاثتهم ممتقعي اللون خارجين عن الطور...

فما الذي حدث ؟ شيء مخيف ، مرعب . شيء بدا للمشتركين فيه أنفسهم هائلاً لايصدق! شجار وتشاد بين الأم وابنها .

كان ذلك في أغسطس في عصر يوم خانق . بعد عشرة أيام من تسليم السناتور لأمه رسالتي سيفرت وكلارا تيبورتيوس متوخياً منتهى الحذر . فقد كان عليه مهمة ثقيلة هي اصابة السيدة المسنة بنبأ الوفاة . ثم سافر الى ريجا لتشييع الجنازة وعاد مع صهره تيبورتيوس الذي قضى عند أسرة زوجته الراحلة بضعة أيام... والآن وقد عاد القسيس الى وطنه ثانية بعد يومين ، تفاتح القنصلة ابنها بالأمر بعد تردد ملحوظ... ويصيح : «مائة وسبعون ألفاً وخمسمائة مارك ؟» ويهزّ يديه المتشابكتين أمام وجهه . «لتكن البائنة! فكان في وسعه أن يستبقي ثمانين ألفاً وإن لم يعقب ولداً! ولكان الميراث! أن يعطي ميراث كلارا! ولاتسأليني! وتتخطينني!» .

«بحق المسيح ياتوم ، ألا ما قررت بحقي! أكان يسعني غير الذي فعلت ؟ أكان يسعني ؟! إنها وقد ذهبت الى خالقها وودعت كل شيء ، قد كتبت الي من فراشها... بالقلم الرصاص... وبيد مرتعشة : «أماه! أننا لن نلتقي ثانية هنا على هذه الأرض ، وأشعر في جلاء تام أن هذه هي سطوري الأخيرة ، وأكتبها في وعيي الأخير الذي كان زوجي يشاهده... إن الله لم يباركنا بالأولاد . لكن ماكان سيكون من حقي لو أني عشت بعدك ، دعيه إذا ماتبعتني الى الدارالآخرة ـ دعيه يكن من نصيبه ويستمتع به مدى الحياة! أماه ، إن هذا هو رجائي الأخير... رجاء من تحتضر... ولن ترفضيه...» كلا ياتوماس! لم أرفضه وماكان يسعني أن أرفضه! وقد أبرقت اليها بذلك... وقد انتقلت الى رحمة الله» . وبكت القنصلة بكاءً مراً .

وقال السناتور :« ولا يذكر لي حرفاً واحداً ، بل يخفي عني كل شيء واتخطى! »

«أجل ياتوماس ، لقد سكت ، ذلك أني شعرت بأن علي أن أجيب ابنتي المحتضرة الى آخر رجاء لها...وأعرف أنك كنت ستحاول منعي!» .

«أجل والله ، هذا ماكنت سأفعله!»

«وماكان ليكون لك الحق في هذا ، لأن ثلاثة من أطفالي متفقون معي!»

«يخيل الي أن رأيي لايعدل رأى سيدتين ومغفل خائر...»

« إنك تتكلم عن إخوتك كلاماً خالياً من الحب كما تكلمني بقسوة! »

« إن كلارا كانت امرأة تقية لكنها جاهلة يا أماه! وتوني طفلة لم تدرك بالمثل شيئاً الى هذه اللحظة وإلا تكلمت من دون مناسبة . أليس كذلك ؟ وكريستيان ؟ أجل لقد حصل تيبورتيوس على موافقة كريستيان... فمن ذا الذي كان ينتظر هذا منه ؟... ألا تعلمين بعد ، ألا تدركين بعد من هذا القس الأريب ؟ إنه معدم! يتسلل الى المواريث » .

وقالت مدام بيرمانيدر بصوت مكتوم : « إن أزواج البنات دائماً لصوص » .

« متسلل الى المواريث! فماذا يصنع ؟ يسافر الى هامبورج ويجلس الى فراش كريستيان ويؤثر فيه فيقول كريستيان : نعم ياتيبورتيوس . على بركة الله . هل عندك فكرة عن العذاب الذي أعانيه في جنبي الأيسر ؟... أوه ، إن الغباء والرداءة قد تحالفا عليَّ -! » وضغط السناتور يديه المطبقتين كلتيهما فوق جبينه وهو محنق ، مستنداً إلى السياج الحديدي المطروق في حنية الموقد .

لم تكن هذه الحدة في الغضب مما يتفق والظروف القائمة! كلا . لم تكن هذه الـ ١٢٧٠٠٠ مارك هي التي نقلته الى حالة لم يشهده أحد فيها قط من قبل! بل الأكثر أن الذي فعل به ذلك هو أن هذه الحالة الجديدة كوّنت في مشاعره المهتاجة من قبل حلقة من سلسلة الهزائم والمذلات التي لم يكن بد من أن يخبرها خلال الأشهر الأخيرة في أعماله في المدينة... لقد بات كل شيء ينبو في يده ولايجري شيء على هواه! فهل بلغ من أمره أن يتخطوه في بيت آبائه في أهم الشؤون... ؟ وأن يخدعه قس من ريجا وراء ظهره ؟... كان في مكنته أن يمنع ماوقع لكنه لم يجرب نفوذه! وكانت الحوادث خليقة أيضاً أن تجري مجراها من دونه! لكنه بدا له أن هذا لم يكن من قبل قميناً أن يقع ، وأن أحداً لم يكن يجرؤ فيما مضى على إحداثه! فهذه زعزعة جديدة لإيمانه بحظه وسلطانه ومستقبله... لم يكن هذا شيئاً سوى ضعفه الباطن ويأسه الذي انفجر أمام أمه وأخته خلال هذا المشهد .

ونهضت مدام بيرمانيدر وعانقته .

وقالت : « توم ، هدىء روعك! عد الى نفسك! هل الأمر بهذا السوء! إنك تتعرض للمرض! ولن يعيش تيبورتيوس طويلاً... فسوف يعود الينا الميراث بعد موته! ويمكن أيضاً أن يبدل الأمر إذا شئت! ألا يمكن ذلك ياأماه ؟ »

فلم تجب القنصلة بغير النحيب .

وقال السناتور وقد استجمع نفسه وأتى من يده بحركة ضعيفة تدل على الرفض :

«كلا... كلا! فالأمر سيبقى على ماهو عليه . أتظنان أن ألجأ الى المحاكمة وأقاضي أمي لأضيف الى الفضيحة الداخلية فضيحة علنية ؟» وختم كلامه بقوله : «ليكن مايكون...» ومشى الى الباب الزجاجي في تراخٍ ووقف به مرة أخرى .

وقال بصوت مكتوم : لكن لاتعتقد أننا على خير حال... فقد خسرت توني ، ٨٠٠٠٠ مارك وبدد كريستيان مايقرب من ٣٠٠٠٠ دفعة مقدمة ، غير مهره البالغ ٥٠٠٠٠ وقد استنفده وسيزيد ماينفقه مادام بلا عمل ومادام بحاجة الى استشفاء في أمينهاوزن... ولاتضيع بائنة كلارا الى الأبد فحسب ، بل يبقى ميراثها كله وقتاً لايمكن تحديده خارج دائرة الأسرة . . والأعمال تجري مجرى سيئاً يبعث على الياس ،وذلك بالضبط منذ أنفقت على بيتي أكثر من مائة ألف مارك... كلا ، إن الحالة سيئة حول أسرة تثير فيها الدواعي مثل هذا المشهد . صدقاني – صدقا هذا الشيء : لو كان أبي حياً ، لو كان حاضراً معنا ، لأطبق كفيه وتركنا يرحمنا الله» .

الفصل الثامن

الحرب وصيحة الحرب ، والإيواء ، والشغل الشاغل! والضباط البروسيون ينتقلون في غرف الطابق الأول من بيت السناتور بودنبروك الجديد ـ تلك الغرف المرصوصة بالباركية . يقبّلون يد سيدة البيت ، ويقدمهم كريستيان العائد في أينهاوزن الى المنتدى بينما الآنسة سيڤيرين ريكشن ، سيڤرين فتاة القنصلة الكبيرة في بيت شارع منج تنقل عدداً كبيراً من الفرش الى الخص القديم المزدحم بالجنود .

ففي كل مكان زحام وانزعاج وتوترا جنود يخرجون الى بوابة القصر وجنود يدخلون ويغمرون المدينة ويأكلون وينامون ويملأون أسماع الأهالي بدق الطبول وإشارات البوق ونداءات الأوامر ثم يعودون فيرحلون . ويحيي أمراء البيت المالك ، ويتبع مرور الجند مرور ، ثمّ يعقب سكون وانتظار .

ويعود الجند في أواخر الخريف وفي الشتاء منتصرين ويعد لهم المأوى من جديد ، ويرجعون الى مواطنهم بين هتاف الأهالي الذين يتنفسون الصعداء ـ السلام! السلام القصير الأمد ، سلام سنة ١٨٦٥ الذي يبطن الأحداث .

وبين حربين يلعب يوهان الصغير في الحديقة ناعم البال سليماً ، في ثوبه الذي يشبه المئزر وشعره الناعم ذي الخصل ، أو في الشرفة المخصصة له التي يفصلها عن ردهة الطبقة الثانية مصطبة صغيرة مزوّدة بالأعمدة ، لعبات سنيه الأربع والنصف...... لعبات لايعود بالغ يدرك مغزاها وفتنتها ولايحتاج فيها الى أكثر من ثلاث حصيات أو قطعة من الخشب ربّما اتّخذ زهرة الهندباء خوذة لها ، وفي مقدمة ذلك تلك المخيلة النقية القوية الحامية الطاهرة التي لم تشبها شائبة ولم يداخلها رهب بعد ـ مخيلة السن الهانئة التي تتهيب الحياة فيها أن

تصيبها بسوء ، والتي لايجرؤ فيها واجب أو ذنب أن يضع يده علينا ، والتي يجوز لنا فيها أن نرى ونسمع ونضحك ونعجب ونحلم من دون أن تطالبنا الدنيا بمقابل... السن التي لايعذبنا فيها بعد صبر معيل لأولئك الذين نحبهم ، والمطالبة بالدلالات والأدلة الأولى على أننا سنقدم هذا المقابل بجدارة .

آه ، إنه لن يطول الوقت حتى ينقض علينا كل شيء ويتعسف ليغتصبنا ويدربنا ويصرعنا ويقتضبنا ويدمرنا...

لقد وقعت أمور جلى بينما كان هانو يلعب . اشتعلت نار الحرب وتأجج النصر ثمّ قر . ونظرت مدينة آباء آل بودنبروك راضية الى فرانكفورت الغنية التي فرض عليها أن تدفع ثمن إيمانها بالنمسا بفقد حريتها كمدينة حرة .

لكنه عندما أفلس متجر كبير في فرانكفورت في شهر يوليه قبل عقد الهدنة مباشرة خسر بيت يوهان بودنبروك مبلغاً دائرا قدره ٢٠٠٠٠ ريال ضربة واحدة .

الجزء الثامن

الفصل الأول

كان السيد هوجو ڤاينشنك يجتاز الرحبة الكبرى في سترته المقفلة وقد غار شاربه المكتنز الأسود في زاويتي فمه بصورة تدل على الرجولة والجد . وتدلت شفته السفلى بعض الشيء ، وتهادى في مشيته وبدت خيلاؤه ، متوجهاً من المكاتب الأمامية الى المكاتب الخلفية يطوّح بقبضته ويحرك مرفقيه على جانبيه ، فكانت هذه الصورة تعبر عن رجل من العاملين ، حسن المركز قوي التأثير في من يراه . فالسيد هوجو ڤاينشنك مدير من زمن غير بعيد لشركة التأمين من الحريق التابعة للمدينة .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، كانت أيريكا جرينليش ، وهي الآن في العشرين من عمرها ، فتاة فارعة ، مزدهرة ، نضرة جميلة ، تستمتع بالصحة والقوة . فهل كانت تهبط الدرج مصادفة أو كانت تقودها المصادفة الى الدرابزين الاعلى لما كان السيد ڤاينشنك يسلك طريقه ؟ والمصادفة كثيراً ماتفعل هذا . وهكذا رفع المدير قبعته العالية عن شعر رأسه القصير الأسود الذي جعل يبيض فوق سالفيه وتمادى في تمايله حول وسط سترته وحيّا الفتاة بنظرة متعجبة معجبة من عينيه العسليتين الجائلتين من حوله في جرأة... فلم يسع ايريكا إلا أن تهرب ، وجلست في مكان ما على مقعد الى احدى النوافذ وأخذت تنتحب ساعة كاملة وهي مرتبكة مضطربة .

لقد نشأت الآنسة جرينليش وترعرعت تحت رعاية تيريزه فيشبروت فلم تشرد أفكارها بعيداً . وقد بكت من قبعة السيد ڤاينشنك العالية ومن الأسلوب الذي رفع به حاجبيه عندما رآها وخفضهما ثانية ، من هيئته الملكية السامية وقبضتيه المتوازنتين . لكن أمها مدام بيرمانيدر كانت في تلك الأثناء تنظر الى أبعد .

فقد كان مستقبل ابنتها يهمها منذ سنوات ، إذ كانت ايريكا متخلفة عن فتيات أخريات في سن الزواج ، وكانت مدام بيرمانيدر لاتعزف عن المجتمع فحسب بل كانت كذلك تعاديه . وقد بات الفرض بأن المحافل الراقية تعتدها أقل مرتبة منها لطلاقها مرتين . عقدة عندها حتى أصبحت ترى احتقاراً وبغضاً لها ما لا يعدو في الغالب شيئاً من عدم الاكتراث . مثال ذلك أن القنصل هرمان هاجنشتروم ، ذلك الرأس المخلص الحر التفكير الذي جعله الثراء مرحاً طيب القلب قد يحييها في الطريق إذا لم تمنعه من هذه التحية بتاتاً نظرة تكون قد جاوزت بها وهي مطرحة الرأس الى الوراء وجهه المشبه عجينة كبد الأوز الذي كانت «تكرهه كما تكره الطاعون» على حد كلمة شديدة من كلماتها . وهكذا حدث أن ايريكا تحاشت كذلك دائرة خالها السناتور كل التحاشي فلم ترتد فيها مرقصاً ولم تنتهز فرصة تذكر للتعرف فيها بالرجال .

ومع ذلك فقد كان من أحر رغبات مدام أنتونيا وخاصة منذ «أحيلت على المعاش» على حد قولها ، أن تحقق ابنتها الآمال التي لم تحققها هي ، الأم ، وأن تزوجها زيجة مجزية سعيدة تشرّف الأسرة ، وتمحو من الذاكرة ما لاقت الأم . وكانت توني تتوق الى برهان على أن هناء الأسرة لم يول بعد ، وأن الأسرة لم تبلغ النهاية بحال ، وذلك في المقام الأول بالنسبة لأخيها الذي لم يكن يبدي في العهد الأخير مايبعث الأمل في غبطه... إن بائنتها الثانية البالغة الـ ١٧٠٠٠ ريال ، التي ردها السيد بيرمانيدر بهذه الأريحية تحت تصرف ايريكا ، فما أن كادت مدام أنتونيا تلحظ بنظرها الحاد وخبرتها ما نشأ بين ابنتها والمدير من علاقة يزجيها الاعزاز حتى جعلت تتوجه الى السماء بالصلوات والدعوات أن تلهم السيد ڤاينشنك الزيارة .

وقد فعل ، فظهر في الطابق الأول واستقبلته السيدات الثلاث ، الجدة والأم والحفيدة ، وتحدث اليهن عشر دقائق ، ووعد بأن يعود مرة بعد الظهر في أوان تناول القهوة ليتحدث اليهن حديثاً على السجية .

وحدث هذا أيضاً ، وعرف كل منهم الآخر ، فالمدير من سيليزيا حيث أبوه الشيخ مايزال حياً . وقد ظهر في تلك الأثناء أن أسرته ليست مما يدخل في حساب ، وأن هوجو ڤاينشنك أدنى الى أن يكون عصامياً . وكان له من اعتداد العصامي بنفسه شيء غير مطبوع ، غير أكيد كل التأكيد ، مبالغ فيه قليلاً ، مشوب قليلاً بسوء الظن . وكان مظهره يشوبه نقص أما حديثه فمن القلب . هذا الى ماكانت تبديه سترته من مواضع باهتة وهي

المقصوصة على غرار مايرتديه صغار الطبقة الوسطى ، فكانت قلابات أكمامها ذات الأزرار الكبيرة غير حديثة ، وغير نظيفة كل النظافة . وكان ظفر الاصبع الوسطى في اليد اليسرى جافاً ، أسود فاحماً تماماً من أثر حادث ما... منظر لايسر تقريباً ، لكنه لم يمنع أن يكون هوجو ڤاينشنك انساناً نشطاً مجتهداً ، جديراً بالاحترام ، ذا دخل سنوي يبلغ ١٢٠٠٠ مارك ، وأن تراه ايريكا جرينليش رجلاً وسيماً .

وقد عرضت مدام بيرمانيدر الموقف وقدرته ، وأبدت رأيها فيه صراحة للقنصلة والسناتور . وقد كان واضحاً أن مصالح الطرفين تقابلت وتكاملت . فقد كان المديرڤاينشنك لايغشى المجتمعات كأيريكا ، وكان كلاهما يعتمد على الآخر وكأن الله خلقه له . فإذا كان المدير وقد قارب الأربعين وأخذ شعره يشيب ، ينشد بيتاً ـ وهو مايوائم مركزه – فقد فتح له الارتباط بإيريكا جرينليش باب أسرة من أكبر الأسر في المدينة ، وكان قميناً بأن يرفعه في مهنته ويثبته في مركزه . أما مايتعلق بمصلحة ايريكا فلمدام بيرمانيدر أن تزعم أن ماأصابها في الحياة وصارت إليه قد أصلحته هذه العلاقة . فليس بين السيد بيرمانيدر وهوجو ڤاينشنك أدنى شبه ، وهو يختلف عن بندكس جرينليش بأنه موظف ثابت بمرتب ثابت لايبعد أن تتطور سيرته في الوظيفة .

وبالإيجاز إن الإرادة الحسنة كانت متوافرة من الجانبين ، وإن زيارات مابعد الظهر كات تتعاقب . ففي يناير سنة ١٨٦٧ سمح لنفسه بأن يطلب يد ايريكا جرينليش ببضع كلمات وجيزة صريحة تتسم بالرجولة .

من ذلك الحين بات من الأسرة وجعل يساهم في « أيام الأطفال » ويستقبله أقرباء عروسه بالترحاب . وليس شك في أنه شعر في الحال بأن مكانه بينهم ليس مريحاً ، لكنه ستر هذا الشعور بمسلك ازدادت من ثم جرأته ، وباتت القنصلة وبات الخال يوستوس والسناتور بودنبروك ــ إن لم يكن أيضاً سيدات بودنبرك الساكنات الشارع العريض ــ على استعداد للتسامح اللبق مع هذا الموظف الماهر وهذا الرجل الذي يزاول العمل الشاق ويجهل مقتضيات المجتمع .

وكان هذا التسامح ضرورياً . ذلك أن الأمر كان يقتضي المرة بعد المرة أن تخرق السكون كلمة منشطة تغير الموضوع وتهتك حجاب الصمت الذي كان يغشى مائدة الأسرة في قاعة الأكل حين يشتغل المدير بوجنتي ايريكا وذراعيها يريد معاكستها بصورة ملحوظة ، وحين يستعلم عن مربى البرتقال هل هي طعام دقيقي ، مؤكداً هذه الكلمة تأكيداً

جزئياً أو حين يبدي أن روميو وجولييت قطعة لشيلر ـ أشياء كان يذكرها بحمية ويصر عليها وهو يفرك يديه وينحرف بجسمه الأعلى الى سنادة الكرسي .

وكان خير من يمكنه التفاهم معه هو السناتور الذي كان يعرف على التحقيق كيف يدير الحديث معه عن السياسة والأعمال من دون حادث . أما علاقته بجيردا بودنبروك فاتخذت شكلاً موينساً تماماً ، إذ كانت شخصية هذه السيدة تحيره الى درجة أنه بات عاجزاً عن أن يجد موضوعاً يصمد فيه ولو دقيقتين في طرقه معها . وإذ كان يعلم أنها تعزف على الكمان ، وأن هذه الحقيقة الواقعة تؤثر فيه تأثيراً قوياً فقد كان يجتزىء بأن يوجه اليها كلّما لقيها في أيام الخميس سؤالاً على سبيل المباسطة هو : «كيف حال الكمان ؟» بيد أن زوجة السناتور كفت بعد ثالث مرة عن أن ترد على هذا السؤال بأي جواب .

أما كريستيان فقد اعتاد من جانبه أن يرعى قريبه الجديد بأنف متغضن ثم يعود في اليوم التالي فيقلده في مسلكه وطريقة حديثه جملة وتفصيلاً . وقد شفى هذا الابن الثاني للمرحوم القنصل يوهان بودنبروك في اينهاوزن من روماتيزم المفاصل ، لكن تصلباً بعينه في أعضائه كان مايزال باقياً ، و«العذاب» الدوري الذي يعانيه في جانبه الأيسر ــ هناك حيث أعصابه جميعاً «أقصر مما ينبغي» ـ وغيره من المتاعب التي يحس أنه معرّض لها : كالذي يشكو منه ـ كل هذا لم يتخلص منه بحال من الأحوال . كذلك لم يكن مظهره مظهر رجل في نهاية الحلقة الرابعة ، فقد كان رأسه عارياً تماماً ، غير أنه كان مايزال في مؤخرة رأسه وعلى سالفيه شيء من شعره الخفيف المحمر باقياً . وكانت عيناه الصغيرتان المستديرتان اللتان كانتا تجولان فيما حوله في جد متّسم بالهدوء تستقران في محاجرهما أعمق من ذي قبل . كذلك كان أنفه الكبير المحدودب أضخم وأبدى عظماً من ذي قبل ، يبرز بين خديه الأعجفين الأصهبين فوق شاربه الكث الأشقر في حمرة وكان طاغياً على فمه... وكانت سراويله المصنوعة من قماش انجليزي أنيق متين تتهدل من حول ساقيه المعروقتين المقوّستين :

كان كريستيان منذ عودته يسكن كذي قبل غرفة تقع على الطرقة في الطابق الأول من بيت أمه ، لكنه كان يقيم في «النادي» أطول مما يقيم في شارع منج ، ذلك أنه لم يكن يعيش هناك عيشة راضية كل الرضا . فإن ريشكن سيڤرين خليفة ايدا يونجمان ، المشرفة على خدم القنصلة ومديرة المنزل ، وهي مخلوقة من أهل الريف قصيرة القامة تبلغ السابعة والعشرين من العمر ، مستديرة الوجنتين ، مفترة الشفتين ــ ريشكن هذه أدركت

بإحساسها الريفي وإدراكها للأمور الواقعة أنها ليست مكلفة بأن تراعي كثيراً هذا القصاص العاطل الذي كان نهب البلاهة والتعاسة ، والذي كان السناتور ، ذلك الشخص المحترم ، يتخطاه بنظره رافعاً حاجبيه ، فأهملت قضاء حوائجه بكل بساطة . كانت تقول له : « أجل ياسيد بودنبروك ، ليس عندي وقت لك» فينظر اليها بأنفه المنكمش كأنما يريد أن يقول : ألا تخجلين ؟... ويمضي في سبيله متيبس المفاصل .

كان يقول لتوني : «أتظنين أني أملك شمعة دائماً ؟ يندر ذلك ، فغالباً ماآوي الى فراشي على ضوء أعواد الثقاب» . أو يوضح - إذا كان المصروف الذي وسع أمه بعد كل الذي فعلته له أن توافق عليه ، ضئيل ، فيقول : «أوقات عصيبة!... نعم ، كانت الحالة من قبل خيراً من ذلك! فما رأيك... إني كثيراً ما أقترض في هذه الأيام خمسة شلنات لشراء عجينة أسنان! »

فتصيح به مدام بيرمانيدر : « كريستيان! إن هذا لايليق بك! عود ثقاب! خمسة شلنات! دع في الأقل ذكر ذلك! » وكانت تغضب من هذا الكلام وتسخط وتشعر بأنها أهينت في مشاعرها المقدسة ، بيد أن هذا لم يغير من الأمر شيئاً .

كان كريستيان يقترض الشلنات الخمسة لعجينة الأسنان من صديقه القديم أندرياس جيزيكه ، الدكتور في القانون ، وكان سعيداً بهذه الصداقة وتشرفه ، ذلك أن المحامي جيزيكه ، ذلك المستهتر الذي يعرف كيف يحافظ على وقاره ، انتخب في الشتاء الماضي سناتوراً لما قضى الشيخ كاسبار أوفرديك نحبه في هدوء وحل محله الدكتور لانجهالز . بيد أن هذا الانتخاب لم يؤثر في مجرى حياته ، فقد كان الناس يعرفون أنه ، وله منذ زواجه بآنسة اسمها هونيوس بيت فسيح ، كان يملك أيضاً في ضاحية القديسة جرترود تلك الفيلا الصغيرة المعروشة بالخضرة ، المجهزة بوسائل الراحة التي كانت تسكنها سيدة بارعة الجمال غير معروفة الأصل ماتزال شابة وكان يلمع فوق باب الفيلا بأحرف منمّقة مذهبة كلمة « كڤيزيزانا » وكانت المدينة بأسرها تعرف البيت الصغير الهادىء بهذا الاسم الذي ينطقونه على فكرة بسين ناعمة جداً وألف كدرة جداً ، فنجح هناك بنفس الطريقة التي نجح بها في هامبورج عند أليني بوفوجل ، وفي مناسبات مماثلة في لندن وڤالباريزو وبقع كثيرة أخرى من الأرض . كان « يقص قليلاً » وكان «لطيفاً قليلاً » فجعل يتردد على البيت الصغير الأخضر بانتظام كما يفعل السناتور جيزيكه نفسه . فأما أن هذا كان يجري بعلم الأخير ورضاه فأمر لم يتضح . إنّما المؤكد أن كريستيان بودنبروك وجد في «الكڤيزيزانا » من

دون أن يتكلف شيئاً قط نفس التسرية الودود التي كان السناتور جيزيكه يدفع فيها مال زوجته الوفير .

وعقيب خطبة هوجو ڤاينشنك لايريكا جرينليش عرض المدير على نسيبه الدخول في شركة التأمين . والواقع أن كريستيان عمل اسبوعين في خزانة الحريق لكنه ظهر في أسف أنه لا العذاب الذي يعانيه من جنبه الأيسر وحده بل كذلك متاعبه الأخرى التي كان يصعب عليه تشخيصها قد تفاقمت ، مع أن المدير كان الى ذلك رئيساً شديداً لم يتورع أن يدعو نسيبه «بكلب البحر» إذا ما ارتكب خطأ... مما اضطر كريستيان أن يتخلى عن هذا المركز أيضاً .

أما مدام بيرمانيدر فقد كانت سعيدة ، وكانت حالتها النفسية تعبر عن نظرة مؤداها أن الحياة الدنيوية لاتعدم الحين بعد الحين جوانبها الطيبة . والحق أنها ازدهرت من جديد في هذه الأسابيع التي ذكرتها ، بمشاغلها المنشطة ومشاريعها العديدة وهموم سكناها وحمى الاهتمام بالجهاز ، بعد خطبتها الأولى تذكيراً كان لابدّ فيه وهو الواضح الجلي ، من أن تبدو أصغر من سنها وأن تفعمها غبطة الأمل فعاودها الكثير من تلك الغطرسة الظريفة التي كانت لها في صباها وعادت الى ملامحها وحركاتها . بلى إنها خرقت حرمة مساء كامل من أمسية أورشليم بمرح طاغ جعل نفس ليا جيرهارت تسقط كتاب جدها وتجيل فيما حولها هذين الزوجين الواسعين الجاهلين المستريبين من عيون الحمام...

وما كان ينبغي لإيريكا أن تبتعد عن أمها ، فتقرر برضى المدير بل برغبته أن تقيم مدام أنتونيا ـ في مبدأ الأمر على الأقل ـ عند آل ڤاينشنك ، لتكون الى جانب ايريكا العديمة الخبرة في تدبير البيت... وهذا بالذات ما أثار فيها شعوراً لذيذاً كانت معه وكأنما لم يكن قط في هذه الدنيا أحد اسمه بندكس جرينليش أو ألواس بيرمانيدر ولم يلابس حياتها كل ما لابسها من فشل وخيبة أمل وآلام ، كانت كأنما جاز لها أن تبدأ من الأول كرة أخرى بآمال جديدة . وحقاً إنها كانت تحث ايريكا على حمد الله أن حباها بالزوج الذي تختصه بحبها بينما هي ، الأم ، قد وجب عليها أن تفني ميلها الأول والقلبي في أداء الواجب واتباع العقل . حقاً إن اسم ايريكا هو الذي دونته مع اسم المدير في سجل الأسرة بيد مضطربة من الفرح... لكنها هي ، هي نفسها توني بودنبروك كانت العروس في الحق . كانت هي التي لها مرة أخرى أن تعاين الستائر والسجاجيد بيد خبيرة ، وأن تنقب مرة أخرى في محلات الأثاث والجهاز ، وأن تبحث كرة أخرى عن مسكن وجيه وتستأجره! كانت

هي التي لم يكن مفر من أن تغادر مرة أخرى بيت والديها الرحب المتسم بالتقى والورع وأن لاتصبح بعد الآن مجرد سيدة مطلقة ، إذ يتاح لها مرة أخرى أن ترفع رأسها ، وأن تبدأ حياة جديدة صالحة لأن تثير الالتفات العام وترفع اعتبار الأسرة... أجل . فهل كان هذا حلماً ؟ لقد ظهرت أردية النوم على وجه الصورة! رداء نوم لها ولايريكا من قماش ناعم مطرز ذو ذيل عريض وصفوف متكاثفة من الأشرطة المخملية تمتد من مقفل الرقبة الى الحاشية تحت!

على أن الأسابيع تقضت وفترة عرس ايريكا جرينليش كادت تنتهي... وقد أدى الزوجان الشابان زيارات لبضعة بيوت ، ذلك أن المدير هو رجل أعمال جاد ، ولم تكن له خبرة بشؤون المجتمع ، رأى أن يكرس فراغه للجو المنزلي الحميم... وقد أدبت لهما مأدبة بمناسبة الخطبة جمعت بين توماس وجيردا والعروسين وفردريكا وهنرييت وفيفي بودنبروك وحضرها أصدقاء السناتور الأقربون في القاعة الكبرى ببيت «حفرة السماكين» حيث حير الحضور مراراً أن المدير لم يكف لحظة عن النقر فوق جيد ايريكا العاري... ودنا موعد الزفاف!

فكان بهو الأعمدة كما كان ذات مرة يوم حملت مدام جرينليش أكليل الأسرة ، مسرح الزواج ، فكانت مدام شتوت ساكنة شارع «صناع الأجراس» نفس المرأة التي تغشى بيوت الطبقة الراقية ، تمد يد المعونة الى العروس في ترتيب الثنيات في ثوبها الأبيض المحاك من الأطلس ، وفي تشبيت الحيلة الخضراء وقد كان السناتور بودنبروك الأول والسناتور جيزيه صديق كريستيان ثاني اثنين قادا العروس ، وكانت اثنتان من صويحبات ايريكا في المثوى إذ ذاك تقومان بدور عذارى العروس ، وكان المدير هوجو ڤايشنك يبدو عظيماً ويبدو رجلاً . وقد داس مرة في طريقه الى الهيكل المرتجل على طرحة ايريكا المرسلة ، وأدى القسيس برنجزهايم وهو مطبق اليدين ، الطقوس بما يليق به في احتفال بين ، وجرى كل شيء مجرى يتفق والعرف والوقار . فلما تبودل الخاتمان ، ورنّت كلمة نعم عميقة جلية ، جشاء بعض الشيء من كليهما ، تقطع ماكان سائداً من سكون ، أجهشت مدام بيرمانيدر بالبكاء وقد طغى عليها الماضي والحاضر والمستقبل ـ بكاء مايزال البكاء الذي يصدر عن الأطفال ، الصريح على السجية ، بينما كانت سيدات بودنبروك يبتسمن ، جرياً على عادتهم في مثل هذه المناسبات ، ابتسامة مريرة شيئاً ما ، ومن بينهن فيفي تضع نظارتهاالشابكة وفيها سلسلة ذهبية تكريماً لهذا اليوم... والآنسة فيشبروت ، تيريزا فيشبروت التي أضحت في السنوات الأخيرة أضأل من ذي قبل ، وزيزيمي التي تعلق برقبتها

الدقيقة الرصيعة البيضاوية وعليها صورة أمها ، تقول بذلك الثبات الذي تغلو فيه والذي لعله يخفي تأثراً باطناً عميقاً : «لتكن السعادة من نصيبك أيتها الطفلة الطيبة!» .

ثم تلت في كنف الآلهة البيضاء التي كانت صورهن من ورق الحيطان الأزرق ، متبوئة مراكزها التي كانت على حالها لم يلم بها تغيير ـ وليمة وقورة حافلة لم تكد تقارب نهايتها حتى اختفى العروسان ليسافرا الى بعض المدن الكبرى يطوفان بها... وكان ذلك حوالي منتصف أبريل . فلمّا تقضى اسبوعان بعد السفر كانت مدام بيرمانيدر قد أتمت بمعاونة الورّاق يعقوب عملاً من أعمالها الباهرة : تأثيث ذلك الطابق الذي استؤجر في بيت من بيوت «حفرة الخبازين» الوسطى تأثيثاً وجيهاً لتستقبل غرفها المزدانة بالأزهار الوفيرة الزوجين حين يعودان .

وهكذا ابتدأ زواج توني بودنبروك الثالث .

وهي تسمية في الحق جد صائبة . فالسناتور نفسه قد أطلق هذا الاسم على هذه المناسبة في يوم خميس وفي غيبة ڤاينشنك ـ وهو ماقابلته مدام بيرمانيدر بالرضى . والحق أن شؤون البيت كافة كانت تقع على عاتقها ، لكنها أيضاً كانت تشعر في هذا بالغبطة والفخار . وفي ذات يوم وقد التقت على حين فجأة بالقنصلة جوليا مولندروف في الطريق وهي من مواليد أسرة هاجنشتروم ، حدّجتها بنظرة فيها مباهاة وفيها تحدٍ فاضطرتها الى أن تبدأها بالتحية... وقد كان الفخر والغبطة ينقلبان في محياها ومسلكها الى حد بالغ كلما قادت القادمين من أقربائها لمشاهدة المنزل الجديد تريهم غرفه ، بينما كانت ايريكا ڤاينشنك نفسها تظهر بين الضيوف المعجبين وكأنها واحدة منهم : زائرة معجبة .

كانت مدام أنتونيا تُري زوارها الأثاث والستائر والخزف الشفاف والأواني الفضية البراقة واللوحات الزيتية الكبيرة التي جلبها المدير : وتمثل كل حياة ذات أسلوب قوامها المأكولات والنساء العاريات ، ذلك أن هذا هو ذوق هوجو ڤاينشنك . وكانت حركات مدام أنتونيا كأنما تعني : الى هذا الحد وفقت في الحياة مرة أخرى . فهذه الوجاهة تداني ماكان في بيت جرينليش وتفوق بالتأكيد ماكان عند بيرمانيدر!

وجاءت القنصلة العجوز ترفل في الحرير الرمادي المخطط بالأسود وتنشر من حولها عبير عطر باتشولي الهادىء ، وتجيل عينيها الصافيتين في كل شيء وهي مرتاحة ، وتظهر الرضى والتقدير من دون أن ترفع صوتها بالإعجاب . وجاء السناتور ومعه زوجته

وطفله وتندّر مع جيردا على تعالي توني الذي يشعرها الهناء ، ومانع جاهداً في أن تقدم لهانو الصغير المعبود ما يخنقه من خبز كورينث ونبيذ البرتو... وجاءت سيدات بودنبروك اللواتي لاحظن بالإجماع أن كل شيء جميل بحيث لا يحببن من جانبهن ، على تواضعهن ، أن يقمن فيه... وجاءت كلوتيده المسكينة ، غبراء عجفاء تتحلى بالصبر فتركتهن يضحكن عليها وتناولت أربعة أقداح من القهوة ، جعلت على أثرها تطري كل ماعدا هذه الأقداح الأربعة وهي تتمطى وتتلطف... . وكان كريستيان يظهر الحين بعد الحين كلما خلا «المنتدى» من رواده ، فيتناول قدحاً صغيراً من البنديكتين ويقص أنه يريد الآن تولي وكالة متجر الشمبانيا والكونياك ، فهو ملم على قوله بمثل هذا العمل الخفيف اللطيف ، فهو فيه سيد نفسه ، يدون هنا وههنا القليل في مفكرته ، ويكسب ثلاثين ريالاً على أهون سبيل ، ثمّ يستدين بعد ذلك أربعين شلناً من مدام بيرمانيدر ليقدم الى الممثلة الأولى في مسرح المدينة باقة من الأزهار ، ثم لايلبث ـ علم الله بأية مناسبة ـ أن يدير الكلام على «ماريا» و«الرزيلة» في لندن ، ويستغرق في حكاية الكلب الأجرب الذي نقل من ڤالباريزو الى سان فرانسيسكو في صندوق ، فيأخذ يروي ، وقد كان في القطار ، في اسهاب وحرارة هازلاً حتى لكأن في مقدوره أن يسلي قاعة بأكملها حافلة بالناس .

كانت تتملكه الحماسة وهو يتحدث بعدة لغات فكان يتكلم الانجليزية والألمانية العامية واللهجة الهامبورجية ، وكان يصف مغامرات الطعن بالمدى في شيلي وحوادث اللصوص في هوايت تشيبل ، ويقع في أعقاب ذلك على مدخراته في المنظومات المثنوية يريد أن يتيح لغيره نظرة فيها ، فيغنى أو يلقي وعلى وجهه سيماء التمثيل الأصيل ، تتجلى الموهبة الرائعة في حركات يديه :

كنت في الساحة أمشي
سائراً فيها الهوينا
وأمامي تتهادى
حلوة من ذي الصبايا
ترتدي ثوباً بديعاً
طوقه بدع فرنسي

وعـلـى الـرأس غـطـاء
ثـمـنـت فـيـه الـزوايـا
قـلـت يـابـنـتـي الـحـبـيـبـة
يـالـطـلـعـتـك الـلـطـيـفـة
اسـمـحـي لـي بـذراعـك
فـاسـتـدارت ثـم قـالـت
وهـي تـحـدجـنـي بـنـظـرة
اذهـب الآن لـدارك
والـه فـيـهـا مـا بـدالـك
يـافـتـى ... واخـلـع عـذارك

ومايكاد ينتهي من هذا حتى ينتقل الى الحديث عن سيرك ونتس فيأخذ في أداء دور مهرج انجليزي متحدث فكأنما يخيل لمن يشهده أنه يجلس أمام الحلبة ، يسمع الأصوات المألوفة من راء الكواليس ، ونداءات «افتح الباب» ويلم بالشجار القائم مع مديرالاسطبل ، ثمّ يأخذ في سرد طائفة من الحكايات بلغة انجليزية ألمانية عريضة نادبة صاخبة وفيها حكاية الرجل الذي ابتلع فأراً وهو نائم ، فذهب الى الطبيب البيطري الذي أشار عليه أن يبتلع أيضاً هرة... وحكاية «جدتي ، كيف كانت تبدو عليها إمارات الصحة» ، جدة قابلها في الطريق الى السكة الحديد ألف مغامر ففوتوها القطار . . . ثم يقطع كريستيان الطرقة ليصيح : «موسيقى ياحضرة مدير الجوقة!» وكأنه يصحو من نوم فيبدو عليه العجب من أن الموسيقى لم تعزف...

ويصمت دفعة واحدة وقد تبدلت ملامحه وتراخت حركاته وجعلت عيناه الصغيرتان المستديرتان الغائرتان تجولان في كل اتجاه في جد مشوب بالقلق ، ويمر يده على جنبه الأيسر إلى أسفل وكأنه يصغي في باطنه إلى شيء غريب يحدث... ثم يتناول قدحاً آخر من الشراب فتعود تنبسط أساريره قليلاً ويحاول أن يقص حكاية أخرى ثمّ يكف وكأنّما تولاه الغم .

ورافقت مدام بيرمانيدر أخاها الى الدرج مرحة النفس ميالة إذ ذاك الى الضحك قد تسلت من قبل كثيراً ، فقالت له : «الى اللقاء ياحضرة الوكيل! المغني الممثل! صياد

العذارى! الخروف العجوز! عد الينا قريباً!» وضحكت وراءه ضحكاً عالياً ، ثم قفلت راجعة الى مسكنها .

غير أن كريستيان لم يعبأ بهذا ، بل تجاوز عنه لأنه كان مستغرقاً في أفكاره ، وقال لنفسه : فلأذهب قليلاً الى كڤيزيزانا ، وهبط الدرج ، وقد انحرفت قبعته فوق رأسه ، واتكأ على عصاه التي تحمل قبضتها رأس الراهبة ، ومشى متئداً ، متيبساً ، يعرج قليلاً .

الفصل الثاني

كان في ربيع سنة ١٨٦٨ أن حضرت مدام بيرمانيدر ذات مساء في العاشرة الى الطابق الأول من بيت « حجرة السماكين » . وكان السناتور بودنبروك يجلس وحده في حجرة الجلوس المجهزة بأثاث مكسو بقماش مضلع ـ الى المائدة الوسطى في ضوء مصباح الغاز المتدلي من السقف . كان ينشر أمامه صحيفة برلينر بورصن تسايتونج ويقرأ وهو منكب قليلاً فوق المائدة ، يمسك بين سبابة يده اليسرى ووسطاها بلفافة تبغه وعلى أنفه نظارة ذهبية شابكة كان يستخدمها من عهد قريب أثناء العمل . وقد سمع وقع خطوات أخته ينفذ اليه من حجرة الطعام فرفع نظارته عن عينيه وتطلع في الظلمة متشوقاً حتى ظهرت توني بين الستائر في متناول الضوء .

« أهذا أنت ؟ عمي مساء . أرجعت من بوبنراده ؟ كيف حال أصدقائك ؟ »

« عم مساء ياتوم! شكراً . أرمجارد بخير... أأنت هنا وحدك بلا أنيس ؟ »

« أجل ، إنك تأتين في حينك . لقد اضطررت الى الأكل وحدي هذا المساء كما يفعل البابا ، ذلك أن الآنسة يونجمان ليست بالتي يمكن مجالستها تماماً ، فهي تثب في كل لحظة وتسرع الى الطابق الأعلى لتطمئن على هانو... وجيردا في الكازينو فتمايو يعزف هناك على الكمان . وقد مرّ كريستيان واصطحبها... »

« حقاً . ــ أجل ، لقد لاحظت في العهد الأخير ياتوم أن جيردا وكريستيان منسجمان » .

« وأنا أيضاً . فمنذ أصبح يتردد علينا دائماً جعلت تستسيغه رويداً رويداً . فهي تنصت اليه بانتباه شديد إذا ما أخذ في وصف مايعاني... وماذا في هذا ، إنه يسليها . لقد

قالت لي أخيراً أنه ليس من عامة الناس ياتوماس وإنه أبعد منك ، مواطناً من المواطنين عن أن يكون منهم» .

«مواطن... مواطن ياتوم ؟! ها! يلوح لي أنه ليس في أرض الله الواسعة مواطن خير منك» .

«وماذا يعني هذا ؟ فليس الأمر بالذي يفهم على هذا النحو!... فتسامحي قليلاً ياطفلتي! إن منظرك رائع . لقد نفعك هواء الريف» .

قالت : «بديع» وهي تنحي طرحتها وطرطورها المحلى بشرائط الحرير البنفسجي ، وتتخذ في جلستها على أحد الكراسي الى المائدة وضعاً يتسم بالجلال... واستأنفت الكلام : «المعدة والنوم بالليل ، كان ذلك قد تحسن في ذلك الأمد الأخير . هذا اللبن الدافىء ـ لبن البقرة وهذه المقانق وفخذ الخنزير... إن المرء ليترعرع وينمو كما تنمو الماشية ويربو القمح . وهذا العسل الطازج ياتوم ، لقد كنت أعده من أحسن المواد الغذائية ، فهو نتاج طبيعي نقي! وبه يعرف المرء مايزدرد! أجل إنه كان لطفاً من أرمجارد حقاً إنها لم تنس صداقتنا القديمة في المثوى وأنها رعتني . وقد كان السيد مايبوم مثلها بشاشة وترحيباً... وقد كانا يلحان على الدوام أن أبقى بضعة أسابيع أخرى ، لكنك تعلم : إن ايريكا لاتستطيع الكثير من دوني لاسيما الآن وقد ولدت اليصابات الصغيرة...»

«على فكرة ، كيف حال الطفلة ؟»

«شكراً ياتوم ، إنها على مايرام ، وهي لله الحمد بالنسبة لشهورها الأربعة في أحسن حال ، وإن كانت فريدريكا وهنرييت وفيفي يرين أنها لن تعيش...»

«وڤاينشنك ؟ كيف شعوره كأب ؟ إني لاأراه في الحقيقة إلا أيام الخميس...»

«إنه على حال لايتغير! أترى : إنه رجل حاذق مجتهد وعلى نحو بعينه نموذج للأزواج ، ذلك أنه يزدري الحانات ، ويأتي من المكتب رأساً الى البيت ، ويقضي ساعات فراغه معنا . بيد أن المسألة هي ياتوم ـ ونحن وحدنا نستطيع أن نتكلم بصراحة ـ : إنه يطالب ايريكا بأن تكون مرحة على الدوام ، أن تتحدث وتمزح دائماً ، ذلك أنه يريد من زوجته حين يعود الى البيت مجهداً متكدراً على قوله ، أن تسري عنه بأسلوب خفيف فيه بهجة وأن تسليه وتدخل عليه السرور فلهذا خلقت الزوجة على قوله في هذه الدنيا» .

فتمتم السناتور قائلاً : «غبي!»

« كيف ؟... إن السيء في الأمر هو أن ايريكا تميل قليلاً الى الاكتئاب ولابدّ أن تكون قد ورثت هذا عني . فهي هنا وههنا جادة ، صموت ، غارقة في التفكير ، وعندئذ يعنفها ويثور ويوجه اليها كلاماً الحق أن ليس دائماً رقيقاً . ومن ثمّ يلاحظ كثيراً جداً أنه ليس من أسرة حقاً ، وإنه لم يتلق مايسمّى تربية عالية . أجل ، إني أعترف لك صراحة : فقد حدث قبل سفري الى بوبنراده ببضعة أيام أن حطم غطاء إناء الحساء على الأرض لأن الحساء كان كثير الملح... »

« خيراً صنع! »

« كلا ، على العكس . لكنّا لانريد أن نحكم عليه بذلك . ياإلهي ، إننا جميعاً مثقلون بالنقائص والعيوب ، ومثل هذا الرجل الخارق ، النقي ، المجد ،... حاشا لله... لا ياتوم ، ظاهر خشن وباطن حسن . وليس هذا بأردأ شيء في حياتنا على هذ الأرض . لقد كنت من هنيهة في أحوال ، أقول أنها مؤسفة أكثر من ذلك . كانت أرمجارد كلما اختلت بي تبكي بكاءً مراً » .

« ماذا تقولين! ـ السيد فون مايبوم ؟... »

« نعم ياتوم ، وقد أردت بعد هذا الرحيل ، إننا نجلس هنا ونتحدث ، لكنني إنما جئت في الحقيقة مساء اليوم في مسألة جدية هامة جداً » .

« وهي ؟ فما خطب السيد فون مايبوم اذن ؟ »

« إن رالف فون مايبوم رجل لطيف ياتوماس . لكنه نبيل طائش . إنه يقامر في روستوك . يقامر في ڤارنيموندە ، وديونه لاتحصى . وبضعة أسابيع في بوبنراده لاتخلف هذا الأثر في النفس! فبيت السادة وجيه ، وكل شيء حوله تام ، واللبن والمقانق وفخذ الخنزير ، كل هذا وفير .وليس ثمة في مثل هذه الضيعة معيار لواقع الأحوال... بالإيجاز ، إنهم في الحقيقة على أسوأ حال من البؤس . وهو ماقصته عليّ أرمجارد وهي تنتحب انتحاباً يقطع نياط القلب .

« محزن ، محزن » .

« أجل محزن ، لكن الأمر هو كما اتّضح لي ، إنهم لم يدعوني اليهم لبواعث مجردة كل التجرد عن المنفعة الذاتية » .

« كيف ؟ »

« ماذا أقول لك ياتوم . إن السيد مايبوم بحاجة الى المال ، إنه يحتاج في الحال الى

مبلغ كبير . ولما كان على علم بالصداقة القوية التي تربط زوجته بي ويعرف أنّي شقيقتك فقد تواری في كربه خلف زوجته ، وتوارت زوجته بدورها خلفي... أفهمت . ؟ »

فجعل السيناتور يحرك أطراف أصابع اليد اليمنى فوق رأسه هنا وههنا وقطب وجهه قليلاً .

قال : « أعتقد ذلك . يظهر أن مسألتك الجدية الهامة تهدف الى دفعة على محصول بوبنراد إذا صدق حدسي ؟ لكنكم أنت وأصدقاءك لم تقصدوا الى الرجل الحق فيما أرى . فأولاً إني لم أعقد قط أية صفقة مع السيد فون مايبوم . ومسألة كهذه تبدو مع ذلك وسيلة غريبة لإنشاء العلاقات . ثانياً ، لقد كنّا ، جدي الأكبر وجدي وأبي وأنا نقدّم الدفعات هنا وهناك الى الفلاحين متى بعثت شخصيتهم وأحوالهم العادية عامة على الطمأنينة وأتاحت ضماناً بعينه... لكن مانعت به من هنيهة شخصية مايبوم ووصفت به أحواله لايكاد يتيح في أمره مثل هذا الضمان » .

« إنك مخطئ ياتوم . لقد تركتك تقول كل ماعندك ، لكنك مخطئ . فالأمر هنا لايمكن أن يتعلق بدفعة تقدم اليه ، فمايبوم يحتاج الى خمسة وثلاثين ألف مارك » .

« ايه! »

« خمسة وثلاثين ألف مارك تستحق عليه في خلال اسبوعين على الأكثر ، فالسكين تحزّ في عنقه ، ولأكون أوضح : يجب أن يفكر من الآن في البيع على الفور » .

« يبيع المحصول في حقله ؟ أوه ، مسكين! » وهزّ السناتور رأسه وكان يعبث بنظارته الشابكة وهي ملقاة فوق غطاء المائدة . واستأنف الكلام : « لكن هذه حالة تبدو بالنسبة الى أحوالنا ، غير عادية تقريباً . وقد سمعت بمثل هذه الصفقات تعقد في هيسن على الأخص حيث يقع فريق من القرويين ليس بالقليل في أيدي اليهود... ومن يدري ، في أحبولة من من قطاع الركاب يقع السيد فوم مايبوم المسكين . . . »

وصاحت مدام بيرمانيدر ، متعجبة أشد العجب :

« يهود ؟ قطاع رقاب ؟ إن الكلام عنك أنت ياتوم! »

وبغتة ألقى توماس بودنبروك بالنظارة الشابكة فوق المائدة أمامه فانزلقت بعض الشيء على امتداد الصحيفة وتحول بأعلى جسمه مرتجاً صوب شقيقته .

وسألها وهو يحرك شفتيه من دون أن يخرجا صوتاً : « عني ؟ » ثم أضاف بصوت مسموع : « توجهي الى النوم ياتوني! إنك مرهقة » .

«أجل ياتوم ، هكذا كانت تقول ايدا يونجمان حين نأخذ في مباسطة . لكني أؤكد لك أني لم أكن قط أكثر تنبهاً وانشراحاً مما أنا الآن ، إذ أقدم اليك بالليل وفي الضباب لأنقل اليك عرض لأرمجارد ، أو بصفة غير مباشرة عرض رولف فون مايبوم...»

«حيرة ؟ سذاجة ؟ إني لاأفهمك ياتوماس ، إني للأسف أبعد ما أكون عن ذلك! إنك أمام فرصة لفعل الخير وعقد صفقة لك في حياتك في الوقت نفسه . . . »

فصاح السناتور : «كفى ياعزيزتي ، إنك تنطقين هراء محضاً!» وارتمى الى الوراء وقد عيل صبره . ثمّ استأنف الكلام يقول : «سامحيني ، لكنك ببراءتك تثيرين غضبي! إنك إذن لاتفهمين إنك تشيرين عليّ بشيء هو أشد مايكون تحقيراً لي ، وتنصحين لي بأعمال دنسة ؟ أتريدين أن أصطاد في الماء العكر ؟ أن أستغل إنساناً استغلالاً وحشياً ؟ أن أفيد من محنة هذا المالك من ملاك الأراضي لأنكل به أعزل ، وأرغمه على النزول لي عن محصوله سنة في مقابل نصف ثمنه لأجني من وراء ذلك ربح المرابي ؟»

فقالت مدام بيرماندر وقد هالها هذا القول وجعلت تفكر : «آه ، أهكذا تنظر الى المسألة ؟» وعادت تتابع الكلام في حرارة : «ليس من الضروري ، ليس من الضروري على الإطلاق ياتوم أن تنظر الى المسألة من هذه الناحية! ارغامه ؟ لكنه يأتي اليك من تلقاء نفسه ، فهو بحاجة الى المال ، ويريد أن ينهي الأمر عن طريق الصداقة . خفية وفي سكون تام . ومن ثمّ التمس الاتصال بنا ، ومن أجل ذلك دعيت!»

«صفوة القول إنه يخدع نفسه في أمري وفي طبيعة متجري . إن لي تقاليدي ، ومثل هذه الصفقة لم نعقدها منذ مائة سنة . ولست على استعداد لأن أبدأ بمثل هذه المناورات» .

«حقاً ياتوم إن لك تقاليدك ، وكل احتراماتي لك! ومؤكد أن أبي ماكان ليدخل في مثل هذه الصفقات ، حاشا! فمن يزعم هذا ؟... لكني على غباوتي أعرف أنك انسان آخر ، تختلف عن أبي كل الإختلاف ، وأنه لمّا توليت اعمل سلكت طريقاً آخر غير الذي سلكه ، وأنك صنعت في تلك الأثناء أشياء ما كان ليصنعها . ثمّ أنت شاب ومقدام . لكني أخشى أن يكون هالك في الأيام الأخيرة هذا الاخفاق أو ذاك... فإذا كان التوفيق لم يعد يحالفك في أعمالك كما كان يحالفك من قبل فهذا لأنك تدع الفرصة لعقد صفقات تفلت من يديك بما تبدي من حذر محض ووسوسة صادرة عن الاستقامة» .

فقال السناتور بصوت حاد : «أخ ، أرجوك ياطفلتي العزيزة ، إنك تثيرينني» وجعل يتحول يمنة ويسرة ويقول : «لنتكلم بربك عن شيء آخر!»

«أجل ياتوماس ، إنك ثائر ، إني أتبين ذلك . لقد كنت هكذا منذ البداية . ومن هنا بالذات مضيت في الكلام لأبرهن لك على أن شعورك بالإهانة شعور خاطىء . لكني إذا ما ساءلت نفسي ومن : مم أنفعالك ؟ لم يسعني إلا أن أقول لنفسي أنك لست في الواقع كارهاً كل الكراهية أن يكون لك بهذا الأمر دخل . ذلك أني وأنا امرأة بهذا الغباء ، أعلم من نفسي ومن غيري أن المرء يهيج ويغضب من شيء يعرض عليه إذا ما أحس أنه غير مطمئن إلى معارضته إياه كل الاطمئنان ، وانه في باطنه مغرىٰ إغراء كبيراً بقبوله» .

فقال السناتور : «بديع جداً!» وعضّ على طرف سيجارته ولزم الصمت .

«بديع ؟ ها . كلا . إن هذه هي أبسط ماعلمتني الحياة إياه من خبرة . ولكن لنكن على صفاء ياتوم . إني لاأريد الإلحاح عليك . فهل أستطيع إقناعك بمسألة كهذه ؟ كلا ، فإنه تنقصني في هذا المعرفة . فلست سوى امرأة غبية... وأسفاه... ماعلينا ، لايهم . فقد أهمتني المسألة كثيراً ، وكنت من ناحية مرعبة مهمومة من أجل الزوجين مايبوم ومن ناحية أخرى كنت فرحة من أجلك . لقد فكرت وقلت لنفسي : إن توم مكتئب من أمد ، كان يشكو قبلاً ، فالآن لم يعد يبث شكواه أحدقط ، لقد أضاع هنا وهناك ، والأوقات سيئة .

وهذا بالذات يقع في الآونة الراهنة إذ مركزي قد تحسن بفضل الله وبت أشعر بالهناء . ثم فكرت : هذا شيء ينفعه . صفقة رصيد طيب . به يستطيع أن يعوض خسارة ، ويرى الناس أن متجر بودنبروك لم يجفه الحظ الى الآن كل الجفاء . فلو كنت قبلته لكنت فخرت بأني كنت الوسيطة فيه ، ذلك أنك تعرف أنه كان دائماً من بين أحلامي وفي جملة أشواقي أن أودي لإسمنا خدمة... لكن كفى... فالآن انتهت المسألة... بيد أن الذي يضايقني أن فكرة أن مايبوم مع ذلك وعلى كل حال سيضطر الى بيع المحصول وهو في حقله ياتوم ، وأنه إذا ظهر هنا في المدينة فسيجد مشترين . . سيجد واحداً على التحقيق . . وسيكون هذا الواحد هرمان هاجنشتروم ، ها ، ذلك اللص...» .

فقال السناتور في مرارة : «أي نعم ، إن للمرء أن يتساءل هل يترك هذه المسألة تفلت من يده» . فأجابت مدام بيرمانيدر بقولها : «أترى ؟» وكررتها ثلاث مرات متعاقبة .

وبغتة جعل توماس بودنبروك يهز رأسه ويضحك متضايقاً .

«إنها بلاهة... إننا نتحدث هنا في كثير من الجد ـ من ناحيتك على الأقل ـ عن شيء غير معلن إطلاقاً ، معلق في الهواء كل التعليق . وإني فيما أعلم لم أسألك ولو مرة بأي شيء يتعلق الأمر حقاً ، وماذا عن السيد فون مايبوم أن يبيع... إني لا أعرف بوبنراده إطلاقاً...»

فقالت في نشاط : «ماذا ، ماعليك إلا أن تسافر الى هناك . إنها «فركة كعب» الى روستوك . ومن هناك لايبقى شيء! أما ماهو مضطر الى بيعه! أن بونبراده ضيعة كبيرة ، تغل فيما أعلم علم اليقين أكثر من ألف عدل من القمح . لكني لاأدري ماهو أدق من هذا . فكيف بالحنطة السوداء والشوفان والشعير ؟ ألا يغل كل منها ٥٠٠ عدل ؟ قابلة للزيادة والنقصان ؟ لاأعلم! إن المظهر رائع ، أقول لك . لكنني لاأستطيع أن أزودك بالأرقام ياتوم . فأنا غبية . ويجب عليك أن تسافر الى هناك .

وسادت فترة من الصمت .

وقال السناتور بإيجاز وحزم : «إن الأمر لايستأهل أن نضيع فيه كلمتين» . وتناول نظارته الشابكة ودسها في جيب صدريته وزرر سترته ، ونهض ، وجعل يغدو في الحجرة ويروح في حركات سريعة قوية طليقة يتعمد فيها أن ينفي كل دلالة على التفكير .

ثمّ وقف بالمائدة وقال وهو ينحني نحو أخته وينقر على قرصها بطرف سبابته المعقوفة : «سأقص عليك قصة يا توني العزيزة تفسر لك موقفي في هذا الأمر . إني عليم بنقطة ضعفك حيال النبلاء على وجه عام ونبلاء مكلنبورج بوجه خاص ومن ثم أرجوك أن تتحلي بالصبر إذا ماتلقى أحد هؤلاء النبلاء في حكايتي لطمة من اللطمات... . إنك تعلمين أن من بينهم هذا أو ذاك الذي لايبدي نحو التجار احتراماً كثيراً مع أنهم ينفعونه وينفعهم بل يؤكد تفوق المنتج في المعاملات التجارية على التاجر الوسيط ، وهو تفوق لامندحة عن التسليم به بدرجة ما ـ ولا ينظر الى التاجر الكبير بعينين تختلفان كثيراً عن نظرته الى اليهودي المتجول الذي ينزل له المرء ملابسه المستهلكة وهو شاعر بأنه يغشه . وإني لأباهي بأني في العموم لم أخلف في نفوس هؤلاء السادة مايخلفه مستغل وضيع من أثر ، وإني وجدت بينهم تجاراً أصلب مني بكثير . على أن الأمر اقتضاني الحادث العنيف الصغير الآتي مع واحد منهم لأقرب مابيننا من فارق اجتماعي... لقد كان السيد فون جروس ـ بوجندروف الذي لابدّ أنك قد سمعت به ، هو من أعني ، وقد كنت أعامله من سنين وأيام مضت : الكونت شتريلتس ، وهو رجل من كبار رجال الاقطاع يحمل على عينه مونوكلا

بديع الزوايا ـ فكنت أعجب كيف لم يجرح نفسه... ـ ويلبس حذاء مزركشاً له رقبة ، ويمسك بسوط ركوب ذهبي القبضة . وكان من عادته أن ينظر اليّ من عل بفم نصف مفتوح وعينين نصف مغمضتين . وكانت أول زيارة أؤديها له ذات خطر ، فبعد مكاتبة تمهيدية سافرت اليه ودخلت عليه غرفة مكتبه بعد أن أعلن الخادم مقدمي اليه . وكان الكونت شتريلتس جالساً الى مكتبه ، فردّ على انحنائي له بالنهوض عن كرسيه نصف نهوض ، وإنهاء آخر سطر من كتاب يكتبه ، والالتفات عندئذ اليّ بأن تخطاني بنظرة وشرع في الكلام عن بضاعة . فاستندت الى منضدة اريكة وشبكت ذراعي وساقي ، وتسليت بهذا الوضع . وقضيت خمس دقائق في حديث وأنا واقف ، فلما تقضت خمس دقائق أخرى اتخذت مجلسي فوق المنضدة وأرجحت إحدى ساقيّ في الهواء ، وجرت مساومتنا مجراها . وبعد انقضاء ربع ساعة قال من دون اكتراث وبحركة من يده بادية التفضل حقاً : «لكن ألا تريد أن تتناول كرسياً ؟» فقلت : «كيف ؟... ليس ضرورياً! فإني أجلس من أمد» .

فصاحت مدام بيرمانيدر مبتهجة : «قلت له ؟ قلت له ذلك ؟» ... ونسيت في الحال كل ماسلف تقريباً ، واستغرقتها هذه النادرة كل الاستغزاق ، واستطردت تقول : «كنت جالساً من أمد! بديع!» .

«طبعاً! وإني لأؤكد لك أن الكونت غيّر مسلكه من تلك اللحظة ، وأنه كان يمد اليّ يده كلّما جئته ويدعوني الى الجلوس... وأننا بتنا نتيجة ذلك صديقين . لكن لماذا أقص عليك هذا ؟ لأسألك : هل يطاوعني قلبي ويكون من حقي وأستشعر الاطمئنان في صميمي أن أعطي السيد فون مايبوم أيضاً درساً بهذه الصورة إذ نسي وهو يساومني في جملة ثمن محصوله أن يقدم لي كرسياً... ؟» .

فلزمت مدام بيرمانيدر الصمت ثم قالت وهي تنهض : حسناً . إنك محق ياتوم ، وكما قلت من قبل لاأريد أن ألح عليك . فلا بد أن تكون عارفاً بما تصنع وماتدع ، وكفى! وإذا كنت تصدقني في أني لم أتكلم إلا بقصد حسن... أولاً ، وأحييّ ايدا الطيبة... ثم أعود فألقي هنا نظرة مرة أخرى...»

وذهبت .

الفصل الثالث

وصعدت الدرج الى الطابق الثاني وجعلت الشرفة عن يمينها وسارت في الطرقة على امتداد الدرابزين واخترقت ردهة كان بابها مفتوحاً على الطرقة ويؤدي مخرج ثان منها عن اليسار الى مخدع لبس السناتور ، ثم ضغطت في حذر على أكرة الباب الواقع تجاهها رأساً ودخلت .

كانت حجرة واسعة على غير المألوف أسدلت على نوافذها ستائر مثنية محلاة بالأزهار الكبيرة . وكانت حيطانها باردة قليلاً ، ليس عليها سوى عدد من الصور المطبوعة الملونة تمثل أطفالاً شقر الشعر يرتدون ثياباً حمراء مما يلبس الصغار ، مثبتة بالدبابيس في ورق الحيطان الزاهي ، هذا عدا صورة محفورة في إطار أسود معلقة فوق سرير الآنسة يونجمان تمثل جياكومو مايربير الى المائدة الكبيرة التي تفتح وتقفل ، ترتق جوارب هانو . كانت هذه البروسية الوفية في أوائل الحلقة السادسة ، لكن رأسها المصقول ، على الرغم من أن الشيب بدأ فيه مبكراً ، لم يكن بات أبيض بعد ، بل بقي في حالة بعينها من الامتزاج . وكان جسمها المنتصب بادي العظام قوي البنية وكانت عيناها العسليتان يقظتين ، صافيتين ، نشطتين كما كانتا من عشرين سنة مضت .

وقالت مدام بيرمانيدر : «عمي مساء يا ايدا يا أيتها النفس الطيبة!» وكانت تخافت في تحيتها لكنها كانت مرحة ، ذلك أن القصة الصغيرة التي قصها عليها أخوها قد حبتها بأمرح نفسية . ثمّ استطردت تقول : «كيف حالك ، أيتها القطعة من الأثاث القديم!» .

«أي ، أي ، توني ؟ أثاث ياطفلتي ؟ أما زلت هنا في هذا الوقت المتأخر ؟» .

«أجل لقد كنت عند أخي... في أعمال لاتحتمل التأخير... لكن الأمر للأسف قد مني

بالفشل» . ثم سألت : «أنائم هو ؟» وأومأت بذقنها الى سرير الصغير القائم الى الحائط الجانبي الأيسر يكاد موضع الرأس الملفوف بالقماش الأخضر فيه يلاصق الباب العالي المؤدي الى مخدع نوم السناتور بودنبروك وقرينته...

فقالت ايدا : «صه! نعم إنه نائم» . ودنت مدام بيرمانيدر على أطراف أصابعها من السرير الصغير ، وأزاحت الستائر في حذر ، وانحنت فوق وجه ابن أخيها النائم تتأمله .

وكان يوهان بودنبروك الصغير راقداً على ظهره ، متجهاً الى الغرفة بوجهه الذي يحوطه شعره الكستنائي الرائق الطويل ، يتنفس في وسادة الرأس بحس واهن ، تستقر من يديه اللتين تكاد لاتظهر أصابعهما من أكمام قميص نومه الطويلة الفضفاضة واحدة على صدره ، والأخرى بجانبه على اللحاف ، تختلج أصابعه المعقوفة بين الحين والحين اختلاجاً خفيفاً... كذلك كان يلاحظ على شفتيه المفتوحتين نصف فتحة حركة ضعيفة كإنما تحاولان الكلام . وكان شيء أليم هو مايتبدى من وقت لآخر ومن تحت الى فوق على هذا الوجه الصغير شيء يبدأ باهتزازة في الذقن ويتتابع فوق الفم فيرعش منخاريه الدقيقين ويحرك عضلات الجبين الضيق... وكانت الأهداب الطويلة لاتصل الى حجب الظلال الضاربة الى الزرقة المستقرة في زوايا العينين .

وقالت مدام بيرمانيدر متأثرة : «إنه يحلم» . ثم انحنت فوق الطفل وقبلت وجنته الدافئة من أثر النوم وهي تحاذر ، وأصلحت من شأن الستارة في عناية وعادت الى المنضدة حيث كانت ايدا في ضوء المصباح الأصفر تشد جورباً آخر فوق كرة الرفو وتفحص الثقب وتأخذ في رفوه .

«ترفين يا ايدا . غريب! إنك أنت أنت لم تتغيري!»

«أجل ياتوني... ماأكثر مايمزق الصغير من يوم أن ذهب الى المدرسة!»

«لكنه في الحق طفل هادىء رقيق ؟»

«نعم ، نعم... لكنه مع ذلك...»

«أيحب الذهاب الى المدرسة ؟»

«كلا ، كلا ياتوني! كان أحب اليه أن يستمر يحصل علي . وكنت أنا أيضاً خليقة أن أتمنى ذلك ياطفلتي . ذلك أن السادة لايدركون نشأته كما أدركها . ولايعرفون كيف يعلمونه . إنه كثيراً مايصعب عليه الانتباه فلا يلبث أن يدركه التعب» .

«مسكين! هل ضرب الى الآن ؟»

«كلا ، كلا ، ياإلهي... إنهم لن يرضوا لأنفسهم أن يكونوا بهذه القسوة! وحين ينظر اليهم الصغير...»

«كيف كان في الحقيقة حين توجه أول مرة الى المدرسة ؟ هل بكى ؟ »

«أجل ، هذا مافعل ، فهو سريع البكاء... لايعلو صوته ولكن في نفسه هكذا... ثمّ يتعلق بسترة السيد أخيك ولايكف عن التوسل أن يبقى هنا »...

«كذا! وهل كان أخي يوصله الى هناك ؟... حقاً إن هذه اللحظة عصيبة يا ايدا . صدقيني ، إني أعرف ذلك كما لو كان قد وقع أمس الدابر! كنت أعوي... أؤكد لك ، أعوي كما يعوي الكلب وهو مقيد بالسلسلة . كان الأمر يشق عليّ جداً . ولماذا ؟ لأني كنت أنعم في البيت كما يفعل هانو . وجميع الأطفال الذين ينتسبون الى البيوت الوجيهة يبكون ، هذا مالفت نظري من فوري . بينما لايكترث الآخرون ويحملقون فينا ويبتسمون... ياإلهي! ماخطبه يا ايدا ـ ؟! »

ولم تتم حركة من يدها ، بل التفتت نحو السرير الصغير الذي ندت عنه صرخة قطعت عليها التحدث ، صيحة خوف تجددت في اللحظة التالية في تعبير أدل على العذاب والرعب . ورنت بعد ذلك ثلاث وأربع وخمس مرات متلاحقة سريعة...«أوه ، آوه ، آوه! » كأنها احتجاج صارخ غاضب يائس يحدوه الخوف ، موجه الى شيء منكر أبدا أو حدث . ثم انتصب الصغير يوهان في فراشه في اللحظة التالية واقفاً يتمتم كلمات غير مفهومة وتحملق عيناه الفريدتان في لونهما العسلي وتحدقان في عالم آخر تماماً من دون أن تتبينا من الحقيقة شيئاً...

فقالت ايدا : «لاشيء . إنه الكابوس . آه . إنه يكون أحياناً أشنع من هذا » . ونحت عملها في هدوء تام ، واتّجهت بخطاها الواسعة الثقيلة نحو هانو وأرقدته ثانية وغطته وهي تكلمه بصوت عميق مهدىء .

ورددت مدام بيرمانيدر : «أجل هذا هو الكابوس . فهل هو مستيقظ الآن ؟ »

لكن هانو لم يستيقظ بحال وإن بقيت عيناه متسعتين محملقتين ومضت شفتاه تتحركان...

وخاطبته إيدا بقولها : «كيف ؟ كذا... كذا ، فلنكف الآن عن البقبقة» ثمّ سألته : «ماذا تقول ؟ »

واقتربت كذلك مدام بيرمانيدر تسترق ماتسمع من همهمة وتمتمة يسودها الاضطراب .

وقال هانو بلسان ثقيل : « أريد... الذهاب... الى... حديقتي... أريد أن أسقي بصلي... »
وشرحت إيدا يونجمان قوله وهي تهز رأسها : « إنه يلقي شعره . كذا ، كذا . حسبك ياصغيري! نم الآن! »

وقال هانو : « رجيل أحدب... يقف هنا... يبدأ يعطس... » ثم تنهد . لكن تعبير وجهه تبدل فجأة ، فأغمض عينيه نصف إغماضة وحرك رأسه فوق الوسادة يمنة ويسرة ، ومضى يقول بصوت خافت أليم :

« الـــقــــمـــر طـــالـــع
والـــطـــفـــل يـــبـــكـــي
والـــــجــــرس يـــــدق
اثـــنـــتـــي عـــشـــرة
فـــلـــيـــكـــن الـــلـــه
فـــي عـــون الـــمـــرضـــى
أجـــمـــعـــيـــن... »

وكان وهو يلقي هذا الكلام ينتحب انتحاباً شديداً ويتفجر الدمع من بين أهدابه ويسيل على خديه... ثمّ أفاق ، فعانق ايدا ، وأدار عينيه المبللتين فيما حوله وتمتم شيئاً عن عمته توني يدل على الرضى ، وأصلح رقدته ، وعاوده النوم بعدئذ في هدوء .

وقالت مدام بيرمانيدر لما عاودت ايدا الجلوس الى المنضدة : « غريب . ماذا كانت هذه الأشعار يا ايدا ؟ »

فأجابت الآنسة يونجمان : « إنها من كتاب المطالعة ، وفيه « قرن الغلام العجيب » . والكتاب مجموعة من الغرائب..وقد كلف هانو بحفظها هذه الأيام . وقد تحدث كثيراً عن الرجيل فهل تعرفين حكايته ؟ إنها جد مرعبة . هذا الرجيل الأحدب في كل مكان ، يحطم قدور الطهو ، ويأكل المربى ، ويسرق الخشب ويعطل المغزل ، ويضحك على الناس . وفي الختام يطلب أيضاً أن يذكره الناس في صلاتهم! وقد فعل هذا بالصغير . فكان يفكر فيه كل يوم . فهل تعلمين ماذا كان يقول ؟ لقد قال لي مرتين أو ثلاثاً : أليس كذلك ياإيدا ؟ إنه لايقصد بما يفعل شراً . إنه لايفعله بدافع الشر... إنه يفعله مدفوعاً بحزنه ثمّ يزداد بعد فعله حزناً... فإذا صلى المرء وذكره في صلاته كف عن فعله » . وفي مساء اليوم أيضاً لما تمنت

له أمه ليلة سعيدة قبل أن تتوجه الى الحفلة الموسيقية سألها : أينبغي أن يصلي هو أيضاً للرجيل الأحدب...»

«وماذا فعل ؟»

«لم يرفع بالصلاة صوته ، لكن الراجح أنه أداها صامتاً... أما المنظومة الأخرى المسماة «ساعة القوابل» فلم يكن يتحدث بها بل كان يبكي منها فحسب . فهو سريع البكاء ، هذا الصغير . ولايكف قبل أن ينتحب طويلاً...»

«لكن ماذا يحزن في هذه المنظومة ؟»

«وهل أعلم ؟... البداية ، فهي الموضع الذي انتخب عنده في نومه من هنيهة . وهو لايتجاوز إنشاده قط... كذلك يبكي على السائق الذي ينهض عن فراشه المعد من القش في الثالثة صباحاً...»

فضحكت مدام بيرمانيدر متأثرة ، واتخذ وجهها منظر الجد .

فقالت : «لكنني أريد أن أقول لك يا ايدا أن هذا لايبعث على الارتياح . فالسائق ينهض من نومه في الثالثة ـ رباه إنه لهذا سائق! والطفل ـ وأنا عليمة بهذا من قبل ـ يميل الى النظر الى الأشياء نظرة فاحصة والتأثر بكل مايراه والاشتغال به أكثر مما ينبغي ... وهذا ينال منه ، صدقيني . يجب أن يخاطب جرابو في هذا الشأن بصورة جدية» . ثمّ استطردت تقول وقد شبكت ذراعيها ومالت برأسها جانباً وجعلت تنقر الأرض بطرف قدميها : «لكن الأمر هو أن جرابو يهرم ، وبغض النظر عن هذا ، وعلى مابه من طيبة القلب وأنه رجل شريف وإنسان طيب حقاً... فإني فيما يتصل بصفاته كطبيب ، لاأعلق عليه أهمية كبيرة يا ايدا ، وليسامحني الله إذا أنا خدعت فيه... فهو على سبيل المثال يعرف اضطراب هانو ، وفزعه بالليل ، ونوبات الخوف الذي ينتابه في أحلامه . وكل مايفعله هو أنه يقول لنا ماهو ، ويذكر لنا اسمه باللاتينية* Pavor Nocturuus أجل إن هذا بحق الله كبير القيمة من الناحية التعليمية... وإنه لرجل حبيب وصديق حميم للأسرة ، إنه كل شيء لكنه ليس مرشداً ، فالرجل ذو الشأن يختلف عنه في منظره وبيدي ، وهو مايزال في صباه ، إنه على شيء . لقد عاش جرابو عصر ١٨٤٨ وكان عندئذ شاباً . لكن أتظنين أنه تحرّك آنئذ ، وتأثر بالحرية والعدالة وزوال الامتيازات والاستبداد ؟ إنه عالم . وأعتقد أن القوانين الاتحادية الجائرة ـــ

* كابوس ليلي .

قوانين ذلك الحين المتعلقة بالجامعات والصحافة ــ لم تؤثر فيه فتيلاً ، فلم يثر قط مرة ولم يقدم قط على عمل... بل كان دائماً يمد وجهه البديع ويصف الحمام وخبز فرانتس ، فإذا كانت الحالة تدعو الى القلق أوصى بملعقة آكل من عصير الخطمي... طاب ليلك يا ايدا... لا ، لا . إني أظن أنه يوجد غيره من الأطباء . يؤسفني أن لاأرى جيردا... أجل ، شكراً ، فما تزال الطرقة المضيئة...طاب ليلك! »

ولما فتحت مدام بيرمانيدر أثناء مرورها الباب المؤدي الى قاعة الأكل بغية الإنتهاء الى حجرة الجلوس لتتمنى لأخيها أيضاً ليلة سعيدة رأت أن الطبقة كلها كانت مضيئة وأن توماس يروح ويغدو فيها ويداه وراء ظهره .

الفصل الرابع

فلمّا بات السناتور وحده عاود مجلسه الى المائدة وأخرج نظارته الشابكة يريد أن يتابع القراءة في صحيفته . لكنه لم يلبث بعد دقيقتين أن رفع بصره عن الورق المطبوع وجعل يحدق طويلاً في ظلام الصالون في خط مستقيم يتخلل بصره الستائر من دون أن يغير وضع جسمه أو يأتي بحركة .

ومأأشد مايبدو وجهه متغيراً الى درجة أن ينكره من يراه ، متى كان وحده! فعضلات فمه وخديه التي يتحكم فيها عادة ويجعلها طوعه دائماً حين يبدي إرادته ـ هذه العضلات تهن عندئذ وتتراخى ، وتنحسر ـ كما ينحسر القناع ـ سيماء اليقظة والانتباه واللطف والهمة عن هذا الوجه بعد طول اصطناعهما والتشبث بها لتدعه في حالة من التعب المضني ، وتحمر منه عينان متجهتان الى شيء لاتدركانه وعليهما إمارات الكدر والبلادة ، وتأخذان تدمعان . ومن دون أن يؤتى الشجاعة لمحاولة خداع نفسه يستطيع أن يتشبث في الأفكار كافة التي تشغل رأسه ، مضطربة ، قلقة ، مرهقة ، بفكرة واحدة يائسة هي أنه – توماس بودنبروك ـ قد بات في الثانية والأربعين رجلاً منهوك القوى .

لقد أمرّ يده فوق جبينه وعينيه متمهلاً يتنفس تنفساً عميقاً وأشعل بصورة آلية لفافة جديدة من التبغ وهو يعلم أن التدخين يضره ، ثم واصل تأمله للظلمة من دخان سيجارته... فأي تناقض بين تراخي ملامحه الدال على المعاناة وبين التزين الأنيق الذي يقرب أن يكون عسكرياً والذي يختص به رأسه ـ هذا الشارب المعطر المشدود ، وهذه الحلاقة المصقولة في الذقن والخدين ، وهذه التسريحة الدقيقة في شعر الرأس الذي يختفي ما بدا من خفته على قدر الإمكان والذي يرتد عن سالفيه الرقيقين في جونين مستطيلة ويؤلف فرقاً ضيقاً ، والذي

لم يعد خلف الأذنين طويلاً أجعد كما كان من قبل ، بل بات يحتفظ به قصيراً كيلا يرى أحد أن الشيب وخطه في هذا الموضع... وقد شعر هو نفسه بهذا التناقض وكان يعلم جيداً أن أحداً في المدينة لن يفوته هذا التضارب القائم بين نشاطه الحرك المرن وشحوب وجهه الباهت .

وليس هذا لأنه بات في الخارج بوصفه شخصية هامة لايستغنى عنها ، أقل وزناً مما كان من قبل ، فإن الأصدقاء لايفتأون يكررون والحساد لايسعهم أن ينكروا أن المحافظ الدكتور لانجهالز قد أكد ماسبق أن أعلنه أوڤرديك من أن السناتور بودنبروك هو يد المحافظ اليمنى . أما أن متجر يوهان بودنبروك لم يعد ماكان من أزمان مضت فحقيقة منتشرة في الأزقة الى حد أن السيد شتوت المقيم في شارع صبّابي الأجراس أمكنه أن يقصها على امرأته وهما يتناولان ظهراً حساء شحم الخنزير... وقد كان توماس بودنبروك يئن من ذلك .

ومع ذلك فقد كان هو نفسه الذي ساعد في الغالب على نشوء هذا الرأي . فقد كان رجلاً غنياً ، وماكانت خسارة من تلك الخسائر التي تكبدها ، حتى تلك الخسارة الجسيمة التي حلت به سنة ١٨٦٦ لتهزّ كيان المتجر بشكل جدي . لكنه مع مضيه - وهذا بديهي - في الظهور بالمظهر المناسب وفي أن يتضمن مآدبه الألوان التي ينتظرها ضيفه منها ، تصور أن هناءه وتوفيقه وليا ، وهذا التصور الذي كان حقيقة داخلية أكثر منه شيئاً واقعاً قائماً على حقائق ظاهرة ، هذا التصور قد مناه بحالة من القنوط والاسترابة بحيث جعل ، كما لم يفعل من قبل ، يحرص على المال ، ويدخر من نفقات معيشته الخاصة بصورة مزرية ، وقد لعن بيته الجديد الذي كلفه بناؤه نفقات باهظة مائة مرة ، وكان يشعر بأنه لم يجلب له سوى السوء . وقد كف عن رحلات الصيف ، واستبدل حديقة المدينة بالإقامة على ساحل البحر أو في الجبال . وكانت الواجبات التي يتناولها مع زوجه وابنه الصغير هانو ، بناء على تعليماته المتكررة الصارمة ، من البساطة بحيث تتعارض بصورة مضحكة مع قاعة الطعام الفسيحة الباركية بسقفها العالي الفخم وأثاثها الفاخر المصنوع من خشب السنديان ، وقد ظل «الحلو» ممنوعاً أمداً طويلاً اللهم إلا في أيام الآحاد... وقد بقي له المظهر الأنيق كما كان ، لكن أنطون الذي خدمهم طويلاً كان يقص في المطبخ أن السناتور يبدل قميصه الأبيض كل يومين لأن الغسيل يتلف التيل كثيراً... كان يعرف أكثر من ذلك . كان يعرف أيضاً أنه تقرر

الاستغناء عنه . وقد احتجت جيردا ، فإن ثلاثة من الخدم ليسوا بالكثيرين على بيت بهذا الاتساع . لكن شيئاً لم يفد مع السناتور . وقد فصل أنطون الذي ظل طويلاً يعمل له سائقاً كلّما ركب الى مجلس الشيوخ ، ومعه هدية مناسبة من المال .

كانت مثل هذه الإجراءات تتفق مع المجرى غير السار الذي كان يتخذه سير العمل . فلم يعد شيء يحس من ذلك الروح الجديد الحي الذي كان توماس بودنبروك الشاب يبثه ذات يوم في حركة متجره... وكان شريكه السيد فردريك فلهلم ماركوس الذي ماكان وهو يساهم برأس مال ضئيل ليكون له نفوذ كبير ـ كان بطبيعته ومزاجه لايتّخذ في شيء خطوة أولى .

وقد ازدادت على مر السنين حذلقة توماس وباتت مدعاة الى العجب التام . كان يحتاج الى ربع ساعة ليقص طرف سيجارته ويسقط القصاصة في كيس نقوده يمسح من خلال ذلك شاربه ويتنحنح ويرسل من الجنب نظرات مستأنية . وفي المساء حين تضيء مصابيح الغاز كل ركن في المكتب وتجعله في مثل وضح النهار ، لم يكن ينسى أن يضع على تخته شمعة سيڤرين ، وأن ينهض كل نصف ساعة ليتوجه الى دورة المياه ويرش رأسه . وذات يوم قبل الظهر كان عدل فارغ من أعدال الحبوب ملقى تحت تخته إهمالاً فحسبه قطة فحاول طردها وهو يصب على العدل اللعنات ، وموظفوه جميعاً... لا ، إنه لم يعد الرجل الذي كان خليقاً أن يتحدى خمول شريكه الآن فيتدخل في العمل مشجعاً حاثاً . وكثيراً ماكان ينتاب السناتور كما هي حاله الآن وهو يحملق بنظرته الواهنة في ظلام الصالون خجل ويعال صبره في صورة مونسة حين يتمثل حركة العمل الضعيفة وعقد الصفقات التافهة ـ تلك الحالة التي انحطت اليها شركة يوهان بودنبروك في العهد الأخير .

لكنه ألم تكن الحالة طيبة على هذه الصورة ؟ لقد كان يفكر : إن الشقاء كذلك له وقته . أفلم يكن من الحكمة أن نلتزم السكوت مادام يقوم بأنفسنا ألا نتحرك ، وأن ننتظر ونستجمع قوانا الباطنة ؟ لماذا يتقدم اليه الآن بهذا العرض ويخرجه المرء عن استسلامه الحكيم ، ويثير في نفسه الشكوك والهواجس! هل آن الأوان ؟ هل هي أمارة من الأمارات ؟ هل يقدر له التشجيع والنهوض وتسديد ضربة ؟ لقد نفى هذا التفكير بكل عزم أمكن أن يرفع به صوته . لكنه هل انتهى في الحقيقة كل شيء منذ أن انصرفت توني ؟ لا فيما يظهر ، لأنه كان يجلس هنا ويفكر فيما قالته له : «يقابل المرء مايعرض عليه بانفعال إذا لم يطمئن الى مقاومته إياه» إن توني الصغيرة هذه شيطان ماكر!

وبم رد عليها ؟ لقد رد رداً طيباً وثاقباً جداً كما يذكر« إنه عمل غير نظيف... إنه يصيد في الماء العكر... واستغلال وحشي... اغتيال لأعزب... ربا...» . بديع! بيد أنه يتساءل أكانت هذه هي المناسبة التي يطلق فيها هذه الكلمات المدوية ، إن القنصل هرمان هاجنشتروم ماكان لينشدها ولا ليجدها ، فهل كان توماس بودنبروك رجل أعمال ، رجلاً لايجبن عن عمل أو مفكراً موسوساً ؟

أجل ، هنا المسألة! كانت هكذا دائماً مذ وسعه التفكير! كانت الحياة قاسية ، وكانت حركة الأعمال في مجراها الذي لايعرف اللامبالاة ولا العاطفية صورة من الحياة الكبرى ، الحياة بأسرها . فهل كان توماس بودنبروك يقف على رجليه كآبائه في الحياة العملية القاسية ؟ إنه كثيراً ماوجد من قديم الزمان داعياً للشك في ذلك... يقسو ويكابد القسوة ولايشعر بها قسوة بل شيئاً بدهياً ـ أفلن يتعلم هذا قط! .

لقد تذكر الأثر الذي خلفته كارثة سنة ١٨٦٦ في نفسه واستذكر تلك المشاعر البالغة الألم التي استولت إذ ذاك عليه . وقد فقد يومئذ مبلغاً كبيراً من المال... آه ، لم يكن هذا أفدح ماأصابه ، لكنه خبر للمرة الأولى وفي جسمه قسوة حياة العمل ووحشيتها في نطاق شامل ، هذه الحياة التي تتسلل فيها كل المشاعر الطيبة الرقيقة الودية أمام غريزة واحدة خشنة عارية متعسفة هي غريزة حفظ الذات والتي إذا أصابت المرء مصيبة لاتثير فيها عند الأصدقاء وخيرة الأصدقاء مشاطرة وعطفاً بل «سوء ظن» ، سوء ظن بارد ينطوي على النفور . أولم يعرف هذا ؟ أكان لابد أن يتعجب منه ؟ كم خجل كثيراً في ساعات خير من هذه وأقوى من أنه كان يثور في لياليه المؤرقة ويتمرد على قسوة الحياة الكريهة العديمة الخجل وقد غثت منها نفسه وجرحت جراحاً لا تلتئم .

كم كان هذا منه غباوة! وكم دعت هذه الانفعالات كل مرة الى السخرية كلما أحسها! كيف أمكن على الإطلاق أن تقوم بنفسه هذه المشاعر ؟ ذلك أنه يتساءل كرة أخرى أكان إنساناً عملياً أم حالماً عملياً رقيق الحاشية! آه ، لقد وجه الى نفسه هذا السؤال من قبل ألف مرة ، وأجاب عليه في ساعات قوية ثابتة تارة بهذا ، وتارة في أوقات مجهدة بذاك . لكنه كان في حدة الذهن والشرف بحيث لم ير في النهاية ندحة عن أن يعترف بأنه خليط من هذا وذاك . لقد قدم نفسه للناس في حياته رجلاً عاملاً ، لكنه بقدر ماكان يعتد كذلك بحق ، ألم يكنه ـ على حد قوله المختار الصادق المقتبس من جوته ـ عن تفكير واع ، لقد سجل فيما مضى نجاحاً تلو نجاح... لكن ألم يكن هذا

فحسب ثمرة الحماسة والهمة اللتين يدين بهما لإنعام النظر ؟ ثم وهو الآن صريع خائر القوى فيما يبدو ـ وليجعل الله هذه الحالة عابرة ـ ألم يكن هذا نتيجة محتومة لحالة التقلقل ، حالة التضارب الشاذ المهلك القائم في باطنه ؟... هل كان أبوه أو جده الأكبر يشتري محصول بوبنراده وهو مايزال في سنابله ؟ سيان! لكن الثابت أنهم كانوا عمليين ، وأنهم كانوا عمليين أكثر منه وأكمل وأقوى وأجرأ وعلى السجية!...

وتولاه قلق شديد ، واستشعر الحاجة والمكان والضوء ، فأزاح كرسيه الى الوراء وانتقل الى الصالون وأشعل عدة شعل غازية من الثريا المتدلية فوق المنضدة الوسطى . وظل واقفاً يفتل طرف شاربه الطويل في بطء ، واختلاج ، ويدير ظهره من حوله في هذه الحجرة الفخمة من دون أن يبصر شيئاً ، وكانت هذه الحجرة تشغل مع حجرة الجلوس عرض واجهة البيت بأسرها مجهزة بأثاث زاوٍ مقوس ، تحمل طابع الغرفة الموسيقية ببيانها الكبير الذي يستعمل في الحفلات ، وكانت صندوقة كمان جيردا قائمة عليه ، ومرفعها المحمل بكراسات المجسدات الموسيقية ومكتبها المحفور والرسوم البارزة التي تمثل فوق الأبواب أحبة عازفات . وكانت الخارجة مصفوفة بالنخيل .

ولبث السناتور بودنبروك واقفاً دقيقتين أو ثلاثاً لايحرك ساكناً ، ثم استجمع نفسه وعاد الى حجرة الجلوس ودخل قاعة الطعام وأضاءها كذلك ، وابتغى شيئاً عن البوفيه ، وتناول ليهدىء روعه أو يفعل شيئاً ما ، قدحاً من الماء ، ثمّ عجل بالإنتقال ويداه وراء ظهره الى مغاور البيت . وكانت غرفة التدخين مؤثثة أثاثاً قاتماً ، مبطنة الجدران بالخشب ، ففتح خزانة السيجار بصورة آلية ثم أقفلها ثانية على عجل ، ورفع على مائدة اللعب غطاء صندوقه من البلوط يحتوي على ورق لعب ومدونات وما شاكل ذلك . وأمرّ بين يديه عدداً من ماركات اللعب من العظم فانزلقت تخشخش ، ثمّ رد الغطاء واستدار مرة أخرى للذهاب .

وكان يلاصق حجرة التدخين غرفة صغيرة ذات نافذة ملونة . وكانت خالية الا من بضعة مناضد خفيفة جداً ، متداخلة يقوم فوقها صندوق للمشروبات الروحية .

وكان يلاصق حجرة التدخين غرفة صغيرة ذات نافذة ملونة . وكانت خالية إلا من بضعة مناضد خفيفة جداً ، متداخلة يقوم فوقها صندوق للمشروبات الروحية . لكنه من هذه الغرفة كان الدخول الى القاعة التي كانت تتناول بأرضيتها الباركية الفسيحة ونوافذها الأربع المسدلة الستائر حمراء بلون النبيذ والمطلة على الحديقة ، عرض البيت كله .

وكانت القاعة مؤثثة بزوج من الحيطان عالية الظهور وقورة المظهر . وكان هناك موقد تستقر خلف سياجه قطع من الفحم الكاذب تبدو كأنها تتوهج بما زودت به من شرائط من الورق اللامع الأحمر الذهبي . وعلى اللوحة الرخامية المستقرة أمام المرآة زهريتان صينيتان ضخمتان شامختان...

كان جناح الغرفة بأكمله يغمره إذ ذاك ضوء ينتشر من شعلات غازية متفرقة كأنما كان في هذه الغرف سامر ثمّ انفض وانصرف آخر ضيف فيه من هنيهة . وقد ذرع السناتور القاعة طويلاً ثم وقف بالنافذة المقابلة للغرفة الصغيرة ونظر الى الحديقة .

وكان القمر في كبد السماء صغيراً بين قطع السحاب ، والنافورة ترسل شعاع مائها في السكون السائد فيسمع خريره بين الفروع المتدلية من شجرة الجوز . وتناهى بصر توماس الى الخص الذي ينتهي عنده كل ماهنالك ، الى الشرفة الصغيرة اللامعة ببياضها والقائمة عليها المسلتان ، الى طرف الحصباء المنتظمة والحياض المستديرة المحتفرة حديثاً والمساحات الكلئة... بيد أن هذا التنسيق والتنميق الذي لاتشوبه شائبة لم يفد في تهدئته ، بل أضر به وأثاره ، فقبض على أكرة النافذة ووضع جبينه عليها وأعاد أفكاره سيرتها الأولى المعذبة .

الى أين يقدّر له المنتهى ؟ لقد تذكر ملاحظة أبداها من قبل لأخته فلمّا بدرت اعتدها سطحية الى أبعد حد فأسف عليها . لقد تكلم عن الكونت شتريلتس وعن نبلاء الريف وأعرب بهذه المناسبة في وضوح وجلاء عن رأيه في وجوب التسليم بتفوق المنتج على التاجر البسيط . فهل كان هذا صحيحاً ؟ آه ياإلهي ، لقد كان مما لايهمه على الإطلاق أن يكون هذا الرأي صحيحاً ؟ آه ، ياإلهي ، لقد كان مما لايهمه على الإطلاق أن يكون هذا الرأي صحيحاً أو لايكون! لكنه أكان عليه أن يعرب عن هذه الفكرة ، وأن ينعم فيها النظر أو تخطر له إطلاقاً ؟ أكان في مكنته أن يتصور كيف كان أبوه أو جده أو أي مواطن يقف من هذه الفكرة ويعبر عنها ؟ إن رجلاً متمكناً من مهنته لاتخالجه الشكوك ، لايعرف سوى هذه ، ولايعلم إلا هذه ، ولايقدر فكرة أخرى...

وبغتة شعر كيف صعد الدم حاراً الى رأسه وكيف احمرّ وجهه لذكرى ثانية أبعد من هذه في الماضي ، فرأى نفسه مع أخيه كريستيان في حديقة بيت شارع منج يجول معه فيها وقد شجر بينهما خلاف من تلك الخلافات التي يؤسف لها أشد الأسف... إذ ألقى كريستيان بأسلوبه المورط الذي تجفوه الرزانة على مسمع من الكثيرين بتصريح شائن حاسبه عليه

أخوه حانقاً غاضباً ثائراً ثورة جامحة . لقد قال كريستيان أن كل تاجر في الحقيقة والواقع غشاش . كيف ؟ أكانت هذه اللهجة الوضيعة المجردة من الذوق تختلف في جوهرها كثيراً عن تلك التي أجازها من هنيهة مع أخته ؟ لقد ثار من قبل عليها واحتج وحنق... لكنه كيف كان تعبير تلك الصغيرة الماكرة توني ؟ من يغلو...

وقال السناتور فجأة بصوت مرتفع : « كلا! » ورج رأسه الى الوراء وترك أكرة النافذة وارتد عنها في احتفال ثمّ قال بالصوت المرتفع نفسه : «لقد انتهى هذا! » ثمّ تنحنح ليتجاوز ذلك الشعور الذي أحدثه له صوته الوحيد ، وتحول ، وجعل يذرع الغرف كافة مسرعاً ، غادياً رائحاً ، مطأطىء الرأس ، واضعاً يديه فوق ظهره .

وعاد يقول : «لقد انتهى هذا! لابدّ من وضع حد لهذا! إني أتصعلك إني أتردى في الحمأ! إني سأكون أكثر من كريستيان غباءً » إنه لمدعاة الى أجزل الشكر أنه لم يكن يجهل مايجري في نفسه! في يده اصلاحها! بالقول!... فلننتظر... فلننتظر... أي عرض كان ذلك الذي عرض عليه ؟ المحصول... محصول بوبنراده وهو مايزال في سنابله ؟ قال : «سأفعل! » همس بها بحمية ، وهزّ يده ماداً سبابته : «سأفعل! » .

لقد كان هذا بالضبط مايسمونه صفقة! فرصة ورأسمال يبلغ ـ كم ـ أربعين ألف مارك بكل بساطة ، فإذا ضاعفنا المبلغ بدا فيه شيء من الغلو ؟... لقد كانت هذه إهابة به وإشارة له بالنهوض! إن الأمر يتعلق ببداية ، مغامرة . والخطر الذي يرتبط بها ويترتب عليها لايعدو نفياً آخر لكل الوساوس الأدبية ، فإذا نجحت ، عاد فوقف على قدميه ، وعاد فأقدم ، وأمسك ثانية بالحظ والسلطان بين هاته الكلاليب الباطنية المرنة...

كلا ، إن هذا الصيد سيفوت السيدين شترونك وهاجنشتروم للأسف! إن في المدينة متجراً له في هذه الحالة اليد العليا بالنظر الى علاقاته الشخصية!... والشخص في الواقع هو الحاسم هنا . فليس الأمر أمر صفقة عادية تعقد في هدوء وبالصورة المألوفة . إنها أدنى الى أن تكون على نحو ماتوسطت فيها توني مسألة خاصة تقريباً تعالج بحصافة وامتنان . وكيف يمكن أن يصلح لها هرمان هاجنشتروم! كلا ، كلا . إن توماس سيفيد من الضائقة كتاجر ، وعند البيع بعد ذلك سيعرف كذلك على التحقيق كيف يفيد! وهو من ناحية أخرى سيقدم الى المالك المأزوم خدمة لايطالب بها غيره بطبيعة الصداقة القائمة بين توني ومدام فون مايبوم... فليكتب اذن... ليكتب مساء اليوم بالذات ، لا على ورق المتجر المزود باسمه ولكن على ورق الرسائل الخاصة الذي لايحمل سوى اسم

السناتور بودنبروك مطبوعاً عليه . ـ ليكتب مراعياً وليسأل أيناسبه أن يزوره في الأيام التالية! إنها مسألة شائكة على كل حال . أرض زلقة نوعاً ما يجب أن يسير المرء فوقها محاذراً رشيقاً... وهو بهذا الأمر جدير!

وازدادت خطواته سرعة ، وتنفسه عمقاً . وجلس لحظة ثمّ هب واقفاً ، وعاد يطوف بالغرف جميعاً . وأدار كل شيء في خلده مرة أخرى ففكر في السيد ماركوس وفي هرمان هاجنشتروم وكريستيان وتوني ، وتمثل المحصول الأصفر الناضج في بوبنراده يتماوج في مهب الريح ، وتخيل بوجه عام نهضة المتجر الذي يعقد هذه الصفقة وأطرح كل الهواجس غاضباً وقال وهو يهزّ يده : «سأفعل!» .

وفتحت السيدة بيرمانيدر الباب الى قاعة الطعام وصاحت : «طاب ليلك!» فرد عليها دون وعي . ودخلت جيردا التي كان كريستيان قد استأذنها في الانصراف عند باب البيت ، وفي عينيها العسليتين المتقاربتين الغريبتين ذلك البريق الغامض الذي اعتادت الموسيقى أن تكسبها إياه . فوقف السناتور أمامها بصورة آلية وسألها كذلك بهذه الصورة عن العازف الاسباني وعن حفلته الموسيقية ثمّ أكد أنه سيتوجه في الحال الى النوم .

لكنه لم يتوجه للنوم بل عاود تطوافه ، ففكر في أعدال القمح والحنطة السوداء والشوفان والشعير التي ستكون فوق أرضيات مخازن «الأسد» و«الحوت» و«البلوطة» و«الزيزفون» ، وفكر في الثمن الذي ينوي أن يعرضه ـ ثمن لن يكون بحال بخساً ، ونزل عند منتصف الليل الى المكتب مخافتاً ، ودبج على ضوء شمعة السيد ماركوس رسالة بجرة قلم ، فلمّا قرأها برأسه المحموم الثقيل بدت له خير رسالة كتبها في حياته وأحصفها .

كان هذا في ليل السابع والعشرين من مايو ، فلمّا كان النهار التالي فاتح أخته بصورة سهلة فكهة أنه درس الموضوع من كل نواحيه وأنه لن يرفض طلب السيد مايبوم ببساطة ، ويحيله على أول نشال يصادفه . وفي الثلاثين من الشهر القادم قام برحلة الى روستوك واكترى من هناك مركبة الى الريف .

كانت معنوياته طيبة في الأيام التي تلت هذه الرحلة ، ومشيته مرنة طليقة ، وسيجاره تعبر عن الارتياح ، فعاكس كلوتيده ، وضحك من قلبه على كريستيان ، وباسط توني ، ولاعب هانو في يوم الأحد ساعة كاملة في الشرفة الكائنة بالطابق الأول فساعده على رفع أعدال صغيرة من الغلال من مخزن صغير في حمرة القرميد ، وقلد في أثناء ذلك نداءات

العمال الممطوطة الجوفاء... وفي الثالث من يونيه ألقى في جلسة مجلس المواطنين خطاباً رائعاً فكهاً عن موضوع هو أبعث مايكون على السأم ، عن مسألة تتعلق بالضرائب ، فبلغ من روعه خطابه وفكاهته أن أقر رأيه في كل نقطة فيه وإن كان القنصل هاجنشتروم الذي كان يعارضه ، هدفاً للضحك العام .

الفصل الخامس

أكان غفلة من جانب السناتور أم تعمداً ـ فقد كان على وشك أن تفوته واقعة أذاعتها مدام بيرمانيدر ونشرتها على الملأ ، وهي المشتغلة بسجلات الأسرة أكثر ماتكون وفاءً وتفانياً . واقعة هي أن اليوم السابع من يوليه سنة ١٧٦٨ مفترض في الوثائق أنه يوم تأسيس المتجر وأن العيد المئوي لهذا اليوم قريب .

وكأنه يبدو أن توماس بودنبروك لم يشعر بارتياح لما لفتته توني الى ذلك بصوت متأثر ، ذلك أن معنوياته الحسنة لم تدم . وسرعان ماعاوده سكونه ، بل لعله أصبح أكثر سكوناً من ذي قبل . فقد كان في غمرة العمل يغادر مكتبه ليطوف بالحديقة وقد استبد به الاضطراب . أو يكف عن السير بين الحين والحين ، وكأنه أعيق أو استوقف ويستر عينيه بيده متنهداً . لم يكن يقول شيئاً أو ينطق بشيء ـ ضد من أيضاً ؟ فقد عنف السيد ماركوس لأول مرة في حياته ـ وهذا منظر مدهش ـ لما أبلغه شريكه بإيجاز عن صفقة بوبنراده ، وأبى أن يتحمل أية تبعة أو يساهم في هذا أية مساهمة . أما أخته مدام بيرمانيدر فقد كشف لها توماس عن طويته في مساء خميس في الشارع أثناء أن كان يودعها فلمح الى المحصول وهو يضغط على يدها ضغطة واحدة وجيزة ويضيف اليها متعجلاً وبصوت خافت هذه الكلمات : «آه ياتوني ، لوددت أن أبيع ثانية!» ثمّ تحول للمسير وقد قطع كلامه بغتة ، وخلف مدام أنتونيا مأخوذة مذهولة… فضغطة اليد المفاجئة هذه تنطوي على شيء من اليأس المتفجر ، وهذه الكلمة المهموسة تحتوي الكثير من الخوف المحتبس هذا الزمن الطويل… لكنه لما حاولت توني في مناسبة تالية أن تعود الى الموضوع كان هذا أدعى عنده الى اللياذ بالصمت وقد تولاه الخجل من نقطة الضعف

التي أبداها لحظة وملئت نفسه مرارة من عدم صلاحيته للنهوض بالتبعة عن هذا المشروع...

وقال إذ ذاك متثاقلاً متضايقاً : «آه ياحبيبتي ، لوددت لو أمكننا أن نتجاهل هذا الأمر بكل بساطة!» .

«تتجاهله ياتوم ؟ مستحيل! لا يخطر بالبال! أتعني أنه يمكنك أن تمحو هذا الأمر الواقع ؟ أتعني بأن المدينة بأسرها يمكن أن تنسى أهمية هذا اليوم ؟» .

«إني لاأقول أن هذا ممكن ، إني أقول أنه كان أحب الي أن نقضي هذا اليوم في صمت . فالاحتفال بالماضي شيء جميل متى كان المرء في خير بالنسبة للحاضر والمستقبل... إن تذكر الآباء شيء طيب متى عرف المرء أنه متفق معهم وشعر بأنه كان دائماً يسلك مسلكهم . . ألا ليت العيد جاء في وقت أنسب من هذا الوقت . بإيجاز . . إني أجد نفسي أقل استعداداً للاحتفال بالأعياد» .

«يجب ألا تتكلم هكذا ياتوم . وأنت لاتعني أيضاً ماتقول ، وتعرف أن من العار أن تدع العيد المئوي لمتجر يوهان بودنبروك يمر بلا طبل ولازمر! إنك الآن عصبي بعض الشيء وأنا أعلم لماذا... وإن لم يكن ثمة من سبب لذلك... لكنه متى حل اليوم سوف تشعر بالغبطة التي سنحسها جميعاً...»

وكانت محقة ، فلم يكن هذا اليوم بالذي يقضى في صمت وسكون . ولم يمض طويلاً حتى كانت في صحيفة «الإعلانات» كلمة تمهيدية منشورة تبشر بسرد تاريخ هذا البيت التجاري المحترم من قديم بالتفصيل ليوم الاحتفال ـ ولم يكن الأمر بحاجة الى هذه الكلمة للفت نظر التجار المحترمين . أما مايتعلق بالأسرة فقد كان يوستوس كروجر أول من فتح في يوم الخميس موضوع الشيء المنتظر . وقد عنيت مدام بيرمانيدر بمجرد إخلاء المائدة من بقايا «الحلو» بأن توضع عليها الحافظة الجلدية المحترمة المشتملة على سجلات الأسرة باحتفال ، وأن تشتغل بالتفصيل ، كمحتفلة قبل الاحتفال ، بالمعطيات المعروفة عن حياة المرحوم يوهان بودنبروك جد هانو الأكبر من الأكبر ومؤسس المتجر ، متى أصيب بالحصبة ، ومتى بالجدري الصادق ، ومتى سقط من الطابق الثالث على الأتون ، ومتى وقع فريسة حمى حامية يتخللها هياج ، فتقرأها في وقار عليه مسحة من الدين . ولم تكن تقتنع بشيء ، فقد رجعت في القرن السادس عشر الى أكبر بودنبروك ، وكان معروفاً ، والى الذي كان عضواً في بلدية جراباو ، والى ترزي الأردية في روستوك الذي كان «من أهل اليسار»

وقد وضع خط تحت هذه العبارة ـ وكان له أولاد كثيرون بصورة غير عادية ، أحياء وأموات... وقد صاحت عنده : « ياله من إنسان رائع » ثمّ أخذت تتلو رسائل وتلقي أشعاراً قديمة مصفرة ممزقة...

●

كان السيد ڤنتسل ، كما هو مفهوم ، أول مهنىء في السابع من يوليه .

قال : « أجل ياحضرة السناتور ، مائة سنة » . وجعل الموسى والجلد يتحركان في يديه الحمراوين بخفة... ثمّ استأنف الكلام : « ونصف هذا العمر تقريباً ، ولأقل هذا ، كنت أحلق ذقون الأسرة الكريمة فخبرت معها أشياء ، إذ كنت على الدوام أول من يفوز بخطاب رئيس الأسرة... وكان السيد القنصل المرحوم أكثر مايكون استعداداً للكلام في الصباح ، وعندئذ كان يسألني : « ڤنتسل! مارأيك في الحنطة السوداء ؟ هل أبيع أو ترى أنها ستصعد فوق ماصعدت ؟... »

« أجل ياڤنتسل ، إني أيضاً لاأستطيع أن أفكر في كل ذلك من دونك . فمهنتك ، كما كنت أقول لك أحياناً ، فيها الكثير مما يجذب حقاً ؛ فأنت اذا انتهيت في الصباح من دورتك ، بقيت أعقل الجميع ، ذلك أنك عندئذ تكون قد وضعت رؤساء البيوت الكبرى كافة تقريباً تحت الموسى وعرفت هوى كل منهم ، ومن ثم يمكن أن يحسدك كل أحد ، لأن هذا ممتع جداً » .

« إن في هذا شيئاً من الحقيقة ياحضرة السناتور . لكنه فيما يتعلق بمعنوية السيد السناتور ، إذا جاز لي أن أقول هذا ، ... فإن حضرة السناتور في هذا الصباح شاحب اللون قليلاً ؟ »

« كذا ؟ أجل ، إني أعاني صداعاً ، وهذا لايزول سريعاً كما أتوقع ، لأني أعتقد أنهم سيشغلونني اليوم قليلاً » .

« هذا ماأعتقده أيضاً ياحضرة السناتور . فالمشاركون كثيرون ، كثيرون جداً . انظر فيما بعد ياحضرة السناتور من النافذة مرة ، فستجد الأعلام منتشرة . وتحت أمام « حفرة السماكين » ترسو « مولنيڤيفر » و« فردريكا أوڤرديك » ترفرف عليهما الرايات... »

« إذن فلتسرع ڤنتسل ، فليس لدي من الوقت ماأضيعه » .

ولم يتناول السناتور اليوم جاكتة المكتب أول ماتناول ، بل ارتدى في الحال الى

سراويل ركبته الرائقة سترة سوداء مفتوحة تكشف عن صدريته البيضاء ، إذ كان ينتظر زواراً قبل الظهر وقد ألقى على نفسه نظرة أخيرة في مرآة الدورة ، وترك مقص الكي ينزلق مرة على طرفي شاربه الطويلين ، وتحول للذهاب وهو يتنهد تنهيدة مقتضبة... وبدت الحركة... فهلا انتهى هذا اليوم الآن وهو في البداية! هل يبقى وحده لحظة ؟ هل يستطيع لحظة أن يرخي أهداب وجهه ؟ استقبالات طيلة اليوم تفرض عليه أن يلاقي مائة من المهنئين حصيفاً وقوراً ، وأن يجد في كل ناحية ما ينطوي على الانتباه والظلال الملائمة من كلمات مناسبة تدل على الاحترام والجد والود ، وتنطوي على التهكم والفكاهة والتساهل والرقة... ثمّ بعد ذلك مأدبة في قبو البلدية من بعد الظهر الى هزيع من الليل...

لم يكن صحيحاً أنه كان يعاني صداعاً . فقد كان متعباً فحسب . ولم يكد سلام الصباح الباكر يولي حتى أخذ يشعر بهذا الضيق الغامض جاثماً فوق صدره... فلماذا كذب ؟... لكنه ليس الآن وقت التفكير في ذلك...

لقد دخل قاعة الطعام فأقبلت عليه جيردا نشطة . وكانت هي أيضاً ترتدي ملابس الاستقبال . كانت تلبس جونلة ملساء من قماش اسكتلندي وقميصاً أبيض وجاكته صغيرة فوقه يلائم لونها لون شعرها الغزير الداكن الحمرة . وكانت تبدو أسنانها العريضة المتناسقة باسمة ، وكانت في محياها الجميل أشد بياضاً أيضاً . وكانت عيناها تبتسمان كذلك ، هاتان العينان المتقاربتان المستسرتان العسليتان ذواتا الظلال المائلة الى الزرقة .

«لقد لبثت الى الآن ساعات أقف على قدمي وهو ماتستخلص منه كم تتملك الحماسة تهاني» .

«هاأنظري! إن السنين المائة تؤثر فيك!»

«أعمق تأثيراً... على أنه من الممكن أيضاً أن يكون الاحتفال وحده هو الذي يؤثر فيّ... فما أعظمه من يوم ، هذا اليوم على سبيل المثال» وأشارت الى مائدة الإفطار التي كانت مكللة بالأزهار المقتطفة من الحديقة وهي تقول : «هذا عمل الآنسة يونجمان... على أنك لاتخطىء إذا ظننت أن في وسعك أن تتناول الشاي الآن . ففي الصالون أهم أعضاء الأسرة ينتظرونك ومعهم هدايا بمناسبة العيد لا أخلو تماماً من المساهمة فيها... اسمع ياتوماس . هذه بطبيعة الحال بداية هرج الزيارات التي ستقع ومرجها . وسأحتمل في مبدأ الأمر ، لكني سأنسحب عند الظهر ، هذا ما أقوله لك . إن السماء وإن هبط البارومتر قليلاً ماتزال صافية الزرقة وهو ماينسجم مع الرايات المرفوعة في المدينة بأسرها . لكن الحر سوف يكون

مخيفاً . فلتأت الآن الى هناك ولينتظر فطورك . لقد كان ينبغي أن تنهض من نومك أكثر تبكيراً . فالآن لابدّ أن يقع أول أثر على معدتك الخالية...»

والفيا في الصالون القنصلة وكريستيان وكلوتيده وايدا يونجمان ومدام بيرمانيدر وهانو . وكان الأخيران يمسكان بهدية الأسرة مجهدين بعض الشيء ، وكانت لوحة تذكارية كبيرة... فعانقت القنصلة ابنها الأكبر في تأثر عميق .

قالت : «هذا يوم جميل يا ابني العزيز...» وكرّرت : «هذا يوم جميل . إننا يجب ألا نكف أبداً عن حمد الله وشكره على آلائه كلها ، ونعمه هذه...» وبكت .

وتملك السناتور من هذه المعانقة شيء من الضعف ، فقد كان كأنما يتحلل شيء في باطنه ويزايله ، فارتعشت شفتاه ، وشعر بتخاذله في حاجته الى البقاء بين ذراعي أمه وعلى صدرها مغمض العينين ، يستشعر هذا العطر الحاني الذي ينتشر من حرير ثوبها الناعم... فقبلها ثمّ اعتدل ليمد الى أخته يده التي ضغطها أخوه بسيماه نصف المشتتة نصف المرتبكة ـ سيماه المعروفة عنه في الاحتفالات . وقالت كلوتيدة شيئاً ممطوطاً ودياً . أمّا مايتصل بالآنسة يونجمان فقد اجتزأت بأن تنحني انحناءة عميقة كانت يدها أثناءها تعبث بسلسلة ساعتها الفضية المتدلية من صدرها المنبسط .

وقالت مدام بيرمانيدر بصوت متهدج : «تعال ياتوم ، إننا لانستطيع أن نستبقيها بعد الآن بين أيدينا أنا وهانو» . وكانت تحمل اللوحة وحدها تقريباً ، إذ كان ذراعا هانو متخاذلتين وكانت هي من فرط الاجهاد تلوح عليها سيماء الشهيدة المغتبطة ، فكانت عيناها ثرتين ، ووجنتاها جد متوردتين ، وطرف لسانها يعبث بشفتها العليا في تعبير يجمع بين اليأس والشيطنة...

فقال السناتور : «أجل . الآن أجيء اليكما . ماهذا ؟ تعاليا! عاونا فإنّا نريد إسنادها» وأقام اللوحة بجانب البيان مسندة الى الحائط ، وظل واقفاً أمامها تحوط به أسرته .

وكان الإطار الثقيل المحفور المصنوع من خشب الجوز يضم ورقة مقواة تبدي تحت الزجاج صور أصحاب متجر يوهان بودنبروك الأربعة ، وتحت كل صورة منها الاسم والسنة مطبوعين بالذهب ، وكانت بينها صورة يوهان بودنبروك مؤسس المتجر مأخوذة عن صورة زيتية قديمة ، صورة رجل فارع ، وقور ، مسن مطبق الشفتين يجاوز يابوطه* بنظرة تتجلى

---

* حلية من المخرمات موضعها الصدر .

فيها الصرامة وقوة الإرادة ، وكان فيها وجه يوهان بودنبروك العريض الطروب صديق چان چاك هوفشتيده ، والقنصل يوهان بودنبروك بذقنه المدسوسة في بنيقة قميصه العالي وأنفه الكبير الشديد التقوس يسلط على الرائي عينيه الذكيتين الناطقين بحميته الدينية . وأخيراً توماس بودنبروك نفسه أصغر منهم سناً بعض الشيء . وكانت سنبلة ذهبية تتبع نمطاً بعينه تتخلل الصور التي كان يصحبها رقماً ١٧٦٨ ، ١٨٦٨ مطبوعين بالذهب يلمعان ، ويجاور أحدهما الآخر منبئاً بدلالته . وكان على رأس هذا كله حكمة مكتوبة بأحرف قوطية عالية وبخط ذلك الذي أنهاها الى خلفائه ، فحواها : « يابني ، أقبل على أعمالك بالنهار ، لكن إياك أن تؤدي منها إلا مايجعلنا ننام بالليل مستريحين » .

وقف السناتور يتأمل اللوحة طويلاً ويداه وراء ظهره ، ثمّ قال فجأة في نبرة تكاد تنطق بالسخر : « نعم ، نعم . إن النوم الهادئ بالليل شيء جميل... »

ثم قال جاداً وإن تعجل في قوله قليلاً ، متجهاً الى الحاضرين جميعاً : « أشكركم من كل قلبي ياأعزائي! إن هذه لهدية جميلة جداً وذات معنى!... فما رأيكم ؟ أين نعلقها ؟ في حجرة مكتبي الخاصة ؟ »

فأجابت مدام بيرمانيدر : « أجل ياتوم ، فوق مكتبك في حجرة مكتبك الخاصة » وعانقت أخاها ثمّ سحبته الى الخارجة وأشارت له الى الخارج .

وكانت الرايات ذات اللونين ترفرف تحت سماء الصيف الشديدة الزرقة فوق البيوت جميعاً ، من شارع منج الى الميناء في انحدار حفرة السماكين . وكانت السفينتان « موليڤيفر » و« فريدريكا أوڤريدك » ترفعان الأعلام .

وقالت مدام بيرمانيدر وصوتها يهتز : « هكذا المدينة عن بكرة أبيها... لقد خرجت أتنزه ياتوم فألفيت آل هاجنشتروم أنفسهم يرفعون العلم! وهل يسعهم غير ذلك... لكنت خليقة أن أرجم نوافذهم لو أنهم لم يفعلوا... »

فابتسم ، وعادت به تسحبه الى الحجرة الى جوار المائدة .

« هنا برقيات ياتوم... والأولى شخصية طبعاً من أعضاء الأسرة في الخارج . أما ماجاء من أصدقاء العمل فيذهب الى المكتب... »

وفضّا بضع برقيات واردة من المقيمين في هامبورج وفرانكفورت ومن السيد أرنولدسن وأهله في أمستردام ، ومن يرجن كروجر في ويزمار... بغتة احمر وجه مدام بيرمانيدر احمراراً شديداً .

فقالت وهي تدفع الى أخيها ببرقية فضّتها : «إنه في نوعه رجل طيب» . وكانت البرقية ممضاة : بيرمانيدر .

وقال السناتور : «لكن الوقت يمر» وأطلق غطاء ساعته . ثمّ استطرد يقول : «أريد شاياً فهل تشاركونني ؟ إن البيت سيكون فيما بعد كبرج الحمام» .

فاستوقفته زوجه التي أومأت اليه :

«لحظة ياتوماس... إنك تعلم أن هانو يجب أن يذهب من فوره الى درسه الخاص... وهو يود أن ينشد لك قصيدة... تعال ياهانو! كأن ليس أحداً هنا . فلا تضطرب!»

وكان على يوهان الصغير أن يتلقى أثناء العطلة ـ فالعطلة الصيفية في يوليه ـ درساً خاصاً في الحساب ، ليستطيع اللحاق بفصله في هذه المادة . ففي مكان ما من ضاحية القديس جرترود وفي حجرة صغيرة شديدة الحر تتصاعد منها رائحة غير طيبة كان ينتظره رجل ذو لحية حمراء وأظافر قذرة ، ليدربه على جدول الضرب العسير . لكنه كان عليه أن يلقي على أبيه الشعر قبل ذلك . وكان قصيدة استظهرها بعناية على ايدا في الشرفة الواقعة في الطابق الثاني...

فاستند الى البيان مرتدياً زي بحارة كوبنهاجن ذا البنيقة التيلية العريضة وحاشية الرقبة البيضاء ، وعقدة البحار السميكة البارزة من تحت البنيقة . وقد شبك ساقيه الرقيقتين وأمال رأسه والجزء الأعلى من جسمه قليلاً متخذاً وضعاً بادي الظرف يشوبه تهيب وعدم وعي . وكان شعره الطويل قد قص من أسبوعين أو ثلاثة مضت ، ذلك أن معلميه لا رفاقه وحدهم ، كانوا يتندرون عليه في المدرسة . لكن هذا الشعر كان مايزال فوق رأسه خصلاً غزيرة ناعمة ينمو فوق سالفيه وعلى جبينه الرقيق نمواً عميقاً . وقد أرخى جفونه وأسبل أهدابه العسلية الطويلة فوق تظليل عينيه الضارب الى الزرقة ، وكانت شفتاه المطبقتان مزمومتين بعض الشيء .

كان يعلم ماسيحدث فلن تكون له ندحة عن البكاء ولن يستطيع الانتهاء من قصيدته قبل البكاء ، وهي قصيدة ينقبض منها قلب المرء وينكمش كما ينكمش الأرغن في يوم الأحد في كنيسة مريم تحت يد السيد بغيل العازف عليه ليؤدي لحناً رهيباً نافذاً... البكاء الذي ينخرط فيه كلما طلب اليه أن يظهر ماعنده وكلما امتحن وامتحنت جدارته وحضور ذهنه على نحو مايحب أبوه . فليت أمه لم تذكر شيئاً عن الاضطراب! لقد كان القصد تشجيعه ، لكن هذا التشجيع لم يتم كما أحس هو ، فهناك من يقف ينظر اليه ، يخشى ،

ويتوقع أن ينخرط في البكاء ... فهل كان ممكناً ألا يبكي ؟ لقد رفع أهدابه ينشد عيني ايدا التي كانت تعبث بسلسلة ساعتها ، وتومىء اليه برأسها على طريقتها الصالحة القاسية . وقد داخلته حاجة ماسة الى الالتصاق بها وحملها على الإنصراف به فلا يسمع سوى صوتها العميق المهدىء يقول له : «هدىء روعك ياهانو ياصغيري ، فلا حاجة بك الى الإلقاء » .

وقال السناتور بلهجة موجزة : «والآن يابني اسمعنا!» وكان قد جلس فوق كرسي ساند الى المائدة ينتظر ـ لم يبتسم مطلقاً . وهو اليوم أقل ابتساماً من مألوفه في المناسبات المماثلة . كان يقيس قامة يوهان الصغير بنظرة فاحصة كانت الى ذلك جامدة ، متسمة بالجد يرفع فيها أحد حاجبيه .

فاعتدل هانو ، ومسح بيده على خشب البيانو اللامع من الدهان ، وأجال نظرة هيابة في الحاضرين ، ثمَ تشجع قليلاً بنظرة عطوف أضاءت له من عيني جدته وعمته توني فقال بصوت خافت قاس بعض الشيء : «أغنية الراعي في يوم الأحد... لاولند » .

فصاح السناتور : «أوه ياعزيزي ، ماهكذا يكون المسلك ، لايلتصق المرء هناك بالبيانو ويشبك يديه فوق بطنه... قف على سجيتك! وتكلم على طبيعتك! فهذا أول ماتفعل . تعال هنا! قف بين الستائر! ارفع رأسك وأرخ ذراعيك في راحة...»

ووقف هانو على عتبة حجرة الجلوس وأرخى ذراعيه ، ورفع رأسه صادعاً بالأمر ، لكنه ظل مسبلاً أهدابه إلى حد أنه لم ير من عينيه شيء . ولعلهما كانتا مغرورقتين بالدموع .

قال في خفوت : «هذا يوم الرب» بينما رن صوت أبيه قوياً وهو يقاطعه قائلاً : «إن المرء يابنط يبدأ محاضرته بانحناءة! ثم رفع صوته أكثر من ذلك كثيراً . مرة أخرى أرجوك! أغنية الراعي في يوم الأحد...»

كانت هذه قسوة ، فالسناتور يعلم جيداً أنه يسلب الطفل بهذا ، البقية الباقية من ثباته وقوة مقاومته . لكن الصغير كان ينبغي ألا يدع أباه يسلبه هذا أو يربكه ، كان ينبغي أن يثبت وأن يكون رجلاً... فأعاد في عناد متشجعاً : أغنية الراعي في يوم الأحد...

لم يكن في هانو غناء فقد كان يطأطىء رأسه فوق صدره وكانت يمناه الصغيرة وهي تطل شاحبة مزرقة الشرايين من أكمام البحارة الضيقة كل الضيق في أسفل والمطرزة بمرساة ـ كانت تجذب في تشنج ديباج الستائر المزركش . وقد قال بعد ذلك : «إني وحدي فوق المرج الرحيب» . ثمَ كف نهائياً . وانتقلت اليه روح الشعر الحزين فكان من رثائه الشديد

لنفسه أن احتبس صوته كل الاحتباس وأن تفجر الدمع من بين جفونه من دون أن يغالبه . وتملكه الشوق فجأة الى ليالٍ بعينها كان فيها مريضاً طريح الفراش يعاني ألماً في الزور وحمى خفيفة ، فكانت ايدا تأتي لتعطيه ما يتجرعه ولتضع على جبينه كمادة مرطبة . وانحنى جانباً ، واعتمد رأسه فوق اليد التي يمسك بها الستارة وانتحب .

فقال السناتور في قسوة وانفعال : «هذا شيء يغم!» ونهض ، ثم عاد يستأنف الكلام ويقول : «ماذا يبكيك ؟ إن البكاء يمكن أن يكون على أنك في يوم كهذا لاتبدي همة لتوليني سروراً . فهل تراك فتاة صغيرة ؟ ماذا يكون منك إذا ما استمررت في مخاطبة الناس ؟...»

وفكر هانو يائساً وقال لنفسه : أبداً . لن أخاطب الناس أبداً!

وختم السناتور بقوله : «فكّر في هذا الأمر الى مابعد ظهر اليوم!» وبينما كانت ايدا يونجمان تركع عند ربيبها ، وتجفف له دمعه ، وتواسيه نصف لائمة ونصف حانية انتقل السناتور الى غرفة الطعام .

وإذ يتناول طعام إفطاره في عجلة استأذنته في الإنصراف كل من القنصلة وتوني وكلوتيده وكريستيان . وكان المقرر أن يتناولوا اليوم طعام الغداء هنا عند جيردا مع آل كروجر وڤاينشنك وسيدات بودنبروك بينما يكون السناتور خلال ذلك ، إن خيراً وإن شراً ، في المأدبة التي تقام في قبو البلدية . لكنه اعتزم البقاء هناك إذ فقد الأمل في ملاقاة الأسرة في بيته مساءً .

ورشف الشاي على المائدة المزدانة بالأكاليل من طبق القدح ، وأكل البيض متعجلاً ، وسحب وهو يهبط الدرج بضعة أنفاس من سيجارته . وجاء جروبليبن من مرج الحديقة الى الردهة الأمامية متلفعاً بشاله الصوفي حول عنقه في هذا الوقت من الصيف ، خالعاً حذاءه ذا الرقبة فوق ساعده الأيسر ممسكاً في يمناه بصندوق «المسح» تتعلق بأنفه قطرة ،مسترسلة ، جاء يتقدم من سيده في أسفل الدرج الرئيس حيث يحتل الدب البني المنتصب مكانه حاملاً صحفة بطاقات الزيارة...

قال : «نعم ياحضرة السناتور مائة عام... وواحد فقير والآخر غني...»

فأجابه السناتور : «حسن ياجروبليبن ، كل شيء بخير!» وألقى في يده التي تحمل صندوق المسح بقطعة من النقود ، وعبر الردهة الى مكتب الاستقبال المجاور لها . وجاء الصراف في المكتب الكبير ليقدم له في عبارات مختارة تهاني السناتور بكلمتين واتجه الى

مكانه عند النافذة . لكنه ماأن شرع يلقي نظرة على الصحف المستعرضة أمامه ويفض البريد حتى دق الباب المؤدي الى الردهة الأمامية وظهر المهنئون .

كانوا وفداً من عمال المخازن مؤلفاً من ستة رجال ، دخلوا منفرجي السيقان ، متثاقلين كالدببة ، تتدلى زوايا أفواههم الى أسفل في اخلاص عظيم ، ويديرون قبعاتهم في أيديهم . وبصق متكلمهم عصارة تبغه الممضوغ فوق أرض الغرفة ، ورفع سراويله المرخاة ، وتكلم بصوت وحشي في تأثره قائلاً : «مائة سنة ومئات أخرى من السنين» . فمنّاهم بعلاوة كبيرة عن هذا الاسبوع وصرفهم .

وجاء موظفو الضرائب ليهنئوا رئيسهم باسم المصلحة ، فلما خرجوا التقوا بالباب بعدد من البحارة يقودهم اثنان من موظفي الضرائب ، موفدين من السفينتين «موليڤيفر» و«فريدريكا أوڤرديك» التابعين لشركة بناء السفن والراسيتين إذ ذاك في الميناء . وجاء وفد حمالي الحبوب بقمصانهم السود وسراويلهم التي تنتهي عند الركبة وقبعاتهم العالية ، وكان من بينهم بعض المواطنين . وظهر المعلم الخياط شتوت القاطن في شارع صناع الأجراس يرتدي سترة سوداء فوق قميصه الصوفي . وهنأ هذا الجار او ذاك وقدم بائع الأزهار ايڤرسن تهانيه . وجاء ساعي بريد شيخ أبيض اللحية في أذنيه قرطان ، وله عينان رمدتان ، مضحك أصيل ، اعتاد السناتور في أيام الرخاء أن يخاطبه في الشارع ويناديه بياحضرة باشمأمور البريد . جاء يصيح بالباب : «ليس من أجل ذلك يا حضرة السناتور . لم آت من أجل ذلك . إن الناس ينبئون بعضهم بعضاً أن هنا شيئاً يهدى الى الجميع... لكنّي لم آت من أجل ذلك...!» . لكنه مع هذا تلقى قطعة من النقود شاكراً... وهكذا لم تعرف هذه الحالة نهاية . فلمّا أوشكت الساعة على منتصف الحادية عشرة أعلن الخادم أن قرينة السناتور تستقبل في الصالون أول الضيوف .

فغادر توماس بودنبروك المكتب وبادر الى الدرج الكبير . وهناك عند مدخل الصالون مكث نصف دقيقة أمام المرآة يصلح ربطة رقبته ويستنشق لحظة عبير ماء الكولونيا من منديله . وكان شاحب اللون يتصبب جسمه عرقاً لكن يديه وقدميه كانت باردة . فقد أجهدته استقبالات المكتب أو كادت . ثمّ تنفس الصعداء ، ودخل الحجرة الدافئة بأشعة الشمس ليحيي القنصل هونيوس تاجر الخشب الكبير وصاحب الخمسة ملايين وقرينته وابنته وقرينها السيد السناتور الدكتور جيزيكه . وقد جاء السادة والسيدات معاً من تراڤيمنده حيث قضوا شهر يوليو كالعديد من الأسر الكبيرة التي قطعت استشفاءها في الحمامات تكريماً لعيد متجر بودنبروك المئوي دون غيره .

وما كادت المقاعد الرائقة المقوسة الموزعة تحتويهم بضع دقائق حتى أقبل القنصل أوفرديك ابن المحافظ المتوفى ومعه زوجه التي تنتمي الى أسرة كستنماكر ولمّا استأذن القنصل هونيوس في الانصراف أقبل أخوه وكان مايمتلكه يقل مليوناً عمّا يمتلكه هو لكنه يعوضه من ذلك أنه سناتور .

وافتتح الحفل الآن فكان الباب الكبير الذي تعلوه صورة بارزة تمثل محبات عازفات لايبقى لحظة مقفلاً ، فهو يتيح على الدوام النظر الى بئر السلم الذي يغمره الضوء الساقط والى الدرج الكبير نفسه الذي لم يكن الضيوف يصعدونه ويهبطونه . لكنه لما كان الصالون رحباً وكانت الجماعات التي تتكون يربطها الحديث فقد كان الآتون أكثر عدداً بكثير من الذاهبين ، فلم يلبث القوم أن تجاوزوا الصالون فلم يعودوا يقتصرون عليه بل أزالت الخادم مايعوق الفتح والإقفال وتركت الباب مفتوحاً . وجعل الضيوف يقفون أيضاً في الطرقة الباركية ويؤلفون الحلقات : حديث رنان مدوٍ تتعالى به أصوات النساء والرجال ومصافحات ،وانحناءات ومزاح وضحك عالٍ مرح يتصاعد بين أعمدة بئر السلم ويرتد من السقف . من ذلك القرص الزجاجي الذي يسقط منه الضوء .

والسناتور بودنبروك يتلقى أثناء ذلك تارة على رأس الدرج وتارة على عتبة الخارجة مايتمتم به الضيف في وقار واحتفال ومايصدر عن القلب من تهان . وقد استقبل المحافظ الدكتور لانجهالز من الجميع بالإجلال والاحترام . وهو رجل ربعة وجيه ، يخفي ذقنه الحليقة في ربطة رقبته البيضاء ، له لحية عارضية شيباء قصيرة ونظرة الديبلوماسي المتعبة . وقد حضر القنصل ادوارد كستنماكر تاجر النبيذ تصحبه قرينته وهي من أسرة مولندروف كما حضر أخوه وشريكه ستيفان أوفى نصير وصديق للسناتور بودنبروك ومعه زوجته وهي ابنة أحد ملاك الأراضي وسيدة تستمتع بصحة سابغة . وكانت أرملة السناتور مولندروف تتربع في الصالون وسط الأريكة حين وصل ابنها القنصل أوجست مولندروف وجعلا يطوفان محيين وسط المجتمعين . وقد وجد القنصل هرمان هاجنشتروم لجسمه الضخم متكئاً على درابزين الدرج وجعل يتحدث مع السيد السناتور الدكتور كريمر مدير البوليس وهو يتنفس في شيء من العناء ويخرج من أنفه المفلطح المستقر فوق شفته العليا زفير ينفذ الى لحيته المحمرة . وكانت لحية مدير البوليس العارضية تحف بوجه يبتسم في شيء بعينه من المكر الخفيف وقد اختلط كستناؤها بالمشيب . وكان هناك وكيل النائب العام الدكتور موريتس هاجنشتروم يبتسم في مكان ما ويبدي

أسنانه الحادة الفالجة ، وكانت زوجته الجميلة حاضرة بالمثل وهي من هامبورج من أسرة بوتفاركن . ويشهد الناس لحظة كيف يمسك الدكتور جرابو والعجوز بيد السناتور بودنبروك اليمنى في كلتا يديه ليزحزحه على الأثر المهندس المعماري فويجت . ويصعد القسيس برنجزهايم الدرج في ثيابه المدنية لايدل على وظيفته إلا طول سترته ، باسطاً ذراعيه يتجلى وجهه كل التجلي . كذلك حضر فردريك ڤلهلم ماركوس ، وظهر أولئك السادة الذين ينتمون الى هيئة من الهيئات كمجلس الشيوخ ومجلس المواطنين والغرفة التجارية مرتدين الفراك ـ وانتصفت الثانية عشرة فاشتدّت الحرارة كثيراً وكانت ربة البيت قد انسحبت من ربع ساعة مضت...

وبغتة علا من أسفل الدار عند الصفة وقع أقدام متثاقلة جارفة . كان أناساً عديدون يدخلون الردهة دفعة واحدة ، وعلا في الوقت نفسه صخب ملأ البيت بأسره . فاندفع الجميع الى الدرابزين وتجمعوا في الطرقة ينسابون من الأبواب الى الصالون الى قاعة الطعام وحجرة التدخين وجعلوا يطلون . فإذا تحت جماعة قوامها عدد يتراوح بين خمسة عشر وعشرين رجلاً تنظم نفسها وتحمل الآلات الموسيقية تحت إمرة سيد يحمل عارية شعر كستنائية ولحية شيباء مما يطلق الملاحون وطاقم أسنان صناعية عريضة صفراء يكشر عنها وهو يرفع صوته بالكلام... فماذا هناك ؟ إن القنصل دولمان يدخل مع جوقة مسرح المدينة ويصعد السلم مزهواً تلوح يده برزمة من المناهج!

وبدأت الجوقة التي جلبت الى بيت بودنبروك في عيده المئوي وجعلت الأصوات في علم السماع الغريب هذا ، المتجاوز الحدود تلتهم بعضها بعضاً ويجانبها كل معنى وتتصادم فيه النغمات ويطغىٰ نفير الناقور الواطىء المقرقر الذي ينفخ فيه رجل بدين يعبر وجهه عن غاية الجهد ويتسلط على كل ماعداه . وبدأت الجوقة بالمجموعة تنشد «اشكروا الله جميعاً! » ثمّ تلا ذلك تلخيص «هيلانة الجميلة» لأوفنباخ ليتبعه قبل كل شيء كشكول من الأغاني الشعبية... إلا أنه لمنهاج يكاد يكون جامعاً .

من وحي خاطر دولمان! ويهنئون القنصل ولا يفكر أحد في الانصراف قبل انتهاء الحفلة الموسيقية . ويقفون أو يجلسون في الصالون وفي الطرقة يسمعون ويتحدثون .

ويرابط توماس بودنبروك مع ستيفان كستنماكر والسناتور الدكتور جيزيكه والمهندس المعماري فويجت على الجانب الآخر من الدرج الكبير عند الباب الخارجي المؤدي الى غرفة التدخين غير بعيد من مصعد الطابق الثاني . وكان يقف مستنداً الى الحائط

يلقي هنا وههنا بكلمة في حديث جماعته ويتجاوز الفضاء فيما خلا ذلك ببصره صامتاً عبر الدرابزين . وقد اشتد الحر فوق ماكان وازداد إرهاقه .

بيد أن سقوط المطر لم يكن مستبعداً إذ ذاك لأنه كانت هناك سحب تلبد السماء ويستدل عليها من الظلال التي كانت تمر فوق مسقط النور . أجل إن هذه الظلال كانت كثيرة تتعاقب بسرعة بلغ منها أن إضاءة بئر السلم كانت في النهاية تؤلم العين لتبدلها واختلاجها من دون انقطاع . ففي لحظة ينطفىء لمعان الجص المذهب والثريا النحاسية والأدوات الموسيقية في أسفل الدار ليعود اليها بريقها في اللحظة التالية . وتلبث الظل مرة أطول قليلاً من المعتاد فسمع نقر خفيف وتساقط على فترات طويلة خمس أو ست أو سبع مرات شيء جامد فوق قرص مسقط النور : بضع حبات من البرد بلا شك ، ثمّ غمر البيت ضوء الشمس ثانية من فوق الى تحت .

وطرأت حالة من الانقباض يرهقنا فيها ضيق منهك . بليد ، صامت ، ويسخطنا في الظروف العادية ويثير رد فعل سليماً لهذا السخط... وهكذا تضايق توماس من مسلك يوهان الصغير وتضايق من المشاعر التي بعثها فيه هذا الاحتفال بأكمله وعلى الأكثر تلك التي أحس أنه غير كفء لها مهما أراد . وقد حاول مرات أن يستجمع نفسه ويجلو نظرته ويقول أن هذا يوم جميل يجب أن يقضيه في نفسية عالية فرحة . لكنه على الرغم من أن ضجيج الآلات الموسيقية واختلاط الأصوات ومنظر الكثيرين كان يرج أعصابه ويثير في نفسه مع ذكرى الماضي وتذكر أبيه تأثراً راهناً ، فقد رجح عنده أثر المضحك والمؤلم الذي علق بكل شيء ، على تلك الموسيقى المؤذية للسمع وهذا المجتمع الرخيص الذي لا يحلو له الكلام إلا عن السباق والولائم... وهذا المزيج من التأثر والنفور هو بالذات مامناه بحالة من اليأس الواهن .

وفي الساعة الثانية عشرة والربع لما أخذ منهاج الجوقة الموسيقية التابعة لمسرح المدينة يشارف النهاية وقع حادث لم يمس المظهر الاحتفالي السائد بحال من الأحوال أو يقطعه ، لكن لصبغته التجارية أجبر رب البيت على التخلف عن ضيوفه دقائق وجيزة . فقد جاء أصغر تلاميذ المكتب سناً يصعد الدرج الأكبر ، في وقت كانت الموسيقى فيه تستريح ، وحابل السادة الكثيرين يختلط بنابلهم ، وكان شخصاً ضئيلاً غير نام يحمل رأسه الخجول غائصاً بين كتفيه إلى أعمق مما ينبغي ويغلو في تطويح ذارعيه الطويلتين النحيلتين بصورة غير طبيعية ليصطنع منظر الكسول الواثق بنفسه ، ويحمل في اليد الأخرى ورقة

مطوية يمد بها يده . وكانت برقية . وكان وهو يصعد الدرج يجيل نظراته الهيابة فيما حوله يفتش عن رئيسه ، فلما اكتشفه فوق هناك ، انساب بين الضيوف الذين كانوا يعترضون طريقه وهو يتمتم باعتذاراته على عجل .

ولم يكن ثمة داعٍ لخجله إذ أن أحداً لم يعره التفاتاً ، بل كان الضيوف ماضين في أحاديثهم من دون أن يشملوه بنظرة ، يفسحون له الطريق بحركة بسيطة ويكادون لايلحظون بالنظرة العابرة أنه أسلم السناتور بودنبروك برقية في انحناءة ، وأن السناتور ابتعد على الأثر عن كستنماكر وجيزيكه وفويجت ليقرأ مافيها . ومع أن معظم البرقيات لم تكن تعدوا التهاني ، فإنه كان لزاماً في ذلك الحين أيضاً أن تسلم كل برقية ترد في أثناء مواعيد العمل في الحال كائنة ما كانت الظروف .

وكانت الطرقة تؤلف عند مصعد الطابق الثاني حنية لتمتد في الإتجاه الطولي للقاعة الى درج الخدم حيث يؤدي الى القاعة مدخل جانبي ، وكانت هناك تجاه الدرج الصاعد الى الطابق الثاني فتحة مسقط الجهاز الذي يرفع به الطعام من المطبخ ، وعند هذه الفتحة مائدة كبيرة بعض الشيء مستندة الى الحائط اعتادت الخدم أن تلمع عليها الأدوات الفضية . وهنا وقف السناتور وفضّ البرقية مديراً للتلميذ الأحدب ظهره .

وبغتة اتسعت عيناه الى حد أن كل من رآه أجفل مذعوراً ، وتنفّس وهو يرتج ارتجاجة تشنجية واحدة مقتضبة شاهقاً شهقة بلغ من عنفها أن جف حلقه وجعل يسعل .

وقد وسعه أن يقول : « خير » لكن صخب الأصوات من خلفه لم يدع أحداً يفهمه . وأعادها فكان نصفها مسموعاً وكان نصفها الآخر همساً .

ولمّا لم يتحرك السناتور ، ولم يلتفت ، ولم يأت بحركة واحدة الى الوراء ذات دلالة ، ظلّ الأحدب واقفاً لحظة يترنح مضطرباً متردداً ينقل قدماً بعد قدم ، ثمّ انحنى انحناءته الغريبة كرّة أخرى وهبط درج الخدم .

ولبث السناتور بودنبروك واقفاً بالمائدة ، ويداه اللتان تمسكان بالبرقية المطوية مرتخيتان أمامه ، يتنفس تنفساً سريعاً مقتضباً مجهداً فاتحاً فمه نصف فتحة ، مطوحاً جسمه الأعلى ، هازاً رأسه بلا انقطاع ذات اليمين وذات الشمال من دون وعي وكأنه أصيب بضربة . كان يكرر بلا معنى : « هذا البرد القليل ... هذا البرد القليل... » ثم بات تنفسه أعمق وأكثر راحة ، وحركة جسمه أبطأ وغشى على عينيه نصف المغمضتين تعبير ينم عن التعب يكاد لم يتم . ثمّ استدار جانباً في إيماءة مثقلة من رأسه .

وفتح الباب المؤدي الى القاعة ودخلها ، وسار متئداً مطأطىء الرأس فوق الأرضية اللامعة في المكان الفسيح ، واتّخذ مجلسه هناك الى الخلف فوق أريكة الركن الداكنة الحمرة عند النافذة . وكان السكون مخيماً في ذلك الركن والجو بليلاً يسمع فيه خرير ماء النافورة في الحديقة وطنين ذبابة تصطدم بزجاج النافذة . ولاينفذ اليه سوى لغط مكتوم آتٍ من الردهة .

فألقى رأسه منهوكاً فوق الحشية وأغمض عينيه وجعل يتمتم بصوت بين الخافت والمرتفع : «خير هكذا ، خير هكذا!» ثمّ تنفس الصعداء مرتاحاً وقد زايله مايضايقه وكرر مرة أخرى : «خير جدا هكذا!» واستراح خمس دقائق ارتخى فيها جسمه وانتشر السلام على وجهه . ثمّ نهض وطوى البرقية ودسها في جيب الصدر من سترته وانتصب قائماً ليعود الى ضيفه .

لكنه عاد فارتمى في نفس اللحظة ثانية على الحشايا وهو يئن من الغثيان... وكانت الموسيقى قد عاودت العزف في ضجيج ممجوج أريد له أن يمثل الركض حددت فيه الطبلة والصنج إيقاعاً لم تتابعه بقية الأدوات الصوتية المتداخلة سرعة أو بطئاً . فكان مزيجاً لجوجاً مثيراً لايحتمل في جرأته الساذجة وخليطاً من القرقرة والنعير والقعقعة يشقه صفير الناي الصغير الجنوني .

الفصل السادس

وصاح السيد ادموند بفيل عازف الأرغن في كنيسة العذراء مريم وهو يخترق الصالون ،
حركة كبيرة : «باخ! سيباستيان باخ!» بينما جيردا تجلس باسمة الى البيان تعتمد رأسـ
في يدها ، وهانو ينصت فوق كرسي ويحيط إحدى ركبتيه بكلتا يديه . . «إنه بالتأكيد كَ
تقولين ... لقد كتب النصر للهارموني على الطباق... لقد أنتج الهارمونية الحديثة بالتأكيـ
ولكن بِمَ ؟ أيجب أن أقول لك بِمَ ؟ بالتطوير المستمر للأسلوب الطباقي ـ وأنت تعرفين هـ
كما أعرفه . فماذا كان إذن المبدأ الباعث على هذا التطور ؟ الهارمونية ؟ كلا ، ليست هـ
بحال من الأحوال . ولكن الطباقية ياسيدتي المحترمة! الطباقية!... إني أسألك ، الى أي شـ
أدت التجارب المطلقة للهارمونية ؟ إني أحذر... فما دام لساني طوع يميني فإني أحذر مـ
التجارب المجردة للهارمونيه!» .

كان السيد بفيل ملحوظ النشاط في مثل هذه الأحاديث ، وكان نشاطه يشق
الطريق ، لأنه يشعر بأنه بين أهله في هذا الصالون ، ففي كل أربعاء بعد الظهر يظهر عـ
العتبة بقامته المديدة وبنيته القوية وكتفيه المرتفعين ، يرتدي سترة بنية يغطي حجرها ظاهـ
ركبتيه ، يفتح بيان بيششتاين في لهفة في انتظار رفيقته ، ويصلح أوتار الكمان على الحامـ
الخشبية المحفورة ، ثم يأخذ لحظة في تقاسيم خفيفة عامرة بالفن مائلاً برأسه من كتف الـ
كتف راضياً .

ويبدو رأسه ، بشعره الغزير المدهش ، وتعدد خصله الصغيرة الكستنائية الثابـ
المحيرة التي وخطها الشيب ، ضخماً ، ثقيلاً في صورة غير مألوفة ، وإن قام طليقاً فوق رقـ
مديدة مزودة بعقدة حنجرة ضخمة تطل من بنيقة منطبقة كما يبرز من وجهه شاربه الكـ

غير المزين في لونه شعر رأسه ، الى أبعد من أنفه الصغير المدكوك... وكان جلده منتفخاً قليلاً كالأكياس من تحت عينيه المستديرتين العسليتين البراقتين اللتين تبديان نظرة حالمة تخترق الأشياء أثناء العزف وتخيلان استقراراً في الجانب الآخر من ظاهرتهما... ولم يكن االوجه شيئاً مذكوراً ، فليس يحمل في الأقل طابع الذكاء الحاد اليقظ . . وكانت جفونه في الغالب نصف مرخاة ، وكثيراً ماكانت ذقنه الحليقة متدلية لاتنم عن إرادة ، ولاتفتر في تدليها شفته السفلى عن العليا ، فكان بهذا يكسب فمه تعبيراً رخواً ، صامتاً ، ينطوي على الغباء والاستسلام كذلك التعبير الذي يبديه النعسان المسغرق في النوم...

هذا الى ان صرامة خلقه ووقاره كانا يتباينان تبايناً غريباً مع هذه الرخاوة في مظهره ، فقد كان ادموند بفيل عازف أرغن سامي القدر ، وكانت سمعة علمه الطباقي تتجاوز جدران مدينة آبائه . فقد أوصيَ في معهدين أو ثلاثة معاهد موسيقية بدراسة كتابه الصغير الذي ألفه عن الألحان الكنسية وطبعه ، دراسة خاصة ، وكانت مؤلفاته في التسلسل ، وموضوعاته الكورالية تعزف حيثما رن أرغن يمجد الله . وكانت هذه المؤلفات وكذلك التقاسيم التي عزفها في كنيسة مريم مستساغة لا غبار عليها ، مفعمة بوقار المقطع الصادر ، ذلك الوقار الثابت المؤثر الأدبي المنطقي . وقد كانت ماهية هذه التآليف تغاير كل الجمال الأرضي . وماكانت تعبّر عنه لم يكن يمس شعوراً انسانياً بحتاً لأي علماني ، بل كان يصدر عنها ويسودها فن ومقدرة ارتفعت الى مرتبة الهدف النهائي والقداسة المطلقة . حقاً إن أدموند بفيل لايقيم وزناً لامتاع الاسلوب ولايتحدث عن جمال التنغيم بحماسة . لكنه مهما يكن من غرابة هذا فإنه لم يكن مع ذلك إنساناً جامداً ولا رفيقاً أنانياً . .«بالسترينا» قالها بلهجة قاطعة مخيفة . لكنه وهو يعزف إثر ذلك على الآلة طائفة من القطع الفنية القديمة ، كان وجهه يعبر عن التأثر والأخذ والهيام المحض كأنما يجد فيما يوديه الضرورة القصوى لكل شيء وكأنما تستشرف نظرته الى آماد قدسية... نظرة الموسيقي التي تبدو غامضة جوفاء لأنها تستقر في ملكوت منطق أعمق وأنقى وألزم وأطهر من حيز معان وأفكار نعبر عنها بالكلام .

كانت يداه كبيرتين رخوتين مجردتين فيما يبدو من العظم يعلوها النمش ، وكان الصوت الذي حيّا به جيردا بودنبروك إذ يقول : «خادمك ياسيدتي المحترمة!» ناعماً أجوف كأنما احتبست في قصبة طعامه لقمة ، وذلك حين أزاحت الستائر ودخلت عليه من حجرة الجلوس .

وبينما كان ينهض قليلاً من كرسيه وينحني باحترام على اليد التي مدتها إليه ضغط بيده اليسرى على مفاتيح البيان فرنت ثابتة جلية ، فتناولت جيردا كمانها الستراديڤاري على الأثر واصلحت الأوتار بسرعة واذن صاغية .

« كونشيرتو من مقام صول صغير لباخ ياسيد بفيل . يخيل الي أن الأمهل كله كان يجري ناقصاً تقريباً... »

ودق عازف الأرغن . لكنه ماأن تكاد الأصوات الأولى تتتابع حتى يفتح الباب المؤدي الى الطرقة في رفق وحذر تام ويتسلل يوهان الصغير فوق السجادة في احتراس وسكون الى مقعد ساند ، فيجلس هناك ويحيط ركبتيه بكلتا يديه ويلزم الصمت مصغياً الى العزف كما يصغي لما يقال .

وسألته جيردا في إحدى فترات الاستراحة : «أتراك تسر يا هانو بشيء من الموسيقى ؟ » ووجهت اليه عينيها المتقاربتين الظليلتين اللتين ألهب العزف فيهما لمعاناً بليلاً فنهض على الأثر ومد يده في انحناءة صامتة الى السيد بفيل الذي مسح على شعرها الكستنائي الرائق مترفقاً حانياً وكان لاصقاً بجبينه وسالفيه ناعماً لطيفاً .

وقال له السيد بفيل في نبرة رثيفة : «استمع يا بني ولاتتحرج!» فتأمل الطفل متهيباً بعض الشيء عقدة حنجرة العازف التي كانت تند عند الكلام فتقفز الى أعلى ثم عاد الى مكانه مخافتاً مسرعاً كأنما أزف وقت متابعة العزف ومواصلة الكلام .

وأدى مقطع من هايدن وبضع صفحات من موتسارت وسوناتا من بيتهوفن ثم حدثت مع ذلك أثناء أن كانت جيردا تحضر ، وكمانها تحت ذراعها ، بضع مجسدات ـ حدثت مفاجأة هي أن السيد بفيل ، ادمون بفيل عازف الأرغن في كنيسة السيدة مريم ، انساب رويداً رويداً بلحنه الطليق المتخلل الى اسلوب بالغ الغرابة التمع خلاله في نظرته التائهة نوع من الهناء المستحيي إذ ارتفع من بين يديه وتعاظم وازدهر واتّسق وشدا موضوع مارش عظيم عظمة الآباء الأقدمين فخم عجيب في فخامته تطور في هذه الظاهرات خافتاً أولاً ومارّاً كالنسيم ثانياً ثمّ انجلى وازداد جلاءً ووضوح معالم في طباقية عامرة بالفن... فيض وغيض وانتقال... وعند الارتخاء عزفت الكمان في الفورتيسيموومر استهلال « مايسترسنجر »(١) .

كانت جيردا بودنبروك من المعجبات المتحمسات للموسيقى الحديثة ، لكنها مع

(١) أوبرا لڤاجنر من نوع الكوميديا الموسيقية ، وضعها ڤاجنر سنة ١٨٦٨ ، وبطلها اسكافي شاعر اسمه هانز ساكس .

السيد بفيل كانت تصطدم بمقاومة حانقة بلغ من شدتها أنها يئست أول الأمر من كسبه الى جانبها .

ففي اليوم الأول الذي وضعت فيه على المنضدة مقتطفات بيانيه من تريستان وايزولده[1] لأول مرة ، ورجته أن يعزفها لها هب بعد خمس وعشرين خفقة زمنية وجعل ينطلق رائحاً بين الخارجة والبيان .

«لاأعزف هذا ياسيدتي ، إني خادك المطيع ، لكني لاأعزف هذا! ليست موسيقى... . صدقيني... لقد اغتررت دائماً بأن لي في الموسيقى بعض الدراية! وهذه هي الفوضى! هذه شنشنة شعبية ، هذا تجديف ، هذا جنون . هذا دخان معطر وبخور يخطف فيه برق! هذه نهاية كل الآداب في الفن! لاأعزف هذا!» وارتمى ثانية أثناء هذا الكلام على المقعد ، وجعل بين ارتفاع عقله حنجرته وانخفاضها يؤدي ، وهو يبلع ريقه ويسعل سعالاً أجوف ، خمساً وعشرين خفقة زمنية أخرى ليقفل بعدها البيان ويصيح : «خسئاً! كلا! يا إلهي! لقد أسرفت! اغفري لي صراحتي ياسيدتي المحترمة... إنك تأجرينني وتكافئينني عل خدماتي سنين وأياماً... وأنا رجل حالتي في الحياة متواضعة ، لكني أستقيل وأتخلى عن هذا إذا اضطررتني الى هذه المنكرات...! والطفل! إنه جالس فوق كرسيه! لقد دخل يتسلل ويخافت في مشيته ليسمع الموسيقى! فهل تريدين إذن أن تسممي ذهنه تماماً ؟...»

لكنه على قدر ماكانت هيئته مخيفة بهذه الصورة ، سحبته اليها في تؤدة ورفق وترويض وإقناع...

قالت : «بفيل ، كن منصفاً وعالج الموضوع في هدوء . إن طريقته غير المألوفة في استعمال الهارمونيات تربكك... فأنت تجد بيتهوفن بالنسبة الى هذا نقياً ، جلياً ، طبيعياً . لكن فكّر كيف كان بيتهوفن يسخط معاصريه الذين تربوا على الاسلوب القديم... وباخ نفسه! ياإلهي! لقد جردوا موسيقاه من حسن الواقع والوضوح! إنك تتكلم عن الناموس الأدبي... لكن ما الذي تفهمه من هذا الناموس في الفن ؟ إذا لم أخطىء فهو نقيض مذهب اللذة بحذافيره . حسناً ، إنك تجده هنا كما تجده في باخ . تجده أعظم وأوعى وأغور مما هو في باخ . صدقني يابفيل ، إن هذه الموسيقى في صميم كنهها أقل غرابة مما تفترض!»

فدمدم بفيل قائلاً : «شعوذة وسفسطة ـ لاتؤاخذيني!» لكنها كانت على حق : فهذه

---

(١) أوبرا لفاجنر .

الموسيقى كانت أقل غرابة عنده في الحق مما كان يعتقد بادىء ذي بدء . حقاً إنه لم يرض قط عن تريستان كل الرضا ، وإن كان قد استجاب أخيراً لرجاء جيردا ، فلحن «موت الحب» للكمان والبيانو فورت ببراعة كبيرة . وقد كانت قطع بعينها من «مايسترسنجر» ماوجد عنده كلمة تقدير... ثم جعل حب هذا الفن يتحرك في نفسه ويقوى دون مدافع فلم يسلم به بل فزع منه وأنكره وتذمر منه . لكن رفيقته في العزف لم تعد تحتاج الى ملاحقته حتى تتعقد قبضتاه إذا ما أقام المعلمون القدماء حقهم ، وينتقل الى حياة الموضوعات المتكررة ونسيجها وفي نظره ذلك التعبير عن هناء مشوب بالخجل والضيق تقريباً . لكنه بعد العزف كان يمكن أن يزول خلاف على صلات هذا الاسلوب الغني بالتأليف الصارم . وذات يوم صرح السيد بفيل بأنه يرى نفسه ملزماً ، وإن لم يمسسه الموضوع شخصياً ، بأن يزيد على كتابه عن «الاسلوب الكنسي» «ملحقاً عن تطبيق المفاتيح القديمة في موسيقى ريشارد ڤاجنر الكنسية والشعبية» .

وكان هانو جالساً ساكناً يشبك يديه الصغيرتين حول ركبته كما اعتاد أن يفعل ، ويلوك بلسانه ضرساً من أضراسه وقد زم فمه قليلاً . كان يرعى أمه والسيد بفيل بعينين واسعتين ثابتتين ويصغي الى عزفهما وينصت الى حديثهما . وهكذا حدث أنه وهو يخطو في طريق حياته الأولى ، تجلت له الموسيقى شيئاً جدياً بصورة غير عادية ، شيئاً هاماً عميق المعنى . إذ قيل شيء كاد ألا يفهم كلمة منه ، لكنه يفهم في الغالب ما يرن ويتجاوز في فهمه الحدود . فعندما يعود ـ ودائماً مايعود ـ ويديم الجلوس في مكانه ساعات لايتحرك ولايضجر ، يكون مايدفعه الى ذلك الايمان والحب والإجلال .

كان في السابعة ولما يكد عندما جعل يحاول استعادة ارتباطات صوتية بعينها أثرت في نفسه ويعزفها على البيان معتمداً على نفسه . فكانت أمه تنظر اليه باسمة وتصحح دقاته وهو ينشد ربطها في همة وصمت ، وتوجه الى حيث لايجوز أن تنقص نغمة بالذات ليترتب على هذا الإئتلاف إئتلاف آخر ، فكان سمعه يؤكد له ما كانت تقوله . وبعد أن جعلته جيردا بودنبروك يدرك القليل قررت أن يتلقى دروساً في البيان .

فقالت للسيد بفيل : «أظنه لايميل الى العزف المنفرد . وإني في الحقيقة لمغتبطة بذلك لأن لهذا العزف جوانبه المشوبة . ولست أتكلم عن اعتماد العازف المنفرد على المصاحبة وإن أمكن أحياناً أن تكون هذه التبعية شديدة الحساسية . فلو لم تكن أنت الذي يصاحبني... على أنه عندئذ ينشأ خطر من إحراز المرء مهارة في العزف كاملة بدرجة ما...

وأنا خبيرة بذلك ، وأعترف لك صراحة إن من رأيي أن الموسيقى بالنسبة للعازف المنفرد تبدأ في الحقيقة أولاً بدرجة رفيعة جداً من المقدرة . فالتركز المضني على الصوت الأعلى وتأديته وتكوين نغمته ـ الأمر الذي يحس المرء معه أن تعدد النغم شيء غامض وعام جداً ـ يمكن بكل سهولة أن يسفر عند متوسط الموهبة عن إفساد المعنى الهارموني والذاكرة الهارمونية وهو مايصعب إصلاحه فيما بعد . إني أحب كماني وقد حذقتها تقريباً لكن البيان عندي أسمى مكانة.. وأقول أن الخبرة بالبيان كآلة لأداء أكثر الصور النغمية تعداداً وأغناها ، آلة لاتفوقها آلة في الإخراج الموسيقي ، تعني بالنسبة لي علاقة بالموسيقى أوثق وأجلى وأثمل... اسمع يابفيل ، إني أود أن استأثر بك له فتفضل بقبول ذلك! إني أعلم أنه لايزال هنا في المدينة اثنان أو ثلاثة ـ أعتقد أنهن نساء ـ يعطين دروساً . لكن هؤلاء معلمات بيان... وأنت تفهمني... ولاقيمة كبيرة في أن يدرب المرء على الآلة ، بل القيمة الكبرى هي في فهم القليل من الموسيقى . أليس كذلك ؟... إني أعتمد عليك . فأنت أكثر جداً في النظر الى المسألة ، وسترى أنك ستنجح معه نجاحاً كبيراً . إن له يدي بودنبروك... وآل بودنبروك يستطيعون تناول التسعات والعشرات . ـ لكنهم لم يعلقوا عليها أهمية بعد » . بهذا ختمت حديثها ضاحكة ، وأعلن السيد بفيل استعداده لتولي التدريس .

من ذلك الحين جعل يأتي في يوم الاثنين أيضاً ليشتغل بيوهان الصغير بينما تكون جيردا في حجرة الجلوس . ولم يزاول تدريسه بالطريقة المألوفة لأنه كان يحس أنه مدين لهمة الطفل المتسمة بالصمت والحمية بأكثر من مجرد تعليمه العزف قليلاً على البيان ، فلم يكد يتجاوز معه الأوليات والمبادىء حتى شرع بالفعل في تعليمه من الوجهة النظرية بصورة يسهل معها الفهم وتمكين تلميذه من إدراك مبادىء نظرية التوافق . وقد أبدى هانو فهماً أكد له ماكان يعرفه من قبل .

وكان السيد بفيل يدخل في حسابه على قدر الإمكان تهافت الطفل وشوقه الى التحصيل ، فكان حريصاً في عناية مشربة بالعطف على التخفيف من وقع الأنقال التي كانت المادة ترهق بها أقدام المخيلة والموهبة الجادة ، فلم يشتط في مطالبة الطفل بإبداء مهارة كبيرة في تحريك الأصابع أثناء التمرن على سلالم النغم ، أو إن هذه المهارة في تحريك الأصابع لم تكن مايبغيه من هذا التمرين . فالذي هدف اليه وأدركه بسرعة كان على الأكثر المامة واضحة شاملة نافذة بكل مفاتيح الصوت ، وخبرة باطنة ملمة بصلاتها وارتباطاتها ، أسفرت بعد وقت غير طويل عن تلك النظرة السريعة في الكثير من إمكانيات التأليف وذلك

الشعور اللقن بالتحكم بالعزف على البيان وهو مايغري بالتخيل والإرتجال... وقد استجاب برقة شعوره المؤثرة للاحتياجات التي تطلّبها ذهن هذا التلميذ الصغير المدلل فيما سمع عنه . وكانت هذه الاحتياجات تهدف الى أسلوب جاد . يعزف الأناشيد ، ولم يترك إئتلافاً ينبع من غيره دون إشارة الى اتفاق هذه النتيجة والأصول .

كانت جيردا تتابع في الناحية الأخرى من الستائر مجرى التدريس وهي تطرز أو تقرأ .

فقالت للسيد بفيل في إحدى المناسبات : «لقد تجاوزت ما كنت أتوقع . لكنك تشتط معه وأرى تقدمه أسرع مما نبغي ؟ إن طريقتك ، فيما يبدو لي ، رفيعة ، خلاّقة... فإنه أحياناً مايحاول الإرتجال حقاً . لكنه إذا لم يكن جديراً بمنهجك وليست لديه الموهبة الكافية ، فلن يتعلم شيئاً أبداً... »

فقال السيد بفيل يومىء برأسه : «إنه جدير به . إنني أتأمل عينيه أحياناً ، فأجد فيهما الكثير ، لكن فمه يظل مطبقاً . وإذا ما انخرط في سلك الحياة التي ربما أن تزيد فمه إغلاقاً ـ فلا بد أن تكون لديه وسيلة أخرى للتعبير» .

ونظرت اليه ، الى هذا الموسيقي الربعة الذي يحمل عارية من فروة ثعلب وينتفخ ما تحت عينيه ، ويبدو منه شارب منفش وحنجرة ضخمة ـ ثمّ مدت اليه يدها وقالت : «شكراً يابفيل . إنك تريد خيراً . ونحن لانستطيع بعد أن نعرف مبلغ ماسوف تصنع منه» .

وكان مايحفظه هانو من جميل هذا المعلم وتفانيه في قيادته عديم المثال . فهذا الذي كان يطيل التفكير في جدول الضرب ، هذا البليد الذهن ، العديم الأمل في الفهم على الرغم من كل الحصص الإضافية التي يتلقاها في المدرسة ، كان يدرك على البيان كل مايقوله له السيد بفيل . كان يفهمه ويستوعبه كما يمكن المرء أن يستوعب ماصممه من قديم بيد أن أدموند بفيل كان يبدو له في سترته البنية الفضفاضة ملكاً كبيراً يحتضنه عصر كل يوم اثنين لينقله من كل مايلقى من يومه من شقاء الى مملكة الصوت ، مملكة الجد الرئيف الحلو الحافل بالعزاء...

وكان الدرس يؤخذ أحياناً في بيت السيد بفيل . وهو بيت فسيح قديم هرمي السطح ذو مماش وأركان كثيرة منعشة يسكنه عازف الأرغن وحده مع مدبرة عجوز وكان يجوز لبودنبروك الصغير أحياناً أن يحضر في يوم الأحد أيضاً مايقام في كنيسة مريم من صلاة على عزف الأرغن ، وكان هذا عنده شيئاً يختلف عن الجلوس تحت في صحن الكنيسة مع الآخرين . هناك عالياً فوق المصلين وفوق راعي الكنيسة برنجز هايم على منبره ، كان

كلاهما يجلس وسط هدير الكتل الصوتية الهائلة التي أطلقها كلاهما وسيطر عليها ــ ذلك أنه كان لهانو أن يساعد معلمه أن يقوم بإدارة المسجلات الموسيقية فكان يفعل ذلك في حمية هائنة وفخر . لكنه حين ينتهي العزف الختامي بعد غناء المجموعة وحين يرفع السيد بفيل أصابعه على ملامس البيان ويدع الصوت الأساسي الواهن وحده يتلاشى خافتاً رهيباً ـ حين يأخذ صوت القسيس برنجز هايم المنغم في الارتفاع بعد استراحة الفن تحت غناء الأرغى فترة مفعمة بالغبطة لايبعد أن يشرع السيد بفيل بكل بساطة في السخرية من الوعظ وفي الضحك من لهجة القس الفرنكية المصطنعة ومن أحرف علته المديدة المدغمة أو المبتورة الحادة ومن تنهداته وتحول وجهه الفجائي بين التجهم والتجلي . وعندئذ يضحك هانو أيضاً في خفوت وانشراح ، ذلك أن كليهما يرى هناك فوق ، من دون أن ينظر الى الآخر أو يعرب له عن رأيه إن هذا الوعظ يقرب أن يكون ثرثرة بادية الغباء ، وأن الصلاة الحق أدنى إلى أن تكون ما يقيمه القسيس والمصلون ويتحينونه من إضافة لرفع تأثير العبادة : ألا وهي الموسيقى .

أجل ، إن الفهم القليل الذي كان يعرف أنه موجود في الصحن بين هؤلاء القوم من أعضاء مجلس الشيوخ والقناصل والمواطنين وأسرهم لِما كان يؤديه على الدوام قد كان شاغله الشاغل ، ومن ثم كان يستبقي التلميذ الذي كان يسعه على الأقل أن يدرك في هدوء أن ذلك الذي عزفه من هنيهة قد كان شيئاً عسيراً بصورة غير عادية ، فقد خاض في مشروعات فنية من أغرب مايكون ، وأدى «محاكاة رجعية» وألف لحناً يظل واحداً سواء قرئ من أمام أو من خلاف ، ووضع تركيباً يعزف بطريقة تشبه مشية الكابوريا ، فلمّا انتهى وضع يديه في حجره وعلت وجهه سيماء الكدر وقال وهو يهزّ رأسه يائساً : «إن أحداً لايلاحظ هذا» . ثم همس أثناء وعظ القس قائلا : «لقد كان هذا محاكاة لمشية السرطان يايوهان . وأنت لاتعرف بعد ما هو... إنه محاكاة لموضوع يقرأ من خلاف الى أمام ، من النغمة الأخيرة الى الأولى... شيء صعب تقريباً . وستخبر في المستقبل معنى المحاكاة بالمعنى الكلاسيكي... ولن أتعبك قط «بمشية السرطان» ولن أفرضها عليك فلا حاجة بأحد الى حذقها ، لكن لاتصدق أولئك الذين يسمون مثل هذا بأنه عزف لاقيمة له من الناحية الموسيقية . فأنت تجد «مشية السرطان» عند كبار الملحنين في كل العصور . فليس سوى الفاترين والأوساط من يستهجنون عن تعالٍ مثل هذه التمرينات . إن التواضع محمود . لاحظ ذلك يايوهان» .

في الخامس عشر من ابريل ١٨٦٩ عيد ميلاد هانو الثامن عزف هانو لاسرته مجتمعة وفيها أمه تقسيماً صغيراً من تأليفه هو موضوع بسيط وقع عليه فألفاه غريباً فتوسع فيه قليلاً . وطبيعي أن يكون السيد بفيل الذي فاتحه هانو فيه قد وجد فيه ماينتقده .

«ماهذا الختام المسرحي يايوهان! إنه لايلائم الباقي! لقد كان كل شيء في البداية على مايرام ، ولكن كيف هنا بغتة من «سي» كبير الائتلاف الرابع والسادس في الدرجة الرابعة مع ثالث منخفض ، هذا ماأحب أن أعرفه ؟ إن هذه مخارق . ثم انك تهزه أيضاً . لابد أنك تنسمت هذا في موضع ما . . . فمن أين أتى ؟ إني لأعرف . لقد كنت تنصت أكثر مما ينبغي حين كان علي أن أعزف أمام السيدة والدتك أشياء بعينها... غيّر الختام يابني تصبح المعزوفة شيئاً صغيراً غاية في النقاء » .

لكنه لهذا الائتلاف الأصغر ولهذا الختام ، لكليهما بالذات يقيم هانو الوزن الأكبر . وقد نعمت الأم بهما الى حد أنهما بقيا على حالهما . فقد تناولت الكمان وعزفت معه الصوت الأعلى ثم نوعته الى الختام في انسيابات من الثاني والثلاثينات بينما كان هانو يعيد المعزوفة بكل بساطة وقد كان لهذا وقع أي وقع ، وقبّل هانو أمه هانئاً كل الهناءة . وعلى هذا النحو عزفا هذه المعزوفة للأسرة في الخامس عشر من ابريل .

لقد تناول طعام الغداء عند السناتور وزوجته في الساعة الرابعة كل من القنصلة ومدام بيرمانيدر وكريستيان وكلوتيده والقنصل كروجر وزوجته والمدير ڤاينشنك وزوجته وكذلك سيدات بودنبروك القاطنات في الشارع العريض والآنسة ڤيشبروت . وذلك بمناسبة الاحتفال بعيد ميلاد هانو . فهم جلوس في الصالون ينظرون منصتين الى الطفل الجالس على البيان في زي البحارة ، والى جيردا ، تلك الظاهرة الغريبة الأنيقة التي انشدت أولاً نغم «الصول» تسبيحة بديعة ثمّ أطلقت بمهارة لاتخطىء فيضاً من الوحدات المتساقطة بالزبد واللآلىء . وكان السلك الفضي المثبت على مقبض القوس يبرق في الضوء المرسل من لهب الغاز .

كان هانو ممتقع اللون من الانفعال فلم يكد يتناول شيئاً عن المائدة ، لكن تفانيه في عمله الذي كان سيختتم ثانية للأسف بعد دقيقتين كان من العظم في نفسه بحيث نسي في ثنائيه التام كل شيء حوله . وهذا التآلف النغمي الصغير كان في طبيعته أكثر اصطباغاً بالانسجام والتوافق منه بالإيقاع . والتعارض القائم بين الوسائط الموسيقية البدائية الأساسية الناشئة والاسلوب الهام الأريب الحار الذي يؤكد هذه الوسائل ويقررها مما يبهج بصورة

غريبة بالغة الغرابة . فقد كان هانو يؤكد بحركة من رأسه تنكب وتتراجع كل نغمة انتقالية توكيداً بيناً ويحاول وهو جالس على الكرسي في أقصى المقدمة أن يكسب كل ائتلاف جديد قيمة مؤثرة بالاستمرار والإبطاء . وفي الواقع أن هانو الصغير كان كلما هدف الى تأثير ما ـ ولو توقف هذا التأثير عليه وحده ـ كان هذا التأثير في طبيعته أكثر صدوراً عن الحساسية منه عن العاطفة . وقد كانت أي مسة فنية بسيطة منسجمة تصل بالتوكيد الشديد المتمهل الى معنى دقيق مستتر . وكل إئتلاف أو انسجام جديد أو مجهود كان يكتسب بالرنين الواهن المباغت قدرة مفاجئة مثيرة على التأثير ، بينما هانو في ذلك يرفع حاجبيه ويأتي من جسمه الأعلى بحركة معلقة مهتزة... ثمّ يجيء الختام ، ختام هانو المحبوب الذي يتوج المجموعة برفعة بدائية فيرعش إئتلاف «دو» من المقام الصغير البيان فيسمع خافتاً صافياً صفاء الأجراس تشعشعه انسيابات الكمان وتفيض من حوله.. ثم يرتفع ويتعاظم رويداً رويداً ويضيف اليه هانو «سي» المتنافر الحاد قوياً وهو المؤدي الى نغمة القرار . وبينما الكمان تهدر من حول هذا «سي» الحاد متموجة رنانة يزيد هو التنافر بكل قواه الى الفورتيسيمو آبياً حله ، محتفظاً لنفسه وللسامعين بهذا الحل ، فماذا عسى أن يكون هذا الحل ؟ هذا الانغماس البهيج المخلص في «سي» من المقام الكبير ؟ هناء عديم النظير ورضى حلو شديد الحلاوة . سلام! غبطة! ارتفاع الى ملكوت السماوات!... ليس بعد... ليس بعد... لحظة أخرى من الإبطاء والإرخاء والتوتر ـ لحظة كان لابدّ أن يعزّ احتمالها... كي يكون الارتياح من ثم أمتع... فلا يزال ثمّ مذاق أخير ، آخر ذوقة لهذا الشوق الطاغي الدافع ، لهذا الاشتهاء من القلب ، لأشد توتر تشنجي للإرادة التي كانت ماتزال مع ذلك تأبى الاستجابة والانقاذ لأنها تعلم أن الهناء لحظة فحسب... . واعتدل الجزء الأعلى من جسم هانو رويداً رويداً ، واتسعت عيناه الى أقصى حد ، وارتجفت شفتاه المطبقتان ، واستنشق الهواء من أنفه مهتزاً متدافعاً... ثمّ جاء الهناء لايدفع ، جاء طاغياً لايقوى على دفعه فتراخت عضلاته ، وارتمى رأسه على كتفه منهوكاً مغلوباً ، وغمض عينيه ، وبدا على فمه ابتسام ينطوي على الأسى ، ويكاد ينضح بالألم ، يعبر عن هناء هناك ينبو عن الوصف ، بينما الرجفة Tremolo التي جعلت الانسيابات المنخفضة تزاملها ، تنزلق مكبوحة الى «سي» من مقام كبير تهمس اليها انسيابات الكمان وتحيط بها ، وترن حولها وتتماوج ، ثم تتصاعد الى الفورتيسيمو بسرعة كاملة ، وتنقطع بعدئذ في فورة مقتضبة عديمة الصدى .

لقد كان من المحال أن يمتد التأثير الذي كان لهذه المعزوفة على هانو نفسه الى

السامعين . فمدام بيرمانيدر على سبيل المثال لم تدرك هذا المجهود كله أقل إدراك لكنها في الحق قد رأت ابتسام الطفل ، وحركة جسمه الأعلى وارتماء رأسه الصغير الحبيب على كتفه في رقة... وقد حرك هذا المنظر طيبتها وأثر فيها من الأعماق فصاحت : « يالعزف الصغير! يالعزف الصغير! » وبادرت اليه وهي تكاد تبكي وضمته بين ذراعيها...

وقالت : « جيردا ، توم! سيكون نداً لموتسار ، لما ير بيير ، لـ... » ولأنه كان ينقصها اسم ثالث له مثل أهمية الاثنين ، فلم يخطر ببالها في الحال ، اجتزأت بأن تغمر ابن أخيها بالقبلات وكان مايزال جالساً منهوك القوى زائغ النظرات ، يضع يديه في حجره .

وقال السناتور بصوت خافت : « كفى ياتوني كفي! أرجوك! ماهذا الذي تضعينه في رأسه... »

الفصل السابع

لم يكن توماس بودنبروك راضياً في نفسه عن خلق يوهان الصغير وعن تطوره . فلقد جاء ذات يوم الى بلدة بجيرداأرنولدسن متحدياً العوام الذين سرعان ماذهلوا وهزّوا رؤوسهم ، ذلك أنه كان يشعر بأنه قوي حر يستطيع أن يبدي ذوقاً رفيعاً بوصفه الذوق المألوف من دون مساس بما يحذقه الحضريون منه . لكن ، أقدر للطفل أن يبيت ملك هذه الأم قلباً وقالباً ، وهو الوريث الذي ظل يتطلع اليه طويلاً عبثاً ، والذي يحمل في ظاهره وباطنه بعض إمارات أسرة أبيه ؟ أقدر له ، وقد أمل فيه أن يواصل في يوم من الأيام عمله في الحياة بيد أكثر توفيقاً منه وأقل تهيباً ، وأن يقف حيال بيئته بأسرها وهو المفروض عليه أن يعيش ويعمل بين ظهرانيها ، بل حيال أبيه نفسه ، هذا الموقف الغريب المستغرب الذي تمليه دخيلته وطبيعته ؟

لقد كان عزف جيردا على الكمان في عين توماس والى أمد طويل ، متفقاً وعينيها الغريبتين اللتين أحبهما ، مكملاً لشعرها الغزير الأحمر الداكن ولظاهرتها غير العادية بأكملها ، فهو إضافة فاتنة الى كيانها الفريد . أما الآن فقد اضطر الى أن يرى كيف تملك الشغف بالموسيقى ــ وهو شغف لايعرفه ـ ابنه أيضاً بهذا البكور ومن البداية والأساس . لقد بات هذا التعلق في عينيه سلطة معادية تقف بينه وبين الطفل الذي رمت آماله الى أن تجعل منه بودنبروك أصيلاً ورجلاً قوياً عملياً ذا دوافع قوية نحو الخارج ابتغاء السلطان والفتح . وقد بدا له من النفسية المتقززة الملمة به كأنما تنذر هذه السلطة المعادية أن تجعل منه شخصاً غريباً في بيته .

لقد كان عاجزاً عن أن يقرب الموسيقى بالصورة التي تؤديها بها جيردا وصديقها

المسمى بفيل . وقد كان من شأن جيردا أن تستأثر بالفن ولاتطيق تدخلاً فيه ، أن تصعب أيضاً هذا التقرب عليه بصورة قاسية حقاً .

إنه لم يكن يظن قط أن كيان الموسيقى غريب كل هذه الغرابة عن أسرته كما يبدو له الآن . فقد كان جده يحب أن ينفخ قليلاً في الناي ، وهو نفسه قد كان يرتاح دائماً الى سماع ألحان جميلة تبدي أما ظرفاً خفيفاً وإما أسىً وتأملاً أو حماسة مبهجة . فإذا ماأعرب عن تذوقه لأي من هذه التأليفات فليثق بأن جيردا تهزّ كتفيها وتقول وهي تبتسم ابتسامة الرثاء : «كيف يمكن هذا ياصديقي! شيء كهذا خلو كل الخلو من القيمة الموسيقية...»

لقد كان يبغض هذه «القيمة الموسيقية» ، هذه الكلمة التي لايرتبط بها عنده معنى آخر غير معنى الكبرياء الباردة . وقد دفعته الى أن يحتج عليها في حضرة هانو . وحدث غير مرة أن اغتاظ وصاح في مثل هذه المناسبات : «آه ياعزيزتي ، إن اللعب بهذه «القيمة الموسيقية» يبدو لي شيئاً مجرداً من الذوق ينطوي تقريباً على العجب والخيلاء!»

فكانت ترد عليه : «توماس ، لآخر مرة ، إنك لن تفهم أبداً شيئاً من الموسيقى بوصفها فناً . وبالغاً مابلغ ذكاؤك فلن ترى قط أنها شيء أكثر من فكاهة قصيرة تبدر أثناء تناول «الحلو» بعد الأكل أو خلال عزف لتشنيف الأسماع . إنه في الموسيقى ينصح الاحساس بالتافه الرخيص وهو ماينقصك في غيرها... وهذا الاحساس هو معيار الفهم في الفن . وتستطيع أن تتبين مبلغ جهلك بالموسيقى من أن ذوقك الموسيقي لايتفق في الحقيقة وسائر حاجاتك وآرائك . فما الذي يبعث على سرورك في الموسيقى ؟ روح تفاؤل تافه تطرحه في ركن من الأركان ساخطاً ضجراً لو أنه يحتويه كتاب . استجابة سريعة لكل رغبة لاتكاد تبدي... إرضاء عاجل ودود لإرادة لاتكاد تستحث إلا قليلاً... فهل تجري أمور الدنيا كما تجري في لحن جميل... إن هذه لمثالية حمقاء...»

لقد فهمها ، فهم ماقالت ، لكنه لم يستطع أن يجاريها في الشعور ، وأن يفهم أن الألحان التي تبهجه وتقع من نفسه وقعاً حسناً صفر عديمة القيمة ، وأن القطع الموسيقية التي ترن في أذنه قاسية مضطربة هي التي تعود بأسمى قيمة . لقد كان يقف أمام معبد تمنعه جيردا عن عتبته بقسوة...ويرى حزيناً كيف تغوص مع الطفل فيه .

لم يكن يبدي شيئاً من الهم الذي كان يرعى به أبعاد الطفل عنه ، إبعاداً كان يظهر أنه كان يزداد على الأيام ، بينه وبين ابنه الصغير . ولم يكن يستسيغ أن يظهر بأنه يخطب ود الطفل . وهو لايملك أثناء النهار سوى القليل من الفراغ ليقضيه مع الصغير . لكنه أثناء

وجبات الطعام كان يترفق به ويتودد اليه مع شيء من الشدة ينبغي به تشجيعه ، فكان يقول وهو يربت على مؤخرة رأسه مرات ويجلس بجانبه على المائدة تجاه زوجته : «ايه يارفيقي...كيف حالك! ماذا أديت من عمل وماذا تعلمت... ؟ هل عزفت على البيان ؟ إنه مفيد حقاً ، لكن لاتسرف في العزف عليه وإلا رغبت عن غيره وانقطعت بك السبل» . ولم تكن عضلة في وجهه تنم عندئذ عن القلق الذي كان يساوره في كيفية تلقي هانو لتحيته ورده عليها . لم يكن ينم شيءفي وجهه عن الانقباض الأليم الذي كان يحسه حين يجتزىء الطفل بأن يرسل اليه من عينيه العسليتين الصافيتين الظليلتين نظرة هيابة لاترتفع حتى الى وجهه ثمّ ينحني صامتاً فوق الطبقة .

لكان خليقاً أن يهتم اهتماماً بالغاً بهذا الارتباك في الطفل . فقد كان خليقاً به أثناء وجودهما معاً في الفترات على سبيل المثال أو خلال تغيير الأواني أن يجعل الطفل شغله بعض الشيء فيمتحنه قليلاً ويثير فهمه العملي للحقائق الواقعة... كعدد سكان المدينة وأي الشوارع تؤدي من نهر تراڤه الى المدينة العليا ؟ وماهي أسماء المخازن التابعة للمتجر ، ليجيب عليها بنشاط جواباً سديداً!... لكن هانو كان يظل صامتاً . لا عن عناد نحو أبيه ولا ليؤلمه ، ولكن لأن السكان والشوارع والمخازن نفسها وهي التي لم يكن يعنى بها أقل عناية في ظروفه العادية ، أثارت فيه ، وقد ارتفعت الى موضوع يمتحن فيه ، كراهية مويئسه . فقد كان يحب لو أنه تولاه المرح أو تحدث مع أبيه قبل ذلك ، لكن أن يتخذ الحديث صبغة الامتحان البسيط ولو عن قرب فهذا مما تهبط له نفسيته الى الصفر ، وتنهار مقاومته كل الإنهيار . فتعتم عيناه ، ويتّخذ فمه تعبيراً يائساً ولايسوده سوى الأسف الشديد الأليم لعدم تحرج أبيه وإتلافه بذلك وجبة الطعام لنفسه وللجميع ، وهو الذي كان يجب أن يكون عليماً بأن مثل هذه المحاولات لاتؤدي الى خير . كان يغض بصره فوق طبقه ، وتغرورق عيناه بالدموع . وتدفعه ايدا وتهمس اليه... بأسماء الشوارع والمخازن ولكن وا أسفاه فلم يكن يفيد هذا ، لم يفد بتاتاً! وقد أساءت فهمه فلم يكن يجهل الأسماء ، بل كان يعرف بعضها على الأقل معرفة جيدة . وكان يسيراً عليه أن يحقق رغبات أبيه الى حد ما على الأقل لو أن هذا كان ممكناً ولم يحل من هنيهة شيء محزن لاسبيل الى التغلب عليه... كلمة صارمة من جانب أبيه ، دقة بالشوكة على حافظة السكاكين كانت تفزعه . وقد ألقى نظرة على أمه وايدا ، وحاول الكلام ، لكنه سرعان ما اختنقت المقاطع الأولى في حلقه وهو ينتحب ، فلم يستطع الكلام . وصاح به السناتور غاضباً : « كفى! صه!

لاأريد أن أسمع بعد ذلك شيئاً! لاحاجة بك الى أن تقول لي شيئاً! فلك أن تظل طوال حياتك أبكم بليداً! »

ومضى في تناول وجبته الى أن انتهى منها صامتاً مغموماً .

بيد أن هذا الضعف الحالم ، هذا البكاء ، هذا النقص التام في الإنتعاش ، وفتور الهمة قد كان النقطة التي كان السناتور ينعاها كلما أنحى باللائمة على انهماك هانو في الموسيقى .

وقد كانت صحة هانو متوعكة دائماً ، وكانت أسنانه على الأخص الأصل فيما يعتريه من الاضطرابات وشكاوي أليمة . وقد كاد نبات أسنان اللبن عنده بما تبعه من حمى وتقلصات يكلفه حياته . ثم أن لثته كانت على الدوام تميل الى الالتهاب وتتولد فيها أورام اعتادت الآنسة يونجمان أن تفقأها عندما تنضج . والآن وهو يبدل أسنانه كانت أوجاعه أشد وطأة ، وكانت تنتابه آلام تفوق احتماله فيمضي ليالي كاملة مؤرقاً يئن أنيناً خافتاً ، ويبكي بكاءً مكتوماً ، ويعاني حمى منهكة ليس لها من سبب سوى الألم نفسه . وكانت أسنانه الجميلة في ظاهرها هذا الجمال ، البيضاء كأسنان أمه لكنها رخوة حساسة إلى درجة غير عادية تنمو في غير الاتجاه الصحيح ويزحم بعضها بعضاً . ولكي تعالج كل هذه المتاعب كان على يوهان الصغير أن يرى انساناً مخيفاً يدخل في حياته الغريرة وهو السيد برشت طبيب الأسنان المقيم في شارع الطاحونة .

كان مجرد ذكر اسم هذا الرجل يذكر بصورة منكرة بتلك الأصوات التي تخرج من الفك حين تجتث بالجذب واللي والرفع جذور سن ، ويهلع له قلب هانو . ينكمش من الخوف وهو قابع قبالة ايدا يونجمان الوفية في حجرة الانتظار عند السيد برشت على الكرسي . بينما يستنشق الهواء الحاد المنتشر في هذه الغرف ويقلب في صحف مصورة حتى ظهور طبيب الأسنان بباب غرفة العمليات يقول بصوت مهذب مفزع معاً : « تفضل! » .

وكان لحجرة الإنتظار هذه جاذبية وفتنة غريبة . وكان صاحب هذه الجاذبية ومصدر هذه الفتنة ببغاء فخماً متعدد الألوان ذا عينين صغيرتين يشع منهما الغضب ، يجثم في ركن من قفص نحاسي ويطلق عليه اسم جوزيفوس لأسباب لايعلمها أحد . وقد ألف أن ينطق بصوت العجوز الحانقة : «اجلس... لحظة...» ومع أنه كان لهذا القول في هذه الظروف القائمة وقع السخر البغيض فقد كان هانو بودنبروك يتعلق بالببغاء تعلقاً يمتزج فيه الحب بالفزع . ببغاء طائر كبير متعدد الألوان يسمى جوزيفوس ويستطيع الكلام! أليس في نظره كالهارب

من غابة مسحورة في أقصوصة من أقاصيص «جريم»[1] التي كانت ايدا يونجمان تقصها عليه ؟... . كذلك كلمة «تفضل» التي كان السيد برشت يفتح بها الباب كان جوزيفوس يرددها أشد ماتكون توكيداً وأعظم تأثيراً . وهكذا كان يحدث أن يدخل هانو حجرة العمليات وهو يضحك ضحكاً غريباً ويجلس قرب النافذة فوق الكرسي الكبير المركب بصورة غير مريحة والذي تقوم بجانبه الآله التي تدار بالرجل .

فأمّا مايتعلق بشخص السيد برشت فقد كان يشبه جوزيفوس كل الشبه ، إذ كان إنفه مقوساً قاسياً كمنقار الببغاء ، متدلياً فوق شاربه الذي اختلط فيه السواد بالبياض ، لكن الرديء فيه والمرعب حقاً هو أنه عصبي وأنه لم يكن كفؤاً للآلام التي كانت وظيفته تفرض عليه أن يلحقها بالغير . قال لإيدا يونجمان وقد امتقع لونه : «لابد ياآنسة من الإقدام على الخلع» . ولمّا رأى هانو السيد برشت قادماً اليه يخفي الكماشة في كمه ، وكان يتصبب عرقاً بارداً منهكاً ، متّسع العينين ، عاجزاً عن الاحتجاج ، عاجزاً عن الهرب ، في حالة نفسية لاتختلف في شيء قط عن حالة المجرم الذي يساق الى الإعدام ، أمكنه أن يلاحظ أن على جبين طبيب الأسنان ـ ذلك الجبين الأصلع ـ حبات صغيرة من العرق ، وأن فمه كان منكمشاً من الخوف . وانتهت العملية البغيضة ، وجعل هانو يبصق الدم في الصحفة الزرقاء القائمة بجانبه ، شاحب اللون ، دامع العينين ، حائل الوجه يرتعد ، بينما كان على السيد برشت أن يجلس لحظة في مكان ما ليجفف جبينه ويتناول قليلاً من الماء...

لقد أكدوا ليوهان الصغير أن هذا الرجل يصنع به خيراً كثيراً ويصونه من آلام كثيرة أشد من هذه الآلام ، لكنه لما قارن هانو العذاب الذي سامه السيد برشت إياه بالخير المحقق المحسوس الذي بات يدين له به كان الأول أرجح عنده من أن لايعتد كل هذه الزيارات الى شارع الطاحونة أشنع الآلام الضارة جميعاً . وقد كان لابدّ من استئصال أربعة أضراس كانت نامية قبل ذلك بيضاء جميلة ، سليمة كل السلامة ، مراعاة لضرسي العقل اللذين كانا سينبتان في يوم ما . وقد استغرق ذلك أربعة أسابيع حتى لايجهد الطفل فوق طاقته ، فياله من وقت عصيب! لقد أسرف في هذا العذاب المطال الذي كان الخوف من المنتظر يعاودهَ فيه ، والإعياء مما اجتازه يحل به . فلما خلع آخر ضرس رقد هانو في فراشه ثمانية أيام مريضاً من مجرد الإنهاك .

---

(١) Grimm (١٧٨٦ ـ ١٨٥٩) صاحب كتاب «القصص الشعبية الألمانية» بالتعاون مع أخيه ياكوب .

هذا الى أن متاعب الأسنان لم تؤثر في نفسيته فحسب بل أثرت كذلك في وظائف أعضائه كل على حدة ، فكان من عواقب عجزه عن المضغ اضطرابات في الهضم بين الحين والحين بل أيضاً نوبات من الحمى مصدرها المعدة . وكانت هذه الاضطرابات المعدية ذات صلة بنوبات عابرة مترتبة على نبض غير منتظم يقوى أو يضعف ، وشعور بالدوار . وقد استمرت في خلال ذلك كله معاناته لذلك الشيء الغريب الذي أسماه الدكتور جرابو Pavor Noeturnus[١] فلم يخفف عنه بل استفحل ولاتكاد ليلة تمر من دون أن يهب هانو مرة أو مرتين من نومه يعتصر يديه وتبدو عليه إمارات خوف بالغ ، يستغيث أو يصيح طالباً الرحمة والنجاة كأنما يقف وسط اللهب أو يبغي أحد خنقه أو يقع له شيء مرعب ينبو عن الوصف... فإذا أصبح الصباح لم يتذكر شيئاً من ذلك كله . ـ وقد لجأ الدكتور جرابو في معالجة هذا الألم بجرعة كل مساء من عصير العليق . بيد أن هذا لم يجد نفعاً .

كان من شأن العوائق التي نزلت بجسم هانو والآلام التي كابدها أن تنبه فيه ذلك الشعور الجاد بالخبرة قبل الأوان وهو مايسمى بالنضج المبكر . وإذا كانت هذه الخبرة قبل الأوان لم تظهر في أغلب الأحيان ولم تتبد في جلاء تام كأنما هناك تحل بالذوق السليم يحول دون ظهورها ، فإنها قد عبرت مع ذلك عن نفسها هنا وهناك في صورة تفوّق ينطوي على الكآبة... كان بعض أقربائه ، كجدته أو كسيدات بودنبروك ساكنات الشارع العريض يسألنه : « كيف حالك ياهانو ؟ » فلا يعد جوابه أن يفتح فمه شيئاً ما دالاً على الاستسلام ، أو يرفع كتفيه اللتين تغطيهما بنيقة البحارة الزرقاء .

ويواصلن السؤال : « أتحب الذهاب الى المدرسة ؟ »

فيجيب هانو في هدوء وصراحة : « لا » . لايرى بالنظر الى ماهو أهم من هذه الأسئلة أن الأمر يستأهل أن يكذب .

« لا ؟ أوه! إن على المرء أن يتعلم الخط والحساب والمطالعة... »

فيقول يوهان الصغير : « الى آخره » .

كلا إنه لايحب الذهاب الى المدرسة القديمة ، التي كانت من قبل ديراً ، المدرسة ذات الممرات والمماشي المتعامدة ، والفصول القوطية المقبوه . فالتخلف عن المدرسة لتوعكه وعدم التفاته إطلاقاً حين يشغل أفكاره اتصال انسجامي ما أو تستهويها عجائب

---

(١) كابوس ليلي .

قطعة موسيقية لم يدرك بعد كنهها ويكون قد سمعها من أمه والسيد بفيل ، هذان الشيئان لم يكن من شأنهما أن يفسحا له طريق التقدم في العلوم ، زد على ذلك ماكان المدرسون المساعدون وطلبة معهد التربية الذين كانوا يدرسون لهذه الفصول الدنيا والذين كان يشعر بأنهم دونه من الناحية الاجتماعية ويحس ضيق ذهنهم وقلة عنايتهم بأجسامهم ـ يشعرونه إياه من ازدراد خفي لهم الى جانب خوفه من العقاب . فالسيد تيتجه مدرس الحساب ، وهو شيخ قصير القامة يرتدي سترة دهنة سوداء ويعمل في المعهد من أيام المرحوم مارسيليس شتينجل ـ السيد تيتجه الذي كان مصاباً بحول انعكاسي غريب حاول تصحيحه بعدسات مستديرة غليظة كزجاج نوافذ السفن كان ينبه يوهان الصغير في كل ساعة بذكر ماعليه أبوه من جد وحدة ذهن في الحساب على الدوام... وقد كان ينتاب السيد تيتجه دائماً نوبات شديدة من السعال تضطره الى تلطيخ أرض المنصة بالبصاق .

لقد كانت علاقة هانو برفاقه الصغار بوجه عام علاقة ظاهرية لاإئتلاف فيها على الإطلاق ، ليس فيهم سوى واحد رابطته وثيقة به من أيام الدراسة الأولى . وكان هذا الواحد طفلاً كريم المحتد زري الهيئة مع ذلك كل الزراية يسمى الكونت مولن واسمه الأول كاي .

كان غلاماً في قامة هانو لكنه لايرتدي مثله سترة بحار دانيماركي بل بذلة رخيصة لالون لها ، ينقصها زر هنا وهناك ، وتبدو فوق العجز رقعة كبيرة قد تشبعت يداه الخارجتان من أكمامه القصيرة بالغبار والتراب واتخذتا لوناً رمادياً فاتحاً لايتغير لكنهما كانتا مستطيلتين ، بديعتي التكوين بصورة ملحوظة ، قد طالت أصابعهما وأظافرهما المدببة النمو ، يطابق هاتين اليدين رأس مهمل غير ممشط ، غير نظيف جداً ، زودته الطبيعة بزمارات تنم عن جنس نقي نبيل . وكان شعره المفروق في الوسط على عجل ، المحمراللون في صفرة ، مرجلاً الى الخلف عن جبين في بياض المرمر تبرق تحته عينان غائرتان ، حادتان معاً ، صافيتا الزرقة . وكانت عظمتا خديه بارزتين قليلاً وأنفه الرقيق المنخرين ، الضيق الظاهر ، المقوس قليلاً ، ذا طابع مميز من الآن ، كفمه المقلوب الشفة العليا بعض الشيء .

كان هانو بودنبروك قد رأى الكونت الصغير قبل عهد الدراسة مرتين أو ثلاثة خطفاً ، لم يتلبث عنده ، وذلك أثناء نزهاته مع ايدا وهو يخرج من بوابة القصر متجهاً نحو الشمال . فهناك على التعيين ، بعيداً الى الخارج ، وغير بعيد من القرية الأولى ، كان في مكان ما مزرعة صغيرة وعقار يكاد يكون عديم القيمة لايحمل اسماً ؛ فإذا تأمله المرء دخل في روعه

أنه يرى كوماً من السماد ، وعدداً من الدجاج ، ووجارا لكلب ، ومبنى ذا طبقات ، يعلوه سطح أحمر اللون شديد الانحدار . وقد كان هذا المنزل للساده ، وفيه يسكن أبو كاي الكونت ايبرهارد مولن .

وكان رجلاً غريب الأطوار ، يندر أن يراه أحد ، يقيم مشغولاً بتربية الدجاج والكلاب ، وزراعة الخضر منقطعاً في مزرعته عن العالم بأسره ، رجلاً طويل القامة ، يلبس حذاءً طويلاً مزركشاً ، وصدرية خضراء من الصوف الخشن ، أصلع الرأس ، ذا لحية شيباء هائلة كأنها لشبح ، يمسك بيده سوط ركوب وإن لم يملك حصاناً ، ويضع مونوكلاً مثبتاً على عينه تحت حاجب كث . ولم يكن في طول البلاد وعرضها عداه وعدا ابنه كونت يسمى مولن . فقد ضمرت فروع الأسرة شيئاً فشيئاً وكانت في سالف الزمان غنية فخوراً ذات سلطان ثمّ انقرضت وتعفنت فليس في قيد الحياة سوى عمة لكاي الصغير ، لكنه لايراسلها أبوه . وقد نشرت تحت اسم مستعار قصصاً في صحف الأسرة . أما عن الكونت ايبرهارد فيذكر الناس أنه لكي يتقي الإزعاج بالسؤال والعرض والتسول زمناً طويلاً ، وبعد أن انتقل الى عقاره القائم أمامه «بوابة القصر» علق على باب بيته المنخفض لوحة كان يقرأ عليها : «هنا يسكن الكونت مولن في وحدة تامة لايحتاج شيئاً ولايشتريه وليس عنده مايهديه» . فلما أتت اللوح ثمرتها ولم يعد أحد يضايقه رفعها ثانية .

وقد ترعرع كاي الصغير هنا محروماً من الأم ـ لأن الكونتس ماتت وهي تلده فقامت على تدبير المنزل امرأة متوسطة السن ، فكان برياً كالحيوان يعيش بين الدجاج والكلاب . وهنا رآه هانو بودنبروك من بعيد فتهيبه تهيباً شديداً وهو يقفز بين الكرنب كالأرنب هنا وهناك ، ويتضارب مع أجراء الكلاب ، ويفزع الدجاج بشقلباته .

وعاد فوجده في الفصل ولقيه في المدرسة ، واستمر تهيبه في مبدأ الأمر من المظهر المشوش البادي على الكونت الصغير . لكن هذا التهيب لم يلبث أن زال فقد هدته غريزة أمينة الى ماوراء القشرة الخشنة وجعلته يلتفت الى هذا الجبين الأبيض والفم الضيق والعينين المستطيلتين الصافيتي الزرقة اللتين كانتا تنظران في نوع من الاستغراب الغاضب فاستشعر عطفاً كبيراً لهذا الرفيق من بين رفاقه جميعاً . ومع ذلك فقد كان أكثر تحفظاً من أن يجد في نفسه الشجاعة للتمهيد لصداقته . ولولا مبادأة الصغير كاي من دون كلفة لبقي كل منهما غريباً عن الآخر . حقاً إن الإقبال الحار الذي تقرب به كاي اليه كان في بادىء الأمر مما أفزع يوهان الصغير ، فقد خطب الرفيق الصغير الرث الهيئة في

حرارة ورجولة تتسم بالعدوان الخاطف ود هانو الهادىء الحسن الهندام الذي لم يكن سبيل الى مقاومته ، وحقاً إنه لم يسعه أن يمد اليه يد المعونة أثناء الدرس ، ذلك أن جدول الضرب كان لفهمه الجامح الضال على هواه كما كان لفهم بودنبروك الصغير الحالم شيئاً منفراً بالمثل ، لكنه كان يهدي اليه كل مايملك : كرات من الزجاج وحلقات من الخشب بل كذلك مسدساً صغيراً معوجاً من الصفيح ، وإن كان هذا المسدس قد كان أثمن مايملك... كان أثناء الاستراحة يقص عليه ـ ويده في يده ـ عن موطنه وجرائه ودجاجه ، وكان يصاحبه ظهراً الى أبعد مايمكن على الرغم من أن ايدا يونجمان كانت تنتظر ربيبها بباب المدرسة وبيدها ربطة من خبز الزبد المزود لتخرج به الى النزهة . وقد عرف بهذه المناسبة أن بودنبروك الصغير ينادي في البيت بهانو . فسرعان ما انتهز اسم التدليل هذا كيلا ينادي صديقه بغيره .

وذات يوم طلب أن يتنزه معه هانو الى ملك أبيه بدلاً من التوجه الى سور الطاحونة ليريه أرانب حديثة الولادة فرضخت الآنسة يونجمان لرجاء الاثنين أخيراً وقصدوا الى ملك الكونت وعاينوا كوم السماد والخضر ، وشاهدوا الكلاب والدجاج والأرانب ، ثم دخلوا البيت في النهاية حيث كان الكونت ايبرهارد جالساً في حجرة منخفضة مديدة على أرضها ، صورة من الوحدة المتمردة ، يقرأ الى مائدة ثقيلة من موائد القرويين ، فسألهم بغضب عمّا يبغون .

ولم يمكن حمل ايدا يونجمان على تكرار هذه الزيارة بل أنها أصرت على أن يزور كاي هانو إذا شاء كلاهما أن يجتمع بالآخر . وهكذا دخل الكونت الصغير بيت أبي صديقه الفخم وهو معجب حقاً لكنه غير هياب . وظل من ذلك الحين يتردد على البيت ولم يحبسه عنه في الشتاء ـ وكان الآن أوانه ـ سوى الثلج المتراكم عالياً يعوقه عن أن يقطع الطريق البعيد كرّة أخرى ليمضي مع هانو بودنبروك بضع ساعات .

كانا يجلسان في الحجرة الكبيرة المخصصة للأطفال في الطابق الثاني ينجزان أعمالهما المدرسية . وكان عليهما مسائل حسابية كثيرة للحل ، أسفرت في النهاية عن صفر بعد أن اكتظت لوحة الأزرار على الجانبين بالجمع والطرح والضرب والقسمة . فإذا لم تكن النتيجة صفراً فلابد أن تكون في موضع ما غلطة يظلان يبحثان عنها حتى يجداها ـ تلك الملعونة ـ ويصححانها : اللهم إلا أن تكون الغلطة في رقم مرتفع ، وعندئذ لابدّ لهما من أن يعيدا كتابة كل شيء تقريباً . وكان عليهما غير ذلك أن يشتغلا بقواعد اللغة الألمانية وتحصيل فن أفعل

التفضيل ، وكتابة مايكدحان الذهن فيه بعضه تحت بعض بنظافة تامة وخط مستقيم كمثل : «القرن شفاف والزجاج أشف والهواء هو الأشف» .

ثم يتناولان كراسة الإملاء على الأثر ليدرسا جملاً كهذه الجملة : «حقاً إن خادمتنا هيدويج مطيعة جداً لكنها لاتجمع النفاية من الأرضية قط كما ينبغي» . ففي هذا التمرين المنطوي على الاستدراج والمنصوبة فيه الحبائل كانت النية أن تكتب كلمات ثلاث من نوع واحد بنهاية غير صحيحة ورابعة وخامسة بنهاية أخرى غير نهايتهما . وقد فعلا هذا على أتم وجه مما اقتضى التصحيح فيما بعد . فلمّا فرغا من كل شيء جمع كلاهما أوراقه واتخذا مجلسهما فوق قاعدة النافذة ليصغيا الى ايدا وهي تقرأ لهما .

وكانت هذه الإنسانة الطيبة تقرأ لهما عن هذا أو ذاك من شخصيات الأقاصيص بصوت عميق مستأن ، مغمضة عينيها نصف إغماضة ، ذلك أنها كانت تقص عن ظهر قلب ماسبق لها أن قصته في حياتها مراراً وتكراراً من أقاصيص ولو أنها كانت تقلب صفحات الكتاب بسبابتها المبتلة في صورة آلية .

على أنه حدث أثناء هذه التسلية شيء غريب هو أنه أخذت تتحرك وتكون في نفس كاي حاجة الى تقليد الكتاب وأن يروي هو نفسه شيئاً . ولعله دعا الى اشتداد الرغبة في هذا أن الغلامين ألما بالتدريج بكل الأقاصيص المطبوعة فوق أن ايدا كان لابدّ أيضاً من أن تستريح بين الحين والحين . وكانت حكايات كاي في أول الأمر وجيزة بسيطة فلم تلبث أن باتت أجرأ وأكثر تعقيداً وإثارة للاهتمام ، بأنها لم تكن كلها من وحي الخيال بل كانت في بعضها تصدر عن الحقيقة ويخلع عليها ضوءاً غريباً محفوفاً بالأسرار... وكان هانو يحب على الأخص سماع حكاية الساحر الشرير القوي السلطان بدرجة فائقة إذ يحتجز أميراً جميلاً موهوباً اسمه جوزيفوس أسيراً عنده على صورة طائر متعدد الألوان ، ويعذب الناس أجمعين بأساليبه الماكرة . لكنه على مبعدة كان المختار ينمو ويترعرع ليزحف في يوم من الأيام على الساحر وهو على رأس جيش لايقاوم من الكلاب والدجاج والأرانب ويخلص الأمير والعالم بأسره وخاصة هانو بودنبروك بضربة سيف ، فيعود جوزيفوس الى مملكته بعد خلاصه وفك سحره ويصبح ملكاً ويبوىء هانو وكاي أيضاً أرفع المراتب .

ولم يعترض السناتور بودنبروك ، وكان يرى الصديقين معاً هنا وههنا وهو مار بحجرة الأطفال ، على هذا الاختلاط ، ذلك أنه كان من السهل أن يلاحظ أن كليهما كان يؤثر في الآخر تأثيراً طيباً . فهانو كان يلطف من طبع كاي ويستأنسه ، بل يجعل منه بالذات إنساناً

كريماً ، فهو الذي يحبه ، ويرق له ، ويعجب ببياض يديه . ويدع الآنسة يونجمان حباً فيه تعالج يديه هو بالفرشاة والصابون . وإذا كان هانو من جانبه يلقى من الكونت الصغير شيئاً من التجني والعنف فقد كان هذا مما يرحب به السناتور بودنبروك لأنه لم يكن يجهل أن الرعاية النسوية المستمرة التي يرعاها الصغير لم تكن بالذات صالحة لأن تحرك فيه صفات الرجولة وتنميها .

حقاً إن وفاء يونجمان الطيبة وتفانيها وهي التي لبثت الى الآن أكثر من ثلاثين عاماً تخدم آل بودنبروك ، لم يكونا مما يقوم بالنضار فقد رعت وربّت الجيل المتقدم وضحت له ، لكنها كانت تحمل هانو على يديها وتحيطه كل الإحاطة بالرفق والعناية ، وتحبه وتعبده ، وتذهب كثيراً في إيمانها الراسخ بمركزه المفضل وحقه المقدم الى حد السخف ، وتبدي إذا اقتضى الأمر أن تعمل له وعنه جرأة مدهشة تكون أحياناً أليمة ، فهي على سبيل المثال حين تشتري له شيئاً من الحلواني لاتتحرج قط أن تمد يدها الى الصحاف المعروضة لتدس له هذه الحلوى أو تلك دون أن تدفع في مقابل ذلك شيئاً ـ أليس في هذا مايشعر صاحب الحانوت بالتكريم ؟ فإذا لقيت نافذة عرض أحاط بها الناس بادرت في الحال الى رجائهم في لطف ولكن في تصميم ، وبلهجة أهل بروسيا الغربية ، أن يفسحوا لربيبها مكاناً . أجل لقد كان في عينيها شيئاً خاصاً جداً الى حد أنها لم تكن تستسيغ أن يقترب منه طفل آخر . أما الصغير كاي فقد كان ميلهما المتبادل أقوى عندها من سوء الظن . هذا الى أن اسم الطفل قد كان يستهويها . لكنه إذا كانت الآنسة يونجمان جالسة مع هانو الى سور الطاحونة وأراد الأطفال أن ينضموا اليهما نهضت من فورها غالباً وابتعدت بالطفل عن المكان بحجة التأخر عن الميعاد أو التعرض لتيار هواء . وكان من شأن الايضاحات التي تقدمها الى الصغير تفسيراً لمسلكها أن تلقي في روعه أن جميع لداته ومن هم في سنه مصابون بداء الخنزير ـ أما هو فلا . ولم يكن هذا بالذات ليساعد على تقوية ثقته بنفسه أو يخفف من خجله ، الأمرين اللذين كانا ينقصانه على كل حال .

ولم يكن السناتور بودنبروك يعلم عن هذه التفاصيل شيئاً . لكنه كان يرى أن نشأة ابنه بطبيعتها وبفعل المؤثرات الخارجية لم تتجه بحال من الأحوال الوجهة التي تمنى أن يوجهها إياها . فلو أمكنه أن يتولى تربيته ويؤثر في ذهنه كل يوم وكل ساعة! لكنه كان يعوزه الوقت لهذا فكان لابدّ أن يشهد ، والألم يحزّ في نفسه ، كيف أخفقت محاولاته في شتى المناسبات إخفاقاً أسيفاً ، وكيف نجحت في جعل العلاقة بين الأب وابنه أفتر وأوهن .

وقد كان يتمثل صورة هفت نفسه الى أن يجعل ابنه على مثالها : صورة جد هانو الأكبر ـ كما عرفه هو نفسه في طفولته ـ رأساً رائقاً ، مرحاً ، بسيطاً ، قوياً ، يحب الدعابة . أفلا يمكن للحفيد أن يصبح هكذا ؟ محال ؟ ولماذا ؟... لقد كان حرياً به على الأقل أن يبعد الموسيقى عنه وينفيها ، وهي التي أبعدت مابينه وبين الحياة العملية ، ولم تكن على التحقيق نافعة لصحته البدنية ، بل أنها استغرقت قواه الذهنية . ألم يقرب كيانه الحالم أحياناً أن يجعله غير أهل بتاتاً للتصرف ؟

كان هانو عصر يوم ، وقبل تناول الطعام بثلاثة أرباع الساعة ـ وكان يقدم في الرابعة ـ قد نزل وحده الى الطابق الأول فتمرن على البيان بعض الوقت ثم لزم حجرة الجلوس فارغاً لم يفعل شيئاً ، مستلقياً على المقعد المديد يعبث بأنشوطة البحار المتدلية فوق صدره . وبينما تدرج عيناه جانباً دون أن تنشد شيئاً بعينه وقع نظره فوق مكتب أمه الأنيق المصنوع من خشب الجوز على حافظة مفتوحة من الجلد ـ الحافظة التي تحتوي أوراق الأسرة ، فأسند مرفقه الى حشية الظهر ، واعتمد ذقنه في يده ، وجعل يتأمل الأشياء برهة عن بعد . وليس شك في أن أباه قد اشتغل اليوم بها بعد إفطاره الثاني ، ثم تركها ملقاة ، ليعود اليها . فشيء في الحافظة وأوراق مفكوكة خارجها كانت مثقلة بمسطرة من المعدن ، وكراسة الكتابة الكبيرة المزركشة بالذهب المتنوعة الورق مفتوحة هناك .

فانزلق هانو عن المقعد المديد وتوجه الى المكتب . وكانت الكراسة مفتوحة في الموضع المرتبة عنده شجرة آل بودنبروك بأكملها بخط يد عدة من أجداده ثم أخيراً بخط أبيه بين أقواس وحواش وتواريخ واضحة . فجعل هانو وهو راكع بإحدى ساقيه على كرسي المكتب ، معتمد شعره الكستنائي الزاهي المتموج الناعم على راحة يده ، يعاين المخطوط عن عرض في جد يبدو فيه شيء يسير من النقد والإزدراء ـ جد مايحسه من عدم الاكتراث . ثمّ أجرى يده الطليقة تعبث بقلم أمه ، وكان نصفه من الذهب ونصفه الآخر من الأبنوس ، وأجال بصره في كل هذه الأسماء المدونة هنا متجاورة أو قائماً بعضها فوق بعض لذكور وإناث ، مكتوباً بعضها بخط مثنى على اسلوب قديم ذي أطراف بارزة بمداد أسود أما باهت مصفر وإما حالك السواد تعلق به بقايا رمل ذهبي مما يذر... وقد قرأ أيضاً في آخر المطاف وبخط صغير أجراه أبوه على الورق سريعاً ، اسمه هو بين أسماء والديه : يوستوس يوهان كاسبار المولود في الخامس عشر من ابريل سنة ١٨٦١ ، فسره هذا بعض الشيء ، فنهض قليلاً وتناول المسطرة والقلم في تؤده ووضع المسطرة تحت اسمه ، ثم أجال بصره

كرة أخرى في زخرة الأنساب وخط بالقلم الذهبي خطاً مزدوجاً جميلاً نظيفاً عبر الورقة كلها في هدوء وعناية لايحدوهما تفكير ، وصورة آلية حالمة ، السطر الفوقاني أقوى قليلاً من التحتاني كما كان وكده أن يفعل دائماً بكل صفحة من كراسة الحساب... ثمّ أمال رأسه فاحصاً لحظة وتحول .

وبعد تناول الطعام دعاه السناتور اليه وانتهره مقطباً حاجبيه قائلاً له : « ماهذا ؟ كيف حدث هذا ؟ أتراك فعلته ؟ »

فلم يكن بد من أن يفكر لحظة في هل هو الذي فعله ، ثم قال متهيباً وجلاً : « نعم » فصاح به أبوه : « مامعنى هذا ؟ ماذا دهاك! أجب! كيف خطر لك أن تعبث هذا العبث! » ولطم هانو على خده بالكراسة المطوية قليلاً .

وتراجع يوهان الصغير وهو يمر يده على خده ويتمتم متلعثماً : « أظن... أظن... لن يقع مني شيء بعد الآن » .

الفصل الثامن

كانت الأسرة عندما تجلس في أيام الخميس لتناول الطعام ومن حولها تماثيل الآلهة الباسمة بسمتها المكتملة الهدوء البادية في توريق الحيطان ، تتناول في حديثها موضوعاً جدياً جديداً يدور منذ عهد قريب فيخلف على وجوه سيدات بودنبروك الساكنات في شارع منج أثراً يعبّر عن التحفظ والفتور . لكنه يثير في ملامح مدام بيرمانيدر وحركاتها انفعالاً غير عادي ، فكانت تتكلم وهي ملقية رأسها الى الوراء تمد كلتا ذراعيها في نفس الوقت إما الى أمام وإما الى فوق غاضبة ، حانقة ، ساخطة سخطاً لاتتصنعه بل تشعر به في الصميم ، فتنتقل من الحالة الخاصة التي هم في صددها الى الحالة العامة فتتكلم عن الأردياء من الناس وتتخلل كلامها نحنحة عصبية جافة ذات صلة بضعف معدتها ، فتنفخ في صوت بعينه صادر عن الحنجرة هو من خواصها إذا غضبت ـ نفخات مقتضبة من قبيل ماتطلقه الترومبه تعبر عن الاشمئزاز وتؤدي أصواتاً لها وقع أصوات تريشكه الدموع ـ! جرينليش ـ! وبيرمانيدر! بيد أن الغريب في هذا هو الصيحة التي جدت على هذه الصيحات والتي كانت تخرجها معبرة عن احتقار وغل لايوصفان . وكانت هذه الصيحة هي «وكيل النائب العام» .

فإذا مادخل المدير هوجو ڤاينشنك القاعة متأخراً كعادته لأنه يكون مرهقاً بالأعمال ، وخطا الى مكانه وهو يهتزّ عند الخصر ويوازن نفسه بقبضتيه في حركة نشيطة نشاطاً غير عادي ، تتدلى شفته السفلى تحت شاربه الرفيع معبرة عن الجرأة ، انقطع الحديث وساد المائدة سكون أليم خانق حتى يعين السناتور الجميع على الخلاص من هذا الارتباك بخفة تامة فيسأل المدير عن موقف القضية كما لو كانت هذه القضية عملاً ما من أعماله ، فيجيب هوجو ڤاينشنك أن الأمور على خير مايرام وأنها بديعة كما لايمكن أن تكون غير ذلك... ثمّ

ينتقل في يسر ومرح نفس الى الكلام عن شيء آخر . ويكون أشرح صدراً من ذي قبل فيدير بصره فيما حوله في جرأة متناهية ويسأل عدة مرات عن كمان جيردا بودنبروك من دون أن يتلقى جواباً ، ويكثر من الحديث مغتبطاً فلا يكون ثمّ مايسيء سوى أنه في صراحته لاينتقي دائماً ألفاظه بالقدر الكافي ، وأنه في نفسيته المرحة المسرفة في المرح يقص من هنا وهناك حكايات ليست في موضعها تماماً . فطريفة على سبيل المثال مما كان يقصه ـ تتعلق بقابلة أضرت بصحة الطفل الذي تتعهده لأنها كانت مصابة بانتفاخ . قال ذلك وهو يعده من قبيل الفكاهة ، وكان يقلد به طبيب البيت الذي صاح : «لمن هذه الرائحة الكريهة ؟ هذه الرائحة الكريهة لمن ؟» وقد لاحظ متأخراً أو لعله لم يلحظ بتاتاً أن زوجته احمرت من الخجل احمراراً شديداً ، وأن القنصلة وتوماس وجيردا كانوا جالسين جامدين وأن سيدات بودنبروك تبادلن نظرات حادة ، وأنه حتى ديشكن سيڤيرين كانت في طرف المائدة تنظر نظرة من أُهين . ولم يضحك ضحكاً خافتاً سوى القنصل كروجر المسن...

فماذا أصاب المدير ڤاينشنك ؟ هذا الرجل الجاد العامل الشديد ، هذا الرجل الخشن المظهر الذي كان يكره كل مجتمع ولايتعلق بسوى عمله يؤديه بدقة الأمين على واجبه . ـ هذا الرجل قيل أنه ارتكب غلطة شنيعة مرة ، كلا ، بل مرات . اتهم واتهمه القضاء بأنه قام عدة مرات بمناورة تتصل بالعمل لاتسمى مريبة بل توصف بأنها قذرة إجرامية ، وإن هناك قضية مقامة عليه لايعلم أحد كيف تكون نهايتها! ـ فما الذي يؤخذ به ؟ ـ لقد شبت حرائق في أماكن مختلفة ، حرائق كبيرة كانت حرية أن تكلف الشركة التي تربطها عقود بالمجني عليهم فيها مبالغ طائلة . لكنه قيل أن المدير ڤاينشنك أعاد التأمين لدى شركة أخرى وهو شاعر بأنه يرتكب غشاً بعد إذ تلقى من وكلائه تبليغاً سرياً سريعاً عن حوادث الحريق وحمّل هذه الشركة بذلك اضرار الحريق . والآن يباشر القضية وكيل النائب العام الدكتور موريتس هاجنشتروم...

قالت القنصلة لإبنها وقد اختلت به : «توماس... أرجوك... إني لاأفهم شيئاً... فما الذي ينبغي أن يكونه رأيي في القضية!»

فأجابها بقوله : «أمي العزيزة... ما الذي يمكن أن يقال في هذا الصدد . أما أن كل شيء على مايرام فهذا موضع شك وياللأسف . لكن أن يكون ڤاينشنك مذنباً بقدر مايريده البعض فهو أمر بعيد الاحتمال أيضاً . إن في مجرى الأعمال الحديثة شيئاً ما يسمى ترخصاً... وهذا الترخص مناورة ليست خالية من الشوائب تماماً ، ولاتتمشى مع القانون كل التمشي ،

ويراها غير العارفين شيئاً خسيساً ، لكنها قائمة مع ذلك بالإتفاق الصامت بين رجال الأعمال . ومن الصعب رسم حد بين الترخص والجريمة فكلاهما واحد! فإذا كان ڤاينشنك قد اقترف ذلك فالراجح أنه ليس أردأ من كثيرين من زملائه الذين نجوا من العقاب . لكني ، لما أبديت لك ، لاأتوقع مخرجاً طيباً من هذه القضية ، ولعله لو كان في مدينة كبيرة لبرىء ، لكن هنا ، حيث يصدر كل شيء عن نظام العصب والبواعث الشخصية... لكان خليقاً في اختياره محاميه أن يفكر خيراً مما فكر . فليس عندنا في المدينة محامٍ قدير أو رأس ممتاز ذو موهبة فائقة مقنعة كخطيب ، خبير بكل شيء ، عليم بسبل الخروج من أشد المآزق ، لهذا يتكاتف سادتنا رجال القانون ويربط بعضهم ببعض مصالح مشتركة ومآدب ، وصلة الرحم حيث توجد ، ويراعي بعضهم بعضاً . وفي رأيي أنه كان من الحكمة لو أن ڤاينشنك اختار أحد المحامين المقيمين هنا . لكنه ماذا فعل ؟ ـ لقد وجد لزاماً عليه ، وهذا مايحمل آخر الأمر على التفكير في هل كان ضميره مرتاحاً ـ أن يتخذ محامياً له من برلين هو الدكتور برسلاور ، وهو رجل معجون بماء الأبالسة ، وخطيب داهية ، وقطب محنك من أقطاب القانون تسبقه شهرة التوفيق في إنقاذ الكثيرين من المصرفين الغشاشين من الأشغال الشاقة . وهذا لاشك سيتولى القضية مقابل أتعاب باهظة جداً ، وسيسير فيها بدهاء كبير... لكن هل ينفع هذا ؟ إني أتوقع أن يدرأ رجال قانوننا الشجعان على أنفسهم تأثير السيد الغريب وأن المحكمة ستكون أكثر إصغاء لمرافعة الدكتور هاجنشتروم وأكثر قبولاً لكلامه... والشهود ؟ فأما مايتلق بموظفيه فلست أعتقد أنهم سيقفون الى جانبه ويظهرون له حباً خالصاً . ذلك أن مانسميه نحن المريدين ومايسميه هو أيضاً في اعتقادي ، جانبه الخارجي الخشن لم يجعل له أصدقاء كثيرين .

وصفوة القول يا أماه أني لاأتوقع خيراً . وإنها لتكونن نكبة على ايريكا إذا حدث ما لا تحمد عقباه . لكن أشد مايؤلمني انما هو من أجل توني . فأنت ترين أنها على حق حين تقول أن هاجنشتروم باشر القضية راضياً ، فهي تمسنا جميعاً ، وأية نتيجة مزرية ستصيبنا بالجملة ، ذلك أن ڤاينشنك ينتمي قطعاً الى أسرتنا ويجلس على مائدتنا . أما مايتعلق بي فأنا لاأبالي ، فأنا أعلم كيف يكون سلوكي . يجب أن أقف في العلن من القضية موقف الغريب فلا أحضر جلساتها ، وإن أثار برسلاو اهتمامي ، ولايجوز أن أهتم بشيء إطلاقاً إتقاء لما يمكن أن ينسب اليَ من أني أبغي التأثير بأية صورة . لكن توني ؟ إني أكره أن أتصور مبلغ حزنها إذا حكم عليه . ولابد للمرء من أن يسمع كيف تعبر احتجاجاتها الصارخة

على السعادة ودسائس الحسد عن الخوف... الخوف أيضاً بعد كل الشقاء الذي تحملته ، من فقدان هذا المركز الرفيع الأخير والمستوى المنزلي الكريم الذي تقيم عليه ابنتها . آه ، القي بالك! إنها ستظل تؤكد براءة ڤاينشنك كلما اتجهت الى الشك في ذلك... لكنه قد يكون أيضاً بريئاً ، بالتأكيد ، كل البراءة... فيجب أن ننتظر ياأماه ، وأن نعامله وتوني وايريكا بكل لباقة ، فإني لاأتوقع خيراً...

وأقبل عيد الميلاد هذه المرة في مثل هذه الظروف وتابع يوهان الصغير بقلب واجف اقتراب هذا العيد الذي لايقارن به شيء ، مستعيناً بتقويم مما تنزع أوراقه أعدته له ايدا واحتوت ورقته الأخيرة شجرة عيد الميلاد مرسومة عليها .

وتزايدت الدلائل... فمنذ أول آحاد استهلال الميلاد وصورة زاهية بالحجم الطبيعي للخادم روبرخت معلقة على الحائط في قاعة طعام الجدة . وقد وجد هانو ذات صباح مفرش سريره وسجادته وملابسه مرشوشة بقصاصات الورق الذهبي المهسهس . ثم أنه بعد ذلك ببضعة أيام لما كان أبوه مستلقياً بعد الظهر على المقعد المديد في حجرة الضيوف يقرأ صحيفته وهانو يقرأ في نفس اللحظة منظومة ساحر أندرو من كتاب «الخوص» لجيروك ، أعلن ككل عام وفي هذا العام أيضاً على أتم مباغتة مقدم «رجل عجوز» يسأل عن الصغير . وسمح لهذا الرجل العجوز بالدخول فأقبل في خطو وئيد وفرو طويل قد قلبت جوانبه الخشنة ظهراً لبطن ، وعلتها قصاصات الورق الذهبي وهشائش الثلج ، يلبس قبعة على هذا النحو وترسم على وجهه ملامح قاتمة وتتدلى منه لحية بيضاء هائلة يتخللها كما يتخلل حاجبيه الغليظين بصورة غير طبيعية شعر الملائكة البراق . وأعلن «الرجل العجوز» كعادته في كل عام وبصوت له رنين النحاس أن هذا العِدل الملقى على كتفه الأيسر المحتوي على تفاح وجوز ذهبي هو للأطفال الأخيار الذين يؤدون الصلاة . أما هذه المقرعة المستندة الى كتفه الأيمن فهي من جانب آخر للأطفال الأشرار... لقد كان هذا هو الخادم روبرخت . ومعنى ذلك أنه ليس بطبيعة الحال روبرخت الأصيل بقضه وقضيضه ولعله في أساسه مجرد ڤنتسل الحلاق في فرو أبيه المقلوب . لكنه مادام من الممكن أن يكون هناك خادم يدعى روبرخت فهذا هو روبرخت . وقد تلا هانو في هذه السنة أيضاً «أبانا الذي في السموات» وهو يهتزّ تأثراً خالصاً ، وقد قطعه عليه مرة أو مرتين نحيب عصبي كان يعيه نصف وعي ، ثم دس يده بعد ذلك في العدل المسموح للأطفال الأخيار أن يدسوا أيديهم فيه وقد نسي الرجل العجوز كل النسيان أن ينصرف به...

وحلت العطلة ، ومرت اللحظة السعيدة تقريباً إذ قرأ الأب الشهادة التي لم يكن بد من إخراجها في وقت عيد الميلاد . وكانت القاعة الكبرى موصدة بصورة خفية ، وكانت اللوزية والفطائر السمراء قد أعدت على المائدة ، وعيد الميلاد في الخارج يرنق على المدينة . وكان الثلج يتساقط ، وثم صقيع ، وفي الهواء الصافي تخترق الشوارع نغمات مألوفة أو محزنة يطلقها عازفو الأرغن الايطاليون الوافدون الى الاحتفال بستراتهم المخملية وشواربهم السوداء . وكانت نوافذ العرض مشرقة بمعروضات عيد الميلاد ، ومن حول النافورة القوطية العالية في ميدان السوق أقيمت ملاهي سوق الميلاد المختلفة ، وحيث يذهب المرء يستنشق مع عبق شجر الميلاد المعروض للشراء ـ عبير العيد .

وأخيراً حل مساء اليوم الثالث والعشرين من ديسمبر ومعه توزيع الهدايا في قاعة بيت حفرة السماكين ، توزيع في أضيق نطاق كان فحُسِب بداية وافتتاحاً ، ذلك أن ليلة الميلاد مما تستأثر به القنصلة للأسرة كلها ، إذ يجتمع ضيوف مائدة الخميس عن بكرة أبيهم في أصيل اليوم الرابع والعشرين واليهم ينضم يرجن كروجر من ويزمار وتيريزه فيشبروت ومعها مدام كيتلزن في حجرة المناظر الطبيعية .

كانت السيدة العجوز تستقبل الضيوف وهم يصلون تباعاً ، في ثوب من الحرير الثقيل مخطط بالرمادي والأسود ، قد توردت وجنتاها والتهبت عيناها ، وفاح منها عبير رائحة باتشولي ، وكانت أساورها الذهبية تشخلل شخللة خافتة وهي تعانق من تعانق صامتة . وقد كانت في هذا المساء في حالة من الانفعال الصامت المهتز تعزّ عن التعبير ، فلما وصل السناتور ومعه جيردت وهانو قال لها : «لك الله ، إنك محمومة ياأماه! إن كل شيء يمكن حقاً أن يمر بسلام» . لكنها همست وهي تقبل ثلاثتهم تقول : «إكراماً ليسوع ثم لجان زوجي الحبيب المرحوم...»

والواقع أنه لم يكن بد من التزام المنهاج المبارك الذي وضعه القنصل المتوفى للاحتفال . وقد كان شعورها بالتبعة عن ضرورة انقضاء المساء على وجه كريم ، وهو مايجب أن تحدوه نفسه من المرح الجدي العميق العامر بالتقوى ـ هذا الشعور كان يدفعها الى هنا وهناك من دون راحة ، من بهو الأعمدة حيث كانت مجموعة غلمان كنيسة مريم مجتمعين بالفعل ، الى قاعة الطعام حيث كانت يد ريكشن سيڤيرين آخر يد وضعت على الشجرة وخوان الهدايا ، الى الطرقة حيث كان بضعة من المسنين الغرباء واقفين هنا وهناك متهيبين مرتبكين ، فقراء ممن يحسن اليهم البيت ولهم بالمثل نصيب

في الهدايا ، فثانية الى حجرة المناظر الطبيعية حيث كانت ترد صامتة وبنظرة شزراء على كل كلمة وكل صوب ناب وكان السكون شاملاً الى حد أن أصوات أرغن مما يدار باليد كانت تسمع من بعيد ، وتتناهى الى هنا رقيقة واضحة كالأصوات التي تصدر عن ساعة من الساعات الموسيقية ، قادمة من شارع ما تكسوه الثلوج . ذلك إنه وإن جلس ووقف في الحجرة عندئذ قرابة العشرين قد كان الهدوء أعظم مما يكون في الكنيسة ، والحالة النفسية السائدة تذكر قليلاً - كما همس السناتور الى حاله يوستوس كروجر في منتهى الحذر ، بما يكون في الجنازات .

هذا الى أنه لم يكن ثمة خطر من أن يبدد هذه النفسية صوت يصدر عن حماقة صبيانية ، فقد كانت نظرة واحدة تكفي لملاحظة أن كافة أعضاء الأسرة المجتمعة هنا كانوا تقريباً في سن اتخذت فيها تعبيرات الحياة صيغاً مقررة من أمد طويل ، فالسناتور توماس بودنبروك الذي يكذب شحوبه تعبير وجهه اليقظ النشيط بل المباسط ، وجيردا زوجه التي كانت متكئة لاتتحرك فوق كرسي ، متجهة بوجهها الجميل الأبيض الى أعلى ، لاتحول عينيها المتقاربتين ، الظليلتين بهالة تضرب الى الزرقة ، البراقتين في صورة غريبة ، عن مناشير الثريا الزجاجية المتألقة ، وأخته مدام بيرمانيدر ، وابن خاله يرجن كروجر الموظف الهادىء الطبع البسيط الملبس ، وبنات عمه فردريكا وهنرييت وفيفي وكانت الأوليان منهن قد باتتا أنحل وأطول مما كانتا وبدت الأخيرة أقصر وأسمن من ذي قبل ، لكنهن جميعاً كنّ يشتركن في تعبير واحد يرتسم على وجوههن وكأنه مصبوب ، ابتسامة حادة يحدوها سوء النية موجهة الى جميع الأشخاص ولأشياء تنطق بالشك الثليب بوجه عام كأنما يقلن : «حقاً ؟ إنه لايسعنا كأول شيء إلا الشك في هذا يقيناً» . ... وأخيراً كلوتيلده المسكينة ذات الوجه الأغبر التي كانت أفكارها مركزة على طعام العشاء - . كل أولئك تجاوزوا الأربعين ، بينما سيدة البيت وأخوها يوستوس وزوجه وتيريزه فيشبروت الضئيلة كانوا قد تخطوا الستين كثيراً ، على حين كانت القنصلة بودنبروك العجوز المولودة باسم شتيونج ومدام كيتلزن المصابة بالصمم التام في السبعينيات .

ولم يكن في ميعة الصبا سوى ايريكا ڤاينشنك ، لكنها حين كانت تحول عينيها الرائقتي الزرقة - وهما عينا السيد جرينليش - الى زوجها المدير حيث يجلس وهو من يتباين رأسه المقصوص الذي وخط الشيب سالفيه وشاربه الضيق المنثني في زاويتي فمه مع المنظر الطبيعي الشعري الذي يبديه ورق الحائط على مقربة من الأريكة ، كان يمكن أن

يلاحظ أن صدرها بأكمله كان يرتفع في تنفسها الصامت الضيق مع ذلك... ولعله كانت تكربها أفكار مضطربة يحدوها الوجل تحوم حول التأمين المعاد ومسك الدفاتر والشهود ووكيل النائب العام والمحامي والقاضي . حقاً إنه لم يكن في الحجرة من لم تشغل ذهنه هذه الأفكار التي لاتتناسب مع عيد الميلاد ، فحالة اتهام صهر مدام بيرمانيدر ، وشعور الأسرة بأكملها بوجود عضو من أعضائها متهم بجريمة ضد القوانين والنظام المدني وشرف المعاملة ، ولعله قدر له أن يلحقه العار ويدخل السجن ، قد طبع كله المجلس بطابع غريب كل الغرابة ، طابع هائل ، ذلك أن مساء عيد الميلاد تحييه أسرة بودنبروك وبين ظهرانيها متهم ، لقد اتكأت مدام بيرمانيدر على كرسيها في جلال وصرامة ، فارتفعت بسمة سيدات بودنبروك ساكنات شارع منج درجة من الحدة .

والأطفال ؟ النشء الهزيل هوناً ما ؟ هل تأثر هو أيضاً بالرعدة الخفيفة السارية في هذا الظرف الجديد كل الجدة ، الطارىء على حين غفلة ؟ فأما مايتعلق بالصغيرة اليصابات فقد كان الحكم على حالتها النفسية من المحال . كانت الطفلة جالسة على ذراع مربيتها في ثوب يتبين فيه ذوق مدام بيرمانيدر من كلفته الثمينة المحلاة بشرائط الأطلس ، تضم قبضتيها الصغيرتين على ابهاميها ، وتمتص لسانها ، وتحملق فيما هو أمامها بعينين واسعتين ، ويند عنها بين الحين والحين صوت مقتضب مقرقر تهزها بعده الخادم قليلاً . لكن هانو كان يجلس ساكناً فوق كرسي مما تسند عليه الأقدام ، عند قدم أمه يتطلع مثلها الى منشور من مناشير الثريا .

وكان كريستيان غائباً! ترى أين كان! وقد لوحظ في آخر لحظة لاقبل ذلك أنه لم يكن حاضراً . وتزايدت حركات القنصلة ومعالجتها الغريبة لما بين زاوية فمها وتسريحة شعرها وكانت كأنها ترد شعره هابطة الى موضعها... وقد أصدرت تعليماتها الى الآنسة سيڤيرين في سرعة فمضت الفتاة مارة بغلمان المجموعة ، مخترقة الأعمدة ، متوسطة جناحي البيت عبر الطرقة ودقت باب السيد بودنبروك .

وظهر كريستيان على الأثر تحمله ساقاه الهزيلتان المقوستان اللتان منيتا منذ أصيب بداء المفاصل بشيء من العرج الى حجرة المناظر الطبيعية في تؤدة ويسر يدلك جبينه الأصلع بيده .

قال : « ياللشيطان ياأطفال! لقد كدت أنسى! »

فردت أمه من قوله : « كدت... » وتولاها الجمود .

فزاد : «أجل ، أنسى أن اليوم عيد الميلاد... كنت جالساً أقرأ في كتاب رحلات عن أميركا الجنوبية... يالله! لقد شهدت أعياد ميلاد أخرى...»

وكان بسبيل الشروع في حكاية عيد ميلاد خبرها في لندن في ملهى من الدرجة الخامسة لولا أن هدوء الكنائس المرنق فوق الحجرة جعل يؤثر فجأة ، الى حد أن انسل الى مكانه على أطراف أصابعه متغضن الأنف . وأنشدت مجموعة الغلمان : « ... ... » ـ المجموعة التي كانت من هنيهة تأتي أعمالاً صبيانية مسموعة بلغ من أمرها أن القنصل نهض من مكانه ووقف بالباب لحظة ليشعرها الاحترام ، ـ هذه المجموعة أنشدت نشيداً رائعاً بديعاً استولت فيه بأصواتها الرائقة التي ارتفعت نقية ، هاتفة ، حامدة ، على المشاعر ، وحلقت بالقلوب جميعاً ، وخففت من ابتسامة العوانس ، وحملت المسنين على أن يراجعوا أنفسهم ويستذكروا ماصنعوا في الحياة ، بينما أولئك الذين يعيشون فيها قد نسوا لحظة مايشغلهم من هموم .

وترك هانو ركبته التي كان يحيطها بيديه في تلك الأثناء ، وكان شاحب اللون جداً ، يعبث بأهداب الكرسي الجالس فوقه ، ويدير لسانه على سن من أسنانه ، فاتحاً فاه نصف فتحة ، يعلو وجهه تعبير من يرتعش من البرد . كان بين الحين والحين يحس الحاجة الى أن يتنفس الصعداء ، ذلك أنه الآن والغناء ـ ذلك الغناء الذي تؤدية المجموعة صافياً كرنين الأجراس يفعم الهواء ، كان قلبه ينقبض ويستحوذ عليه هناء يكاد يكون أليماً ـ ليلة عيد الميلاد ... التي ينفذ فيها نفح شجرة العيد من شقوق الباب العالي ذي المصراعين المدهون باللاكية الأبيض ، الموصد بإحكام وينبه ببهاره الحلو تصوره للعجائب الموجودة هناك في القاعة والتي ينتظرها كل عام من جديد بنبض يدق كأنها شيء فخم بعيد المنال لاتخرجه هذه الأرض... فما الذي أعد له هناك في داخل القاعة ؟ ماتشتهي نفسه بطبيعة الحال ، ذلك أنه يناله من دون سؤال ، مادام أن أحداً لم يقل له من قبل أن هذا محال . إن المسرح هو مايسترعي انتباهه في الحال ومايجب أن يرشده الى مكانه ، مسرح العرائس المشتهى الذي كان مؤشراً عليه في أول قائمة الرغبات المرفوعة الى الجدة . وقد ظل هذا هو الشيء الوحيد الذي جال بخاطره منذ «فيديليو»(١) .

أجل لقد زار هانو المسرح لأول مرة أخيراً تعويضاً له ومكافأة عن زياراته للسيد

---

(١) كابوس ليلي .

برشت ، زار مسرح المدينة حيث جاز له أن يتابع « فيديليو » ألحاناً وحوادث ، كاتماً أنفاسه ، جالساً في الصف الأول الى جانب أمه . من ذلك الحين لم يعد يحلم بشيء سوى مناظر الأوبرا ، وأفعمت نفسه هوى للمسرح الذي لم يدعه يذوق طعم النوم . وقد كان يتأمل الناس في الشارع وحسده إياهم لايدركه تعبير ، الناس الذين اعتادوا غشيان المسرح كعمه كريستيان وأمثال القنصل دولمان والسمسار جوش ، فهل كان ارتيادهم إياه في كل مساء وشهودهم للمسرح مما يحتمل هناؤه ؟ لود أن يلقي ولو مرة في الاسبوع نظرة على القاعة قبل رفع الستار ويسمع اصلاح الآلات ويتأمل الستارة المسدلة بعض الوقت! ذلك أنه كان يحب كل شيء في المسرح : رائحة الغاز والحرارة والموسيقيين والستارة .

هل يكون مسرح دماه كبيراً ؟ عريضاً ؟ وكيف يكون منظر الستارة ؟ يجب أن يكون بها ثقب صغير بأقرب مما يستطاع ، لأنه أيضاً في مسرح المدينة ثقب للاستطلاع... فهل وجدت جدته أو الآنسة سيڤيرين المناظر اللازمة لأوبرا «فيديليو» ؟ ذلك أن جدته لايمكن أن تعد كل شيء . سيعتكف غداً من فوره في مكان ما ويعرض التمثيل وحده من دون مساعد... وقد جعل أشخاصه تغني في ذهنه ، إذ أن الموسيقى عنده مرتبطة في الحال بالمسرح أوثق ارتباط... وختمت مجموعة الغلمان بغنائها : «هللي عالياً ياأورشليم! » والتقت الأصوات المتواصلة في المقطع الأخير في سلام وحبور ، وتلاشى الإئتلاف الواضح ، ورنق السكون العميق على بهو الأعمدة وحجرة المناظر الطبيعية ، وأطرق أعضاء الأسرة تحت وقر الاستراحة ، إلا المدير ڤاينشنك الذي كانت عيناه تجولان فيما حوله بلا خجل وفي جرأة ، ومدام بيرمانيدر التي كانت تتنحنح نحنحة جافة لم يكن سبيل الى كبحها . لكن القنصلة سارت متئدة الى المائدة واتّخذت مجلسها وسط ذويها على الأريكة التي لم تعد كما كانت في سالف الزمان منفردة منفصلة عن المائدة . وقد أصلحت من شأن المصباح ، وسحبت الانجيل الكبير الذي كان سطحه المذهب المحفور ، المصفر من الأيام ، عريضاً هائلاً . ثمّ وضعت النظارة على أنفها وفتحت كلا المقفلين الجلديين اللذين يقفلان الكتاب الضخم ، وفتحت الصفحة التي تميزها العلامة فظهر الورق السميك الخشن المصفر مطبوعاً بأحرف ضخمة ، وتناولت جرعة من ماء السكر وشرعت تتلو فصل عيد الميلاد .

تلت العبارات المألوفة من قديم في تؤدة وتوكيد بسيط يأخذ بمجامع القلوب ، وبصوت يتباين وضوحه وتأثره وحبوره مع السكون العامر بالتقوى .

قالت : «في الناس المسرة» لكنها لم تكد تسكت حتى رنّ من بهو الأعمدة ثلاثي

يقول : «أيتها الليلة الساكنة ، أيتها الليلة المقدسة» فاشتركت فيه الأسرة المجتمعة في حجرة المناظر الطبيعية ، وكانت في هذه المشاركة تجاوز بعض الشيء . إذ كان معظم الحاضرين لايستمتعون بموهبة من الناحية الموسيقية وكانت تند عن المجموعة هنا وهنا نغمة عميقة مباشرة... غير أن هذا لم يضر ماكان للنشيد من وقع... فقد أنشدته مدام بيرمانيدر بشفتين مرتعشتين إذا كان أحلى وآلم أثرا في قلب من كان يخلف وراءه حياة مضطربة ويتأمل ماضيه ساعة الاحتفال الوجيز الأمد في سلام... وكانت مدام كتيلزن تبكي في صمت بكاء مراً وإن كانت لم تسمع شيئاً تقريباً من بينهم جميعاً .

ونهضت القنصلة وتناولت يد حفيدها يوهان وحفيدتها الصغرى اليصابات واخترقت بهما الحجرة فانضم اليها المسنون من السادة والسيدات وتبعهم من هم أصغر سناً ـ . وكان الخدم واليهم الفقراء الذين يحسن البيت اليهم مجتمعين في بهو الأعمدة ، وبينما يغني الكل «ياشجرة الميلاد» بصوت واحد والعم كريستيان هناك في المقدمة يُضحك الأطفال وهو يرفع ساقيه كالدمية أثناء سير الموكب ويغني «ياشجرة الميلاد» في عناء ، خرج الناس وقد بهرت أبصارهم وعلا الابتسام وجوههم ، الى السماء مباشرة من الباب العالي المفتوح على مصراعيه .

وكانت القاعة بأكملها وهي تتضوع بنفخ بعض الأغصان المحترقة تضيء وتتلألأ بما لايحصى من اللهب الصغيرة ، وكانت زرقة السماء التي اتخذها توريق الحيطان المزدان بتماثيل الآلهة البيضاء تجعل المكان الرحب أسطع مما هو ، وكانت اللهب المندلعة من الشموع التي كانت تغطي شجرة الميلاد الهائلة القائمة هناك في المؤخرة بين النوافذ المسدلة عليها ستائر داكنة الحمرة ، تتلألأ في فيض الضوء العام كالنجوم البعيدة ، وشجرة الميلاد المزدانة بالبهرج الفضي والزنبق الكبير الأبيض ، وبملك يبرق فوق أعاليها ، ومنظر مزود قائم عند سفحها ، سامقة تكاد تصل الى السقف وعلى المائدة المفروشة بالقماش الأبيض الممتد طولاً وعرضاً من النوافذ الى الباب تقريباً محملة بالهدايا ـ صف من الشجيرات المحملة بالحلوى تشع بالمثل بضوء شمعات تحترق . وكانت أذرع الغاز تضيء فوق الشمعدانات المذهبة في جميع الأركان الأربعة ، وعلى أرض الغرفة أشياء كبيرة ، هدايا لم يوجد لها مكان فوق المائدة ، قائمة بعضها الى جانب بعض ، وموائد صغرى مفروشة بالمثل بالقماش الأبيض ومحملة بالعطايا ومزدانة بالأشجار المضيئة موجودة على جانبي البابين : هدايا للخدم وللفقراء الذين يلوذون بأهل البيت...

وطافوا بالقاعة يغنون وقد بهرت أبصارهم وغابت عنهم معالم المكان المألوف من قديم ، ومروا في طوافهم بالمزود يعرض تمثالاً ليسوع الطفل مجبولاً من الشمع وكأنه يرسم علامة الصليب فوقفوا عنده خاشعين بعد أن ألقوا نظرة على الأشياء واحد بعد الآخر .

وقد اختلط الأمر على هانو كل الاختلاط فلم يلبث بعد الدخول في البهو أن ألمت عيناه الباحثتان المتلهفتان بالمسرح... مسرح بدا في ضوء ماكان فوق المائدة هناك ، متناهياً في الحجم ، متناهياً في العرض كما لم يطمع أن يتصور . بيد أن مكانه كان قد تغير ، وقد وجده في موضع يقابل ذلك الذي كان في العام الماضي . وكان من أثر ذلك أن هانو ساوره في عجبه شك جدي في أن يكون هذا المسرح العظيم مخصصاً له . زد على ذلك أنه كان على الأرض تحت حافة الخشبة شيء كبير غريب قائماً ، شيء لم يكن في قائمته ما اشتهى ـ قطعة من الأثاث ، شيء يشبه مائدة الليل (الكومودينو)... فهل كان له ؟

وقالت القنصلة وقد رفعت الغطاء : «تعال يابني وانظر الى هذا! إني أعلم أنك تحب عزف الأناشيد... سيمدك السيد بفيل بالإرشادات اللازمة... ولابد من الوطء بخفة أحياناً وبقوة أخرى... ولايرفع المرء يديه بل يظل يبدل أصابعه قليلاً ...»

كان مارأى هارمونيوم . هارمونيوم صغيراً جميلاً مصقولاً باللون البني ، ذا مقابض من المعدن على جانبيه ، ومنافيخ ملونة تضغط ، وكرسي أنيق يلف . وضغط هانو ائتلافاً ، فرن صوت رقيق كالذي يصدر عن الأرغن جعل الواقفين من حوله يرفعون أبصارهم عن الهدايا... وعانق هانو جدته التي احتضنته ثم تركته لتتلقى شكر الآخرين .

وتحول الى المسرح ، وكان الهارمونيوم حلماً طاغياً ، لكنه لم يكن لديه في بادىء الأمر وقت للاشتغال به أكثر ، لقد كان الهناء الغامر الذي لايأبه فيه المرء لشيء فردي فيمر بكل شيء خطفاً فحسب كيما يتعلم مرة أن يلم بكل شيء... أوه! إن هذا مكمن الملقن على مثال المحارة ترتفع خلف الستارة العريضة فخمة حمراء مزخرفة . وكان المسرح يعرض مناظر الفصل الأخير من «فيديليو» ، والأسرى المساكين شابكي الأيدي ، ودون فيجارو بأكمامه البالغة الانتفاخ يترقب في مكان ما موقف مخيف ، والوزير يقترب من الخلف في خطى سريعة ، مرتدياً مخملاً أسود يستره كله ، ويسعى الى إصلاح كل شيء . وكان هذا المنظر شبيهاً بما يعرضه مسرح المدينة ، ولعله كان

أجمل ، وكانت أذن هانو ترجع هتاف المجموعة والختام فجلس الى الهارمونيوم ليعزف قطعة من ذلك كان يحفظها... لكنه عاد فوقف ليتناول الكتاب ، كتاب الأساطير اليونانية المشتهى الذي كان مجلداً كله بالأحمر يحمل على جلدته رسماً ذهبياً لبالاس أثينا . وأكل من طبقه الغاص بالحلوى واللوزية والفطائر السمراء ، وعاين الأشياء الصغرى كأدوات الكتابة وكراسات المدرسة ، وأنساه لحظة كل شيء آخر قلم حبر عليه حبة دقيقة من الزجاج في مكان ما ، حسب المرء أن يرفعه أمام نظره ليشهد أمامه شيئاً كأنه السحر ، منظراً طبيعياً سويسرياً مترامياً...

وطافت الآن الآنسة سيڤيرين والفتاة التابعة بالشاي والبسكويت ، وبينما يتناول هانو من هذا ، أتيح له بعض الوقت أن يرفع بصره . وكان الحضور يقفون بالمائدة أو يسيرون جيئة وذهاباً يتحادثون ويضحكون ، يرى بعضهم بعضاً هدايا ويعجب بهدايا الآخرين . وكانت هناك أشياء من كل مادة : من البورسلين والنيكل والفضة والذهب والخشب والحرير والجوخ وفطائر كبيرة سمراء مرقشة باللوز ترقيشاً منظماً تقابلها أقراص ضخمة من اللوزية طرية دائماً لأنها طازجة تؤلف على المائدة صفاً طويلاً . وكانت الهدايا التي أعدتها مدام بيرمانيدر أو زخرفتها وهي كيس لأدوات الشغل وحمالة للنبات الورقي ، وحشية للأقدام ، مزدانة بشرائط كبيرة من الأطلس .

وكان الحاضرون يقصدون الى يوهان الصغير بين الحين والحين ، ويطوقون بنيقة البحارة بأذرعهم ، ويعاينون هداياه معجبين إعجاباً مشوباً بالاستخفاف الذي اعتاد الناس أن يرعوا به عجائب الأطفال . اللهم إلا العم كريستيان الذي لم يكن على شيء من هذه الغطرسة ـ غطرسة الكبار . فقد كان سروره بمسرح الدمى وهو يتسكع عابرا بمكان هانو ، حاملاً في اصبعه خاتماً ماسياً أهدته إليه أمه لايختلف إطلاقاً عن سرور ابن أخيه به .

قال : «يا للشيطان! إنه لمضحك!» وجعل يرفع الستارة وينزلها ويتراجع خطوة الى الوراء ليتأمل المنظر ، ثمّ استطرد فجأة يقول : «هل كانت هذه رغبتك ؟ ـ إذن كنت ترغب في هذا!» قالها بعد أن أجال بصره في جد غريب نهباً لأفكار «قلقة» .

قال : «لماذا ؟ كيف خطر لك هذا الخاطر ؟ هل ارتدت مسرحاً مرة ؟... أشهدت «فيديليو» ؟ أجل . إنها تمثل تمثيلاً حسناً... وتريد الآن أن تقلد ذلك ، كيف ؟ تقلده وتمثل الأوبرات بنفسك ؟... أكان للأوبرا هذا الوقع من نفسك ؟... اسمع يابني ، إني أنصح لك بألا تعلق فكرك بهذه الأشياء أكثر مما يجب... مسرح... ومثل هذا... إن هذا لايصلح

لشيء ، صدّق عمك . لقد شغلت نفسي بهذه الأشياء أكثر مما ينبغي ، ومن ثم لم أفلح في كثير... لقد ارتكبت أخطاء كبيرة ، يجب أن تعرف...»

كان يحاضر ابن أخيه في هذا جاداً ملحاً ، بينما كان هانو يرفع بصره اليه مستطلعاً ، ومع ذلك ، وبعد فترة ، كان وجه عمه الأعجف المترهل في خلالها يتهلل ، حرك فجأة شخصاً على خشبة المسرح ودفعه إلى الأمام ، ثمّ غنى بصوت أجوف يهتز ، يشبه نعيق الغراب : «ها ياله من جرم شنيع! » ثمّ رفع كرسي الهارمونيوم الى أمام المسرح وجلس فوقه ، وبدأ يعرض إحدى الأوبرات مغنياً ، ممثلاً ، مبادلاً بين حركات مدير الجوقة وأشخاص الممثلين . وتجمع من خلفه عدة أعضاء من الأسرة يضحكون ، ويهزون رؤوسهم ، ويتسرون . أما هانو فكان يرعاه في غبطة خالصة . لكنه بعد برهة ، وبشكل مفاجئ تماماً ، كف كريستيان . صمت وعلى وجهه سيماء الجد البادي الاضطراب ، وأمر يده على رأسه وعلى جنبه الأيسر ، والتفت بأنف منكمش ، وملامح تنضح بالهم ، الى الجمهور .

«نعم ، أترون ؟ هاهو ذا الألم يعود ثانية الآن . يعاودني العقاب ويثأر مني بمجرد أن أسمح لنفسي بشيء من الهزر . إنه ليس ألماً كما تعلمون ، إنه عذاب ، عذاب لايدرك كنهه لأن الأعصاب هنا كلها قصيرة ، إنها بكل بساطة أقصر مما يجب...»

بيد أن الأقارب لم يكترثوا لشكاواه كما لم يكترثوا لهزره ، وقل منهم من رد عليها وتفرقوا غير عابئين . وهكذا ظل كريستيان عندئذ جالساً برهة ، صامتاً أمام المسرح يتأمله بطرفات سريعة وهو نهب للأفكار ، ثمّ نهض .

وقال وهو يمسح على شعر هانو : «حسناً يابني . تسل به ، لكن لاتنشغل أكثر مما يجب... ولاتنس به أعمالك الجادة . أتسمعني ؟ لقد ارتكبت أنا أخطاء كثيرة... والآن أريد الذهاب الى المنتدى...» وصاح بالكبار : إني ذاهب قليلاً الى المنتدى... فهناك يحتفلون أيضاً بعيد الميلاد ، فإلى اللقاء . وخرج بساقيه اليابستين المقوستين مخترقاً بهو الأعمدة .

كان الجميع قد تناولوا طعام الغداء أبكر من المعتاد ، ومن ثم أخذوا من الشاي والبسكويت قدراً كبيراً ، لكنهم لم يكادوا يفرغون منه حتى أديرت عليهم صحفة كبيرة من البلور مليئة بعصيدة صفراء هي قشدة لوز . وكانت عبارة عن مزيج من البيض واللوز المسحوق وماء الورد ، طيبة المذاق ، لكنه إذا تناول المرء منها ملعقة صغيرة فوق ماينبغي له سببت لمعدته أشد الألم . ومع ذلك ، ومع أن القنصلة رجت أن يترك منها شيء قليل

لوجبة العشاء فإن أحداً لم يضغط على نفسه أو يضبطها . فأما كلوتيده فقد أتت بالعجائب . فكانت تغترف قشدة اللوز كما لو كانت حنطة مقشورة . وقدم كمرطب هلام من النبيذ في أقداح من الزجاج كان يؤكل معه كعك انجليزي مرشوش بالبرقوق . وانسحبوا قليلاً قليلاً الى حجرة المناظر الطبيعية وتجمعوا بالأطباق من حول المائدة .

وبقي هانو في القاعة وحده ، ذلك أنهم كانوا قد ذهبوا بالصغيرة اليصابات ڤاينشنك الى البيت بينما سمح له هو بالبقاء لأول مرة لتناول طعام العشاء في شارع منج ، وكان خدم البيت وفقراؤه قد انسحبوا بهداياهم ، وايدا يونجمان تتحادث في بهو الأعمدة مع ريشكن سيڤيرين وإن كانت بوصفها مربية قد كانت تستبقي الفتاة على مبعدة منها وتتحفظ معها في العادة تحفظاً اجتماعياً صارماً . وقد ذابت شموع الشجرة الكبيرة وانطفأت بحيث طوى المزود الظلام . لكن بضع شموع على شجيرات كانت ماتزال تضيء على المائدة وبين الحين والحين يقع غصن طعمه لهيب ما ، فيشيط مطقطقاً ، ويقوي العبير المنتشر في القاعة . وكانت كل نسمة تمر بالأشجار تتساقط منها قطع الشرئط الذهبية المعلقة بها فيسمع لها هسهسة معدنية رقيقة . وعاد السكون الكافي لسماع عزف الأرغن الدوار الذي كان يتناهى من شارع بعيد يتخلل المساء المقرور .

واستمتع هانو بروائح عيد الميلاد وأصواته في شغف ، وقرأ وهو يعتمد رأسه في يده في كتاب الأساطير ، وأكل بصورة آلية ، ولأنه من بين من حق لهم الأكل ، أكل من الفاكهة المطبوخة واللوزية وقشدة اللوز وكعك البرقوق ، وامتزج عنده الضيق الذي سببته المعدة المتخمة بالإبتهاج الحلو الذي أحدثه المساء فكان منهما شعور أسى بالسعادة . قرأ عن المعارك التي خاضها زيوس ليفوز بالسيادة ، وكان ينصت بين آن وآخر لحظة الى مايدور في حجرة الجلوس من بحث مستفيض في مستقبل العمة كلوتيلده .

وكانت كلوتيلده أسعدهم جميعاً في هذا المساء بلا مراء ، تتلقى من كل النواحي التهاني وتتعرض للإغاظات على السواء وتقابلها بابتسام يتهلل منه وجهها المتّسم بلون الرماد ، وكان صوتها يتقطع أثناء الكلام غبطة . وقد قبلت في دير يوحنا . وانتزع السناتور هذا القبول من مجلس الإدارة خلسة ، وإن كان بعض السادة تذمروا سراً من محسوبية الأقارب . وقد دار الحديث حول هذه المؤسسة المحمودة التي تطابق أديرة النساء النبيلات في ميكلنبورغ وروبرت هين وريبنتس ، وترمي الى إعالة المعدمات من الفتيات المتقدمات في السن المنتميات الى أسر كريمة قديمة بما يحفظ عليهن كرامتهن . وقد ساعدوا

كلوتيلده الفقيرة على أن يكون لها ايراد صغير لكنه مضمون ، إيراد يزداد مع الأيام ويضمن لها في نفس الدير مسكناً هادئاً نظيفاً إذا مابلغت أعلى درجة بين المستحقات وطعنت في السن...

وتلبث يوهان الصغير برهة عند الكبار ثمّ عاد الى القاعة التي كانت لها وقد خف ماترسلة من الضوء ولم تعد في روعتها تثير الرهبة والعجب كما كانت من قبل ، فتنة من نوع جديد . فقد كان ما يثير فيه غبطة غريبة كل الغرابة أن يجوب أطرافها كأنه في مسرح بعد ختام الرواية ويستطلع قليلاً وراء الكواليس ، ويتأمل عن كثب زنبق شجرة الميلاد الضخمة والإنسان ، ويهتدي الى الشموع التي كانت تضيء النجم الشفاف السابح فوق اسطبل بيت لحم ، ويرفع مفرش المائدة المتدلي ليكشف عن الكمية الكبيرة المختزنة من الورق المقوى تحت المائدة .

وخفت أيضاً جاذبية الحديث الذي كان يدور في حجرة المناظر الطبيعية رويداً رويداً وتحول تدريجياً الى تلك المسألة المتعبة التي سكتوا عنها الى الآن تكريماً للمساء المحتفل به ، لكنها مع ذلك لم تكف لحظة عن أن تشغل بالهم جميعاً : تلك هي قضية المدير ڤاينشنك . وهوجو ڤاينشنك نفسه لم يفته أن يلقي عنها محاضرة فاضت لها ملامحه وحركاته بشراً جارفاً فروى تفاصيل شهادات الشهود التي اعترضها العيد ، وأنحى باللائمة الشديدة على تحامل الرئيس الدكتور فيلاندر بصورة ملحوظة وسخر في كبرياء من لهجة الاستهزاء التي رأى وكيل النائب العام ، الدكتور هاجنشتروم أن يستعملها معه ومع شهود النفي . هذا الى مافنده برسلاو من أقوال شهود الإثبات بألمعية فائقة ، وماأكده له من أن لامعنى في الآونة الراهنة للتفكير في صدور حكم عليه ـ وكان السناتور يوجه هنا وهنا سؤالاً ما تأدباً منه ، ومدام بيرمانيدر التي كانت تجلس على الأريكة رافعة كتفيها ، تتمتم أحياناً لعنة فظيعة تصبها على موريتس هاجنشتروم . أما الباقون فكانوا صامتين ، وكان صمتهم عميقاً الى حد أن المدير كذلك لم يلبث أن كف عن الكلام . وبينما كان الوقت يمر هناك في القاعة بالصغير هانو سريعاً كما يمر في ملكوت السماء ، كان يرنق على حجرة المناظر الطبيعية سكون مرهق مقبض يعروه الخوف ، استمر بعد ذلك أيضاً لما آب كريستيان في التاسعة من المنتدى من حفلة عيد الميلاد التي أقامها الأعازب والمستهترون .

كان بين شفتي كريستيان عقب سيجار بارد ، وكان خداه الأعجفان محمرين فجاء

يخترق القاعة ويقول عندما دخل حجرة المناظر الطبيعية : « إن القاعة يا جماعة بديعة بلا ريب! ڤاينشنك! كنا خلقاء أن نحضر اليوم برسلاو معنا ، فإنه على التحقيق لم يشهد مثل هذا بعد ... »

فسددت اليه القنصلة نظرة هادئة شزراء تريد تأديبه ، فرد عليها بسيماء المتسائل الجريء الذي يعز عليه الفهم - وفي التاسعة قاموا الى تناول العشاء .

وقد مدت المائدة ككل سنة في مثل هذا اليوم في بهو الأعمدة وتلت القنصلة صلاة المأدبة في عبرة صادقة من القلب :

« أيها السيد المسيح تعال وكن ضيفنا

وبارك ماوهبتنا »

وختمتها بخطاب وجيز حثّت فيه على الأخص على تذكر كل أولئك الذين لم يمن الله عليهم هذا المساء بما منّ على أسرة بودنبروك..ولما انتهت جلسوا راضي النفس الى وجبة مديدة بدأت بسمك الشبوط الراقد في الزبد المذاب ونبيذ معتق من نبيذ الراين .

وقد نثر السناتور بضع حراشف من السمك الى كيس نقوده كيلا تنفد منه النقود طيلة العام . بيد أن كريستيان لاحظ متكدراً أن هذا لايجدي ، ولم يحتج القنصل كروجر الى مثل هذه التعويذات إذ لم يكن ثم مايخشاه من تقلبات سوق الأوراق المالية ، وأنه بالشلن ونصف الشلن اللذين يتبرك بهما آمن من زمن طويل . وكان السيد المسن يجلس بعيداً من زوجه على قدر الإمكان فهو الذي لم يوجه اليها من سنين وأيام كلمة واحدة لأنها لم تكف عن موافاة يعقوب المحروم من الميراث بالمال في الخفاء . وكان يعيش في لندن أو باريس أو أمريكا ، أو حيث لايعرف سواها ويحيا حياة مفككة . وقد قطب جبينه وقطب وجهه لما أنتقل الحديث في الدور الثاني الى أعضاء الأسرة الغائبين ، ورأى كيف تجفف الأم الضعيفة دمعها . وقد ذكروا من هم في فرانكفورت ومن في هامبورغ ، وتذكر الأب تيبورتيوس في ريجا من دون أن يحملوا له ضغناً ، وقارع السناتور أخته توني الكأس في سكون تام ، شارباً نخب جرينليش وبيرمانيدر اللذين يعدان بمعنى ما في جملة الغائبين .

وأثنى الجميع على دجاجة رومية محشوة بمزيج من أبي فروة والزبيب والتفاح . وقد قورن بينها وبين ألوان منها قدمت في سنوات سابقة فكانت نتيجة المقابلة أنها أعظم ماأعد منذ أمد طويل . وقدم بطاطس محمر وصنفان من الخضر وآخران من الفاكهة المطبوخة .

وكانت الصحاف المدارة تحتوي أنصبة كاملة كأن الأمر عند كل فرد لايعني قطعة إضافية أو ملحقاً بل يتعلق بصنف أساسي ينبغي أن يمتلىء منه الجميع ويشبعوا... وقد احتسوا نبيذاً أحمر معتقاً من نبيذ مولندروف .

وجلس يوهان الصغير بين أبويه وحشر جاهداً قطعة بيضاء من لحم الصدر في معدته الى جانب الحشو ولم يستطع أن يأكل بمقدار ماأكلت العمة تيلده ، بل أحس التعب وأنه متوعك . وكان ماأهمه أنه كان مزهواً بالسماح له بالأكل مع الكبار ، وأنه كان على فوطته المطوية طياً ينم عن الفن رغيف من الأرغفة المعجونة باللبن المرشوشة بالشمر ، وأنه كانت أمامه أيضاً ثلاثة أقداح للنبيذ ، بينما هو لايشرب في غير المناسبات إلا من قدح ذهبي صغير أهداه اليه أبوه بالتعميد الخال كروجر . لكنه لما ظهرت بعدئذ المثلجات الحمراء والبيضاء والبنية والخال يوستوس يصب في الأقداح الصغرى نبيذاً يونانياً أصفر بلون الزيت ، تحركت شهيته من جديد ، فالتهم مثلجة حمراء ثمّ نصف مثلجة بيضاء ، وإن كان هذا قد آلم أسنانه ألماً يكاد لايطاق . ثمّ مد يده أخيراً الى البنية المحشوة بالشكولاته فتناول منها قطعة للتجربة ، وقرقش رقاقاً اليها ، وارتشف من النبيذ الحلو ، وأصغى الى العم كريستيان الذي كان قد أخذ في الكلام .

قص عن احتفال عيد الميلاد الذي أقيم في المنتدى وكان على قوله غاية في المرح ، وقال بتلك اللهجة التي ألف أن يتحدث بها عن جوني ثندرستورم : « ياإلهي! كان الأخوان يجرعون من البونش السويدي كما يحتسون الماء!! »

ولاحظت القنصلة في إيجاز قائلة : « خسئاً » وغضت بصرها .

لكنه لم يلتفت الى ذلك ، بل أخذت عيناه تجولان ، وأفكاره وذكرياته تبعث فيه وتخطف على وجهه النحيل الظلال .

وسأل : « أمنكم من يعرف ماذا يكون لو شرب أحدكم أكثر مما ينبغي من البونش السويدي ؟ إني لست أعني السكر ، ولكن ذلك الذي يأتي في اليوم التالي ، العواقب... إنها غريبة ووخيمة... أجل غريبة ووخيمة في وقت واحد » .

فقال السناتور : « سبب كاف لوصفها بالدقة » .

وقالت القنصلة : « كفى ياكريستيان ، إن هذا لايهمنا في قليل أو كثير » .

لكنه لم يأبه... فقد كان من غرائبه إلا يكترث في مثل هذه اللحظات لأي اعتراض فسكت برهة ثم بدا بغتة أن ذلك الذي كان يحركه قد بات معداً للقول .

فقال وهو يلتفت الى أخيه متغضن الأنف : «إنك تلف وتشعر بالغثيان والصداع وإن أمعاءك ليست على مايرام... ومع ذلك فمثل هذا يقع في مناسبات أخرى . لكنك تشعر بأنك قذر» . ودعك كريستيان يديه وقطب وجهه إمارة التقزّز . «تشعر بأنك قذر لم تغتسل في جسمك كله ، فتغسل يديك عبثاً وتحسها رطبة غير نظيفة وتشعر على أظافرك بالدهن ، فتستحم بلا طائل ، ويبدو لك جسمك كله لزجاً غير نقي ، ويضايقك جسمك كله ، وتشمئز منه . أو تعرف هذا ياتوماس ، أتعرفه ؟»

فقال السناتور بحركة ناهية : «أجل ، أجل» . لكن كريستيان مضى في كلامه بتلك الجلافة الغريبة التي لم تزدد مع الأيام إلا بروزاً فيه ، والتي أعمته عن أن يرى أن هذا الشرح قد آلم الجالسين على المائدة عن بكرة أبيهم ، وأنه في هذه البيئة وهذا المساء لم يكن في موضعه . ومضى يصف الحالة السيئة التي يتعرض لها من يسرف في احتساء البونش السويدي حتى اعتقد أنه قد وفاها حقها من التشخيص فلاذ بالصمت شيئاً فشيئاً .

وقبل أن ينتقلوا الى الزبد والجبن عاودت القنصلة الخطاب موجهة إياه الى ذويها فقالت : «إذا لم يكن كل شيء قد اتّخذ على مر السنين الشكل الذي تمناه كل قصير النظر أخرق ، فقد تبقى على كل حال ماهو فوق الكفاء من البركة البينة لتفعم القلوب حمداً لله وشكراً . وتبدل الهناء والشقاء لما يدل في ذاته على أن الله لم يرفع يده عن الأسرة قط وأنه سدد خطاها ويسددها نحو نيات عميقة حكيمة لايجوز للمرء أن يتجاسر فيحاول سبر غورها قلقاً . والآن لنتقارع في وفاق بقلوب ملؤها الرجاء ولنشرب نخب الأسرة ومستقبلها ، ذلك المستقبل الذي سيحل حين يكون الشيوخ وكبار السن من بين الحاضرين قد ووروا التراب البليل... لنشرب نخب الأطفال الذين يخصهم في الحقيقة والواقع احتفال اليوم...»

ولما كانت طفلة المديرڤاينشنك قد انصرفت فقد وجب على الصغير يوهان ، والكبار يشربون أنخاب بعضهم بعضاً ، أن يطوف وحده من حول المائدة ليقارع الجميع من جدته الى الآنسة سيڤيرين فنازلاً . فلمّا وصل الى والده رفع السناتور وكان يدني كأسه من كأس هانو ، ذقن أبيه في رقة لينظر في عينيه... لكنه لم يجد له نظرة ، ذلك أن أهداب هانو الطويلة العسلية كانت مرخاة عميقة تصل الى الهالة الزرقاء الرقيقة المحيطة بعينيه .

على أن تيريزه ڤيشبروت اعتمدت رأسه بين يديها وقبلته على كل وجنة قبلة مفرقعة خافتة وقالت في توكيد قلبي الى حد أن الله تركها مع الطفل وشأنها : «لتكن من أبناء السعادة أيها الطفل الطيب! »

وبعد ساعة كان هانو في فراشه القائم الآن في الغرفة التي يدخل اليها من طرقة الطابق الثاني والتي تلاصق عن اليسار حجرة لبس السناتور . كان مستلقياً على ظهره مراعاة لمعدته التي لم يوافقها بحال كل ما اضطر الى تناوله في المساء ، ناظراً الى ايدا الطيبة بعينين مقرّحتين ، وكانت قد جاءت من حجرتها في سترتها الليلية تحمل قدحاً من الماء ترسم به في الهواء حركات دائرية كمن يقلب شيئاً . فتجرع منه نترون بيكاربونات الصودا مسرعاً وقطب وجهه ثم ارتمى ثانية على الفراش .

قال : «أعتقد أني يجب أن أستسلم كل الاستسلام يا ايدا » .

«ماذا تقول ياصغيري . استلق فقط على ظهرك في سكون... لكن أرأيت ؟ من الذي أشار عليك مراراً ، ومن الذي لم يرد الانصياع ؟ إنه صغيري... »

«أجل ، أجل . لكن لعل العاقبة تكون سليمة... متى تأتي الأشياء يا ايدا ؟ »

«غداً صباحاً ياصغيري... »

«وتوضع لي هنا! وتكون لي على الفور! »

«حسناً ياهانو الصغير! لكن يجب أن تأخذ قسطك من النوم كاملاً » . وقبلته وأطفأت النور وانصرفت .

لقد بقي وحده . وبينما قد أسلم نفسه ، وهو مستلق في سكون ، الى تأثير النترون الطيب تجلت لعينيه المغمضتين بهجة قاعة الهدايا من جديد ، فرأى مسرحه وهارمونيته وكتاب أساطيره ، وسمع من مكان ما عن بعد : «هللي عالياً ياأورشليم! » تنشده جماعة الغلمان . كان كل شيء ساطعاً وكانت حمى فاترة تطن في رأسه وقلبه الذي تولاه من المعدة المتمردة شيء من الضيق وداخله شيء من الخوف يخفق في بطء وشدة ويدق في غير انتظام . في هذه الحالة من التوعك والإنفعال والضيق والتعب والهناء رقد هانو طويلاً لكنه لم يستطع النوم .

وفي غد حلّ المساء الثالث لعيد الميلاد ودور تقديم الهدايا عند تيريزة ڤيشبروت فسر به كما يسر من لعبة صغيرة مضحكة . وكانت تيريزه ڤيشبروت قد تخلت في العام الماضي عن مثواها كل التخلي بحيث تشغل الآن مدام كتيلزن الطابق الأول وحدها وتشغل

هي الطبقة الأرضية من البيت الصغير الكائن في ميلنبرك وحدها أيضاً . وقد ازداد مع الأيام ماتشكو منه وماسببه لها جسمها المرزوء العليل ، وفرضت زيزيمي ڤيشبروت وهي في منتهى الرضى والاستعداد المسيحي أن الأجل قد دنا . ومن ثم كانت منذ عدة سنين تعد كل احتفال بعيد الميلاد آخر احتفال تشهده ، فلم تن عن اكساب الاحتفال الذي تقيمه في غرفها الصغيرة التي تسرف في تدفئتها مايسع قواها الضئيلة أن توفره من بهاء . ولما كانت عاجزة عن شراء الكثير فقد كانت تقدم في كل عام على سبيل الهدية جانباً آخر مما تحوزه من أشياء متواضعة ، وتقيم تحت الشجرة مايمكنها أن تستغني عنه من زخارف فحسب ، وثقالات ورق ، وحشايا ابر ، وزهريات من الزجاج ونتف من مكتبتها هي كتب قديمة في أحجام وجلدات مضحكة مثل «يوميات سرية لمراقب لذاته» وقصائد ألمانية لهيبل و«مجازات كرومماخر»... وفي حوزة هانو منها طبعة «لأفكار بليز باسكال» يبلغ من صغرها أنه يتعذر القراءة فيها من دون نظارة مكبرة .

أما شراب «الأسقف» فكانت منه مقادير لاتنضب وكانت الفطائر السمراء المعدة مع انجفر طيبة المذاق الى درجة هائلة . لكنه لم يقع قط أن مر مثل هذا المساء من دون أن تحدث مفاجأة أو يقع مصاب أو تحل كارثة ما صغيرة تثير ضحك الضيوف وتزيد ربة البيت حمية وهي حمية صادقة ، والفضل فيما يقع يرجع الى التفاني والتوثب اللذين كانت الآنسة فيشبرون تبديها في كل مرة وفي الاحتفال الأخير لعيد الميلاد ، فيسقط ابريق مليء «بالأسقف» ويغمر كل شيء بالشراب الأحمر الحلو المتوبل... أو تطيح الشجرة المزوقة عن قوائمها الخشبية في نفس اللحظة التي يدخل فيها الضيوف غرفة الهدايا بإحتفال...

وقد رأى هانو في منامه حادث العام الفائت ماثلاً لعينيه ؛ وقد وقع قبيل تقديم الهدايا إذ كانت تيريزه ڤيشبروت تتلو فصل عيد الميلاد في توكيد شديد تبادلت فيه أحرف العلة المتواضع فتراجعت عن ضيوفها الى الباب لتلقى عنده خطاباً وجيزاً . ووقفت على عتبة الباب حدباء ضئيلة الجسم قد وضعت يديها النحيلتين في السن على صدرها الذي يشبه صدور الأطفال ، وتدلت أشرطة قلنسوتها الحريرية الخضراء على كتفيها ، يضيء لها الكلمات عند رأسها مصباح مكلل بأغصان شجرة الميلاد . قالت : «المجد لله في الأعالي!» وتكلمت عن فضل الله وذكرت أن هذا آخر احتفال لها في عيد الميلاد ثم ختمت بحث الجميع بعبارات الرسول على المرح والحبور ، الأمر الذي ارتعشت خلاله ،

إذ بهذا القدر كان جسمها الضئيل يساهم كله في هذا الحث . وكالت برأسها الى جنب وهزّته بعنف وقالت : «افرحوا! ومرة أخرى أقول : افرحوا» بيد أنه في هذه اللحظة التهب الفانوس كله فوقها محدثاً صوتاً يشبه النفخ والنهج والطقطقة فاضطرت الآنسة فيشبروت اتقاء للشرر المنهمر أن تصيح من الذعر صيحة مقتضبة وأن تقفز قفزة ماهرة بديعة لاتخطر ببال .

وقد تذكر هانو هذه الفقرة التي أدتها الآنسة العجوز فجعل يضحك ، واستمر ضحكه عدة دقائق وهو مأخوذ ، منفعل ، ثائر الأعصاب ، متسل في كل هذا . وكان يضحك ضحكاً خافتاً مكتوماً في الوسادة .

الفصل التاسع

كانت مدام بيرمانيدر تسير على امتداد شارع منج مسرعة جداً ، وفي هيئتها مايدل على شيء منحل ، لايشير الى وقارها وجلالها سوى كتفيها ورأسها اشارة عابرة : الوقار الذي كان في العادة يحف بشخصها . وكانت مكروبة متعجلة تسير بأقصى سرعة فلم تستجمع من هذا الوقار سوى القليل مثلها كمثل الملك المهزوم الذي يجر وراءه البقية الباقية من جنده ويركن معها الى الفرار .

مسكينة ، إنها لاتبدو بخير! فشفتها العليا ـ تلك الشفة الناتئة المقوسة التي عاونت من قبل على تجميلها ، كانت ترتعش الآن ، وكانت عيناها تحملقان من الخوف ، تنظران الى الأمام وهما تطرفان طرفاً غريباً وتتجهان بالمثل في استقامة... وكانت تسريحتها تبدو مشوشة تحت قبعتها المقلنسة ومحياها يبدي ذلك اللون الأصفر الباهت الذي يتخذه كلّما ساءت حالة معدتها .

أجل لقد كانت حالة معدتها في هذا الوقت سيئة وأمكن الأسرة أن تلاحظ هذا السوء في أيام الخميس ، فكيف السبيل الى اتقاء الكارثة ؟ ـ لقد جنح الحديث الى قضية ڤاينشنك وكانت مدام بيرمانيدر نفسها توجهه هذه الوجهة لايصرفها عنها صارف ، ثم شرعت تسأل وتنشد الجواب عند الله والناس جميعاً وهي منفعلة أشد الإنفعال : كيف يمكن أن ينام موريتس هاجنشتروم وكيل النائب العام ، أن ينام بالليل نوماً هادئاً ؟ إنها لاتصدق هذا! لايمكنها قط أن تفهمه... . وكانت تزداد عند كل كلمة انفعالاً ، وقال : «أشكركم ، إني لن آكل شيئاً » ونحت كل شيء وهي ترفع كتفيها وتطرح رأسها الى الوراء وتتراجع وحيدة الى قمة غضبها كي لا تتناول غير الجعة الباڤارية الباردة التي اعتادت تناولها منذ عهد زواجها في

ميونيخ ، فتفرغها في معدتها الخاوية التي اضطربت أعصابها فانتقمت لنفسها انتقاماً مريراً ، إذ اضطرت الى النهوض حوالي ختام الوجبة والهبوط الى الحديقة أو الفناء لتعاني هناك أشنع التقيئات مستندة الى ايدا يونجمان أو ريكشن سيڤيرين . وقد لفظت معدتها ماوعته ومضت تتابع تقلصاتها الأليمة وتواصل هذه الحالة التشنجية عدة دقائق . وإذا كانت عاجزة عن لفظ شيء فوق الذي لفظت فقد ظلت طويلاً تتلوى وتتألم...

كانت الساعة الثالثة بعد الظهر . وكان اليوم من يناير عاصفاً مطيراً ، فلمّا بلغت مدام بيرمانيدر زاوية «حفرة السماكين» عرجت وهبطت الشارع المنحدر الى بيت أخيها مسرعة . وبعد دق متواصل دخلت من الرحبة الى مكتبه وأمرّت بصرها عبر الدرج الى مكان السناتور مخترقاً النافذة وأتت من رأسها بحركة تنطق بالتوسل حتى لقد ألقى توماس بودنبروك القلم جانباً ونهض بلا تردد لملاقاتها...

قال وهو يرفع أحد حاجبيه : «خيراً!...»

قالت : «لحظة ياتوماس... أمر عاجل... لايتحمل الإبطاء...»

ففتح لها الباب المنجد الى مكتبه الخاص وسحبه وراءه بعد أن دخل كلاهما ، وتأمل اخته متسائلاً!

قالت بصوت مضطرب وهي تعتصر يديها في دثارهما من الفرو : «توم ، يجب أن تقدمها... أن تعدها مؤقتاً . يجب أن تدفعها ، أرجوك ، الكفالة... فلسنا نملكها... فمن أين نأتي الآن بخمسة وعشرين ألف مارك ؟... ستستردها كاملة غير منقوصة... وفي أقرب فرصة... فأنت مدرك... لقد وقع الأمر بحيث... صفوة القول أن القضية قد بلغت نقطة طلب هاجنشتروم عندها أما القبض في الحال وإما دفع كفالة قدرها خمسة وعشرون ألف مارك . ويعدك ڤاينشنك بشرفه أن يبقى حيث هو فلا يبرح مقامه...»

فقال السناتور وهو يهزّ رأسه : «أوصل الأمر حقاً الى هذا الحد ؟»

قالت : «أجل ، الى هذا أوصله الأوغاد الأشقياء...!» وارتمت ، وهي تنتحب انتحاباً يغمر غضبها ، على المقعد المكسو بالمشمع الذي كان قائماً الى جانبها واستطردت تقول : «وسيدفعون به الى أبعد من ذلك ياتوم ، سيصلون به الى النهاية...»

قال وهو يجلس منحرفاً أمام مكتبه المصنوع من خشب الموغنا ، ويضع ساقاً على ساق ، ويعتمد رأسه في يده : «توني ، قولي صراحة ، أما تزالين تؤمنين ببراءته ؟»

فشهقت مرات ثمّ أجابت في خفوت ويأس : «كلا ياتوم... كيف يسعني ذلك ؟ أنا

بالذات ، أنا التي قدر لها أن تشهد هذا الشر الكثير ؟ إني لم أستطع هذا منذ البداية وإن كنت قد جاهدت بشرف . إن الحياة كما تعلم تجعل من المرء أن يؤمن ببراءة أي انسان... كلا ، لقد ساورتني الشكوك من أمد طويل في راحة ضميره . وايريكا نفسها... لقد حارت في أمره... واعترفت لي بذلك وهي تبكي... حيرها مسلكه في البيت . وقد سكتت بطبيعة الحال... إذ كان مظهره يزداد مع الأيام خشونة ، وكان في غلظته يزداد على الدوام قسوة في الطلب ، كان يطلب أن تكون ايريكا مرحة وأن تسلي عنه همومه ، وكان يحطم الأواني إذا لبثت جادة . إنك لاتعلم كيف كان الحال إذا اختلى في وقت متأخر من المساء ساعات بأوراقه... فإذا دُق عليه الباب سمعنا كيف يثب ويصيح : من هناك! من هناك!...»

ولزما الصمت .

وعاودت مدام بيرمانيدر الكلام ، وهنا انتفخ صوتها وهي تقول : «لكن ليكن أنه مذنب وليكن أنه مجرم ، فإنه لم يعمل لحسابه بل لحساب الشركة . وعندئذ... اللهم غفرانك! إن في هذه الدنيا اعتبارات تجب مراعاتها ياتوم... لقد تزوج منا ، فهو ينتمي الينا... ولن يسعنا أن نلقي بأحد منا في السجن ، أيتها السماء ، رحماك!...»

فهز كتفيه .

«إنك تهزّ كتفيك ياتوم... إذن أنت تريد أن تحتمل الأمر ، أن تطيق تجاسر هذه الحثالة على تطفيح الكيل ؟ يجب أن تفعل شيئاً! لايصح أن يحكم عليه!... . إنك يد المحافظ اليمنى... يا إلهي! ألا يستطيع مجلس الشيوخ أن يصدر في الحال عفواً عنه ؟... أريد أن أقول لك شيئاً... قبل أن أجيء ببرهة كنت على وشك الذهاب الى كريمر لأتوسل اليه أن يتدخل في القضية... إنه رئيس البوليس...» .

«أيتها الطفلة ماهذه الحماقات!»

«حماقات ياتوم ؟ ـ وايريكا ؟ والطفلة ؟» ورفعت في وجهه دثار يديها متوسلة . ثمّ صمتت لحظة وأرخت ذراعيها ، واستعرض فمها ، وألمت بذقنها المتجعدة رعشة ، وبينما تفجرت تحت جفونها المرخاة دمعتان كبيرتان أضافت في خفوت تام : «وأنا... ؟»

فقال السناتور : «تشجعي ياتوني!» واقترب منها متأثراً ، مأخوذاً بقلة حيلتها ليمسح على شعرها معزياً «ليس كل نهار مساء ، فما يزال لم يحكم عليه . وقد تكون العاقبة خيراً كلها . فالآن أدفع الكفالة أولاً فلست أرفض بطبيعة الحال ، وبعدئذ نعتمد على أن برسلاو رجل حاذق...»

فهزّت رأسها باكية وقالت : «كلا ياتوم فلن تكون العاقبة خيراً ؟ لاأعتقد ذلك . فسيحكمون عليه ، ويزجون به في السجن ، وعندئذ يأتي على ايريكا وعلى الطفلة وعلي وقت عصيب . إن بائنتها لم تعد موجودة فهي موضوعة في الجهاز والأثاث والصور... وعند البيع لانحصل ربع قيمتها... وقد كنّا نستهلك المرتب دائماً... فلم يخلف ڤاينشنك شيئاً . وسننتقل الى الأم إذا سمحت الى أن يفرج عنه... وستسوء الأحوال عندئذ عما كانت تقريباً ، فأين يكون المصير به وبنا... سيكون مآلنا الجلوس على الصخور» . وانتحبت .

قال : «على الصخور!»

«أي نعم ، هذا تعبير... تعبير مجازي... كلا لن تكون الخاتمة حسنة...وقد نزل بي في المصائب أكثر مما ينبغي... ولست أعلم بماذا استحققت هذا... لكنني لم يعد يحدوني الرجاء ، فسيقع لإيريكا ماوقع لي مع جرينليش وبيرمانيدر... الآن تستطيع أن تتبين الأمر ، الآن تستطيع أن تحكم عن كثب كيف هو ، وكيف يقع ، وكيف ينزل بنا! فهل نملك دفعه ؟ إني أرجوك ياتوم ، هل يملك أحد شيئاً فيه!» وكررت هذا وهي تومىء اليه متسائلة سليبة العزاء ، وتتأمله بعينين واسعتين مغرورقتين بالدمع . واستطردت تقول : «لقد حبط كل شيء توليته وانقلب الى كارثة... وأنا المفعمة بالنيات الطيبة ، علم الله!... لقد كنت أتمنى من الصميم أن أوفق في الحياة الى شيء ، وأن يكون لي فيها حظ من التكريم... والآن ينهار هذا أيضاً ، وعلى هذه الصورة لابد أن تكون النهاية... الأخيرة .»

وبكت وهي معتمدة على ذراعه التي طوقها بها مطيباً خاطرها ، بكت حياتها الفاشلة التي تذرّت فيها آمالها الأخيرة .

●

بعد ذلك باسبوع حكم على المدير فوجو ڤاينشنك بالسجن ثلاث سنوات ونصف سنة واعتقل في الحال .

وكان الإقبال على جلسة المرافعات شديد جداً ، فترافع فيها المحامي الدكتور برسلاو من برلين كما لم يترافع أحد على مسمع من الناس ، وجعل السمسار سيجموند جوش يتغنى ويفح ويتحمس أسابيع لما احتوت المرافعة من تهكم . ولما كان لها من تأثير ووقع . وجلس كريستيان بودنيروك ، وكان أيضاً حاضراً ، خلف مائدة في المنتدى ، ووضع أمامه رزمة من ورق الصحف كأنها إضبارة ، وألقى نسخة طبق الأصل من مرافعة الدفاع . هذا الى

ماأعلنه في البيت من أن التشريع أجمل مهنة ، أجل ، وأنها مهنة خلقت له... حتى وكيل النائب العام الدكتور هاجنشتروم الذي كان من رجال الفن والأدب أدلى بتصريحات خاصة قال فيها أن خطبة برسلاو هيأت له متعة حقة . بيد أن موهبة المحامي الشهير لم تمنع رجال القانون في المدينة من أن يربتوا على كتفه ويقولوا له بكل بساطة قلب أنهم لم يمكنوه من الضحك على ذقونهم .

ثمّ أنه بعد أن تمّت المبايعات لم يكن بد منها بعد اختفاء المدير بدأ أهل المدينة ينسون هوجو ڤاينشنك . لكن سيدات بودنبروك الساكنات الشارع العريض اعترفن في أيام الخميس على مائدة الأسرة أنهن بمجرد أن رأين هذا الرجل تبين في عينيه أن ليس كل شيء فيه على مايرام ، وأن خلقه حافل بالشوائب ، وأن خاتمته لن تكون خيراً ، وإن هناك اعتبارات ، يأسفن الآن أنهن ماكان يجمل أن يغفلنها ، حملتهن على أن يكتمن هذا الشيء المحزن الذي تبينه فيه .

الجزء التاسع

الفصل الأول

خرج السناتور بودنبروك من مخدع نوم القنصلة خلف السيدين الدكتور الشيخ جرابو والدكتور الشاب لانجهالز أحد أفراد أسرة لانجهالز الذي يزاول مهنته في المدينة منذ سنة تقريباً ، الى غرفة الإفطار وأوصد عليه الباب .

قال : «أرجوكما يا سيدي... لحظة» وصعد بهما الدرج واجتازا الطرقة وبهو الأعمدة الى حجرة المناظر الطبيعية حيث كان الموقد يدفئها من جو الخريف الرطب البارد ، واستأنف الكلام فقال : «إن قلقي أمر تفهمانه... فتكرما بالجلوس! طمئناني إذا أمكن!»

فأجاب الدكتور جرابو : «يالله ياحضرة السناتور!» وكان قد اتكأ مرتاحاً ، وذقنه في ربطة رقبته ، وأسند حافة قبعته بكلتا يديه الى معدته ، بينما الدكتور لانجهالز وهو رجل ربعة ، أسمر اللون ، مفتول الشارب ، منتصب الشعر ، ذو عينين جميلتين وسيماء تتميز بالعجب ، قد وضع قبعته العالية بجانبه على السجادة ، وجعل يتأمل يديه الصغيرتين اللتين يعلوهما شعر أسود . ومضى الدكتور جرابو يقول : «إنه لاداعي أولاً لأي قلق جدي بطبيعة الحال وبأية حال من الأحوال ، أرجوك... فإن مريضة لها مثل مالسيدتنا القنصلة المحترمة من قوة المقاومة... بربك ، فإني أعرف قوة المقاومة هذه بوصفي مستشاراً علمياً... وهي مدهشة بالنسبة لسنها ... فما أريد أن أقوله...»

فقال السناتور قلقاً : «أجل بالذات في مثل سنها» وجعل يفتل طرف شاربه الطويل .

وتابع الدكتور جرابو كلامه في دماثة : «إني لاأقول بطبيعة الحال أن السيدة والدتك

العزيزة تستطيع غداً أن تعاود نزهتها على الأقدام ، ولن ينطبع في نفسك من نحو المريضة شيء من هذا ياعزيزي السناتور . حقاً إنه لاسبيل الى إنكار أن الصديد قد اتجه منذ الأربع والعشرين الساعة الأخيرة اتجاهاً رديئاً ، فلم ترقني تماماً رعشتها أمس من الصقيع ، واليوم ينتابها في الحق شيء من الوخز وضيق التنفس . كذلك يوجد شيء من الحمى . وصفوة القول أنه يجب التسليم ياعزيزي السناتور بالحقيقة الواقعة المكدرة وهي أن الرئة متأثرة قليلاً » .

فسأل السناتور وهو ينظر الى أحد الطبيبين تارة والى الآخر أخرى... «اذن التهاب رئوي ؟ »

قال الدكتور لانجهالز : « أجل ـ بنيمونيا » وانحنى انحناءة بينة أصلية .

وأجاب طبيب الأسرة : «على كل حال التهاب رئوي بسيط في الجانب الأيمن نسعى الى حصره في موضعه بمنتهى العناية... »

قال السناتور : « معنى ذلك أن هذا يدعو الى القلق الجدي » وكان جالساً هادئاً جداً ، ينظر في وجه المتكلم رابط الجأش .

قال الطبيب : «قلق ؟ حاشا... يجب كما قلت أن نعنى بحصر المرض وتلطيف السعال وقطع دابر الحمى . وسيؤتي الكينين أثره الآن... ثم أن هناك شيء آخر ياعزيزي السناتور ... فليس ثمّ مايزعج بالنسبة للأعراض الأخرى ، أليس كذلك ؟ فإذا قدر أن ازداد ضيق التنفس ووقع بحران أثناء الليل أو خرجت لفاظة قليلة من الفم في الغد ـ لفاظة داكنة الحمرة ولوكان فيها دم... فهذا كله منطقي ، ومن طبائع الأشياء وعادي . أرجوك أن تعد لهذا أيضاً عزيزتنا المحترمة مدام بيرمانيدر التي تتولى التمريض بهذا التفاني ... وعلى فكرة كيف حالها ؟ . لقد نسيت كل النسيان أن أسأل عن معدها كيف كانت حالتها في الأيام الأخيرة ؟... »

« كالعادة فليس هناك جديد . والاهتمام بصحتها يخف الآن قليلاً بطبيعة الحال... »

« مفهوم . هذا الى أنه تعنّ لي فكرة بهذه المناسبة . فالسيدة أختك بحاجة الى الراحة ، وخاصة بالليل . والآنسة سيڤيرين لاتكفي وحدها..فما رأيك ياعزيزي السناتور في الاستعانة بممرضة ؟ إن عندنا راهباتنا الكاثوليكيات ذوات الأردية الرمادية ، وقد كنت دائماً تحب لهن الخير... وسيسر الأخت الرئيسية أن تتمكن من خدمتكم » .

« إذن أنت ترى هذا ضرورياً ؟ »

« إني أقترحه ، وهو عمل موافق... والراهبات لايقدرن ، فهن يؤثرن في المرضى بتجاريبهن وانتباههن... لاسيما في هذه الأمراض المرتبطة كما قلت بطائفة من الأمراض المتعبة... وإذن لنعد هذا : عليك برباطة الجأش ياعزيزي السناتور ، أليس كذلك ؟ هذا الى أننا سنرى... سنرى... سنعاود الكلام في الموضوع مساء اليوم » .

وقال الدكتور لانجهالز : « بالتأكيد » . وتناول قبعته العالية ، ونهض في نفس الوقت مع زميله الأكبر . بيد أن السناتور ظل جالساً ، إذ لم يكن انتهى بعد ، وكان عنده سؤال يريد أن يوجهه ، يريد أن يجرب محاولة أخرى...

قال : « سيدي ، كلمة أخرى... إن أخي كريستيان عصبي المزاج ، ضيق الصدر ، لا يحتمل الكثير . فهل تشيران عليَّ بأن أخبره بمرض أمه وأن أنصح له بالعودة- ؟ »

« إن أخاك كريستيان ليس في المدينة ؟ »

« كلا ، بل هو في هامبورغ عابراً ، يقوم ببعض الأعمال فيما أعلم... »

فنظر الدكتور جرابو الى زميله ثمّ هزّ يد السناتور ضاحكاً ، يقول : « لندعه الآن مطمئناً في أعماله! ففيم إزعاجه بلا موجب ؟ فإذا قدر أي تحول في الصحة يجعل حضوره أمراً مرغوباً فيه ، ولنقل لتهدئة المريضة ورفع معنويتها... في هذه الحالة يكون لدينا دائماً وقت... دائماً... »

وبينما يعود السادة عبر بهو الأعمدة والطرقة أدراجهم ويقفون برهة فوق قاعدة الدرج جعلوا يتحدثون عن أمور أخرى ، عن السياسة وعن الهزات والانقلابات المترتبة على حرب لما تكد تضع أوزارها...

« الآن نحن على أبواب أيام سعيدة ، أليس كذلك ؟ ياحضرة السناتور ؟ ففي البلاد أموال... والحال المعنوية طيبة في كل مكان . »

ووافق السناتور على ذلك بعض الموافقة ، فأكد أن نشوب الحرب نمّى تجارة الحبوب المستوردة من الروسيا كثيراً ، وذكر المقادير الكبيرة التي بلغها وارد القرطم الذي يورد الى الجيش . لكنه قال أن المكاسب لهم توزع توزيعاً عادلاً...

وانصرف الطبيبان . وتحول السناتور بودنبروك ليعود مرة أخرى الى مخدع المريضة . وأعمل الفكرة فيما قاله جرابو فقد كان ينطوي على خبيء كثير . وقد شعر بأنه يتحاشى التصريح بشكل جازم ، « فالإلتهاب الرئوي » كان الكلمة الوحيدة التي لم يخفف من وقعها أن ترجمها الدكتور لانجهالز الى لغة العلم . التهاب رئوي في مثل سن القنصلة... ومما يدعو

إلى القلق أن طبيبين اثنين يجينان ويذهبان وقد رتب جرابو هذا بكل لباقة دون أن يلحظ أحد تقريباً . فهو يرى أنه إن قريباً وإن بعيداً سيتقاعد . هذا ماقاله . وإذا كان على الدكتور لانجهالز الشاب أن يتولى عمله ، فإنه ـ أي جرابو ـ يسره أن يقربه من الآن ويقدمه الى الأسرة .

فلما دخل السناتور مخدع النوم الخابي الضوء كان على وجهه سيماء المرح وكانت هيئته تدل على النشاط . فقد ألف أن يخفي همه وتعبه خلف ستار من الطمأنينة الفائقة فما أن فتح الباب حتى انسدل هذا القناع من نفسه تقريباً على وجهه كمظهر من مظاهر الإرادة للحظة وجيزة جداً .

وكانت مدام بيرمانيدر جالسة على السرير العالي مزاحة ستائره ، تمسك بيد أمها التي حولت وجهها الى الداخل مسنودة الى الوسائد ، فنظرت اليها مستطلعة بعينين رائقتي الزرقة . وكانت نظرتها مفعمة بالهدوء الذي تتحكم فيه والاستطلاع المضبوط الذي لاتفلته ، وإذا كانت هذه النظرة جانبية فقد كانت تنطوي تقريباً على شيء من التربص . وبغض الطرف عن شحوب الجلد الذي كان يبدي على الخدين من حمرة الحمى بضع بقع لم يظهر على الوجه وهن أو ضعف على الإطلاق . فقد كانت السيدة المسنة فاطنة الى حالتها وأكثر فطنة ممن هم حولها ، ذلك أنها كانت هي صاحبة الشأن المباشر . ولم تكن تأمن لهذا المرض ولا راغبة بحال في النوم على أذنها وترك الأمور تجري مجراها...

وسألت : «ماذا قالا ياتوماس ؟» . وكان صوتها من القوة والنشاط بحيث سعلت في الحال سعالاً شديداً حاولت كتمه بشفتين مطبقتين لكنه انطلق وأرغمها على أن تضغط بيدها على جنبها الأيمن .

فأجاب السناتور بعد زوال نوبة السعال وهو يمسح على يدها : «قالا أن أمنا الطيبة ستنهض على قدميها في بضعة أيام . وعجزك عن هذا الآن إنما يرجع كما تعرفين الى أن السعال السخيف قد أثر على الرئة قليلاً بطبيعة الحال» . ولما رأى أن نظرتها ازدادت حدة قال : «إنه ليس التهاباً رئوياً بالذات وإن لم يكن هذا أسوأ شيء فهنالك ماهو أسوأ منه! إن الرئة بإيجاز متهيجة قليلاً على حد قولهما ، وقد يكونان على حق... أين اذن الآنسة سيفيرين ؟»

فأجابت مدام بيرمانيدر : «ذهبت الى الصيدلية» .

«انظرا! هاهي ذي تذهب الى الصيدلية مرة أخرى ، وأنت ياتوني يبدوعليك كما لو كنت تبغين النعاس في كل لحظة . لا ، إن هذا لايجوز أكثر من ذلك ، ولو لبضعة أيام... يجب أن تكون هنا ممرضة ، ألا تريان هذا الرأي أيضاً ؟ انتظرا ، سأكلف من يسأل رئيسة الراهبات ذوات الرداء الرمادي هل عندها واحدة تستغني عنها...»

فقالت القنصلة عندئذٍ بصوت حذر كيلا تهيج السعال وتطلقه ثانية : «صدقني ياتوماس إذا قلت لك أنك تأتي أمراً أدا بحمايتك الدائمة للكاثوليك حيال البروتستانت ذوات الرداء السود . لقد جلبت للأوليات منافع أكيدة ولم تفعل للأخريات شيئاً . إني أؤد لك أن القسيس برنجزهايم شكا لي أخيراً من هذا شكوى صريحة...»

«إن هذه الشكوى لاتجدي شيئاً . إني مقتنع بأن الممرضات ذوات الرداء الرمادي أوفى وأكثر إخلاصاً واستعداداً للتضحية من ذوات الرداء الأسود . إن هاته البروتستانتيات لسن صالحات . فهن جميعاً يردن الزواج في أول فرصة فأكثر منهن تجرداً . أجل ، إنهن بالتأكيد أقرب الى السماء ، وبالذات لأنهن مدينات لي بالشكر يجب أن نؤثرهن على غيرهن . ماذا لم تكنه الأخت لياندرا بالنسبة الينا يوم أن كان هانو فريسة للتشنجات من وجع أسنانه! إني لأتمنى فقط ألا تكون مشغولة...»

وجاءت الأخت لياندرا ووضعت في سكون حقيبة يدها وقلنسوتها الرمادية التي تضعها فوق طاقيتها البيضاء ثم انصرفت الى عملها وهي تردد كلمات رقيقة ودودة بينما كانت مسبحتها المعلقة في نطاقها تترجح في خفوت . وجعلت تمرض المريضة المدللة التي لاتتحلى دائماً بالصبر بالنهار والليل ، ثمّ تنسحب صامتة خجولاً تقريباً من ذلك الضعف الانساني الملم بها لتحل أخت أخرى محلها ، ولتنام في بيتها قليلاً ثم تعود .

ذلك أن القنصلة كانت تتطلب خدمة دائمة بجانب سريرها وكانت كلما ساءت حالتها اتجه تفكيرها كله واهتمامها كله الى مرضها الذي كانت تراقبه في خوف وغل ساذج صريح . إنها وقد كانت سيدة من سيدات المجتمع فيما سلف من الزمان بما كانت تبدي من حب ساكن طبيعي متواصل للعيش الرغيد والحياة بوجه عام ، باتت في السنوات الأخيرة تعمر التقوى قلبها ويفعمه صنع المعروف...لماذا! لعله لم يكن منها تقديساً لذكرى زوجها الراحل فحسب ، بل كان كذلك صادراً عن دافعها الخفي الى نشدان رضى الله بكل مافيها من حيوية قوية ، والتوسل اليه أن يتوفاها وفاة وادعة على الرغم من تعلقها الشديد بالحياة ؟ لكنها لم يقدر لها أن تتوفى وفاة وادعة . وبغض النظر

عن بعض ماعانت من آلام قد كانت قامتها منتصبة لم تنحن بتاتاً وبقي بصرها سليماً . وقد كانت تحب الواجبات الطيبة وترتدي الثياب الأنيقة الثمينة وغض الطرف عما لايسر مما يصادفها أو يجري حولها فتسكت عنه وتساهم راضية في المنزلة السامية التي يتبوؤها ابنها الأكبر في كل مكان . ولقد انتاب هذا المرض ، هذا الالتهاب الرئوي ، جسمها المنتصب من دون مقدمات من عمل النفس تمهد الطريق لهذا التدمير... هذا التقويض الذي تحدثه المكابدة والألم ويفسد مابيننا وبين الحياة نفسها أو مقوماتها في بطء وعذاب . وهي مقومات تلقينا الحياة في كنفها وأيقظت فينا الشوق الحلو الى خاتمة أو مقومات أخرى أو الى السلام... كلا فقد كانت القنصلة العجوز تشعر جيداً بأنها لم تكن مستعدة للموت على مالها من أسلوب مسيحي في مزاولة الحياة . وكانت الفكرة الغامضة في أن مرضها هذا ، إذا كان الأخير ، سيحطم مقاومتها بنفسه وبعذاب جسماني في الساعة الأخيرة ، بسرعة بغيضة ويحملها على التسليم .

كانت تصلي كثيراً ، لكنها كانت أكثر سهراً على حالتها مادامت في وعيها ، تجس نبضها بنفسها وتقيس حرارتها ، وتكافح سعالها... لكن النبض كان سيئاً ، والحمى أشد ارتفاعاً بعد أن هبطت قليلاً ، فجعلت ترتعش ، وجعلت من ارتعاشها تهذي هذياناً حامياً ، وازداد سعالها المصحوب بالآلام الباطنة ، وأثار لغاطها الملوث بالدم وأزعجها ضيق التنفس . وقد كان مرجع هذا كله الى أن الرئة كانت كلها متأثرة لامجرد قطعة فيها ، وإنه كان في الجهة اليسرى آثار بينة تدل على سريان الداء والاستشراء إذا لم تكن هذه الآثار خداعاً . وقد أسمى الدكتور لانجهالز هذه الظاهرة «تكبداً» ولم يشأ التوسع في الكلام عنها... وقد ظلت الحمى تنتهب المريضة فلم تهن ، وأخذت المعدة تعجز عن تأدية وظيفتها ، وجعلت قواها تتداعى من دون ضابط وفي بطء ثابت .

كانت تراقب هذا التداعي ، وتتناول بهمة غذاءها المركز الذي يقدم اليها ماأمكنها ، وتعني أكثر من ممرضاتها بالمحافظة على مواعيد الدواء ، وكان كل هذا يستحوذ عليها الى حد أنها كانت لاتخاطب إلا الأطباء تقريباً ، وأنها كانت تبدي اهتماماً زائداً في حديثها معهم على الأقل .

وباتت تكره الزيارات وكانت تسمح بها في البداية ، وتستقبل الصديقات وأعضاء ندوة أورشليم وسيدات المجتمع المسنات وزوجات القسس على مضض أو في صورة ودودة تنطوي على تشتت الأفكار ، ثم تصرفهن على عجل... وكان ذووها يألمون من أنها لاتأبه لهم فكانت كأنها تقول : «ماذا تستطعن لي!» حتى هانو الصغير الذي دخل عليها في لحظة مؤاتية ، لم

تفعل سوى أن ربتت على خده تربيتة خاطفة ثم تحولت عنه . فكانت كأنما تريد أن تقول : « أيها الأطفال! إنكم جميعاً أحياء ـ لكن أنا ـ ربما كتب لي أن أموت » . أما الطبيبان فكانت على العكس من ذلك تستقبلهما بحرارة وحمية اهتمام لتباحثهما وتسهب في الحديث .

وذات يوم ظهرت السيدتان بنتا جيرهارت المسنتان ، وهما من نسل باول جيرهارت . جاءتا بلفاعتيهما وقبعتيهما المشبهتي الأطباق ووفاض زادهما قادمتين من زيارة الفقراء . ولم يمكن ردهما عن زيارة صديقتهما المريضة . والله وحده يعلم ماذا قالتا لها وهما جالستان على سريرها . لكنهما لما انصرفتا كانت أعينهما وأساريرهما أجلى وأرأف وأكثر انطواءً على الرحمة مما كانت من قبل ، وفي الداخل كانت القنصلة راقدة بمثل هاته الأعين والأسارير ، راقدة في سكون تام وسلام تام ، بل أتم من ذي قبل . وكان تنفسها نادراً ، رقيقاً ، تنتقل كما يرى من ضعف الى ضعف . فبعثت مدام بيرمانيدر في الحال في طلب الطبيبين بعد أن شيعت السيدتين جيرهارت بتمتمة غليظة . وما كاد الطبيبان يظهران على عتبة الباب حتى ألم بالقنصلة تبدل تام مذهل ، فاستيقظت ، وتحركت ، وانتصبت تقريباً ، ذلك أن منظر هذين السيدين ، هذين الطبيبين القليلي المعرفة قد ردها دفعة واحدة الى الحياة . فمدت اليهما كلتا يديها وأنشأت تقول : « مرحباً بكما سيداي! لقد حدث اليوم أثناء النهار... » .

لكنه كان قد حل اليوم الذي لم يمكن فيه أنكار الالتهاب الرئوي المزدوج .

فقال الدكتور جرابو وهو ممسك بيدي توماس بودنبروك : « أجل ياسيدي السناتور العزيز . إننا لم نستطع لهذا الأمر حولاً فالالتهاب الآن في الرئتين . وهذا مما يدعو دائماً الى القلق . وإنك لتعرف كما أعرف جيداً أني لاأموه عليك . فالمسألة سواء أكانت المريضة في العشرين أم في السبعين مسألة يجب على كل حال أن ينظر اليها بعين الجد ؟ وإذا سألتني اليوم مرة أخرى هل تكتب الى السيد أخيك كريستيان ولعلك تبعث اليه ببرقية صغيرة ، فإني لن أصرفك عن ذلك . وكم كنت أود أن تبقيه بعيداً... كيف حاله على فكرة ؟ إنه رجل ظريف : لقد كنت أحبه دائماً من قلبي... بربك لاتغل في الاستنتاج من كلامي ياعزيزي السناتور! لا ، على سبيل المثال ، إن هناك خطراً مباشراً... أخ ماذا ، إني لرجل أخرق إذ ترد هذه الكلمة على لساني! لكنه في مثل هذه الأحوال كما تعلم يجب أن يحسب من بعيد حساب المفاجآت... ونحن راضون كل الرضا عن السيدة المحترمة والدتك بوصفها مريضة ، ذلك أنها تعاوننا بشجاعة ولاتخلو بنا... كلا ، فهي ، من دون مجاملة ، لاتبارى كمريضة! ومن ثم نأمل ياسيدي السناتور العزيز ، نأمل! دعنا نأمل دائماً كل خير! » .

لكنه تأتي لحظة يكون فيها أمل الأهل شيئاً مفتعلاً غير خالص . فقد يلم بالمريض تغيير ويظهر على سلوكه شيء غريب عن الشخص الذي كانه في حياته ، فتخرج من فيه كلمات غريبة بعينها لانفهم كيف نرد عليها ، تقطع عليه بالمثل خط الرجعة وتجعله رهين الموت ، ولانستطيع أن نريد له بعد كل هذا أن ينهض ويتحرك ولو كان أحب الناس الينا ، فإذا فعل مع ذلك فسينشر الرعب من حوله كما يفعله خارج من النعش...

لقد ظهرت أمارات منكرة على الانحلال المبتدىء بينما كانت الأعضاء التي تسيرها إرادة متجلدة ماتزال تؤدي وظيفتها . ولما كانت قد تقضت أسابيع منذ ألزم الصديد القنصلة فراشها فقد ظهرت على جسمها من الرقاد عدة جروح لم تعد تندمل ، بل تحولت الى حالة مخيفة . وقد جفاها النوم أولاً . لأن الأوجاع والسعال وضيق النفس كانت تحول دونه ، ثم بعد ذلك لأنها نفسها كانت تقاوم النوم وتتشبث باليقظة ، اللهم إلا دقائق كانت تفقد في خلالها وعيها وهي نهب الحمى . لكنها أيضاً وهي في وعيها كانت تتحدث الى أشخاص ماتوا من زمن . ففي ذات يوم عند ساعة الأصيل قالت بغتة وبصوت عال ينم عن شيء من الوجل ، صادر مع ذلك عن القلب : «أجل ياعزيزي جان ، إني آتية!» وكانت صبغة هذا الرد المباشر من الخداع بحيث وهم الأهل بعده أنهم يسمعون صوت ميت يناديها .

وحضر كريستيان ، حضر من هامبورج حيث كانت أعماله على حد قوله تحتجزه ، وأقام برهة وجيزة في مخدع أمه المريضة ، ثم غادره وهو يمر يده على جبينه تائه النظر ويقول : «هذا مخيف... مخيف... إني لاأستطيع احتماله بعد الآن» .

وظهر القس برنجزهايم كذلك وحدج الأخت لياندرا بنظرة باردة وجعل يصلي عند سرير القنصلة بصوت مختلف النبرات .

ثم حدث تحسن وجيز الأمد : صحوة ، هبوط في الحمى ، عودة خادعة للقوى ، سكنة للألم ، عبارات مفعمة بالأمل أفاضت من عيون الواقفين حولها دموع الفرح...

فقال توماس بودنبروك : «أهلي! سنستبقيها ، سترون أنا سنستبقيها برغم ذلك كله . ستكون بيننا في عيد الميلاد ولن نسمح بأن ترهق نفسها كعادتها...»

لكنه في الليلة التالية بالفعل ، وبعد لحظة وجيزة من توجه جيردا وزوجها الى النوم ، بعثت مدام بيرمانيدر من شارع منج في طلبهما ، لأن المريضة تصارع الموت . وكانت الريح تقتحم المطر الذي كان ينهمر وتلطم به زجاج النوافذ .

فلمّا دخل السناتور وزوجه المخدع الذي كانت تضيئه شموع شمعدانين تحترق فوق المائدة كان كلا الطبيبين حاضراً . كذلك كريستيان كان قد استدعى من فوق واتخذ مجلسه في مكان ما أدار فيه ظهره الى سرير أمه ، واعتمد جبينه بين يديه مطأطىء الرأس ، وكانوا ينتظرون أخا المريضة القنصل يوستوس كروجر بعد أن بعثوا اليه يستدعونه . وأقامت مدام بيرمانيدر وايريكا ڤاينشنك عند موضع القدم من الفراش ينتحبان في خفوت . ولم يعد لدى الأخت لياندرا والآنسة سيڤيرن مايفعلانه ، فجعلتا تنظران حزينتين الى وجه المحتضرة .

كانت القنصلة راقدة على وسائد تسند رأسها عدة وسائد وترتعد يداها وهما تمسحان على اللحاف في عجلة ولاتكفان : هاتان اليدان الجميلتان المعروقتان تماماً ، الباديتا العروق في زرقة ، النحيلتان الآن ، وكان رأسها المغطى بطاقية النوم البيضاء يتحول بلا انقطاع من جانب الى آخر على وتيرة تثير الرعب . وكان فمها الذي بدت شفتاه مسحوبتين الى داخل ينفتح وينطبق وهو يشهق مع كل محاولة أليمة للتنفس . وكانت عيناها الغائرتان تائهتين فيما حولها تستغيثان لتستقرا بعد ذلك على أحد الحضور معبرتين عن الحسد تعبيراً يهز النفس ، ذلك أن الحاضرين كانوا يرتدون الملابس ، ويستطيعون التنفس ويملكون الحياة ، ولايسعهم إلا تقديم قربان الحب بتركيز نظراتهم على هذه الصورة . وقد تقدم الليل من دون أن يطرأ تغيير .

وسأل توماس بودنبروك بصوت خافت : « كم يطول هذا ؟ » وسحب الدكتور جرابو الشيخ الى آخر المخدع ، بينما كان الدكتور لانجهالز في هذه اللحظة يعطي المريضة حقنة ما . وكذلك انضمت اليها مدام بيرمانيدر تضع منديلها في فمها .

فأجاب الدكتور جرابو : «ليس من الممكن تحديد ذلك ياعزيزي السناتور فقد يكون خلاص السيدة والدتك في خمس دقائق ، وقد تظل ساعات أخرى في قيد الحياة... . لاأستطيع أن أقول شيئاً ، فالأمر يتعلق بما يسمى الصديد الخانق » .

فقالت مدام بيرمانيدر : « إني أعرفه » . وهزت رأسها في منديلها وجرى الدمع على خديها : « إنه يقع في الالتهابات الرئوية كثيراً... إذ يتجمع في حويصلة الرئة سائل مائي فإذا ساءت الحال تعذر التنفس... أجل إني أعرفه... »

ونظر السناتور الى سرير أمه شابكاً يديه أمامه . وهمس : « ماأشد ماتعاني! »

وقال الدكتور جرابو في خفوت كذلك ولكن في شعورطاغ بأنه حجة ومرجع : « كلا » وقطب وجهه المستطيل الوادع في صورة جازمة ثم استطرد يقول : « إن هذا خداع . صدقني ياصديقي العزيز . هذا يخدع! إن الوعي مشوب ، وماتراه ليس إلا حركات انعكاسية في معظمه... صدقني... »

وأجاب توماس بودنبروك : « سمع الله لك! » ـ لكن كل طفل كان خليقاً أن يرى في عيني القنصلة أنها كانت في تمام وعيها ، وأنها كانت تشعر بكل شيء...

وعاودوا مجالسهم . وكذلك اتخذ القنصل كروجر مجلسه ، إذ كان قد حضر الى جانب السرير منحنياً فوق عكازة عصاه محمر العينين .

وقد ازدادت حركات المريضة في قلق مزعج ، وخوف ، وضيق ينبو عن الوصف ، وشعور لايفارقها بتخلي غيرها عنها وبقلة حيلتها بداخل هذا الجسم الذي سلم الى الموت من قمة الرأس الى أخمص القدم . وكانت عيناها ، تانك العينان المسكينتان المتوسلتان الباحثتان مغمضتين في رأسها المتقلب الذي تنتابه حشرجة الموت . تعبران أحياناً عن الرغبة في التقيؤ أو تتسعان اتساعاً تنفر منه عروق القرنية الشعرية بلون الدم . ولا اغماء!

وبعد الثالثة بقليل رأوا كيف نهض كريستيان يقول : « لم أعد قادراً على الاحتمال » . وانصرف يتعكز على قطع الأثاث القائمة في طريقه ، وخرج من الباب وهو يعرج... هذا الى أن توجعاتها الوتيرة كانت قد هدهدت في الراجح ايريكا ڤاينشنك والآنسة سيڤيرين على السواء فغلبهما النعاس على كرسيهما وتورد خداهما في نعاسهما .

وفي الرابعة تفاقمت الحالة وازدادت سوءاً على سوء ، فأسندوا المريضة وجففوا عرق جبينها ، وهدد التنفس بالإنقطاع تماماً ، وازدادت المخاوف . وند عنها صوت : « شيئاً لأنام...! دواء! » لكنهم كانوا أعجز من أن يسعفوها بشيء يجلب لها النوم .

وبغتة أخذت ترد ثانية على شيء لم يسمعه الآخرون كما فعلت من قبل . قالت : « أجل ياجان ، لن يطول بعد الآن! » . ثم تلا على ذلك الأثر : « أجل ياحبيبتي كلارا ، إني قادمة!... »

ثم عاد الصراع من جديد... فهل كان مايزال صراعاً مع الموت ؟ كلا ، بل كان الآن صراعا مع الحياة طلباً للموت . قالت وهي تلهث : « أحب... لاأستطيع . شيئاً لأنام! سادتي ، رحمة بي! شيئاً لأنام! »

كان من شأن هذه الكلمة «رحمة بي» أن انخرطت مدام بيرمانيدر عالياً في البكاء وأنّ توماس أنيناً خافتاً واعتمد رأسه لحظة بين يديه . لكن الطبيبين كانا يعرفان واجبهما . والواجب في كل الظروف أن تستبقى هذه الحياة لذويها أطول مدة ممكنة ، بينما من شأن المخدر أن يفرط في الذهن على الفور ويقضي على كل مقاومة . وليس الأطباء في العالم للتعجيل بالموت بل للمحافظة على الحياة بأي ثمن . وبهذا تقضى فوق ذلك أسباب دينية ومعنوية بعينها سمعوا بها كثيراً في الجامعات وإن لم تحضرهم في هذه اللحظة... فهم يقوون القلب على النقيض من ذلك بوسائل شتى ويثيرون التقيؤ مراراً للتخفيف الوقتي .

في الساعة الخامسة لم يمكن أن يكون الصراع أشد مما كان . فقد انتصبت القنصلة في تشنجها متسعة العينين ودفعت ذراعيها من حولها كأنما تنشد ما تستند اليه أو تطلب أيدياً ممدودة اليها ، وكانت تجيب في الهواء بلا انقطاع على نداءات صادرة من كل جهة كانت تسمعها وتبدو متزايدة ملحة دائماً . كان زوجها المتوفى وابنتها الراحلة لم يكونا وحدهما الموجودين في مكان ما بل كذلك والديها وحمويها وأقرباء آخرين سبقوها الى الدار الباقية . كانت تنادي بأسماء أولى لم يكن في وسع أحد في المخدع أن يقرر لمن من الموتى هي . كانت تصيح وهي تتجه وجهات مختلفة : «نعم! إني قادمة الآن... حالاً... هذه اللحظة بالذات...هكذا... إني لاأستطيع... دواء أيها السادة!»

وفي منتصف السادسة حلّت لحظة من الراحة ثم إذا باختلاجة تطوف فجأة بملامحها المجعدة الممزقة من الألم ، وفرحة جلودة مخيفة ، ورقة عميقة مفزعة وجلة . وفي لمح البصر بسطت ذراعيها بسرعة متدفعة مفاجئة ، حتى أحسوا أنه لم تنقض لحظة واحدة بين ذلك الذي سمعته وجوابها عنه ـ وصاحت بصوت عال يعبر عن طاعة عمياء واستسلام وتفان لاحد لهما ناطقين بالخوف والحب معاً : «هاأنذا!» ولفظت النفس الأخير .

فذعر الجميع . من كان هذا ؟ من الذي نادى ولبت نداءه في الحال ؟

وأسدل أحد الموجودين ستار النافذة وأطفأ الشموع ، بينما أغمض الدكتور جرابو بوجهه الوادع عيني الراحلة .

وارتعش الجميع في صباح ذلك اليوم من أيام الخريف ، وكان باهتاً يشيع في المخدع وسترت الأخت لياندرا مرآة الزينة بقطع من القماش .

الفصل الثاني

وشوهدت مدام بيرمانيدر من الباب المفتوح قاعدة في مخدع الراحلة تصلي وقد ألفت نفسها وحدها فركعت وانداحت في ركوعها ثياب الحداد من حولها على الأرض ، ركعت على مقربة من السرير أمام مقعد وأقرت يديها المشبوكتين عليه وجعلت تتمتم مطأطئة الرأس..وسمعت في ركوعها جيداً أن أخاها وزوج أخيها دخلا حجرة الإفطار حيث وقفا في وسطها من تلقاء نفسيهما ينتظران نهاية الصلاة . لكنها لم تتعجل لهذا الغرض بصفة خاصة ، وتنحنحت في الختام نحنحتها الجافة ، وضمت ثوبها باحتفال وتؤدة ، ونهضت ثم سارت نحو قريبتها دون أن يبدو عليها أي أثر للارتباك ملتزمة هيئة غاية في الوقار .

قالت في شيء من القسوة : «توماس ، يبدو لي فيما يتعلق بسيڤيرين أن المرحومة أمي أرضعت على صدرها أفعى» .

«كيف ؟»

«إني ساخطة عليها كل السخط ، فالمرء معها يفقد صوابه وينسى نفسه ...هل لهذه الأنثى حق في أن تزيد من آلام هذه الأيام بهذه الصورة الوضيعة ؟»

«لكن ماذا هنالك ؟»

«إنها أولاً جشعة بشكل يسخط فهي تمضي الى خزانة أمي وتخرج منها ثيابها الحريرية ، وتضمها فوق ذراعيها ، وتريد الانسحاب بها . قلت لها : ريكشن ، الى أين تريدين بهذه الثياب ؟ ـ قالت : لقد وعدتني بها السيدة القنصلة! ـ قلت وأنا ألفتها بكل تحفظ الى مافي تصرفها من عجلة : «أتظنين أن هذا ينفعك ؟ ـ ولم تكتف بالثياب

الحريرية بل تناولت كذلك رزمة من البياضات وانصرفت بها . وأنا لايسعني أن أشتبك معها ، أليس كذلك... وليست هي وحدها... بل الخادمات أيضاً... فهناك سلال غسيل ملأى بالثياب والملابس الكتانية أخرجت من البيت... والخدم يقتسمون الأشياء تحت بصري لأن مفاتيح الخزائن بيد سيڤيرين ، وقد قلت لها : ياآنسة سيڤيرين إني أريد المفاتيح . فيم أجابتني ؟ أعلنت اليّ بلهجة صريحة غير مهذبة أنه ليس لي أن أوجه اليها كلاماً ، فهي لاتعمل في خدمتي ، ولا أنا استخدمها ، فهي ستحتفظ بالمفاتيح الى أن يخلى سبيلها!» .

فسألها أخوها : «أبيدك مفاتيح الأدوات الفضية ؟ ـ حسناً . دعي ماعدا ذلك يجري مجراه . فلا مناص من مثل هذا إذا انحل التدبير في بيت كانت أموره أخيراً بلا ضابط كبير على كل حال . ولست أريد أن أحدث ضجة الآن . فالبياضات عتيقة ومعيبة... . هذا الى أننا سنرى ماهنالك بعد . فهل لديك القوائم ؟ على المائدة ؟ حسناً . سنرى في الحال» .

ودخلوا مخدع النوم ليقفوا برهة ساكنين متجاورين عند السرير بعد ان سحبت مدام أنتونيا الطرحة البيضاء عن وجه الراحلة . وقد كانت القنصلة ألبست بالفعل الثوب الحريري الذي سيعرض به جثمانها في القاعة بعد ظهر اليوم . وكان قد مرّ ثمان وعشرون ساعة منذ لفظت النفس الأخير . فكان فمها وخداها بعد إبعاد أسنانها الصناعية مترهلة بفعل الشيخوخة ، وذقنها بارزاً قائماً يرسم زاوية قائمة ، وقد جهد ثلاثتهم وهم يتألمون وينظرون الى هذه الجفون المغمضة في عمق وإحكام قاسيين أن يتبينوا في هذا الوجه ماعهدوه من محيا أمهم . لكنه كان تحت القلنسوة التي كانت السيدة العجوز تضعها في أيام الآحاد ، العارية الكستنائية الضاربة الى الحمرة ، المفروقة الملساء التي كانت تضعها وهي في قيد الحياة والتي طالما تندرت بها سيدات بودنبروك القاطنات في شارع منج... وعلى اللحاف أزهار منثورة .

وقالت مدام بيرمانيدر في خفوت : «لقد جاءت أفخم الأكاليل من الأسر كافة . . . من كل الناس... وقد رفعت كلها الى الطرقة ، فلا بد لكما أيضاً جيردا وتوم من رؤيتها فيما بعد . إنها جميلة بصورة محزنة وشرائط أطلسها ذات حجم كبير...»

وسأل السناتور : «كم بلغتم في اعداد القاعة ؟ »

«سينتهي فيها العمل عما قريب ياتوم . هي جاهزة تقريباً . وقد بذل الوراق چاكوبس

كل جهد في سبيل ذلك . وأيضاً الـ...» وبلعت ريقها لحظة ثم استطردت تقول : «كذلك النعش سبق إحضاره ، لكنه عليكما أن تخلعا ياعزيزي!» وسحبت الطرحة البيضاء تعيدها مكانها . «هنا برد لكن غرفة الانتظار مدفأة بعض الشيء... دعني أساعدك ياجيردا . فمثل هذه اللفاعة الفاخرة يجب أن تعالج في حذر... هل تسمحين بتقبيلك ؟ فأنت تعلمين أني أحبك ، ولو أنك كنت تنفرين مني دائماً... كلا ، إني أتلف تسريحتك لو خلعت لي قبعتك... هذا الشعر الجميل ، شعرك! مثل هذا الشعر كان أيضاً لأمي أيام الشباب . لم تكن يوماً رائعة مثلك . لكنها كانت ظاهرة جميلة حقاً في وقت ماكنت فيه قد ولدت... أليس حقاً مايقول تابعكم جروبليبن دائماً : «سنفنى جميعاً ـ ؟ وهو هذا الرجل البسيط... أجل ياتوم ، هاهي ذي أهم القوائم!»

وكانوا قد عادوا الى الغرفة المجاورة وجلسوا الى المائدة المستديرة ، بينما تناول السناتور الأوراق المسجلة فيها أشياء ستوزع بين الورثة الأدنين... وظلت أنظار مدام بيرمانيدر عالقة بوجه أخيها ترعاه في انفعال وتوتر . وكان هنالك شيء ، مسألة كان يصعب عليها التحول عنها ، لأن تفكيرها كله كان مركزاً عليها في وجل . ولابد أن يدور حولها الكلام في الساعة التالية...

وشرع السناتور يقول : «أحسبنا مستمسكين بمبدأ رد الهدايا حتى...»

فقاطعته زوجته قائلة : «معذرة ياتوماس ، يلوح لي... كريستيان أين هو ؟»

فصاحت مدام بيرمانيدر : «حقاً! يا إلهي! كريستيان... لقد نسيناه!»

قال السناتور : «صحيح» . وارتمى الورق من يديه . ثم قال : «ألا ندعوه اذن ؟»

وذهبت مدام بيرمانيدر الى حبل الجرس . لكنه في نفس اللحظة كان كريستيان قد فتح الباب ودخل . دخل الى الغرفة مسرعاً تقريباً ، ولم يحرص على إقفال الباب وراءه في سكون تام . ووقف مقطب الحاجبين مجيلاً عينيه الصغيرتين المستديرتين الغائرتين من الواحد الى الآخر من دون أن ينظر الى أحد ، فاغراً مطبقاً فمه على التعاقب تحت شاربه الكث المحمر في حركة قلقة... لقد كان يلوح تحت تأثير نوع من النفسية المعاندة المهتاجة .

قال موجزاً : «سمعت أنكم هنا . فإذا كان لابد من أن يدور حديث حول الأشياء فقد كان لزاماً أن أخبر» .

فأجاب السناتور من دون اكتراث : «كنا على وشك . فاجلس فقط» .

واستقرت عيناه على الأزرار البيضاء التي كانت تزر قميص كريستيان...إنه نفسه كان يرتدي ملابس حداد محتشمة لاغبار عليها . وعلى قلابات قميصه البارزة ببياضها من أكمام سترته السوداء والتي يضمها عند البنيقة شريط عريض أسود ، ركبت بدون الأزرار الذهبية التي اعتاد أن يحملها ، أخرى سوداء . فلحظ كريستيان نظرته ، ذلك أنه أثناء أن كان يسحب كرسياً ويجلس عليه لمس بيده صدره وقال : «أعرف أني أحمل أزراراً بيضاء إني لم أتمكن بعد من أن أبتاع لنفسي أزراراً سوداء ، أو على الأصح فقد أغفلت ذلك . لقد كنت في السنوات الأخيرة اضطر الى أن أقترض لمسحوق أسناني خمس شلنات ، وأن آوي الى فراشي على ضوء عود من أعواد الثقاب... ولست أعلم هل الذنب في هذا ذنبي أنا وحدي دون غيري . هذا الى أن الأزرار السوداء ليست في هذا العالم أهم شيء . إني لاأحب المظاهر . ولم أعلق عليها يوماً أهمية» .

كانت جيردا تتأمله وهو يتكلم ، وتضحك في خفوت . وقد أبدى السناتور ملاحظاً : «إن الزعم الأخير لايمكن أن يكون زعمك دائماً ياعزيزي» .

«كذا ، ربما كنت تعرف هذا خيراً مني ياتوماس . إني أقول إني لاأقيم لمثل هذه الأشياء وزناً . لقد شهدت في العالم الشيء الكثير ، وعشت مع أناس مختلفين ذوي عادات أشد اختلافاً من أن...» لكنه رفع صوته فجأة بقوله : «هذا الى أني إنسان بالغ ، أبلغ من العمر الثالثة والأربعين ، فأنا سيد نفسي ، ولي أن أمنع أي انسان من التدخل في شؤوني» .

فقال السناتور متعجباً : «يلوح لي أنك متحمل مني ياصديقي . فأما عن الأزرار فلم أقل بشأنها كلمة إذا لم أكن مخدوعاً . فنظم ملابس حدادك على ذوقك لكن لاتعتقد أنك بتنزهك الرخيص عن الغرض تؤثر علي...»

«إني لاأريد أن أؤثر عليك فتيلاً...»

فقالت مدام بيرمانيدر : «توم... كريستيان... نريد أن نتحاشى كل نغمة مثيرة... اليوم... وهنا . حيث ترقد بجانبنا . استمر ياتوماس . إذن نرجع الهدايا ؟ هذا معقول» .

واستمر توماس . فبدأ بالأشياء الكبرى وخص منها بما يمكن أن يحتاج اليه بيته . شمعدانات قاعة الأكل ، الصندوق المحفور الكبير القائم في الردهة . وأبدت مدام بيرمانيدر اجتهاداً ملحوظاً في هذا الأمر ، فما أن يتردد مالك المستقبل قليلاً في شيء حتى تقول

بأسلوب لا يبارى وهيئة من يدين العالم كله باستعداده للتضحية «إني مستعدة لأخذه» . فاحتفظت لنفسها وحفيدتها بمعظم الأثاث .

وتلقى كريستيان بضع قطع من الأثاث وساعة «أمبير» قائمة ، بل أخذ الهارمونيوم وأعلن رضاه بذلك... لكنه انتقل التوزيع الى الأدوات الفضية والأتيال ، والى أطقم الطعام كذلك جعل يبدي نشاطاً أدهش الجميع وبلغ أن يكون جشعاً .

كان يقول : «وأنا ؟ أنا ؟... أرجو ألا تنسوني بحال من الأحوال...»

«من الذي ينساك ؟ لقد اختصصتك... انظر هنا ، لقد اختصصتك بطاقم كامل للشاي ومعه صينيه فضية أما طاقم يوم الأحد المذهب فليس من يستعمله سوانا و...»

وقالت مدام بيرمانيدر : «إني مستعدة لأخذ الطاقم العادي ذي النموذج البصلي» .

فصاح كريستيان : «وأنا» مبدياً ذلك الغضب الذي يمكن أن يتملكه أحياناً والذي يظهر خديه أعجف أيضاً مما هما ويوائم وجهه بصورة عجيبة... . واستطرد يقول : «أريد أن يكون لي نصيب من أدوات الأكل! فكم ملعقة وكم شوكة أتلقى إذن ؟ إني أرى أني لاأصيب شيئاً تقريباً!...»

«لكن ياعزيزي ماذا تريد أن تعمل بهذه الأشياء! إنه لن يكون لك ماتستعملها فيه... فلست أفهم . إنه لخير أن تبقى هذه الأشياء لاستعمال الأسرة...»

فقال كريستيان معانداً : «ولو على سبيل التذكار لأمي» .

فرد السناتور وقد فرغ صبره أو كاد... «ياصديقي العزيز . إنه ليس في استعدادي أن أمزح... لكنه يبدو من أقوالك كما لو كنت تريد أن تضع على مائدة الليل كتذكار من أمك صحفة حساء ؟ أرجو ألا تفرض أننا نريد غبنك ، فيما تتلقاه من المنقولات أقل ، سيعوض لك بشكل آخر على الأثر . وكذلك الأمر بالنسبة للأتيال...»

«لاأريد نقوداً ، بل أريد بياضات وأدوات أكل» .

«ولكن بربك لأي غرض ؟»

بيد أن كريستيان أجاب عندئذ جواباً كان من أثره أن التفتت اليه جيردا بودنبروك بسرعة ، وحدجته بنظرة ملغزة ، وأن رفع السناتور نظارته الشابكة على عجل ، وحملق في وجهه وأن شبكت مدام بيرمانيدر يديها . كان ماقاله : «كلمة واحدة! إني أفكر في الزواج إن قريباً أو بعيداً» .

نطق بها في خفوت تقريباً وسرعة ، وبحركة مقتضبة من يده ، كأنما يلقي الى أخيه

عبر المائدة بشيء ما ، ثم اتكأ على الأثر ، وجعل يجيل بصره بلا ضابط بوجه المتمرد المهان معاً ، ويبدو عليه التشتت بصورة غريبة . وحلت فترة مستطيلة قال السناتور في نهايتها : «يجب أن تعترف ياكريستيان أن هذه الخطط جاءت متأخرة قليلاً ، ويشترط بطبيعة الحال أن تكون خططاً حقيقية قابلة للتنفيذ ، لا من تلك التي صدرت عنك عن عدم التروي وعرضتها من قبل على المرحومة والدتك...»

قال كريستيان : «إن نياتي هي هي لم تتغير» . ولم ينظر وهو يقول هذا الى أحد إطلاقاً ولم يتغير تعبير وجهه بتاتاً .

«إن هذا محال بكل مراء . فقد انتظرت موت أمك لكي...»

«أجل لقد راعيت هذا . ويظهر أنك ياتوماس تميل الى الزعم بأنك وحدك من يستأثر في هذا العالم باللباقة ودقة الإحساس...»

«لست أعرف ما الذي يخولك الحق في هذه اللهجة . هذا الى أني يجب أن أعجب بمبلغ ماتبدي من مراعاة . إنك في نفس اليوم بعد وفاة أمك . تعلن عزمك على التمرد عليها...»

«لأن الحديث تناول ذلك . ثم أن المهم أن أمي لم تعد تستطيع أن تحول نيتي . وما لاتقدر عليه اليوم لم تقدر عليه قبل عام... بالله ياتوماس ، إن أمنا لم تكن على حق مطلق ، بل لعلها كانت محقة من وجهة نظرها فحسب . وقد راعيت وجهة النظر هذه طالما كانت في قيد الحياة . لقد كانت سيدة مسنة ، سيدة من زمن آخر ، لها طريقة مختلفة في النظر الى الأمور» .

ـ «والآن أبدي لك أن هذه الطريقة في النظر الى هذه النقطة التي نحن في صددها هي أيضاً طريقتي» .

ـ «لايسعني أن أوليها اهتمامي» .

ـ «سنوليها اهتمامك ياصديقي» .

فنظر اليه كريستيان .

وصاح : «كلا ـ! لايمكن! وإذا قلت لك أنني لايسعني ؟!... يجب أن أعرف ماعلي عمله . إني رجل رشيد...»

ـ «إن ماتقوله عن «الرجل الرشيد» شيء ظاهري جداً فيك! فأنت لاتعرف مطلقاً مايجب أن تفعله...»

ـ «بلى!... أسلك أولا مسلك الرجل الشريف . إنك لاتدري ما الموقف ياتوماس! هنا تجلس توني وجيردا... ولن يسعنا الكلام في حضرتهما بالتفصيل! لكنني على التحقيق قلت لك أن عليّ التزامات! الطفلة الأخيرة ، جيزيلا الصغيرة...»

ـ «لاأعرف شيئاً عما يسمى جيزيلا الصغيرة ، ولاأريد أن أعرف عنها شيئاً! إني أعتقد أنهم يكذبون عليك . وعلى كل فليس من التزام حيال ذلك الشخص الذي تعنيه سوى الالتزام القانوني الذي تريد أن تمضي في تأديته كما فعلت الى الآن...»

ـ «شخص ياتوماس ؟ شخص ؟ إنك مخدوع في أمرها! ألينه...»

فصاح السناتور بودنبروك بصوت كالرعد : «صه!» وحملق كل من الأخوين في وجه الآخر عبر المائدة ، توماس ممتقع اللون يرتعش من الغضب ، وكريستيان يحملق بعينيه الصغيرتين المستديرتين الغائرتين اللتين التهبا جفونهما بغتة ، في عنف ، فاغراً فاه كذلك من الغضب حتى بدا خداه الهزيلان أجوفين تماماً وظهرت تحت العينين قليلاً بضع بقع حمراء . فجعلت جيردا تقلب بصرها بين هذا وذاك ، وعليها سيماء الساخرة تقريباً ، وتوني تعتصر يديها وتقول مناشدة : «لكن ياتوم... لكن ياكريستيان... وأمنا راقدة على مقربة!»

وعاود السناتورالكلام : «إنك مجرد من كل شعور بالخجل الى حد أن تفعل ذلك... كلا ، إن ذكرك هذا الاسم في هذا المكان وفي هذه الظروف أمر لايكلفك أي مجهود أو أي ضبط للنفس . إن تجردك من الذوق أمر شنيع ، ممرض...»

فقال كريستيان : «إني لاأفهم لماذا لاينبغي لي أن أذكر اسم ألينه!» وبلغ من شدة انفعاله وتجاوزه كل حد أن جيردا جعلت تتأمله بانتباه متزايد . واستطرد : «إنني أتوق الى أن يكون لي بيت ، أتوق الى الهدوء والسلام ـ وإني لاأسمح ، أتسمع ، هذه هي الكلمة ، إني لاأسمح بأي تدخل من جانبك كائناً ماكان! فأنا حر ، أنا سيد نفسي...»

ـ «أنت منفعل! ستعلم يوم فتح الوصية كم أنت بعيد عن أن تكون سيد نفسك! لقد اتخذت الاحتياطات ، أتفهمني ، حتى لايكون منك مبدد لثروة أمنا كما بددت من قبل ثلاثين ألف مارك . سأدير ماتبقى من ثروتك ، ولن يصل الى يديك إلا مرتب شهري . هذا ماأقسم لك عليه...»

ـ «الآن تعرف خيراً مما يعرف غيرك من حمل الأم على هذا الإجراء . لكنه لامناص من أن أعجب من أن الأم لم تعهد بهذا الأمر الى أحد أقرب منك وأكثر أخوة لي... » وكان

كريستيان هنا أشد مايكون تهيجاً ، فشرع يقول أشياء لم يكن ليرفع عقيرته بها يوماً قط . فقد انحنى فوق المائدة ودق قرصها بطرف سبابته المقوسة دقاعاً متواصلاً ، وحملق بشاربه المنتفش وعينيه المحمرّتين في أخيه الذي كان من جانبه يطل عليه ناهضاً ممتقعاً ، مغمض الجفون نصف إغماضة .

ومضى كريستيان يقول بصوت أجوف ناعق معاً : «إن قلبك مليئ نحوي بالبرود والسخيمة وعدم الاعتبار . وبقدر مايسعني التفكير قد أطلقت علي سيلاً من برودك لأنتفض دائماً من البرد وأنا معك... نعم ، قد يكون هذا تعبيراً غريباً... لكنني إذا كنت أحسه هكذا ؟... إنك تصدني ، تصدني ولو لمجرد رؤيتي... وهذه الرؤيا أيضاً لاتنالني منك قط . فما الذي يخولك الحق في ذلك ؟ إنك أيضاً بشر ، ولك نقاط ضعفك . لقد كنت دائماً لأبوينا الابن الأفضل . فإذا كنت حقاً من القرب منهما بهذا القدر فقد كان ينبغي أن يكون لك شيء من تفكيرهما المسيحي . وإذا كان ينقصك بالفعل كل حب أخوي فلا أقل من أن انتظر منك نزراً من الحب المسيحي . لكنك مجرد من الحب الى حد أنك لاتزورني مرة... لم تزرني مرة واحدة في المستشفى وأنا راقد في هامبورغ بداء المفاصل...»

- «إن عندي من جد الأمور ماهو أشغل لي من أدوائك ، هذا أن صحتي نفسها...»

-«كلا ياتوماس ، إن صحتك على مايرام! وماكنت لتجلس هنا كما تجلس إن لم تكن صحتك بالنسبة لصحتي في الذروة...»

- «لعلي أشد علة منك» .

- «إذن لكنت... كلا ، فهذا شديد! توني ، جيردا! إنه يقول أنه أشد علة مني! كذا! ألعلك رقدت في هامبورغ بداء المفاصل عرضة للموت ؟! هل قدر لك أن تصبر بعد كل اضطراب بسيط على عذاب يتعذبه جسمك ينبو عن الوصف ؟! ألعل أعصاب جنبك الأيسر جميعاً أقصر مما ينبغي ؟! لقد أكد لي من يوثق بعلمهم أن هذه هي حالتي! فهل يحدث لك أشياء من قبيل أنك إذا دخلت الى حجرتك في العشية ترى رجلاً جالساً على أريكتك يومىء اليك ، ثم لايكون له مع ذلك وجود على الإطلاق ؟!...»

وصرخت مدام بيرمانيدر مرعبة قائلة : «كريستيان! ماهذا الذي تقوله ؟... يا إلهي ، علام تتشاجران في الحقيقة ؟ إنكما تفعلان كما لو كان شرفاً لأحدكما أن يكون هو الأعلى! فإذا كان الأمر هكذا فلي وجيردا الحق للأسف في أن تكون لنا كلمة في الموضوع! . هذا وأمنا ترقد على مقربة منا...»

وصاح توماس بودنبروك منفعلاً : «وأنت أيها الانسان ، ألا تفقه أن كل هذه المتاعب هي عواقب رذائلك ونتائج خمولك واشتغالك بنفسك ؟! اعمل! كف عن التفكير في حالاتك والإنطواء عليها والتحدث عنها!... فإذا جننت ـ وأقول لك صراحة أن هذا ليس بمستبعد ـ فلن أستطيع أن أذرف عليك دمعة واحدة ، ، لأن الذنب يكون ذنبك أنت وحدك...»

ـ «كلا ، كذلك لن تذرف عليَّ دمعة واحدة إذا مت» .

قال السناتور في ازدراء : «لن تموت» .

ـ «لاأموت ؟ حسناً ، إذن لن أموت . وسنري من منا يموت أولاً!... أعمل! فإذا لم أستطع ؟ إذا لم أستطع أن أواصل العمل ، ربنا الذي في السموات ؟! إني لاأستطيع أن أؤدي الشيء الواحد أمداً طويلاً ، فإنه يشقيني! فإذا استطعت أنت وكنت تستطيعه فاحمد الله على ذلك ، لكن لاتقم نفسك حكماً ، فلا فضل في ذلك يعود عليك ، فالله يهب هذا القوة ولايهبها ذاك» . ومضى يقول وهو مايزال مكباً بوجهه المقطب على المائدة يزداد دقه على قرصها عنفاً : «إنك ممن ينصفون أنفسهم دون الغير . انتظر فحسب ، فليس هذا ماأردت أن أقول وأن آخذك به... لكنني لاأعرف أين أبتدىء . وذلك الذي سأستطيع قوله إن هو إلا جزء من ألف ، بل جزء من المليون مما أسره في نفسي . لقد نلت مكانة في الحياة ، مركزاً مكرماً . وها أنت ذا تقف الآن وترفض جامداً واعياً كل مايمكن أن يضلك لحظة ويخل توازنك . ذلك أن التوازن عندك هو أهم شيء . لكنه ليس بالشيء الأهم! إنك أناني ، أجل ، إنك لكذلك! ولازلت أحبك حين تعنف ، وحين تثير المناظر ، وحين تعصف . لكن أسوء ماهنالك كله هو صحتك ، إنه لأسوأ شيء أن تسكت بغتة على شيء يقوله أحد ، وتنسحب وتأبى كل تبعة ، وجيهاً ، سليماً ، تدع الغير لخجله وقلة حيلته... إنك مجرد من العطف والحب والتواضع...» وصاح بغتة وهو يحرك كلتا يديه خلف رأسه ثم يدفعهما بعد ذلك بعيداً الى الأمام كأنما يرد العالم أجمع عن نفسه : «أخ! لقد شبعت من كل ذلك ، من تلك اللباقة والكياسة والتوازن والوجاهة والوقار... شبعت وغصصتَ...» وكانت هذه الصيحة الأخيرة صادقة الى حد كبير . إذ كانت صادرة عن القلب ، خارجة في توكيد لما يعتمل في نفسه من نفور وضيق ذرع بلغ منه أنه كان فيه في الحق شيء قاصم ، أجل ، وأن توماس تداعى منه قليلاً ، وخفض بصره برهة ، وظل لاينطق ببنت شفة ، تبدو عليه أمارات التعب .

وقال أخيراً وصوته يرن متأثراً : «لقد أصبحت من أنا ، لأني لم أرد أن أكون من

أنت . وإذا كنت قد تحاشيتك في نفسي فقد فعلت لأنه كان علي أن أتحاشاك ، لأن كينونتك وكيانك خطر علي... إني أتكلم الحقيقة » .

وسكت لحظة ثم استأنف الكلام يقول في لهجة أوجز ونغمة أكثر تمكناً : « لقد بعدنا عن الموضوع كثيراً . لقد ألقيت علي خطاباً عن خلقي... خطاباً مضطرباً بعض الشيء لعله حوى ذرة من الحقيقة . لكن الأمر الآن لايتعلق بي بل بك . فأنا تستولي عليّ فكرة الزواج ، وأحب أن أقنعك على قدر الإمكان اقناعاً كافياً أن تنفيذ الزواج بالصورة التي تدبرها محال . فأولاً ستكون الفائدة التي سأستطيع دفعها لك غير مشجعة أبداً... »

ـ ـ« لقد ادخرت ألينه شيئاً » .

فبلع السناتور ريقه وضبط نفسه :

« كذا... ادخرت . إذن أنت ترى أن تخلط ميراثك من أمك بمدخرات هذه السيدة... »

ـ « نعم ، إني أهفو الى أن يكون لي بيت ، وأشتاق أحداً يعطف عليّ إذا مرضت . هذا الى أننا يوافق أحدنا الآخر ، ونحن كلينا مرتبكان قليلاً... »

ـ « ولنفكر بعد ذلك في تبني الأولاد..أو بالمناسبة الاعتراف بهم ؟ »

ـ « أجل » .

ـ « لكي تؤول ثروتك من بعدك الى هؤلاء الناس ؟ » ـ فلما قال السناتور ذلك وضعت مدام بيرمانيدر يدها على ذراعه وهمست في أذنه متوسلة : « توماس! إن أمنا ترقد هنا على مقربة!... »

وأجاب كريستيان : « أجل ، فهذا هو الواجب » .

فصاح السناتور وقد هب واقفاً : « إذن لن تفعل شيئاً من هذا! » ونهض كريستيان كذلك ، ووقف خلف كرسيه ، وقبض عليه بإحدى يديه ، وضغط ذقنه على صدره ، ونظر الى أخيه نصف متهيب ، ونصف غاضب .

وأعاد توماس بودنبروك وهو يكاد يجن من الغضب ، شاحب اللون ، مرتعشاً تختلج حركاته ـ أعاد قوله : « لن تفعل هذا ... مادمت في قيد الحياة فلن يقع هذا... إني أقسم لك... فاحترس! وحذار... ؟ لقد كفى ماأضعنا من مال بالمصائب والحماقة والحقارة حتى تتجاسر على أن تلقي بربع ميراث أمنا في حجر هذه المرأة وحجر أولادها سفاحاً... وهذا بعد أن احتال تيبورتيوس على ربع آخر... لقد ألحقت بالأسرة من الهزء يارجل مافيه كفاء ، فلا حاجة الى أن تربطنا بمصاهرة عاهرة ، وإكساب أولادها اسمنا . إني أحظر عليك هذا ، أتسمع ؟

إني أمنعك منه! » قال هذا صائحاً بصوت دوى في القاعة ، وانزاحت منه مدام بيرمانيدر الى ركن الأريكة باكية . واستطرد : « وإياك أن تجرؤ على مخالفة هذا المنع! فأنا أنصحك! لقد كنت الى الآن أحتقرك فحسب ، وكنت أتخطاك بنظري... لكنك إذا تحديتني وتجاوزت الحدود فسنرى من تدور عليه الدائرة! فاحذر ، إني أقول لك... إني لن أبدي بعد الآن مراعاة! سأعلن سفهك وأحبسك وأقضي عليك! أقضي عليك ، أتفهمني ؟!... »

وبدأ كريستيان : « وأنا أقول لك... » وتحول مابينهما الى تراشق بالألفاظ ، تراشق بلا ضابط ، لاطائل تحته ، يدعو الى الأسف ، ولايتوخى موضوعاً أو يخدم غرضاً غير الإهانة وتجريح الواحد للآخر تجريحاً أليماً .

فتناول كريستيان خلق أخيه من جديد ، ونبش في ماضيه ملامح فردية وحكايات مؤلمة أراد بها توكيد أنانية توماس . ولم يكن توماس قد نسيها ، بل كان يتذكرها ويشبعها مرارة . وأجابه السناتور بكلمات غلا فيها في الاحتقار والتهديد ثم ندم عليها بعد عشر دقائق . وكانت جيردا تعتمد رأسها في يدها ، وتراقب الاثنين بعينين مقنعتين وسيماء لاسبيل الى اكتناهها . أما مدام بيرمانيدر فكانت لاتفتأ تعيد في يأس : « إن أمنا ترقد بجانبنا... أمنا قريبة منا... »

ثم جلا كريستيان أخيراً عن ميدان القتال ، وكان يغدو في الترجيعات الأخيرة في الغرفة ويروح . صاح : « حسناً ، سنرى! » وخطا الى الباب بشارب مشوش ، وعينين حمراوين وسترة مفتوحة يمسك في يده المرخاة بمنديله ، حامياً ، يغلي من الانفعال . ثمّ أغلق الباب وراءه .

ووقف السناتور في السكون الفجائي لحظة أخرى منتصب القامة ، وسدّد نظرة في الاتجاه الذي اختفى فيه أخوه . ثم جلس صامتاً ، وتناول الأوراق من جديد بحركات مقتضبة من يده ، وأنجز في عبارات جافة ماكان عليه إنجازه ، واتكأ وهو يمرر طرفي شاربه من خلال أصابعه ويستغرقه الفكر .

وخفق قلب مدام بيرمانيدر من فرط الخوف! والمسألة ، المسألة الكبرى لم يكن ينبغي تأجيلها أطول من ذلك ، فوجب أن تبحث ، ووجب أن يجيب عنها... لكن مهلاً ، فهل كانت نفسيته الآن بحيث تغلب التقوى ولين العريكة ؟

وأنشأت تقول وهي تنظر أولاً في حجرها ثم تحاول كارهة أن تقرأ في سيماه : « و... توم... الأثاث... لقد فكرت في كل شيء بطبيعة الحال ... فالأشياء التي تخصنا ، أعني ايريكا

والصغيرة ونفسي... تبقى هنا... معنا... قصارى القول... البيت ، ماذا يكون من أمره ؟ » سألته عن هذا وجعلت تفرك يديها خلسة .

فلم يجب السناتور من فوره ، بل استمر لحظة يفتل شاربه ، ويتأمل في نفسه ، ويفكر ، ثم مالبث أن تنفس الصعداء وهب واقفاً .

قال : «البيت ؟ إنه يخصنا بطبيعة الحال جميعاً ، أنت وكريستيان وأنا... والقس تيبورتيوس أيضاً ، وهو مايضحك . ذلك أن نصيبه هو ميراث كلارا . وليس لي وحدي أن أفصل في هذا الأمر مما يتطلب موافقتكما ، غير أن الحالة القائمة تجعل من البديهي أن نبيعه بأسرع مايمكن » . وكان هذا ختام كلامه وهو يهز كتفيه . ومع ذلك فقد لاح عليه كأنما أجفل من كلامه نفسه .

وكانت مدام بيرمانيدر مطرقة برأسها إطراقاً شديداً ، فكفت عن اعتصار يديها ، وأرختهما بغتة .

وأعادت بعد برهة ، حزينة ، في شيء من المرارة : «موافقتنا ، يا إلهي! إنك تعلم جيداً ياتوم أن لك أن تفعل ماتراه صواباً ، وأننا نحن الآخرين لايسعنا أن نحبس عنك موافقتنا طويلاً! لكن... » ومضت تقريباً بلا حس ، وقد جعلت شفتها العليا ترتعش : «إذا جاز لنا أن نقول كلمة...أن نرجوك . إن البيت ، بيت أمي! بيت والدينا! البيت الذي سعدنا فيه هذه السعادة! كيف نبيعه...! »

فهزّ السناتور كتفيه من جديد .

«إنك ستصدقينني ياطفلة إذا ماقلت لك أن مايسعك ابداوه لي يحركني جداً كما يحركك من دون اعتبار آخر... لكن هذا لايكون ردوداً تبدى بل عواطف . فما سوف يعمل ، أمر تقرر ، فعندنا قطعة الأرض الكبيرة هذه ، ماذا نصنع بها الآن ؟ فمنذ أمد طويل ، منذ وفاة أبينا يتداعى البناء الخلفي كله . وفي قاعة البليار تعيش أسرة طليقة من القطط ، فإذا اقترب المرء تعرض لخطر الجنوح في أرض القاعة... ثم ، لو لم يكن لي بيتي في حفرة السماكين! لكنه لي بالفعل ، فماذا أفعل به ؟ هل الأفضل أن نبيعه ؟ احكمي بنفسك... ولمن ؟ إني لو فعلت لخسرت نصف ثمنه . آه ، ياتوني ، إن عندنا الكفاء من قطع الأرض ، إن عندنا منها أكثر كثيراً مما ينبغي! المخازن وبيتين كبيرين! وقيمة قطع الأرض تكاد لاتتناسب مع رأس المال السائل! كلا ، البيع ، البيع!... »

لكن مدام بيرمانيدر لم تلق السمع . فقد كانت جالسة منطوية على نفسها جسماً وروحاً ، تنظر بعينيها الثريتين الى الفضاء .

وتمتمت قائلة : «بيتنا! لاأزال أذكر كيف دشناه... ولم نكن آنئذ أكبر من كذا . كانت الأسرة كلها حاضرة ، وألقى العم هوفشتيده قصيدة إذ ذاك . وهي في الملف... أعرف ذلك عن ظهر قلب... ڤينوس أنا ديومين... وحجرة المناظر الطبيعية! وقاعة الأكل! وأناس غرباء...!

«أجل ياتوني ، هكذا لابدّ أن يكون قد فكّر آنئذ أولئك الذين غادروا البيت لما اشتراه جدنا . لقد أضاعوا مالهم وكان عليهم أن ينتقلوا منه ، حق عليهم الموت ، وحق عليهم الدمار ولكل شيء أجله ، فلنفرح ولنحمد الله أننا لم نصل بعد الى الحد الذي وصل اليه إذ ذاك آل راتنكامب ، وأننا سنودّع هذا المكان في أصلح من الظروف التي كانوا فيها...! »

وقطع عليها الحديث انتحاب منه بطيء مؤلم وإجهاش للبكاء . وكان تفاني مدام بيرمانيدر في حزنها من القدر بحيث لم تفكر مرة في تجفيف دمعها الذي كان يجري على خديها .وقد كانت جالسة منحنية الى الأمام ، متهالكة ، فسقطت دمعة دافئة على يديها الباهتتين المستقرتين على حجرها دون أن تلقي اليها بالها .

واستعادت لصوتها الذي كان الدمع يهدد بخنقه خافتاً مؤثراً وقالت : «توم ، إنك لاتعلم مايعتمل في نفسي في هذه الساعة . كلا ، إنك لاتعلمه . إن الحياة كانت قاسية على أختك فعبثت بها وضارتها . لقد نزلت بي كل المصائب التي يمكن أن تخطر ببال... ولست أعلم بم استحققت ذلك . لكني تقبلت كل شيء من دون تذمر ياتوم ، هذا الذي جرى مع جرينليش . وذلك الذي وقع من بيرمانيدر ، والذي حدث مع ڤاينشنك . ذلك أني كلما قدر الله أن تستنفد حياتي قطعة قطعة لم أضع كل الضياع . كنت أعرف مكاناً ، ومرفئاً أميناً واستطعت أن ألجأ اليه من كل متاعب الحياة... ومازال ألجأ اليه الى اليوم بعد أن انتهى كل شيء وبعد أن اقتادوا ڤاينشنك الى السجن... قلت : أماه! أتسمحين لنا أن ننتقل اليك ؟ ـ أي أطفالي تعالين... ولما كناصغاراً نلعب لعبة «الحرب» ياتوم ، كانت هناك دائماً نقطة ، بقعة محدودة كنا نستطيع أن نرتاح فيها . بيت أمنا . هذا البيت هنا كان نقطتي في الحياة ياتوم... والآن... الآن نريد بيعه» .

واتكأت ، وأخفت وجهها في منديلها وبكت بكاء مراً .

وأنزل أخوها إحدى يديها وتناولها في يده .

«إني أعرف ياعزيزتي توني ، أعرف هذا كله! ولكن ألا ما التزمنا العقل قليلاً ؟... لقد

ذهبت أمنا الطيبة الى رحمة الله . فلن نستعيدها . فماذا إذن ؟ إن من خطل الرأي أن نبقى في هذا البيت رأس مال ميتاً . ولابد أن أعرف هذا ، أليس كذلك ؟ فهل نحيله الى ثكنة للإيجار ؟... إنه ليشق عليك أن يسكن هنا غرباء ، لكنه خير مع ذلك ألا تشاهدي هذا معنا ، بل أن تكتري لك ولذويك بيتاً صغيراً جميلاً أو طابقاً في مكان ما قبالة «البوابة» على سبيل المثال... أو أنك تؤثرين أن تسكني هنا مع عدد من المستأجرين ؟... ثم إن أسرتك موجودة دائماً : جيردا وأنا وآل بودنبروك القاطنات في الشارع العريض وآل كروجر وكذلك الآنسة فيشبروت... ولانذكر كلوتيلده التي لاأعلم هل يوافقها الاختلاط بنا . فمنذ أن باتت سيدة من سيدات الدير جعلت تحتجب قليلاً...» .

وتنهدت تنهداً نصفه ضحك ، وحولت وجهها ، وضغطت المنديل على عينيها ضغطة أشد ، عابسة كالطفل الذي يسعى الى تخفيف ألمه بدعابة ، لكنها بعد ذلك كشفت عن وجهها في تصميم ، واعتدلت في جلستها بأن أطرحت رأسها الى الوراء ، وحاولت مع ذلك أن تضغط ذقنها على صدرها كما تفعل دائماً كلما اقتضى الأمر أن تظهر شخصيتها وتبدي هيبتها .

قالت وهي تطرف بعينيها الباكيتين الى ماوراء النافذة ، وعليها سيماء الجد والتمالك : «أريد أن أبدي كذلك فهماً... وإني لكذلك... يجب أن تغفر لي... وأنت أيضاً ياجيردا...إني بكيت . فهذا يمكن أن يحصل... فهو نقطة من نقط الضعف... لكنه ظاهري فقط صدقاني... فأنتما تعلمان تماماً أني في تصميمي امرأة عركتها الحياة... أجل ياتوم . إن ماقلت عن رأس المال الميت قد بصرني بمبلغ فهمي... إني لايسعني إلا أن أكرر أن لك أن تفعل ماتراه صواباً ، يجب أن تفكر لنا وتعمل من أجلنا ، ذلك أني وجيردا امرأتان وكريستيان... كان الله معه! إننا لايمكن أن نناهضك ، ذلك أن مايمكن أن نبديه ليس بأشياء مادية بل عواطف ، وهذه موجودة . لمن تريد أن تبيع البيت ياتوم ؟ أترى أن يتم البيع عما قريب» .

«لو أني أستطيع أن أعرف هذا ياطفلتي... وعلى كل حال... لقد تبادلت صباح اليوم مع جوش السمسار القديم بضع كلمات بالفعل ، فظهر لي أنه لايرفض تولي البيع...»

«إن هذا ليكونن حسناً ، أجل حسناً ، ولسيجموند جوش بطبيعة الحال نقط ضعفه . . . تلك المتعلقة بترجماته عن الاسبانية ، حيث يقص الناس ـ لا أستطيع أن أعرف اسم الشاعر ـ فهو شيء غريب ، لابدّ أن تسلم بذلك ياتوم ، لكنه كان صديقاً لأبي ، وهو رجل ريف من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، ثم إن له قلباً ، وهذا مايعرف به ، وسيدرك أن الأمر هنا

لايتعلق بأي شراء وأي بيت... فما تظن يا توم ان تطلب في مقابلته ؟ أن مائة ألف مارك هي أقل ما يجب طلبه ، أليس كذلك ؟...»

ثم عادت تقول : «إن مائة ألف مارك هي أقل مايمكن ياتوم» . وكانت ممسكة بالباب حين هبط أخوها وزوجته الدرج فعلاً ، ثم وقفت في وسط الحجرة ، وبقيت وحدها ، ساكتة ، شابكة يديها المرتخيتين أمامها بحيث كانت راحتاها متجهتين الى أسفل ، وجعلت تنظر بعينين كبيرتين من حولها على غير هدى ، وتهزّ رأسها المزدان بقلنسوة من الدنتيلا السوداء ، بلا انقطاع هزّاً خفيفاً ، وهو ينخفض تدريجياً ، مثقلاً بالأفكار على كتفها .

الفصل الثالث

وقف يوهان الصغير يودع جدته وهي مسجّاة يطويها الموت . أمر بذلك أبوه ولم يصغ في ذلك الى اعتراض ، وإن كان خشي مآأمر به . وفي اليوم الذي صارعت فيه القنصلة الموت هذا الصراع العنيف كان السناتور وهو على المائدة وفي حضور ولده فيما يظهر ، قد أنحى على مسلك عمه كريستيان بكلمات قاسية قالها لزوجه ، إذ كان كريستيان ، والمريضة في أسوأ حال ، قد تسلل وتوجه الى النوم . فأجابته جيردا : «إنها الأعصاب ياتوماس» . لكنه رد عليها وهو ينظر الى هانو نظرة لم تفت الطفل بحال من الأحوال ، بقوله أنه لامحل هنا لكلمة اعتذار فقد عانت الأم المرحومة معاناة يجب أن يخجل المرء معها من أن يشهد ألمها بلا تألم ويتخلص بجبن من هذه المشاركة اليسيرة التي كان مرأى صراعها خليقاً أن يثيرها . وقد استخلص هانو من ذلك أنه لايجوز له أن يجرؤ على الاعتراض على زيارة الجدة وهي على فراش الموت في نعشها المكشوف .

وقد بدا له المكان الفسيح ، كما بدا في ليلة عيد الميلاد ، غريباً ، لما دخله من بهو الأعمدة بين أمه وأبيه في اليوم السابق للدفن . وكانت على قائمة سوداء نسخة من كتاب ثورد ڤالدسن «المسيح المبارك» اتخذت مكانها في الطرقة تلمع بيضاء الى جانب الخضرة الداكنة لأصص كبيرة من النباتات تتعاقب مع شمعدانات فضية عالية وتؤلف نصف دائرة . وكان يرفرف في كل مكان على الحيطان في تيار الهواء شاش أسود يستر زرقة السماء البادية في توريق الحيطان وفي ابتسامة تماثيل الآلهة البيضاء على السواء ـ تلك التي طالما شهدت ماكان يؤدب في هذه القاعة من مآدب في مرح وحبور ووقف يوهان الصغير الى جانب المحمل ينظر الى الجثمان الساكن ممدداً أمامه بين الأطلس الأبيض وعليه سيماء الصرامة والجلال .

وكان من حول يوهان أقاربه ضافية عليهم ثياب الحداد ، ومن حوله كم بزة البحار الذي يرتديها شريط الحداد العريض ، تشوب حسه تلك الروائح المتضوعة من هذه الزخرفة من باقات الزهور والأكاليل التي كان يخالطها عبير آخر غريب ، لكنه معروف مع ذلك بصورة عجيبة ، عبير خافت كل الخفوت لايلحظ إلا مع هذا النفس أو ذاك... نعم كان يوهان الصغير واقفاً هناك بالقرب من النعش ينظر في الشكل المتحجر المسجى أمامه مغطى بالساتان الأبيض في جد وقسوة .

لم تكن هذه جدته . وكان من بين ماأخذته عينه قلنسوتها التي ألفت وضعها في المجتمعات تحفها بالشرائط الحريرية البيضاء ، وشعرها الكستنائي الأحمر . لكن هذا الأنف الحاد ، وهاتين الشفتين الغانصتين ، وهذا الذقن البارز ، وهاتين اليدين الصفراوين الشفافتين المتشابكتين الباردتين المتيبّستين . كل هذا لم يكن مما عهده فيها . فهذه التي رآها كانت دمية غريبة من الشمع لو أنها فطرت على هذا النحو ليحتفل بها لأثارت الرعب . وحوّل بصره الى حجرة المناظر الطبيعية كأنما يترقب أن تظهر فيها جدته الحقيقية في اللحظة التالية... لكنها لم تأت . كانت قد رحلت واستبدل بها الموت الى الأبد هذا التمثال من الشمع الذي يغمض جفونه ويطبق شفتيه في عناد وصد اطباقاً شديداً...

كان يقف على الساق اليسرى ، حانياً الساق اليمنى بحيث تتوازن قدمه على طرفها ، يضم بإحدى يديه إنشوطة البحار على صدره وتتدلى الأخرى بجانبه . وكان رأسه مائلاً الى جنب بشعره الكستنائي الرائق المخصل ، المتهدل فوق سالفيه ، وتحت حاجبيه المقطبين عيناه العسليتان ، تحيطهما هالة مائلة الى الزرقة ، تطرفان وتنظران الى محيا الجثمان معبرتين عن النفور والتفكير . وكان يتنفس في بطء وتردد ، ذلك انه كان ينتظر مع كل نَفَس ذلك الشذى الغريب الذي يعرفه مع ذلك بصورة عجيبة والذي لم تستطع غيوم روائح الأزهار أن تمنع تضوعه . فإذا فاح وتبينه قَطَبَ حاجبيه أشد مما يفعل واستولت على شفتيه الرعشة لحظة... وأخيراً تنهد ، لكنه كان كمن ينتحب بلا دموع حتى انحنت عليه مدام بيرمانيدر وقبلته ثم اقتادته .

وبعد أن تلقى السناتور بودنبروك مع مدام بيرمانيدر وايريكا ڤاينشنك تعازي المدينة في حجرة المناظر الطبيعية ساعات طويلة ، ووريت اليصابات بودنبروك المولودة باسم كروجر ـ التراب . وقد حضر دفنها أقرباء لها يقيمون في الخارج ، جاءوا من فرانكفورت وهامبورغ ، وضيفوا لآخر مرة في بيت شارع منج . وقد كان آل الميتة يملأون القاعة

وحجرة المناظر الطبيعية وبهو الأعمدة والطرقة لما أخذ القس برنجزهايم راعي الكنيسة العذراء مريم يلقي كلمة التأبين بين الشموع المحترقة يحف به الجلال عند رأس النعش مولياً شطر السماء وجهه الحليق الذي يتراوح تعبيره بين التعصب الجهم والتجلي الوادع ويقوم فوق تجاعيد الرقبة العريضة المتغضنة .

وقد أثنى على صفات الراحلة بعبارات يعلو فيها الصوت ويخفت ، وامتدح وجاهتها وتواضعها ومرحها واحسانها وأمانتها ، وذكر «أماسي» أورشليم و«مدرسة الأحد» ونوه في لهجته العامية البهية مرة أخرى بالحياة المديدة الغنية السعيدة الخالدة التي قضتها فوق هذه الأرض... ولما كانت كلمة «خاتمة» تحتاج الى نعت فقد تحدث في النهاية عن خاتمتها الوادعة .

وكانت مدام بيرمانيدر تعرف جيداً ماهي مدينة به في هذه اللحظة لنفسها وللجماعة كلها من هيبة وهيئة وجيهة فاحتلت هي وابنتها ايريكا وحفيدتها اليصابات أظهر أمكنة الشرف على مقربة من القسيس ، وعند رأس النعش المغطى بالأكاليل ، بينما توماس وجيردا وكريستيان وكلوتيلده ويوهان الصغير ، وكذلك القنصل كروجر الشيخ الذي كان جالساً على كرسي ـ بينما هؤلاء قد رضوا شأن أقرباء الدرجة الثانية ، أن يشغلوا في الحفلة أماكن أقل احتراماً . كانت واقفة هناك منتصبة القامة ، مرفوعة الكتفين قليلاً ، تضم يديها على منديل الباتستا ، فخورة بالدور الأول الذي كان من نصيبها في هذا الاحتفال الى حد أن فخرها هذا كان ينسيها ألمها تماماً أحياناً . وعيناها اللتان كانت تجيلهما في الجمع هنا وهناك ، فتتبين فيه أيضاً جوليا مولندروف ـ وهي من أسرة هاجنشتروم ومعها زوجها... إذ كان فرضا عليهم جميعاً أن يأتوا : آل مولندروف وكستنماكر ولانجهالز وأوڤرديك! فقبل أن تجلو توني بودنبروك عن بيت والديها يجب عليهم أن يجتمعوا هنا مرة أخرى ليقدموا اليها تعازيهم واحتراماتهم على الرغم من جرينليش وبيرمانيدر وهوجو ڤاينشنك...!

وجعل القس برنجزهايم ينكأ بتأبينه الجرح الذي أحدثه الموت ، فعرض أمام عيني كل منهم حساباً لما فقده ، وفهم كيف يفجر الدمع من أعين لم تكن لتذرفه من تلقاء نفسها . وقد حمد له المتأثرون ذلك ، فلما تناول بالكلام «أماسي أورشليم» أخذت صديقات الراحلة العجائز جميعهن ينتحبن فيما خلا مدام كيتلزن التي لم تكن تسمع شيئاً ، وكانت تنظر أمامها في اتجاه مستقيم وعليها ملامح الصماء المغلقة ، والأختين جيرهارت سلالة باول جيرهارت ، اللتين كانتا واقفتين في أحد الأركان يداً في يد ، صافيتي الذهن . ذلك

أنهما كانتا مغتبطتين بموت صديقتهما لاتحسدانها لسبب واحد هو أن قلبهما لم يكن يعرف حسداً ولا غلاً .

أما الآنسة ڤيشبروت فكانت تتمخط بلا انقطاع في نبرة وجيزة قوية . لكن سيدات بودنبروك ساكنات الشارع العريض كنّ بخيلات بدموعهن . ولم تكن هذه عادتهن ، فكانت أساريرهن وقد خفت حدتها عن المألوف ، تعبر عن رضى ، رضى عن عدالة الموت الذي لايتحيز .

ولما تلاشت آخر آمين للقس برنجزهايم ، جاء حَمَلة النعش الأربعة بقبعاتهم السوداء المثلثة الأركان يخافتون ، لكنهم مع ذلك يسرعون الى حد أن كانت معاطفهم السوداء من ورائهم منتفخة ، وألقوا أيديهم فوق النعش . كانوا أربعة وجوه خدم أجراء يعرفهم كل أحد ، ويقدمون في كل وليمة عشاء تقام في المحافل الراقية الصحاف الثقيلة ، ويشربون في الدهاليز النبيذ الأحمر الذي يبيعه مولندروف في الدوارق . كذلك لم يكن يستغنى عنهم في جنائز الطبقتين الأولى والثانية ، إذ كان حذقهم لهذا العمل كبيراً . كانوا يعرفون جيداً أن هذه اللحظة ، والنعش يتناوله غرباء من بين الباقين ويذهبون به الى غير عودة ، يجب أن تمر في لباقة ومهارة . وقد رفعوا الحمل عن المحمل الى أكتافهم بحركتين أو ثلاث خفيفة قوية لم يسمع لها حس . وقبل أن يتسع لأحد وقت لتبين رعب هذه اللحظة كان النعش المغطى بالأزهار يترنح ويختفي من المكان دون إبطاء وفي سرعة مقدرة مع ذلك ، مخترقاً بهو الأعمدة .

وتزاحمت السيدات من حول مدام بيرمانيدر وابنتها محاذرات ، متنبهات ، ليصافحنها ، خافضات أبصارهن ، متمتمات ما وجب أن يتمتم في هذه المناسبة لاأقل ولاأكثر ، بينما استعد السادة للهبوط الى المركبات...

وسار الموكب الطويل المتشح بالسواد والركبة الطويلة الوئيدة في الشوارع المعتمة الرطبة مخترقة بوابة القصر الى خارجها على امتداد الطريق العاري من ورق الأشجار ، المطير بغيث بارد متطاير حتى بلغ المقبرة حيث سار المشيعون على الأقدام خلف النعش فوق الطرقات الممهدة ، بينما كان مارش الحداد يرن خلف دغل نصف عار الى مكان ارتفعت فيه في مدفن أسرة بودنبروك على حافة الغابة لوحة أسماء غوطية متوّجة بصليب كبير من الحجر الرملي . وكان غطاء القبر الحجري المزدان برنك الأسرة المنحوت ملقى بجانب الحفرة السوداء المحاطة بالخضرة البليلة .

لقد أعد المكان هناك للقادم الجديد ، وأخلى قليلاً في الأيام الأخيرة تحت اشراف السناتور ، ونحيت رفاة بعض آل بودنبروك ممن تقادم عليهم العهد جانباً . وبينما كانت أصوات الموسيقى تتلاشى تدلى النعش من حبال الحمالين فوق الحفرة المبطنة بالحجارة وانزلق الى أسفل منها ، وأنشأ القس برنجزهايم يتكلم من جديد مدثراً معصمه ليدفنه ، وكان صوته المدرب يرن واضحاً ، مؤثراً ، عامراً بالتقوى ، فوق القبر المفتوح وعبر رؤوس الحاضرين المنحنية أو المائلة من الأسى الى جنب ، يشق هواء الخريف البارد الساكن . وأخيراً انحنى فوق الحفرة وخاطب الميتة باسمها الكامل ، وباركها بعلامة الصليب . فلما سكت وأمسك السادة بأيديهم المكسوة بالسواد قبعاتهم العالية أمام وجوههم ليصلوا ساكنين ، طلعت الشمس قليلاً ، وأقلعت السماء ، وسمع هنا وهناك تغريد الطيور وجيزاً رقيقاً متسائلاً مختلطاً بوقع القطرات التي كانت تتساقط فرادى من الأشجار والشجيرات .

ثم أخذ كل من المشيعين يصافح ابني الميتة وأخاها كرّة أخرى .

وكان توماس بودنبروك واقفاً بين أخيه كريستيان وخاله يوستوس في هذا العرض ، قد علا قماش معطفه السميك الداكن قطرات فضية دقيقة كالندى من مخلفات المطر .

وكان في العهد الأخير قد جعل يسمن قليلاً ـ وهي الأمارة الوحيدة في مظهره المعتنى به على أنه بدأ يهرم . وكان خداه اللذان جار عليهما شاربه المفتول قد استدارا لكنهما كانا شاحبين قد زايلهما الدم وجفتهما الحياة ، وكانت عيناه المحمرتان شيئاً ما تنظران الى وجه سيد احتوت يده يده لحظة في أدب فاتر .

الفصل الرابع

بعد ذلك بثمانية أيام كان يجلس في حجرة مكتب السناتور بودنبروك الخاص على المقعد الجلدي القائم الى جانب المكتب شيخ قصير القامة ، حليق الذقن ، ذو شعر أبيض ناصع البياض ، يتهدل عميقاً على جبينه وسالفيه . وكان منحنياً يسند كلتا يديه على عكازة عصاه البيضاء ، ويستقر فوق اليدين ذقنه البارزة المدببة ، يحدج السناتور بنظرة منكرة ، نافذة ، رديئة ، أطبق لها شفتيه ، وسحب زاويتي فمه ، نظرة بلغ من نكرها ونفوذها ورداءتها أن بدا من غير المفهوم كيف لم يتجنب السناتور أن يكون بينه وبين مثل هذا الانسان شيء مشترك . على أن توماس بودنبروك كان يجلس من دون أن يبدو عليه قلق ، وكان يتحدث الى هذه الظاهرة الشيطانية الرديئة كما يتحدث الى مواطن عديم الأذن... فقد كان يجري بين رئيس متجر توماس بودنبروك والسمسار سيجسموند جوش تشاور على المبلغ الذي يباع به البيت العتيق الكائن بشارع منج .

وقد استغرق هذا التشاور زمناً طويلاً ، إذ بدا العرض المقدم من السيد جوش وهو ٢٨,٠٠٠ ريال ـ بدا للسناتور جد ضئيل ، بينما قد ارتضى السمسار لنفسه أن يدخل جهنم إذا لم يكن جنوناً أن يضيف الى هذا المبلغ ولو قرشاً من الفضة . وقد تكلم توماس بودنبروك عن الموقع المركزي والنطاق غير العادي الذي تمتاز به قطعة الأرض ، لكن السيد جوش ألقى بصوت أجش ، مكتوم ، مرير ، وشفتين مزمومتين ، وسيماء تثير الرعب ، محاضرة عن المخاطرة المرهقة التي أخذها على عاتقه ، وأبدى إيضاحاً كان في تأثيره وحيويته يمكن تقريباً أن يعد قصيدة... ها! متى ولمن وبكم يمكن أن يبيع هذا البيت مرة ثانية ؟ كم مرة يمكن على كر السنين والأيام أن يطلب أحد مثل هذه القطعة من الأرض ؟

لعل صديقه وراعيه المحترم يعده بأن يصل غداً بالقطار القادم من بيشن نائب من الهند ليقيم في بيت بودنبروك ؟ وأنه ـ سيجسموند جوش ـ سوف يقتنع بهذا... سوف يظل جالساً ويكون رجلاً مهزوماً مقضياً عليه نهائياً ، فلا يعود يجد من الوقت مايسمح له بالنهوض ، إذ يكون الأجل قد جاء ، وقبره قد حفر ـ يكون قد حفر قبره... وإذ راقته هذه العبارة فقد أضاف اليها شيئاً عن الأرواح الشريرة المرتعدة وعن التراب المهيل المهدود على غطاء النعش...

ومع ذلك لم يعلن السناتور رضاه ، فقد تكلم عن قابلية قطعة الأرض للتقسيم بصورة عظيمة ، وأكد التبعة التي ينهض بها حيال إخوته ، وأصر على أن يتقاضى ٣٠,٠٠٠ ريال ليسمع بعد ذلك في مزيج من ثورة الأعصاب والرضى رداً سديداً من السيد جوش . وقد دام هذا ساعتين كاملتين عرضت له في خلالهما مناسبة لإظهار كل فنون شخصيته ، فلعب في نفس الوقت لعبة مزدوجة ، ومُثل الخبيث المرائي . قال بصوت عذب ، وهو يميل برأسه الى جنب ، ويحول وجهه الذي تنتهبه الحركات الى ابتسامة تعبر عن سذاجة القلب ، ويمد يده الكبيرة البيضاء ذات الأصابع الطويلة المرتعشة .

قال : «اقبل ياحضرة السناتور ياراعي الشباب... اقبل ٨٤٠٠٠ مارك ، فهي عرض من رجل مسن شريف! » لكن هذا كان كذباً وغدراً! فهذا القناع المداجي الذي تطل من تحته نذالة هذا الرجل المتأصلة في صورة منكرة لما يستشفه طفل ويكشفه .

وأخيراً أعلن توماس بودنبروك أنه لابد له من وقت للتفكير ومشاورة إخوته في هذه اللحظة على موضوع محايد فاستعلم عن مبلغ ماأصاب السيد جوش في تجارته من التوفيق واستفسر عن صحته .

ولم تكن صحة السيد جوش على مايرام ، وإذ يفترض أنه يمكن أن يكون من السعداء نفى هذا الفرض بحركة جميلة كبيرة من ذراعه ، فالشيخوخة المرهقة تقترب ، بل قد حلت كما قال ، واحتفرت حفرته . وهو في المساء يكاد لايستطيع أن يدني قدح «الجروج» من فمه دون أن يريق نصفه ، فكذا يهزّ الشيطان ذراعه . ولن ينفع لعن... فالإرادة لم تعد لها الكلمة العليا... وعلى كل فإنه يستدبر حياة لم تكن لها تنطوي على البؤس . وقد رعى العالم بعينين يقظتين فمرت به ثورات وحروب ، وطافت أحداثها بقلبه كما يقولون . ها ، عليها اللعنة! لقد كان الزمن غير الزمن لما تحدى الغوغاء الحانقين الى جانب والد السناتور القنصل يوهان بودنبروك أثناء تلك الجلسة التاريخية التي عقدها مجلس المواطنين... كان

ذلك أهول مايهول! كلا ، فلم تكن حياته آنئذ تتسم بالفقر ، وكذلك في باطنه لم يكن كذلك تماماً . عليها اللعنة! كان يحس قواه تغلي وكما يقول فويرباخ : «بقدر قوتك يكون مثلك الأعلى» كان إذ ذاك مايزال يحس هذا الإحساس ، إذ ذاك لم يكن فقير النفس ، وكان قلبه مايزال فتياً ، فلم يكف ولن يكف عن أن يكون جديراً بخبرات عظيمة ، وإن يحوط مُثله العليا بحرارة ووفاء... سيحملها معه الى القبر ، مافي ذلك شك! ولكن هل المُثل العليا موجودة لكي تُبلغ وتُحقق ؟ كلا! «إن النجوم ليست مايشتهى» . بل الأمل... أوه ، الأمل ، لا التحقيق . «فالأمل وإن يكن خداعاً ، يفيد على الأقل في أن يقدنا الى نهاية الحياة من طريق مريح» هذا ماقاله لاروشفكو . وقد كان ماقال جميلاً ، أليس كذلك ؟... أجل ، إن صديقه وراعيه المحترم لم يكن بحاجة الى معرفة ذلك! ومن ترفعه موجات الحياة الحقيقية على أكتافها حتى يداعب الحظ جبينه فذلك الذي لاتعوزه مثل هذه الأشياء لتشغل رأسه . لكن من يحلم وحيداً في الأعماق طي الظلام فهو الذي يكون بحاجة اليها!

وقال فجأة وهو يضع إحدى يديه على ركبة السناتور ويتطلع اليه بنظرة غائمة : «إنك لسعيد! إنك تحتضن الحظ! لقد اختارك واستحوذت عليه بذراع قوية... بيد قوية!» مستدركاً لأنه لم يستطع أن يحتمل تكرار كلمة ذراع(١) ولما يكد يذكرها . ثم صمت . ولم يلبث أن عاود الكلام من دون أن يسمع كلمة من رد السناتور المتواضع الذي يدفع به الثناء عليه ، فتأمل وجهه وهو مستغرق في أحلامه المظلمة . وبغتة هم واقفاً . قال : «لكننا نسمر ، ونحن مجتمعون هنا لإنجاز عمل . إن الوقت ثمين ، فلا نضيعه بالوساوس! فاستمع الي! لأنك من أنت... أتفهمني ؟ لأنك...» وبدا كأنما السيد جوش يريد أن يغرق من جديد في تفكير جميل ، لكنه استجمع قواه وصاح في حركة مستفيضة ، مترامية ، حماسية : «٢٩٠٠٠ ريال ، ٨٧٠٠٠ مارك مقابل بيت والدتك! اتفقنا ؟...»

فوافق السناتور بودنبروك .

ووجدت مدام بيرمانيدر الثمن زهيداً جداً كما لم يتوقع منها . فلو أن أحداً عد ، بالنظر الى الذكريات التي تربطها بالبيت ، مليوناً على المائدة ، لوجدت هذا عملاً شريفاً ، ولاشيء غير ذلك . على أنها لم تلبث أن ألفت الرقم الذي ذكره لها أخوها بخاصة وهي تفكر وتنشد خططاً للمستقبل .

---

(١) بالألمانية arm (وهذه الكلمة معناها أيضاً فقير) والتورية هنا واضحة .

وقد اغتبطت من قلبها بالأثاث الكثير الجيد الذي بات من نصيبها ، ومع أن أحداً لم يفكر بادىء بدء في إقصائها عن بيت أبويها ، فقد شرعت في البحث بهمة عن مسكن جديد تكتريه لنفسها وذويها . وسيكون وداعها لهذا البيت شاقاً عليها... مافي ذلك شك . فإن التفكير في ذلك كان يدفع الدمع الى عينيها . بيد أن انتظار التبديل والتجديد كان له من جهة أخرى فتنة... أفلم يكن هذا بالنسبة اليها تأثيثاً جديداً ، وجهازاً رابعاً ؟ وهكذا عادت تعاين المساكن وتشاور الورّاق چاكوب ، عادت تساوم في الحوانيت على الستائر وقماش المماشي... وقد دق قلبها حقاً ، دق قلب هذه المرأة المسنة الذي فولذته الحياة ـ دق عالياً!

وهكذا انقضت أسابيع أربعة ، خمسة ، ستة أسابيع . وتساقطت باكورة الثلج وحل الشتاء ، وطقطقت المواقد ، وفكر آل بودنبروك ، وهم حزانى ، في حفلة عيد الميلاد كيف تتم هذه السنة... وإذا بشيء يقع على حين بغتة ، شيء درامي ، شيء مفاجىء جاوز كل حد ، فجرت الأمور مجرى آخر يستحق أعظم الاهتمام وقد لقيه كذلك... وقع حادث... نزل كالصاعقة ، وكان من شأنه أن مدام بيرمانيدر كفت في غمرة أعمالها عن الحركة وتيبست!

قالت : «توماس ، هل أنا مجنونة ؟ أو لعل جوش يخرف ؟ مستحيل هذا! سخيف جداً ، لايخطر بحال على بال...» وسكتت ، وأمسكت سالفيها بكلتا يديها ، لكن السناتور هزّ كتفيه .

«أيتها الطفلة العزيزة! إن شيئاً لم يتقرر بعد ، لكن الفكرة ، الاحتمال نبت ، فإذا فكرت شيئاً ما تفكيراً هادئاً فسوف تجدين أن ليس في المسألة ما لا يخطر على بال ، حقاً أن الأمر مما يدهش قليلاً ، وأنا أيضاً قد تراجعت خطوة لما قاله جوش لي . لكن أن لايخطر على بال ؟ فما الذي يجعله إذن أمراً مستبعداً ؟...»

قالت : «إني لن أعيش بعده» . وجلست على مقعد ولم تتحرك .

فما الذي حدث ؟ ـ لقد وجد مشتر للبيت أو شخص أظهر اهتماماً به وأعرب عن رغبته في معاينة هذا الملك الرخيص معاينة دقيقة للدخول في مساومات أخرى . كان هذا الشخص هو السيد هرمان هاجنشتروم تاجر الجملة وقنصل المملكة البرتغالية .

فلما انتهت الاشاعة الأولى الى مدام بيرمانيدر شلت حركتها ، وأذهلتها ، وصدمتها ، ولم تصدقها ، وعجزت عن إدراك الفكرة وسبر غورها ، لكنه لما اتخذت المسألة مع الأيام المزيد من الشكل والتكوين ، إذ باتت زيارة القنصل هاجنشتروم لشارع منج بكل بساطة

على الأبواب ، استجمعت قواها وعاودتها الحياة . فلم تحتج ، بل هبت ووجدت كلمات حادة من نار قذفت بها كما يقذف بمشاعل الحرق وفؤوس الحرب .

«لن يقع هذا ياتوماس . لن يقع مادمت في قيد الحياة! إنك إذا بعت كلبك وجب أن تعرف لمن تبيعه . وبيت أمي! بيتنا! حجرة المناظر الطبيعية!...»

«لكني أسألك ، ما الذي يعترض هذا حقاً ؟»

«ما الذي يعترضه ، يارحمن يارحيم! ما الذي يعترضه! جبال تقوم سداً دونه ، دون هذا الشخص البدين ياتوماس! جبال! لكنه لايراها! ولايهتم بها! لأنه لاإحساس عنده لها! فهل هو من البهائم ؟... إن آل هاجنشتروم خصومنا منذ الأزل... فهنريش الكبير سبب لجدي المتاعب ، وإذا كان هرمان عجز عن أن يلحق بك شيئاً ذا بال ، إذا كان لم يعترض طريقك ، فلأنه لم تتح له فرصة لذلك... لما كنا أطفالاً صفعته في الطريق العام ولي أسبابي التي دفعتني الى هذا ، وقد خدشتني أخته الظريفة جوليا حتى كادت تقضي علي .

هذه صبيانيات... صحيح! لكنهم كانوا يتفرجون علينا وملؤهم السخر والشماتة كلما نزل بنا مصاب . وكثيراً ماكنت أنا التي تتيح لهم هذه التسلية... وهذه مشيئة الله... لكنه لابدّ أنك تعرف خيراً من غيرك ياتوم كم آذاك القنصل في عملك ، وكم سد عليك الطريق بلا خجل ، أفلست أنا التي تبصرك بذلك . ثم لما تمت لايريكا زيجة طيبة لم يهدأ لهم بال حتى تمكنوا من إزاحة المدير وسجنه بيد أخيهم . هذا الهر ، هذا النائب الشيطان... ثم هم الآن يجترئون... ولايخجلون...»

«إسمعي يا توني ، إننا أولاً لم يعد لنا دخل جدي في الموضوع ، فقد تعاقدنا مع جوش ، ومن شأنه أن يعقد الصفقة مع من يشاء . وإني لاشك أسلم لك بأن في الأمر شيئاً من تهكم الأقدار...»

«تهكم الأقدار ؟ أجل ياتوم ، هذه طريقتك في التعبير! لكني أسمي هذا عاراً ، اسميه لطماً على الوجه ، وهذه لطمة! أفلا تدرك معنى هذا ؟ فكر بربك مايمكن أن يعني هذا ياتوم! معناه : إن آل بودنبروك قد انتهوا ، قد قضي عليهم نهائياً ، معناه أنهم ينسحبون ، وإن آل هاجنشتروم يحلون محلهم بقضهم وقضيضهم... أبداً ياتوماس ، لن أشترك أبداً في هذه المسرحية! لن أمد يدي أبداً الى هذه الضعة! فليأت! ليجرأ على القدوم الينا لمعاينة البيت ، فلن أستقبله ، صدقني! سأوصد على نفسي وابنتي وحفيدتي الباب بالمفتاح في إحدى الحجرات وأمنعه من الدخول . هذا ما سأفعله . . .» .

«ستفعلين ياعزيزتي مايروقك ، وستفكرين قبل ذلك ، أليس من الصواب المحافظة على آداب المجتمع والحرص عليها . لعلك تعتقدين أن القنصل هاجنشتروم سيحس إهانة في مسلكك ؟ كلا ، وألف مرة كلا ، ياطفلتي . لن يسره هذا أو يسوءه... بل سيندهش ، سيندهش في برود وقلة مبالاة... والمسألة هي أنك تفترضين فيه نحوك ونحونا نفس المشاعر التي تحدوك نحوه . خطأ ياتوني . إنه لايكرهك بحال من الأحوال . ولماذا يكرهك ؟ إنه لايكره أحداً . إنه موفق وسعيد . عامر بالمرح وحسن النية فصدقيني في هذا : لقد أكدت لك أكثر من عشر مرات أنه سوف يحييك في الشارع أحسن تحية إذا استطعت أن تضبطي نفسك ، فلا تزوري عنه بهذا العداء وهذه الغطرسة . إنه ليعجب من هذا ويظل دقيقتين يشعر بالدهشة هادئاً ساخراً بعض السخر ، غير قادر على أن يخرج عن الطور إنساناً لايسع أحداً أن يسيء اليه... فما الذي تأخذينه به ؟ إذا كان في الأعمال يسد عليَّ الطريق ويناهضني هنا وهناك في الشؤون العامة بنجاح ـ وليس في هذا مايعاب ـ فلا بد أن يكون تاجراً أحذق وسياسياً خيراً مني... وليس هذا سبباً بحال من الأحوال لأن تضحكي كما تفعلين بهذا الغل الغريب . لكن لنرجع الى موضوع البيت . فإن هذا البيت العتيق كاد من أمد طويل ألا يكون له أهمية بالنسبة للأسرة ، بل إن هذه الأهمية قد انتقلت بكاملها شيئاً فشيئاً الى بيتي... وإني لأقول هذا تطييباً لخاطرك على كل حال . هذا الى أنه من الجلي من جهة أخرى كيف جالت فكرة الشراء بخاطر القنصل هاجنشتروم . لقد ارتفعت هذه الأسرة ، وأخذت في النمو ، وصاهرت آل مولندروف ، وباتت نداً لأرقى الطبقات في المال والاعتبار ، لكنه ينقصها شيء . شيء خارجي كانت تستغني عنه الى الآن في ترفع وإنصاف... هذا الشيء هو التكريس التاريخي ، اضفاء الصبغة الشرعية عليها... ويظهر أنها قد اشتهت ذلك الآن ، فهي تنشد شيئاً منه بسكنى بيت كبيتنا هذا...

انتبهي ، إن القنصل سيبقي كل شيء هنا على حاله ماأمكن ، فلن يعدل في البناء ، وسيترك أيضاً على باب البيت[١] Dominus Providebit كما هي ، وإن كان الواجب أن يسلم المرء ويوافق على أنه وحده من أعان متجر سترونك وهاجنشتروم على مثل هذا النهوض السار...»

ـ «مرحى ياتوم! كم يثلج صدري أن أسمع منك كلمة سيئة واحدة عنه! هذا في الحقيقة

(١) أي : «في رعاية الله» .

هو كل ماأريد! ياإلهي ، لو كان لي رأسك لما كنت أضيف اليه! لكن هاأنت ذا واقف الآن... »

ـ « إنك ترين بلا مراء أن رأسي لايفيدني في الواقع كثيراً » .

ـ « ولكن ها أنت ذا واقف الآن ، كما أقول ، تتحدث عن المسألة بهذا الهدوء غير المفهوم وتشرح لي اسلوب هاجنشتروم في السلوك...آه ، تكلم كما تشاء ، فإن لك قلباً في جسمك مثل ما لي ، ولست أعتقد ببساطة أنك في باطنك على هذا الهدوء الذي تصطنعه! إنك ترد على شكاواي... لعلك تريد أن تعزي نفسك... »

ـ « إنك الآن ترفعين عقيرتك... إن ماأصطنعه هو الذي يسري ، أرجوك! وكل ماعداه ليس من شأن أحد » .

ـ « قل لي ياتوم ، إني أتوسل اليك ، اليس هذا بحران حمى ؟ »

ـ « تماما » .

ـ « كابوساً ؟ »

ـ « لم لا » .

ـ « مصيبة نكراء » .

ـ « كفى! حسبك! »

وظهر القنصل هاجنشتروم في شارع منج . ظهر مع السيد جوش الذي دخل يتبع القنصل الى حجرة المناظر الطبيعية ممسكاً قبعته الجيزويتية بيده ، يتطلع حوله منحنياً غادراً ، ماراً بالخادمة التي حملت بطاقتي الزيارة ، ووقفت تمسك بالباب الزجاجي مفتوحاً .

كان هرمان هاجنشتروم نمطاً من أولئك الذين ينتمون الى المدن الكبرى ، ونموذجاً بارزاً من النماذج التي ترى في أسواق المال بفروه السميك الثقيل الذي يصل الى القدم ، المفتوح من أمام ، ويبدي بذة شتوية انجليزية صفراء تضرب الى الخضرة ، متينة ذات ألياف . وكان بديناً بصورة غير عادية ، الى درجة أن الإزدواج لم يكن مقصوراً على الذقن ، بل كان يتناول كذلك الجزء الأسفل من وجهه كله ، وهو مالم تحجبه لحيته القصيرة الشقراء ، بل إن جلد فروة رأسه المقصوص كان يتغضن تغضنات سميكة كلما تحرك جبينه وتحركت حواجبه حركات بعينها . وكان أنفه مستقراً على شفته العليا أفطس مما كان ذات يوم ، يتنفس في عناء وتتخلل أنفاسه شاربه . لكن فمه كان يبادر الفينة بعد الفينة الى نجدة هذا الأنف فينفتح بنفس مديد ، ولكن يصحب هذا كعادته دائماً صوت رفيق يشبه الاصطفاق يحدثه اللسان في تخلصه التدريجي من الفك الأعلى وسقف الحلق .

وحال لون مدام بيرمانيدر لما سمعت هذا الصوت الذي تعرفه من قديم . فعادوت ذاكرتها مع هذا الصوت رؤيا تتمثل فيها الأرغفة المعجونة بالليمون المحشوة بالمقانق وعجينة كبد الأوز التي تحمل اسم ستراسبورغ ، وكانت هذه الرؤية حرية أن تهز مافي هيئتها من وقار متحجر لحظة من الزمان... وقد كانت جالسة على الأريكة وعلى شعرها المفروق المصقول قلنسوة الحداد ، وعلى جسمها ثوب أسود محبوك عليها بصورة رائعة مطرز الأزرار الى أعلاه قد شبكت ذراعيها ورفعت كتفيها قليلاً ، فلما دخل السيدان وجهت الى أخيها السناتور الذي ماكان ليتحمل تبعة التخلي عن أخته في هذه اللحظة ملاحظة هادئة تدل على عدم الاكتراث ... كذلك بقيت فوق ذلك جالسة ، بينما تقدم السناتور الى منتصف الحجرة لملاقاة الضيوف فحيا السمسار جوش تحية قلبية ، وبادل القنصل سلاماً مؤدباً لاغبار عليه . عندئذ نهضت هي أيضاً من جانبها ، وانحنت للسيدين في وقت واحد انحناءة متحفظة ثم اشتركت بعد ذلك من دون غلو في الاهتمام ، بالقول وباليد ، في دعوة السيدين الى التفضل بالجلوس . هذا الى أنها ألقت عينيها مغمضتين تماماً تقريباً ، إظهاراً لقلة مبالاتها وعدم الاهتمام .

وبينما كانوا يتخذون مجالسهم وفي خلال الدقائق الأولى التي تلت ذلك تكلم القنصل والسمسار كل بعد الآخر ، فرجا السيد جوش المعذرة من هذا الإزعاج في تواضع كاذب منفر يتربص خلفه مكر ظاهر للجميع . وقال أن القنصل هاجنشتروم تحدوه الرغبة في الطواف بغرف البيت ، إذ يفكر في ذلك بوصفه مشترياً ممكناً... وعلى أثره أعاد القنصل نفس الشيء مرة أخرى بكلمات أخرى وبصوت ذكّر مدام بيرمانيدر من جديد بأرغفة الليمون المحشوة . قال : أجل إن الفكرة خطرت له في الواقع فسرعان ماباتت رغبة يرجو أن يستطيع تحقيقها لنفسه ولذويه ، على شريطة ألا يكون السيد جوش قد بيّت أن يجني من وراء ذلك ربحاً وفيراً ، ها ، ها!... على أنه لايشك في أن الصفقة ستتم بما يرضي الأطراف جميعاً .

وقد كان في سلوكه على سجيته وعلى راحته عديم المبالاة ورجل دنيا ، وهو ماخلف أثره في مدام بيرمانيدر ، لاسيما وأنه كان يوجه كلماته دائماً تقريباً اليها مجاملة لها . بل لقد دخل في تبيان الأسباب التي دعت الى رغبته مسهباً وبلهجة تكاد أن تكون اعتذاراً . قال : «سعة في المكان! أمكنة أوسع! فبيتي في شارع ساند... إنك لاتصدقين ذلك ياسيدتي المحترمة ، كذلك أنت ياسيدي السناتور. بيتي هذا يبيت أضيق مما ينبغي بشكل بين .

إننا أحياناً لانستطيع الحركة فيه... ولاأذكر المجتمع بحال من الأحوال... فهو في الواقع للأسرة وحدها : هونيوس ومولندروف وأسرة أخي مورتس... إننا فيه في الواقع كالرنجة . فلماذا بالله ـ أليس كذلك ؟ » .

كان يتكم بلهجة الغاضب بعض الشيء وفي تعبير وحركات من اليد تعني : سترون ذلك... فلست بحاجة الى أن أرضى بهذا... أو لكنت غبياً... فنحن والحمد لله لاينقصنا في أشد الحالات ضرورة أن نعالج هذه المسألة...

ومضى يقول : « على أني أردت الانتظار حتى تحتاج تسرلين وبوب الى بيت لأنزل لهما عندئذ عن بيتي ، وأنشد أنا بيتاً أكبر ، لكن... » وقاطع نفسه هنا بقوله : « تعلمون أن ابنتي تسرلين وبوب أكبر أبناء أخي وكيل النائب العام خطيبان من سنين طويلة... ولايجوز تأجيل العرس أكثر مما طال... على الأكثر سنتين... إنهما شابان ، وهذا خير! لكن بالإجاز ، لماذا انتظرهما وتفلت من يدي هذه الفرصة المواتية التي تعرض لي في الوقت الحاضر ؟ إنه لامعنى لهذا في الواقع... »

وسادت روح الموافقة في الحجرة ، وتلبث لحديث قليلاً عند هذه المسألة العائلية وهذا الزواج المنتظر . ذلك أنه لما كانت الزيجات المجزية بين أولاد الأخوة والأخوات شيئاً عادياً في المدينة ، لم يجد أحد غضاضة في هذا ، فاستفسر أهل البيت عن خطط الشابين ، خططهما فيما يتعلق برحلة شهر العسل... وقد فكرا في الريفيرا وفي نيس ألخ... وكانت هذه رغبتهما ، ولم لا ، أليس كذلك ؟... كذلك ذكر الأطفال الأصغر سناً فتحدث القنصل عنهم في ارتياح ورضى ـ عرضاً ـ وهو يهز كتفيه . فهو نفسه عنده خمسة أولاد وعند أخيه أربعة ، بنون وبنات... نعم شكراً ، فهم جميعاً بخير . ثم عاد الى الكلام ثانية عن نمو الأسرة وضيق السكنى في بيته فقال : « أجل هذا البيت هنا شيء آخر . وقد أمكنني أن أتبينه من الطريق وأنا صاعد اليه ـ إنه درة ، درة بلا مراء ، على شريطة أن تبقى المقارنة في حدود هذه الأبعاد ، ها ، ها!... وهذا التوريق... إني أعترف لك ياسيدتي المحترمة بأني وأنا أتكلم ، لاأكف عن الإعجاب بهذا التوريق... حجرة رائعة في الواقع! حين أفكر... في أنكم قضيتم حياتكم هنا الى الآن .... »

قالت مدام بيرمانيدر بهذا الصوت الذي يتهيأ لها أحياناً صادراً من الحلقوم : « إقامة متقطعة شيئاً ما » .

فأعاد القنصل في ابتسامة رقيقة : « متقطعة... نعم » ثم ألقى نظرة على السناتور

بودنبروك والسيد جوش ، وإذ كان السيدان منهمكين في الحديث أدنى كرسيه من مدام بيرمانيدر وهي جالسة على الأريكة ومال نحوها بحيث كان نفخ أنفه الثقيل يرن تحت أنفها . وقد منعها أدبها أن تتحول عنه أو تتجنب نفسه فتصلبت في جلستها وانتصبت على قدر الإمكان ، وخفضت بصرها اليه مرخية حاجبيها ، لكنه لم يلاحظ ماكان في موقفها من اضطرار وعدم ارتياح .

قال : « كيف ذلك ياسيدتي المحترمة . إنه يلوح لي أننا زاولنا معاً أعمالاً ذات يوم!... كان الأمر يتعلق آنئذ بطبيعة الحال... بم تعلق الأمر ؟ مأكولات ، حلوى ، أليس كذلك ؟... والآن يتعلق الأمر ببيت كامل... »

فقالت مدام بودنبروك وقد ازداد تيبس رقبتها عما كان عليه : « لاأتذكر ذلك » . أن وجهه كان قريباً منها بصورة غير كريمة لاتحتمل...!

قال : « لاتتذكرين ؟ »

« كلا ، إني لاأعرف حقاً شيئاً عن الحلوى . فالذي يغيم بخاطري شيء من أرغفة ليمون محشوة بالمقانق الدسمة... طعام إفطار تعافه النفس عيافاً تاماً... ولست أعلم هل كان هذا الطعام لي أو لك... لقد كنا إذ ذاك أطفالاً... أما مايتعلق بالبيت فهو من شأن السيد جوش وحده » .

وألقت نظرة عاجلة شاكرة على أخيها ، إذ أدرك ورطتها فخف لنجدتها بأن سمح لنفسه بسؤال السيدين ألا يوافقهما أن يعاينا البيت أولاً . وكان كلاهما مستعداً فاستأذنا مدام بيرمانيدر في التوجه الى هذه المهمة الى حين ، إذ كانا يأملان أن يتاح لهما مسرة لقائها مرة أخرى فيما بعد... وخرج السناتور بضيفيه من قاعة الأكل الى الخارج...

وجالوا بعدئذ في الحديقة الجرداء التي تغمرها ثلوج نصف ذائبة ، وألقوا نظرة على « الباب الكبير » ثم عادوا أدراجهم الى الفناء الأمامي حيث يقوم المغسل ، ليتوجهوا من هنا بين الأسوار على امتداد الممشى الضيق المبلط الى المبنى الخلفي عبر الفناء الخلفي الذي تقوم فيه السنديانة . ولم يكن ثمّ مايرى سوى مهملات من فعل الزمن ، فكان الكلأ والطحلب نابتاً رابياً بين بلاط الفناء ، ودرج البيت في تداع تام ، وأسرة القطط الطليقة المقيمة في قاعة البليار لايقلق راحتها ألا عابر يفتح الباب عليها دون دخول ، إذ كانت أرضية القاعة هنا غير مأمونة .

كان القنصل هاجنشتروم يسير صامتاً مشغولاً فيما يظهر بأفكار وخطط فلا يقول دواماً

سوى : آه طبعاً ـ غير مكترث لما يلفت اليه ، ملمحاً بذلك الى أنه إذا ماأصبح يوماً سيداً هنا فلن يترك طبعاً شيئاً على هذه الحال . وبهذه السيماء وقف أيضاً برهة فوق الأرض المنبسطة على أرضية صلبة مدكوكة بالطين ، وتطلع الى أرض المخازن المقفرة وكرر : «آه طبعاً ـ» ودفع الرشاء السميك المعطوب فجعل يتراوح بما في نهايته من خطاف حديدي صدىء قد لبث هنا سنين طويلة معلقاً وسط المكان بلا حراك . ثم ارتد على عقبيه .

قال : «شكراً جزيلاً ياحضرة السناتور على مابذلت من جهد . وأظننا انتهينا» . ثم لزم الصمت تقريباً في الطريق المؤدي الى المبنى الأمامي الذي قطعه على عجل ، وفيما بعد أيضاً عندما دخل الضيفان حجرة المناظر الطبيعية دون أن يجلسا ، ليودعا مدام بيرمانيدر . ثم هبط بهما توماس بودنبروك الدرج وتقدمهما عبر الرحبة . لكنه ماأن كاد التوديع ينتهي ويلتفت القنصل هاجنشتروم الى مرافقه السمسار جوش حتى لوحظ أن الحديث أخذ ينشط نشاطاً كبيراً بين الاثنين...

وعاد السناتور الى حجرة المناظر الطبيعية حيث كانت مدام بيرمانيدر جالسة في مكانها عند النافذة منتصبة ، عليها إمارات الصرامة ، تعمل بإبرتين خشبيتين كبيرتين في حياكة ثوب صغير من الصوف الأسود لحفيدتها الصغيرة أليصابات ، تلقي هنا وهنا نظرة جانبية الى الستارة الكاشفة ، فجعل توماس يغدو ويروح برهة صامتاً ويداه في جيبي سراويله .

وقال عندئذ : «لقد تركته للسمسار ولابد من انتظار النتيجة . وأظنه سيشتري كل شيء فيسكن هنا في المقدمة وينتفع بالأرض الخلفية بصورة ما...» .

فلم ترفع اليه بصرها ، ولم تغير أيضاً من وضع جسمها الأعلى المنتصب ، ولم تكف عن شغل الأبرة ، بل تزايدت على النقيض من ذلك السرعة التي كانت تتحرك بها الابرتان في يديها إحداهما من حول الأخرى زيادة ملحوظة .

فقالت بصوت من الحنجرة : «مؤكد ، سيشتريه ، سيشتري كل شيء . ولماذا لايشتريه ، أليس كذلك ؟ فلن يكون هذا معقولاً في الواقع» .

ورفعت حاجبيها وجعلت تنظر من النظارة الشابكة التي باتت مضطرة الى استخدامها في عملها اليدوي من دون أن تحسن وضعها الصحيح بحال من الأحوال ، نظرة جامدة ثابتة الى ابرتيها اللتين جعلتا تلفان احداهما حول الأخرى في سرعة خاطفة وطقطقة خافتة .

وجاء عيد الميلاد ، أول عيد لاتشهده القنصلة ، فاحتفل في بيت السناتور بمساء اليوم

الرابع والعشرين من ديسمبر من دون سيدات بودنبروك القاطنات في الشارع العريض ، ومن دون العجوزين كروجر ، ذلك أنه قد وضع حد لأيام الأطفال المنتظمة ، قد كان توماس يكره أيضاً أن يدعو كافة من كانوا يشتركون في أمسية أعياد الميلاد أيام القنصلة ، ويقدم اليهم الهدايا ، فليس سوى مدام بيرمانيدر ومعها ايريكا ڤاينشنك والصغيرة اليصابات ، ثم كريستيان وكلوتيلده سيدة الدير ، والآنسة فيشبروت ـ ليس سوى هؤلاء من دعوا ـ ولم تكف الأخيرة عن الإهداء المعتاد المصحوب بالحوادث في حجرها الحارة الصغيرة .

وقد نقصت مجموعة «فقراء البيت» التي كانت تتلقى في شارع منح الأحذية والملابس الصوفية ، وانتفى غناء مجموعة الغلمان . فأنشد في الصالون : «أيتها الليلة الساكنة ، أيتها الليلة المقدسة» في بساطة تامة ، وتلت تيريزه فيشبروت على الأثر فصل عيد الميلاد على أدق صورة بدلاً من زوجة السناتور التي كانت تكره أن تقوم بذلك خاصة . ثم انتقلوا يخترقون الغرف الى القاعة الكبيرة وهم ينشدون المقطع الأول من «ياشجرة الميلاد» بصوت وسط .

لم يكن ثمة سبب خاص لترتيبات مسرفة في إتاحة السرور ، فلم تكن الوجوه تفيض بشراً ولم يكن الحديث يحدوه المرح ، وعلام دار ؟ لم يكن في الأفق مايدعو الى التفاؤل الشديد . فدار حول الترحم على الأم ، وحول بيع البيت ، وحول الطابق النير الذي اكترته مدام بيرمانيدر في بيت لطيف يقع أمام بوابة هولستن ويطل على مباني «ميدان الزيزفون» دار الحديث على ماسوف يقع إذا ماأطلق سراح هوجو ڤاينشنك ثانية.. وكان يوهان الصغير في تلك الأثناء يعزف على البيان شيئاً مما تمرن عليه مع السيد بفيل ويصاحب والدته في سوناتا لموتسارت مصاحبة لم تسلم من الخطر لكنه كانت حسنة الواقع . وقد أثنوا عليه وقبّلوه ، ثم لم يكن بد من أن تقتاده ايدا يونجمان الى النوم ، لأنه كان في ذلك المساء شاحب اللون متعباً من مغص في الأمعاء لما يكد يزول .

حتى كريستيان الذي كان يواصل العيش مع أخيه على تلك الحالة القديمة التي لاتشرفه كثيراً ، لم يعد يذكر شيئاً عن الزواج بعد ذلك الصدام الذي وقع في غرفة الإفطار ، ولم يدخل مع أخيه في حديث أو يبدي استعداداً لفكاهة . وكان يجيل عينيه في الحاضرين محاولاً محاولة وجيزة أن ينشد فيهم شيئاً من الفهم «للعذاب» الذي يزعمه في جنبه الأيسر ، وقد توجه الى المنتدى كي لايعود إلا لتناول طعام العشاء الذي كان مؤلفاً على

النحو المعهود... ثم بات آل بودنبروك يستدبرون هذا المساء من أمسية عيد الميلاد وكانوا فرحين بذلك .

وفي مستهل عام ١٨٧٢ انحل بيت القنصلة المتوفاة ، فارتحلت الخادمات عنه ، وحمدت مدام بيرمانيدر الله في اليوم الذي ارتحلت فيه سيڤيرين التي كانت حتى ذلك الوقت تنازعها السلطة في شؤون المنزل بصورة لاتطاق ، رحلت وهي تحمل ماآل اليها من الثياب الحريرية وقطع الملابس التحتانية . ثم وقفت بشارع منج عربات نقل الأثاث وابتدأ اخلاء البيت القديم ، فنقل الى بيت حفرة السماكين الصندوق الكبير المحفور والشمعدانات المذهبة وغير ذلك من الأشياء التي وقعت من نصيب السناتور وزوجته ، وانتقل كريستيان وذووه الى شقة مؤلفة من ثلاث غرف تقع بالقرب من المنتدى ، كما انتقلت أسرة بيرمانيدر ـ ڤاينشنك الصغيرة الى الدور المنير المؤثث بما لايحرمه من مظهر الوجاهة والكائن في ميدان الزيزفون ، وكان مسكناً جميلاً صغيراً ، ثبتت على باب طبقته لوحة نحاسية لامعة مكتوب عليها بخط منمق «الأرملة ا . بيرمانيدر ـ بودنبروك » .

لكنه ماكاد بيت شارع منج يخلو من ساكنيه حتى ظهرت فيه طائفة من العمال جعلت تهدم المبنى الخلفي فغام الجو بغبار الملاط القديم... فقد كانت قطعة الأرض قد انتقلت نهائياً الى يد القنصل هاجنشتروم إذ اشتراها ، وكان ظاهراً أنه يطمع في شرائها ، إذ عرض فيها سعر من بريمن على السيد سيجسموند جوش فلم يتردد القنصل هاجنشتروم في المزايدة . وقد جعل الآن ينتفع بملكه على أسلوبه الأريب الذي طالما أعجب الناس به من قديم . فلما حل الربيع كان قد انتقل بالفعل الى البيت الأمامي مع أسرته . وقد ترك فيه كل شيء على أصله ماأمكن اللهم إلا بضعة تجديدات اقتضتها المناسبة وبعض تغييرات عاجلة تطلبها العصر الحديث . فأزيلت على سبيل المثال كل الأجراس التي تدق بالحبل ، وزود البيت بالأجراس الكهربائية... على أنه سرعان ما اختفى المبنى الخلفي عن وجه الأرض ، وارتفع مكانه مبنى جديد لطيف هاو يقابل واجهته حفرة الخبازين ، ويتيح للمخازن والحوانيت أماكن فسيحة تقام عليها .

ولطالما أقسمت مدام بيرمانيدر لأخيها توماس أنه لن تحملها بعد الآن أية قوة على أن تشمل بيت والديها ولو بنظرة . بيد أنه كان من المحال أن تبر بهذا القسم ، فكان من الضروري أن تمر الفينة بعد الفينة في طريقها بالحوانيت ونوافذ العرض التي أجرت سريعاً بالمبنى الخلفي بأحسن الشروط ، أو بالواجهة الهرمية الفخمة في الجانب الآخر حيث يقرأ

اسم القنصل هرمان هاجنشتروم تحت Dominus Providebit[1] لكن مدام بيرماندر - بودنبروك كانت تشرع بعد ذلك في البكاء على قارعة الطريق وعلى مشهد من الكثيرين بصوت مرتفع ، فتطرح رأسها الى الوراء كما يفعل الطائر حينما يشرع في الغناء ، وتضغط المنديل على عينيها ، وتتأوه مرات آهات يمتزج فيها الاحتجاج والشكاة ، ثم تنخرط في البكاء غير آبهة لأحد من المارة أو لتطييبات ابنتها .

لقد كان بكاؤها هو بعينه ذلك البكاء البريء المنعش الذي كانت تذرفه أيام الطفولة ، والذي ظل على حاله كلما هبت عليها عواصف الحياة وتحطمت بها سفينتها .

---

(١) «في رعاية الله»

الجزء العاشر

الفصل الأول

كثيراً ماتساءل توماس بودنبروك كلما حلت به الأكدار ، ماذا هو في الحقيقة ، وما الذي يخوله الحق في أن يرفع قدر نفسه فوق أقدار غيره من المواطنين المستقيمين الضيقي الذهن ذوي الاستعداد البسيط ؟ لقد جفته الهمة القعساء والمثالية الطروب التي كانت له أيام الشباب . وفي العمل أثناء اللعب ، وفي اللعب أثناء العمل ، والطموح في شيء من الجد وشيء من الهزل الى أغراض يتبين فيها المرء القيمة المعنوية فحسب ، وفي تلك التسويات المنطوية على الغبطة والشك ، وتلك الأنصاف من الحلول المتسمة بالذكاء ــ في ذلك كله لابدّ من النشاط والفكاهة ومرح النفس . لكن توماس بودنبروك كان يشعر بتعب وضجر ينبوان عن الوصف .

وقد بلغ ماكان عليه أن يبلغه ، وعرف جيداً أنه قد تخطى أوج حياته إذا صح الكلام عن أوج في حياة وسط منحطة كهذه الحياة .

فأما مايتعلق بالأعمال المحضة ، فقد شاع بصفة عامة أن ثروته نقصت كثيراً ، وأن متجره يرجع القهقرى ، ومع ذلك فقد كان ، إذا جعلنا في حسابنا ميراثه من أمه ونصيبه في بيت شارع منج وقطعة الأرض ، رجلاً يملك أكثر من ستمائة ألف مارك . بيد أن رأس مال عمله معطل من سنين طويلة ، والصفقات التي تقوم بالدراهم ، والتي ألقى السناتور اللوم فيها على نفسه أيام مسألة محصول بوبنراده ، لم يطرأ عليها منذ الضربة التي أصابته إذ ذاك ، أي تحسين ، بل باتت أسوأ حالاً مما كانت . والآن في زمن تحرك فيه كل شيء نشطاً مبتهجاً ، واستطاع فيه منذ انضمام المدينة الى الاتحاد الجمركي بعض صغار التجار أن ينمّوا تجارتهم في بضع سنوات الى تجارة محترمة بالجملة ، الآن تركد أعمال متجر

يوهان بودنبروك دون أن يجني من مغانم العصر أي فائدة . وقد سئل عن سير أعماله فأجاب بحركة واهنة صادرة من يده يقول : «ليس في هذه الأعمال مايسر كثيراً...» . وقد صرح منافس أنشط منه من أصدقاء هاجنشتروم الأدنين أن توماس بودنبروك في البورصة لايخرج في الواقع عن كونه حلية . فكانت هذه النكتة التي عرض فيها بمظهر السناتور الأنيق مما أعجب به وضحك منه المواطنون ، بوصفها تعبيراً تجاوز الحد من تعبيرات اللهجة الكيسة .

فإذا كان السناتور في عمله المتواصل من أجل المتجر القديم الذي خدمه ذات يوم بهذه الحماسة الشديدة قد وهن بما أصابه من سوء الحظ وألم به من فتور فقد توخى في تصعيده في شؤون المدينة العامة حدوداً خارجية لم يمكن تخطيها . فمنذ سنين ، ومنذ انتخابه لمجلس الشيوخ بلغ في هذا المجلس ماكان عليه أن يبلغه ، فكانت هناك مراكز يحافظ عليها ووظائف يتولاها ، لكنه لم يكن ثم شيء يحصل عليه فوق ذلك . كان هناك حاضر وواقع تافه . لكنه لم يعد هناك مستقبل ولاخطط يرسمها الطموح . وحقاً لقد عرف أن يمد في سلطانه في المدينة الى أبعد مايستطيع غيره في مكانه ، ولم يكن من السهل على أعدائه أن ينكروا أنه «يد المحافظ اليمنى» ، لكن توماس بودنبروك لم يستطع أن يكون محافظاً ، ذلك أنه كان تاجراً ولم يكن من رجال العلم . لكنه وهو الذي كان يملأ ساعات الفراغ من قديم بمطالعاته في التاريخ والأدب ، والذي كان يشعر بتفوقه على محيطه بأكمله في الذهن والفهم والتعليم الداخلي والخارجي ، لم يستطع التغلب على ضيقه من أن انتقاء مؤهلاته النظامية قد جعل من المحال ان يكون له المحل الأول في الدولة الصغيرة التي ولد بين ظهرانيها ، قال لصديقه ومريده ستيفان كستنماكر ذات مرة : «ماأغبى ماكنا» . لكنه كان يعني نفسه وحدها بضمير «نا» - «إذ بادرنا الى العمل في المتجر مبكرين هكذا ، ولم نؤثر إتمام دراستنا» . وأجابه كستنماكر : «أجل ، إنك محق في هذا!... ولماذا ؟»

كان السناتور يعمل الآن في أغلب الأحيان وحده في حجرة مكتبه الخاص جالساً الى مكتبه المصنوع من خشب الموغنا ، أولاً لأن أحداً لم يكن يراه هناك وهو يعتمد رأسه في يده ويفكر مغمض العينين ، ولكن في الغالب لأن شريكه السيد فريدريك فلهلم ماركوس كان قد نفره من مكانه المجاور للنافذة في المكتب العام بحذلقته المتناهية إذ يعني قبالته بتنظيم أدواته والمسح على شاربه .

لقد أصبح تدقيق السيد ماركوس المسن على مر السنين مرضاً كاملاً وعجباً من

العجب . أما أن هذا التدقيق قد بات في العهد الأخير شيئاً لايطاق بالنسبة لتوماس بودنبروك وأمراً مثيراً مهيناً فقد خلق ظرفاً وجد فيه نفسه مضطراً الى أن يلاحظ على نفسه مراراً وتكراراً شيئاً شبيهاً بهذا مما أثار رعبه . فكذلك عنده ، وهو من كان فيما مضى يكره التفاهات جميعاً ، قد نشأ لون من الحذلقة ، وإن كان مصدره مزاجاً مغايراً وحالة نفسية أخرى .

كان في نفسه فراغ فلم يرَ مشروعاً مشجعاً ولا عملاً مقيداً يتوفر عليه مسروراً مرتاحاً . لكن دافعه الى العمل ، وعجز رأسه عن الراحة ، ونشاطه الذي كان دائماً شيئاً مغايراً في أساسه لما كان يحدو آبائه من رغبة طبيعية متواصلة في العمل : كل شيء قد كان أمراً مصطنعاً ، كان توتراً في أعصابه ، مخدراً في أساسه يحكي السكائر الروسية الحامية الصغيرة التي كان يدخنها في هذه الحالة... هذه السيجاره لم تتركه ، وقد قلّ تحكمه فيها عن ذي قبل ، وباتت لها عليه اليد العليا ، أصبحت عذاباً حيث باتت باعثة على الاهتمام بطائفة من أشياء لاقيمة لها . كانت تطارده خمسمائة تفاهة عديمة الشأن لاتتناول في معظمها سوى المحافظة على مظهر بيته وعلى زينته ، وقد كان يرجئهما ضيقاً بهما ويعجز رأسه عن الجمع بينهما ، ولا يقر له معهما قرار ، لأنه كان يبذل لهما من تفكيره ووقته ما لايتناسب معهما .

وقد تزايد عنده بصورة من الصور ماكان الناس في المدينة يسمونه «عجباً» ، وماكان يخجل منه من أمد طويل ، دون أن يقدر على الخلاص من العادات التي نمت فيه من هذه الناحية . ومن تلك اللحظة التي دخل فيها حجرة لباسه على السيد ڤنتسل الحلاق القديم برداء نومه بعد ليلة قضاها نائماً نوماً لم يكن بالمضطرب لكنه كان خاملاً غير منعش — وكانت الساعة التاسعة وهو الذي ألف من قبل أن ينهض من نومه أكثر محافظة على موعد نهوضه بكثير ـ من تلك اللحظة كان يستنفد ساعة ونصف ساعة كاملة على لباسه الى أن يشعر بأنه فرغ من ارتداء ملابسه وبأنه مصمم على بدء يومه ، فيهبط لتناول الشاي في الطابق الأول . وكانت زينته من التدقيق بحيث تسير على ترتيب مفرداتها من «الدش» البارد في الحمام الى الختام حين تكون آخر غبرة على سترته قد أبعدت ويكون طرفا شاربه قد سويا بالمقص الكاوي ، وكانت من ثبات النظام وعدم التغير بحيث كان كر هذه القبضات والعمليات الصغيرة التي لاتحصى المتكررة دائماً يدفعه كل لحظة الى اليأس . ومع ذلك فقد كان عاجزاً عن أن يغادر حجرته وهو واعٍ لأن يكون ترك شيئاً لم ينجزه أو أنجزه خطفاً

فحسب ، خشية أن يفقد هذا الشعور بالانتعاش والراحة والكمال ، وهو ماكان يفقده بعد ساعة واحدة ومالم يكن بد من تجديده عند الضرورة .

كان يدخر من كل شيء مادام هذا ممكناً ، وعلى أن لايتعرض من جرأته لكلام الناس ـ إلا مايتعلق بثيابه التي كان يخيطها له أرشق خياط في هامبورغ ولايبخل على صيانتها بأية كلفة . وكان هناك باب يظهر أنه يؤدي الى غرفة أخرى ، يقفل الحنية الواسعة المجوفة في حائط حجرة اللباس ، وفيه صفوف طويلة من المشاجب فوق قوالب محنية من الخشب علقت عليها جاكتات وسموكنات وريدنجوتات وفراكات لكافة فصول السنة وحسب درجات حفلات المجتمع ، بينما جمعت السراويل مثناة في عناية فوق عدة مقاعد . لكنه في الخزانة المركبة عليها مرآة ضخمة ، والمغطاة قرصتها بالأمشاط والفرش والمستحضرات الخاصة بتزيين شعر الرأس واللحية ، كان خزين من مختلف الملابس التحتانية يبدل دائماً ويغسل ويستعمل ويكمل...

في هذه الحجرة لم يكن يمضي وقتاً طويلاً في الصباح فحسب بل أيضاً قبل كل عشاء وكل جلسة لمجلس الشيوخ وكل اجتماع عام ، وقصارى القول دائماً قبل أن يقتضيه الأمر ظهوراً وحركة بين الناس ، وقبل كل وجبة عادية في البيت كذلك حيث لايكون على المائدة فيما عداه سوى زوجه ويوهان الصغير وايدا يونجمان . فإذا خرج ضمن له الجديد مما يلبس ، والأناقة الكاملة المحتشمة البادية على بزته ، ووجهه المغسول جيداً ، ورائحة البريانتين في شاربه ، والمذاق الحامي البارد لما يستعمل من ماء للغرغرة ـ ضمن له هذا كله شعور الارتياح والاستعداد الذي يتوجه به الممثل الى خشبة المسرح وقد استكمل في كل التفاصيل قناعه... حقاً إن كيان توماس بودنبروك لم يعد شيئاً آخر غير كيان الممثل ، ممثل باتت حياته كلها حتى في أتفه شيء فيها وأدخله في باب للعادة تمثيلاً وحيداً ، تمثيلاً يستنفد كل قواه ويستهلكها فيما خلا بضع ساعات قليلة وجيزة يمضيها وحده مسترخياً... وقد جعله ماينقصه كل النقص من حمية خالصة كان يمكن أن يفيد منها في أن يخفي بكل الوسائل ماأصاب باطنه من فقر وإقفار بلغ من قوته أنه كان يشعر دائماً بشدة وطأته تقريباً كما لو كان في أسى راسخاً ، هذا الى عهد باطني لايهن وتصميم لايلين بأن يكون له مظهر الوقور ـ أقول جعله هذا الذي أسلفنا ذا كيان مصطنع واعٍ متكلف ، وجعل من كل كلمة وكل حركة وكل عمل من أتفه أعماله ، يصدر عنه بين الناس ، تمثيلاً مجهداً مثيراً .

وقد تجلت في ذلك تفصيلات غريبة ، حاجات فريدة تبينها في نفسه كارهاً متعجباً .

كان على النقيض من أناس لايؤدون أي دور ويريدون أن يراقبوا فحسب في سكون تام ، لايلحظهم أحد ولاترعاهم الأنظار ـ كان هو على النقيض من هؤلاءالناس لايحب أن يكون ضوء النهار في ظهره ، وأن يكون هو في الظل والناس في ضوء ساطع... كان أحب اليه أن يشعر بالضوء يعشي بصره ، وأن يرى جمهوره ، أولئك الذين كان يؤثر فيهم بوصفه رجل مجتمع رقيق الحاشية ، أو تاجراً نشيطاً ، ورئيس متجر وجيهاً ، أو خطيباً عاماً ، مجرد كتلة يغمرها الظل . وقد أكسبه هذا شعور بالانفصال والأمن ، أكسبه تلك النشوة العمياء التي يحدثها التمثيل الذاتي الذي يهدف به الى النجاح والتوفيق . أجل إن حالة التصرف هذه التي تشبه النشوة هي التي أصبحت تدريجاً بالنسبة له مما يحتمله كل الاحتمال . فإذا وقف بالمائدة وكأس النبيذ في يده وعلى وجهه امارات الرقة المصطنعة ، يشرب نخباً متلطفاً مبدياً عبارات صائبة تنم عن الحذق ، وتطلق المرح والاستحسان ، أمكن أن يظهر على الرغم من شحوبه بمظهر توماس بودنبروك في سالف الزمان ، وأصعب عليه وأشق من هذا أن يضبط نفسه وهو جالس وحده صامتاً لايؤدي عملاً . عندئذ ينتابه التعب والضيق يكدران عينيه ويسلبانه السيطرة على عضلات وجهه وهيئة جسمة . هنا تحدوه رغبة وحيدة : أن يستسلم لهذا اليأس الموهن ، أن ينسل منه ويضع رأسه في بيته على وسادة باردة .

●

لقد تناولت مدام بيرمانيدر طعام العشاء في بيت حفرة السماكين وحدها ، ذلك أن ابنتها ، وقد دعيت كذلك ، كانت قد رأت زوجها بعد الظهر في السجن فشعرت ، كما هي عادتها في مثل هذه الحالة ، بالتعب والتوعك ، فالتزمت البيت من جراء ذلك .

وقد تحدثت مدام أنتونيا عن هوجو ڤاينشنك الذي قالت أن حالته النفسية محزنة جداً ، ثم عرضت مسألة على بساط البحث هي : متى يمكن رفع التماس بالعفو الى مجلس الشيوخ ويكون ثمة أمل في قبوله . وكان الأقرباء الثلاثة يجلسون في غرفة الانتظار من حول المائدة الوسطى المستديرة تحت مصباح الغاز الكبير . وكانت جيردا بودنبروك وأخت زوجها جالستين ، إحداهما قبالة الأخرى ، مشغولتين بعمل يدوي . السناتورة مكبة بوجهها الجميل الأبيض على مطرزة حريرية بحيث بدا شعرها الثقيل الذي يضيئه نور المصباح ، متوهجاً في ظلمه ، ومدام بيرمانيدر ، وعلى أنفها النظارة الشابكة منحرفة كل الانحراف بحيث لاتؤدي وظيفتها ، تثبت بأصابع ماهرة شريطاً كبيراً بديعاً في حمرته على سلة صغيرة

صفراء كانت هدية عيد ميلاد لإحدى معارفها . لكن السناتور كان يجلس مجانباً ، فوق كرسي ساند عريض منجد منحرف الظهر ، يقرأ في صحيفته متعامد الساقين بينما يمتص دخان سيجارته الروسية حيناً بعد حين وينفثه ثانية من ثنايا شاربه تياراً رمادياً أشهب...

وكان مساء يوم أحد دافىء من أيام الصيف ، والنافذة العالية مفتوحة تدخل الهواء الفاتر المشبع بشيء من الرطوبة ليملأ الغرفة ، ويستطيع المرء من المائدة أن يرى النجوم عبر الأسطح الهرمية في البيوت المقابلة ، وبين السحب وهي تسير سيرها الوئيد . وكان النور مايزال مضيئاً هناك في دكان الأزهار الصغير الذي يملكه ايفرسن ، ويلي ذلك صعوداً في الشارع الساكن كانت تعزف هارمونيكا يد يرتكب عازفها أخطاء كثيرة ولعله كان أحد صبية السائق دانكوارت . وبين الحين والحين ترتفع أصوات هناك في الخارج . فتمر جماعة من البحارة تغني وتدخن وتتشابك أذرعهم آتين من حانة مشبوهة من حانات الميناء ، قاصدين الى حانة أكثر منها شبهة يمرحون ويمجنون . وقد تلاشت أصواتهم الخشنة وخطاهم المتأرجحة في شارع قاطع .

ونحى السناتور الصحيفة بجانبه على المائدة ودس نظارته الشابكة في جيب صدريته ، ومسح بيده على جبينه وعينيه .

قال : «ضعيفة ، ضعيفة جداً هذه «الاعلانات» فكل مرة يخطر لي ماقاله جدي عن ألوان الطعام التافهة غير المحبوكة : إن طعمها كذلك الذي تذوقه إذا أدليت لسانك من النافذة... فأنت تنتهين منها في ثلاث دقائق مملة ، فليس فيها بكل بساطة شيء...»

فقالت مدام بيرمانيدر وهي تفلت عملها وتنظر الى أخيها عبر النظارة الشابكة : «أجل ياتوم! ولك أن تعيد ماقرأت متعزياً ، علم الله! وماذا يمكن أن يكون فيها أيضاً ؟ لقد ذكرت هذا عنها وأنا لاأزال طفلة غريرة صغيرة جداً : فهذه «الاعلانات» المنسوبة الى المدينة صحيفة أسيفة! وأنا أقرأها أيضاً بالتأكيد ، لأنه ليس في المتناول غيرها... أما أن تاجر الجملة القنصل فلان يفكر في الاحتفال بعيد زواجه الفضي فما لاأجده من جانبي أمراً ذا بال . ينبغي أن تقرأ صحفاً أخرى كصحيفة كونجزبرج الهارتونجية أو صحيفة الرين . ففيها يمكن...»

وقاطعت نفسها وكانت قدتناولت الصحيفة وبسطتها مرة أخرى ، وأجالت نظرها أثناء الكلام في أعمدتها مستهينة . لكنه استوقف نظرها الآن موضع ، خبر وجيز في أربعة أو خمسة أسطر... . فصمتت ومدت إحدى يديها الى نظارتها وقرأت الخبر الى آخره بينما كان

فمها يتسع رويداً رويداً ، ثم أطلقت صيحتين تدلان على الذعر وضغطت وجنتيها بكلتا راحتيها وأبقت مرفقيها بعيدين من جسمها .

« محال!... محال!... لاياجيردا... توم ... أأمكن أن يفوتك هذا ؟ هذا مرعب... مسكينة ياأرمجارد! هكذا يصيبها الرزء... »

فرفعت جيردا رأسها عن عملها ، والتفت توماس الى أخته منزعجاً ، وجعلت مدام بيرمانيدر تتلو الخبر بصوت مرتفع مرتعش صادر من الحنجرة ، يؤكد كل كلمة أملاها القدر . وكان الخبر من روستوك ينبىء « أن رالف فون مايبوم من أصحاب الضياع انتحر ليلة أمس في حجرة مكتبه ببيت الأسرة في بوبنراده ، بأن أطلق على نفسه رصاصة من مسدس . وختمت تلاوتها بهذا : ويبدو أن الباعث على الانتحار ضيق مالي . وقد خلّف السيد فون مايبوم زوجة وثلاثة أولاد » . وأسقطت الصحيفة في حجرها ، وأسندت ظهرها ، ونظرت الى أخيها وزوجه صامتة متخاذلة بعينين نادبتين .

وكان توماس بودنبروك وهي ماتزال تقرأ قد تحول عنها ، ووجه بصره عبر الستائر الى ظلام الصالون ، فسأل بعد أن ساد السكون دقيقتين : « أبمسدس ؟ » ثم عاد بعد فترة من الصمت يقول بصوت خافت وئيد فيه رنة السخر : « نعم ، نعم . مثل هذا الفارس!... »

ثم استغرق في الأفكار من جديد . وكان مايفتل به أحد طرفي شاربه بين أصابعه من سرعة يناقض مايبدو على ناظره من تشتت وحملقة وجمود لايستهدف شيئاً .

فلم يأبه لندب أخته ولا للتخمينات التي أبدتها فيما يتعلق بحياة صديقتها أرمجارد البعيدة ، لكنه لاحظ أن جيردا من دون أن تدير اليه رأسها ، قد وجهت اليه عينيها العسليتين المتقاربتين ، اللتين كانت تظلل مآقيها هالة تميل الى الزرقة ، وركزتهما عليه تركيزاً ثابتاً مستطلعة .

الفصل الثاني

لم يقدر توماس بودنبروك قط أن ينظر الى مستقبل يوهان الصغير بنظرة الاستياء الواهن الذي يتوقع بها بقية حياته ، فروح الأسرة أو ذلك الاهتمام الموروث والمكتسب ،المتجه الى الأمام والى الوراء ، العامر بالتقوى ، ذلك الاهتمام بتاريخ بيته الخاص قد كان يحول بينه وبين ذلك . والتوقع المنطوي على الحب أو الفضول التي كان ينظر الى ابنه به أصدقاؤه ومعارفه في المدينة وأخته بل سيدات بودنبروك القاطنات بالشارع العريض أيضاً ، كان يؤثر في أفكاره فكان يقول لنفسه في ارتياح ، بالغاً مابلغ شعوره بالضيق واليأس من نحو شخصه ، إنه من نحو وريثه الصغير كفء لأن تراوده على الدوام أحلام محببة عن مستقبل حافل بالحذق والعمل المجدي الجريء والتوفيق والكسب والسلطان والغنى والألقاب… أجل وإن حياته الفاترة المفتعلة تتحول عند هذه النقطة الى سعي وخوف وأمل دافىء خالص .

فكيف إذا أمكنه مستقبلاً أن يتبين من زاوية مريحة عودة الزمن القديم ، عهد جد هانو الأكبر ؟ فهل هذا الأمل معدوم كل العدم ، لقد كان يحس عداوته للموسيقى . لكن ألهذا في الحقيقة دخل في ذلك ؟ وإذا سلمنا بأن حب الصغير للعزف الحر من دون مجسدة ينم عن موهبة لا يستهان بها ، فإن في دروسه المنتظمة مع السيد بفيل لم يتقدم بحال من الأحوال تقدماً يذكر . فالموسيقى ، وليست بأمر ذي بال ، هي تأثير أمه عليه ، فلا عجب أن يكون لهذا التأثير في سني الطفولة الباكرة اليد العليا . لكنه قد حان الوقت لأن تتاح للأب فرصة يؤثر فيها أيضاً من ناحيته في ابنه ، ويجذبه قليلاً الى جانبه ، ويوقف بانطباعات مضادة من جانب الرجولة ماكان الى الآن من مؤثرات نسوية . وكان أن صمم السناتور على ألا يدع مثل هذه الفرصة تفلت منه .

ونقل هانو ـ وكان الآن في الحادية عشرة ـ نقل هو وصديقه والكونت الصغير مولن بشق الأنفس وبملحق امتحان في الحساب والجغرافيا الى الفرقة الرابعة ، وقد تقرر أن يدخل المرحلة الثانوية الفنية ، إذ كان من البديهي أن يصبح تاجراً ، وأن يتولى متجر أبيه في المستقبل ، وقد سأله أبوه هل يحس من نفسه الرغبة في مهنته المستقبلية فأجاب بالإيجاب... أجاب بنعم بسيطة هيابة لم يزد عليها ، حاول السناتور بالإلحاف في أسئلة أخرى أن يجعلها أكثر حرارة وتفصيلاً بعض الشيء فلم يفلح في الغالب .

ولو كان للسناتور بودنبروك ولدان لجعل الأصغر يدرس ، لكن المتجر كان يتطلب وريثاً . وبغض النظر عن هذا فقد كان يعتقد أنه يولي الصغير معروفاً إذا هو جنبه متاعب لاضرورة لها في تعلم اليونانية . وقد كان من رأيه أن منهاج الثانوي الفني أسهل عليه ، وأن هانو بمزاجه الخامل في الكثير من الأحيان ، وشروده الحالم ، وجسمه الرقيق الذي كثيراً ما اضطره الى التخلف عن المدرسة ، سوف يسير في المرحلة الثانوية الفنية الى الأمام وأسرع وأنجح مما يمكن أن يسير في غيرها من دون اجتهاد ، فإذا قدر ليوهان بودنبروك أن يؤدي يوماً ما ذلك الذي خلق له والذي يعقد أهله الرجاء عليه فيه ، فيجب أن يحرص قبل كل شيء على تقوية بنيته الصغيرة وتنميتها بالمراعاة من جهة والتقشف من جهة أخرى...

لقد كان يوهان بودنبروك بشعره الكستنائي المفروق الآن من الجنب والممشط عن جبينه الى الوراء في ميل ، لكنه مع ذلك يحرص على أن يلتصق بسالفيه خصلاً ناعمة ، وبأهدابه العسلية الطويلة وعينيه العسليتين الرائقتين ، يتميز في فناء المدرسة وفي الشارع قليلاً عن الأنماط الاسكندناوية من رفاقه الشقر ، الزرق العيون زرقة الصلب . وقد نما جسمه في العهد الأخير تقريباً ، لكن ساقيه في جوربيهما الأسودين ، وذراعية في أكمامهما الداكنة الزرقة المنتفخة المضربة ، كانت نحيفة ناعمة كسيقان الفتيات وأذرعهن . ومازالت له كأمه تلك الظلال المائلة الى الزرقة من حول مآقيه وعينيه اللتين ترسلان إذا وجهتا من الجنب خاصة ، نظرة ذات تعبير ينم عن الوجل والصد ، بينما يبقى فيه دائماً مطبقاً على تلك الصورة الآسية ، أو بينما يحرك هانو طرف لسانه على إحدى أسنانه التي تثير ظنونه ، مفكراً يشد شفتيه شداً خفيفاً ، ويبدو عليه كما لو كان يرتعش من البرد .

وكان لضعف هانو وشحوب جلده في رأي الدكتور لانجهالز الذي بات يتولى كافة أعمال

الدكتور جرابو المسن وأصبح طبيب بيت بودنبروك ، سبب قوي هو أن النظام العضوي عند الصغير لاينتج الكريات الحمراء المهمة هذه الأهمية بالعدد الكافي للأسف ، بيد أنه كان لتلافي هذا النقص وسيلة وعلاج عظيم جدا وصفه الدكتور لانجهالز بكميات كبيرة : زيت الكبد الطيب الأصفر الدسم الكثيف ، زيت كبد الحوت الذي كان يؤخذ منه ملء ملعقة من البورسلين مرتين في اليوم . وقد عنيت ايدا يونجمان بناء على أمر السناتور الحازم وبصرامة حبيبة بأن يتناول هانو هذا في مواعيده . وحقاً أنه في بادئ الأمر يتقيأ بعد كل ملعقة ، وأن معدته فيما يبدو لاتقوى على استيعاب زيت كبد الحوت الطيب . بيد أنه لم يلبث أن اعتاده ، فإذا تناول عقب ابتلاعه مباشرة قطعة من خبز الشعير ومضغها محتبس الأنفاس هدأ اشمئزازه قليلاً .

وقد كان كل ماعدا ذلك من شكاواه مترتباً على هذا النقص في كريات الدم الحمراء ، فهي كما قال الدكتور لانجهالز وهو يتأمل أظافره « ظاهرات ثانوية » لكن هذه الظاهرات الثانوية أيضاً يجب أن يقضى عليها بلا شفقة . فأما عن معالجة الأسنان وحشوها وخلعها عند الضرورة فما يسكن من أجله السيد برشت في شارع الطاحونة مع ببغائه جوسيفوس . وزيت الخروع موجود في الدنيا لتنظيم الهضم ، زيت الخروع الثخين اللامع كالفضة الذي يتناول في ملعقة الأكل فينزلق من الحلقوم كالعظاءة المتسللة . ويظل المرء ثلاثة أيام كاملة يشعر في حلقه برائحته وطعمه أنّى ذهب وحيث وقف... آه ، لماذا كان كل هذا شيئاً مكروهاً لايمكن التغلب عليه الى هذا الحد ؟ لقد رقد هانو ذات مرة في فراشه وكان مريضاً حقاً ، وكان قلبه تنتابه اضطرابات من نوع خاص ، فعمد الدكتور لانجهالز في هذه المرة الوحيدة وفي اضطراب عصبي بعينه الى وصف دواء سر له يوهان الصغير وارتاح اليه راحة لامثيل لها . وكان هذا الدواء يتألف من حبوب الزرنيخ ، وكان هانو يسأل بعد ذلك عنه كثيراً مدفوعاً بحاجة تكاد تكون رفيقه الى هذه الحبوب الصغيرة الحلوة المسعدة ، لكنه لم يعد يحصل عليها .

وكان زيت الكبد وزيت الخروع من الأشياء الطيبة ، لكن الدكتور لانجهالز كان متفقاً مع السناتور كل الاتفاق على أن هذين الزيتين لم يكونا وحدهما كافيين لأن يجعلا من يوهان الصغير رجلاً حاذقاً شديد المراس ، إذ هو لم يساعد بنفسه على ذلك . فكان هناك على سبيل المثال ألعاب رياضية يديرها معلم الجمباز السيد فريتشه وتقام كل اسبوع في ظاهر المدينة فوق «ميدان القصر» ويجد فيها فتيان المدينة فرصة لإظهار

شجاعتهم وقوتهم وحذقهم وحضور ذهنهم وتنمية هذه الصفات . غير أنه أغضب الأب أن هانو صد عن هذه الألعاب المواتية للصحة ولم يبد سوى كراهية تنطوي على التحفظ والترفع تقريباً... فلماذا لم يتصل في هذا أي اتصال برفاقه في الفصل ولداته في السن وهم الذين سوف يعيش ويعمل معهم في المستقبل ؟ لماذا يقبع دائماً مع كاي الصغير الناقص النمو الذي كان مع طيبته كائناً تحوطه بعض الشكوك ويكاد لايصلح صديقاً له في المستقبل ؟ إنه يجب على الغلام أن يعرف منذ البداية كيف يكسب ثقة واحترام البيئة التي تنمو معه والتي لامناص له من تقديرها في حياته كلها ، فهناك ابنا القنصل هاجنشتروم وأحدهما في الرابعة عشرة والآخر في الثانية عشرة وكلاهما غلام رائع ، بدين ، متهور ، يدير في غابات محيطة ملاكمات حقيقية ، وكلاهما خير من يزاول الرياضة في المدرسة ، يسبحان ككلاب البحر ، ويدخنان السيجار ، وكلاهما مستعد لارتكاب أية موبقة . وقد كانا موضع خشية الرفاق وحبهم واحترامهم . أما ابنا عمهما وكيل النائب العام الدكتور موريتس هاجنشتروم فكانا من جهة أخرى أرق حاشية وألين عريكة . امتازا ذهنياً وكانا نموذجين بين التلاميذ ، طموحين ، متفانين ، هادئين ، نشيطين كالنحل ، شديدي الانتباه ، يكادان يتحرقان توقاً الى أن يكون كل منهما الأول في الترتيب وأن تكون شهادتهما الأولى . وقد حصلا عليها وعادا باحترام رفاقهما ممن هم أقل ذكاء وأبلد ذهناً . لكنه بغض النظر عن معلمي هانو ماذا كان رفاقه في المدرسة يعدونه وهو التلميذ الوسط غاية الوسط ، الناعم ، الرخو الى ذلك ، الساعي الى تجنب أي شيء وتهيبه وهو الخليق بأن يبذله له شيئاً من الشجاعة ، والقوة ، والحذق ، والمرح ؟ وقد كان السناتور بودنبروك كلما مر في طريقه الى حجرة لباسه بالشرفة الكائنة فوق هناك ـ وكانت غرفة هانو منذ أن كبر وشب عن أن ينام مع ايدا يونجمان في مخدع واحد نغمات الهارمونيوم أو صوت كاي المستتر الخافت يقص حكاية...

أما كاي فكان يتحاشى الألعاب الرياضية لأن الدربة والنظام المقرر كانا يمضانه على حين لم يكن بد من مراعاتهما أثناء هذه الألعاب . كان يقول : «لا ياهانو ، إني لاأذهب الى هناك . فهل تذهب أنت ؟ الى الشيطان بهذه الألعاب...إنه ليس فيها شيء من المتعة» . ومثل عبارة «الى الشيطان» كان يسمعها من أبيه ، لكن هانو كان يجيبه بقوله : «نستطيع أن نتكلم في هذا الموضوع إذا أمكن أن تفوح يوماً واحداً من السيد فريتشية رائحة غير رائحة العرق والجعة... أجل ياكاي ، دعنا من هذا وامض في حكايتك ، فإن ماقصصته عن الخاتم

الذي التقطته من المستنقع لم ينته بعد من أمد طويل...» فيقول كاي :«حسناً . لكنني حين أومىء اليك يجب أن تعزف» . ويمضي كاي في حكايته .

فإذا جاز لنا أن نصدق كاي فقد هبط من عهد قريب منحدراً زلقاً عميقاً بعيد الغور في ليلة مقبضة ، في ناحية غريبة مجهولة ، فوجد في سفحه في الضوء الباهت المتوهج من شعلة الماء(١) ، ماء مستنقع أسود تصعد الى سطحه بلا انقطاع فقاقيع لامعة كالفضة تقرقر قرقرة جوفاء . لكن فقاعة منها كانت تعود على الدوام قريبة من الضفة ، بعد أن تنفقع ، وكانت على شكل خاتم ، فوفق الى اقتناصها بعد جهود طويلة خطرة ، فلم تنفجر عندئذ ، بل لصقت باصبعه حلقة جامدة ملساء . أما هو ، وقد اعتقد أن لهذا الخاتم خواص غير عادية ، فقد صعد بمعونته المنحدر الزلق الشديد الانحدار ثانية ، ووجد غير بعيد منه قصراً أسود يلفه ضباب أحمر ، يرنق عليه مثل صمت الأموات ، ويخفر خفارة قوية ، فتسلل اليه وقام اليه بمعونة الخاتم بأعمال سحرية وأخرى للتخليص من السحر تستحق أجزل الشكر . لكن هانو كان في أغرب اللحظات التي تمر به أثناء القصة يعزف على هارمونيته متتابعات ائتلافية عذبة... وكان كذلك يعرض هذه الحكايات على مسرح الدمى تصحبها الموسيقى ما لم يقع في سبيلها عقبات لاسبيل الى تذليلها بالمنظر... أما الألعاب الرياضية فلم يكن هانو يذهب اليها إلا خضوعاً لأمر صريح حازم يصدر من أبيه... وعندئذ كان كاي الصغير يرافقه .

ولم تكن الحال تختلف عن هذا في التزحلق على الجليد وقت الشتاء ، والاستحمام في الصيف في حمام السيد أزموسن الخشبي القائم تحت على النهر . وقد كان الدكتور لانجهالز يقول : «الاستحمام! والسباحة! يجب أن يستحم الغلام ويسبح» . وكان السناتور موافقاً على هذا كل الموافقة . لكن الذي منع هانو في الغالب من الاستحمام والتزحلق والألعاب الرياضية ، ما أمكن هذا المنع ، قد كان ولدا القنصل هاجنشتروم اللذين كانا يساهمان في كل هذه الأشياء بجدارة ؛ كانا يقصدانها معه . ومع أنهما كانا يسكنان في بيت جدته ، كانا لايدعان فرصة تمر دون أن يذلاه ويعذباه بقوتهما ، فكانا يخدشانه ويستهزئان به في الألعاب الرياضية ويدفعان به الى نفاية الثلوج على طريق الزحلقة ، ويندفعان اليه في ماء حوض السباحة يزعقان ويهدران... فلم يكن هانو

---

(١) شعلة الماء ، هي اللمعان المتوهج على سطح الماء الراكد من تحلل الفسفور المنبعث من بعض المواد النباتية والحيوانية .

يحاول الفرار . ولو فعل ماأفاده الفرار كثيراً . كان يقف بذراعيه اللتين تشبهان أذرع الفتيات ، في الماء الكدر الى بطنه تقريباً ، وكان على سطح الماء تلك المجموعة الخضراء من الأعشاب المسماة علف الأوز تتحرك ، فينظر الى كليهما مقطب الحاجبين ، نظرة منخفضة مظلمة ، ويزم شفتيه زماً خفيفاً وهما مقبلان عليه يقفزان قفزات طويلة يتولد منها الزبد ، واثقين من الغنيمة . وكانت لكلا الفتيين ، ولدي هاجنشتروم ، عضلات في الذراعين يطوقانه بها ويغطسانه ، يغطسانه طويلاً جداً حتى يبتلع الكثير من الماء القذر ويجاهد للتنفس والترنح... وذات مرة جاء من ينتقم له شيئاً ما . إذ أنه في الوقت الذي كان فيه ولدا هاجنشتروم يضغطانه عصر يوم تحت سطح الماء ، ندت عن أحدهما بغتة صرخة أطلقها الحنق والألم فرفع إحدى ساقيه السمينتين وهي تقطر دماً . ثم ظهر بجانبه الكونت كاي مولن الذي حصل على رسم الدخول الى حوض السباحة بشكل أو بآخر وسبح اليهم تحت الماء على غير انتظار ، وعض الفتى هاجنشتروم - عضة في ساقه بجمع أسنانه كما لو كان كلباً صغيراً مسعوراً . وكانت عيناه الزرقاوان تبرقان من بين شعره الأشقر الضارب الى الحمرة ، المتهدل فوقهما مبللاً . وقد لقي على فعلته تأديباً قاسياً ، ذلك الكونت الصغير ، وخرج من الحوض على أسوأ حال . غير أن ابن هاجنشتروم القوي كان يعرج عرجاً شديداً وهو يتوجه الى بيته...

كانت الموارد الغذائية والتمرينات الرياضية أساس الجهود التي يبذلها السناتور بودنبروك لتعهد ابنه ، لكنه لم يكن أقل من ذلك عناية بالسعي الى التأثير في ذهنه وتزويده بانطباعات حية من واقع الحياة العملية التي كتبت عليه .

فبدا يعرفه قليلاً في دائرة نشاطه في المستقبل ، فاصطحبه في غدواته وروحاته المتصلة بأعماله ، وهبط به الى الميناء ، وتركه يحضر أحاديثه مع عمال المطافىء على الرصيف بلغة هي مزيج من الدانيماركية والألمانية العامة ، ومباحثاته في مكاتب المخازن الصغيرة المظلمة مع مديري الأعمال ، ويستمع اليه وهو يصدر الأوامر الى العمال في الخارج ، أولئك الذين يرفعون أعدال الحبوب الى الصوامع وهم يتنادون نداءات مديدة جوفاء... وقد كانت هذه القطعة من العالم في الميناء وبين السفن والمخازن والمستودعات حيث تتصاعد الروائح من الزبد والسمك والماء والقطران والحديد المزيت - كانت لتوماس بودنبروك منذ الحداثة أحب مقام له وأحوزه على اهتمامه . ولما لم يبد ابنه من نفسه غبطة بهذه القطعة من العالم ومشاركة فيها ، فقد كان على أبيه أن يحرص على إثارة هذه الغبطة وهذا الاهتمام... فيسأله :

ماذا تسمى البواخر التي تتعامل مع كوبنهاجن ؟ نايادن ...هالمشتات... فريدريكا أوڤرديك... ويقول : «والآن وأنت تعرف هذا في الأقل يا بني ، فهو شيء يذكر ، وستلقى بالك أيضاً الى الأسماء الأخرى .

ومن الناس الذين يرفعون الأعدال هناك من له مثل اسمك ياعزيزي لأنه عمد باسم جدك... بين أولادهم من يسمى كثيراً باسمي... وكذلك باسم والدتك... ومن ثم نهدي اليهم شيئاً في كل عام... والآن نمر بهذا المخزن ولانحادث عماله ، فليس لدينا مانقوله لهم فهم يتبعون منافساً لنا...»

وقال مرة أخرى : «أتأتي معي ياهانو ؟ إن سفينة جديدة تابعة لشركة ملاحتنا تنزل اليوم الى البحر وسأعمدها... فهل ترغب في المجيء ؟»

وقال هانو أنه راغب . وصحب أباه ، وسمع خطاب التعميد الذي ألقاه ، وشهد كيف حطم زجاجة الشمبانيا على مقدمة السفينة ، وتبع السفينة بعينين مستغربتين وهي تنزلق فوق سهل منحدر مدهون كله بصابون أخضر ، الى الماء وقد تعالى زبده...

وفي أيام بعينها من السنة ، في أحد السعف عندما يثبت الأطفال المسيحيون في دينهم ، أو في يوم رأس السنة ، يطوف السناتور بودنبروك بمركبته يؤدي الزيارات لطائفة من البيوتات التي يرتبط بها اجتماعياً ، ولما كانت زوجته تؤثر الاعتذار في هذه المناسبات باضطراب أعصابها وبالصداع كان يطلب الى هانو مصاحبته ، وكان هانو يرغب في ذلك أيضاً فكان يصعد مع أبيه المركبة ، ويجلس بجانب أبيه صامتاً في غرف الاستقبال ويراقب بعينين ساكنتين مسلكه السهل اللبق المتنوع في عناية ملحوظة ، ويشهد كيف يضع ذراعه لحظة في ممانعة وود حول كتف المقدم السيد فون رنجلن قومندان المركز الذي أكد له وهو يودعه أنه يعرف كيف يقدر شرف هذه الزيارة كل التقدير . وكيف تلقى في مكان آخر مثل هذه الملاحظة في هدوء وجد ، وكيف ردها في موضع ثالث بتحية أسرف فيها في السخر... كل ذلك في احتفال وخبرة بالكلمة والمسلك كان يحب أن يبديهما فيما يظهر ليثير اعجاب ابنه ، إذ كان يؤمل أن يكون لهما عليه تأثير وفيهما تبصير...

لكن يوهان الصغير رأى أكثر مما كان ينبغي له وراقبت عيناه المستحيتان العسليتان الرائقتان ، الظليلتان بهالة تضرب الى الزرقة ، أكثر مما يجب ، بل رأى كذلك ـ بنظرة جديدة غريبة عذبته ـ رأى كيف كان من العسير جداً اصطناع هذا اللطف وكيف كان أبوه عقب كل زيارة يقل كلامه ويزداد امتقاع لونه ، وكيف كان يتكىء في

ركن المركبة مغمض العينين محمر الجفون . فإذا بلغا عتبة البيت التالي رعى هانو أباه والرعب يملأ قلبه ، يسدل على نفس الوجه قناعاً فتعاود المرونة المباغتة حركات نفس الجسم من جديد... فلا يتخذ مظهر أبيه بين الناس وحديثه معهم ومسلكه حيالهم وتأثيره فيهم ومعاملته إياهم ـ لايتخذ هذا كله في عين يوهان الصغير تلك البساطة الطبيعية المعبرة في شبه وعي عن مصالح عملية يشارك فيها بعض الناس أو يبغي فرضها على الآخرين ، بل نوعاً من الغرض الذاتي وجهداً واعياً مفتعلاً تبدو فيه بدل المشاركة البسيطة الباطنة الخالصة ، فذاذة بالغة العسر ، مضنية غاية الاضناء في الهيئة وانتصاب القامة... وإذ يفكر هانو في أن أباه ينتظر منه يوماً أن يظهر في المجتمعات العامة ، وأن يستخدم لسانه ويراعي هيئته تحت وقر الأنظار جميعاً ، أغمض عينيه مرتعداً مما داخله في وجل وكراهية لهذا الذي ينتظر منه...

لم يكن هذا بالأثر الذي نشده توماس بودنبروك من تأثير شخصيته على ابنه! فقد كان يطمع أن يزايله الخجل وألا يبالي ، وأن يوقظ فيه فهماً للحياة العملية ، فهذا لاغيره ماكانت أفكاره تدور حوله...

كان يقول لهانو إذا طلب نصيباً آخر من الحلوى أو نصف فنجال من القهوة بعد الأكل : « يلوح لي ياعزيزي أنك تحب العيش الرغيد . إذن يجب أن تكون تاجراً حاذقاً لتكسب مالاً وفيراً! فهل تريد ذلك ؟ » فيجيب الغلام بنعم .

وحين تدعى الأسرة بين الحين والحين الى مائدة السناتور وتأخذ العمة أنتونيا أو العم كريستيان جرياً على عادتهما القديمة في التندر على العمة كلوتيلده المسكينة ومحاكاة لهجتها المديدة المتواضعة الودودة في التحدث اليها كان يقع أن يلجأ هانو من جانبه تحت تأثيرالنبيذ الأحمر الثقيل على خلاف العادة ، الى هذه اللهجة فيستعملها لحظة مع العمة كلوتيلده ويوجه اليها سخرية ما ، وعندئذ يضحك ، توماس بودنبروك ضحكة عالية صادرة من القلب مشجعة ، على المرح . بل لقد كان يأخذ في سند ابنه وينضم اليه في معاكستها : وحقاً لقد كان يستعمل هذه اللهجة من زمن طويل مع هذه القريبة المسكينة . وكان من اليسير عليه دون التعرض للخطر بحال أن يثبت تفوقه على كلوتيلده الضيقة الذهن ، الذليلة ، الهزيلة ، النهمة على الدوام حتى أنه على الرغم من كل انتفاء للأذى في هذا ، كان يشعر بما في ذلك من حقارة ، ويحس الرغبة في الإقلاع عنه بتلك المجاهدة اليائسة التي كان لابد أن يقاوم بها في حياته العملية كل يوم طبيعته التي لاتبالي ، وذلك حين يعود مرة أخرى فلا

يدرك ، لايستطيع أن يفهم كيف يكون بالإمكان تبين موقف واجتلاءه ثم استغلاله مع ذلك من دون شعور بالخجل... لكنه كان يقول لنفسه إن استغلال موقف من دون شعور بالخجل هو حذق الحياة!

لكنه ماكان أشد شعوره بالبهجة والسعادة وأعمر صدره بالأمل حين يغتبط بأبهت أمارة على حذق الحياة هذا يتبينها في يوهان الصغير!

الفصل الثالث

منذ بضع سنوات كان آل بودنبروك قد أبطلوا عادة السفر في الصيف وهو ماكانوا في ذلك الوقت يألفونه . وحتى لما أبدت زوجة السناتور رغبتها في الربيع الفائت أن تزور أباها الشيخ في أمستردام وتعزف معه بعد هذا الزمن الطويل بضع ثنائيات على الكمان كرّة أخرى ، لم يوافق زوجها على رغبتها هذه إلا بصورة مقتضبة . إما أن تنتقل جيردا والصغير والآنسة يونجمان كل سنة الى حمام الاستشفاء في تراڤيمنده لقضاء عطلة الصيف فأمر بقيت عادته في الغالب تتمشى مع صحة هانو...

عطلة الصيف تقضى على البحر! فهل كان أحد كائناً من كان يفهم تماماً مايعنيه هذا من سعادة ؟

اعتكاف هادىء خال من الهم طيلة أربعة أسابيع بعد أيام أمضاها في المدرسة لاتعد ولاتحصى ، وسارت فيها الأمور على وتيرة مستعصية حافلة بالهموم... اعتكاف تفعمه رائحة أعشاب البحر وصوت تلاطم الموج الواهن على الساحل... أربعة أسابيع ، وقت لاسبيل في بدايته الى اغفاله وقياسه ، أما الاعتقاد في نهايته فمحال ، وأما الكلام عن هذه النهاية فجلافة . ولم يفهم الصغير قط أن يرفع هذا المدرس أو ذاك صوته في ختام الدراسة بعبارات من قبيل : «سنستأنف العمل هنا بعد العطلة وننتقل الى هذا وذاك...» بعد العطلة! يلوح أن هذا الرجل غير المفهوم الذي يرتدي سترة لامعة مبرومة الفتلة مسرور بذلك . بعد العطلة! فهل هذه الفكرة مما يخطر ببال! إن مايقع بعد هذه الأسابيع الأربعة لبعيد جداً تطويه غيوم!

وفي بيت من البيتين السويسريين اللذين يربطهما مبنى وسط مستطيل ، ويؤلفان مع محل الحلواني والمبنى الرئيس للحمام خطاً مستقيماً ما كان أجمل النهوض من النوم أول

صباح بعد أن اجتاز في اليوم السابق محنة الإطلاع على شهادة المدرسة على خير أو على شر ، وبعد قطع الرحلة في المركبة المحملة! وقد تنبه مذعوراً من شعور غامض بالهناء سرى في جسمه وانكمش له قلبه... ففتح عينيه وألم نظرة متشهية بالأثاث القديم القائم في حجرته الصغيرة النظيفة... وكانت ثانية من الاضطراب الهنيء الوسنان ، ثم أدرك أنه في تراڤيمنده! لأربعة أسابيع لاتحد في تراڤيمنده! فلم يتحرك بل بقي مستلقياً على ظهره ، ساكناً في سريره الخشبي المستطيل الذي رق تيله ونعم بفعل الزمن ، وكان يغمض عينيه الفينة بعد الفينة ويشعر كيف يرتعد صدره في تنفسه العميق الطويل من الهناء والقلق .

وكان يغمر الغرفة ضوء النهار المصفر الذي نفذ اليها من الشماسة المخططة بينما كان كل ماحوله يرنق عليه السكون ، وايدا يونجمان وأمه على السواء ماتزالان نائمتين . لم يكن شيء يسمع سوى الصوت الوتير الهادىء الذي يسوي فيه خادم الدار حصى حديقة الحمام تحت ، وطنين ذبابة لاتني تهاجم لوح الزجاج بين الشماسة والنافذة ، ويرى المرء ظلها منطلقاً فوق التيل المخطط في خطوط متعرجة طويلة... سكون! صوت المسلفة الوحيد والطنين الوتير! وكان هذا الهدوء الذي يشيع فيه من الحياة هذا النذر الهين يفعم الصغير يوهان من ذلك الحين بشعور لذيذ يحدوه من ذلك الاعتكاف الهادىء المتميز الذي تحوطه العناية في الحمام والذي كان يحبه هذا الحب فوق كل شيء . كلا ، الحمد لله أنه لم يأت الى هذا المكان أحد من ذوي الأردية اللامعة ذات الفتلة المبرومة الذين يمثلون على الأرض الحساب والنحو . وكيف يأتون الى هذا المكان والمقام فيه كثير التكاليف...

وألمت به نوبة من الفرح جعلته يقفز من سريره ويجري الى النافذة حافي القدمين ليرفع الشماسة ويفتح مصراعاً من مصراعي النافذة بفك العقفة المدهونة باللاكية الأبيض ويتتبع الذبابة بنظرة وقد انطلقت فوق طريق الحصباء وأحواض الورد في حديقة الحمام . وكان هيكل الموسيقى تحف به أشجار الزان مايزال خالياً ساكناً يواجه أبنية الحمام . و«المساحة المنيرة» التي اكتسبت اسمها من المنارة القائمة في مكان ما الى اليمين تمتد تحت السماء المكتسية بالبياض الى أن ينتقل كلؤها القصير الذي يتخلله بعض البقع الجرداء الى نباتات عالية صلبة تنمو على الساحل ، فإلى الرمال بعدئذ ، هناك حيث يفرق بين صفوف الأخصاص الخشبية الخاصة الصغيرة وسلال الجلوس المطلة على البحر . وكان البحر هادئاً يغمره ضوء الصباح ترتسم على صفحته خطوط خضراء وزرقاء ، ملساء وجعداء . وجاءت باخرة تسير بين البراميل المدهونة بالأحمر التي تعيّن لها طريق المرور ـ جاءت من كوبنهاجن من دون

أن يحتاج المرء أن يعرف هل تسمى «نايادن» أو «فريدريكا أوڤرديك» . واستنشق هانو بودنبروك النسيم يعبق برائحة كرائحة التوابل ، ويبعث به البحر اليه ، في عمق وهناء صامت ، وحياه بالعينين تحية رقيقة شاكرة محبة .

ثم بدأ النهار الأول في تلك الثمانية والعشرين المسكينة التي بدت أول الأمر هناء أبدياً ، ثم لم تلبث بعد أن انقضت الأيام الأولى أن جرت مسرعة تبعث على اليأس... وكان يتناول طعام الإفطار فوق المطلة أو تحت شجرة الكستناء الكبيرة تجاه ساحة لعب الأطفال ، هناك حيث الأرجوحة الكبيرة المعلقة ـ وقد أبهج الصغير يوهان كل شيء : رائحة مفرش المائدة المغسول بسرعة والندل ينشره على المائدة ، وفوط الورق الحريري ، والخبز الذي لاعهد له به ، وأن البيض لايؤكل ، كما هي الحال في مدينته ، بملاعق شاي مصنوعة من العظم ، بل بملاعق عادية ومن أوعية معدنية .

أما ماتلا فكان كله منظماً تنظيماً سهلاً حراً ، كانت حياة رغيدة معنياً بها يتخللها فراغ عجيب وتسير سيرة لايعكر صفوها شيء ،ولا يكدرها هم : الصباح فوق هناك ، وهذا الاستلقاء وهذه الاستراحة عند قدم سلة الجلوس ، وهذا اللعب الرفيق الحالم بالرمل الناعم الذي لايلوث ، وهذا الجولان والشرود بالعينين فوق اللانهاية الخضراء الزرقاء التي يهب منها في هسيس رقيق نسيم قوي ، منعش ، جارف ، عبق ، رائع يداعب الأذنين ويخلف دواراً مريحاً وتخديراً مكبوحاً يفقد الوعي للزمان والمكان ولكل شيء محدود ، في سكون وغبطة... وبعد ذلك الاستحمام الذي كان شيقاً أبعث على السرور من الاستحمام في حمام السيد أرنولدسن ، ذلك أنه لم يكن هنا «علف أوز» ، والماء الرائق الخضرة الصافي كالبلور يزبد بعيداً كلما استثير ، والقاع الرملي الخفيف المتموج يداعب باطن القدم بدلاً من أرضية الألواح اللزجة ، هذا الى أن ولدي القنصل هاجنشتروم كانا يقيمان بعيداً ، بعيداً جداً في بلاد النرويج أو التيرول . وكان القنصل يحب أن يقوم في الصيف برحلة استجمام طويلة ـ ولم لا ، أليس كذلك ؟... ونزهة للتدفئة سيراً على الأقدام على امتداد الساحل الى «صخرة طائر النورس» أو هيكل البحر ولقمة تتناول في سلة الجلوس ـ قد اقتربت الساعة التي يصعد فيها الى الغرف للاستراحة ساعة قبل الاستعداد للمائدة . وكانت المائدة مفرحة وحجرة الحمام في الردهة ، وكثيرون هم أسر صديقة لآل بودنبروك وأناس من هامبورغ بل كذلك سادة من الانجليز والروس ، كانوا يملأون القاعة الكبرى في الدار ، وعلى مائدة حافلة صغيرة يقدم سيد يرتدي الملابس السوداء حساءً من سلطانية فضية لامعة ويناول أربعة

ألوان من الطعام ألذ طعماً وأكثر توبلة وأشد بصورة ما شبهاً بالولائم على كل حال مما يقدم في البيت . وفي مواضع من الموائد الطويلة كانت تحتسى الشمبانيا . وكثيراً ماكان يقدم في المدينة سادة فرادى لم يشاءوا أن تقيدهم أعمالهم طيلة الأسبوع فكانوا يتسلون ويديرون الروليت قليلاً : القنصل بيتر دولمان الذي ترك ابنته في البيت . وكان يقص بصوت رنان وباللغة العامية حكايات مجردة من الحياء الى حد أن السيدات الهامبورجيات كن يسعلن من شدة الضحك ويرجونه أن يستريحوا لحظة ، والسناتور الدكتور كريمر رئيس البوليس المسن والعم كريستيان وصديقه في عهد المدرسة السناتور جيزيكه الذي كان هناك بلا أسرة كذلك ، يدفع عن كريستيان كل شيء... وفيما بعد حين يتناول الكبار القهوة على أنغام الموسيقى تحت سطح خيمة الحلواني كان هانو يجلس على كرسيه أمام درجات «الهيكل» وينصت من دون ملال... وكان لأوان العصر أشياؤه ، فكان هناك محل للرماية في حديقة الحمام ، وإلى يمين البيتين السويسريين اسطبلات عامرة بالخيل والحمير والأبقار التي يتناول المرء ألبانها دافئة مزبدة عبقة في ساعة التصبيرة . وقد كان في الإمكان القيام بنزهة سيراً على الأقدام الى المدينة الصغيرة على امتداد «الصف الأول» وكان في الوسع العبور من هناك بقارب الى «البريڤال» الذي كان يوجد على ساحله الكهرمان ، أو الاشتراك في شوط في الكروكيت في ساحه لعب الأطفال أو أن يدع ايدا يونجمان تقرأ له على مقعد مديد من مقاعد الربوة المشجرة القائمة خلف الفنادق والمعلق فوقها جرس المائدة الكبير... ومع ذلك فقد كان خير مايفعل هو العودة الى البحر وتأمل الأفق المترامي في ساعة الغروب والجلوس فوق قمة الحصن والتلويح للسفن الكبيرة المارة بالمنديل والإنصات الى الموجات الصغيرة وهي تصطفق في مناجاة خافتة بكتل الصخر ، والى الأزيز الخفيف البديع الذي كان يملأ كل هذا الفضاء من حوله يوهان الصغير ويناجيه متلطفاً ويحمله على أن يغمض عينيه ناعماً شديد الارتياح . لكنه عندئذ تقول ايدا يونجمان : «تعال ياصغيري هانو ، يجب أن نذهب ، لقد حان وقت العشاء . ولو فكرت في النوم هنا للحق بك سوء...» وقد كانا يعودان دوماً من البحر بقلب هادئ مطمئن منتظم . فإذا ما تناول طعام عشائه في حجرته ومعه اللبن أو الجعة السوداء الشديدة التخمير ، بينما تتعشى أمه بعد ذلك في مظلة الحمام في مجتمع أكبر ، هبط عليه النعاس ولما يكد يستلقي بين أغطية فراشه الكتانية التي رقعت بفعل الزمن ، دون خوف أو حمى ، مستنيماً الى دقات هذا القلب المطمئن بالذات ــ تلك الدقات الرفيقة الكاملة ـ والى الإيقاعات الخافتة التي تتناهى اليه في حفلة المساء الموسيقية .

وظهر السناتور يوم الأحد بين ذويه أسوة ببضعة غيره من السادة الذين احتجزوا خلال الاسبوع عن أعمالهم في المدينة ، وبقي الى صباح الاثنين . ومع أنه كان يقدم على المائدة المثلجات والشمبانيا ، وكانت ترتب ركبات على الحمير ونزهات شراعية الى عرض البحر المترامي ، كان يوهان الصغير لايحب هذه الأيام ـ أيام الآحاد ـ كثيراً ، لأنها تؤثر على هدوء الحمام والاعتكاف فيه . إذ كان الكثيرون من القادمين من المدينة الذين ليس هذا مكانهم ، والذين أسمتهم ايدا يونجمان في شيء من الاستخفاف ينطوي على حسن النية : «ذباب اليوم الواحد المنتمي الى الطبقة الوسطى» يزحمون حديقة الحمام والساحل بعد الظهر ليتناولوا فنجاناً من القهوة ، ويستمعوا الى الموسيقى ويستحموا ، وآثر هانو أن يغلق على نفسه الحجرة وينتظر ارتحال هؤلاء المعكرين للسلام الذين جاءوا حريصين على حسن الهندام... كلا ، إنه كان يغتبط حين يجري كل شيء ثانية مجراه العادي في يوم الاثنين ، وحين لاتكون هناك أيضاً عينا أبيه ، هاتان العينان اللتان يظل بعيداً عنهما ستة أيام ويحس أنهما تتركزان عليه طيلة يوم الأحد فاحصتين باحثتين...

وانقضت أربعة عشر يوماً وقال هانو لنفسه وأكد لكل من أراد سماعه ، أنه سيحل الآن وقت في طول عطلة ميكائيل . بيد أن هذا قد كان عزاء خادعاً ، ذلك أنه وقد بلغت العطلة ذروتها بدأت تميل وتتجه نحو النهاية بسرعة ، وبسرعة مخيفة الى حد أنه ود لو تعلق كل ساعة حتى لايدعها تمر ، وأن يعوق كل نسمة يتلقاها من البحر حتى لايهدر هناؤه وهو غافل...

لكن الوقت كان يمر دون أن يعتاقه شيء يتعاقب فيه المطر وضوء الشمس ، وتتناوب ريح البحر وريح البر ، والدفء الساكن المرهق والعواصف الصاخبة التي لم يكن لها قبل بعبور البحر ولاكانت لها فيما يظهر نهاية . كانت هناك أيام تغرق فيها ريح الشمال الشرقي الجون بفيض أخضر قاتم يغطي الساحل بالعشب والمحار والريات ويهدد الأخصاص ، ثم يكسو البحر الكدر الفائر طولاً وعرضاً بالزبد ، وكانت موجات كبيرة قوية تدرج نحو الشاطيء في هدوء عنيد يشيع الخوف ثم يميل في جلال وتستدير خضراء قاتمة لامعة كالمعدة ثم تنتفض فوق الرمل مزمجرة ، وتنهد ناشة مرعدة... وكانت هناك أيام أخرى ينجزر فيها البحر من ريح الغرب فينكشف قاعه متموجاً بديعاً الى مسافة بعيدة وتظهر في كل مكان شواطيء رملية مجردة ، بينما ينهمر المطر أنهاراً وتذوب السماء والأرض والماء بعضها في بعض ، وتعصف الريح بالمطر يلطم ألواح النوافذ بلا تساقط فوقها قطرات بل

ينساب جداول فتتعذر منها الرؤية ، عندئذ كان هانو في الغالب يعتكف في قاعة الحمام جالساً الى البيان المتأثر بعض الشيء من فرط العزف عليه في حفلات رقص الفالس والاسكتلندي ، لايوائم هانو في التقسيم بأصوات ملائمة كما يوائمه البيان في بيته ، لكنه يمكنه أن يستوحيه تأثيرات مرفهة غاية الترفيه بنغمة الغرد الأمين... وعادت أيام أخرى حالمة ، صاحية ، ساكنة الريح ، شديدة الدفء ، يطن فيها البحر صامتاً عاكساً كالمرآة لاتهب عليه نسمة ولا تلم به حركة . فإذا ماكان الباقي من العطلة ثلاثة أيام قال هانو لنفسه وأوضح لكل إنسان أنه مايزال بعد وقت في طول عطلة الفصح بأسرها . وعلى أنه لم يكن هناك مطعن على هذا الحساب قد كان نفسه لايؤمن به بل كان قد دخل في روعه من أمد طويل أن صاحب الرداء اللامع ذي الفتلة المبرومة كان مع ذلك على حق في أن الأسابيع الأربعة الى انتهاء ، وأنه سيستأنف حيث وقف وينتقل الى هذا الدرس أو ذاك...

وقد وقفت المركبة المحملة أمام الحمام ، إذ كان يوم الرحيل قد حل . وكان هانو قد ودع البحر والساحل في الصباح الباكر كما ودع الندل الذين تلقوا رواشنهم وهيكل الموسيقى وأحواض الورد وهذه الفترة كلها من الصيف . ثم تحركت المركبة بين انحناءات موظفي الفندق ، فمرت بالشارع الرئيسي المؤدي الى المدينة الصغيرة ، وسارت على امتداد «الصف الأول» ، وضغط هانو رأسه في ركن المركبة وتخطى ببصره الى خارج النافذة ايدا يونجمان التي كانت جالسة تجاهه على المقعد الخلفي يقظة العينين ، بيضاء الشعر ، بادية العظام . وكانت سماء الصباح بيضاء ، ونهر تراڤيه يرسل موجات صغيرة تلاحقها الريح ، وقطرات المطر تنقر بين الحين والحين على ألواح الزجاج . وكان عند مخرج «الصف الأول» أناس جالسون أمام الأبواب يرتقون الشِبّاك ، وأطفال حفاة جاءوا يعدون ويتأملون المركبة مستطلعين ، ثم بقوا حيث هم...

فلما استدبرت المركبة آخر البيوت انحنى هانو الى الأمام ليلقي نظرة أخرى على المنارة ثم ارتد مسنداً ظهره وأغمض عينيه . وقالت ايدا يونجمان بصوت عميق فيه نبرة العزاء : «سنعود في العام القادم ثانية ياصغيري هانو» . وقد كان ينقصه هذا الكلام ليحرك ذقنه ويرعشها ويفجر دمعة تحت أهدابه الطويلة .

لقد اسمرّ وجهه ويداه من هواء البحر . لكنهم إذا كانوا قد ابتغوا من هذه الإقامة في الحمام أن يجعلوه أصلب عوداً ، وأعظم همة ، وأنعش نفساً ، وأقدر على الاحتمال ، فقد خاب فألهم بصورة أسيفة . لقد كانت هذه الحقيقة العديمة الأمل تداخله ، وكان قلبه مفعماً

في هذه الأسابيع الأربعة بعبادة البحر وحب السلام ، لكن هذه الأسابيع الأربعة جعلته أنعم مما كان كثيراً ، مدللاً عما كان كثيراً ، وأكثر استرسالاً في الأحلام وأرهف احساساً . كذلك جعلته أعجز مما كان كثيراً عن الاحتفاظ برباطة الجأش عند مرأى مسائل حساب السيد تيدجه وعدم التخاذل تماماً عند التفكير في حفظ أرقام التاريخ وقواعد اللغة عن ظهر قلب ، والتخلص من الكتب في طيش موئس ، والنوم العميق تجنباً لكل شيء ، وفي الخوف الذي يساوره في الصباح ومن الدروس ، وفي الكوارث التي تنزل به وعدوان ابني هاجنشتروم عليه ، وفي المطالب التي يقتضيه أبوه إياها .

على أن رحلة الصباح أبهجته بعد ذلك قليلاً ، وكانت رحلة غردت فيها الطيور ومرت بطرقات الشارع السلطاني المغمورة بالماء ، وقد فكر في كاي ولقائه ، في السيد بفيل ودروس البيان ، وفي البيان والهارمونيوم . هذا الى أن غداً كان الأحد ، وأول يوم في الدراسة وهو بعد غد ، كان مايزال عديم الخطر . أخ ، لقد أحس قليلاً من الرمل في حذائه المزرور ذي العنق... فانتوى أن يرجو جروبليبين العجوز أن يدعه فيه... وليبدأ كل شيء من جديد ، رداء الفتلة المبرومة ومتاعب ابني هاجنشتروم وغير ذلك . وليحصل مايحصل ، فسيلوذ بذكريات البحر وحديقة الحمام إذا مادهمه كل شيء من جديد . ونزر يسير من التفكير في الخرير الذي يصاحب الموج الصغير الآتي في سكون المساء من بعد غارق في سبات محفوف بالأسرار ، والمصطفق بالحصن ، كفيل بأن يعزيه وأن يقية السوء...

وجاءت بعدئذ المعدية وشارع قرية اسرائيل وجبل أورشليم وساحة القصر ، وبلغت المركبة بوابة القصر التي تقوم بجانبها عن اليمين أسوار السجن حيث يقيم العم ڤاينشنك ، ودرجت على امتداد شارع القصر وعبر كوبرج واستدبرت الشارع العريض ، وهبطت في ضبط حفرة السماكين شديدة الانحدار ؟ وهنا الواجهة الحمراء ذات الخارجة والركائز البيضاء ، فلما دخلت من الشارع الذي يغمره حر الظهيرة الى برودة الرحبة الحجرية أقبل السناتور والقلم في يده خارجاً من مكتبه لاستقبالهم .

وشيئاً فشيئاً تعلم الصغير يوهان من جديد ، ودموعه الخفية على خديه ، أن يفتقد البحر وأن يعاوده الوجل ، وأن يضجر الضجر الشديد ويتمثل ابني هاجنشتروم على الدوام وأن يتعزى عن ذلك بكاي وبالسيد بفيل والموسيقى ، وما أن رأته سيدات بودنبروك ساكنات الشارع العريض والعمة كلوتيلده حتى وجهن اليه السؤال : كيف مذاق المدرسة بعد العطلة ــ وجهنه اليه وهن يتغامزن بأعينهن مكايدة وفهماً لموقفه ، ويبدين تلك الغطرسة

الغريبة التي تصدر عن الكبار والتي يتندر بها ماأمكن بكل مايتعلق بالصغار ويعالج من السطح . وقد صمد هانو لهذا السؤال...

وظهر الدكتور لانجهالز طبيب البيت في « حفرة السماكين » عقب العودة بثلاثة أو أربعة أيام ليتحرى تأثير الحمام . وبعد أن تباحث طويلاً مع السناتورة عرض عليه هانو نصف عار ليكشف عليه كشفاً دقيقاً ـ على حالته الراهنة كما يقول الدكتور لانجهالز ـ فتأمل أظافره ، وفحص عضلاته الضعيفة وصدره ، وكيف يؤدي قلبه وظيفته ، وتحرى عن كل مظاهر حياته ، وجذب أخيراً بإبرة الحقنة نقطة دم من ذراعه النحيل ليحللها في البيت ، وبدا عليه عدم الارتياح بوجه عام .

قال وقد قبل هانو الواقف أمامه وجمع يده الصغيرة التي يعلوها شعر أسود على كتفه ورفع بصره الى السناتورة والآنسة ايدا يونجمان : «لقد اسمر لوننا تقريباً لكنه لايزال لنا هذا الوجه المكتئب دائماً » .

فأبدت جيردا بودنبرك : « إنه يحن الى البحر » .

فقال الدكتور لانجهالز : « كذا ، كذا . إذن أنت تؤثر البقاء هناك » . وتأمل وجه يوهان الصغير عينيه اللتين تنمان عن العجب . فتبدل لون هانو وتساءل : مامعنى هذا السؤال الذي كان الدكتور لانجهالز ينتظر عليه الجواب . وداخله أمل جنوني عجيب بعثه اقتناعه الحالم بأنه لامحال عند الله ولو كره أصحاب الأردية ذات الفتلة المبرومة جميعاً .

قال : « نعم... » وهو يحملق بعينيه المتسعتين ، غير أن الدكتور لانجهالز لم يكن يعني بسؤاله شيئاً على الإطلاق .

فقال وهو يربت بيده على كتف يوهان الصغير :« على أن تأثير الحمامات والهواء الجيد سوف يظهر فيما بعد... أجل ، فيما بعد! » ثم نحاه ونهض منهياً الاستشارة ، حانياً رأسه للسناتورة وايدا يونجمان حنية متعالية ، خيرة ، مشجعة هي انحناءة رأس الطبيب العالم الذي يعلق المرء نظره بعينيه وشفتيه . وقد وجد هانو في عمته أنتونيا أوسع فهم لتألمه وحنينه الى البحر ولجرحه الذي كان يندمل في بطء شديد فإذا مسته قوة الحياة اليومية عاد فالتهب وأخذ يدمي . وكانت عمته قد سمعته يتحدث في غبطة ظاهرة عن الحياة في تراڤيمنده . وأصغت الى مديحه المفعم بالشوق بقلب متحمس .

قالت :أجل ياهانو . إن ماهو حقيقي يبقى الى الأبد حقيقياً . وتراڤيمنده مكان جميل! وسأظل الى آخر نسمة من حياتي أذكر بالغبطة أسابيع الصيف التي قضيتها هناك ذات مرة

وأنا فتاة صغيرة غريرة ، أتعرف! كنت أسكن عند أناس أحببتهم وأمكن أن يحبوني كما بدا لي ، إذ كنت إذ ذاك مخلوقة متوثبة ـ هذا مايسعني قوله الآن أنا الإمرأة العجوز ـ مرحة النفس دائماً تقريباً . وإني لأقول لك أنهم كانوا قوماً أخياراً ، شرفاء ، طيبي القلب ، مستقيمي التفكير ، مهرة الى ذلك ، متعلمين ، متحمسين كما لم أشهد مثلهم في الحياة بعد ذلك تماماً . لقد كان اختلاطي بهم ملهماً بصورة غير عادية . وقد تعلمت هناك الكثير من الآراء والمعارف التي نفعتني في حياتي كلها . ولو لم يعترض مقامي هناك أشياء أخرى ، أحداث مختلفة... كما يقع في الحياة بالإيجاز... لجنيت أنا الغبية منافع أخرى . فهل تريد أن تعرف كم كنت غريرة إذ ذاك ؟ كنت أريد أن استخرج من الريات(١) نجوماً زهرا ، إذ حملت الى البيت كمية كبيرة جداً منها في منديل ووضعتها في الشرفة في الشمس لكي تتبخر... وتتخلف النجوم! حسناً... فلما غدوت عليها وجدت مكانها بقعة مبللة كبيرة تقريباً يتصاعد منها قليل فحسب من رائحة عشب البحر العفن... »

الفصل الرابع

في بداية عام ١٨٧٣ وافق مجلس الشيوخ على طلب العفو عن هوجو ڤاينشنك ، وأفرج عن المدير السابق قبل انتهاء مدة العقوبة بنصف سنة .

فلو لزمت مدام بيرمانيدر في كلامها لسلمت بأن هذا الحادث لم يسرها كثيراً ، وأنه كان أحب اليها لو بقي الأمر الى نهايته كما كان ذات مرة ، ذلك أنها كانت تعيش مع ابنتها وحفيدتها في ميدان الزيزفون في سلام ، تختلط بالبيت الكائن في حفرة السماكين وبصديقة المثوى أرمجارد فون مايبوم المولودة بإسم فون شيلنج التي سكنت المدينة بعد وفاة زوجها . فقد كانت تعرف من أمد أنها تحس مع ذكريات ميونيخ ومع معدتها التي كانت تزداد مع الأيام ضعفاً وقابلية للهياج ، وحاجتها المتزايدة الى الراحة ميلاً الى الانتقال في سنها هذه مرة أخرى الى مدينة كبرى في الوطن الموحد أو الى الخارج .

قالت لابنتها : «أيتها الطفلة العزيزة! أريد أن أسألك شيئاً ، شيئاً جديا!... أما زلت تحبين زوجك من كل قلبك ؟ أتحبينه بحيث تتبعينه مع طفلتكما الى حيث يتجه ، إذ كان بقاؤه هنا ليس بالأمر المستحب للأسف ؟» .

وإذا أجابت مدام ايريكا ڤاينشنك المولودة باسم جرينليش على هذه الأسئلة باكية تذرف دموعاً يمكن أن تعني كل شيء ، بنفس ماأجابت به توني نفسها أباها ذات مرة في مثل هذه الظروف في ڤيلاها بهامبورج ، أي ما يميله عليها الواجب ، فقد جعلت الأم وابنتها تنتظران انفصالاً قريباً...

وكان يوماً يكاد يكون مرعباً كذلك اليوم الذي اقتيد فيه المدير ڤاينشنك مقبوضاً عليه ، يوم جاءت مدام بيرمانيدر بزوج ابنتها من السجن في مركبة مقفلة . وقد أحضرته

الى مسكنها في ميدان الزيزفون فمكث هناك بعد أن حيا الزوجة والطفلة مضطرباً حائراً ، في الغرفة التي أخليت له ، وجعل يدخن من البكور الى وقت متأخر دون أن يجرؤ على الخروج الى الشارع ، بل في الغالب دون أن يتناول وجبات طعامه مع ذويه ، انساناً وجلاً أبيض الشعر! ولم تستطع حياة السجن أن تلحق بصحته البدينة شيئاً لأن هوجو ڤاينشنك كان قوي البنية ، لكنه كان فريسة للكآبة ، وكان من المرعب أن ترى أن هذا الرجل لم يقترف على الأرجح شيئاً لم يجنه معظم من حوله من الزملاء بقلب مطمئن كل يوم والذي كان حرياً أن يمضي في طريقه مرفوع الرأس مرتاح الضمير لو لم يضبط ـ قد انهار كل الانهيار من الناحية المعنوية وبالحقيقة الواقعة في أن القضاء أدانه ، وبهذه السنوات الثلاث التي قضاها في السجن . ولقد أقسم أمام القضاء عن اقتناع مكين على ماأكده له الخبراء وهو أن المناورة الجريئة التي قام بها للشركة ولنفسه قاصداً الاكرام والمصلحة أمر مألوف في عالم الأعمال . لكن رجال القانون ، وهم سادة لايفهمون في رأيه شيئاً من هذه الأشياء ، ويعيشون وفق مفاهيم مغايرة ورأي مختلف كل الاختلاف في النظر الى العالم ، قد حكموا عليه وأدانوه بالغش ، واستطاع هذا الحكم الذي تسنده سلطة الدولة ، أن يزعزع تقديره لنفسه الى حد أنه لم يعد يجرؤ على النظر في وجه أحد . إن مشيته المهتزة وأسلوبه الجريء في تحريك خصر ردنجوته ، والتوازن بقبضتيه ، وإدارة عينيه ، والنشاط غير العادي الذي يلقي به اسئلته ويروي حكايته على أحسن وجه مطلاً من علياء جهله وعدم تعليمه ـ كل هذا قد زال! وبلغ من زواله أن ذويه كانوا يقشعرون من فرط قبوعه ، وجبنه ، وانتفاء هيبته بصورة جهمة .

وبعد أن انشغل السيد هوجو ڤاينشنك ثمانية أو عشرة أيام بالتدخين وحده بدأ يقرأ الصحف ويدبج الرسائل . وكان من نتيجة ذلك بعد ثمانية أو عشرة أيام أخرى أن جعل يعلن بعبارات غامضة أنه عرض عليه فيما يظهر مركز جديد في لندن ، لكنه يريد أن يسافر وحده أولاً الى هناك لينظم المسألة بنفسه ، فإذا جرت الأمور بما يشتهي يستدعي زوجته وطفلته .

وركب الى المحطة بصحبة ايريكا في مركبة مقفلة ، وسار من دون أي قريب آخر من أقربائه مرة أخرى .

وعقب ذلك ببضعة أيام وصل من هامبورج ، وكان مايزال بها ، رسالة موجهة الى زوجه أبدى فيها أنه مصمم على ألا يجتمع ثانية بزوجه وطفلته أو يبلغهما خبر عنه الاّ بعد أن يكون قد استطاع تهيئة عيشة مناسبة لهما . وكان هذا آخر شيء دل على أن هوجو ڤاينشنك على قيد الحياة . ومن ذلك الحين لم يسمع أحد أي شيء عنه . ومع أن مدام

بيرمانيدر ، هي الخبيرة بمثل هذه الأمور ، الهمامة ، الحذرة ، قد قامت بتحريات عن صهرها لتبرر بالهجران عن سوء قصد طلب الطلاق تبريراً كاملاً ، وصرحت بذلك تصريحاً اصطنعت فيه الأهمية ، فإنه بقي منقطعة أخباره . وهكذا حدث أن استمرت ايريكا ڤاينشنك مقيمة مع الصغيرة اليصابات عندها في الطابق النير بميدان الزيزفون كما كان شأنها الى ذلك الحين .

الفصل الخامس

كان الزواج الذي أنجب الصغير يوهان يحتفظ بكامل إثارته في المدينة كموضوع يدور حوله الحديث . وكما كان مؤكداً أن كلا الزوجين كان على شيء من الاسراف والألغاز ، كذلك كان مؤكداً أن هذا الزواج نفسه يصطبغ بصبغة غير عادية هي موضع تساؤل . وإنها لمهمة صعبة فيما يظهر لكنها مجزية أن يتوارى خلف الضوء قليلاً لتتقصى العلاقة القائمة بين الزوجين بعض الشيء بغض الطرف عن الوقائع الظاهرية الناقصة..وقد كان الناس يكثرون من الحديث عن جيردا وتوماس بودنبروك في حجر الجلوس ومخادع النوم ، أو في المنتديات والكازينات ، بل في البورصة كذلك كلما قلَّ اطلاعهم على أحوالهما...

كيف وقع أحدهما على الآخر وكيف يقف كل منهما من الآخر ؟ وقد تذكروا التصميم العنيد الذي تابع به توماس بودنبروك قبل ثمانية عشر عاماً وهو في الثلاثين من عمره ، غايته فكان شعاره : « أما هي أو لاأحد » . ولابد أن هذه كانت حال جيردا أيضاً ، ذلك أنها كانت في السابعة والعشرين من عمرها ترد الخطاب فلما جاء هذا الخاطب أصغت اليه . إذ كان الزواج عن حب ، هذا كان رأي الناس ، وعلى أنه كان يشق عليهم ، فقد سلموا بأن الآلاف الثلاثمائة لم تلعب إلا دوراً ثانوياً في المسألة . لكنه من جهة أخرى لم يكن ثم مايتبين منذ البداية من حبهما أو من ذلك الذي يفهمه الناس من كلمة الحب إلا النزر اليسير . فمنذ البداية لم يكن هناك سوى الأدب في التعامل ، أدب غير مألوف بين الزوجين بحال ، سليم مشبع بالاحترام ، أدب من غير المفهوم ألا يصدر عن تباعد وغربة في النفوس بل عن ثقة ومعرفة متبادلتين ، عميقتين ، صامتتين ، فريدتين الى حد كبير ، ومراعاة وتسامح متبادلين على الدوام ، لم تبدل السنون منهما شيئاً ما . والتغيير الذي أحدثته الأيام

لايعدو أن مابينهما من فرق السن الآن على ماهو عليه من نسبة ضئيلة جداً ، أخذ يبدو بصورة تسترعي الانتباه...

فقد كان الناس ينظرون اليهما فيتبينون الزوج رجلاً على شيء من البدانة يهرم سريعاً الى جانب زوجة شابة . ويجدون أن توماس بودنبروك يبدو متهدماً ـ أجل ، هذه هي الكلمة الصحيحة الوحيدة التي تناسبه على الرغم من ذلك العجب الذي جعل يخلف في النفس بالتدريج أثراً مضحكاً بعض الشيء ، ويستند به نفسه ، بينما كانت جيردا لم تتغير في هذه السنين الثماني عشرة فتيلاً . وقد لاحت بالمثل مصوناً في ذلك البرود في الأعصاب الذي تعيش فيه وتبثه . وقد احتفظ شعرها الأحمر الداكن بلونه كاملاً ، واستبقى وجهها المليح الأبيض هيئته بالضبط ، وقدها رشاقته ووجاهته السامية . وكانت تلك الظلال المزرقة ماتزال ترابط من حول مآقيها ـ مآقي عينيها العسليتين الصغيرتين شيئاً ما ، المتقاربتين كذلك شيئاً ما أكثر مما ينبغي... ولم يكن أحد يأمن لهاتين العينين ، فقد كانت نظراتهما غريبة ، وماكان مكتوباً فيهما لم يكن الناس يستطيعون اكتناهه ، فهذه المرأة التي كان كيانها بهذا البرود والإنطواء والاستغلاق والتحفظ والصد ، والتي بدا أنها لاتجد القليل من دفء الحياة إلا في موسيقاها ، كانت تثير ريباً غامضة . وقد لجأ الناس الى معرفتهم الناقصة بالنفس البشرية ليطبقوها على السناتورة بودنبروك . والماء الساكن عميق في الغالب . وبعض الناس ماكر لعين... وإذا كانوا يرغبون حقاً في تقريب المسألة الى علمهم خطوة أخرى ، والإلمام بأي شيء فيها ، واستيعابه ، فقد ساقهم خيالهم المتواضع الى افتراض أنه ليس في الأمر إلا أن الحسناء جيردا تخون زوجها الذي يتقدم في السن ، قليلاً .

وقد توخوا الحذر حقاً ، لكنه لم يمر طويل وقت حتى كانوا متفقين على أن جيردا بودنبروك في علاقتها بالسيد الملازم فون تروتا تجاوزت ، إذا راعينا الاعتدال في القول ، حدود الاستقامة .

ورينيه ماريا فون تروتا المولود في بلاد الراين ، ملازم ثان في أورطة من المشاة مرابطة في المدينة . وقد كانت بنيقته الحمراء تلائم جيداً شعره الأسود المفروق من الجنب ، الممشط يمنة الى الخلف ، يرفع الشعر من جبينه في قمة عالية كثيفة مخصلة . لكنه مع طول قامته وعرضها كان مظهره بأكمله وحركاته وأسلوبه في الكلام والصمت بالمثل يوحي كله بأنه بعيد كل البعد عن التكوين العسكري . فقد كان يحب أن يدس يده بين أزرار سترته المفتوحة نصف فتحة أو يجلس مسنداً خده الى يده .وقد كانت انحناءاته

يعوزها الانتصاب ، ولم يسمع أحد أثناء تأديتها تضارب عقبيه . وكان يعالج الزي العسكري الذي يرتديه على جسمه المفتول بنفس التهاون والهوى اللذين يعالج بهما زيه المدني . حتى شاربه الصغير ـ شارب الفتيان الرفيع المتدلى على زاويتي الفم ، الذي يتعذر فتله ونصبه ، كان يساعد على تقوية ماينطبع في النفس من أثر جمالي لتكوينه غير العسكري . بيد أن أغرب ما فيه قد كان عيناه اللتان يبلغ من سوادهما أن تبدوا كما لو كانتا عميقتين متوهجتين لا يسبر غورهما : عينين تستقران على الأشياء والوجوه حالمتين جادتين وضاءتين...

ولاشك أنه دخل الجيش رغم أنفه أو كارهاً لهذا الدخول ، ذلك أنه على الرغم من قوة جسمه قد كان خاملاً في الخدمة مكروهاً بين الرفاق الذين لم يشاطرهم اهتمامهم ولهوهم ذينك الاهتمام واللهو اللذين يكونان لضباط شباب عادوا من أمد وجيز من حملة مظفرة ، فكان بينهم غريباً ، ثقيلاً ، مسرفاً ، يقوم وحده بنزهات على الأقدام ولايعلق خيلاً أو صيداً أو لعباً أو نساءً ولايتجه ذهنه إلا الى الموسيقى . ذلك أنه كان يعزف على عدة آلات ، وكانت يشاهد في كافة الأوبرات والحفلات الموسيقية بعينيه المتوهجتين وهيئته المسرحية المنافية للتكوين العسكري ، غير اللائقة في نفس الوقت ، على حين كان يزدري المنتدى والكازينو...

كان يؤدي الزيارة للأسر الراقية للضرورة القصوى إن خيراً وإن شراً ، لكنه كان يرفض كل الدعوات تقريباً ولايخالط في الحقيقة سوى بيت بودنبروك... أكثر من اللازم كما رأى الناس ، أكثر من اللازم كما رأى نفس السناتور...

ولم يحزر أحد ماكان يدور بخلد توماس بودنبروك ، ولاجاز لأحد أن يحزره ، وبالذات هذا : وكان من العسير جداً أن يبقى العالم جاهلاً غمه وبغضه وعجزه! فأخذ الناس يجدونه مضحكاً بعض الشيء ، لكنهم لعلهم كانوا يحسون العطف عليه ويكتمون مشاعرهم لو أنهم خمنوا بأي انفعال وجل كان يتحاشى مايعرّضه للسخرية ، وكيف رأى هذا يقترب من بعيد فأحسه قبل أن يقع في خواطرهم أي شيء منه . كذلك «عجبه» ، ذلك العجب الذي طالما تهكموا عليه ، فقد كان مرد معظمه الى هذا الهم . لقد كان أول من تأمل بعين المستريب هذا النشاز المتزايد في مظهره الخاص وعدم مبالاة جيردا بصورة غريبة ، والآن وقد دخل السيد فون تروتا البيت ، كان عليه أن يجاهد همه ويخفيه بما تبقى له من قوة ، ووجب عليه ذلك حتى لايعرض اسمه بإبداء همه للابتسام العام .

لقد وجدت جيردا بودنبروك الضابط الشاب الفريد ووجدها في ميدان الموسيقى كما هو مفهوم . كان السيد فون تروتا يعزف على البيان والكمان والڤيولا والڤيولونشيل والناي - يعزف على هذا كله عزفاً رائعاً وكثيراً ما كان السناتور يعلن سلفاً بالزيارة القادمة حين يرى تابع السيد فون تروتا يحمل صندوق التشيلو على ظهره ماراً بخارجات نافذة مكتبه الخاص المفروشة بالنبات الأخضر ، ويختفي في البيت...عندئذ كان توماس بودنبروك يظل جالساً الى مكتبه ينظر حتى يرى أيضاً صديق زوجته نفسه يدخل البيت ، وحتى تتهادى الانسجامات فوق رأسه في الصالون ، وتتعالى أصوات الغناء والشكوى والهتاف الذي لاعهد به للبشر ، تمتد فيه الأيدي في نفس الوقت بالمثل ، وتتشبث ، ثم يتلاشى بعد ذلك كل الهناء الضال المبهم في ضعف وشهيق ، ويطويه الليل والصمت . ثم يدرج ويضج ، ويبكي ويهلل ، ويحتضن ويفر ، ويسلك المسلك الذي يفوق الطبيعة ماشاء! فالسيء الذي يعذب في الحق هو ذلك السكون الذي كان يعقب ذلك ويسود الصالون فوقه أمداً طويلاً جداً ، والذي كان أعمق وأنفى للحركة من أن لايثير الرعب . لاخطوة تهزالسقف ، ولامقعد يتحرك ، هدوء متحفظ ، صامت ، كتوم ، لايسمع فيه حس... وعندئذ كان توماس بودنبروك يلازم مجلسه شديد الوجل الى حد أنه كان يئن أحياناً أنيناً خافتاً .

فما الذي كان يخشاه ؟ لقد رأى الناس السيد فون تروتا يدخل البيت ثانية ، ورأى هو بأعينهم كذلك وكما تصور لهم الأمر ، هذه الصورة : نفسه الرجل الذي يهرم ويضنى وتسوء نفسيته يجلس تحت في المكتب بجوار النافذة بينما تعزف امرأته الجميلة فوق مع فارسها ولاتقتصر على العزف... أجل ، هكذا كان الناس يتصورون الأشياء فهو يعلم ذلك . وكان مع ذلك يعلم أن كلمة «فارس» قليلة جداً في الحقيقة لوصف السيد فون تروتا . آه ، لكان سعيداً لو أنه جاز له أن يسميه بهذا الاسم ، ويفهمه على هذا النحو ، وإنه أمكنه أن يفهمه ويحتقره بوصفه فتى أرعن ، جاهلاً ، منحطاً ، يفيض تهوره في شيء من الفن يغزو به قلوب النساء . إنه لم يدع شيئاً لم يحاوله لدمغه بمثل هذه الصورة . وقد ناشد لهذه الغاية غرائز آبائه وحدها دون غيرها في نفسه وأهاب بها : سوء ظن التاجر المقيم . المقتصد الذي يصعد به عن طبقة المحاربين المغامرة ، الطائشة ، المزعزعة في الأعمال التجارية . وقد كان يسمي السيد فون تروتا في فكره وحديثه على السواء «بالملازم» دوماً ، ويؤكد هذه التسمية مزدرياً ، شاعراً في هذا كل الشعور بأن هذا اللقب هو أبعد مايصلح للتعبير عن كيان هذا الشاب...

ما الذي كان يخشاه توماس بودنبروك ؟ لاشيء... لاشيء يذكر . آه لو أن هناك شيئاً ملموساً ، بسيطاً ، وحشياً يمكن أن يدفعه عن نفسه! إنه كان يحسد هؤلاء الناس في الخارج على بساطة الصورة التي يتمثلون بها هذا الأمر . لكنه وهو جالس هنا معتمداً رأسه بين يديه ، ينصت معذباً ، كان يعزف جيداً جداً . إن «الخديعة» و«الخيانة الزوجية» ليستا لفظين يمكن أن تسمى بهما الأشياء الصادحة الساكنة مع ذلك سكون القبر التي كانت تقع هناك فوق .

وأحياناً حين ينظر في الخارج الى الأسطح الهرمية الغبراء والى المواطنين العابرين ، وحين تتركز عيناه فوق تلك اللوحة التذكارية المعلقة أمامه ، هدية العيد التذكاري للمتجر ، وعلى صور آبائه ، ويتذكر تاريخ بيته ، كان يقول لنفسه أن هذا هو نهاية كل شيء ، وإن ذلك الذي يجري الآن قد كان في غني عنه ، أجل ، كان في غنى عن أن يصبح شخصه عرضة للسخرية ، واسمه وحياة أسرته مضغة في الأفواه ، فيطفح بذلك الكيل... بيد أن هذه الفكرة كادت تبعثه على الارتياح ، بالنسبة إلى الاستغراق في التفكير في هذا اللغز الدنس ، هذه الفضيحة الخفية التي تقع فوق رأسه...

لم يعد يطيق هذا ، فهو يزحزح كرسيه الى الور اء ، ويغادر المكتب ، ويصعد الى البيت . فإلى أين يتوجه ؟ الى الصالون ليحيي السيد فون تروتا بشجاعة مطلاً عليه من عل ، ليدعوه الى تناول طعام العشاء ويتلقى جواباً بالرفض كما حدث الى الآن عدة مرات ؟ ذلك أن الشيء الذي لم يكن في الحق يطاق هو أن الملازم كان يتحاشاه كل التحاشي ، ويرفض كل دعوة رسمية تقريباً ، ولايروقه إلا هذا الاختلاط الخاص الحر بزوجة السناتور...

أينتظر ؟ في مكان ما ، ربما في حجرة التدخين ، ينتظر ريثما ينصرف ، ثم يتقدم من جيردا ويصارحها ويناقشها الحساب ؟ ـ إن جيردا لم تناقش الحساب يوماً ولم تصارح! وارتباطها به قائم على التفاهم والمراعاة والصمت . فلا ضرورة لأن يقف أيضاً أمامها موقفاً مضحكاً . والقيام بدور الغيران معناه أن الناس في الخارج على حق ، معناه إعلان فضيحة وأن يتيح لها الذيوع... فهل أحس الغيرة ؟ ممن ؟ ومم ؟ أخ ، لايوجد شيء من هذا! فمثل هذا الشيء القوي يثير تصرفات ، ربما كانت خاطئة ، خرقاء ، لكن فيها معنى التدخل والتحرير . أخ ، كلا ، فليس يشعر إلا ببعض الخوف ، شي معذب مطارد من الخوف من كل ماهنالك...

وصعد الى حجرة لباسه ليلطف حرارة جبينه بشيء من الكولونيا ، ثم هبط ثانية الى

الطابق الأول مصمماً على أن يهتك حجاب الصمت المخيم على الصالون بأي ثمن . لكنه لما أمسك بقبضة الباب الأبيض المذهبة السوداء رنت الموسيقى ثانية بصوت عاصف جياش فتراجع .

ونزل من درج الخدم الى الطبقة الأرضية فالردهة فالمدخل ، وخرج الى الحديقة ، ثم عاد ثانية وتوجه الى الردهة التي يقوم فيها الدب المحشو ، فإلى قاعدة الدرج الرئيسي الموجود عندها حوض السمك الذهبي ، كمن يبغي شيئاً ، غير قادر على أن ينشد الراحة في أي مكان ، منصتاً ، متربصاً ، مفعماً بالخجل والغم ، رازحاً تحت الخوف من الفضيحة الخفية والعلنية يطارده شبحها...

وذات مرة ، في الساعة التي كان يستند فيها الى دهليز الطابق الثاني ويطل من بئر السلم الى أسفل حيث كان كل شيء صامتاً ، خرج يوهان الصغير من حجرته وهبط درجات الشرفة الى الطرقة ليتوجه الى ايدا يونجمان في أمرٍ ما . فأراد وهو يمس الحائط على امتداده بالكتاب الذي يحمله ، أن يمر بأبيه خافضاً بصره ، محيياً إياه بتحية خافتة ، لكن السناتور وجه اليه الكلام :

« أي هانو ماذا تصنع ؟ »

« أعمل أبي ، أريد التوجه الى ايدا لأترجم أمامها... »

« كيف حالك ؟ وماذا عندك ؟ »

فأجاب هانو وهو مايزال خافضاً أهدابه ، لكنه فيما يبدو كان جاهداً لتوه في التماس رد صحيح ، واضح ، يدل على حضور ذهن ـ أجاب بعد أن بلع ريقه بسرعة : « عندنا تحضير نص لاتيني لكوزيليوس نيبوس وتسوية حساب تجاري ، وأجروميه فرنسية ، وأنهر أمريكا الشمالية... وتصحيح إنشاء ألماني... »

وصمت مبتئساً في أنه لم يضف في الآخر شيئاً ، وأنه خفض بصره في صورة حاسمة ، ذلك أنه لم يكن يحضره مايزيده فجاء جوابه كله مقتضباً متردداً . قال بقدر ما استطاع من توكيد : « لاأكثر » وإن كان لم يرفع بصره . لكنه يظهر أن أباه لم يلتفت الى ذلك ، فقد أمسك بيد هانو الطليقة بين يديه ، وجعل يعبث بها ، مشتت الفكر ، لم يستوعب فيما يظهر مما قاله ابنه شيئاً ، وتحسس من دون وعي وفي بطء مفاصل يده الرقيقة ثم صمت .

وسمع هانو عندئذ شيئاً على حين بغتة لايرتبط بحال بالحديث الأصلي ، ـ سمع صوتاً

خافتاً يحركه الخوف ، ويكاد يتوسل اليه ، ولاعهد له به ، ـ صوت أبيه مع ذلك يقول : «الآن ، أمضى الملازم ساعتين بالفعل عند أمك ياهانو...»

وانظر! لقد رفع الصغير يوهان عينيه العسليتين الذهبيتين ووجههما واسعتين ، رائقتين ، مفعمتين بالحب كما لم يوجههما من قبل قط ، الى وجه أبيه ، هذا الوجه ذي الجفون المحمرة تحت الحاجبين الرائقين والخدين المنتفخين قليلاً ، اللذين يلامسهما طرفا شاربه المنتصبان . ويعلم الله مبلغ مافهم هانو . لكن شيئاً كان مؤكداً ، وقد أحسه كلاهما ، وهو أنه في هذه الثواني التي التقت فيهما نظراتهما قد زالت كل غربة وبرود بينهما ، كل كلفة وسوء فهم ، وأن توماس بودنبروك هنا وفي كل مكان لايتعلق الأمر فيه بالهمة والحذق والنشاط اليقظ بل بالخوف والألم ، قد ضمن ثقة ابنه وتفانيه...

إنه لم ينتبه الى ذلك ، بل كان يقاوم الانتباه اليه ، فجذب هانو في هذه اللحظة بأشد مما كان يفعل من قبل الى تمرينات عملية أولية في حياته العاملة المستقبلة ، وامتحن قواه الذهنية ، وغاص فيه وراء تعبيرات جازمة عن الرغبة في مزاولة المهنة التي كانت تنتظره ، وكان كلما لاحت له إمارة على المقاومة والوهن يستشيط غضباً... ذلك أنه بهذه الأمارة كان توماس بودنبروك البالغ من العمر الثامنة والأربعين يعتبر أمامه على مر الأيام معدودة ، وينتظر الموت في القريب...

وقد ساءت صحته البدنية واضطره أرقه وانعدام شهيته ودواره ، وتلك الرعشة التي كان يتعرض لها دائماً ـ اضطره هذا كله مراراً وتكراراً الى استشارة الدكتور لانجهالز . لكنه لم ينجح في اتباع أوامر الطبيب ، لأن قوة إرادته التي أوهنتها سنوات مليئة بالتعطل الشاغل المثير ، لم تبلغ هذا المبلغ... وقد بدأ ينام في الصباح طويلاً ، وإن كان في كل مساء يعقد النية غاضباً ، على أن ينهض مبكراً ليقوم قبل تناول الشاي بالنزهة المطلوبة منه على الأقدام . وقد نفذ هذا في الحق مرتين أو ثلاثاً... شأنه في كل أمر . وكان إجهاده إرادته على الدوام على خير جدوى ومن دون ارتياح ، ينال من احترامه لنفسه ويدخل عليه اليأس... كان من المتعذر عليه جداً أن يحرم نفسه متعة تخدير السجائر الروسية الصغيرة الحامية التي لبث منذ صباه يدخن منها مقادير كبيرة في كل يوم . وقد قال للدكتور لانجهالز من دون لف أو دوران في وجهه الذي تبدو عليه إمارات العجب : «انظر يادكتور! إن واجبك هو أن تحظر عليّ تدخين السجائر...وهو واجب سهل جداً ، موات جداً ، حقاً! أما تنفيذ هذا الحظر فأمر يخصني!... ويصح أن تتبين ذلك... كلا ، إننا نريد أن نتعاون على حفظ صحتي ، لكن

الأدوار موزعة بيننا توزيعاً غير عادل ، فنصيبي من هذا العمل أكبر مما ينبغي! لاتضحك... فليست هذه نكتة... إنني وحيد بصورة مخيفة... إني أدخن ، فهل تتفضل ؟ »

وقدم اليه علبته .

لقد تناقصت قواه ، والذي قوى وحده فيه هو اقتناعه بأن كل هذا لايمكن أن يدوم طويلاً ، وإن أجله قريب . وقد داخلته تصورات غريبة حادسة ، ودهمه مرة على المائدة شعور بأنه لايجالس عليها ذويه في الحقيقة ، بل يتطلع اليهم عن بعد غير واضح المعالم . كان يقول لنفسه سأموت . واستدعى هانو مرة أخرى اليه وحاول إقناعه بقوله : «قد أذهب أبكر مما نظن الى رحمة الله يابني ، فيجب أن تكون عندئذ على المكان! فكذلك أنا قد استدعيت مبكراً... فافهم حقاً أن عدم اكتراثك يعذبني! فهل صح منك العزم ؟... نعم - نعم - ليست جواباً! ليست أبداً جواباً! إني أسألك هل صحت عزيمتك في شجاعة وغبطة ؟... هل تظن أن عندك مالاً كافياً ، وأنك لن تحتاج الى العمل ؟ إنك لاتملك شيئاً... إن ماتملكه جد ضئيل... فسوف تعتمد كل الاعتماد على نفسك! فإذا أردت الحياة ، وأن تعيش في رغد فسوف يكون عليك أن تعمل عملاً شاقاً وأقسى مما أديته أنا...» لكن هذا لم يكن كل شيء ، لم يكن كل ماهنالك انشغاله بمستقبل ابنه وبيته . إن شيئاً آخر ، شيئاً جديداً قد استولى عليه ، قد استحوذ عليه وساق أفكاره الكدرة أمامه... فإنه بمجرد أن كف عن اعتداد انتهاء الأجل ضرورة بعيدة نظرية غير ذات بال ، وأن اعتدها شيء دانياً في متناول اليد يجب أن تعد لها المعدات المباشرة ، جعل يدمن التفكير ، وينقب في نفسه ، ويمحص موقفه من الموت والأمور السماوية ، فلم يلبث أن أسفرت هذه المحاولات الأولى عن نتيجة هي فجاجة الخير فيها ، وعدم استعداد ذهنه للموت .

إن الايمان الحرفي ، ومسيحية الانجيل الحالمة التي عرف أبوه أن يربط بينها وبين روح تجارية عملية جداً والتي انتقلت الى الأم من بعد أبيه ، قد كان كله غريباً عنه . فمنذ بدأت حياته وهو أميل الى أن يعالج الأشياء الأولى والأخيرة بتشكك رجل الدنيا الذي كان لجده . ولأنه كان أشد حاجة الى العمق والذكاء وماوراء الطبيعة من أن يكتفي بسطحية يوهان بودنبروك الكبير الراضية ، فقد أجاب عن مسائل الأبدية والخلود من الناحية التاريخية وقال لنفسه أنه عاش في أشخاص أجداده وسيعيش في أشخاص خلفائه . ولم يكن هذا يتفق فحسب ومايحدوه من روح الأسرة والوعي الذاتي بأنه من طبقة الأعيان ، وتقواه التاريخية ، بل كان أيضاً يستنده في أعماله وطموحه وأسلوب معيشته بأسره ويقويه . لكنه

قد بدا الآن أن هذا قد اختفى والموت يقترب أمام ناظره الثاقب ، وتلاشى ، وعجز عن أن يتيح ساعة واحدة من الهدوء والاستعداد .

ومع أن توماس بودنبروك قد تظاهر في حياته هنا وههنا بميل قليل الى الكثلكة فقد كان الشعور الجدي ، والعميق ، العنيد ، القاسي ، الذي يبلغ في قسوته أن يكون عذاباً للنفس ، كان هذا الشعور بالتبعة الذي يحدو البروتستانتي الأصيل المتحمس يعمر قلبه . كلا ، إن ماهو أسمى وماهو آخر لايجد من الخارج عوناً ولاوساطة ولا ابراء ولاتخديراً ولاعزاء! فلابد للمرء من أن يحل اللغز وحده ، مستقلاً عن غيره ، وبجهده الخاص في عمل حامٍ نشط قبل أن يفوت الوقت . لابد أن ينتزع من نفسه استعداداً بيناً أو يذهب يائساً الى رحمة الله . وتحول توماس بودنبروك خائب الأمل عديم الرجاء عن ابنه الوحيد الذي أمل أن يواصل العيش فيه قوياً ، فتياً ، وجعل يبحث في عجلة عن الحقيقة التي لابد أن تكون في انتظاره في موضع ما .

وفي أوج الصيف في عام ١٨٧٤ والسحاب الفضي المستدير ، يسير في السماء الشديدة الزرقة فوق الوضع الأنيق الذي تتخذه حديقة المدينة ، والطيور تسقسق بين فروع شجرة الجوز في توكيد السائل ، ونافورة الماء يسمع خريرها وسط أكليل الزنبق الملون بلون الليلاق المحيط بها ، وعبق الليلاق يختلط للأسف برائحة الشراب التي يحملها تيار الهواء الدافيء من معمل تقطير السكر القريب ، كان السناتور كثيراً مايغادر المكتب في هذه الأوقات في وطيس العمل ليتمشى في الحديقة ويداه وراء ظهره أو يسوي الحصباء أو يتصيد الطمي من النافورة أو يسند عوداً من الورد فيدهش الموظفون... وكان وجهه ذو الحاجبين الرائقين اللذين يرتفع أحدهما عن الآخر قليلاً يبدو في هذه الانشغالات جاداً متنبهاً ، لكن أفكاره كانت تجري مجراها الخاص المضني بعيداً في الظلام...

كان أحياناً يجلس فوق مرتفع المظلة الصغرى في الخص المكتسي كله بورق العنب وينظر عبر الحديقة الى الجدار الخلفي لبيته دون أن يركز بصره على شيء معين . وكان الهواء دافئاً حلواً وكأنه فيه تناجيه الأصوات الهادئة المتصاعدة من حوله ملطخة مهدئة وتبغي أن تهدهده . وقد كان يغمض عينيه الحين بعد الحين مجهداً من الحملقة في الفضاء ومن الوحدة والصمت ، ليستجمع بعد ذلك حواسه من جديد ، وينفي عن نفسه السلام على عجل . قال بصوت يكاد يكون مرتفعاً : يجب أن أفكر . يجب أن أنظم كل شيء قبل فوات الأوان...

لكنه هنا ، في هذا الخص ، وعلى المقعد الصغير الهزاز المصنوع من البوص الأصفر ، كان أن أمضى ذات يوم أربع ساعات كاملة يقرأ متأثراً تأثراً متزايداً في كتاب وقع في يده مصادفة أو سعى هو إليه . فبعد أن تناول طعام الإفطار الثاني وجده ، والسيجار في يده ، وهو في غرفة التدخين ، في ركن غائر من خزانة الكتب متوارياً خلف مجلدات أنيقة ، فتذكر أنه اشتراه مرة من سنين وأيام من الكتبي بثمن زهيد دون أن يلقي باله اليه : سفر ضخم مطبوع طبعاً رديئاً ، ومجلد تجليداً رديئاً ، يمثل الجزء الثاني فقط من مذهب ميتافيزيقي شهير... وقد حمله معه الى الحديقة وجعل وهو شارد الذهن يقلبه ورقة ورقة...

لقد غمره رضى عظيم ، لاعهد له به وشكر الله عليه ، وشعر بارتياح لامثيل له من أنه رأى كيف أن عقلاً متفوقاً بدرجة هائلة تغلب على الحياة ، هذه الحياة القوية القاسية الساخرة الى هذا الحد ليخضعها ويصدر عليها حكمه... ارتياح المتألم الذي يبقى ألمه على الدوام طي خجله وتبكيت ضميره خافياً عن قر الحياة وقسوتها ، فإذا هو يتلقى فجأة من يد عظيم ، حكيم ، حقه المبدئي الرسمي في أن يعاني في هذا العالم ، خير العوالم التي يمكن أن تخطر بالبال جميعاً ، بعد أن أثبت في سخرية وتورية أنه شر العوالم التي يمكن أن تخطر بالبال جميعاً .

ولم يفقه توماس بودنبروك كل شيء في الكتاب ، فالمبادىء والمقتضيات بقيت في نظره شيئاً مبهماً ، وفهمه الذي لم يمارس هذه المطالعات من قبل لم يستطع متابعة مجرى بعينه من الأفكار . بيد أن تناوب النور والظلام وقصور الفهم الخامد والحدس الغامض والضوء الساطع المباغت ، قد شغله فمرت الساعات دون أن يرفع بصره عن الكتاب أو يغير حتى جلسته على الكرسي .

وقد ترك في البداية بضع صفحات بلا قراءة ، ثم مضى قدماً ، في غير وعي ، وفي سرعة ، ينشد ما هو مهم في الحقيقة ، ويستوعب من الفقرات هذه أو تلك مما استوقفه . لكنه وقع بعدئذ على فصل مستفيض قرأه من البداية إلى النهاية ، مطبق الشفتين ، مقطب الحاجبين ، تلوح عليه إمارات جد كامل ، كاد يزول ، لاتؤثر فيه حركة من حركات الحياة القائمة من حوله . وكان عنوان هذا الفصل : «الموت وعلاقته بعدم قابلية وجودنا للدمار في ذاته» .

كانت تنقصه بضعة أسطر لما أقبلت الخادم في الحديقة تدعوه الى المائدة ، فأومأ برأسه ، وأتم بقية الجمل ، وأقفل الباب ، وأدار بصره فيما حوله... وقد شعر بكيانه كله وقد

اتسع بصورة هائلة وأفعم نشوة ثقيلة مظلمة . وأحس ذهنه يغيم وينتشي كل الانتشاء من شيء ما ينبو عن التعبير في جدته واغرائه وتبشيره ويذكر بأول لوعة للحب عامرة بالرجاء . لكنه لما أودع الكتاب قمطر خوان الحديقة بيدين باردتين مضطربتين ، كان رأسه المضطرم الذي يسوده ضغط غريب وتوتر يشيع الخوف كأنما سينفجر فيه شيء ، عاجزاً عن استيعاب فكرة كاملة .

فماذا كان هذا ؟ هذا ماتساءل عنه أثناء أن كان يدخل البيت ، ويصعد الدرج الرئيسي ، ويجلس في قاعة الأكل مع ذويه... ماذا حدث لي ؟ ماذا سمعت ؟ ماذا قيل لي ، أنا توماس بودنبروك سناتور هذه المدينة ورئيس متجر توماس بودنبروك للحبوب... ؟ هل كنت المقصود به ؟ هل يسعني تحمله ؟ إني لاأعرف ماهو ؟... أعرف فقط أنه أكثر مما ينبغي ، أكثر مما يمكن أن يتحمله دماغ مواطن...

في هذه الحالة من الانحدار الشديد ، المظلم ، الفاقد الوعي ، الخالي من الفكر بقي النهار بطوله . لكنه لما حلّ المساء بعدئذ توجه الى النوم قبل الميعاد ، عاجزاً عن أن يبقي رأسه فوق كتفيه أطول من ذلك ، فنام ثلاث ساعات كاملة نوماً عميقاً بعيداً كأن لم ينم في حياته . ثم إذا هو يستيقظ فجأة مرتاعاً ارتياعاً لذيذاً كما يستيقظ المرء وحيداً وفي قلبه حب يتكون .

كان وحده في مخدع النوم الفسيح لأن جيردا كانت تنام إذ ذاك في حجرة ايدا يونجمان التي انتقلت أخيراً الى حجرة من حجرات الشرفة الثلاث لتكون مع يوهان الصغير... وكان الليل كثيفاً من حوله ، إذ كانت ستائر النافذتين العاليتين مسدلة محكمة ، وكان مستلقياً على ظهره ينظر في الظلام في سكون عميق ووحدة خفيفة الوطأة .

وانظر! لقد كان يتبدد الظلام بغتة أمام عينيه ، وينشق حائط الليل المخملي وينكشف من بعيد ضوء أبدي بعيد الغور... فقال توماس بودنبروك بصوت قارب أن يكون مرتفعاً : سأعيش . وشعر بصدره يخفق وباطنه يجيش . هذا هو الدليل على أني سأعيش! على أنه ستكون هناك حياة . وكوني لم أقصد بالحياة على التعيين قد كان مجرد خطأ ، كان غلطة سيصححها الموت . فهكذا هي!... لماذا ؟ - وماكاد يسأل هذا السؤال حتى انطبق الليل ثانية لناظريه . رأى ذلك ، ولم يعرف أو يفهم ثانية شيئاً منه ، وترك رأسه يندس في الوسائد الى أعمق مما كان وقد بهره وأنهك قواه تماماً ذلك القليل من الحقيقة الذي جاز أن يطالعه من هنيهة .

رقد ساكناً ، وترقب في حرارة ، وأحس دافعاً يديه الى الدعاء كي تعود الرؤيا لتهديه ، وعادت الرؤيا وبقي مستلقياً يشهد ، شابكاً يديه ، لايقوى على حراك...

ماذا كان الموت ؟ لم يبد له الجواب عن ذلك في الكلام الهزيل وفي التقعر : فقد كان يحس الموت ويشعر به في الصميم . كان الموت سعادة بعيدة الغور لاسبيل الى اكتناهها إلا في لحظات رحيمة كهذه اللحظة . كان الأوبة من ضلال أليم ينبو ألمه عن الوصف ، وتصويب خطأ كبير ، وتحريراً من روابط وحواجز بغيضة ، وتعويضاً عن مصاب أسيف .

النهاية والانحلال ؟ إن كل من يحس هذه المعاني الهامة مخاوف ، يستحق الرحمة ثلاث مرات! فما الذي سينتهي وما الذي سينحل ؟ جسده هذا... وشخصيته وفرديته هذه ، وهذه العقبة البليدة ، العنيدة ، الخاطئة ، البغيضة التي تعترض صيرورة المرء شيئاً آخر ، شيئاً خيراً مما هو!

ألم يكن كل انسان غلطة وعثرة ، ألم يزج به منذ ولادته في حبس مؤلم ، في سجن! سجن! روابط وحواجز في كل مكان! إن الانسان ليحملق من بين قضبان نافذة فرديته ، في أسوار ظروفه الخارجية المحدقة به عديم الرجاء حتى يأتيه الموت فيدعوه الى العودة الى موطنه والى الحرية .

الفردية!...آه ، إن ماهية الانسان ، ومايستطيعه ، ومايملكه ، ليبدو ناقصاً ، أغبر ، متعذراً ، مضجراً ، لكن ماليس يكونه الانسان ، ومالايستطيعه ومالايملكه فهو ما ينظر اليه الانسان بعين الحسد والاشتهاء ، الحسد الذي يصبح حباً لأنه يخشى أن يصبح بغضاً .

إني أحمل في نفسي البذرة والبداية والإمكان لكل جدارة وكل عمل في العالم... فأين كان يمكن أن أكون إذا لم أكن هنا! من ، ماذا ، كيف يمكن أن أكون ، إذا لم أكن أنا من أنا ، إذا لم تفصلني ظاهرتي الشخصية هذه وتفصل وعيي عن وعي كل أولئك الذين ليسوا «أنا »! النظام العضوي! فورة الإرادة المتدفعة ـ تلك الفورة العمياء ، الخرقاء ، الأسيفة! خيراً حقاً أن تنسج هذه الإرادة حرة في ليل لا يعرف المكان والزمان من أن تضنى في سجن تضيئه شعلة الذكاء المرتعشة المترنحة بالضرورة!

لقد أملت أن أواصل العيش في ولدي ؟ في شخصية هي أخوف وأضعف وأكثر تردداً من شخصيتي ؟ إلا أن هذه لحماقة صبيانية ضالة! ماذا ينفعني الابن ؟ إني لست بحاجة الى ابن!... حيث أكون يوم أموت ؟ لكن الأمر بسيط كل البساطة! سأكون في كل أولئك الذين

قالوا قي كل مرة «أنا» ويقولون وسيقولون ، وعلى الأخص في أولئك الذين يقولونها أكمل مما يفعل غيرهم وأقوى وأمرح نفساً...

إنه في مكان ما ينمو غلام مزوداً تزويداً حسناً ، موفقاً توفيقاً كبيراً ، موهوباً لأن ينمي كفاياته ، شب مستقيماً ، لايكدر صفوه شيء ، نقياً ، قاسياً ، مرحاً ، واحد من أولئك الناس ، يزيد منظره السعداء سعادة ، ويدفع منظره البؤساء الى القنوط : هذا هو ابني ، وهذا أنا ، عمّا قريب... عما قريب بمجرد أن يخلصني الموت من الجنون الأسيف ، إذ أتصور أني لست موجوداً ، لاأنا ولاهو...

هل أبغض الحياة يوماً ، الحياة النقية ، القاسية القوية ؟ حمق وسوء فهم! فلم أبغض سوى نفسي لأني لم أقو على احتمالها ، لكن أحبكم... أحبكم جميعاً أيها السعداء ، ولن يفصلني عنكم عما قريب سجن ضيق ، قريباً سأصبح منطوياً على حبكم ، ويصبح حبي لكم حراً .

وبكى ، وضغط على وجهه في الوسائد ونشج ، يرتعش من كل جسمه وكأن هناء لايدانيه هناء في الدنيا في حلاوته المؤلمة يرفعه في نشوته . كان هذا ، كل هذا ، ماأفعمه منذ عصر أمس نشوة وغموضاً ، وماتحرك في فؤاده في جوف الليل وأيقظه كأنه حب يتكون ، وإذا أمكنه أن يفهمه ويتبينه ـ لا في كلمات وأفكار متلاحقة بل في تجليات مباغتة مسعدة في صميمه ـ فهل بات حراً ؟ هل فك إساره فعلاً ، وانطلق من كل الحواجز والروابط الطبيعية والصناعية على السواء ؟ إن أسوار مدينة آبائه التي تضمه مريداً واعياً قد انكشفت وفتحت لناظره العالم ، كل العالم الذي شهدت فيه طفولته هذه القطعة وتلك ، والذي وعده الموت إياه . إن التبينات الخادعة للمكان والزمان وللتاريخ أيضاً ، والاهتمام بمواصلة حياة مجيدة تاريخية في شخص خلفائه ، والخوف من أي انحلال وتفكك نهائي تاريخي ـ هذا كله حرر ذهنه ، ولم يعد يحول دون فهمه للأبدية الخالدة . فلم يبدأ شيء ولم ينته . بل كان هناك حاضر لاينتهي . وتلك القوة الكامنة فيه التي أحبت الحياة بحب متدفع مشتاق أليم في حلاوته والتي كان شخصه مجرد تعبير خاطيء عنها ـ هذه القوة كانت حرية أن تعرف كيف تجد دائماً مداخل هذا الحاضر .

وهمس في وسادته : سأعيش . وبكى... ونسى في اللحظة التالية موضوعه ، فقد تعطل مخه ، وانطفأ علمه ، ولم يعد فيه على حين بغتة شيء سوى الظلمة الخرساء . لكنه أكد لنفسه أن الرؤيا ستعود وتساءل : ألم أملكها ؟... وبينما كان يشعر كيف ألقت الغيبوبة

والنوم عليه ظلالهما أقسم قسماً مغلظاً أن لايفلت هذا الهناء العظيم ثانية ، بل أن يستجمع قواه ، وأن يتعلم ويقرأ ويدرس حتى يجعل كامل الرأي والنظرة الى العالم الذي صدر ذلك كله عنها ، ورأياً له ونظرة ثابتة لايتخلى عنها .

على أن هذا لم يمكن ، ففي الصباح التالي بالفعل ، وقد استيقظ يحدوه شعور طفيف بالخجل من ترهات أمس الذهنية استشعر شيئاً من عدم قابلية هذه النيات الجميلة للتنفيذ...

وقد نهض من نومه متأخراً ، وكان عليه أن يشترك في مناقشات إحدى جلسات مجلس المواطنين ، فعادت الحياة العامة العملية للمدنية في الشوارع ذات الأسطح الهرمية والزوايا في هذه المدينة التجارية الوسطى تستحوذ على ذهنه وعلى قواه من جديد . ولما كان مايزال مشغولاً بنية معاودة القراءة العجيبة أخذ يسائل نفسه حقاً هل ماعاشه تلك الليلة شيء خاص به في الحقيقة ، وهل إذا واجهه الموت يثبت هذا من الناحية العملية ؟ وقد عارضت هذا غرائز المواطن فيه . كذلك تحرك عجبه ؛ الخوف من دور عجيب مضحك . هل تلائمه مثل هذه الأشياء ؟ أتليق به ، بالسناتور توماس بودنبروك رئيس متجر يوهان بودنبروك ؟...

ولم يتيسر له مرة أخرى أن يلقي نظرة على الكتاب الغريب الذي يخفي هذه الكنوز الكثيرة فضلاً عن الاهتداء الى بقية أجزاء هذا السفر العظيم ، إن الحذلقة المضطربة التي استولت عليه مع الأيام كانت تستنفد أيامه ، وقد كان ومئات التوافه تطارده ويجهد نفسه في تنظيمها وإنجازها أضعف إرادة من أن يستطيع توزيع وقته توزيعاً معقولاً مثمراً . وبعد عصر ذلك اليوم الذي استحوذ على تفكيره باسبوعين تقريباً وصل الأمر الى أنه تخلى عن كل شيء وأمر الخادمة أن تحمل الى أعلى البيت كتاباً يحتويه قمطر في خوان الحديقة حيث لاينبغي أن يكون وتضعه في خزانه المكتب .

هكذا حدث أن توماس بودنبروك الذي مد يديه متلهفاً الى الحقائق الأخيرة الرفيعة هبط مجهداً الى المعاني والصور التي مارس طفولته في ظلها وهو مؤمن بها . فجال وتذكر الإله الواحد أبا الانسان الذي بعث الى الأرض جزءاً شخصياً من ذاته لكي يألم من أجلنا ويدمى في سبيلنا والذي سيقيم العدالة في اليوم الآخر ويعوض عند قدميه المنصفون من أحزان هذه الدار الأسيفة ، في الأبدية التي تبدأ عندئذ... هذه الحكاية الغامضة بعض الشيء ، السخيفة بعض الشيء التي لم تتطلب فهماً بل إيماناً وطاعة والتي ستكون حاضرة في عبارات ثابتة بنوية إذا ماحل الفزع الأخير... حقاً ؟

هنا أيضاً لم يجد السلام سبيله الى هذا الرجل الذي ينتهبه الهم والقلق على شرف بيته وعلى زوجه وابنه واسمه وأسرته ، هذا الرجل المنهوك القوى الذي حفظ جسمه أنيقاً ، مستقيماً ، منتصباً بما بذل له من جهد وابتدع من فن . لقد ضايق نفسه عدة أيام بالسؤال عما يكون المصير! هل تصعد الروح الى السماء بعد الموت مباشرة أو يبدأ الهناء بعد بعث الجسد أول مايبدأ... ثم أين تقيم الروح في انتظار ذلك؟ هل علمه أحد يوماً ذلك في المدرسة أو الكنيسة ؟ وكيف تكون تبعة ترك الانسان في مثل هذه الجهالة ؟ ـ لقد كان على وشك الذهاب الى القس برنجهالز يسأله الرأي والعزاء ، لكنه عدل في اللحظة الأخيرة خشية التعرض للسخرية .

وأخيراً عدل عن كل شيء وسلم أمره لله . لكنه لما كان قد انتهى بنظام شؤونه الأبدية الى نهاية غير مرضية فقد قرر أن يزاول على الأقل شؤونه الأرضية بذمة وضمير فيحقق بذلك نية ظلت تحدوه طويلاً .

ففي ذات يوم سمع يوهان الصغير بعد تناول طعام الغداء ، في حجرة الجلوس حيث يتناول أبواه القهوة كيف أنبأ أبوه أمه أنه ينتظر اليوم المحامي الدكتورفلان ليكتب معه وصيته التي لايجوز أن يؤجلها على الدوام الى ماشاء الله . بعد ذلك تمرن هانو ساعة في الصالون على البيان . لكنه لما أراد بعدئذ أن يعبر الطرقة التقى بأبيه ومعه سيد آخر يرتدي معطفاً طويلاً أسود يصعدان الدرج الكبير .

فقال السناتور بإيجاز : «هانو!» فوقف يوهان الصغير ، وبلع ريقه ، وأجاب في عجلة وصوت خافت : «نعم ياأبتي...»

فاستأنف أبوه الكلام قائلاً : «إن عندي مع هذا السيد أمراً هاماً أؤديه . فأرجوك أن ترابط بهذا الباب» ـ وأشار الى مدخل غرفة التدخين . «واجعل بالك الى ألا يزعجنا أحد على الإطلاق ، أسمعت ؟»

فقال يوهان الصغير : «سمعاً وطاعة ياأبي» ورابط أمام الباب الذي أقفل خلف السيدين .

ولبث واقفاً يمسك بإحدى يديه أنشوطة البحار المتدلية على صدره ويدير لسانه على سن من أسنانه لايطمئن اليه وينصت الى الأصوات الجادة المكتومة التي كانت تنفذ اليه من داخل الحجرة . وكان يميل جانباً برأسه ذي الشعر الكستنائي الرائق المتهدل خصلاً على سالفيه ، وينظر جانباً بعينيه العسليتين الرائقتين المحوطتين بظلال تميل الى الزرقة ، مقطب

الحاجبين ، يطرف بعينيه المتعبتين عن التفكير والسأم تعبيراً يشبه كل الشبه ذلك الذي كان له وهو يستنشق عند محمل جدته رائحة الأزهار مع ذلك العبير الآخر الغريب الذي كان يعرفه مع ذلك بصورة عجيبة .

وقد جاءت ايدا يونجمان وقالت : «هانو الصغير ، أين أنت ؟ ماذا تبغي من وراء وقوفك هنا ؟ »

وجاء تلميذ المتجر الأحدب من المكتب يحمل برقية في يده ويسأل عن السناتور .

وكان هانو في كل مرة يمد ذراعه بكم البحار الأزرق المطرزة فوقه المرساة ، في وضع أفقي عند الباب ، ويهز رأسه ، ويقول بعد لحظة من الصمت وبصوت خافت ثابت : «محظور الدخول على أحد ـ فأبي يكتب وصيته» .

الفصل السادس

قال الدكتور لانجهالز في الخريف وهو يقلب عينيه الجميلتين كما لو كان سيدة : «الأعصاب ياسيدي السناتور... الأعصاب هي سبب كل شيء... وهنا وهناك أيضاً لاتقوم الدورة الدموية بكل وظيفتها . فهل تسمح لي بنصيحة ؟ ينبغي أن تشد الرحال قليلاً في نفس هذا العام! فإن بضعة أيام الآحاد التي قضيتها قريباً من هواء البحر لم تنفع بطبيعة الحال كثيراً . إننا في آخر سبتمبر والحركة ماتزال قائمة في ترافيمنده . فهي لم تقفر تماماً من مرتاديها . سافر الى هناك ياحضرة السناتور واجلس قليلاً على الشاطىء . فأسبوعان أو ثلاثة أسابيع تصلح بالفعل بعض الشيء... »

وقال توماس بودنبروك نعم وآمين . لكنه لما علم ذووه بهذا التصميم طلب كريستيان أن يصحبه . وقال له في بساطة : «اذهب معك ياتوماس ، وأظن ألا أعتراض لديك» . ومع أن السناتور كان لديه على ذلك اعتراضات جمة فقد قال مرة أخرى : نعم وآمين!

والمسألة هي أن كريستيان كان آنئذ أملك لوقته مما كان من قبل . ذلك أنه ألفى نفسه لصحته المعتلة مضطراً الى التخلي عن العمل التجاري الذي كان يزاوله أخيراً وهو الوساطة في تصريف الشمبانيا والكونياك... ومن حسن حظه أن الصورة الوهمية التي كان يتخيلها لرجل جالس على أريكته في الأصيل يومىء اليه لم تعد تعاوده ، لكن ذلك «العذاب» الدوري في جنبه الأيسر بات حيثما ظهر أسوء مما كان . ومع هذا العذاب طائفة كبيرة من المضايقات كانت محل ملاحظة واهتمام عند كريستيان فكان يصفها بأنف أجعد حيث ذهب وأقام . وكثيراً ماكانت عضلات البلع عنده تتعطل كما كانت حاله من قبل الى حد أن يجلس واللقمة في حلقه زائغ البصر بعينيه الصغيرتين الغائرتين . وكثيراً أيضاً ، كما كانت حاله من قبل ،

ماكان يعاني من شعوره بالخوف من فالج مفاجىء في لسانه ، وحلقومه ، وفي أطرافه ، بل كذلك في قدرته على التفكير . وهو شعور غير معين لكنه يعجز عن التغلب عليه . وحقاً إن شيئاً فيه لم يشل ، لكن ألم يكن خوفه من الشلل أسوأ تقريباً من الشلل نفسه ؟ كان يفيض في الكلام عما وقع له ذات يوم وهو يعد شاياً ، إذ أمسك بعود الثقاب المشتعل فوق فوهة قارورة الكحول بدلاً من أن يضعه فوق جهاز الطهي ، فكان حرياً ألا يكون سبباً لهلاكه هو فحسب ، بل كذلك لهلاك بقية سكان البيت ، ولعله أيضاً لحرق البيوت المجاورة ، على أشنع صورة .

ولقد أسرف بهذا في الحديث . لكن ماوصفه بإسهاب خاص ولجاجة وجهد ليحمل سامعيه على فهمه كل الفهم ، كان شذوذاً شنيعاً تبينه أخيراً في نفسه وهو أنه كان في أيام بعينها أي في جو بعينه وحالة نفسية بعينها لايستطيع أن يشهد نافذة مفتوحة من دون أن يحس دافعاً كريهاً لايبرره شيء الى القفز منها ... دافعاً عنيفاً يكاد لايمكن قمعه ، ونوعاً من التهور الجنوني المنطوي على اليأس! وفي يوم أحد كانت الأسرة تتناول فيه الطعام في بيت حفرة السماكين وصف كيف زحف على يديه ورجليه الى النافذة المفتوحة ليقفلها مبدياً في سبيل ذلك كل مايملك من قوى معنوية . لكنه عند هذه النقطة صرخ الجميع في وجهه وأشاحوا بوجوههم عنه لايريدون سماعه .

كان يقرر هذه الأشياء وأمثالها مرتاحاً ارتياحاً مفزعاً . لكن الذي لم يلاحظه ولم يتحراه ، والذي لم يعه فازداد من تأثيره سوءاً كان انعدام اللباقة فيه بصورة غريبة . وهو مابات على توالي السنين خصيصة من خصائصه . فكان من المؤذي أن يروي في محيط الأسرة نوادر من طبيعتها ألا تلقى على الأكثر إلا في المنتدى . بيد أنه كانت ثَمَّ أمارات مباشرة على أن إحساسه بالخجل الجسماني كان بسبيل الانعدام ، فهو ، لكي يرى زوجة أخيه جيردا التي توطدت صداقته لها ، كيف أن جواربه الإنجليزية متينة الصناعة ، وكيف أنه الى ذلك قد بات نحيلاً لم يتورع عن أن يحسر أمام عينيها سرواله الواسع المخطط بالمربعات الى مافوق الركبة ، مبدياً اهتماماً ، مجعداً أنفه ، مشيراً الى ساقه المعروقة المقوسة الى الخارج تقويساً شديداً في سروالها الصوفي الأبيض البارزة منه ركبته الهزيلة بصورة محزنة ، ويقول : «انظري كيف أصبح بهذا الهزال... أليس هذا غريباً يسترعي الأبصار ؟» .

وقد تخلى الآن كما قلنا عن كل نشاط تجاري . بيد أن ساعات النهار التي لاينفقها في

المنتدى ، يسعى الى شغلها بصورة أخرى ، فكان يحب أن ينوه تنويهاً بيناً بأنه على الرغم من كل الموانع لم يكف قط عن العمل ، فكان يقول أنه يوسع معارفه في اللغات ، وأنه أخذ أخيراً ، حباً في العلم وبلا غاية عملية ، في تعلم اللغة الصينية وبذل فيها مجهوداً كبيراً خلال أسبوعين . أما الآن فهو مشغول «بتكملة» قاموس انجليزي ـ ألماني يبدو له أنه ناقص . لكنه لما كان بحاجة متجددة الى تبديل الهواء لأمد وجيز ، وكان من المستحب أخيراً أن يكون مع السناتور من يرافقه ، فلن يرهنه هذا العمل بالمدينة .

وسافر الأخوان الى البحر ، سافرا في الطريق السلطاني والمطر يطبل فوق سقف المركبة ويجعل من الطريق كله بُركة ، فلم يتبادلا كلمة... كان كريستيان يجيل بصره فيما حوله كمن ينصت الى شيء أثار ريبته ، وكان توماس يجلس متدثراً بمعطفه ، مرتعشاً ، ينظر بعينين تعبتين محمرتين ، ويصل طرفا شاربه المفتولان الى خديه الشاحبين ، منتصبين . هكذا دخلا بمركبتيهما الى حديقة الحمام بعد الظهر ، فكانت عجلات المركبة تسحق حصباءها العائمة . وكان السمسار العجوز سيجسموند جوش جالساً فوق المطلة الزجاجة في المبنى الرئيس يحتسي جروج الروم ، فنهض عن مكانه وهو يفح بين أسنانه ، فاتخذا مجلسهما بجانبه ليتناولا هما أيضاً شيئاً ساخناً ريثما تُنقل أمتعتهما الى فوق .

وكان السيد جوش مايزال كذلك من ضيوف الحمام أسوة بالقلائل وبأسرة انجليزية ، وسيدة هولندية ، وهامبورغي أعزب ، تأخذهم سُنَة من النوم قبل الطعام ، وكان الضيوف يهوون النوم . أما السيد جوش فلم يكن ينام بالنهار . وإنه ليحمد الله على أن أمكنه أن يظفر بالليل ببضع ساعات يفقد فيها الوعي ، وكان عليلاً ، إذ يحتاج الى هذا الاستشفاء المتأخر بهواء البحر علاجاً للرعشة... رعشة أعضائه... عليها اللعنة! ولم يكن يقوى على الامساك بقدح الجروج ، ثم ماهو ألعن! لم يكن يستطيع الكتابة إلا نادراً حتى تلكأت ترجمته لجملة أعمال لوب دي فيجا تلكؤاً يدعو الى الأسف . وكانت حالته النفسية هابطة ، ولعناته لايصحبها البهجة الواجبة . كان يقول : «دعها تسر!» ويظهر أن هذا التعبير قد بات تعبيره المختار لأنه كان يكرره على الدوام ، وغالباً من دون مناسبة إطلاقاً .

والسناتور ؟ كيف حاله ؟ وكم يرى السيدان أن يبقيا ؟ وأجاب السناتور : أخ ، إن الدكتور لانجهالز قد بعث به الى هنا لأن أعصابه مجهدة ، وقد أطاعه على الرغم من هذا الجو اللعين . وما الذي لايعمله المرء خوفاً من طبيبه! وقد شعر بأنه في الحقيقة بائس قليلاً ، وسيبقى هو وأخوه الى أن تتحسن صحته...

وقال كريستيان : «هذا الى أني أيضاً صحتي سيئة جداً» . قالها والحسد والمرارة يملآن صدره ، لأن توماس لم يتكلم إلا عن نفسه . وقد كان على وشك أن يقص حكاية الرجل الذي يومىء اليه برأسه وقارورة الحكول والنافذة المفتوحة ، لما نهض أخوه ليتسلم الغرف .

ولم يخف المطر ، بل قلب الأرض ، وجعل قطره المتوثب يرقص فوق البحر المنحسر عن الشاطىء مرتعشاً من ريح الجنوب الغربي . وكانت الغبرة تطوي كل شيء ، والبواخر تمر كالظلال وسفن الأشباح تظهر وتختفي في الأفق المتلاشي .

كان الاجتماع بالضيوف الغرباء على مائدة الطعام . وكان السناتور يتمشى مع السمسار جوش مرتدياً معطفاً من المطاط وكسوة للحذاء ، بينما كان كريستيان هناك في محل الحلواني يحتسي مع سيدة البوفيه البنش السويدي .

وبعد الظهر في أيام كان يبدو فيها أن الشمس ستطلع كان بعض المعارف يظهرون على المائدة قادمين من المدينة ، وكانوا يحبون كثيراً أن يتجاذبوا أطراف الحديث بعيدين عن ذويهم : السناتور الدكتور جيزيكه ، رفيق كريستيان أيام الدراسة ، والقنصل بيتر دولمان الذي كان الى ذلك يبدو معتل الصحة لأنه أتلف نفسه بالإدمان على ماء هونيادي بانوس . ثم يجلسون مرتدين المعاطف تحت سقف خيمة الحلواني قبالة هيكل الموسيقى حيث لاتعزف موسيقى ، فيتناولون قهوتهم ويهضمون أدوار الشراب الخمسة بالنظر الى حديقة الحمام التي يرنق عليها الخريف ، وبالحديث... يدور حول أحداث المدينة والفيضان الأخير الذي تسرب الى الكثير من الأقبية والذي كان الناس معه يتنقلون بالزوارق في المنخفضات السفلى ، وعن حريق شب في أحد مخازن الميناء ، وعن انتخاب لمجلس الشيوخ... إذ انتخب الفريد لاورتسن من أصحاب متجر شتيرمان ولاورتسن تجار البقالة بالجملة والتجزئة في الاسبوع الفائت . ولم يكن السناتور بودنبروك موافقاً على هذا الانتخاب ، وكان جالساً متدثراً بمعطفه ذي البنيقة ، يدخن السجائر ويلقي عند هذه النقطة من الحديث فحسب ببضع ملاحظات . قال : «أنه لم يعط السيد لاورتسن صوته ، فليس في هذا شك . حقاً إن لاورتسن رجل شريف وتاجر عظيم بلا مراء ، لكنه من أوساط الناس ومن طبقة وسطى طيبة ، وكان أبوه يخرج بيده الرنجة الحامضة للخادمات من البراميل ويلفها... وقد غضب جد توماس بودنبروك مرة من أكبر أولاده لأن هذا أحرز حانوتاً بالزواج ، فهكذا كانت الأمور إذ ذاك . أما الآن فالمستوى ينخفض . ومستوى مجلس الشيوخ الاجتماعي بسبيل

الانحطاط . إن مجلس الشيوخ تدركه الديمقراطية ياعزيزي جيزيكه . وهذا ليس بالأمر الحسن . والمهارة التجارية لاتؤدي وظيفتها على أكمل وجه .

ومن رأيي أن لانكف عن طلب المزيد من الكفايات . وتصورالفريد لاورتسن في قاعة المجلس بقدميه الضخمتين ووجهه الذي يشبه وجه «المراكبي» أمر أعده إهانة لي... لست أعلم مايداخلني ، فهذا ينافي كل شعور بالأسلوب ، وبالإيجاز ، قلة ذوق» .

لكن هذا القول مسّ السناتور جيزيكه . فهو آخر الأمر مجد ابن لمدير مطافىء ... كلا ، إن للتجارة تاجها ومن هنا نحن جمهوريون . وقال : «هذا الى أنه لاينبغي أن تدخن بهذه الكثره يابودنبروك . فإن هواء البحر لايفيدك عندئذ أية فائدة» .

فقال توماس : «نعم ولأمسك!» وألقى بعقب سيجارته وأغمض عينيه .

ومضى الحديث متثاقلاً ، بينما كان المطر الذي عاد ينهمر كما كان منتظراً ، يغيم المنظر ، ودار حول الفضيحة الأخيرة التي وقعت في المدينة ، حول تزوير صك ، حول تاجر الجملة كاسباوم ، ب . فيليب كاسباوم وشريكه المسجون الآن ، ولم ينشط الحديث عن هذا ، فقد نعتوا فعلة التاجر كاسباوم بأنها غباوة ، وضحكوا ضحكاً مقتضباً وهزوا الأكتاف . وقص السناتور الدكتور جيزيكه أن تاجر الجملة ظل محتفظاً بفكاهته وطلب على الفور في مقامه الجديد أن يؤتى له بمرآة للزينة كانت تنقصه في خليته وقال : «إني لا أقيم هنا سنين بل سنوات ، ولذا يجب أن أحصل على مرآة» . وقد كان ، مثل كريستيان بودنبروك وأندرياس جيزيكه ، تلميذاً للمرحوم مرسيلوس شتنجل .

وعاد السادة يضحكون ضحكاً مقتضباً يخرج من أنوفهم دون أن يظهر على ملامحهم . وأوصى سيجسموند جوش بإحضار جروج الروم في توكيد كما لو كان يريد أن يقول : «مانفع الحياة الشحيحة ؟... ووافق القنصل دولمان على زجاجة من أكوافيت ، وعاد كريستيان يحتسي البنش السويدي الذي طلبه السناتور جيزيكه لنفسه وله . ولم ينقض طويل وقت حتى أخذ توماس بودنبروك يدخن من جديد .

كانوا يتحدثون دائماً بلهجة متثاقلة متهاونة تنطوي على الازدراء والتشكك ، عن الاعمال ، اعمال كل فرد في قلة اكتراث وخمود ذهن خلفه الأكل والشرب وانهمار المطر . ومع ذلك لم ينعش هذا الموضوع أحداً منهم .

فقال توماس بودنبروك وهو يضيق بالحديث : «أخ ليس في هذا مايسر كثيراً» . وسند رأسه برماً فوق رأس الكرسي .

واستفسر السناتور جيزيكه وهو يتثاءب : «وأنت يادولمان ؟ هل استسلمت كل الاستسلام الى الأكوافيت ؟»

فقال القنصل : «ومم تدخن المدخنة! إني أذهب الى المكتب كل بضعة أيام وأطل مرة . والشعر القصير يسهل تمشيطه» .

ولاحظ السمسار جوش متكدراً ، مسنداً مرفقه أمامه بعيداً فوق المائدة ، معتمداً رأسه الأشيب الرديء في يده : «كل شيء ذي شأن قد استحوذ عليه شترونك هاجنشتروم» .

وقال القنصل دولمان : «إذا خبثت رائحة المرء هانت جنب كومة من القمامة» . قالها بلهجة جهد ان تكون منحطة إلى درجة لم يكن مناص من أن يكدر كلاً منهم هذا الخبث الذي لاصلاح له . ثم استطرد يقول : «وأنت يابودنبروك ، هل تؤدي عملاً آخر ؟»

فأجاب كريستيان : «كلا ، فلم أعد أستطيع شيئاً» . وزحلق قبعته بغتة على جبينه منحرفة وجعل يتكلم عن مكتبه في ڤالباريزو وعن جوني ثندرستوم من دون مقدمات ، ولكن لأنه فحسب يفهم الحالة النفسية السائدة بين السادة ويريد أن يزيدها سوءاً . قال : «آه من الحر ، يا الهي!... نعمل ؟ لاياسيدي ، كما تريد ياسيدي... ونفخوا دخان السجائر في وجه الرئيس . يا الهي!...» وكانت ملامحه وحركاته تعبر تعبيراً لايبارى عن خمول يجمع بين التحدي الجريء والتسكع الرضي . وقد لبث أخوه لايحرك لذلك ساكناً .

وحاول السيد جوش أن يرفع الجروج الى فمه ، لكنه رده وهو يفح ، وهوى بقبضتيه على ذراعه الشديدة المراس ، ثم عاد يرفع الكأس من جديد الى شفتيه الضيقتين فأراق منه الكثير ، وأفرغ الباقي في جوفه دفعة واحدة وهو حانق...

فقال دولمان : «أنت ورعشتك ياجوش! ينبغي أن تدع الأمور تجري كما أفعل . هذا الهونيادي يانوس اللعين... إني ليصيبني الكساح إذا لم أحتس لتراً منه كل يوم . الى هذا الحد وصلت . فإذا احتسيته أصابني الكساح عندئذ مع ذلك . أتعرف مايكون إذا لم يتخلص المرء قط أو يوماً واحداً من طعام غدائه... أعني إذا بقي هذا الطعام في معدته ؟...» وسرد بعض التفاصيل المنفره عن صحته فاستمع كريستيان اليه في اهتمام مرعب ، وأنف أجعد ، وأجاب عنه بوصف «عذابه» وصفاً موجزاً لجوجاً .

وعاد المطر فاشتد . انهمر كثيفاً عمودياً ، وعم خريره السكون في حديقة الحمام وتيراً ، خاوياً ، عديم الرجاء .

وقال السناتور جيزيكه وقد شرب كثيراً جداً : «ألا إن الحياة وبال» .

وقال كريستيان : «وددت لو لم أكن فوق هذه الأرض» .

فقال السيد جوش : «دع المقادير تجري» .

وقال السناتور جيزيكه : «هاهي ذي فيكن دالبك قادمة» .

وكانت صاحبة حظيرة البقر مارة تحمل إجانة لبن وتبتسم للسادة ، بدينة ، جريئة قد ناهزت الأربعين .

فنظر اليها السناتور جيزيكه بعينين متشهيتين .

وقال : «ياله من صدر!» وربط القنصل دولمان بهذه الملاحظة نكتة نابية نبواً كبيراً كان على أثرها أن عاد السادة يضحكون من أنوفهم ضحكاً مقتضباً يدل على الإزدراء .

ثم نودي على النادل الذي كان في خدمتهم فقال له دولمان : «لقد فرغت الزجاجة ونستطيع في هذه الحالة أن ندفع... فلا بد من الدفع إن عاجلاً وإن آجلاً... وأنت ياكريستيان ؟ أظن جيزيكه سيدفع عنك» .

هنا نشط السناتور بودنبروك ، وكان ملتفاً بمعطفه ذي البنيقة ، واضعاً يديه في حجره والسيجارة في زاوية فمه ، يكاد لايشترك مع رفاقه ، لكنه نهض بغتة وقال في حدة : «ألا تحمل نقوداً ياكريستيان ؟ إذن اسمح لي أن أدفع عنك هذا الشيء البسيط» .

وخرج السادة فاتحين مظلاتهم ليتنزهوا قليلاً...

وكانت مدام بيرمانيدر تزور أخاها بين الحين والحين فيذهب كلاهما الى «حجرة النورس» أو الى «هيكل البحر» متنزهاً ، وتستحوذ على توني بودنبروك في كل مرة نفسية مرحة متحمسة بصورة غامضة لايعرف لها سبب . كنت تؤكد مراراً وتكراراً حرية الناس وتساويهم وتستهجن بإيجاز كل تمييز بين الطبقات ، وتنحى باللائمة على الامتيازات والتحكم ، وتطلب صراحة أن يكون للجدارة تاجها ، وأدارت الحديث عن حياتها فأجادت وسلّت أخاها على خير وجه . فقد كانت هذه المخلوقة السعيدة لاتحتاج ، مادامت تجوب هذه الأرض ، الى كتمان شيء ، الى ابتلاع أتفه الأشياء والتغلب عليها بالصمت . فلم تسكت عن مجاملة أو إهانة صادفتها في الحياة . وكل شيء! كل هناء وكل أسى تعود فتذكره بفيض من الكلمات الرخيصة الصبيانية التي ترضي رغبتها في الحكاية كل الرضى . ولم تكن معدتها صحيحة كل الصحة ، لكن قلبها كان مرحاً ، طليقاً ، لاتعلم نفسها الى أي حد . لم تطو ضلوعها على شيء لم تصرح به ، ولم ترهقها مشاهدة صامتة . ومن ثم لم يكن عندها ماتحمله من ماضيها ، فهي تعلم أن القدر رماها بمصائر أليمة رديئة ، لكن كل هذا لم

يخلف لها عسراً ولاتعباً ، وهي لم تعتقده في أساسه ، وإذا كان أمراً واقعاً يعترف به كل الناس فقد كانت تستغله وتباهي به وتتحدث عنه في صورة جادة بالغة الجد... فهي تنحى باللائمة ، وتذكر بالسخط الحقيقي آخذاً منها كل مآخذ أسماء من أساءوا اليها ، فأساءوا بالتالي الى أسرتها ، وبات عددهم مع الأيام عظيماً . كانت تصيح : «جرينليش ، بيرمانيدر ، تيبورتيوس ، ڤاينشنك ، آل هاجنشتروم! وكيل النائب العام! سيڤيرين! يالهم من أوغاد ياتوماس! سوف يعاقبهم الله ذات يوم ، ولن أتخلى عن إيماني بذلك» .

ولما وصلا الى «هيكل البحر» كانت ساعة الأصيل قد حلت ، فقد كان الخريف يتقدم ، فوقفا في إحدى الغرف المطلة على الجون وكان يشم منها رائحة الشجر كما تشم من أكشاك الاستحمام . وكانت جدرانها المصنوعة في صورة خشنة مغطاة بالنقوش الكتابية والأحرف الأولى والقلوب والأشعار ، وجعلا ينظران جنباً الى جنب الى البحر الكدر عبر المنحدر المكسو بالخضرة البليلة وشريط الشاطىء الضيق الحجري .

وقال توماس بودنبروك : «موج عريض... يأتي ويتكسر... يأتي ويتكسر ، ثم يأتي ويتكسر ، موجة بعد موجة ، لانهاية له ولاغاية ، خال ضال . ومع ذلك فهو مهدىء معز ككل شيء بسيط ضروري . لقد تعلمت شيئاً فشيئاً أن أحب البحر... ولعلي آثرت الجبل فيما مضى لسبب واحد هو أنه مترام . لكني الآن لم أعد أحب أن أقصد اليه . وأظنني إذا قصدت اليه ستتولاني الخشية منه والخجل ، فهو مسرف في التحكم وعدم الانتظار والتعدد... حقاً إني عندئذ خليق بأن أشعر بأني مغلوب على أمري . من هم الناس الذين يؤثرون ركوب البحر ؟ يلوح لي أنهم أولئك الذين يطيلون التأمل والتعمق في مشاكلهم الباطنية حتى يقتضوا شؤونهم الظاهرة شيئاً واحداً على الأقل هو البساطة... إن أقل مايمكن هو أن يتسلق المرء الجبل مقداماً ، شجاعاً ، بينما يقر المرء على البحر في الرمل هادئاً . على أني أعرف النظرة التي يلقيها المرء على أحدهما والأخرى التي يجل بها المرء الآخر . إن الأعين المطمئنة المتحدية السعيدة ، المفعمة بالشجاعة والثبات وحب الحياة تطوف بالقمم ، قمة ، قمة . لكنه على البحر المترامي الذي تدرج أمواجه بهذه الجبرية الصوفية الشالة تحلم النظرة المقنعة اليائسة العازفة التي أطلعت ذات مرة في مكان مافي الأعماق على اضطرابات محزنة... الصحة والمرض ، هذا هو الفرق . يتسلق المرء في جرأة الى تلك الظاهرات المتعددة العجيبة الشامخة المتشققة ليجرب قوة الحياة فيها وهي لم تبدد بعد . لكن المرء يسكن الى البساطة البعيدة المدى في الأشياء الظاهرة ، تعباً كما هو من فوضى الباطن» .

وكانت مدام بيرمانيدر صامتة تنصت الى قوله تتملكها الرهبة ولايواتيها الإحساس بالراحة اليه ، كما يصمت عديمو الأذى إذا ما ارتفع في مجلس بغتة صوت يتناول الطيب والجاد . كانت ترى أن مثل هذا لايقال قطعاً ، تتطلع الى بعيد حتى لاتلتقي عيناها بعينيه . ولكي تستغفره في سكون من أنها خجلت نيابة عنه جذبت ذراعه في ذراعها .

الفصل السابع

لقد حل الشتاء ، ومرت ليلة عيد الميلاد ، وجاء يناير من عام ١٨٧٥ . ورابط الثلج الذي كسا الأرصفة كتلة مطروقة يختلط فيها الرمل والغبار على جانبي الطريق أكواماً عالية تزداد على الدوام غبرة وتشققاً ومسام ، ذلك أن الهواء كان على درجة من الحرارة . وكان البلاط مبللاً قذراً ، والقطرات تتساقط من الأسطح الهرمية . لكن السماء كانت تبسط رواقها زرقاء ، رقيقة الزرقة لاتشوبها شائبة ، وتبدو فيها مليارات من الذرات الضوئية تتلألأ كالبلورات في اللازورد وتتراقص .

وكان وسط المدينة يجيش بالحياة لأن اليوم كان يوم سبت ، ويوم سوق ، وتحت العقود المدببة في بوائك البلدية أقام القصابون حواملهم ، يزنون بضاعتهم بأيد ملطخة بالدماء . لكنه في ميدان السوق نفسه وحول النافورة كانت سوق السمك . فكانت هناك نساء بدينات يلففن أيديهن في فراء منحول نصف شعره ، ويدفئن أرجلهن على مدفئة فحم ، جالسات يخفرن أسماكهن الباردة ويرغبن فيها الطاهيات وربات البيوت بكلمات عريضة . ولم يكن ثمة خطر من الغش ، فقد كن متأكدات من شراء شيء طازج ، إذ كانت الأسماك ماتزال حية كلها تقريباً ـ تلك الأسماك السمينة العضلة... وبعض السمك كان حسن الحظ ، إذ كان يسبح ، ولو في ضيق ، في اجانات ماء ، مرحاً لايعاني ، وبعض آخر ملقى أنجل العينين بشكل مخيف تلعب خياشيمه ، ويتشبث بالحياة ، ويعاني على لوحته العذاب ، يضرب بذيله في قسوة ويأس حتى يقبض عليه ، وتقطع رقبته بسكين مدببة ملطخة بالدم ، فيسمع لهذا القطع صريف . وكانت قراميط طويلة سمينة تتلوى وتتحوى على صور عجيبة ، وتزخر دنان بسرطانات من بحر البلطيق تسود الدنان منها ، وأحياناً تنكمش سمكة قوية

في حركة تشنجية وتنطلق من فرط الخوف بعيداً عن خوانها الى بلاط الأرض الزلق الملوث بالنفايات ، فتضطر صاحبتها الى الجري وراءها وردها الى مكانها ، وهي تكيل لها كلاماً مقذعاً تعبر به عن استيائها...

وكان المرور حوالي الظهر نشطاً في شارع منج . فأطفال المدارس وعلى ظهورهم الحقائب كانوا قادمين يملأون الجو بالضحك ويضجون ويتقاذفون الثلج نصف المذاب ، والفتيان من تلاميذ المتاجر من أبناء الأسر الكريمة كانوا يمرون وعلى رؤوسهم كسكت البحارة الدانماركيين أو مرتدين الملابس الأنيقة على الطراز الانجليزي وفي أيديهم الحوافظ ، وعلى وجوههم سيماء الوقار ، فخورين بإفلاتهم من المدارس الثانوية ، وبعض المواطنين الرزناء الشيب الأكابر يدفعون بعصيهم الى الأمام وعليهم إمارات العقيدة الراسخة التي يدين بها الأحرار ، يتطلعون الى واجهة البلدية المغشاة بالقرميد المزجج يقف ببابها حارسان . ذلك أن مجلس الشيوخ كان منعقداً ، وكان جنديا المشاة الحارسان يقطعان الشقة المحدودة بينهما ويرتديان معطفيهما ويسندان البندقية الى الكتف ، يطئان الأرض في رباطة جأش فوق كتلة الثلج المائعة الموحلة . وقد كانا يلتقيان في وسط المسافة قبالة المدخل فينظر كلاهما الى الآخر ويتبادل معه في نفس الوقت الإعجاب ببعض السيدات الشابات في بيت كبير –حينذاك يقف كل من الحارسين أمام كشكه ، ويتأمل نفسه من فوق الى تحت ، ويؤدي التحية... وكان مايزال لديهما برهة طويلة قبل أن يخرج الشيوخ من المجلس ويؤديا لهم التحية . وقد استغرقت الجلسة الى ذلك الحين ثلاثة أرباع الساعة وستنتهي نوبتهما في تلك الأثناء...

لكنه على حين بغتة سمع أحد الجنديين صوتاً مقتضباً من داخل الدار ، ولمعت في الوقت نفسه بباب المجلس سترة الحاجب أوليشيلد الحمراء ، ظاهراً بقبعته المثلثة الأركان حاملاً سيفه ، مشغولاً الى أقصى حد ، قائلاً بصوت خافت : «انتباه!» ثم انسحب ثانية في عجلة ، بينما كان يسمع صوت خطوات تقترب وأقدام تقع في الداخل على البلاط الرنان...

واتخذ جنديا المشاة هيئة العرض ، وضربا الكعبين ، ونصبا رقبتيهما ، ودفعا صدريهما إلى الأمام ، ووضعا البندقية على الأقدام وأديا التحية بقبضتين سريعتين مصطفقتين . وخطا بينهما مسرعاً تقريباً سيد يكاد يكون متوسط القامة يهوى قبعته العالية ، ويرفع أحد حاجبيه الرائقتين قليلاً ، ويصل طرفا شاربه المفتولان المشدودان الى خديه الشاحبين .

ذلك هو السناتور بودنبروك الذي كان يبارح اليوم قاعة المجلس قبل انفضاضه بوقت طويل .

وقد عرج الى اليمين ، ولم يسلك الطريق المؤدية الى بيته وكان يسير مستقيماً ، نظيفاً ، أنيقاً ، لاغبار عليه ، ويخطو خطوته الخاصة التي يحجل فيها قليلاً ، على امتداد شارع منج يحيي دائماً على كل جانب . وكان يحمل قفازين أبيضين من الجلد اللامع ويضع عصاه ذات القبضة تحت ذراعه اليسرى ، ترى من تحت قلابه فروة ربطة فراكه البيضاء . بيد أن رأسه المنظم كان يدل على أنه سهر الليل . وقد لاحظ مختلف الناس وهو يمر بهم أن الدموع تفجرت بغتة من عينيه المحمرتين ، وإنه يطبق شفتيه بصورة غريبة كل الغرابة ، مقتضبة كل التقبض ، تنطوي على التنبه الشديد ، وكثيراً ماكان يبتلع ريقه كما لو كان فمه غاصاً بسائل ، وعندئذ كان يمكن أن يلاحظ من حركات العضلات في الخدين والسالفين أنه كان يحرق الأرم .

وقال له أحدهم عند مدخل شارع الطواحين ولم يكن رآه قادماً : «ماخطبك يابودنبروك ، أهارب أنت من الجلسة ؟ إن هذا منك لشيء جديد!» وكان الذي واجهه بغتة هو ستيفان كستنماكر صديقه المعجب به الذي يعتنق في المسائل العامة كل رأي من آرائه . كانت له لحية يحلقها مستديرة ويخطها الشيب ، وكان له حاجبان كثان وأنف طويل بادي المسام . وكان قد انسحب من متجر الخمور من بضع سنوات مضت بعد أن جنى مبلغاً كبيراً من المال ، فمضى أخوه ادوارد في إدارته مستقبلاً . ومن ذلك الحين يعيش على ايراده . لكنه إذا كان في الواقع يخجل من أن يكون من طبقة ذوي الايراد كان يتظاهر على الدوام بأنه مرهق من أعماله . قال وهو يمسح بيده على رأسه الأشيب الذي موجّه مقص الكي : «إني آخذ بأسباب النشاط وإلا فهل المرء في الدنيا إلا لينشط في كل مكان ؟» . كان يقف الساعات في البورصة وهو يصطنع الاهتمام من دون أن يكون له فيها مايبغيه ، وكان يشغل قدراً كبيراً من الوظائف عديمة الأهمية . وأخيراً تولى وظيفة مدير حمام من حمامات المدينة . وأبدى نشاطاً كمحلف وسمسار ومنفذ وصايا . ومسح العرق عن جبينه...

وأعاد : «إن الجلسة منعقدة بلا ريب وأنت تتنزه ؟»

فقال السناتور بصوت خافت صادر عن شفتين تكرهان أن تتحركا : «آه ، أهذا أنت ؟ إني لاأستطيع أن أرى . ولي على هذه الحال بضع دقائق . إني أكابد ألماً شنيعاً» .

«ألماً ؟ أين ؟»

«وجعاً في الأسنان شعرت به منذ أمس . لم أغمض عيناً بالليل... ولم أذهب الى الطبيب بعد ، لأنه كان لدي في المتجر في الصباح مايشغلني ، ثم لم أرد بعد ذلك أن تفوتني الجلسة ، وهاأنذا لاأستطيع أن احتمل الطريق الى برشت...»

«وأين موضع الألم ؟» .

«هنا تحت الى اليسار... إنه ضرس... وهو نخر بطبيعة الحال... لايطاق... الى اللقاء ياكستنماكر! أنت مدرك عجلتي...»

«أجل ، لكن هل تظن أني لست متعجلاً ؟... إن أعمالي كثيرة جداً... الى اللقاء! ولابأس عليك! اخلعه! اخلعه في الحال... فهذا خير...»

وتابع توماس بودنبروك سيره ، وهو يضغط على أسنانه وإن كان هذا مما زاد الحالة سوءاً ، إذ كان الألم الذي يحسه طاغياً ، ملهباً ، ناخراً ، ألماً شديداً استولى على كل الجانب الأيسر من الفك الأسفل ، ناجماً عن ضرس مريض . وكان الالتهاب يدق فيه بمطرقة مضطربة حتى انتشرت حرارة الحمى في وجهه وتفجر الدمع من عينيه . وقد أجهدت أعصابه ليلته المؤرقة اجهاداً شنيعاً ، وكان من هنيهة يتمالك نفسه وهو يتكلم حتى لاينقطع صوته .

ودخل الى شارع الطاحونة بيتاً مدهوناً بزيت بُني ضارب الى الصفرة ، وصعد الى الطابق الأول حيث يقرأ على لوحة نحاسية فوق الباب «طبيب الأسنان» . ولم يرَ الخادم التي فتحت له . وكانت رائحة البفتيك والقنبيط منتشرة دافئة في الطريق فتنفس بغتة هواء حجرة الانتظار الحاد حيث دعي الى الدخول .

وسمع صوت امرأة عجوز تصيح : «تفضل اجلس... لحظة!» وكان صاحب الصوت جوزيفوس ، وكان جاثماً في قفصه الأبيض في مؤخرة المكان يحملق فيه بعينيه الصغيرتين السامتين حملقة بادية الانحراف والمكر .

واتخذ السناتور مكانه الى المائدة المستديرة وحاول أن يتأثر بنكات يحتويها مجلد «للصحف الطائرة» لكنه لم يلبث أن أقفل الكتاب مشمئزاً ، وضغط على خده بالفضة التي يزدان بها مقبض العصا ، وأغمض عينيه الملتهبتين وجعل يتأوه . وكان السكون يحيط به ، وليس سوى چوسيفوس من يسمع وهو يقرص السياج المحيط به فيسمع من هذا القرص صريف أسنانه... وكان من عادة السيد برشت أن يدع الغير ينتظر برهة حتى ولو لم يكن مشغولاً .

ونهض توماس بودنبروك متعجلاً ، وتناول من ابريق قائم على مائدة صغيرة قدحاً من

الماء تفوح منه رائحة الكلوروفورم وله طعمه . ثم فتح الباب المؤدي الى الطرقة ونادى في نبرة يبدو فيها الانفعال أن يتفضل السيد برشت ـ لم يمنعه شيء عاجل ـ بالاسراع قليلاً لأنه يتألم .

وظهر على الأثر بالباب المؤدي الى حجرة العمليات طبيب الأسنان بشاربه الذي وخطه الشيب ، وأنفه الأقنى ، وجبهته الصلعاء يقول : «تفضل!» ، فصاح چوسيفوس كذلك : تفضل! وقد لبى السناتور الدعوة من دون أن يضحك . وقال السيد برشت لنفسه : هذه حالة شديدة . وامتقع لونه .

وهرول كلاهما في الحجرة النيرة الى الكرسي الكبير المتحرك المنجد عند موضع الرأس والمكسو بالمخمل الأخضر فوق سنادتي الذراعين ، وكان قائماً أمام إحدى نافذتين . وبينما كان توماس بودنبروك يتّخذ مجلسه عليه أوضح ماهنالك بإيجاز وطرح رأسه الى الوراء وأغمض عينيه .

وعدّل السيد برشت في وضع الكرسي قليلاً وجعل يفحص الضرس بمرآة صغيرة وقضيب صغير من الفولاذ . وكانت تفوح من يده رائحة صابون اللوز ومن نفسه رائحة البفتيك والقنبيط .

وقال بعد برهة ووجهه يزداد امتقاعاً : «يجب أن نشرع في الخلع» .

فقال السناتور : «اشرع ولاتبطىء» وأحكم إطباق جفونه .

وكان لابد عندئذ من فترة انتظار ، إذ كان السيد برشت يعد شيئاً من خزانة ويخرج بعض الأدوات . ثم اقترب من المريض من جديد .

وقال : «سأفرش قليلاً» وأخذ في الحال ينفذ هذا القرار ويمس اللثة بالكثير من سائل حاد الرائحة . ورجا السناتور على الأثر بصوت خافت عطوف أن يلازم الهدوء ، ويفتح الفم أوسع مايكون ، وبدأ عمليته .

وأحكم توماس بودنبروك على سنادتي الذراعين كلتا قبضتيه وهو لايكاد يحس وضع الكماشة وقبضها . لكنه لاحظ بعد ذلك من الخشخشة في فمه ومن الضغط المتزايد الذي جعل يشتد ألمه وحنقه ويتعرض له رأسه بأكمله ، لاحظ أن كل شيء يجري على مايرام ، فقال في نفسه : على بركة الله! والآن لابدّ أن تجري العملية مجراها . فجعل هذا المجرى يشتد ويشتد حتى تجاوز كل حد وكل احتمال ، ووصل الى الكارثة بعينها ، والألم البالغ الصارخ القاسي الذي يمزق المخ بأكمله . فقال في نفسه : سيجتاز هذا . ولابد لي من انتظاره .

واستغرق هذا المرة ثلاث أو أربع ثوان خبر فيها جسم توماس بودنبروك بأجمعه كل ما ندّ عن السيد برشت من قوة وبذل من جهد مهتز . وقد رفع طبيب الأسنان السناتور عن مقعده قليلاً ، وأسمعه صوتاً خافتاً صادراً عن الحلق... وبغتة حدثت صدمة مخيفة ، رجة أحس السناتور أنها تدق عنقه ، صحبتها طقة وصوت تكسر ، ففتح عينيه على عجل... لقد ارتفع الضغط ، لكن رأسه لم يصخب والألم يعج حاراً في الفك الملتهب المُساء معالجته ، وشعر بجلاء بأن هذا لم يكن ماأراد ، لم يكن الحل الحقيقي للمسألة ، بل كان كارثة وقعت قبل الأوان ، وزادت الموقف حرجاً... وقد تراجع السيد برشت ، واستند الى خزانة الأدوات ، وكانت تبدو عليه سيماء الأموات وقال : «التاج ... وقد توقعت ذلك» .

وبصق توماس بودنبروك قليلاً من الدم في الصفحة الزرقاء التي الى جانبه ، ذلك أن اللثة كانت مجروحة . وسأل وهو نصف واعٍ : «ماذا توقعت ؟ ماذا جرى للتاج ؟ »

«لقد قصم التاج ياحضرة السناتور . وكنت أخشى ذلك... فالضرس معيب بصورة غير عادية... لكنه كان من واجبي أن أقدم على هذه التجربة» .

«وماذا والحالة هذه ؟ »

«اعتمد عليّ في كل شيء ياحضرة السناتور»...

«ما الذي لابد من حدوثه ؟ »

«يجب استئصال الجذور بالعتله... وهي أربعة بالعدد...»

«أربعة ؟ إذن لابد من المحاولة والجذب أربع مرات ؟ » .

«للأسف» .

قال السناتور وهو يهم بالنهوض على عجل : «في هذه الحالة حسبنا اليوم ماتم!» لكنه بقي على الرغم من ذلك واقفاً والقى رأسه الى الوراء .

وقال : «ياسيدي العزيز ، ينبغي أن تطلب مايحتمل فحسب . فإني لاأستطيع الوقوف على قدمي... وقد خارت قواي في هذه المرة على كل حال... فهل تتفضل بفتح النافذة لحظة» .

وقد فعل السيد برشت هذا ثم رد قائلاً : «إنه لأحب الي ياحضرة السناتور لو تكرمت بالمرور غداً أو بعد غد في أي وقت تشاء ، وأرجأنا العملية الى ذلك الحين . وإني لأعترف بأني نفسي... اسمح لي بإجراء غسيل ومس لتخفيف الألم مؤقتاً...»

وأجرى الغسيل والمس ، وانصرف السناتور بعدئذ يصحبه هز الكتف المعبر عن الأسف والذي بذل فيه السيد برشت الشاحب اللون في بياض الثلج آخر قواه .

وصاح چوسيفوس : «لحظة...من فضلك» وهما ماران بحجرة الانتظار . وصاح به ثانية وتوماس بودنبروك يهبط الدرج .

بالعتلة!... أجل ، أجل . فهذا يجري غداً . فماذا الآن ؟ الغدو الى البيت والراحة ومحاولة النوم . ويظهر أن ألم الأعصاب قد خدر ، فليس في فمه سوى التهاب غامض ثقيل . فإلى البيت إذن... وسار في الطريق بخطى بطيئة يرد التحيات التي تقدم اليه بصورة آلية وبعينين مفكرتين شاردتين ، كأنما يفكر فيما يجول بخاطره حقاً .

وبلغ حفرة السماكين ، وأخذ يهبط الى الافريز الأيسر وبعد عشرين خطوة غثت نفسه ففكر : لن يكون مفر من دخولي في الحانة هناك وطلب كأس من الكونياك ، وجعل يجتاز طريق المرور ، فلما توسطه حدث له مايلي : كان بالضبط كمن يتوقع أن تنتهب مخه وتطوح به قوة لاتقاوم بسرعة متزايدة مخيفة ، وترسم به دوائر مركزة واسعة تضيق على الدوام ، ثم ترطمه أخيراً بمركز هذه الدوائر الصلد كالحجر في شدة ووحشية لاتعرف اعتدالاً ولا رأفة . فإذا به قد تطوح نصف تطويحة وارتمى فوق بلاط الشارع البليل على وجهه باسطاً ذراعيه .

ولما كان الشارع شديد الانحدار فقد كان الجزء الأعلى من جسمه أعمق فيه مستوى من قدميه . وقد ارتمى على وجهه ، وتكونت بركة من الدماء جعلت تتسع ، وتدحرجت قبعته مسافة فوق طريق المرور ، وتطاير الوحل وماء الثلج على فرائه . واستقر قفازاه الأبيضان اللامعان ممددين في نقرة .

هكذا كان يرقد ، وهكذا ظل راقداً حتى أقبل بعض الناس فأداروه .

الفصل الثامن

وصعدت مدام بيرمانيدر الدرج وهي تجمع ثوبها بيد وتضغط بالأخرى فروة اليدين على خدها . وقد كانت تقع وتتعثر أكثر مما كانت تتمشى ، وكانت قبعتها التي تشبه قلنسوة القباء موضوعة على رأسها في غير الوضع السليم ، وكانت وجنتاها ملتهبتين وعلى شفتها العليا المدفوعة قليلاً قطرات صغيرة من العرق . ومع أن أحداً لم يقابلها فإنها كانت تخاطب نفسها بلا انقطاع في هرولتها ، وتخرج من همسها بين الحين والحين كلمة تلفظها بغتة ويكسبها الخوف وقعاً عالياً . كانت تقول : «لاشيء ... ليس في هذا مايقلق . إن الله الرحيم لن يريد هذا... فهو العليم بما يفعل... سأحافظ على يقيني... فليس في الأمر شيء على التحقيق... آه ياربي ، لن أكف يوماً عن الصلاة...» كانت تهرف ببساطة من الخوف ، وتنهب الدرج الى الطابق الثاني وإلى الطرقة نهباً...

وكان الباب المؤدى إلى الردهة مفتوحاً ، وهناك لاقتها زوجة أخيها...

وكان وجه جيردا بودنبروك الصبوح الأبيض قد علته قترة ، وشاع فيه النفور وعيناها المتقاربتان العسليتان المزرق ماحولهما من ظلال تطرفان في نظرتهما ، غاضبتين ، مضطربتين تنمان عن الضيق . فلما تبينت مدام بيرمانيدر أومأت اليها سريعاً باسطة ذراعيها وعانقتها بأن وارت رأسها فوق كتفها .

وصاحت مدام بيرمانيدر :«جيردا ، جيردا . ماذا هناك ؟ ماذا حدث ؟... مامعنى هذا ؟ تقولين وقع ؟ مغشياً عليه ؟ كيف هو ؟ إن الله لن يريد به سوءاً... خبريني بالله رحمة بي!»

لكنها لم تتلق جواباً في الحال ، بل أحست فحسب كيف كانت قامة جيردا ترتجف من الفرع الى القدم ، ثم ألمت فوق كتفها بهمس فهمت منه«كيف كان منظره حين جاءوا به!

وهو الذي لم تلم به في حياته ذرة من غبار... إنه لمن السخرية والمهانة أي تأتى الخاتمة على هذه الصورة...! »

وانتهت الى سمعها حركة مكبوتة ، إذ فتح باب غرفة اللبس ووقفت على عتبته ايدا يونجمان مقرحة العينين في ميدعة بيضاء ، تمسك في يديها بصحفة ، فنظرت الى مدام بيرمانيدر وتراجعت مطرقة لتفسح الطريق . وكانت ذقنها مثنية ترتعش .

وحرك تيار الهواء ستائر النوافذ العالية المزهرة لما دخلت توني تتبعها زوج أخيها الى مخدة النوم ، فهبت عليها رائحة الكاربول والأثير وغير ذلك من العقاقير ، وكان توماس راقداً على ظهره في سريره العريض المصنوع من خشب الموغنا تحت لحاف أحمر يرتدي قميص نوم مطرزاً ، متجرداً من ملابسه وعيناه نصف مفتوحتين ، كسيرتين مقلوبتين ، وتحت شاربه المنتفش شفتاه تتحركان بتمتمة وتند عن حلقه بين الحين والحين أصوات كالغرغرة... وكان الطبيب الشاب لانجهالز منحنياً فوقه يرفع رباطاً ملوثاً بالدم عن وجهه ويغمس آخراً جديداً في صحفة موضوعة على منضدة الليل . ثم أصغى الى صدر المريض وجس النبض... وكان يوهان الصغير جالساً فوق منضدة البياضات عند قدم السرير يفتل أنشوطة البحار على صدره ، وينصت خلفه الى الأصوات التي كانت تند عن أبيه وعلى وجهه تعبير المدقق المنتبه .. وكانت قطع الملابس الملطخة معلقة في مكان ما فوق أحد الكراسي .

وقبعت مدام بيرمانيدر الى جانب السرير ، وتناولت يد أخيها وكانت باردة ثقيلة ، وحملقت في وجهه... وبدأت تدرك أنْ الله أراد به سوءاً على كل حال...

وجعلت تندب : «توم ، لاتتبينني ؟ كيف حالك ؟ أتريد الرحيل عنا ؟أنك لاتريد بالتأكيد أن ترحل عنا ؟آه ، أنه لايجوز...! »

ولم يقع ماكان يمكن أن يكون جواباً . فتطلعت الى الدكتور لانجهالز تناشده العون . وكان واقفاً يخفض عينيه الجميلتين ، ويعبر ، وهو راض عن نفسه ، عن ارداة الله...

ودخلت ايدا يونجمان ثانية لتؤدى مايطلب من مساعدة ، وحضر الدكتور الشيخ جرابو بشخصه ، وصافح الكل بوجه ممدود وادع ، ورعى المريض وهو يهز رأسه ، وفعل بالضبط مافعله الدكتور لانجهالز من قبل... وقد سرى الخبر في المدينة بأسرها بسرعة الريح ، فكان الجرس يدق عى الدوام عند الصفة وأصوات الاستفسار عن صحة السناتور تنفذ الى مخدع النوم ، وكانت حالته على ماهي عليه ، لم تتغير... فكان الكل يتلقون نفس الجواب .

ورأى كلا الطبيبين أن تستقدم لليل على كل حال أخت من أخوات الرحمة ، فبعث في طلب الأخت ليانداا ، فأتت . ولم يبد على وجهها أي أثر للدهشة والذعر حين دخلت . وقد وضعت هذه المرة أيضاً حافظتها الجلدية وقلنسوتها وعباءتها في هدوء جانباً ، وأخذت في عملها وتحركاتها الرقيقة الودود .

وظل يوهان الصغير جالساً على منضدته ساعة بعد ساعة ، ينظر الى كل شيء ويصغى الى الأصوات المتصاعدة كالغرغرة . وكان حرياً في الحقيقة أن يتوجه الى درس الحساب الخاص . لكنه أدرك أن هذه حوادث يجب أن يخرس أمامها أصحاب الأردية ذات الفتلة المبرومة . كذلك كان يفكر في واجباته المدرسية قليلاً في شيء من السخرية... وأحياناً حين تخطو مدام بيرمانيدر إليه وتحتضنه يذرف الدمع . لكنه في الغالب كان يطرف بعينين جافتين وعلى وجهه امارات النفور والتفكير ، يتنفس حذراً تنفساً عميقاً غير منتظم ، كأنما يترقب ذلك التعبير الغريب الذي يعرفه مع ذلك بصورة عجيبة...

وحوالي الساعة الرابعة عقدت مدام بيرمانيدر النية على أمر ، فدعت الدكتور لانجهالز أن يوافيها الى الغرفة المجاورة ، وشبكت ذراعيها وطرحت رأسها الى الوراء ، محاولة على الرغم من ذلك أن تضغط ذقنها على صدرها...

قالت : «ياحضرة الدكتور ، إنك تملك شيئاً بعينه وإياه أرجوك! صارحني بالحقيقة ، افعل هذا! اني امرأة عركتها الحياة... تعلمت أن أحتمل الحقيقة ، صدقني!... هل يكون شقيقي غداً في قيد الحياة! تكلم بصراحة!»

وحول الدكتور لانجهالز عينيه الجميلتين ، وتأمل أظافره ، وتكلم عن الاغماء البشري ، وعن استحالة الاجابة عن السؤال : هل يعيش شقيق مدام بيرمانيدر الى غد أو يتوفاه الله في اللحظة التالية...

فقالت : «اذن أنا أعرف مايجب علي فعله» . وخرجت من الغرفة ، وبعثت في طلب القسيس برنجزهايم .

وظهر القس في نصف حلته الكهنوتية لايحمل تخريمة الرقبة ، لكنه يرتدي ثوبه الطويل . وقد رمق الأخت ليانداا بنظرة باردة ، وجلس بجانب السرير على الكرسي الذي قام اليه . ورجا المريض أن يتبينه ويعيره بعض سمعه . لكنه لما لم تثمر هذه المحاولة اتجه رأساً الى ربه وخاطبه بلهجة أهل فرانكوينا وتحدث اليه بصوت ملحن في ألفاظ مبتورة تارة غامضة وتارة مباغتة يتناوب فيها التعصب الجهم والتجلي الرحيم على وجهه . وبينا كانت

الراء تدرج في سقف حلقه في صورة حاذقة فريدة كان يوهان الصغير يتصوره في وضوح وقد تناول من هنيهة قهوة وخبزا بالزبد .

قال القس إنه والحاضرين هنا لم يعودوا يطمعون في حياة هذا العزيز الغالي لأنهم تبينوا ارادة الله المقدسة في أن يتوفاه . لكنهم مازالوا يتوسلون الى الله أن يرحمه بالتهوين عليه... ثم تلا بأحكام فعال صلاتين أخريين مألوفتين في مثل هذه الحال ونهض . وقد ضغط على يد جيردا بودنبروك ومدام بيرمانيدر ، وتناول رأس الصغير يوهان بين يديه ونظر دقيقة الى أهدابه المرخاة وهو يرتعش من الأسى والتأثر ، وحيا الآنسة يونجَمان ، وحدج الأخت لياندرا مرة أخرى بنظرة باردة ، وتحول للانصراف .

ولما عاد الدكتور لانجهالز الذي كان توجه الى بيته لحظة ، ألقى كل شيء على حاله ، فتبادل مع الممرضة كلمات وجيزة ، واستأذن في الانصراف . كذلك مرّ الدكتور جرابو مرة أخرى واهتم بوجه رحيم بما يصلح أن يتخذ وانصرف .

ومضى توماس بودنبروك يحرك شفتيه كسير العين ، ويخرج أصواتاً كالغرغرة . وحلت ساعة الأصيل . وكان في الخارج شيء من شفق الغروب الشتوي ألقى من النافذة ضوءاً خفيفاً على الملابس الملطخة المعلقة في مكان ما على المقعد .

وفي الساعة الخامسة ارتكبت مدام بيرمانيدر حماقة إذ شرعت بغتة وهى جالسة بجانب السرير تجاه زوجة أخيها في ترتيلة بصوت مرتفع خارج من جوزة العنق ، مطبقة اليدين . قالت : « أنهِ أيها الرب . . . » فأصغى الجميع إليها دون حراك : « أنهِ شدته ، ثبت قدميه ويديه وهون عليه إلى أن يحين الأجل... » . لكنها كانت تصلي من صميم قلبها الى حد أنها لم تكن تنشغل إلا بالكلمة التي تلفظها ، ولم تكن تفكر في أنها لاتعرف كيف تنهي المقطع فتحصر بعد ثالث شطرة بشكل يرثى له . وقد فعلت هذا وارتج عليها وهي ترفع صوتها ، وعوضت الختام بما عززت من وقارها . وانتظر كل من في المخدع ، وانكمش من الخجل ، وتنحنح الصغير يوهان في عسر بلغ منه أن كان لنحنحته وقع الأنين . ثم لم يكن في السكون السائد في المخدع مايسمع سوى مايشبه الغرغرة في صوت توماس بودنبروك العذب .

وكان من قبيل التسرية أن أعلنت الخادم أن في الغرفة المجاورة مايؤكل . لكنه لما أن أخذوا في تناول شيء من الحساء في مخدع النوم الذي تستعمله جيردا ظهرت الأخت لياندرا بالباب وأومأت في لطف .

لقد قضى السناتور ، شهق مرتين أو ثلاثاً في خفوت ثم صمت وكف عن تحريك شفتيه . وكان هذا هو كل ما ألم به من تغيير ، إذ كانت عيناه من قبل قد فارقتهما الحياة .

وجاء الدكتور لانجهالز بعد ذلك ببضع دقائق ، ووضع سماعته السوداء على صدر الميت وأصغى بعض الوقت وقال بعد فحص أرضى فيه ضميره :

«أجل ، إنها النهاية!»

وأغمضت الأخت لياندرا جفون الراحل ببنصر يدها الشاحبة الرقيقة .

وهنا ارتمت مدام بيرمانيدر الى جانب السرير على ركبتيها ودست وجهها في اللحاف ، وبكت بكاءً عالياً ، وأسلمت نفسها بلا ضابط الى ثورة من تلك الثورات العاطفية المنعشة التي تستجيب اليها طبيعتها السعيدة... ونهضت بوجه غمره الدمع ، قوية مرتاحة مع ذلك ، متوازنة النفس تماماً ، قادرة في الحال على التفكير في اعلان النعي الذي كان يجب أن يتم بلا ابطاء وبأسرع مايمكن - حزمة هائلة من اعلانات مطبوعة طبعاً أنيقاً...

وحضر كريستيان المشهد . وكان من مسلكه أنه تلقى نبأ سقوط السناتور في الشارع وهو في المنتدى ، فخرج أيضاً في الحال . لكنه قام بنزهة طويلة على الأقدام الى «البوابة» خوفاً من أي منظر منفر ، فكان أن لم يعثر عليه أحد .

ومهما يكن من أمر فقد حضر الى البيت وعلم وهو في الردهة أن أخاه فارق الحياة .

فقال : «هذا محال بالتأكيد» ومضى يصعد الدرج وهو يعرج زائغ البصر .

ثم وقف بين أخته وزوج أخيه أمام سرير الميت . وقف هناك برأسه الأصلع وخديه الغائرين وشاربه المرتخي وأنفه الأحدب الهائل ، على ساقين مقوستين ، هزيلتين ، منحرفاً قليلاً ، يرسم بعض الشيء علامة الاستفهام تحدق عيناه الصغيرتان الغائرتان في وجه أخيه ، الذي بدا صامتاً ، بارداً نافراً ، بريئاً ، مستعصياً على كل حكم بشري ... وكانت زاويتا فم توماس منسحبتين الى أسفل تعبران تقريباً عن الاحتقار ، ومن أخذ عليه كريستيان قوله عنه ، أنه لن يبكيه بعد موته ، ميت الآن . مات من دون أية كلمة تقال وبكل بساطة ، وانسحب وجيهاً سليماً الى وادي الصمت ، تاركاً لغيره بلا رأفة أن يعروه الخجل كما كان يعروه غالباً في الحياة ، فهل أحسن أو أساء حين كان يقابل على الدوام بالاحتقار الجاف آلام كريستيان «وعذابه» والرجل الذي يومئ اليه ، وزجاجة الكحول ، والنافذة المفتوحة ؟ لم يعد محل لهذا السؤال فقد بات عديم المعنى ، اذ ميزه الموت في تحيز عنيد لايدرك كنهه، وبرر عمله ، وقبله واستقبله ، وأناله بالأمر الاهتمام المستحيي

العام . بينما استخف بكريستيان ، وبينما هو قد يمضي في الاستهزاء به فيضايقه ويعانده عشرات المرات ، لايأبه له فيها أحد . أن توماس بودنبروك لم يؤثر في أخيه قط كما أثر فيه في هذه الساعة . فتوفيقه حاسم . والموت وحده هو الذي يكسبنا احترام الغير لآلامنا . كذلك أسخف الآلام تستحق عنده الاحترام . وقال كريسيتان في نفسه : لقد كنت على حق ، فأنا أخضع ، وخر جاثياً على ركبتيه بحركة سريعة خرقاء ، وقبل اليد الباردة الملقاة على اللحاف . ثم ارتد الى الوراء . وجعل يجيل نظره في المخدع بعينين طائفتين .

وحضر زوار آخرون ، حضر العجوزان كروجر ، الزوج والزوجة وسيدات بودنبروك القاطنات في الشارع العريض والسيد المسن ماركوس ، كذلك جاءت كلوتيلدة المسكينة ووقفت بادية الهزال مغبرة اللون الى جانب السرير ، وأطبقت يديها المستورتين بقفاز من الخيط ، جامدة المنظر وقالت وهي تتمطى وتشكو : «يجب ألا تعتقدا ، توني وجيردا ، أني قاسية القلب ، لأني لاأبكي ، فقد جف دمعي...» فصدق الجميع كلامها بالحرف الواحد . وكانت تعلوها فترة محرومة من الأمل ، قد جف عودها كما هو شأنه...

وأخيراً أخلى الجميع الميدان لشخص امرأة ، مخلوقة عجوز ، ثقيلة الدم ، ذات فم مَضّاغ أدرد ، جاءت لتغسل الجثة مع الأخت لياندرا وتلبسها .

●

كانت جيردا بودنبروك ومدام بيرمانيدر وكريستيان ويوهان الصغير مايزالون جالسين في حجرة الاستقبال يعملون بهمة الى ساعة متقدمة من المساء تحت مصباح الغاز الكبير ، من حول المائدة الوسطى المستديرة ، وكان الأمر يتعلق بقائمة بأسماء أولئك الذين يجب أن يتلقوا رقاع النعي ، وبكتابة العناوين على الغلاف ، وكانت كل الأقلام تصر ، وبين الحين والحين يخطر ببال أحدهم خاطر ، ويضاف الى القائمة اسم جديد... حتى هانو كان عليه أن يساعد لأنه كان حسن الخط وكان الوقت يأزف .

وكان الهدوء يشمل البيت والشارع ، ونادراً مايعلو وقع خطوات ثم يتلاشى . وكان مصباح الغاز ينفخ نفخاً خافتاً ، وكان يتمتم باسم أو تحف ورقة ، وأحياناً كان الجميع ينظر بعضهم الى بعض أو يذكر بعضهم بعضاً بما وقع .

وكانت مدام بيرمانيدر تنبث بالقلم في همة فائقة لكنها كانت تكف عن الكتابة كل

خمس دقائق ، وترفع يديها مطبقتين الى ارتفاع فمها ، وتصيح نادبة ، صارخة :«لست أعي ماوقع» تريد أنها أخذت تعي تدريجاً ماحدث في الواقع . وصاحت على غير انتظار بتاتاً وفي يأس بين :«لكنه قد انتهى كل شيء!» ولفت ذراعيها باكية بكاءاً عالياً حول جيد زوجة أخيها ، وكأنها استشعرت القوة من هذا فعادت ثانية الى مافعلته .

أما كريستيان فكان من شأنه شأن المسكينة كلوتيلدة . فلم يذرف بعد دمعة واحدة ، ولم يخجل من ذلك كثيراً ، والشعور بالخجل يغلب فيه أي شعور آخر . كذلك كان اشتغاله الدائم بحالاته وغرائبه الخاصة قد استغرقه وبلد ذهنه ، فكان ينهض هنا وههنا ويمسح بيده جبينه الأصلع ،ويقول بصوت مكبوت :«حقاً أن هذا لمحزن أشد الحزن!» . كان يقول هذا لنفسه ، ويتعسف مع نفسه ، ويحمل عينيه على أن ترطبا قليلا...

وبغتة حدث شيء أزعج الجميع . فقد ضحك يوهان الصغير ، إذ وقع أثناء الكتابة على اسم ، على رنين ما غريب لم يستطع مقاومته ، فكرره ، وانبهر نفسه ، وانحنى الى الأمام وارتعش وشهق ولم يسعه التماسك . فظنوا أول الأمر أنه يبكي . لكنه لم يكن بكاءً . فنظر اليه الكبار مندهشين ، غير مصدقين ثم صرفته أمه لينام .

الفصل التاسع

بضرس... لقد مات السناتور بودنبروك بضرس... هذا ماكان يقال في المدينة . لكن بحق الشيطان! فالمرء لايموت بهذا! لقد كان يتألم فقصف السيد برشت تاج الضرس ثم وقع على الأرض في الشارع ببساطة !فهل سُمع بمثل هذا ؟...

بيد أن هذا سيان ، فهذه مسألة تخصه . أما ماعنى الناس بعد ذلك ، فأنهم بعثوا بالاكاليل ، الأكاليل الكبيرة الغالية ، أكاليل أمكن أن تقدم تكريماً ، وستذكرها الصحف : وقد رأى الناس فيها أنها من أناس مخلصين ، قادرين على الدفع . وقد أرسلت وتدفقت من كل مكان ، من الهيئات والأسر والأفراد على السواء أكاليل من الغار ومن أزهار عبقة ، ومن الفضة ، بأشرطة سوداء وأخرى تحمل ألوان علم المدينة ، عليها اهداء مكتوب بأحرف سوداء ، وأخرى بأحرف ذهبية ، وسعف نخل هائل...

وجنت محلات الأزهار من وراء ذلك ربحاً وفيراً . وليس أقلها محل ايفرس الكائن تبالة بيت بودنبروك . وقد كانت مدام ايفرسن تدق باب الصفة عدة مرات في اليوم تحمل باقات وأكاليل مختلفة الأشكال من السناتور فلان والقنصل فلان ، ومن هذا القسم وذاك من أقسام الموظفين... وذات مرة سألت لعله يسمح لها بالصعود برهة لرؤية جثمان السناتور . فسمح لها ، وتبعت الآنسة يونجمان فوق الدرج الأكبر ، وألقت وهي تصعد نظرات صامتة على بئر السلم الفخم .

كانت تسير متثاقلة لأنها كانت حاملاً كالمعتاد ، وقد انحط مظهرها في العموم مع الأيام والسنين ، لكن عينيها السوداوين المستطيلتين وعظمتي الوجنتين المشبهتين أمثالهما

في الملايو كانت فاتنة . وقد كان الناس يرون أنها لابد قد كانت ذات يوم فاتنة الجمال... قد أدخلت الصالون حيث كان السناتور بودونبروك مسجى .

كان راقداً وسط الحجرة الواسعة النيرة التي أبعد أثاثها ، بين الوسائد الحريرية البيضاء فوق نعشه ، مرتدياً حريراً أبيضَ ومسجى به ، يفوح منه عبير وهو مزيج من الياسمين البحري والبنفسج وعشرات من النباتات الأخرى ، وعند رأسه كتاب يسوع المبارك لثورن ڤالدسن في نصف دائرة من الشمعدانات الفضية على حوامل مكرنشة . وكانت ضفائر الزهور والأكاليل والسلال والباقات قائمة وملقاة على امتداد الحيطان فوق الأرض وعلى اللحاف ، وكانت سعفات النخل مسندة الى المحمل ، مائلة فوق قدمي الراحل . كان وجهه مشوهاً في مواضع منه وعلى الأخص أنفه الذي كان بادية رضوضه ، لكن شعر رأسه كان مسرحاً كعهده في حياته ، وشاربه الذي شدّه السيد مينتسل المسن بالمكواة كرة أخرى ، قائماً ممدوداً يجاوز خديه الأبيضين .

وقد وقفت مدام ايفرسن بالباب وجعلت تنظر من هناك الى المحمل وهي تطوف بعينيها ، فلما ظهرت مدام بيرمانيدر في ثياب حدادها مزكومة من أثر البكاء ، لما ظهرت بين الستائر خارجة من حجرة الجلوس ودعتها في كلمات رقيقة الى الدخول تشجعت عندئذ على التقدم خطوات أخرى فوق الأرض الباركية ووقفت ويداها مطبقتان فوق بطنها البارز ، ونظرت بعينيها السوداوين الضيقتين الى النباتات والشمعدانات والشرائط وكل الحرير الأبيض وتأملت وجه توماس بودنبروك . وأنه لمن العسير أن نسمي بالاسم تعبير الملامح الباهتة الشاحبة على وجه هذه الحامل . لكنها قالت أخيراً «نعم...»وشهقت مرة - مرة واحدة - شهقة موجزة جداً ، غامضة جداً ، وتحولت بالذهاب .

كانت مدام بيرمانيدر تحب أمثال هذه الزيارات فلم تخرج من البيت وكانت تهيمن بهمة لاتكل على الترتيبات التي كان الناس يهرعون الى تأديتها لجثمان أخيها . وكانت تتلو بصوتها الصادر عن جوزة العنق وتعيد تلاوة مقالات الصحف التي كانت تطري مناقبه كما فعلت بمناسبة عيد المتجر ، وتندب الخسائر التي لاتعوض بفقده . كانت حاضرة في حجرة الاستقبال في كل زيارات التعزية التي تتلقاها جيردا في الصالون وكانت لا تحصى ويؤلف عددها فرقة . وكانت تجري مع مختلف الناس مباحثات تتعلق بالجنازة التي يجب أن تكون في وجاهتها فائقة الحد . ونظمت مشاهد الوداع فاستدعت

موظفي المكتب ليقولوا لرئيسهم كلمة الوداع الأخيرة . وقد وجب بعد ذلك أن يأت عمال المخازن فكانوا يتدافعون على أقدامهم الضخمة فوق الباركية ويسحبون زوايا أفواههم جانباً ، وينشرون رائحة هي مزيج من العرق وطباق المضغ والعمل الجثماني . وقد شاهدوا عرض الجثمان ـ ذلك العرض الفخم ، وهم يديرون قبعاتهم في أيديهم ، وتعجبوا بادئ ذي بدء ثم أدركهم الملل ، فلما أوتي أحدهم الشجاعة وهم بالانصراف تبعه جميعهم وساروا في أثره... واغتبطت مدام بيرمانيدر ، وقد زعمت أن دموع العديدين كانت تغسل لحاهم الخشنة . ولم يكن هذا صحيحاً بكل بساطة ، فمثله لم يحدث . لكنها إذا كانت حقاً قد رأت هذا وكان مارأته قد أسعدها ؟

وأقبل يوم الدفن . فكان النعش المصنوع من المعدن مغلقاً لاينفذ منه الهواء ، مغطى بالأزهار ، وكانت الشموع تحترق فوق الشمعدانات ، والبيت غاصاً بالناس ، والقسيس برنجزهايم واقفاً جليلاً عند رأس النعش ومن حوله الراثون من الأهل والغرباء ، يستقر رأسه المعبر كرنيشة الرقبة العريضة كأنها الطبق .

وكان أجير حاذق مدرب ، شيء نشط وسط بين المشرف والمنظم ، يتولى الادارة الخارجية للاحتفال ، فكان يهبط الدرج الأكبر على عجل ، ممسكاً بقبعته العالية ، مخافتاً في حركته ، ينادي همساً ، وينفذ همسه عبر الردهة التي كانت تزخر بموظفي الضرائب في زيهم ، وحمالي الحبوب في قمصانهم وسراويلهم وقبعاتهم العالية قائلاً : « إن الغرف مكتظة ، لكنه مايزال بالطرقة مكان خال... »

وران الصمت على كل شيء حين أنشأ القس برنجزهايم يتكلم ، فعم لسانه الذرب البيت بأسره ، بنغمه ولحنه . لكنه بينما كان هناك في أعلى البيت يعتصر يديه أمام وجهه ويمدهما مباركاً ، وقفت تحت أمام البيت مركبة الموتى يجرها أربعة جياد تحت سماء الشتاء الشهباء ، تراصت خلفها بقية المركبات في صف طويل منحدرة في الشارع حتى النهر . وكانت هناك ثلة من الجند مرابطة قبالة باب البيت ، تضع البنادق عند أقدامها ، وتقف صفين بقيادة الملازم فون تروتا الذي كان يتطلع بعينيه المضطرمتين الى الخارجة والسيف المجرد الى ذراعه... وكان الكثير من الناس يمدون أعناقهم رابضين في النوافذ المحيطة ، مرابطين على بلاط الشارع .

وأخيراً نشأت حركة في الطرقة ، فرنت كلمة الأمر من الملازم خافتة فأدى الجند التحية

مصطفقة ، ونكس السيد فون تروتا سيفه ، وظهر النعش محمولاً على أكتاف أربعة رجال يرتدون المعاطف السوداء والقبعات المثلثة الأركان ، يتهادى في رفق الى خارج البيت ، وحملت الريح عبير الأزهار فوق رؤوس الطلعة ، فرفرت في الوقت نفسه حزمة الريش الأسود التي تعلو سطح عربة الموتى ، وعبثت بمعارف الخيل التي كانت مصطفة حتى النهر في أسفل ، وحركت الثقاب الأسود فوق قبعة الحوذى وسيّاس الاسطبل ، ثم هطلت من السماء هشاش الثلج فرادى شحيحة جداً في أقواس كبيرة بطيئة .

وتحركت خيول عربة الموتى المتشحة تماماً بالسواد حتى لايرى منها سوى أعينها القلقة ، يقودها السياس الأربعة في تؤدة وتضام الجنود وسارت سائر المركبات الواحدة تلو الأخرى . وصعد كريستيان بودنبروك الى المركبة الأولى مع القسيس ، وتبعه يوهان الصغير بصحبة قريب من هامبورغ يبدو عليه الشبع ، ومضت جنازة توماس بودنبروك رويداً رويداً ، ممتدة ، يرنق عليها الوقار ويشوبها الكدر ، بينما كانت الريح تلطم البيوت جميعاً بالرايات المنكسة عليها… وكان الموظفون وحمالو الحبوب يسيرون على الأقدام .

فلما اقترب النعش من مدفن آل بودنبروك مجتازاً طرق المقبرة ، يتبعه أهل الميت ، ماراً بالصلبان والتماثيل والكنائس ومراعي المدافن ، كانت ثلة الشرف واقفة من قبل فأدت التحية من جديد ، وارتفعت خلف أحد الأدغال نغمات مارش جنائزي في ايقاع ثقيل مكتوم .

وعادوا يزيحون لوحة القبر الكبيرة المحفور عليها رنك الأسرة ، ووقف مرة أخرى سادة المدينة على حاشية الأشجار الجرداء يحيطون بالحفرة المبطنة التي أنزل اليها توماس بودنبروك إلى جانب والديه ، وقف هناك ذوو الحيثية والثراء مطرقي الرؤوس ومميليها أسى الى جنب ، وبينهم أعضاء مجلس الشيوخ تميزهم قفازاتهم وربطات أعناقهم البيضاء ، لكنه على مبعدة منهم كان الموظفون وحمالو الحبوب وموظفو المكتب وعمال المخازن يتزاحمون .

وصمتت الموسيقى وتكلم القسيس برنجزهايم . فلما تلاشت كلمات البركة في الهواء البارد تأهب الجميع لمصافحة أخي الراحل وابنه كرّة أخرى .

وكان عرضاً مرهقاً تلقى فيه كريستيان كل التّعازي وعلى وجهه سيماء الشارد

الفكر المرتبك ، وكانت من لازماته في الاحتفالات . وكان يوهان الصغير واقفاً بجانبه يرتدي سترة البحار السميكة ذات الأزرار الذهبية يغض بصره الى الأرض بعينيه المزرق ماحولهما من ظلال ، لا ينظر الى أحد ، ويميل برأسه منحرفاً نحو الريح وعلى وجهه امارات الحساسية .

الجزء الحادي عشر

الفصل الأول

يتذكر المرء هذا الشخص أو ذاك ويتساءل كيف حاله . ثم يخطر بباله فجأة أنه لم يعد يتجول في الطرقات وأن صوته لم يعد يرن مع سائر الأصوات ، بل أنه اختفى الى الأبد ببساطة من الميدان وأنه في مكان ما تحت الأرض هناك أمام باب المدينة .

لقد ماتت القنصلة بودنبروك المنحدرة من أسرة شتيونج أرملة العم جوتهولد ، وكانت ذات يوم سبباً لخلاف شديد في الأسرة ، توجها الموت بتاج الكفارة والرحمة ، وباتت بناتها الثلاث فريدريكه وهنرييت وفيفي يشعرن الآن بحقهن في أن يقابلن تعازي الأقرباء بسحنة من أهين ، كما لو كن يردن أن يقلن :«هاكم انظروا ، لقد شيعتم من استهدف لاضطهادكم الى القبر! » وإن كانت القنصلة بلغت من العمر أرذله...

كذلك مدام كيتلزن قد حلت بدار السلام . فبعد أن ظلت تعاني النقرس في السنوات الأخيرة رحلت وادعة ساذجة ، تؤمن ايمان الأطفال ، محسودة من أختها المثقفة التي كانت ماتزال تكافح هنا وهناك ضد الجدل العقلي ، رهن هذه الأرض الرديئة ببنيتها التي ازدادت صلابة بقدر ماازدادت هي حدباً وضآلة على مر الأيام .

وتوفى الله القنصل بعد إذ بدد ثروته كلها وصرعه شراب الهونيادى يانوس وخلف لابنته دخلاً قدره ألفا مارك في السنة أودعه إحدى دور البر العامة باسم دولمان للانفاق عليها منه بقبولها في دير يوحنا .

كذلك توفي يوستوس كروجر ، وكانت وفاته نكبة ، ذلك أن أحداً لم يعد يمنع زوجته الضعيفة أن تبيع آخر قطعة فضية عندها لتستطيع موافاة ابنها المنحل جاكوب بالنقود ، ذلك الذي يهيم على وجهه في بلاد الله في مكان ما في الخارج .

أما مايتعلق بكريستيان بودنبروك فقد بحث الناس عنه في المدينة على غير جدوى ، إذ لم يعد يقيم بين جدرانها ، ذلك أنه لم يكد ينقضي عام على وفاة أخيه السناتور حتى انتقل الى هامبورج حيث عقد لنفسه أمام الله وأمام الناس على سيدة كان على صلة بها من قديم وهي الآنسة ألينة بيفوجل . ولم يقدر أحد على أن يحول بينه وبين ذلك الزواج . حقاً أن ميراثه من أمه ، وكان نصف فائدته يتحول دائماً إلى هامبورج ، كان يديره السيد ستيفان كيستنماكر ، مالم يستنفده سلفاً ، وهو الذي عينته لهذا الغرض وصية صديقه المتوفى . لكن كريستيان كان فيما خلا ذلك سيد نفسه ومالك إرادته... فما كادت تفوح رائحة زواجه حتى وجهت مدام بيرمانيدر الى مدام ألينة بودنبروك في هامبورج خطاباً عدائياً مسهباً بدأ بكلمة : مدام! وحوى في عبارات مسمومة بعناية اعلاناً اليها بأنها - أي مدام بيرمانيدر - لاتنوي أن تعترف بها - أي المخاطبة - أو بأولادها يوماً ما أقرباء لها .

وكان السيد كستنماكر منفذاً للوصية ومديراً لثروة بودنبروك . ووصياً على الصغير يوهان . وقد أحسن القيام على هذه الوظائف . وأتاحت له نشاطاً على أعظم جانب من الأهمية ، إذ كانت تخوله الحق في أن يلمس على شعر رأسه في البورصة وعليه كل إمارات الاجهاد ، ويؤكد أنه يضني نفسه... ولاننس أنه يتقاضى على عمله في مواعيد مضبوطة اثنين في المائة من الايراد . لكنه فيما عدا ذلك لم يكن يلقى نجاحاً كبيراً في أعماله ، ولم يلبث أن جر على نفسه استياء جيردا بودنبروك .

وجرت الأمور مجرى اقتضى التصفية وأن يختفي المتجر في خلال عام . وقد كان هذا ماقرره السناتور كآخر إرادة له . وقد أبدت مدام بيرمانيدر تأثرها الشديد من ذلك وتساءلت : « ويوهان!يوهان الصغير!هانو ؟ » فقد خيب آمالها وأملها كثيراً أن أخاها تخطى ابنه ووريثه وأنه لم يرد أن يبقى له المتجر حياً . فكانت تذرف الدمع ساعات على التخلي عن اسم المتجر المحترم . عن هذه الدرة التي توارثوها أربعة أجيال ، وعلى اختتام تاريخها مع وجود وريثها الطبيعي... لكنها عندئذ كانت تعزي نفسها بأن نهاية المتجر لاتعني نهاية الأسرة ، وأن ابن أخيها سوف يبدأ عملاً فنياً جديداً ليؤدي رسالته الرفيعة التي تتألف من ابقاء اسم آبائه لامعاً رناناً ، والعمل على أن تزداد الأسرة ازدهاراً . وليس عبثاً أنه كانت فيه هذه المشابه الكثيرة من جده الأكبر...

وإذن فقد بدأت تصفية الأعمال بادارة السيد كستنماكر والسيد ماركوس العجوز . وقد جرت هذه التصفية مجرى أسيفا بصورة غير عادية ، وكانت المهلة المحددة وجيزة أريد

المحافظة عليها بدقة حرفية ، وكان الوقت يمر ، والسنون المعلقة تنجز في عجلة وبصورة غير صالحة . وتلت البيوع بعضها بعضا في تسرع وخسارة ، وحول المخزن والصوامع الى نقود بثمن بخس ، وما لم يتلفه السيد كستنماكر بشططه أتلفه السيد ماركوس العجوز ببطئه وهو الذي يحكي عنه الناس في المدينة أنه في وقت الشتاء وقبل أن يخرج لايدفئ معطفه وقبعته فحسب على الموقد بعناية ، بل يدفئ كذلك عصاه ، وأنه إذا عرضت له مرة مناسبة مؤاتية يدع الفرصة تفلت من يده بالتأكيد ، وقصارى القول أن الخسائر تراكمت ، وكان توماس بودنبروك قد خلّف ثروة قدرت على الورق بمبلغ ٦٥٠٠٠٠ مارك ، فثبت بعد فتح الوصية بسنة واحدة أن هذا التقدير كان أبعد مايكون عن الواقع..

وراجت اشاعات مبالغ فيها تفتقر الى الاثبات عن التصفية الخاسرة وغذيت هذه الإشاعات بخبر مضمونه أن جيردا بودنبروك تفكر في بيع البيت الكبير . وتناقل الناس أشياء عجيبة عما حملها على ذلك ، وعن ذوبان ثروة آل بودنبروك . وهكذا أمكن أن تسود المدينة تدريجياً من نحو السناتورة الأرملة وفيما يتعلق بتدبير المنزل نفسية مصحوبة أولاً بالدهشة والاستغراب ثم بالاستياء المتزايد... فإنها لما روت ذات يوم لأخت زوجها أن عدة من العمال والمتعهدين ألحوا بصورة لاتليق في ضرورة تصحيح حسابات كبرى ظلت مدام بيرمانيدر مبهوتة فترة طويلة ثم أغرقت في الضحك بصورة مخيفة... فبلغ من غضب جيردا بودنبروك أنها أسمعتها بصوت عال شيئاً كأنه أمر لم تصمم عليه كل التصميم ، وهو أنها ستبارح المدينة مع يوهان الصغير وتنتقل الى أبيها الشيخ في امستردام لتعود الى العزف الثنائي معه . بيد أن هذا أثار عند مدام بيرمانيدر زوبعة من الرعب بلغ منها أنها اضطرت جيردا الى العدول مؤقتاً عن هذه النية .

وكما كان المنتظر امتدت احتجاجات مدام بيرمانيدر أيضاً الى مسألة بيع البيت الذي بناه أخوها فأبدت أسفها عالياً للأثر السيء الذي يمكن أن يحدثه البيع ، وشكت من أن هذا يمكن أن يعني خسارة جديدة في مكانة الأسرة . لكنه كان لابد من أن تسلم بأن المضي في سكنى هذا البيت الفسيح الفخم الذي كان بمثابة هواية لتوماس بودنبروك كلفته كثيراً وصيانته ليسا بالشيء العملي ، وأن رغبة جيردا في ڤيللا صغيرة مريحة أمام باب المدينة تحيط بها الخضرة لها مايبررها .

وطلع على السيد جوش ، السيد السمسار جوش نهار سعيد ، فقد أضاءت شيخوخته واقعة أقصت عن أعضائه رعشة مدى ساعات . حدث أن سمح له بالظهور في صالون جيردا

بودنبروك والجلوس على كرسي ساند قبالتها ، العين في العين ، يفاوضها على ثمن بيتها ، ويغير شعره الأبيض من كل جانب علي وجهه كالثلج ، ويحملق في وجهها بذقن مرتفعة في صورة منكرة ، ويكسب منظره صورة كاملة من الأحدب . وكان صوته يفح لكنه كان يتكلم ببرود في الموضوع ، وليس ماينم فيه عن هزة النفس . وقد آلى على نفسه أن يستولي على البيت فمد يده وعرض في ابتسامة خبيثة خمسة وثمانين ألف مارك . وكان هذا السعر مقبولاً لأنه لامفر من الخسارة في هذه الصفقة ، لكنه لم يكن بد من سماع رأي السيد كستنماكر ولا من صرف السيد جوش من دون تعاقد . وقد ظهر أن السيد كستنماكر لم يكن يرى أن يتدخل أحد في عمله بأي شكل من الأشكال ، فأهمل عرض السيد جوش وضحك منه ، وأقسم ليحصلن على أكثر منه كثيراً . لكنه جعل يقسم حتى ألفى نفسه مضطراً إلى أن يبيعه بمبلغ خمسة وسبعين ألف مارك إلى أعزب متقدم في السن ، عائد من سفار بعيدة ، يريد الاقامة في المدينة...

وأتم السيد كستنماكر أيضاً شراء البيت الجديد وهو ڤيللا لطيفة صغيرة لعلها اشتريت أغلى مما ينبغي قليلاً ، لكنها وهي واقعة أمام باب القصر على شارع مغروس بشجر الكستناء العتيق ومحوطة بحديقة جميلة للزينة والانتفاع ، تحقق رغبات جيردا بودنبروك... وقد انتقلت السناتورة الى هذه الڤيللا في خريف سنة ١٨٧٦ مع ابنها وخدمها وجانب من أثاث البيت ، بينما خلف جانب آخر بين ولولة مدام بيرمانيدر ، ولا بد أن يصبح ملكاً للأعزب المتقدم في السن .

وكأنه لم يكف ما تم من تغييرات! فالآنسة يونجمان ، ايدا يونجمان لازمت بيت بودنبروك منذ أربعين سنة ، خرجت من خدمة الأسرة ، وعادت وطنها بروسيا الغربية لتقضي عند أقربائها مابقي من العمر . ولكي تقول الحق ، فصلتها السناتورة . لقد وجدت هذه النفس الطيبة يوهان الصغير لما شب الجيل السابق عن الطوق ، فأمكنها أن تخصه باعزازها ورعايتها ، وتقص عليه أقاصيص جريم Grimm ، وتروي له حكاية العم الذي مات من الغصص . لكن يوهان الصغير لم يعد الآن صغيراً ، فقد كان في الخامسة عشرة من عمره ، فلم يعد في مقدورها أن تفيده كثيراً على الرغم من رقة تكوينه... ثم أنها منذ أمد طويل تكاد علاقتها بأمه تكون سيئة . فهذه السيدة التي دخلت في الأسرة بعد مادخلتها هي بكثير لم تكن تنظر اليها على أنها من الأسرة ولاتعترف بسلطانها عليها ، ومن جهة أخرى جعلت هي كلما تقدم الزمن تغلو في تصرفاتها في زهو الخادم

التي طال عليها الأمد في الخدمة ، وقد كانت تسيء اليها بما كانت تخلعه على نفسها من أهمية وماكانت ترتكبه في تدبير المنزل من تجاوز هنا وههنا ، وهكذا لم تعد الحال مما يحتمل إذ وقعت مناظر بدأ فيها الانفعال وهاجت النفوس ، ومع أن مدام بيرمانيدر قد تشفعت لها بنفس الفصاحة التي وجهت بها الرجاء في شأن البيوت الكبيرة والأثاثات فقد استغنى عن ايدا المسنة .

لقد بكت بكاء مراً لما دنت الساعة التي ودعت فيها يوهان الصغير ، وقد احتضنها ثم وضع بعدئذ يديه على ظهره واتكأ على إحدى ساقيه واقفاً بالقدم الأخرى على أطراف أصابعه ، وتابع انصرافها بنفس النظرة المدققة الدفينة التي اتخذتها عيناه العسليتان المزرق ماحولهما من ظلال على جثمان جدته وعند موت أبيه وعند انحلال الادارات المنزلية الكبيرة ، وفي مشاهدات من هذا القبيل أخفى مظهراً . وقد جاء الاستغناء عن ايدا المسنة في رأيه مكملاً بطبيعته للحوادث الأخرى التي حضرها ودلت على تفتت الأسرة ونهايتها وختامها وتقطيع أوصالها ولم تعد هذه الحوادث تدهشه قط . وأحياناً حين يرفع رأسه بشعره الكستنائي الرائق المخصل ، وشفتيه المقبوضتين دائماً قليلاً ، ويتفتح منخراه من فرط الحساسية ، كان يلوح كأنما يتنشق الجو المحيط به ، وجو الحياة الذي يعيش فيه ، في احتراس ، منتظراً أن يشم العبير الغريب الذي يعرفه بصورة عجيبة والذي لم يستطع كل ماكان يتصاعد من مجمل جدته من عبق الأزهار أن يغمره .

وكانت مدام بيرمانيدر كلما مرت بزوجة أخيها جذبت اليها ابن أخيها لتحدثه عن الماضي وعن ذلك المستقبل الذي يدين به آل بودنبروك بعد فضل الله للصغير يوهان . وكلما كان الحاضر لايبشره في مظهره ، قلت جدوى الأوصاف التي تصف بها الحياة كيف كانت في بيوت والديها وجديها وكيف كان جد هانو الأكبر يجوب البلاد في مركبة تجرها أربعة من الجياد... وذات يوم أصابتها نوبة حادة من تقلصات المعدة كانت فريدريكا وهنرييت وفيفي بودنبروك سبباً لها إذ زعمن في صوت واحد أن آل هاجنشتروم صفوة المجتمع .

وكانت الأخبار عن كريستيان مكدرة ، إذ بدا أن الزواج لم يوات صحته فظهرت عليه من جديد أفكار جنونية سيئة وتخيلات متفاقمة ، فنُقل الى مصحة عملاً باشارة زوجه ونصيحة طبيب . ولن ترقه الاقامة فكتب الى ذويه رسائل يندب فيها سوء حظه وأعرب عن

رغبته الشديدة في الخروج من هذه المصحة التي ظهر أنهم عاملوه فيها بقسوة ، واطلاق سراحه من جديد . لكنهم كانوا يشددون احتجازه وكان هذا في الحق أنسب شيء له .
وعلى كل فقد مكن هذا زوجه من أن تواصل حياتها السابقة المستقلة دون مبالاة أو عائق مع الاحتفاظ بالمنافع العملية والنظرية التي تدين بها للزواج .

الفصل الثاني

كان جهاز المنبه يخشخش بشدة مؤدياً واجبه وهو يلهث . وكان صوته هذا أبح يتفجر ، واصطفافاً أكثر منه رنيناً ، ذلك أن الجهاز كان قديماً بالياً ، لكنه عاش طويلاً ، لا أمل في عيشه الطويل ، وكان ذلك لأنه يملأ ملئاً كاملاً .

وقد ذعر هانو من الصميم إذ كانت أمعاؤه تتقبض كل صباح عند انطلاق هذه الضوضاء الرديئة المخلصة معاً ، فوق مائدة الليل ، لصق أذنه ، غيظاً وشكاة ويأساً ، أما في الظاهر فقد كان هادئاً ، لايغير وضعه في السرير ، بل يفتح عينيه سريعاً ، ويستيقظ في حلم الصباح الزائل .

وكان الظلام حالكاً في الحجرة التي تقرها برودة الشتاء ، فلم يكن يميز شيئاً أن يسعه قراءة عقارب المنبه ، لكنه عرف أن الساعة كانت السادسة ، لأنه كان في مساء أمس قد ضبط المنبه على هذه الساعة... أمس ... أمس... وبينما هو مستلق على ظهره ، متوتر الأعصاب ، يغالب تصميمه على إضاءة المكان ومغادرة الفراش ، عاد كل ما أداه أمس شيئاً فشيئاً الى وعيه...

وكان أمس يوم أحد ، فبعد أن اضطر الى ترك السيد برشت يسيء علاجه عدة أيام متوالية سمحت له أمه بمصاحبتها الى المسرح للاستماع الى «لوهنجرين» تعويضاً له مما لاقى ، وكان التهلف على هذا المساء يسم حياته منذ أسبوع . والشيء الوحيد المؤسف هو أنه قبل مثال هذه الحفلات كان كثير مما لايحب ينيخ على الأمل الطليق السار في شهودها ويفسده الى اللحظة الأخيرة ، بيد أنه في النهاية يكون وقت المدرسة قد انقضى حقاً في يوم السبت ، وآلة السيد برشت قد انتهت من الحفر في فمه لآخر مرة بأزيزها المؤلم .

فالآن قد فرغ من كل شيء ، لأنه كان قد أجل واجبات المدرسة في تصميم سريع الى الشطر الآخر من مساء يوم الأحد ، وما جدوى يوم الاثنين ؟ فهل كان من الممكن أن يبدأ شيئاً فيه ؟ إن أحداً لايؤمن بيوم الاثنين ، متى تقرر أن يسمع في مساء الأحد الى «لوهنجرين»... وأراد أن ينهض في يوم الاثنين أكثر تبكيراً وأن ينجز هذه الأشياء السخيفة - وكفى بهذا! فالآن يتجول على حريته ، ويرعى مسرة قلبه ، ويحلم على البيان ، وينسى كل مايمضه .

وأصبح الهناء حقيقة ، وقد حل بكل بركاته وفرحاته ، بارتجافاته الخفية وهزاته ، بشهقاته الباطنة المفاجئة ونشوته الفياضة النهمة... ولامراء في أن آلات الكمان الرخيصة في الفرقة الموسيقية قد قصرت في الافتتاحية بعض التقصير ، وأن إنساناً بديناً مغروراً ذا لحية شقراء كان مقبلاً في زورق يتقدم متدافعاً .

كذلك كان في المقصورة المجاورة الوصي السيد ستيفان كستنماكر ، فدمدم لما رأى الغلام يرفه عنه على هذه الصورة ، ويصرف عن واجباته . لكن الجلال العذب المتجلي الذي كان ينصت اليه لم يلبث أن صرفه عن هذه الدمدمة...

وأخيراً جاء الختام . فصمت الهناء الشادي المتلألى وانطفأ ، وعاد الى موطنه في حجرته محموم الرأس ، وتبين أن بضع ساعات فحسب ينامها هناك على سريره تفرق بينه وبين حياته اليومية ، وهنا انتابته نوبة ذلك الوجل التام الذي يعرفه جيداً ، فعاد يشعر كيف يؤلم الجمال ، وكيف يهبط الجمال عميقاً يعروه اليأس الذي بداخله الحنين ، وكيف يستهلك كذلك الشجاعة والصلاحية للحياة العامة . لقد كانت هذه الحالة تبهظه بصورة مخيفة عديمة الأمل فكأنه يرزح تحت جبل . حتى قال لنفسه مرة أن مايرهقه لابد أن يكون شيئاً أكثر من همومه الشخصية ، عبئاً ينيخ من البداية على روحه الى أن يزهقها ذات يوم...

وضبط المنبه ، ونام نوماً عميقاً ميتاً كما ينام المرء حين لايريد أن يستيقظ قط . وجاء يوم الاثنين مع هذا ، وكانت الساعة السادسة ولم يعمل ساعة واحدة!

ونهض وأشعل الشمعة القائمة على مائدة الليل ، لكنه لما مس البرد ذراعيه وكتفيه في الحال ، وكان شديداً في الهواء البارد كالثلج ، هرع الى الارتماء في فراشه وسحب الغطاء عليه .

وكان العقربان يشيران الى السادسة وعشر دقائق... فلا معنى لنهوضه الآن والشروع في العمل . فما كان عليه أن يؤديه قد كان أكثر مما ينبغي . وكل واجب يستغرق في

الحفظ ساعة تقريباً فلا فائدة من البدء بشيء . وقد تخطى الوقت الذي حدده للعمل على كل حال . فهل من المؤكد كما بدا له أمس أن الدور سيأتي عليه اليوم في اللغة اللاتينية والكيمياء على السواء ؟ كان هذا مفروضاً ، أجل ، ومحتملاً كما يتوقع . فأما مايتعلق بأوفيد فقد نوديت الأسماء حديثاً ، وبدأ أصحاب الأحرف الهجائية الأخيرة ، والمفروض أن يبدأ اليوم ومن الأمام بحرفي أ و ب ، لكن هذا ليس مؤكداً على كل حال ، ليس مؤكداً كل التأكيد ، بل أنه لأمر مشكوك فيه! فقد خرج من قبل على القاعدة !لكن الصدفة كما تفعل أحياناً وأيم الله!... وبينما كانت تستغرقه هذه التأملات الخادعة المتعسفة تداخلت أفكاره وسبح بعضها في بعض وغلبه النعاس من جديد .

وشمل السكون حجرة التلميذ في ضوء الشمعة المترنح باردة خاوية ، تعلو سريره فيها صورة عذراء هيكل سيستين محفورة على النحاس ، وتقوم في وسطها مائدة مما يطوى وينشر ، هذا الى رف خاص بالكتب مبعثرة عليه بلا ترتيب ، ودرج قائم الأرجل من خشب الموغنا ، والهارمونيوم ومائدة الاغتسال الضيقة .

وكانت أزهار الثلج يانعة على النافذة التي لم ينزل شباكها لينفذ ضوء النهار . وقد كان هانو بودنبروك نائماً يضغط خده في الوسادة ، مفتر الشفتين ، مرخياً أهدابه في عمق وإحكام ، تبدو عليه إمارات الاستسلام للنوم في حرارة وألم ، ويغطي شعره الكستنائي الرائق المخصل صدغيه . ورويداً رويداً فقد لهيب الشمعة القائمة على مائدة الليل ضوءه الأصفر الضارب الى الحمرة ، إذ نفذ الصباح الواهن من قشرة الثلج العالقة بزجاج النافذة الى الحجرة جامداً باهتاً .

ولما كانت الساعة السابعة استيقظ ثانية مرعوباً... فكذلك فاتت هذه المهلة الآن ، فلينهض ، وليأخذ على عاتقه مايحمله اليوم ، فليس من ذلك مناص ، إنه ليس على بدء الدراسة سوى ساعة وجيزة... فالوقت يأزف ، ولاتسل عن واجباته . ومع ذلك فقد ظل راقداً غاصاً بالمرارة والكآبة والشكوى من هذه الضرورة الوحشية التي تحتم عليه مغادرة فراشه الدافئ ، في هذا الضوء الخابي الصاقع ، والخروج في ضيق وخطر الى أناس صارمين يبغون به شراً . وسأل وسادة رأسه في رقة سيالة «لاتزال هناك دقيقتان هينتان ، أليس كذلك ؟ وعندئذ منح نفسه في نوبة من التحدي خمس دقائق كاملة ليغمض عينيه قليلاً وليفتح احداهما بين اللحظة واللحظة ويحدق في العقرب الذي يمضي في سبيله بليداً ، جاهلاً ، مستقيماً...

وفي الساعة السابعة وعشر دقائق انتزع نفسه من فراشه انتزاعاً وجعل يغدو في الغرفة

ويروح في عجلة متناهية . وكانت الشمعة ماضية في احتراقها ، ذلك أن ضوء النهار وحده لم يكن قد كفى بعد . فلما نفث في إحدى زهور الثلج رأى أن الضباب الكثيف منتشر في الخارج .

كان يرتعش من البرد ارتعاشاً شديداً ، وكان الصقيع يهز جسمه كله أحياناً في رجفة أليمة ، وكانت أطراف أصابعه تحرقه ، وكانت متورمة الى حد أنه عجز عن استعمال فرشاة أظافره ، فلما أخذ يغسل أعلى جسمه أسقط الاسفنجة من يده التي كانت ميتة تقريباً على الأرض ، فوقف لحظة جامدة عديم الحيلة يدخن كما يفعل الحصان العرقان .

وأخيراً وقف بالمائدة التي تفتح وتقفل ، مستعداً مع ذلك ، وتناول الحافظة الجلدية واستجمع من قوى ذهنه مالم يجهز اليأس عليه ليضع في الحافظة مايلزم من الكتب لحصص اليوم .

وقف ينظر الى الجو مجهداً ، ويتمتم مذعوراً : «ديانة... لاتيني... كيمياء...» ويدس الأجزاء المعيبة الملوثة بالمداد المجلدة بالورق المقوى بعضها الى بعض...

نعم ، لقد كان يوهان الصغير طويل القامة تقريباً ، وكان يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ، ولم يعد يرتدي سترة بحار كوبنهاجن ، بل يلبس جاكته بنية فاتحة ذات ربطة للعنق ، زرقاء منقطة بالأبيض . وكان على صدريته سلسلة الساعة الذهبية الطويلة الرفيعة التي انتهت اليه من جده الأكبر ، وعلى اصبعه الرابع من يده اليمنى العريضة قليلاً ، الرقيقة التكوين مع ذلك الخاتم الموروث ذي الفص الأخضر الذي بات الآن بالمثل ملكاً له . . . وقد لبس الجاكتة الصوفية السميكة ، ووضع القبعة على رأسه ، واختطف الحافظة ، وأطفأ الشمعة وهبط الدرج مسرعاً الى الطابق الأرضي ماراً بالدب المحشو ، معرجاً الى اليمين قاصداً الى قاعة الأكل .

وكانت الآنسة كليمانتين وصيفة أمه الجديدة في انتظاره تعد له طعام الافطار وكانت فتاة نحيلة تتدلى خصلها على جبينها ، ذات أنف حاد ، وعينين ضعيفتي البصر .

وسأل بين أسنانه :«كم الساعة حقاً ؟» وكان يعرفها بالضبط .

فأجابته :«الثامنة إلاّ ربعاً» . وأشارت الى ساعة الحائط بيدها النحيلة الحمراء التي تبدو كأنها مصابة بالنقرس . ثم استطردت تقول :«فاعمل على أن تنصرف سريعاً ياهانو...» ووضعت القدح الساخن في مكانه ، ودفعت اليه بسلة الخبز وبالزبد والملح وظرف البيض .

ولم يزد على كلمته شيئاً ، بل مد يده الى رغيف صغير ، وبدأ وهو واقف ، والقبعة على

رأسه والحافظة تحت ذراعه ، يتناول الكاكو وقد آلمه الشراب الساخن كثيراً في ضرسه الذي كان السيد برشت يعالجه ولما يكد . وقد ترك نصفه في القدح ، وعزف عن البيض ، وأخرج من فمه المزموم صوتاً خافتاً للمرء أن يفسره بأنه «الى اللقاء» وغادر البيت مسرعاً .

وكانت الساعة الثامنة إلا عشر دقائق لما اجتاز الحديقة الأمامية واستدبر الڤيلا الصغيرة الحمراء وأخذ يسرع الخطى الى اليمين على امتداد الشارع الشتوي... لاتزال بعد عشر ، تسع ، ثماني دقائق . والطريق بعيد ، والرؤية تكاد تتعذر من الضباب ، مهما قطع المرء من الطريق ، وكان يشهق في هذا الضباب الكثيف البارد كالثلج ويزفر بكل ماوسع صدره الضعيف من قوة ، ويثبت لسانه على ضرسه الذي كان مايزال يؤلمه من الكاكاو ، ويجهد عضلات ساقيه أيما جهد . وقد تصبب عرقه ، وكان يشعر مع ذلك أن كل عضو من أعضائه يتجمد . وأخذ يحس وخزاً في جنبه ، وتمرد الفطور الهزيل الذي تناوله في معدته في هذه المشية الصباحية وغثيت نفسه ، ولم يصبح قلبه سوى شيء يخفق ويرفرف دون توقف ويكتم نفسه .

وبلغ باب القصر ، باب القصر فحسب . وكانت الساعة الثامنة إلا أربع دقائق . وبينما كان يجاهد ، وهو يخترق الشوارع في عرقه البارد وألمه وغثيان نفسه وضيقه ، كان يتطلع الى كل جانب علّه يرى تلاميذ غيره... لاأحد... لاأحد... فالجميع كانوا في أماكنهم ، فقد بدأت الساعة تدق الثامنة ، ورنت الأجراس في كل الأبراج يخترق رنينها الضباب ، وعزف من في كنيسة السيدة مريم ابتهاجاً بهذه اللحظة«اشكروا الله جميعاً» وكان العزف في رأي هانو خطأ من أساسه ، تبينه حانقاً يائساً ، وجردهم من كل فكرة عن الايقاع ، وعاب التوقيع أكبر عيب... لكن هذا كان أهون ماهنالك . فقد وصل متأخراً ، مافي ذلك شك . وكانت ساعة المدرسة متأخرة قليلاً ومع ذلك فقد وصل بعد الميعاد على التحقيق . كان يحملق في وجوه المارة وهم متوجهون الى مكاتبهم وأعمالهم غير مسرعين ، لايهددهم شيء . وكان بعضهم يرد نظرته المعبرة عن الحسد والشكوى ، ويتأمل مظهره المفكك ، ويبتسم ، وقد غاظته هذه الابتسامة فماذا يظن هؤلاء أنفسهم ، وكيف يحكم هؤلاء المطمئنون على موقفه ؟ لقد كان حرياً أن يصيح بهم أن ابتسامكم هذا أيتها السيدات والسادة خشونة منكم! لكانوا خلقاء أن يدور بخلدهم أنه يشتهي لو سقط ميتاً أمام باب القصر الموصد...

لقد باغت أذنه رنين الجرس مجلجلا ، مستمراً ، يعلن بدء صلاة الاثنين ، لما كان على بعد عشرين خطوة من السورالطويل الأحمر الذي تعترضه بوابتان من الحديد المصبوب ويفصل الفناء الأمامي للمدرسة عن الشارع . ولكي يستمد قوة أخرى تعينه على توسيع الخطى والمشي السريع ، كان يدفع جسمه الأعلى ببساطة الى الأمام ، ويكلف ساقيه أن خيراً وإنْ شراً أن تمنعا انكفاءه فيمضي يحركهما إلى الأمام متعثراً ، متراخياً ، حتى بلغ البوابة الأولى بعد أن كف الجرس عن الرنين .

وكان المشرف السيد شليميل ؛ وهو رجل ، ربعة ، ذو وجه خشن اللحية يشبه وجوه العمال ، يوشك أن يقفلها فقال :«ها...» وترك التلميذ بودنبروك يدلف منها... فلعله نجا ، فالمهم أن يتسلل الى حجرة الفصل من دون أن يلحظه أحد وينتظر هناك خفية حتى تنتهي الصلاة التي كانت تقام في قاعة الألعاب الرياضية ، ويفعل كما لو كان كل شيء على مايرام . وجرّ نفسه الى الداخل جراً عبر الفناء المبلط بالطوب الأحمر من أحد الأبواب المسحورة المزودة بألواح من الزجاج الملون ، وهو متخشب ، منهوك القوى ، يلهث ويتصبب عرقاً بارداً...

وكان كل شيء هنا في المعهد نظيفاً جميلاً ، وكان الزمن قد نال منه وسويت بالأرض الأجزاء الغبراء المتداعية من مدرسة الدير فيما مضى من الزمان ، تلك الأجزاء التي كان آباء الجيل الحاضر يتلقون فيها العلم ، لتحل محلها مبان جديدة هاوية فخمة ، وقد حافظوا على أسلوب الأبنية القديمة وامتدت فيها القبوات القوطية بصورة تبعث الهيبة فوق الطرقات والممرات المتعامدة . أما ما يتعلق بالاضاءة والتدفئة وبفسحة الفصول وقداستها وتوفير الراحة في غرف المدرسين والتأثيث العملي لقاعات الكيمياء والطبيعة والرسم ، فقد كانت وسائل الراحة كافة في العصر الحديث متوافرة فيها . . .

كان هانو بودنبروك المنهوك القوى يزحف على امتداد الحائط ويتلفت حوله... الحمد لله . إن أحداً لم يره . وقد كانت ضوضاء التلاميذ والمدرسين تتناهى اليه وهم يتسكعون الى قاعة الألعاب الرياضية ليستمدوا هناك لأعمال الأسبوع شيئاً من قوة الدين . أما هنا في المقدمة فكان كل شيء ساكناً لاتشيع فيه حياة ، وكذلك الطريق الى الدرج العريض المفروش بالشمع قد كان خالياً ، فجعل يتسلل الى فوق حذراً ، يصعد على أطراف أصابعه ، كاتماً نفسه ، ينصت في انتباه شديد ، وكان قسمه وهو الثاني الأسفل في المدرسة الثانوي يقع في الطابق الأول قبالة الدرج ، وكان بابه مفتوحا ، فجعل على الدرجة العليا يتجسس وقد

حنى جسمه إلى الأمام ، على امتداد الدهليز الذي اصطنعت على جانبيه مداخل الفصول المختلفة مزودة بلوحات من الخزف . ثم خطا إلى الأمام ثلاث خطوات سريعة لم يسمع لها صوت ودخل الفصل .

وكان خاليا ، والنوافذ العريضة الثلاث ماتزال ستائرها مسدلة ، ومصابيح الغاز المشتعلة المتدلية من السقف يسمع لها هسيس خافت ، وتوزع مظلاتها الخضراء الضوء على ثلاث صفوف من الأدراج ذات المقعدين المصنوعة من خشب رائق تقابلها المنصة يكتنفها الظلام ويحف بها جلال التأديب والتحفظ ، وعلى رأسها سبورة . وكان يغطي الجزء الأسفل من الحيطان تغشية خشبية صفراء ، ومن فوقها مسطحات الكلس العالية تزدان ببضع خرائط . وكانت هناك لوحة ثانية على حامل إلى جانب المنصة .

وقصد هانو الى مكانه وسط الحجرة تقريبا ودفع بحافظته في القمطر ، وارتمى على المقعد الجامد ، واتكأ بذراعيه فوق قرصة الدرج المائلة وتوسدهما ، وداخله شعور لا يوصف بالارتياح . وقد كانت هذه الحجرة الجامدة الجرداء دميمة بغيضة وكان قلبه يرزح تحت مايهدده من ذلك الصباح بأسره من أخطار لاتحصى . لكنه قبل كل شيء كان آمناً ، كان جسمانياً مصوناً يستطيع أن يدع الأمور تمر . والحصة الأولى ، حصة الديانة عند السيد بالرشتيت عديمة الأذى تقريباً… وقد كان يشهد من ذبذبة لسان الورق هناك فوق ، أمام الفتحة الدائرية التي تخترق الحائط كيف يتدفق الهواء الدافئ إلى الداخل ، كذلك كان لهب الغاز يدفئ المكان . وكان في وسعه التمدد وإرخاء الأعضاء الرطبة المتخشبة وتدفئتها رويداً رويداً . وقد سرت الى رأسه حرارة مريحة غير سليمة ، وطنت أذناه ، وغامت عيناه…

وبغتة ألمَّ من خلفه بصوت جعله ينتفض ويلتفت وراءه… ونظر : فقد ظهر خلف المقعد الأخير الجزء الأعلى من جسم كاي ، كونت مولن ، وبدا السيد الفتي يهم ويحاول الخروج من مخبئه ويقف على قدميه ، ثم ينفض يديه بخفة وسرعة ليزيل ماعلق بهما من غبار ، ويخطو الى هانو متهلل الوجه .

قال :« إنه أنت ياهانو! وقد انسحبت هناك الى الوراء لما جئت ، إذ حسبتك بعض هيئة التدريس » .

وقد انقطع صوته أثناء الكلام يريد التبادل كما بدا ، وهو مالم يكن شأن صديقه بعد . وكان يشبهه في نموه لكنه بقي ما كان تماماً ، فما زال يرتدي بزة لا سبيل إلى تعيين لونها ، ينقصها زر هنا وهناك ، ويؤلف مقعدها رقعة كبيرة ، وماتزال يداه غير نظيفتين لكنهما

نحيلتان جميلتا التكوين بصورة غير عادية ، ذو أصابع نحيفة طويلة ، وأظافر مرسلة مدببة . ومايزال شعره الأصفر الضارب الى الحمرة ، المفروق من الوسط على عجل ، يتهدل على جبين أبيض كالمرمر ، خلواً من الشوائب ، تبرق من تحته في عمق وحدة معاً عيناه الزرقاوان الرائقتان... وقد تجلى الآن أكثر من أي وقت مضى تعارض مابين زينته المهملة بصورة رديئة ، ونقاء جنس هذا الوجه الرقيق العظم بأنفه الخفيف التقويس جداً وشفته العليا المقبوة شيئاً ما .

قال هانو ، وهو يزم فمه ويحرك احدى يديه في مكان القلب :«لاياكاي! كيف يسعك أن تزعجني هكذا!لماذا أنت هنا فوق ؟ لماذا كنت تختبئ! هل أتيت أنت أيضاً متأخراً ؟ »

فأجاب كاي :«حاشا لله! انى هنا من أمد طويل... وفي صباح الاثنين لايتوقع المرء أن يصل في النهاية الى المعهد . وأنت نفسك خير من يعرف ذلك ياعزيزي... كلا ، لقد بقيت هنا فوق على سبيل المزاح . لقد كان الاشراف للمدرس الأول العميق فلم ير ضيراً في أن يدفع الشعب الى أسفل ليؤدي الصلاة . وقد حرصت على أن أكون دائماً خلفه ، ملاصقاً له . حتى وهو يدور ويلتفت من حوله هذا الصوفي كنت دائماً خلفه ، ملاصقاً له ، الى أن انصرف ، وهكذا أمكنني أن أبقى هنا فوق... » . ثم قال مبدياً عطفه على هانو ، جالساً على المقعد بجانبه في حركة رقيقة :«لكن أنت... لابد أنك كنت تجري ، أليس كذلك ؟ يالك من مسكين! إن منظرك يدل على ماكنت فيه من عجلة . وشعرك ملتصق بصدغيك... » وتناول مسطرة من الدرج ، وأرخى بها شعر الصغير يوهان في جد وعناية ، وقال : «اذن لقد غلبك النوم» . وقاطع نفسه وهو يتلفت من حوله ثم قال :«هذا الى أني أجلس هنا في مكان أدولف توتناوبت في المكان المقدس المخصص للتلميذ الأول! ماعلينا ، فلابأس هذه المرة... اذن لقد أخرك النوم ؟ »

وكان هانو قد عاد يتوسد ذراعيه المتعامدين فقال بعد تنهيدة عميقة :«لقد كنت مساء أمس في المسرح» .

«آه ، حقاً لقد نسيت ذلك . أكان جميلاً ؟ »

فلم يتلق أي جواب .

ومضى يحاول اقناعه :«انك في نعمة ، فيجب أن تفكر في هذا ياهانو . انظر ، انني لم أغش يوماً مسرحاً ، ولايحدوني أمل لسنة طويلة قادمة أن أغشاه... »

فقال هانو مكروباً : «لو لم يكن هذا الصداع!»

وانحنى كاي فوق قبعة صديقه ومعطفه ، وكانا ملقيين على الأرض بجانب المقعد ، فتناولهما وحملهما مخافتاً الى الدهليز في الخارج .

فلما عاد سأله :«اذن أنت لاتستذكر قصيدة التحولات (لأوفيد)جيدا ؟»

قال هانو :«كلا» .

«أو لعلك مستعد للارتجال في علم تقويم البلدان ؟»

قال :«كلا ، ولاأستطيع شيئاً مطلقاً» .

«ولا كيمياء ولا لغة انجليزية ؟ حسناً . فكلانا صديق صدوق زميل في المعركة» .

وبدا الارتياح على كاي وأعلن مبتهجاً : «إنني في الموقف نفسه بالضبط ، لم أعمل في يوم السبت لأن غده هو الأحد ، ولم أعمل في يوم الأحد تدينا... كلا ، كلا... سخف... على الأكثر لأنه كان عندي ماأعمل خيراً من عملي ، طبعاً» . قال ذلك في جد مفاجئ أحمر له وجهه قليلاً«أجل ياهانو ، من المحتمل أن يكون اليوم مسلياً» .

فقال يوهان الصغير :«وإذا عذرت مرة أخرى فسأظل جالساً ، وسأؤنب بالتأكيد إذا سُئلت في اللاتينية . والدور على حرف «ب» ياكاي ، ولن يمكن منع ذلك...»

«فلننتظر! إن قيصر سيخرج . وقد هددتني الأخطار دائماً من الخلف ، فإذا أبصرت جبين قيصر... ولم يتم استشهاده فقد ساءت معنويته هو أيضاً فاتجه نحو المنصة وجلس عليها ، وجعل يهتز فوق الكرسي السائد منقبض الأسارير . واستمر هانو بودنبروك واضعاً جبينه فوق ذراعيه المتعامدين وجلس كلاهما على هذا المنوال ، أحدهما قبالة الآخر .

وبغتة سمع من بعيد لغط مكتوم لم يلبث أن بات هديراً وأصبح في نصف دقيقة دانياً مهدداً .

فقال كاي في مرارة :«الشُعَب ، يا إلهي كيف انتهوا بهذه السرعة! إن الحصة لم تقصر ولاعشر دقائق» .

ونزل عن المنصة وتوجه الى الباب ليختلط بالقادمين . أما هانو فقد رفع رأسه لحظة فحسب وزم فمه وبقي جالساً ببساطة .

واقتربت الضجة : تثاقل في المشي ، ووطء بالأقدام ، وأصوات مذكرة مختلطة بعضها حادة والأخرى رخوة ، وتوالى هذا الفيض صعداً فوق الدرج وانتشر في الدهليز وتدفق أيضاً الى هذه الحجرة التي زخرت فجاءة بالحياة والحركة والضوضاء ، ودخل الفتية رفاق هانو وكاي تلاميذ القسم الثانوي يبلغ عددهم الخمسة والعشرين يتسكعون ، أيديهم في

جيوب سراويلهم ، أو يطوحون أذرعهم ، متجهين الى أماكنهم حيث فتحوا أناجيلهم . وكانت هناك وجوه مريبة ، بعضها صحيح معافى ، وبعضها عليل ، أشقياء ، طوال القامة أقوياء يريدون أن يصبحوا قريباً من التجار أو يذهبوا الى البحار ، فهم لايبغون أكثر من ذلك ، وصغار يتجاوزن أعمارهم بجدهم واجتهادهم فهم لامعون في المواد التي تتطلب الحفظ عن ظهر قلب ، بيد أن أدولف توتناوبت أول الفرقة كان عليما بكل شيء ، لم يعيه الجواب عن سؤال في يوم من الأيام . ويرجع هذا في بعضه الى جده المتسم بالسكون والحمية ، وفي البعض الآخر الى أن المدرسين كانوا يتجاوزون سؤاله عن شيء خشية ألا يستطيع الاجابة عنه فيتألموا ويخجلوا ، ويتزعزع ايمانهم بالكمال البشري إذ صمت أودلف توتناوبت عن الإجابة عن سؤال لهم . وكانت له جمجمة حدباء بصورة غريبة يلتصق بها شعره الأشقر مصقولاً كالمرآة ، وكانت له عينان رماديتان يحيط بهما سواد ، ويدان مديدتان سمراوان تطلان من كُميه القصيرين في سترته المفرشة النظيفة . وقد جلس بجانب هانو بودنبروك يبتسم ابتسامة رفيقة ماكرة بعض الشيء ، ويحيي جاره تحية الصباح بلهجة عامية دارجة يركن اليها ، وتزم الكلمة الى لفظ جريء ينطوي على الاستهانة .وجعل يدرس في كتاب الفصل وهو صامت يحرك قلمه تحريكاً سليماً لايبارى بأصابع نحيفة ، مديدة ، مستقيمة ، بينما كان كل من حوله يتحادثون بصوت خافت ويستعدون ويتثاءبون ويضحكون .

وبعد دقيقتين سمع وقع أقدام في خارج الفصل فنهض شاغلو المقاعد الأمامية عن أماكنهم متمهلين ، وحذا حذوهم في المقاعد الخلفية هذا وذاك ، بينما لم ينصرف غيرهم عما كانوا مشتغلين به فكادوا لايلحظون دخول السيد المدرس الأول بالرشتيت في الفصل ، وأنه علق قبعته على الباب وتوجه الى المنصة .

كان في الأربعين من عمره بدينا معتدل البدانة ، ذا صلعة منتشرة ولحية صفراء تميل الى الاحمرار ، قصير الشعر ، ورديء اللون ، على شفتيه عذوبة تمتزج بشدة الحساسية . وقد تناول مفكرته وتصفحها صامتاً . لكنه لما كان الهدوء لم يستتب في الفصل رفع رأسه ومد ذراعه فوق قرصة الدرج وحرك قبضته الضعيفة البيضاء مرات الى أعلى وإلى أسفل ، بينما انتفخ وجهه قليلاً قليلاً ، وعلته حمرة بلغ من دكانتها أن بدت لحيته صفراء فاقعة . وقد ظلت شفتاه في ذلك تختلجان نصف دقيقة على غير جدوى ليلفظ في النهاية مالايعدو كلمة «والآن...» كلمة موجزة مضغوطة تئن . ثم جاهد برهة في سبيل تعبيرات أقوى من

مجرد التعذير ، وأخيراً التفت ثانية الى مفكرته ، وهبطت نفخته ، وشعر بالارتياح . هذه كانت طريقة المدرس الأول بالرشتيت وهذا أسلوبه .

وقد أراد فيما مضى من الزمان أن يكون واعظاً ، لكن نزوعه الى التهتهة وحبه لرغد العيش قدرا له أن يؤثر التربية . وكان أعزب يملك بعض الثروة ، ويحمل ماسة صغيرة في اصبعه ، ويحب الطعام والشراب من قلبه ، كان ذلك المدرس الأول الذي لايختلط بزملائه إلا أثناء العمل ، لكنه فيما خلا ذلك يخالط في الغالب الأعازب من رجال دنيا التجار ، بل كذلك ضباط الحامية ، يأكل مرتين في اليوم في أكبر مطعم ويغشى «المنتدى» بوصفه من أعضائه . فاذا التقى في الثانية أو الثالثة صباحاً بتلاميذ كبار في مكان ما من المدينة انتفخت أوداجه وحياهم بتحية الصباح وترك المسألة تنتهي بالنسبة له ولهم... ولم يكن ثم مايخشاه هانو بودنبروك منه أو مايسأله المدرس عنه ، إذ طالما اجتمع المدرس الأول بعمه كريستيان مراراً وتكراراً على نحو انساني بحيث لايمكن أن يسره أن يكون مع ابن أخيه في المدرسة على خلاف .

وقال مرة أخرى :« والآن... » وتلفت حوله في الفصل ، وحرك قبضته المرتخية بماستها الصغيرة ، ونظر في مفكرته ونادى :«بيرلمان! المجمل! »

ونهض بيرلمان في مكان ما من الفصل ، فكاد لا يلحظ أحدٌ أنه نهض ، فقد كان أحد الصغار المتقدمين . قال في خفوت وأدب ، ماداً رأسه الى الأمام في ابتسام ووجل :«المجمل : ينقسم سفر أيوب الى ثلاثة أقسام ، أولاً حالة أيوب قبل أن يحل به البلاء وتأديب الرب ، الباب الأول ، من الآية الأولى الى السادسة ، ثانياً البلاء نفسه ومأأصابه فيه ، الباب... »

فقاطعه السيد بالرشتيت قائلاً :«أصبت يابيرلمان» وقد تأثر بما أبداه بيرلمان من الرغبة الشديدة في ارضائه ـ تلك الرغبة التي يشوبها الوجل ، وسجل له في مفكرته درجة طيبة . ثم نادى :«هينريش ، تابع! » .

وكان هينريش من الأشقياء الفارعين الذين لايعنون بشي ، فدفع في جيب سرواله بالمدية المتينة القبضة التي كان منشغلاً بها ، ونهض وهو يحدث في نهوضه ضوضاء شديدة ، ومطّ شفته السفلى ، وتنحنح بصوت خشن غليظ كأصوات الرجال ، فساء الجميع أن يلي مثله في الدور بيرلمان الوديع . وكان التلاميذ يحلمون ويرخمون في الحجرة الدافئة في شبه نوم تحت لهيب الغاز الطنان ، وكانوا جميعاً متعبين من يوم الأحد ، تنهدوا في

الصباح البارد الذي كان يلفه الضباب ، وزحفوا من أسرتهم الدافئة تصطك منهم الأسنان ، وودّ كل منهم لو ظل الصغير بيرلمان طيلة الحصة يهسهس ، بينما المؤكد أن هينريش كان سيثير النزاع...

وقال هذا يؤكد بفظاظة :«لم أكن حاضرا هذا الدرس» .

فانتفخت أوداج السيد بالرشتيت ، وحرك قبضته الضعيفة واختلجت شفتاه ، وحملق في وجه الفتى هينريش بحاجبين مرتفعين . وكان رأسه الأحمر الداكن يرتجف من الجهد والاجهاد حتى تمكن آخر الأمر من أن يلفظ :«والآن...» ففك بها السحر ، وكسب المعركة ، ومضى يقول في يسر وقدرة على الكلام : «منك لايرجى شئ ، وأعذارك دائماً حاضرة ياهنريش . فإذا كنت قد مرضت في الحصة الفائتة فقد كان في مقدورك أن تنقل من غيرك ماحصلوا فيها ، وإذا كان الباب الأول يتناول حالة أيوب قبل أن ينزل به البلاء والثاني يتناول البلاء نفسه فقد كان يسعك أن تعد في النهاية على أصابعك فتجد الباب الثالث يتناول حالته بعد البلاء . لكنه ينقصك الاخلاص الحق ، ولست فحسب إنساناً ضعيفاً ؛ بل أنت كذلك مستعد على الدوام لتبرير نقط ضعفك والدفاع عنها . لكنه لعلك تلاحظ أنه طالما كانت هذه حالك فلن يكون هناك أمل يا هنريش في رِفْعَةٍ أو تحسن . اجلس! ڤاسر فوجل . تابع!»

فجلس هينريش في صفاقة وتحد ، يرفس ويدمدم ، ويهمس الى جاره بقحة ما ، ثم أخرج مديته المتينة القبضة من جديد . ونهض التلميذ ڤاسر فوجل ، وكان غلاماً ذا عينين ملتهبتين ، وأنف مقلوب ، وأذنين مطرطقتين ، وأظافر مقضومة ، فأتم المجمل بصوت مرضوض ، وبدأ يحكي عن أيوب الرجل الذي كان يقيم بأرض عوص وماأصابه . وكان قد فتح التوراة خلف الجالس أمامه يقرأ منها وعلى وجهه امارات البراءة التامة والاستغراق في التفكير ، ثم جعل يحملق في موضع من الحائط ويترجم الى لغة ألمانية حديثة غير مسعفة مايأخذه بصره من التوراة وهو يتوقف ويسعل سعالاً أشبه بالنقيق... وقد كان فيه ماينفر الى حد بعيد ، لكن السيد بالرشتيت أثنى على كل جهوده هذه ثناءً مستطاباً . وكان حظ التلميذ ڤاسر فوجل الى ذلك الحين حسناً في الحياة ، إذ كان يحلو للمدرسين أن يثنوا عليه وعلى فضائله ليروه ويروا أنفسهم ويروا الآخرين أن دمامته لاتحملهم بحال من الأحوال على ظلمه...

وجرت حصة الديانة مجراها فنودي أيضاً على فتيان مختلفين ليقيموا الدليل على علمهم

بأيوب الرجل الذي كان في أرض عوص ، وقد تلقى جوتليب كاسباوم ابن تاجر الجملة الذي لقي حتفه في حادث - تلقى على الرغم من أحوال أسرته المنهارة درجة رفيعة ، لأنه أمكنه أن يثبت بالدقة أنه كان لأيوب سبعة آلاف رأس من الغنم وثلاثة آلاف جمل وخمسمائة بقرة وخمسمائة أتان وخدم كثيرون جداً . .

ثم أذن للتلاميذ بفتح الأناجيل ، وكان معظمها مفتوحاً من قبل ومضى التلاميذ يقرأون فاذا ورد موضع رأى السيد بالرشتيت أنه بحاجة الى ايضاح انتفخ وقال : «والآن...» ثم ألقى بعد الاستعدادات المألوفة محاضرة وجيزة ممزوجة باعتبارات أخلاقية عامة عن النقطة التي يكون بصددها ، ولم يكن أحد يصغي اليه ، فالسلام ومداعبة النعاس كانا يرنقان على الفصل ، وكانت الحرارة شديدة تقريباً من التدفئة المستمرة ، ومصابيح الغاز ، والهواء الذي تنفثه هذه الأجسام الخمسة والعشرون المتنفسة المتبخرة فاسداً . كان الدفء والهسيس الرفيق المنبعث من اللهب ، والصوت الوتير المتصاعد من المحاضر يضغط كله على الأذهان المتمردة ، ويهدهدها الى الغفلة والخمول . وكان كاي كونت مولن يفتح أمامه عدا انجيله «الأحداث الغامضة والأعمال الخفية» لإدجار ألان بو يقرأ فيه وهو معتمد رأسه الارستقراطي على يده ـ ذلك الرأس الذي لم ينظف تماماً . أما هانو بودنبروك فكان جالساً ، متكئاً ، متهاوياً ، ينظر بفم متراخٍ وعينين ساخنتين عائمتين الى سفر أيوب الذي كانت تختلط سطوره وحروفه أمام عينيه ، وتتماوج زاخرة غائمة . وأحياناً يتذكر موضوع القديس جرال أو الممشى المؤدي إلى كنيسة الأسقفية يرخي جفونه رويداً رويداً ، ويشعر كأنه ينتحب في باطنه ، وكان قلبه يصلي لله ويدعوه ألا تنتهي أبداً حصة الصباح هذه التي ينتفي فيها الخطر ويرفرف السلام .

ومع ذلك فقد حدث ماهو في نظام الأشياء ، إذ دق جرس المشرف يعوي ويصرخ ويرن ويجلجل في الطرقات ، فانتزع الأذهان الخمسة والعشرين ربدتها الدافئة .

فقال السيد بالرشتيت : «الى هنا»! وكلف من يناوله كراسة الفصل ليسجل فيها بإمضائه أنه أعطى هذه الحصة من تكاليفه .

وطوى هانو بودنبروك انجيله ، وتمطى وهو يرتعش ويتثاءب بصورة عصبية ، لكنه لما أرخى ذراعيه وأعضاءه لم يكن بد من أن يتنفس بسرعة وصعوبة لينشط قلبه الذي عجز برهة عن أداء وظيفته ضعيفاً مترنحاً . وحَلَّتْ الآن حصة اللاتينية . . فألقى إلى كاي ، حيث كان ، نظرة جانبية ، فلم يبد عليه أنه لحظ انتهاء الحصة ، بل كانت تستغرقه مطالعاته الخاصة .

وأخرج من حافظته نسخة أوفيد المجلدة بالورق المقوى الموكت ، وفتح صفحة الأبيات التي كان عليهم حفظها اليوم . كلا لاأمل في استظهاره الآن ولو القليل من هذه الأسطر السوداء المتراصة المستقيمة المرقوقة بخمسة والمزودة بعلامات بالقلم الرصاص ، وكانت تحدق فيه غامضة مجهولة لاتبعث على الأمل . كان لايفقه معناها ، بله أن يستطيع القاء واحد منها عن ظهر قلب . ومن تلك الملحقة بها والمطلوب اعدادها لليوم لم يستطع أن يحل لغز جملة واحدة .

والتفت الى أدولف توتنهاوبت الذي كان بجانبه مشغولاً بكراسة الفصل ، وسأله بصوت فيه رنة اليأس : «ما معنى إذن deciderapt patula Jovis arbore, glandes? إن هذا كله سخف يراد به المضايقة فحسب...»

قال توتنهاوبت وهو يواصل الكتابة : « كيف ؟ تمر شجرة جوبيتر... وهي هذه البلوطة... نعم ، إني نفسي لاأعرف ذلك تمام المعرفة...»

ورجاه هانو وهو ينحي الكتاب : «لقني شيئاً ياتوتنهاوبت إذا جاء الدور علي...»

ثم انزاح عن المقعد ونهض واقفاً بعد أن تأمل هزة رأس الطالب الأول بنظرة مظلمة واشارته الدالة على عدم الاهتمام وقلة الاكتراث .

وقد تغيرت الحالة وبارح السيد بالرشتيت الحجرة ، ووقف الآن على المنصة بدلاً من رجل قصير القامة ، ضئيل الجسم ، ضعيف البنية ، منهوك القوى ، ذو لحية هزيلة بيضاء ، تطل رقبته الحمراء من بنيقة مقلوبة ضيقة ، ويستبقي بإحدى يديه اللتين يعلوهما شعر أبيض قبعته العالية أمامه متجهة الفتحة الى أعلا ، وكان يعرف بين التلاميذ بالعنكبوت ، ويسمى في الحقيقة الاستاذ ياكوب . ولما كان قد عهد اليه خلال فترة الاستراحة هذه الأشراف في الطرقة فقد كان عليه أن يلقي باله كذلك الى مايجري في الفصول... فقال وهو يخلع على صوته الضئيل كل ماوسعه من قوة الأمر والنهي ، ويحرك ذراعيه في الهواء كمن يدير مرفقاً ، يريد أن يتظاهر بالشدة فيتولاه الارتباك . قال : «أطفئوا المصابيح! ارفعوا الستائر! افتحوا النوافذ!! اهبطوا كلكم ، واخرجوا الى الهواء الطلق قبحكم الله!»

فاطفئت المصابيح ، ورفعت الستائر ، وعم الحجرة ضوء النهار الباهت ، وتدفق هواء الضباب البارد من النوافذ العريضة الى الداخل ، بينما تدافع تلاميذ الفصل الى الخارج مارين بالاستاذ ياكوب ما عدا أول الفرقة الذي كان يجوز له وحده البقاء .

وتلاقى هانو وكاي عند الباب ، وسارا جنباً الى جنب يهبطان الدرج المريح الى

أسفل عبر الرحبات ذي الطراز وكان كلاهما صامتاً ، تلوح على هانو أمارات الإبتئاس المحزن ، ويستغرق كاي في الأفكار . فلما بلغا الفناء الكبير أخذا ببعض ضاجين غاديين رائحين...

وكان يتولى الاشراف هنا تحت شاب ذو لحية مدببة شقراء هو المدرس الأول الظريف الدكتور جولدينر الذي يدير مدرسة داخلية للأولاد يزورها أبناء الملاك الأغنياء النبلاء القادمون من هولشتين وميكلينبورج . وقد كان معنياً بمظهره على نحو لم يألفه زملاؤه بأية حال ، متأثراً بأولئك الذين يرعاهم من الفتية الإقطاعيين فكان يلبس ربطة رقبة من الحرير الملون ، وسترة مما يرتدي المتأنقون ، وسراويل ذات ألوان رقيقة تربط بسيور تحت النعل ، ومناديل معطرة ملونة الحاشية . وإذ كان ينتمي إلى أسرة رقيقة الحال لم تكن هذه الفخفخة مما يلائمه ، بل إن قدميه المتجاوزتي الحد في الكبر على سبيل المثال كانتا في حذائه المزرور ، المدبب الطرف تشذان بصورة مضحكة تقريباً . ومن غير المفهوم أنه كان مزهواً بيديه الغليظتين الحمراوين اللتين لم يكن يكف عن فركهما وشبكهما وتأملهما فاحصاً لهما راضياً عنهما . وكان من عادته أن يُصَعِّرَ خده فيميل برأسه منحرفاً إلى الوراء ، ويطرف بعينيه ، ويعبس ، مغضناً أنفه فاتحاً فمه نصف فتحة كأنه بسبيل أن يقول : «ماذا هنالك من جديد ؟ »... ومع ذلك فقد كان أوجه من ألا يتغاضى بصورة متميزة عن كل المحظورات التافهة التي كان يمكن أن تقع في الفناء . كان يغض الطرف عن مثل هذا التلميذ أو ذاك إذا حمل معه الى الفناء كتاباً استعداداً للدرس القادم في اللحظة الأخيرة . يتغاضى عمّا يفعله تلاميذه الداخليون ، إذ يناولون المشرف السيد شليميل نقوداً ليشتري لهم بها خبائز ، وعن تجربة صغيرة للقوة بين تلميذين من السنة الثالثة تنتهي بشجار تتجمع حوله في الحال حلقة من الخبراء ، وأن يأمر رفاق الفصل أحدهم بالتوجه معهم الى الآلة الضاخة ليغسلوا بمائها عاره إذ يكون أبدى على صورة ما مسلكاً ينطوي على الجبن وعدم الشرف ولا يتفق والزمالة . . لقد كان الجمهور الصاخب الذي يجول بينه هانو وكاي غاديين رائحين نوعاً جريئاً من البشر قليل التهذيب . فهم ، وقد نشأوا في جو وطن منتصر في الحرب مجدد الشباب ، كانوا يمجدون ما يصاحب الرجولة الخشنة من عادات ، فكانوا يتكلمون رطانة بخسة لاذعة معاً ، زاخرة بالمصطلحات . وإدمان التدخين والشراب ، والقوة الجسمانية ، وحب المصارعة ، كان كله يلقى منهم تقديراً كبيراً ، والنَعومة والغندرة كانتا في نظرهم من أحق الرذائل بالاحتقار ، فمن يُلْقَ رافعاً بنيقة سترته يجروه إلى الآلة الضاخة .

لكن من ير في الشارع ممسكاً بعصا للنزهة يؤدب في قاعة الألعاب الرياضية تأديباً علنياً على أفضح صوزة وآلمها...

فما كان يتحدث به هانو وكاي كان يضيع بوصفه شيئاً غريباً أجنبياً في ضجيج الأصوات التي كان الجو البارد الرطب يزخر بها . وهذه الصداقة القائمة بينهما كانت معروفة من أمد طويل في المدرسة كلها . فكان المدرسون يطيقونها كارهين ظانين بها الظنون والخروج . وكان الرفاق لعجزهم عن إدراك كنهها ، قد ألفوا أن يدعوها وشأنها في شيء بعينه من الكراهية والتهيب وأن يعدوا الرفيقين طريدين شاذين غريبين . يجب أن يتركا وشأنهما . . . على أن الكونت كاي مولن كان يتمتع بقسط من الاحترام لما يعهدونه فيه من وحشية وتمرد مفرط . لكنه فيما يتعلق بهانو بودنبروك لم يكن حتى هينريش الطويل الذي كان يعتدي على الناس جميعاً لتطاوعه نفسه على أن يضع يده عليه لغندرته وجبنه بل تهيبا غامضاً منه لنعومة شعره ، ورقة أعضائه ، ونظرته الكئيبة الهيابة الباردة .

وقال هانو لكاي وهو يقف بجانب أحد الجدران الجانبية للفناء ، ويستند إليه ، ويحكم جاكته من حوله ، يتثاءب من رعشة البرد : « إني خائف ياكاي خوفاً سخيفاً يؤلمني في كل موضع من جسمي . فهل السيد مانتلزاك هو الرجل الذي يخشى هذه الخشية ؟ قل نفسك!! لو أن حصة أوفيد هذه كانت مرت وسجل لي اللوم في كراسة الفصل ، وبقيت فيه جالساً وجرى كل شيء مجراه! إني لاأخشى هذا ، ولكني أخشى الضجة التي تصاحبه... »

وكانت أفكار كاي تستغرقه ، فقال سريعاً وعلى حين بغتة : « إن رودريج أشر هذا هو أعجب شخصية ابتكرت... وقد لبثت الحصة كلها أقرأ... فليتني أستطيع أن أكتب يوماً حكاية ممتعة كهذه! »

والمسألة هي أن كاي كان يأخذ نفسه بالكتابة . وكان هذا هو ماعناه صباح اليوم حين قال أن لديه ما يؤديه خيراً من إنجاز واجبات المدرسة ، ففهم هانو ما يعنيه . فقد نشأت عن ميله الى القص ذلك الميل الذي ظهر عليه وهو غلام صغير ، محاولات للكتابة ، فنظم حديثاً قصيدة ، نظم أقصوصة هي مغامرة خيالية محض ، يمضي فيها كل شيء في ضوء خاب مما يبدو في المعادن وفي الجمار الخفية في أعمق وأقدس مصانع الأرض ودخائل النفس البشرية في الوقت نفسه ، وتختلط فيه القوى الأزلية للطبيعة والنفس بصورة غريبة ، وتوجه وتحول وتصفى . كتبها بلغة صميمة ، دالة ، فيها غلو قليل وفيها حنين ، صادرة عن عاطفية رقيقة...

وكان هانو يعرف هذه القصة جيداً ويحبها حباً جماً ، لكنه لم يكن مستعداً الآن للكلام عن أعمال كاي أو عن ادجار ألان بو ، فقد عاد يتثاءب ، ثم تنهد وهو ينغم في الوقت نفسه خطة ابتدعها حديثاً على البيان . فقد كانت هذه عادته . ألف أن يتنهد ، وأن يتنفس تنفساً عميقاً حين تلح به الحاجة الى تحويل قلبه المضطرب الى مجرى تنبض فيه البهجة قليلاً ، واعتاد أن يجعل نفسه موضوعاً موسيقياً أو لحناً ما من وضعه أو من ابتكار غيره...

وقال كاي :«انظر ، هاهو ذا الرب الحبيب يتجول في حديقته» .

فقال هانو : «حديقة لطيفة» . وضحك ضحكاً عصبياً ، لم يستطع الكف عنه ، ووضع منديله على فمه ، وأرسل طرفه عبره إلى ذلك الذي وصفه كاي بالرب الحبيب .

وكان من ظهر في الفناء هو المدير الدكتور موليكه ناظر المدرسة :رجلاً فارع الطول ، يلبس قبعة من اللباد ، وله لحية قصية ، وبطن بارز ، وسراويل أقصر مما ينبغي كثيراً ، وأساور أكمام قذرة دائماً تشبه القمع . كان يسير بوجه يبدو من الغضب وكأنه يتألم ، يخطو سريعاً فوق البلاط الحجري ، ويشير بذراعين ممدوتين الى المضخة التي كان الماء يتدفق منها ، يعدو عدد من التلاميذ أمامه ، ويتزاحمون لاصلاح الضرر بأقفال المحبس . لكنهم كانوا أيضاً يلبثون عندئذ طويلاً وقوفاً ، ويتأملون بوجوه مضطربة آلة الضخ تارة والمدير تارة أخرى وهو يتلفت إلى الدكتور جولدنير مهرعاً إليه بوجهه الأحمر يحاول اقناعه بصوت بعيد القرار ، خامد ، متأثر . وقد كان كلامه تتخلله ألفاظ تخرج من الشفتين غير مبينة كالهمهمة...

كان هذا المدير موليكه رجلا مخيفا ، وكان خلفا للسيد المسن المرح المحب للناس الذي درس عليه أبو هانو وعمه والذي سرعان ما وافاه الأجل في الحادية والسبعين . اذ ذاك دعا الدكتور موليكه ليخلفه وكان إلى ذاك الحين أستاذاً في مدرسة ثانوية بروسية ، فسرى بدخوله المدرسة روح آخر جديد . فحيث كان التعليم الكلاسيكي وقتئذ غاية بهيجة في ذاتها يتوخاها المرء في هدوء وفراغ ومثالية سارة ، بلغ الآن مفهوم الواجب والسلطة والسلطان والخدمة والمهنة أرفع درجة من الهيبة وأصبح «الأمر المطلق» عند فيلسوفنا كانط هو العلم الذي يرفعه الدكتور موليكه في كل خطبة رسمية مهددا . فباتت المدرسة دولة في الدول تسودها الشدة البروسية بصورة هائلة حتى شعر التلاميذ بله المدرسين أنهم موظفون كل همهم الترقي والحرص من أجل ذلك على رضى ذوي السلطان .

كذلك بعد دخول المدير الجديد ، وارتقاء وجهات النظر من ناحية الصحة وعلم الجمال

لم يلبث ان بدىء بتحوير بناء المعهد ، وتأثيثه من جديد ، وانجاز كل شيء على احسن وجه . على انه كان للمرء ان يتساءل «ألم يكن المعهد من قبل ونصيب غرفة من وسائل الراحة في العصر الحديث أقل ، ومن لين العريكة والشعور القلبي ، والمرح ، وحب الخير ، وراحة النفس أوفر قليلاـ ألم يكن وهذه حاله أحب إلى النفس وأحفل بالبركة .

أما ما يتعلق بشخص المدير موليكه فقد كان من ذلك النمط المستسر الغامض العنيد الذي تأكله الغيرة ويبعث رعب اله «العهد القديم» . كان مخيفا في ابتسامه وغضبه على السواء ، وكانت السلطة الهائلة التي يملكها تجعل منه انسانا هوائيا لا يؤمن جانبه بشكل مرعب . كان في مقدوره ان يقول شيئا فيه فكاهة فاذا أضحكت أحدا انقلب مرعبا . فلم يكن أحد في مخلوقاته المرتجفة يدري أي مسلك يسلك معه فلا يبقى إلا أن يحترمه ، يبقى جاثياً على ركبتيه ويتحاشى في ذلة بالغة أن يفترسه غيظه وأن يحطمه بعدالته الكبرى . . .

وقد كان الاسم الذي اطلقه كاي عليه لايستعمله سواه وهانو بودنبروك . وقد تحرزا من نطقه أمام الرفاق خشية عدم الفهم وما يتبعه من نظرة محملقة باردة يعرفانهاجيدا... كلا ،فليس ثمة نقطة يتبادل كلاهما فيها فهما مع الزملاء . بل لقد كان اسلوب المعارضةوالانتقام الذي يأخذ به الآخرون غريبا عليهما ، ومن ثم لم يلتفتا الى نعوت الزراية المألوفة لأنها تنطق بفكاهة لا تؤثر فيهما ولا تحملهما مرة على الابتسام . وقد كان من التفاهة والرخص وعدم الفكاهة أن تسمي الأستاذ ياكوب «العنكبوت» والمدرس الأول بالرشتيت «الكوكتوه»* . كان هذا نوعا هزيلا من التعويض عما تفرضه خدمة الدولة! كلا! حقاً لقد كان الكونت مولن شرساً بعض الشيء ، وقد استن لنفسه وهانو عادة هي أن يذكر المدرسين باسمائهم الصحيحةالمعروفين بها كمواطنين مع إضافة كلمة السيد اليهما ، فيقولا «السيد بالرشتيت» و«السيد مانتلزاك» و«السيد ياكوب» . وكانت هذه التسمية تنطوي بالمثل على قلة الاكتراث وعلى النفور والتهكم وعلى التباعد والشذوذ... وكانا يتكلمان عن «هيئة التدريس» ويتسليان خلال فترات كاملة من الاستراحة بان يتصورا تحت هذه التسمية مخلوقا موجودا حقا ، ونمطا خياليا بشع الصورة من الغيلان . كانا يقولان في العموم«المعهد» كما لو كان الأمر يتعلق بالمصحة التي ينزل بها كريستيان عم هانو...

---

* نوع من الببغاء .

وقد بات كاى في حالة نفسية طيبة لما ان رأى« أيوب الحبيب »الذي حول كل شيء الى مظهر من الرعب الشاحب وهو يهمهم همهمة مخيفة ، ويشير الى الورق الذي كان ملفوفا به خبز الزبد ، وكان منتشرا في كل الجهات ، ملقى هنا وهناك فوق البلاط . وسحب هانو معه الى احد الابواب التي كان المدرسون القاصدون الى الحصة الثانية يدخلون منها الى الفناء ، وجعل ينحني انحناءً عميقا بصورة هائلة لطلبة المعهد المحمرة اعينهم ، الشاحبة وجوههم ، الرقيقي الحال ، وهم يتوجهون الى تلاميذ الفرقتين السادسة والسابعة عبر الافنية الخلفية . وكان يسرف في الانحناء ، ويرخي ذراعيه ، وينظر من تحت الى فوق الى هؤلاء الشبان ، متفانيا كل التفاني . لكنه لما ظهر معلم الحساب الشيخ السيدتيتجه وهو يضع يده المرتعشة بما فيها من كتب على ظهره ، يحول بعينيه الى باطنه على نحو يعد ضربا من المحال ، مقوسا ، ممتقع اللون ، يبصق على الارض ، قال بصوت رنان :«عم صباحا ايها الرمة» . وحول بعدها نظرته الحادة الى ناحية ما في الهواء . . . .

في هذه اللحظة جلجل الجرس فأخذ التلاميذ يتدفقون إلى المدخل من كل حدب وصوب . لكن هانو كان ما يزال يضحك ، يضحك وهو يصعد الدرج حتى ان رفاقه في الفصل المحيطين به وبكاي كانوا يحدجونه بنظرات باردة تنم عن الاستغراب ، بل عن شيء من النفور من هذه البلاهة الجمة...

وشمل السكون الفصل ونهض الجميع نهضة واحدة حين دخل المدرس الاول الدكتور مانتلزاك ، وكان الاستاذ الحق ، وكانت العادة ان يحترم . وجذب الباب وراءه ، منحنيا ، مادا عنقه ليرى هل وقف الجميع ، معلقا قبعته على المشجب ، مسرعا بعد ذلك إلى المنصة ، رافعا خافضا رأسه في تناوب سريع . وهنا أتخذ وضعا بعينه ، ونظر قليلا عبر النافذة الى الخارج ، محركا سبابته التي يضع فيها خاتما كبيرا للختم بين البنيقة والعنق يمنة ويسرة وكان ربعة في الرجال ، خفيف الشعر ، أبيضه ، ذا لحية جعداء كلحية جوبتير ، وعينين جاحظتين ضعيفتي البصر في زرقة اللازورد ، تبرقان خلف زجاج النظارة الحاد . كان يرتدي سترة طويلة مفتوحة مصنوعةمن قماش رمادي ناعم يحب ان يتحسسها برفق عند الخصر بيده المتجعدة القصيرة الأصابع . وكانت سراويله كما هي حال المدرسين كافة فيما خلا الدكتور جولدينيرالأنيق ، أقصر مما يجب تبدي زوجا ، عنقى زوج من الأحذية الطويلة ، عريضاً بصورة غير عادية ، لامعاً من الدهان كالمرمر .

وفجأة حول رأسه عن النافذة . وتنهد تنهيدة تنم عن الرضى ، وألقى على الفصل

الساكن نظرة قائلاً :«نعم ، نعم» مبتسماً ابتسامة صميمية لعدد من التلاميذ : لقد كان في حالة نفسية طيبة كما هو واضح ، فكان أن سرت في المكان حركة تدل على الارتياح . والكثير بل كل شيء كان يتوقف على نفسية الدكتور مانتلزاك طيبة هي أم سيئة . ذلك أنهم كانوا يعرفون أنه يدع نفسه لنفسياته غير واع ، أو من دون أن يأخذ نفسه بأي نقد . كان يظلم ظلماً استثنائياً ساذجاً لايقف عند حد ، وكان يرضى رضى ظريفاً لطيفاً كأنه الهناء . وكان دائماً يصطفي اثنين أو ثلاثة يخاطبهم من دون كلفة بأسمائهم الأولى . وكانوا ذوي اليسار الذين يعيشون كأنهم في الفردوس ،كانوا تقريباً يقولون ما يريدون ،وكان مسلكه مع هذا سليماً ، فإذا انتهت الحصة سامرهم الدكتور مانتلزاك كأحسن مايكون الإنسان . على أنه ذات يوم ، ولعل ذلك كان عقب العطلة ، والله وحده يعلم لماذا ، حدث ذات يوم أن أسقط الدكتور أحد التلاميذ وقضى عليه وأُقصي وطُرد ونودي غيره بالاسم الأول ، وكان الدكتور مانتلزاك يؤشر لهؤلاء المحظوظين على أخطائهم في البدهيات في تسامح وتنميق بحيث تحتفظ أعمالهم في حالة الخطأ الشنيع بمظهر نظيف . أما في الكراسات الأخرى فكان يجول بقلم عريض مستشيطاً غضباً ، ويغمرها بالأحمر بحيث تترك في النفس أثراً مرعباً مما يشبه التخريب . وإذ كان لا يُحصي الأخطاء ، بل يعطي الدرجات على قدر ما يكون في الكراسة من الحبر الأحمر ، فقد كان ذوو الحظوة عنده يعودون من تصحيحه بغنم كبير . وكان مسلكه هذا لايحمله على أدنى تفكير ، بل كان يجده سليماً كل السلامة ، لايخطر له الغرض ببال ، ولايرى فيه تحيزاً أو تحاملاً . فإذا أوتي أحد التلاميذ شجاعة أسيفة فاحتج على ذلك ، فقد الأمل في أن يخاطبه الدكتور يوماً بلا كلفة أو يناديه باسمه الأول . وهذا أمل لم يفرط فيه أحد...

والآن تتعامد ساقا الدكتور مانتلزاك وهو واقف يقلب صفحات مفكرته وكان هانو بودنبروك منكباً الى الامام يعتصر يديه تحت الدرج ، إذ كان الدور على حرف الباء ، فحالا سيرن اسمه ، فيقف ولايدري حرفاً واحداً ، فتكون فضيحة وكارثة مخيفة صاخبة مهما كانت نفسية الأستاذ طيبة... وقد طالت الثواني وهو يتعذب . «بودنبروك...» الآن سيقول :«بودنبروك...»

لكن الدكتور مانتلزاك قال : «ادجار» وطوى مفكرته على سبابته ، وتبوأ مجلسه فوق المنصة ، كما لو كان كل شيء على خير مايرام .

ماذا ؟ كيف حدث هذا ؟ ادجار... هذا اسم ليدرز ، ليدرز البدين الجالس هناك عند

النافذة ، والحرف هنا حرف اللام ، ولم يكن الدور عليه بحال من الأحوال! كلا ، أممكن هذا ؟ لقد كان الدكتور مانتلزاك من الرضى بحيث اختار كثيراً ممن يصطفيهم ، فلم يهمه بحال من الأحوال من الذي يأتي دوره حسب النظام...

ووقف ليدرز البدين ، وكان له وجه كلب صغير أفطس الأنف ، وعينان عسليتان جامدتان . ومع أنه يشغل مكاناً مؤاتياً يستطيع أن يقرأ منه في الكتاب بكل راحة ، فقد كان أبلد من أن يفعل ذلك . كان يشعر أنه آمن في فردوسه فأجاب ببساطة :«لم أستطع أمس أن أحفظ شيئاً لصداع ألم بي» .

فقال الدكتور مانتلزاك متكدراً :«أوه ، أتخذلني ياادجار ؟... أتريد ألا تسمعني شعر العصر الذهبي ؟ وأسفاه ياصديقي! أكان رأسك يؤلمك ؟ لكنت خليقاً أن تنبئني بذلك عند بدء الحصة وقبل أن أنادي عليك... ألم يلم بك الصداع أخيراً مرة من قبل ؟ كان ينبغي أن تعالجه بشيء ياادجار ، ذلك أن هناك خطراً عليك من التخلف... تيم ، أتريد أن تنوب عنه ؟ »

وجلس ليدرز بعد أن عاد في هذه اللحظة بكراهية الجميع . فقد تبينوا جلياً أن نفسية الأستاذ هبطت هبوطاً كبيراً ، وأن ليدرز قد ينادي في الحصة التالية باسم أسرته... ونهض تيم عن مقعد من أبعد المقاعد في مؤخرة الفصل ، وكان فتى أشقر ، عليه مظهر الريف ، يرتدي جاكتة بنية فاتحة ، وله أصابع قصيرة عريضة . كان فمه يتخذ شكل القمع ، ويعبر تعبيراً ينم عن حمية وحمق ، ويعدل في عنف وضع كتابه المفتوح وينظر مجهداً أمامه في استقامة... وأطرق برأسه وجعل يقرأ بصوت مديد وتير ويتوقف بين الحين والحين ، كأنه طفل يتلو في كتاب مبادئ القراء "Aurea Frima sata est aestas" .

لقد وضح أن الدكتور مانتلزاك كان يسأل في هذا اليوم ، خارجاً عن كل نظام ، وأنه لم يكن يهتم أي اهتمام بمن لم يكن امتحن من أمد طويل... فلم يعد في الراجح يهدد هانو أن ينادي اسمه ، اللهم إلا أن يقع هذا بفعل الصدفة المنحوسة . وقد تبادل مع كاي نظرة هنيئة ، وبدأ يرخي أعضاءه ويشعر بالراحة قليلاً...

وبغتة قوطع تيم في القائه . أما لأن الدكتور مانتلزاك لم يفهم الملقى حق الفهم وأما لأنه رغب في الحركة : فقد غادر المنصة وجعل يتنقل في الفصل متمهلاً وعلى هواه ، ثم وقف وكتاب أوفيد في يده أمام تيم مباشرة ، وكان قد أزاح كتابه في حركة مقتضبة خفية ، وعجز تام . كان يتنفس بصعوبة من فمه الشبيه بالقمع ، وينظر الى الأستاذ بعينين زرقاوين تشعان اخلاصاً وتنمان عن الارتباك لايستطيع لفظاً .

وقال الدكتور مانتلزاك : «والآن ياتيم... لِمَ توقفت مرة واحدة ؟ »

وأمسك تيم برأسه ، ودرجت عيناه ، وتنفس في عسر ، وقال أخيراً وعلى وجهه ابتسامة ضالة : «لقد ارتبكت حين وقفت عندي ياحضرة الدكتور! »

وابتسم الدكتور مانتلزاك ؛ ابتسم وقد أطربه ماقيل وقال : «استجمع نفسك الآن واستمر » . وعاد بذلك الى المنصة .

واستجمع تيم نفسه ، وسحب كتابه ثانية أمامه ، وفتحه وهو يجاهد لاستعادة طمأنينته في صورة ظاهرة ، وأجال بنظره في الحجرة ، ثم أطرق برأسه ، واستعاد رباطة جأشه .

وقال الأستاذ لما فرغ تيم : «إني مرتاح . لقد حفظت جيداً ، مافي ذلك شك . فقد ينقصك الاحساس بالايقاع ياتيم . إنك ملم بالروابط . ومع ذلك لم تراع في القائك الوزن السداسي . إنه ليخيل إلي أنك حفظت كل شيء على أنه نثر... لكنك كما قلت قد اجتهدت وبذلت قصاراك ، ومن يجد ويجتهد دائماً . . . يمكنك أن تجلس » .

وجلس تيم فخوراً متهلل الوجه ، ورصد له الدكتور مانتلزاك درجة مرضية خلف اسمه ، لكن الغريب أنه في هذه اللحظة لم يكن المدرس وحده بل تيم نفسه ورفاقه كافة أيضاً من رأوا مخلصين أن تيم تلميذ طيب مجتهد حقاً وصدقاً ، تلميذ استحق درجته الجيدة كل الاستحقاق . كذلك هانو بودنبروك لم يسعه أن يشذ عن هذا الرأي ، وإن كان قد شعر بأن شيئاً فيه ينفر من هذا... وعاد ينصت في انتباه الى الاسم الذي سيرن بعد ذلك...

ونادى الدكتور مانتلزاك : « مومه! مرة أخرى : Aura prima »

اذن هو مومه! شكر لله! فقد بات هانو آمناً الآن لن يكون بد من القاء الأبيات لثالث مرة ، وفي التحضير الجديد كان الدور من هنيهة على حرف الباء...

ونهض مومه ، وكان انساناً طويل القامة ، شاحب اللون ، ذا يدين مرتعشتين ونظارة مستديرة كبيرة بصورة غير عادية ، فقد كان يعاني من عينيه ، قصير النظر الى حد أنه كان محالاً أن يقرأ وهو واقف في كتاب موضوع أمامه ، فكان عليه أن يحفظ ، وقد حفظ... لكنه لم يكن موهوباً بصورة يرثى لها وكان إلى ذلك لا يعتقد أنه سينادى عليه اليوم ، لم يستذكر سوى القليل ، ثم ارتج عليه بعد الكلمات الأولى ، فأعانه الدكتور مانتلزاك على التذكر ، وساعده للمرة الثانية بصوت أكثر حدة ، وفي ثالث مرة انفعل أشد انفعال ؛ فلما لم يتحرك مومه استشاط الأستاذ غضباً .

قال : «إن هذا غير كاف يا مومه! اجلس! إنك شخص يرثى له ، تأكد من ذلك أيها الأبله! إن الغباوة والكسل أكثر مما ينبغي للطيب...»

فتهاوى مومه ، وكان منظره هو البؤس بعينه . ولم يكن في الحجرة في هذه اللحظة من لم يحتقره . ومرة أخرى شعر هانو بودنبروك بتقزز ، بنوع من غثيان النفس يخنقه... لكنه في الوقت نفسه كان يراقب بوضوح مرعب ما يجري أمامه في الفصل . فقد رسم الدكتور مانتلزاك بعنف علامة سيئة المعنى خلف مومه ، وقلب نظره في مفكرته مقطب الحاجبين ، وانتقل من غضبه الى جدول الأعمال وبحث عمن عليه الدور في الحقيقة . وكان هذا جلياً! فلما بده هانو ما تبينه كل البداهة سمع اسمه أيضاً ينادى ، سمعه وكأنه حلم مزعج .

«بودنبروك!» ـ لقد نادى الدكتور مانتلزاك «بودنبروك» وكان النداء «بودنبروك!» مايزال صداه في الجو . ومع ذلك لم يصدقه هانو وقد طنت أذناه وظل جالساً .

كانت عيناه تتَسمان بزرقة الياقوت الأزرق وتلمعان خلف زجاجة نظارته... «هل تتكرم» ؟

حسناً . إذن هذا هو المراد . وكان لابد أن يقع على خلاف ماتوقع تماماً . فالآن قد ضاع كل شيء ، وقد بات الآن في وعيه ، فهل تعلو زمجرة هائلة ؟

لقد نهض وكان بسبيل أن يقدم اعتذاراً سخيفاً مضحكاً ، بسبيل أن يقول أنه «نسي» أن يحفظ الشعر لولا أنه تبين فجأة أن التلميذ الذي يجلس أمامه أمسك له بالكتاب مفتوحاً .

وكان الجالس أمامه هانس هرمان كيليان ، فتى قصير القامة ، أسمر اللون ، دهن الشعر ، عريض المنكبين . كان يريد أن يصبح ضابطاً ، وكانت تحدوه روح الزمالة الى حد أنه لم يخذل يوهان بودنبروك الذي لم يكن يحبه . بل أنه شار له بسبابته الى الموضع الذي يبدأ عنده...

وحدق هانو فيما هنالك وشرع يقرأ بصوت مضطرب ، وهو مقطب حاجبيه وزامٌ شفتيه ، عن العصر الذهبي الذي نبت أولاً من دون «مقتصين» ، يفعل مابدا له بلا قوانين ، ثم رعى الوفاء والحق . قال باللاتينية «لم يكن القصاص والخوف قائمين ، ولم يكن يقرأ على لوحات من النحاس عبارات تهديد أو يهاب أصحاب الرجاء وجه قاضيهم...» كان يقرأ وعلى وجهه تعبير من الألم والاشمئزاز ، وكان يقرأ الرغبة في القراءة قراءة غير منسقة ، ويغفل قصداً بضع روابط مؤشراً عليها في نسخة كيليان بالقلم الرصاص ، وكان يلقي الأشعار تعتورها الأخطاء ، ويرتج عليه ، ويجاهد كما يٌظهر في المضي قدماً لايغيب

أبداً عن ذهنه أن الأستاذ سيكشف كل شيء ، وينقض عليه... وقد سببت له متعة السرقة بالنظر الى الكتاب مفتوحاً أمامه تنميلاً في جلده . لكنه كان مفعماً بالنفور ، وكان يغش متعمداً غشاً يجافيه الاتقان على قدر الامكان كي يكون الغش بذلك أقل حقارة ، ثم لزم الصمت وساد سكون لم يجرأ فيه على أن يرفع بصره ، وكان سكوناً مخيفاً . ذلك أنه كان مقتنعاً بأن الدكتور مانتلزاك رأى كل شيء ، فغاض الدم من شفتيه ، لكنه أخيراً تنهد الأستاذ وقال :

« آن يا بودنبروك* sitacuisses لعلك تغفر لي بصفة استثنائية أني لم أرفع معك الكلفة في الخطاب!... أتعرف ماذا فعلت ؟ لقد مرغت الجمال في التراب وسلكت مسلك الواندالي ، مسلك البربري! إنك مخلوق مسل يابودنبروك ، أعرف فيك هذا من أنفك! فإذا تساءلت هل كنت طيلة الوقت تسعل أو كنت تلقي شعراً رفيعاً ، ملت الى الأخذ بالرأي الأول . إن تيم لم يبد شعوراً كثيراً بالايقاع ، لكنه بالنسبة لك عبقري مذهل... اجلس أيها المنحوس لقد حفظت حقاً ، لقد حفظت . ولايسعني أن أعطيك شهادة سيئة... لقد أفرغت قصاراك... اسمع ، ألا يتحدث الناس بأنك موسيقي وأنك تعزف على البيان ؟ فكيف أمكن هذا ؟ . والآن لابأس عليك . اجلس فلعلك اجتهدت ولابأس! »

ودون له في مفكرته درجة مرضية ، وجلس هانو بودنبروك ، وكما كانت الحال من قبل مع العبقري المذهل تيم كانت الحال الآن . فإنه لم يتمالك نفسه من الشعور مخلصاً بأنه قد مس بهذا الثناء الذي تضمنته كلمات الدكتور مانتلزاك . وقد كان من رأيه في هذه اللحظة بصفة جدية أنه تلميذ غير موهوب كل الموهبة ، لكنه مجتهد ، خرج من ورطته سليم الشرف بصورة نسبية ، وشعر شعوراً جلياً بأن سائر رفاق الفصل وهانس هرمان كيليان بالمثل يرون نفس الرأي . وعاد يستشعر شيئاً كالغثيان ، لكنه كان منهوك القوى الى حد ألا يفكر فيما سلف ، فأغمض عينيه شاحباً ، مرتعشاً وأخذته سنة من النوم...

أما الدكتور مانتلزاك فقد تابع الدرس وانتقل الى الأبيات التي كانت معدة لهذا اليوم ونادى على بيترسن . فنهض بيترسن منعشاً ، طروباً ، واثقاً ، شجاعاً ، موطناً النفس على النضال ، مستعداً للمخاطرة ، ومع ذلك فقد كان سقوطه اليوم أمراً محققاً! ، فما كان ينبغي أن تمر الحصة من دون أن تقع كارثة أفدح من تلك التي وقعت لمومة المسكين القصير النظر...

---

* لو سكت

وترجم بيترس وهو يلقي بين الحين والحين نظرة على الصفحة الأخرى من كتابه ، الجانب الذي لايبغى منه شيئاً . وكان يؤدي ذلك بمهارة ، يتظاهر بأن هناك مايزعجه ، ويمر يده فوق هذا الشيء الوهمي ، وينفخه كما لو كان هباءة تضايقه أو ماشاكل ذلك ، ومع هذا فقد وقع الشيء المرعب المخوف .

فقد صدرت بغتة عن الدكتور مانتلزاك حركة عنيفة أجاب عنها بيترسن بحركة مشابهة . وفي نفس اللحظة غادر الأستاذ المنصة مهرولاً قاصداً بيترسن بخطى واسعة لاسبيل الى وقفها...

قال لما أن وصل اليه :« إن في الكتاب حلاً هو ترجمة ما فيه » .

فتلعثم بيترسن وقال :« حلا...أنا...كلا... »

وكان فتى وسيماً ، غزير الشعر أشقره يتهدل على جبينه ، ذا عينين زرقاوين جميلتين ، تضطربان الآن من الخوف .

« ليس في كتابك حل ؟ »

« كلا ياحضرة المدرس الأول... ياحضرة الدكتور... حل ؟ ليس معي في الحق حلول... إنك مخطىء... إنك تستريب بي بلا حق... » وكان بيترسن يتكلم كما لم يعتد في الحقيقة الكلام . فقد كان من أثر خوفه ، أنه كان يتخير ألفاظه ، قاصداً بذلك أن يهز الأستاذ ، قال في محنته الطاغية :« أني لاأغش... لقد كنت دائماً شريفاً... طوال حياتي! »

لكن الدكتور مانتلزاك كان واثقاً كل الثقة من هذا الأمر المحزن فقال في هدوء :« أعطني كتابك! »

فتشبث بيترسن بكتابه ورفعه متوسلاً بكلتا يديه ، ومضى يبين بلسان مفلوج :« صدقني... ياحضرة المدرس الأول... ياحضرة الدكتور... ليس في الكتاب شيء... ليس عندي حل... لم أغش... لقد كنت دائماً شريفاً... »

وأعاد الأستاذ وضرب الأرض بقدمه :« أعطني الكتاب! »

فتراخى بيترسن وحال لون وجهه أغبر وقال وهو يسلم الكتاب :« حسناً! هاهو ذا!نعم فيه حل!انظر بنفسك ، إنه فيه! لكني لم أستعمله » . صاح بهذا بغتة في الهواء .

غير أن الدكتور مانتلزاك لم يسمع هذه الأكذوبة السخيفة النادة عن يأسه . وأخرج الحل وتأمله ، ممسكاً إياه بوجه من يمسك شيئاً نتناً . ثم دفعه في جيبه ، وأعاد أوفيد الى بيترسن مزدرياً ، وطلب كراسة الفصل بصوت مكتوم . . .

فأحضره اليه أودلف توتنهاوبت بهمة ، فأثبت فيه لوماً لبيترسن على محاولة الغش ، فقضى عليه لمدة طويلة آتية ، وحال دون نقله في عيد الفصح . وقال له الدكتور مانتلزاك فوق الذي قاله : «إنك سبّة للفصل» . وعاد الى المنصة . وجلس بيترسن وقد صدر عليه الحكم ورأى الفصل كيف انزاح جاره عنه قليلاً ، ورعاه الجميع بمزيج من الاشمئزاز والعطف والرعب . فقد أسقط وهجر وحيداً هجراناً تاماً ، لأنه ضُبط متلبساً . ولم يكن ثمة في بيترسن سوى رأى واحد هو أنه سبّة للفصل حقاً . وقد سلموا بحالته بلا اعتراض ، كما سلموا بنجاح تيم وبودنبروك وسوء حظ المسكين مومة بالضبط... وقد فعل هو أيضاً ذلك .

ومن كان بين هؤلاء الفتية الخمسة والعشرين فاضلاً ، قوياً ، كفئاً للحياة كما هي ، فقد سلّم في هذه اللحظة بهذا الأمر كما هو تماماً ، ولم يشعر باهانة منه ، ووجد كل شيء بدهياً ، وعلى مايرام . لكنه كانت هناك أيضاً عينان تركزتا في تفكير عابس على نقطة بعينها... فقد كان الصغير يوهان يحدق في ظهر هانس هرمان كيليان العريض ، وكانت عيناه العسليتان الذهبيتان اللتان تحيطهما ظلال زرقاء طافحتين بالنفور والصد والخوف... بيد أن الدكتور مانتلزاك مضى يواصل الدرس... فنادى على تلميذ آخر ، أي تلميذ ، أودلف توتنهاوبت ، ذلك أنه كره اليوم كل الكراهية أن يمتحن أحداً يشك في صلاحيته . ثم أنه قد جاء دور واحد كان معتدلاً في استعداده ، وكان لايدري حتى معنى Patula Jovis arbore glandes ولا لِمَ كان على بودنبروك أن يقولها ؛ وقد قالها مخافتاً ومن دون أن يرفع بصره ، لأن الدكتور مانتلزاك سأله ، وتلقى على اجابته هزة رأس .

ولما فرغ من اجابات التلاميذ كانت الحصة قد فقدت أيضاً كل أهمية . وقد ترك الدكتور مانتلزاك أحد الموهوبين يتابع الترجمة من تلقاء نفسه ولم يعره من سمع أكثر مما أعاره الأربعة والعشرون الباقون اياه وقد أخذوا يستعدون للحصة التالية . ذلك أن هذا لم يثر اهتمام أحد . فلم يكن في الامكان اعطاء شهادة لذلك ولا الحكم به على الاجتهاد المدرسي... كذلك كانت هذه الحصة على وشك الانتهاء . بل لقد انتهت . فقد دق الجرس . وعلى هذا النحو كان ينبغي أن تجرى الأمور لهانو ، فيتلقى هزة رأس .

وقال كاي وهما يسيران وسط الرفاق الى حجرة الكيمياء عبر الطرقات الغوطية : «والآن ماذا تقول ياهانو!لو رأوا جبين قيصر يتحول... لقد أصبت حظاً عظيماً!»

فقال يوهان الصغير :«إن نفسي تغثى ياكاي . لاأريد هذا الحظ اطلاقاً ، إنه يشعرني بالغثيان...» .

كان كاي يعرف أنه كان خليقاً في موقف هانو أن يشعر شعوره بالضبط .

وكانت حجرة الكيمياء مقبوة مدرجة المقاعد ، ذات خوان كبير للاختبار ، وخزانتين مليئتين بالقوارير . وكان الهواء في الفصل الأخير ساخناً جداً ثم بات رديئاً . لكنه هنا كان مشبعاً بالهيدروجين والكبريت الذي كان يجري الاختبار عليه من هنيهة . كان كريه الرائحة إلى غير حد . وقد فتح كاي النافذة على مصراعيها . ثم سرق كراسة تبييض أودلف توتنهاوبت وأخذ ينقل منها المقرر الذي يقدم اليوم ، بسرعة كبيرة . وقد فعل هانو وسائر التلاميذ فعله مما استغرق فترة الاستراحة كلها حتى دق الجرس وظهر الدكتور ماروتسكة .

وكان هذا هو المدرس الأول العميق كما أسماه كاي وهانو . كان ربعة في الرجال قمحي اللون أصفره بصورة غير عادية ، على جبينه ورمان ، خشن اللحية قذرها ، وكذلك شعر رأسه . وكان يبدو عليه دائماً أنه من ساهري الليالي الذين لايغتسلون ، لكن هذا لم يكن صحيحاً. في الواقع ، كان يدرس العلوم الطبيعية ، لكن مادته الأصلية كانت الرياضة ، وكان في هذه المادة من أهم المفكرين . كان يحب الكلام عن المواضع الفلسفية في الانجيل ، وكان أحياناً يتواضع أمام تلاميذ الفرقتين الثانية والأولى ، حالما رضي النفس ، فيقدم اليهم تفسيرات عجيبة لمواضع مستسرة في الكتاب... هذا الى أنه كان ضابطاً احتياطياً عند المدير موليكة . وهو أكثر المدرسين تعلقاً بالدربة ومحافظة على النظام ، يعرض التلاميذ وقوفاً منتصبي القامة ، ويحدجهم بنظرة فاحصة ، ويطالبهم بالايجاز والدقة في الجواب ... وقد كان هذا المزيج من التصوف والصرامة منفراً منه بعض الشيء...

وقد قدمت التبييضات ، ودار الدكتور ماروتسكه بالتلاميذ يدق على كل كراسة باصبعه ، فكان بعض بعينه منهم ممن لم يكتبوا يقدمون له كراسات أخرى تماماً أو أعمالاً قديمة من دون أن يلحظ شيئاً .

ثم بدأ التدريس ، وكما كانت الحال من هنيهة مع أوفيد جعل الخمسة والعشرون فتى يظهرون الآن اجتهادهم المدرسي فيما يتعلق بالبورون والكلور والاسترونشيوم . وقد أثنى على هانس هرمان كيليان لأنه كان يعرف أن كبريتات الباريوم أكثر وسائط التزييف استخداماً . وقد كان خيرهم اطلاقاً لأنه كان يريد أن يصبح ضابطاً . ولم يكن هانو وكاي يعرفان شيئاً . فكان مارصده لهما الدكتور ماروتسكه في مفكرته من درجات رديئاً .

ولما فرغ من الاختبار والاستجواب واعطاء الشهادات كان اهتمام التلاميذ بحصة الكيمياء أيضاً قد زال من كل جانب . فأخذ الدكتور ماروتسكه يقوم ببضع تجارب ، ويسمع

التلاميذ بضع فرقعات ، وينشر أبخرة ملونة ، لكن هذا كان من قبيل ملء بقية الحصة . وأخيراً أملى النصاب الذي يجب أن يحفظ للمرة التالية ، ثم دق الجرس ومرت الحصة الثالثة أيضاً .

وابتهج الجميع حتى بيترسن الذي ساء حظه اليوم . ذلك أن الحصة التالية حصة مرحة ليس فيها مايخشى ولايرجى منها سوى العبث والتسلية . كانت حصة اللغة الانجليزية يعطيها مودرزون المدرس تحت التجربة في فقه اللغات ، وهو شاب يعمل بالمعهد منذ بضعة أسابيع . لكنه كما عبر الكونت كاي مولن يقدم حفلة ارتبط بها من دون أمل له في التعاقد معه ، فالأمور تجري في حصصه ميسرة مرحة...

وقد بقي بعض التلاميذ في قاعة الكيمياء ، وصعد البعض الآخر الى حجرة الفصل . لكنه لم يكن بأحد حاجة الآن إلى الارتعاش من البرد في الفناء . إذ كان للسيد مودرزون الاشراف في الطرقة أثناء فترة الاستراحة . وهو لم يكن ممن يجرؤون على انزال أحد . كذلك كان الأمر يقتضي اعداد العدة لاستقباله...

لم يحظ الفصل بأكثر من السكون الذي كان عندما دق الجرس للحصة الرابعة ، فكان الجميع يثرثرون ويضحكون ، مغتبطين بالرقص الذي كان ينتظرهم . وقد مضى الكونت مولن وهو يعتمد رأسه بين يديه في اشتغاله بروديريش أوزهر ، وجلس هانو ساكناً يشهد مايجري . وكان البعض يقلد أصوات الحيوان ، ويمزق صياح الديك الهواء . وكان ڤاسر فوجل يجلس الى الخلف ينخر كالخنزير بالضبط دون أن يدرك أحد أن هذا الصوت يصدر عن باطنه . وكان على السبورة رسم بالطباشير يمثل تصعيرة خد رسمها المدهش تيم . فلما دخل السيد مودرزون لم يستطع على الرغم مما بذل من جهد شديد أن يقفل الباب وراءه ، لأن خابورا غليظاً من خشب الزيزفون كان مدسوساً في الشق ، فكان على أودلف توتنهاوبت أن يزيله .

وكان المرشح للتدريس مودرزون رجلاً ضئيل الجسم ، عديم الهيبة ، يدفع كتفيه إلى الأمام موروباً حين يمشي ، ويقطب جبينه تقطيبة غليظة ، ويحمل لحية سوداء خفيفة ، وكان حين دخل الفصل يبدو عليه الارتباك الشديد ، يطرف دائماً بعينيه البراقتين ، ويتنفس ويفتح في تنفسه فمه كأنما يريد أن يقول شيئاً ، لكنه لم يجد الكلام اللازم ، وبعد أن خطا من الباب ثلاث خطوات وطئ حمصة مما تفقع ومن نوع نادر يحدث ضوضاء فكأنما داس على ديناميت . وقد ارتجف رجفة شديدة ثم ابتسم في ورطته وتظاهر كأنه لم يقع شيء ،

وقف أمام الصف الأول من المقاعد منحرفاً في حدبة ، واضعاً راحة يده على قرصة الدرج الأمامي . بيد أن التلاميذ كانوا يعرفون منه هذه الوقفة الأثيرة عنده ، ومن ثم كانوا يلطخون هذا الموضع من الدرج بالمداد بحيث تتلوث يد السيد مودرزون الصغيرة الخرقاء كلها . وقد اصطنع أنه لم يلحظ شيئاً ووضع يده المبللة المسودة على ظهره وقال بصوت ناعم :« إن النظام في الفصل ليس على أتمه » .

وأحبه هانو بودونبروك في هذه اللحظة ، ونظر في جمود الى وجهه المقطب من قلة الحيلة ، غير أن نخير فاسر فوجل ازداد جهارة وأضحى أكثر مطابقة للطبيعة وفجأة انهمرت حفنة من الحمص على زجاج النافذة وارتدت عنه وسقطت في الحجرة تقعقع .

وقال أحدهم بصوت مرتفع واضح : « إنه البرد يتساقط » . وبدا كأنما صدّق السيد موردزون ذلك ، لأنه انسحب بلا ابطاء الى المنصة . وطلب كراسة الفصل ولم يفعل ذلك ليدون فيه اسم أحد ، ولكنه كان مضطراً إلى أن ينادي على الأسماء من البيان المكتوب كيفما اتفق ، إذ هو لم يكن يعرف بعد أسماء التلاميذ ، اللهم إلا القليل منهم ، مع أنه درّس في هذا الفصل خمس أو ست حصص الى الآن .

فقال :« فيدرمان . هل تتفضل بالقاء القصيدة ؟ »

فصاحت طائفة مختلفة من الأصوات :« غائب » . وهو جالس على مقعده بطوله وعرضه يقذف بالحمص في طول الحجرة وعرضها .

وطرف السيد مودرزون بعينيه وتهجى اسماً آخر قال : « فاسر فوجل » .

فصاح بيترسن الذي تمتلكه فكاهة الآيس :« مات » . وبين دبيب الأقدام ونخير الخنازير ونعيق الغربان وقهقة الاستهزاء أعاد التلاميذ جميعاً أن فاسر فوجل مات .

ورمش مودرزون كرة أخرى ، وتلفت حوله ، وزم فمه زمة مريرة ، ثم نظر ثانية في كراسة الفصل مشيراً بيده الصغيرة الخرقاء الى الاسم الذي أراد أن ينادي عليه .

قال غير واثق كثيراً :« بيرلمان » .

فقال الكونت مولن في وضوح وثبات :« أصيب بالجنون للأسف » وأكد التلاميذ ذلك أجمعين بين الهتاف المتزايد .

وهنا نهض السيد مودرزون وصاح بين الضجيج :« بودنبروك ، ستؤدي لي واجباً عقاباً لك . فإذا عدت الى الضحك فلن يكون بد من تعزيرك » .

ثم عاود مجلسه . . والواقع أن بودنبروك كان قد ضحك . فقد أثارت نكتة كاي

عنده ضحكاً شديداً خافتاً لم يستطع أن يكف عنه ، إذ وجد النكتة طريفة وهزته كلمة «للأسف» بنوع خاص ، فأغرق في الضحك . لكنه لما نهره السيد مودرزون هدأ ونظر الى المرشح في سكون وعبوس ، فتبين في تلك اللحظة كل شيء فيه ، كل شعيرة تافهة في لحيته التي كانت في كل موضع منها تنم عن بشرته ؟ رأى عينيه العسليتين البراقتين اللتين لايحدوهما أمل ، رأى كأنه يحمل على يديه الصغيرتين الخرقاوين زوجين من الأساور ، لأن أكمام قميصه كانت عند معصمه في طول الأساور الحقيقية وعرضها ، رأى شخصه الذي اكتمل هزاله مستولياً عليه اليأس... واطلع أيضاً على باطنه . فقد كان هانو بودنبروك هو تقريباً الوحيد الذي يعرفه مودرزون باسمه ، فكان ينتفع بهذه المعرفة على الدوام في حثه على النظام واستكتابه الواجبات عقاباً له ورسومه الخسف . وكان يعرف التلميذ بودنبروك بشيء واحد هو أنه يتميز بمسلكه الهادئ عن الآخرين . فاستغل هذه الدعة لاشعاره دائماً بسلطته التي لم يجرؤ على تقريرها عند من يرفعون عقائرهم ومن يتواقحون . وفكّر هانو! حتى العطف تجعله الحطة مستحيلاً على الإنسان فوق هذه الأرض ، إنني لاأشترك في تعذيبك واستغلالك أيها المرشح للتدريس مودرزون ، لأني أجد هذا وحشياً ، بغيضاً ، عادياً . فبِمَ ترد علي ؟ لكن هكذا تسير الأمور ، هكذا هي ، وهكذا ستكون دائماً وفي كل مكان . وعاد الخوف يساوره والغثيان يتملكه ، عاد يخاطب المدرس تحت التمرين مودرزون في نفسه : وأن استشفك فوق ذلك بغيضاً الى هذا الحد بهذا الوضوح!...

وأخيرا وجد واحد ، لاهو ميت ، ولاهو مجنون ، أراد أن يقوم بالقاء أبيات الشعر الانجليزي التي تحتويها قصيدة عنوانها «القرد » ، عمل صبياني يُكلف بحفظه هؤلاء الفتيان الذين تتوق أنفسهم الى البحر ، والأعمال ، والنشاط الجدي في الحياة .

أيها القرد الطروب   أنت في الدنيا تهرج

وكانت ثمة عدة مقاطع تلاها التلميذ كاسباوم في كتابه . ولم يكن أحد بحاجة أمام السيد مودرزون الى أن يتكلف أقل زعم . هذا الى أن الضجيج كان يزداد شدة على الدوام وأن كل الأقدام كانت تتحرك وتنبش الأرض التربة . وكان الديك يصيح ، وينخر الخنزير ، ويتطاير الحمص ، والخمسة والعشرون تلميذاً منتشين من افلات الزمام . وقد تنبهت فيهم غرائز الفوضى التي تلازم سن السادسة عشرة والسابعة عشرة فرفعت أوراق

تحوي رسوماً بالقلم الرصاص هي أشد ماتكون بذاءة ، وأديرت عليهم فأثارت ضحكهم المتناهي...

ومرة واحدة ساد الصمت ، إذ كف المُلقي عن الإلقاء وانتصب السيد مودرزون نفسه واقفاً ، مرهفاً أذنيه ، حدث شيء لطيف ، تعالت نغمات رقيقة في صفاء رنين الأجراس من مؤخرة الحجرة وانسابت حلوة ، حنوناً ، ذات معنى في هذا السكون المفاجئ . كانت ساعة عازفة حملها أحد التلاميذ ، وكانت تعزف :«أنت ، أنت عزيزة علي» أثناء حصة الانجليزية . لكنه في نفس اللحظة التي تعالى فيها هذا اللحن الشجي وقع شيء مخيف... دهم الحضور جميعاً قاسياً ، طاغياً ، فالجاً ، لم يكن في الحسبان .

فقد فتح الباب دون طرق دفعة واحدة على سعته ، ودخلت قامة طويلة هائلة لفظت شفتاها صوتاً كالدمدمة ، ووقفت أمام المقاعد بخطوة جانبية واحدة... كانت هذه القامة للرب العزيز .

واكتسى وجه السيد مودرزون حمرة الدماء ، وجر الكرسي الساند من المنصة الى أسفل ومسحه بمنديل ، فهب التلاميذ وقوفاً رجلاً واحداً ، وضغطوا أذرعهم الى جوانبهم ، ووقفوا على أطراف أصابعهم ، وحنوا الرؤوس ، وعضوا الألسن من فرط الولاء . وساد سكون عميق لم يقطعه سوى تنهيدة من أحدهم أطلقها الجهد ثم عاد السكون .

وعرضها المدير موليكه الصفوف المحيية برهة من الزمان رفع بعدها ذراعيه بأساورهما القذرة التي تشبه القمع ، ثم أرخاهما بأصابعهما المتباعدة ، شأن المنقض على مفاتيح البيان . قال بصوت الكمان الأجهر رافعاً الكلفة في الخطاب :«اجلسوا» .

فهبط التلاميذ وقرّب السيد مودرزون الكرسي بيدين مرتعشتين ، وجلس المدير الى جانب المنصة وقال :«تفضل استمر» ورن هذا القول مرعباً كما لو كان قال :«سنرى ، والويل لمن...!»

كان جلياً لماذا حضر . فقد كان على السيد مودرزون أن يؤدي أمامه تجربة في التدريس ليرى ماذا أفاد تلاميذ الفرقة الثانية الثانوية من ست أو سبع حصص . والأمر هنا يتعلق بكيانه ومستقبله . وكان منظر المرشح للتدريس محزناً حين عاد الى الوقوف على المنصة ونادى أحد التلاميذ ليعيد القاء قصيدة «القرد» ، وإذ كان التلاميذ قبل ذلك قد امتحنوا وأبدى الرأي فيهم ، فكذلك كان المدرس في نفس الوقت قد أدى مهمته... لقد كان

حظ الاثنين سيئاً! فقد كان ظهور المدير موليكه مفاجأة ، ولم يكن أحد مستعداً ، فيما عدا اثنين أو ثلاثة . لم يكن في مقدور السيد مودرزون أن يسأل أدولف توتنهاوبت وحده طيلة الحصة وهو الوحيد الذي كان ملماً بكل شيء . فلما لم يمكن القاء «القرد» في حضرة المدير ، نزل بالفصل الكرب ؛ ولما جاء دور «ايفانهو» لم يستطع في الحقيقة سوى الكونت مولن الصغير أن يترجم قليلاً ، ذلك أنه كان معنياً بالقصة عناية خاصة . أما البقية فكانوا ينبشون بين المفردات قليلي الحيلة يسعلون ، ونودي على هانو بودنبروك فلم يستطع أن يتجاوز سطراً ، فأخرج المدير موليكه صوتا كما لو كان القوس قد مسّ أعمق وتر في الكمان الأجهر ، فاعتصر السيد مودرزون يديه الصغيرتين الخرقاوين الملطختين بالمداد وأعاد نادباً قوله : مع أنه في العادة كانت الأمور تجري ميسرة! مع أنه في العادة كانت الأمور تجرى على مايرام!

وكان مايزال يكرر هذا حين دق الجرس ، موزعاً التفاته بين التلاميذ والمدير يتملكه القنوط . لكن الرب العزيز كان واقفاً منتصباً بشكل مخيف ، شابكاً ذراعيه أمام الكرسي ، متجاوزاً الفصل ببصره الجامد ، يهز رأسه في نفور... ثم أمر باحضار كراسة الفصل ورصد متمهلاً لكل أولئك الذين كانت معلوماتهم من هنيهة ناقصة أو صفراً ، تعزيراً على كسلهم . وكانوا ستة تلاميذ أو سبعة دفعة واحدة . ولم يكن في الامكان تسجيل اسم السيد مودرزون ، لكنه مع ذلك كان أسوأ حظاً من الجميع . كان واقفاً هناك شاحباً ، كسيراً ، عديم الشأن... وقد كان هانو بودنبروك كذلك من بين من حق عليهم اللوم... وقال المدير موليكه فوق ماقال : «سأقضي على أعمالكم» . وانصرف .

ودق الجرس ، وانتهت الحصة ، وكان لابد من وقوع هذا ، والحال دائماً هكذا . فإذا ازداد خوف المرء مرت الحال تقريباً بسلام ، كأن الأمر لم يكن جداً . أما إذا لم يتوقع الشر ، فالشر يقع . وقد بات محالاً بصورة نهائية أن ينتقل هانو بودنبروك في عيد الفصح . وقد نهض عن مكانه ، وخرج من الحجرة مجهد العينين ، يحرك لسانه على ضرسه المريض .

ووافاه كاي ، وطوقه بذراعه ، وهبط معه الى الفناء وسط الرفاق المنفعلين الذين كانوا يتجادلون في هذه الحوادث غير العادية . ونظر كاي وجلا متوددا الى وجه هانو وقال له : «المعذرة ياهانو من أني ترجمت وكنت حرياً أن ألزم الصمت ، وأدعه يرصد أسمى مع الملومين! لقد كان هذا حطة أي حطة...»

فأجابه هانو :«ألم أقل أنا أيضاً من قبل معنى Patula Jovis Arbore glandes إن الأمر هكذا فعلاً ياكاي فلابأس عليك . ويجب أن ندع الأمور تجري» .

«نعم يجب ـ إذن يريد الرب العزيز أن يقضي على مستقبلك ، فلتسلم أمرك لله إذن ياهانو ، ذلك أنه إذا كانت إرادته التي لاترد ... المستقبل ، يالها من كلمة حبيبة! إن مستقبل السيد مودرزون قد ضاع أيضاً ، فلن يكون مدرساً أول ، فياله من مسكين! أجل ، يجب أن تعرف أن هناك مدرسين مساعدين ومدرسين أوائل ، لكنه ليس هناك مدرسون فقط . وليس هذا بالذي يمكن فهمه ، فهذا شأن الكبار وحدهم ، وأولئك الذين أنضجتهم الحياة . لقد كان يمكن أن يقال أن فلاناً مدرس ، وفلاناً غير مدرس ، أما أن يراد بهذا أن يكون هناك مدرس أول فهذا ما لا أفهمه ، وفي الوسع أن يتقدم المرء بهذا إلى الرب العزيز أو السيد ماروتسكه ويناقشهما فيه . فما الذي يمكن أن يحدث : سيعدان هذا إهانة منك ويحطمانك لخروجك على الطاعة على حين تكون أنت قد أبديت فهماً أعظم من فهمها لمهنتك... دعك منهما وتعال فهما يشبهان وحيد القرن» .

وسارا في الفناء يتنزهان ، وأصغى هانوا راضياً عن ذلك الذي كان كاي يبذل فيه قصاراه ليحمله على نسيان ماسجل له من ملام .

قال : «أنظر ، هنا باب ، باب فناء مفتوح ، وهناك الشارع ، فماذا لو خرجنا وجلنا قليلاً على الرصيف ؟ إنها فترة استراحة ، ولدينا بعد ست دقائق . ويمكننا أن نعود في الميعاد . لكن المسألة هي : إن هذا محال ، أفتفهم ذلك ؟ هنا الباب ، وهو مفتوح ، وليس أمامه سياج ، لاشيء ، لاعقبة تعترض ، وهذه هي العتبة ، ومع ذلك فهذا محال ، بل إن التفكير فيه محال ، ولو للخروج لثانية واحدة... فلنصرف نظراً عنه! لكن لنضرب مثلاً آخر . إنه ليكونن من الخطأ أن نقول أن الساعة الآن منتصف الثانية عشرة تقريباً . بل إن الحصة الآن هي حصة الجغرافيا ، وأنها ستنتهي على النحو السابق! وإني لأسأل كل واحد : أهذه حياة ؟ إن كل شئ معوج... آه ياالهي ، ألا يعفينا القدر من عناقه الحبيب ؟ »

«فليكن ، ثم ماذا بعد هذا ؟ كلا ، دعك ياكاي! فإن الأمر ليكونن عندئذ شبيهاً بذلك . فما الذي نبدأه ؟ هنا نحن مصونون في الاقل . فمنذ مات والدي والسيد ستيفان كستنماكر والقس برنجزهايم يسألانني كل يوم ماذا أريد أن أكون ، فلا أعرف الجواب ، ولاأستطيع أن أكون شيئاً . ذلك أني أخشى كل شيء...»

« كلا ، كيف يكون المرء بهذا الوجل ؟ أنت بموسيقاك... »

« ماهي موسيقاي ياكاي ؟ لاشيء . هل أجوب الأقطار وأعزف ؟ أولا لن يسمحوا لي بذلك ، وثانياً لن أستطيع في هذا أن أحصل على مايكفي . فأنا لاأحذق شيئاً تقريباً . كل ماأستطيع هو بعض التقاسيم إذا ماخلوت الى نفسي . ثم إني لاأتصور التجوال... إنك في هذا شيء آخر . إنك أشجع مني . إنك تجول هنا ، وتضحك من الكل ، وعندك ماتستطيع أن تقابلهم به جميعاً . إنك تريد الكتابة ، وتريد أن تقص على الناس ماهو جميل وغريب . حسن : هذا شيء وستشتهر لأنك بهذا الحذق ، فالام يرجع هذا ؟ إلى أنك أمرح نفساً . إننا أحياناً ماينظر أحدنا الى الآخر في الحصة ، كما وقع لحظة من قبل ، والسيد مانتلزاك عندنا ، حين تلقى بيترسن ، من بين جميع من قرأوا ، تعزيراً ، نفكر جميعاً تفكيراً واحداً . فأما أنت فتصعر خدك وتزهى... أما أنا فلا أستطيع ذلك ، وسوف يتعبني منه ، أني أود أن أنام فلا أرى شيئاً بعد الآن . أود أن أموت ياكاي...لا ، لا إنني لايرجى مني ولاأستطيع أن أطلب شيئاً . لاأريد حتى أن أصبح مشهوراً ، فإني أخشى الشهرة ، كأنما فيها مايسيء الي . لن أصبح شيئاً ، ثق بي . من عهد قريب قال القس برنجزهايم بعد حصة التثبيت لاحدهم يجب أن يقطع الأمل مني لأني أنتمي الى أسرة عفنة... »

فقال كاي في اهتمام بالغ :« أقال ذلك ؟ »

« نعم ، إنه يقصد به عمي كريستيان الذي ينزل في مصحة في هامبورج . ـ وهو محق بالتأكيد . ينبغي أن يقطع الأمل مني . وليدعون هذا الى امتناني! انني تنتابني هموم كثيرة ، وكل شيء شديد الوطأة علي . هب اني جرحت اصبعي ، إني تألمت في وضع ما من شيء ، إني جرحت جرحاً يلتئم عند غيري ثمانية أيام ، فإنه عندي ليستغرق أربعة أسابيع من دون أن يلتئم ، وليلتهبن ، ويسوءن ، ويسبب لي آلاماً مبرحة... وحديثاً قال لي السيد برشت أن منظر ماحول أسناني يدعو الى الأسف ، فجميعها تقريباً مقوضة نخرة فضلاً عما خلع منها . هذه حالها اليوم ، فبم أعض إذا بلغت الثلاثين أو الأربعين من عمري ألا أني لعديم الأمل » .

فقال كاي وقد أسرع في سيره :« كذا ، ألا ماقصصت علي شيئاً عن عزفك على البيان ، فإني أريد أن أكتب الآن شيئاً عجيباً ، شيئاً عجبياً... ربما شرعت في الكتابة في حصة الرسم . أو تعزف بعد الظهر ؟ »

فلزم هانو الصمت لحظة . فقد ألم بنظرته شيء كدر ، مضطرب ، حاد .

وقال :«نعم سأعزف وإن كنت خليقاً ألا أفعل . لاأستطيع إلا أن أعزف وأن ازداد به كل شيء سوءاً» .

«يزداد سوءاً ؟»

فسكت هانو .

وقال كاي :«إني أعلم مم تعزف» . وسكت كلاهما .

لقد كانا في سن عجيبة . فقد احمر وجه كاي جداً وغض بصره دون أن يطرق برأسه ، وبدا هانو شاحباً . وكان جاداً جداً ، يحول عينيه الغائمتين جانباً .

ثم دق السيد شليميل فصعدا الى فوق .

وجاءت حصة الجغرافيا ومعها الارتجال ، وكان ارتجالاً هاماً عن منطقة هسن ـ ناساو . ودخل رجل ذو لحية حمراء وسترة بنية فضفاضة ، شاحب اللون ، لاتكتسي يداه المتفتحا المسام جدا بشعرة واحدة . كان المدرس الأول السيد الأريب الدكتور ميسم ، وكان يعاني أحياناً من نزيف في الرئة ، ويتكلم دائماً بلهجة تنطوي على التهكم ، إذ كان يعتد نفسه فكها مريضاً معاً ، وكان يملك في بيته نوعاً من الوثائق يتعلق بهايني ، مجموعة من الأوراق والأشياء تتصل بالشاعر الجريء المريض ، وقد حدد الآن تخوم هسن ـ ناساو على السبورة ، ورجا التلاميذ بقوله :«ليتفضل السادة بأن يرسموا في كراساتهم مايعرض هذا القطر من أعلام!» مبتسماً ابتسامة ساخرة كئيبة في الوقت نفسه . ويظهر أنه كان يريد السخر من التلاميذ ومن ذلك القطر على السواء ، ومع ذلك فقد كان ماكلف التلاميذ به نوعاً هاماً من الارتجال كانوا يخشونه أجمعين .

أما هانو بودنبروك فلم يكن يعرف شيئاً عن هسن ـ ناساو ، ولايعرف الكثير ، أي لايعرف شيئاً . وقد أراد أن يختلس النظر الى كراسة أدولف توتنهاويت ، لكن «هينريش هايني» الذي كان على رغم تهكمه الفائق الناضح بالألم ، يراقب كل حركة بأشد انتباه لحظ مافعل هانو في الحال وقال : «ياسيد بودنبروك ، إن نفسي تسول لي أن أجعلك تقفل كراستك ، لكني أخشى كل الخشية أن أقدم لك بهذا خدمة ، فاستمر» .

وكانت هذه الملاحظة تنطوي على نكتتين : الأولى أن الدكتور ميسم خاطب هانو بالسيد والثانية «الخدمة» . بيد أن هانو بودنبروك استمر مستغرقاً في الفكر منكباً فوق كراسته ، ثم سلم آخر ورقة بيضاء تقريباً خرج بعد تقديمها مع كاي ثانية .

وقد مر في هذا اليوم كل شيء ، وطوبى لمن خرج منه موفقاً لم يثقل وعيه

تعزير . وقد أمكنه الآن أن يجلس عند السيد دريجيميلر حراً راضياً يرسم في القاعة النيرة .

وكانت قاعة الرسم رحبة مضيئة . وكان على حافة الحيطان نماذج مصبوبة من الجص على مثال قديم ، وفي خزانة كبيرة كتل منوعة من الخشب وأثاث عرائس تستخدم كذلك نماذج ، وكان السيد دريجيميلر رجلاً قصير القامة ، مستدير اللحية ، يضع على رأسه عارية شعر كستنائية ملساء رخيصة تفضح ماتحتها على القفا ، وكان يملك عاريتين واحدة طويلة الشعر وأخرى قصيرته فإذا قص شعر لحيته لبس القصيرة . وكان الى ذلك يتميز بخصائص مضحكة فبدلاً من «القلم الرصاص» يقول «الرصاص» ، تنتشر منه حيث وقف وحيث ذهب رائحة هي مزيج من الزيت والكحول . وكان البعض يقول عنه أنه يشرب بترولاً . وأجمل حصصه هي التي يدرس فيها بالنيابة عن غيره مادة غير مادة الرسم ، وعندئذ يحاضر في سياسة بسمارك محاضرة تصاحبها من أنفه وكتفه حركات دائرية ، نافذة ، لولبية ، يتناول فيها حاقداً حانقاً سياسة الديمقراطية الاشتراكية... اعتاد أن يقول للأدباء من التلاميذ وهو يقبض بيده على أذرعهم :«يجب أن نتضامن!إن الديمقراطية الاشتراكية على الأبواب!» كان به شيء تقلصي يشغله ، فيجلس الى جانب أحد التلاميذ تفوح منه رائحة كحولية شديدة ويضربه بخاتمه على جبينه ، ويلفظ كلمات مثل «المنظور» و«الظل في الضوء» و«الرصاص» و«الديمقراطية الاشتراكية» و«التضامن» ويمضي مسرعاً...

وقد أخذ كاي يكتب أدبه أثناء الحصة ، واشتغل هانو بادارة فاتحة أوركسترالية في ذهنه . وكان أيضاً أن أنزل التلاميذ أشياءهم ، وفتحت الطريق الى بوابة الفناء أمامهم ، وتوجهوا الى منازلهم .

وكان هانو وكاي يسلكان طريقاً واحدة ويتصاحبان حتى الفيلا الصغيرة الحمراء الكائنة هناك في الضاحية يحملان كتبهما تحت ابطهما ، ثم يكون على الكونت مولن أن يسير وحده شقة بعيدة الى مسكن أبيه لايرتدي معطفاً ولو مرة واحدة .

وقد حال الضباب الذي كان منتشراً في الصباح ثلجاً كان يتساقط هشائش ناعمة كبيرة ويتحول الى وحل ... وافترقا عند باب حديقة بودنبروك ، لكنه لما اجتاز هانو بالفعل نصف الحديقة الأمامية عاد كاي أدراجه وطوق بذراعيه رقبة هانو ، وقال له بصوت خافت :«لاتبتئس...... وخير ألا تعزف!» ثم اختفى شخصه النحيف الزري بين الثلج الهاطل .

وقد ترك هانو كتبه في الطرقة فوق الصحفة التي يمدها الرب أمامه ، وذهب الى حجرة الجلوس ليحيي أمه ، وكانت جالسة فوق الكرسي المديد تقرأ في كتاب أصفر الجلدة . وبينما كان يخطو فوق السجادة نظرت اليه بعينيها العسليتين المتقاربتين اللتين تحيط بمآقيها ظلال مزرقة . فلما وقف أمامها تناولت رأسه بين يديها وقبلته فوق جبينه .

وصعد الى غرفته حيث أعدت له الآنسة كليمانتين بعض الطعام فاغتسل وأكل . ولما فرغ تناول من درجه ربطة من تلك السجائر الصغيرة الروسية الحامية التي لم يعد يجهلها ، وجعل يدخن ثم جلس الى الهارمونيوم وعزف شيئاً عسيراً صارماً جداً ، شيئاً متسلسلاً لباخ ، وأخيراً شبك يديه خلف رأسه ونظر من النافذة الى الثلج المتساقط في سكون . ولم يكن هناك مايرى تحت نافذته غير ذلك ، لاحديقة منمقة ولانافورة متدفقة . وكان يقطع المنظر أمامه حائط جانبي أغبر للڤيلا المجاورة .

وفي الساعة الرابعة قدم طعام الغداء . وكانت جيردا بودنبروك والصغير يوهان والآنسة كليمانتين كل من على المائدة . واتخذ هانو فيما بعد أهبته للعزف ، وانتظر أمه على البيان ، فعزفا السوناتا رقم ٢٤ لبيتهوڤن وعند الأمهل شدت الكمان كالملائكة . ومع ذلك فقد سحبت جيردا الآلة من تحت ذقنها مستاءة وتأملتها غير راضية ، وقالت إنها غير موفقة ، وكفت عن العزف ، وصعدت الى الطابق الأعلى لتستريح .

وبقي هانو في الصالون فتقدم الى الباب الزجاجي المؤدي الى الشرفة المستطيلة ، وأرسل طرفه بضع دقائق الى الحديقة الأمامية الطرية . لكنه تراجع بغتة خطوة الى الوراء ، وجذب الستارة بعنف أمام الباب ، حتى باتت الغرفة في شبه ظلام مائل الى الصفرة ، وتوجه متأثراً الى البيان . وهناك تلبث لحظة مرة أخرى ، موجهاً نظرة الى نقطة حملق فيها من دون تركيز ، وجعلت نفسه تظلم رويداً رويداً ، وتغيم وتسبح... ثم جلس وأخذ يقسم على البيان .

كان ماعزفه موضوعاً في غاية البساطة ، عدما ، كسرا من لحن لم يوجد ، شكلاً مؤلفاً من ميزان ونصف ميزان ، فلما عزفه للمرة الأولى صوتاً واحداً في وضع عميق وبقوة ماكانت تعتقد فيه ، كأنما أريد بهذا الصوت أن تخرجه مترددات دفعة واحدة ، ليتحكم بوصفه مادة أصلية ويخرج ما يليه ، لم يكن هانو يدرك ماذا عنى به في الحقيقة . لكنه لما أعاده في الطبقة العليا في لون من النغم كرنين الفضة الباهتة وكرره منسجماً ، ظهر أنه في

جوهره يتألف من ختام فذ ، من تناه ينضح بالحنين والألم من نغمة إلى أخرى . . . وقد كان ابتكاراً هزيلاً ، قصير النفس ، اكتسب مع ذلك قيمة عجيبة ، مستسرة ، مهمة بذلك الحسم الدقيق الجليل الذي قدمه به وأداه... ثم بدأت جولات ، غدوات وروحات لترخيمات لاهوادة فيها ، مجاهدة ، تائهة ، تمزقها الصيحات كأنما هناك روح في أشد القلق مما تسمع وما لايريد أن يكف ، بل مايتكرر في انسجامات أخرى على الدوام ، متسائلاً ، شاكياً ، مجاهداً ، طالباً ، مبشراً . وكانت الترخيمات تزداد دواماً وعنفا ، تزحمها ثمانيات متعجلة لاحيلة لها معها ، وقد تشكلت مع ذلك صيحات الخوف التي تخللتها ، وتضامت ، وتحولت الى لحن . وحلت اللحظة التي تمت لها فيها السيادة قوية متواضعة كالغناء المتصاعد ملتاعاً متوسلاً من جوقة من العازفين النافخين . وقد صمت المندفع بلا توقف ، المتموج ، التائه ، المفلت ، وغلب فرن في ايقاع بسيط لاشك في بساطته ، وتوقيع كسير متعبد كأنه من أطفال... ثم انتهى بختام يشبه مايختم به في الكنائس . وجاءت القفلة وخيم السكون... وانظر ، لقد عادت الخطة الأولى ، في أتم خفوت ، وفي لون من رنين الفضة الباهتة ، هذا الابتكار الهزيل ، هذا الشكل السخيف أو المستسر ، هذا التهاوي الحلو الأليم من نغمة الى أخرى ، وهنا شبت ثورة هائلة ، وشغل حانق ، تسيطر عليه نبرات كقرع الطبول ، وتعبيرات عن تصميم قاطع . فماذا حدث ؟ ماذا كان يعد ؟ لقد رن مايشبه النفخ في البوق ايذاناً بالرحيل ، ثم حل شيء يشبه الاستنفار والتعبئة ، وتضامت ايقاعات أشد ثباتاً ، حل شكل جديد ، ارتجال جريء ، نوع من أغاني الصيد ، يشرع في شيء ويهب ، لكنه لم يكن شيئاً بهيجاً ، فقد كان في صميمه مفعماً بالتعالي ، وكانت النذر التي رنت فيه تشبه صيحات النصر ، تتكرر في ذلك الخطة الأولى الملغزة في انسجامات منحرفة ، غريبة ، معذبة ، مغيبة ، حلوة... ثم بدأ تغير متواصل لأحداث لايدرك معناه وماهيته ، هروب من مغامرات الصوت والايقاع والانسجام لم يسيطر هانو عليها ، بل كانت تتشكل تحت أصابعه ، وكان يحياها من دون أن يلم بها سلفاً... وقد جلس منحنياً قليلاً فوق المفاتيح مفتر الشفتين ، ناظراً نظرة بعيدة عميقة ، يتهدل شعره الكستنائي بخصله الناعمة حتى صدغيه . فماذا حدث ؟ ماذا خبر ؟ هل ذلل هنا عقبات كأداء ، هل صرع تنينا ، وتسلق صخراً ، وتغلب على التيارات سباحة واخترق لهباً ؟ وانسابت الخطة الأولى ، هذه الصورة العدمية ، هذا التهاوي من نغمة الى أخرى ، كالضحك المجلجل أو البشارة المسعدة بصورة غير مفهومة... أجل لقد كانت كأنما

تستحث دواما الى جهود جديدة عنيفة ، وكانت تتبعها اندفاعات خاطفة في قطاعات مثمنة تند عنها صيحات ، ثم بدأ انتفاخ وارتفاع بطيء ، متواصل ، صراع في الأعالي يحدوه شوق عنيف لايقاوم ، يقطعه بغتة بيانيسيمو مفاجيء ، مزعج حاث ، كأنه غوص الأرض تحت الأقدام أو وقوع في اشتهاء... وكان هذا في إحدى المرات كأنما تسمع من بعيد وفي خفوت الإئتلافات الأولى لصلاة فيها لوعة وفيها توسل . على أنه لم يلبث أن فاض على ذلك ، النشاز المصعد ، الذي كان عديده يتكور ، ويتدحرج الى الأمام ، ويتراجع ، ويتسلق ، ويهبط ، ثم يعود فيجاهد في سبيل غاية تنبو عن التعبير كان لابد لبلوغها ولابد من بلوغها الآن ، في هذه اللحظة ، عند هذه الذروة المخيفة ، إذ باتت هذه الشدة شيئاً لايطاق... وقد بلغت هذه الغاية ، ولم يمكن دفعها ، ولم يمكن إطالة اختلاجات الحنين . بلغت كما لو كانت استار مزقت ، وأبواب اقتحمت ، وأسيجة من شوك فتحت ، ولهب اطفئت... الحل ، الختام ، التحقق ، الإرتياح التام ـ كل هذا الحل ، وكل شيء راق وصفا ، فحال انسجاماً يفنى في انسجام ، حلواً ، شائقاً . . . لقد كان ما رنّ هو الخطة الأولى! ومابدأ الآن أيضاً ، نصراً ، لهواً مفلت الزمام من هذا الشكل الذي ارتفع في كل ظلال النغم ، وانخفض من كل الطرقات ، وانتحب ، وارتعد في النغمة الارتجافية ، وتمنى ، وهتف ، وشهق ، وظهر مصفراً في أبهة الجهاز الأوركسترالي الصاخب الرنان المتلألئ المزبد... لقد كان في عبادة هذا العدم ، تلك العبادة المنطوية على التعصب ، وفي هذه القطعة من اللحم ، وفي هذا الابتكار الوجيز الصبياني ، المنسجم ، المكون من إئتلاف ونصف إئتلاف شيء وحشي وبلادة ، وفي الوقت نفسه زهد ، ودين ، شيء كالإماء والتضحية... رذيلة في تجاوز الحد والنهم الذي ينعم به بهذا الإبتكار ويستغل ، وشيء من اليأس الأنكد ، شيء كإرادة المتعة والسقوط في الجشع الذي يمتص به منه آخر حلاوة حتى الإعياء وحتى الاشمئزاز والقرف ، حتى ينساب في النهاية بعد كل الإنحرافات إئتلاف طويل خافت في المفتاح الصغير فيرتفع نغمه وينحل في الكبير ويتلاشى في تردد آسٍ حزين .

وجلس هانو لحظة أخرى يسند ذقنه إلى صدره ، ويضع يديه في حجره ، ثم نهض واقفاً وطوى البيان . وكان شاحباً جداً ، تتخاذل ركبتاه وتلتهب عيناه ، فذهب الى الحجرة المجاورة واستلقى فوق المقعد المديد ، وبقى على هذه الحال أمداً طويلاً لا يحرك ساكناً .

وتناول فيما بعد طعام العشاء ، ولعب مع أمه بعد تناوله شوطاً في الشطرنج لم يكسبه أحد منهما ، لكنه بعد منتصف الليل كان مايزال جالساً في حجرته على ضوء شمعة أمام الهارمونيوم يعزف في فكره لأنه لم يكن يجوز له أن يحدث ضوضاء في ذلك الوقت ، وفي عزمه أن ينهض غداً من نومه في منتصف السادسة لينجز أهم أعماله المدرسية .

كان هذا يوماً من حياة يوهان الصغير .

الفصل الثالث

تتخذ حمى التيفوئيد المجرى التالي :

يشعر المرء بانحراف في مزاجه يتفاقم بسرعة ويحول قنوطاً واهناً . ويتملك المرء في الوقت نفسه وهن جسماني لا يلم بالعضلات وأطرافها فحسب ، بل يمتد أيضاً إلى وظائف الأعضاء الداخلية جميعاً ، ووظائف المعدة في جملتها فتأبى أن تتلقى الأطعمة ، كارهة ، ويحس المرء حاجة ملحة الى النوم ، لكن النوم على الرغم من التعب الخارجي يكون مضطرباً ، سطحياً ، وجلاً ، غير منعش . ويتصدع الدماغ فيخمد ويتولاه الارتباك ، كأنما يغشاه ضباب . ويصيبه دوار ، ويلم بجميع الأعضاء ألم لا يدرك كنهه ، ويسيل بين الحين والحين دم من الأنف دون مادعٍ خاص . . هذه هي المقدمة .

ثم تحدث رعشة برد شديدة تهز الجسم كله وتصطك منها الأسنان ، ايذاناً بحلول الحمى التي لاتلبث أن ترتفع الى أعلى درجة . وتظهر على جلد الصدر والبطن عندئذ بقع حمراء في حجم العدس يمكن أن تختفي تحت ضغط الإصبع لكنها تعود في الحال متى ارتفع الضغط . ويسرع نبض القلب فيصل إلى مائة في الدقيقة . على هذا المنوال ينقضي الاسبوع الأول مع حرارة للجسم تبلغ الأربعين درجة .

وفي الأسبوع الثاني يتخلص المرء من وجع الرأس وألم الأطراف . ولقاء ذلك يشتد الدوار كثيراً ، ويتملك طنين وصخب يبلغ منهما أن يثقل سمع المريض ، وينم تعبير الوجه عن الغباء ، ويأخذ الفم في أن يبقى مفتوحاً ، والعينان في أن تطوف بهما غشاوة وتيه ، ويغيم الوعي ، ويرغب المريض في النوم .

وكثيراً مايقع في غيبوبة ثقيلة ، من دون أن ينام في حقيقة الأمر . وفي خلال ذلك يملأ

الحجرة هذيانه وتخيلاته المرتفعة المتفززة ، وتبلغ قلة حيلته وتراخيه مبلغاً يؤدي به إلى القذارة وإلى النفور ، وتغطي لثته واسنانه ولسانه طبقة مسودة توبئ نفسه . ويرقد على ظهره بلا حراك ، رافعاً جسمه الأسفل ، فهو غائر في فراشه منفرج الركبتين ، كل شيء فيه يجري مسرعاً ، منطلقاً ، سطحياً ، تنفسه ونبضه على السواء ، وهو الذي يدق مائة وعشرين دقة خافتة خاطفة في الدقيقة . وتكون جفونه نصف مطبقة ، ولايعود خداه يضطرمان كما كانا في البداية أحمرين من حرارة الحمى ، بل يتخذان لوناً يضرب الى الزرقة ، وتزداد البقع الحمراء التي في حجم العدس ، المنتشرة فوق الصدر والبطن ، وتصل حرارة الجسم الى إحدى وأربعين درجة...

وفي الأسبوع الثالث يبلغ الضعف أقصاه ، ويصمت الهذيان المرتفع ولايستطيع أحد أن يقول هل غابت حواس المريض في ليل خاو ، أو استغرق في أحلام قاصية ، عميقة ، ساكنة ، غير شاعر بالألم الذي ينتهبه ، غافلاً عنه . وهي أحلام لايدل عليها شيء من صوت أو إشارة . ويرقد الجسم عديم الاحساس الى غير حد . . وهذا وقت الفصل...

وتصعب التشخيص عند أشخاص بعينهم ظروف خاصة . فإذا فرضنا على سبيل المثال أن تكون الأعراض الأولى للمرض وانحراف المزاج والوهن وانعدام الشهية والنوم المضطرب والصداع قائمة في الغالب عندما يكون المريض ، أمل ذويه ، مايزال يتنقل في صحة تامة ، فلا تكاد تلاحظ هذه الأعراض على أنها شيء غير عادي حتى مع ظهورها بغتة بصورة أبرز - فالطبيب الماهر ، الراسخ العلم ، كالدكتور لانجهالز على سبيل المثال ، الدكتور لانجهالز الوسيم الطلعة ذي اليدين الصغيرتين المشعرتين سرعان مايكون في مقدوره مع ذلك أن يسمي الأشياء بأسمائها ، فظهور البقع الحمراء على الصدر والبطن حاسم في الأمر كل الحسم . ولن يساوره شك في الإجراءات التي تتخذ والوسائل التي يلجأ إليها . وسيعنى بأن تكون حجرة المريض كبيرة على قدر الامكان ، مهواة في الغالب ، بحيث لاتتجاوز درجة الحرارة فيها سبع عشرة درجة . وسيلح في أن تكون النظافة فيها تامة ويحمي الجسم ويقيه بترتيب الفراش بين الحين والحين على قدر الإمكان ، من التجرح في الرقاد- وإنْ تعذر هذا مع طول الوقت في بعض الحالات . وسيأمر بالتنظيف الدائم لسقف الحلق بخرقة مبللة من الكتان ، ويستخدم فيما يتعلق بالدواء مزيجا من اليود واليودكاليوم ويصف الكينين والانتيبيرين ، ويوصي قبل كل شيء بحمية خفيفة جداً ، مقوية جداً ، إذ تكون المعدة

والأمعاء متأثرة كلتاهما من المرض تأثراً كبيراً . وسيقاوم الحمى المستعرة بحمامات ، حمامات كاملة ، يحمل اليها المريض غالباً كل ثلاث ساعات ، بلا انقطاع ، بالنهار وبالليل ، وتبرد ببطء عند موضع القدم في الحوض ، وبعد كل حمام يعطى المريض على عجل شيئاً مقوياً منشطاً كالكونياك والشمبانيا أيضاً .

لكنه كان يستخدم كل هذه الوسائل كيفما اتفق وفق حالة واحدة هي أن يكون لها تأثير ما ، غير أن استخدامها لايخلو من قيمة ومعنى وغاية . ذلك أنه لايعلم مايتعلق بأمر من الأمور بالذات ، فهو يتخبط في الظلام ويحوم في تردد تام حول «اما» و«أو» وحتى يحل الأسبوع الثالث ، وتتأزم الحالة ، ويتم الفصل ، لايعلم هل المرض الذي يسميه تيفوئيد يعني في هذه الحالة مصاباً غير خطير في أساسه ، ونتيجة سيئة لعدوى لعله كان يمكن تجنبها ، عدوى تعالج بالوسائل العلمية ، أو هو بكل بساطة شكل من أشكال الانحلال ، رداء الموت نفسه الذي يمكن أن يظهر كذلك في قناع آخر ولايجدي معه عشب ما .

ويجري التيفوئيد المجرى الآتي : يدعو الحياة في أحلام الحمى النائية ، في ذلك الضياع المضطرم - ضياع المريض ، وينادي عليها صوت بهيج لاسبيل الى انكاره ، ويدرك الروح في الطريق الغريب الحامي الذي تسير فيه قدماً ، والذي يفضي الى الظل ، والبرد ، والسلام ، قوياً منبهاً . ويصغي الإنسان إلى هذه المناشدة الصبوح البهيجة ، الساخرة شيئاً ما ، وهذه الدعوة الى العودة والرجوع تتناهى اليه من تلك الناحية التي كانت الشقة قد بعدت بينه وبينها ، والرجوع قد نسيها بالفعل . فهل تعتمل فيه كالشعور بنذالة اهمال الواجب ، وبالخجل ، وكالإحساس بالطاقة المتجددة والشجاعة ، والغبطة ، والحب ، والانتماء الى الحركة الساخرة الوحشية المتنوعة التي خلفها وراءه ، فيعود أدراجه ويعيش مهما بلغ تيهه وضلاله في الطريق الغريب الحامي . أما إذا ارتعد من الخوف ، ونفر من صوت الحياة الذي يسمعه ، وكان من أثر هذا التذكير ، وهذا الصوت المرح المتحدي أن يهز الانسان رأسه ويمد يده من خلفه رافضاً ، ممتنعاً ، ويفر قدماً يقطع الطريق الذي انفتح لهربه... كلا ، فالأمر بيّن وسيموت عندئذ .

الفصل الرابع

وقالت الآنسة العجوز فيشبروت للمرة المتممة للمائة ، مهمومة ، لائمة : «لايجوز هذا ، لايصح ياجيردا!» لقد تبوأت الآن ، في مساء اليوم ، في حجرة جلوس تلميذاتها السابقة مكاناً على الأريكة ، في الدائرة التي اجتمعت حول المائدة المستديرة الوسطى من جيردا بودنبروك ومدام بيرمانيدر وابنتها ايريكا والمسكينة كلوتيلدة وسيدات بودنبروك الثلاث المقيمات في الشارع العريض . وكانت تتدلى من قلنسوتها أشرطة خضراء فوق كتفيها المشبهتين أكتاف الأطفال ، اللتين كانت لابد أن ترفع إحداهما لتستطيع تحريك زندها فوق «قرصة» المائدة ، فقد بلغت من الضآلة هذا الحد في سنها البالغة الخامسة والسبعين .

وعادت تقول بصوت مرتعش متحمس :«لايجوز هذا ، فدعيني أقول لك إن هذا ليس من الخير ياجيردا! إني أقف بإحدى قدمي في القبر ، فليس في الأجل الا ذماء ، وأنت تريدين أن تتركيني... أن تتركينا... تريدين أن تنفصلي عنا الى الأبد... وترحلي... فلو كان الأمر أمر سفر ، زيارة تؤدينها لامستردام ثم تعودين... لكنه رحيل الى الأبد!»

وهزت رأسها ، رأس الطائر العجوز ، بعينيها العسليتين الهيابتين الكدرتين واستطردت تقول :«حقاً إنك فقدت الكثير ...»

فقالت مدام بيرمانيدر :«كلا ، لقد فقدت كل شيء ، فلا يصح أن نكون أنانيين ياتيريزا . إن جيردا تريد الرحيل ، وسترحل ، فلا حيلة لنا في ذلك . لقد كان مجيئها من إحدى وعشرين سنة مضت مع توماس . وقد أحببنا كليهما ، وإن بقينا في عينها دائماً بغيضين... أجل كنا ذلك ياجيردا فلا تعترضي! لكن توماس لم يعد في قيد الحياة... لم يعد

أحد في قيد الحياة... فماذا نحن في رأيها ؟ لاشيء ، إننا لنألم ، لكن سافري في رعاية الله ياجيردا ، وشكراً لك على أنك لم تسافري قبل ذلك ، حين مات توماس... »

كان هذا في الخريف بعد طعام العشاء ، وكان يوهان الصغير (يوستوس ، يوهان ، كسبار) يرقد في قبره منذ ستة أشهر تقريباً يزوده القس برنجزهايم بالمباركات ، هناك على حافة الغابة ، تحت الصليب المقام من الحجر الرملي وتحت رنك الأسرة . وكان المطر يهطل أمام البيت بين أشجار الشارع العارية من الأوراق ، وتهب أحياناً رياح تلطم به ألواح النوافذ . وكانت السيدات الثماني جميعاً يرتدين ملابس الحداد .

كان اجتماعاً عائلياً صغيراً للوداع ، وداع جيردا بودنبروك التي كانت على وشك مبارحة المدينة والعودة الى امستردام لتعزف كسابق العهد عزفها الثناني مع أبيها الشيخ . لم يعد يستبقيها التزام ، ولم يعد عند مدام بيرمانيدر ما تعترض به على هذا القرار ، فرضخت له ، لكنها كانت في الصميم شديدة الابتئاس به . فلو أن أرملة السناتور بقيت في المدينة لبقي لها مكانها ومرتبتها في المجتمع ، ولتركت ثروتها في مكانها . وظل اسم الأسرة قائماً على شيء من المكانة ... وليبق اليوم ماكان على الدوام... فإن مدام بيرمانيدر راغبة في أن تظل مرفوعة الرأس مادامت فوق هذه الأرض ومادام الناس ينظرون اليها . فلقد كان جدها تجر مركبته وهو يجوب بها أنحاء البلاد أربعة من الجياد .

وعلى الرغم من الحياة المؤثرة التي استدبرتها ومن الضعف الملم بمعدتها كان الناس لايصدقون أنها بلغت الخمسين . حقاً لقد كانت بشرتها مزغبة قليلاً ، باهتة شيئاً ما ، وعلى شفتها العليا ـ شفة الحسناء توني بودنبروك العليا ـ يزداد نمو الشعرات ، لكنه لم يكن في مفرق شعرها خيط واحد أبيض يرى .

وقد قابلت ابنة عمها كلوتيلدة المسكينة رحيل جيردا كما يقابلها كل شيء في هذه الدار الفانية براحة بال وهدوء . وقد تناولت قبل ذلك من طعام العشاء قدراً هائلاً وهي ساكتة ، وكانت تجلس الآن غبراء بلون الرماد ، هزيلة كما هي على الدوام ، يخرج كلامها ممطوطاً ودوداً .

ولم تكن ايريكا فاينشنك ، وهي الآن في الثانية والثلاثين من عمرها ، لم تكن بالمثل المرأة التي تتأثر لوداع عمتها ، فقد خبرت الحياة وفوادحها ، وبات الاستسلام في كيانها قبل الأوان . ففي عينيها المتعبتين الزرقاوين زرقة الماء ، عيني السيد جرينليش ـ كان المرء

يقرأ الرضى بحياة فاشلة مسطوراً ، وفي صوتها الهادئ ، الشاكي أحياناً قليلاً كان يرن الشيء نفسه .

أما مايتعلق بسيدات بودنبروك الثلاث ، بنات العم جونهولد ، فقد كانت ملامحهن كالعادة جادة مفعمة بالنقد ، ازدادت منهن الكبريان فريدريكة وهنرييت هزالاً وحدة مع الأيام ، بينما كانت الصغرى فيفي البالغة من العمر الثالثة والخمسين يزداد مظهرها قصراً وبدانة ...

كذلك كانت القنصلة كروجر العجوز أرملة الخال يوستوس مدعوة ، لكنها لم تكن ممن ينسجمون مع الغير ، وكانت الى ذلك غير مكلفة بأن ترتدي ثوباً لائقاً . وهذا مما يتعذر انتقاده .

كان الحديث عن سفر جيردا وعن القطار الذي انتوت السفر به ، وعن بيع الڤيلا بما تحتويه من أثاث وهو ماأخذه السمسار جوش على عاتقه . ذلك أن جيردا لم تأخذ شيئاً معها وارتحلت على نحو ماجاءت .

وعرضت مدام بيرمانيدر للكلام عن الحياة ، فتناولتها من جانبها الأهم ، وتأملت الماضي والمستقبل ، وإن لم يكن ثمة مايقال عن المستقبل .

قالت : «أجل إنني إذا ذهبت الى رحمة الله فإن لايريكا إذا شاءت أن ترحل الى مكان آخر . لكني إذا بقيت في قيد الحياة فلن أتحمل الحياة في أي مكان آخر . ما دمت حية فأريد أن نبقى هنا متواصلين بوصفنا مخلوقين متخلفين ، تأتين إليَّ مرة في الاسبوع ونتناول الطعام... ثم نقرأ في أوراق الأسرة ـ» ولمست الحافظة الموضوعة أمامها وقالت : «أجل ياجيردا ، إني لأتولاها شاكرة ـ . اتفقنا... أتسمعين ياتيلدة ؟... لاحيلة لنا في ذلك . وإن كان يمكن أن تكوني أنت التي تدعيننا ، لأنك في الواقع لم تعودي أسوأ منا حالاً . نعم ، هكذا أمور الدنيا . نتعب ونتأهب ونكافح . . . وقد جلست هنا وصبرت في انتظار كل شيء . لكنك في ذلك كنت غبية ياتيلدة . لا تأخذي على خاطرك... »

فقالت كلوتيلده تبتسم : «أوه ياتوني!»

وقالت جيردا : «يؤسفني إني لاأستطيع أن أودع كريستيان» ، وبذا تناول الكلام كريستيان ، ولم يكن ثمة أمل في خروجه ثانية من المصحة التي ينزل بها ، وإن لم تكن حالته من السوء بحيث تمنع من إطلاق سراحه . لكن حالته الراهنة هذه كانت مؤاتية كل

المؤاتاة لزوجه ، إذ كانت عما زعمت مدام بيرمانيدر حليفة للطبيب . ومن المنتظر أن يقضي كريستيان بقية أيامه في المصحة .

وسادت فترة من الصمت ثم اتجه الحديث متردداً خافتاً الى الأحداث التي وقعت أخيراً . فلما ذكر اسم يوهان الصغير ران الصمت ثانية على الحجرة ، ولم يسمع سوى صوت انهمار المطر أمام البيت أشد وقعاً مما كان .

لقد كان هناك سر باهظ يحوط بمرض هانو الأخير ، ولابدّ أنه جرى مجرى مخيفاً بصورة غير عادية ، فإن أحداً لم ينظر الى أحد أثناء الكلام عنه بصوت منخفض والتلميح اليه بعبارة مقتضبة . ثم تذكر الحضور تلك الحلقة الأخيرة... تذكروا زيارة الكونت الصغير الرث الملابس الذي شق طريقه بالقوة الى مخدع المريض... وقد ابتسم هانو لماسمع صوته ، مع أنه كان قد كف عن تعرف أحد ، وجعل كاي يقبل يديه بلا انقطاع .

وقالت سيدات بودنبروك : «لقد قبل يديه!»

«أجل ، مراراً» .

وفكر الجميع في ذلك برهة من الزمان .

وفجأة انخرطت مدام بيرمانيدر في البكاء .

قالت وهي تنتحب : «لقد أحببته حباً جماً... لاأعرف كم كنت أحبه... أكثر منكن جميعاً... غفرانك جيردا... فأنت أمه...آه ، لقد كان ملاكاً...»

وصححت زيزيمي : «إنه الآن ملك» .

ومضت مدام بيرمانيدر والدمع يجري على بشرة خديها المزغبة الباهتة : «هانو ، صغيري هانو! توم ، أبي ، جدي ، والآخرون ، الى أين ذهبتم! لم نعد نراكم . آه ، ماأقسى هذا! كم هو محزن!» .

وقالت فريديكه بودنبروك وهي تثبت يديها في حجرها ، وتخفض بصرها ، وتخز الهواء بأنفها : «إن هناك لقاء» .

«نعم ، هذا مايقال... هناك ساعات يافريدريكه لايتعزى فيها المرء ، وليجازني الله ، ساعات يضل فيها المرء ويخطىء في حق العدالة ، والطبيعة ، وكل شيء... والحياة كما تعرفن تحطم بعض مافي أنفسنا وتزعزع بعض إيماننا ... لقاء... ليته يكون...»

هنا هبت زيزيمي فيشبروت عن المائدة ووثبت الى أعلى مايمكن أن تثب ، ووقفت

على أطراف أصابعها ، ومدت عنقها ، ودقت على قرصة المائدة ، وارتعشت قلنسوتها فوق رأسها ، وقالت بكل قوتها : «هو هذا!» ونظرت الى الجميع متحدية .

وقفت هناك منتصرة في الكفاح الطيب الذي أدارت رحاه خلال ماعاشته من الحياة على الحملات التي شنها العقل من جانب معلماتها ، حدباء ، عجفاء ، ترتجف بما تؤمن به ، نبية ، صغيرة ، متحمسة ، تكيل للخاطىء الجزاء...

تمت

توماس مان

أعمال خالدة ٥

قصة آل بودنبروك تعالج موضوعات طالما شغلت حياة توماس مان وتصف تداعي الطبقة الوسطى، ورهافة حس فنانيها الذي أقعده هذا الحس المرهف عن مجابهة الحياة لما تبينه من تنافر الحياة والفكر وما اتسما به من انقسام. وتوماس مان حين يحكي يصدق، وحين يكتب يلطف ويسهب في يسر ويتهكم تهكما لذيذا ينساب في كتابته ويمتع قارئه، فهو مجتمع في «آل بودنبروك» بأكمله منفتح لفن اللغة يغمرها بأمانته في التحليل النفسي ويشيع فيها رصانته ويميزها بأمانته ودقته في نقل الإيقاع وعرض السلوك.

ISBN → 2-84305340-4
EAN → 9782843053405